القرآن والتفسير

قصة

النبي الأول آدم

جمال شاهين

منشورات المكتبة الخاصة

منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٥

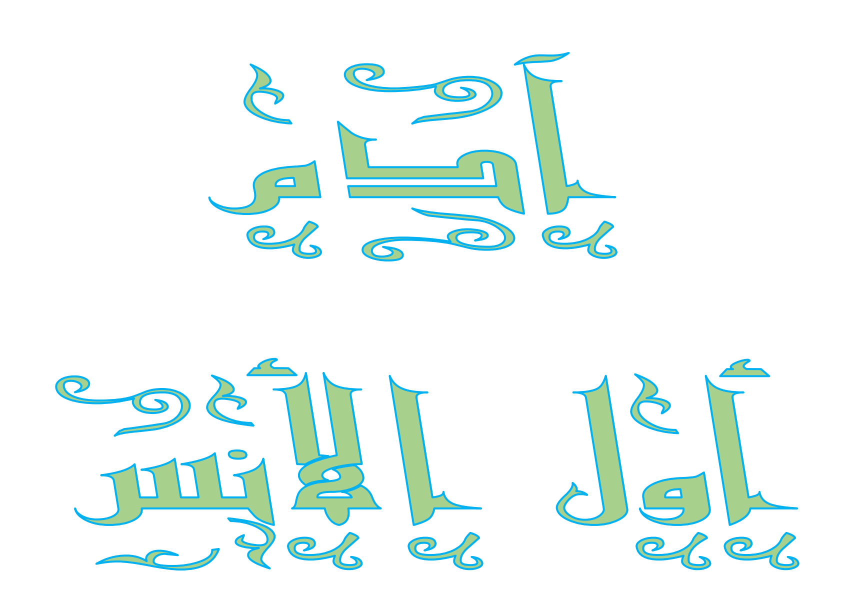
جمال شاهين

القرآن والتفسير



جمال شاهين

قصة النبي الأول



مباحث القصة

الفصل الأول

إخبار الله تعالى الملائكة بالخليفة

مولانا الله تعالى خلق السموات والأرض وما فيهما في ستة أيام ثم استوى على العرش

قال تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣)﴾ [يونس]

قال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) ﴾ [هود]

ذكر الله ﷻ خلقه للسماء والأرض في آيات كثيرة من الكتاب العظيم ، وكذلك ذكر استواءه على العرش في سبع آيات . الله تعالى خلق الملائكة . الله تعالى خلق الجن . هذه المخلوقات خلقها الله تعالى قبل الإنس ، فهو القائل :

قال تعالى ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) ﴾ [فصلت]

وقد اخبر الله العظيم في سورة آلم السجدة ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) ﴾ [السجدة]

وقال في فاطر ﴿الْحَمْدُ للهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ﴾ [فاطر: ١]

وأما الجان فقد أعلمنا ﷻ في سورة الحجر بخلقهم قبل الإنسان فقد قال ﷻ : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا

الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧)﴾ [الحجر]

وقد أتى في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها حديث خلق الملائكة والجن والإنس قال ﷺ : « خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ »

المارج : لهب النار المختلط بسواها .

وسمي الجان جانا لتواريه عن الأنظار والعيون ، وأما الخلق فاصله التقدير المستقيم ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل أو من الشيء ، وأما نار السموم فهي الريح الحارة وفيها نار .

فبعد أن أبدع الله تعالى هذه المخلوقات العظيمة أخبر الملائكة ومن يسكن في السماء أنه يريد خلق البشر لخلافة الأرض قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠] قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) ﴾ [الحجر] قال تعالى ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١)﴾ [ص] قال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ١٦٥] ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]

فالملائكة من الالوك وهي الرسالة ، والخليفة هو القائم مقام غيره وبمعنى أنه خليفة عن الله تعالى في إقامة شرعه ودلائل توحيده والحكم في خلقه أو أنه خلف من سلف في الأرض قبله، وقيل قوما يخلف بعضهم بعضا قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل

بعض أهل العلم لا يجيز أن يقول الإنسان خليفة الله سبحانه ، لأن الخليفة يكون لميت أي يخلف ميتا والله حي لا يموت أو لغائب .

وجاء في فتح الباري في قَوْلُهُ : (وَقَوْل اللَّه عَزَّ وَجَلَّ وَإِذْ قَالَ رَبُّك لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْض خَلِيفَةً) وَالْمُرَاد بِالْخَلِيفَةِ آدَم أَسْنَدَهُ الطَّبَرِيُّ مِنْ طَرِيق اِبْن سَابِطٍ مَرْفُوعًا قَالَ : وَالْأَرْض مَكَّة ، وَذَكَرَ الطَّبَرِيُّ أَنَّ مُقْتَضَى مَا نَقَلَهُ السُّدِّيُّ عَنْ مَشَايِخه أَنَّهُ خَلِيفَة اللَّه فِي الْأَرْض ، وَمِنْ وَجْه آخَر أَنَّهُمْ يَعْنُونَ بَنِي آدَم يَخْلُف بَعْضهمْ بَعْضًا ، وَمِنْ ثَمَّ قَالَتْ الْمَلَائِكَة (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا)

الْآيَةَ ، وَحَكَى الْمَاوَرْدِيّ قَوْلَيْنِ آخَرَيْنِ أَنَّهُ خَلِيفَة الْمَلَائِكَة أَوْ خَلِيفَة الْجِنّ وَكُلّ مِنْهُمَا بِنَاء عَلَى أَنَّهُ كَانَ فِي الْأَرْض مَنْ سَكَنَهَا قَبْل آدَم .

واعلم يا عبد الله أن في هذا الإخبار فوائد وحكم :

١ – فهذا تنويه وامتنان من الله تعالى لبني آدم بأنه ذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم .

٢ – وهذا إخبار من الله تعالى أنه يريد خلق جنس جديد من المخلوقات يسمى بشرا .

٣ – واخبرهم أن هذا المخلوق سيكون من سكان الأرض ويعيش في الأرض إلى أجل مسمى قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) ﴾ [الأنعام] قال تعالى ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١)﴾ [الإنسان:] البشر : البشرة ظاهر الجلد ، والأدمة باطنه ، وعبر عن الإنسان بالبشر اعتبارا بظهور جلده من الشعر بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف أو الشعر أو الوبر، والناس يتساوون في البشرية قال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤) ﴾ [الفرقان] وخص في القرآن بجثته وأما الحين : فهو الوقت ، وهو وقت بلوغ الشيء وحصوله ، وهو مبهم المعنى ويتخصص بالمضاف إليه

والدهر الزمان الطويل ، ودهر فلان مدة حياته ، وفي الفتح قَوْلُهُ : (وَمَتَاع إِلَى حِين الْحِين عِنْد الْعَرَب مِنْ سَاعَة إِلَى مَا لَا يُحْصَى عَدَده وَهُوَ هُنَا إِلَى يَوْم الْقِيَامَة)

قَالَ أَبُو عُبَيْدَة فِي قَوْله وَمَتَاع إِلَى حِين : أَيْ إِلَى وَقْت يَوْم الْقِيَامَة ، وَرَوَاهُ الطَّبَرِيُّ مِنْ طَرِيق اِبْن عَبَّاس نَحْوه .

فلما أخبر الملائكة العظام بهذا الخبر والنبأ العظيم قالوا على وجه الاستسلام والاستكشاف عن وجه الحكمة لا الاعتراض أو التنقص لبني آدم أو الحسد لأن الملائكة ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم] فهم مخلقون مفطورون على الطاعة للرحمن وعبادته وتقديسه ، ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ [البقرة: ٣٠] قد يكون الاستفهام هنا بتوفيق وإلهام الله

تعالى أو لما رأوا حال الجن الذين خلقوا قبل الإنسان وظهور فسادهم في الأرض ، فالجن مكلفون بالإيمان والعمل الصالح ، فقد قال الله العظيم في الكتاب المبين ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات] وجاء على لسانهم أو حكاية عنهم ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١)﴾ [الجن] وبعدها بآيتين من نفس السورة ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥)﴾ [الجن]

فخلاصة القول علموا أنه سيكون سفك دماء وفساد في الأرض ، فأكدوا لمولاهم العظيم أنهم عباد مخلصون وطائعون ينزهون الله تعالى ويوحدونه ويسبحون بحمده وجلاله ويطهرونه ويقدسونه عن كل نقص أو عيب ، فهم في عبادة دائمة فإذا كان المراد من هؤلاء أن يعبدوك فها نحن لا نفتر في ذلك ليلا ولا نهارا .

واعلم أن الفساد خروج الشيء من الاعتدال ، وسفك الدماء صبه وإراقته ، والتسبيح الصلاة أو سبحان الله والتعظيم والتحميد والخضوع والذل والتنزيه ، وأما التقديس بمعنى نعظمك ونكبرك أو التطهير .

فقد سئل الرسول الأكرم ﷺ عن أفضل الكلام ، فقد روى مسلم عن أبي ذر ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – سُئِلَ أَيُّ الْكَلاَمِ أَفْضَلُ قَالَ « مَا اصْطَفَى اللَّهُ لِمَلاَئِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ ».

فلما استوضح الملائكة عن الحكمة من خلق آدم وذريته وأنه سيكون فيهم سفك دماء وفساد قال العليم الحكيم الخبير ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾ [البقرة] أي أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هؤلاء مالا تعلمون ،وأنه سيوجد منهم الأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء وسكان الجنة والعلماء وغير ذلك .

العلم : إدراك الشيء بحقيقته ، وذلك إدراك ذات الشيء أو الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له أو نفي شيء هو منفي عنه ، والعلم أيضا نظري وعملي وعقلي وسمعي

العبودية : إظهار التذلل والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل ولا يستحقها إلا من له غاية

الأفضال وهو الله تعالى وقد قال تعالى ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] قال تعالىٰ ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٧٠)﴾ [ص]

النبأ : الخبر ، وفي المشار إليه قولان القرآن أو البعث والنشور ، ومعرضون : أي لا تتفكرون فيه فتعلمون صدقي في نبوتي وأن ما جئت به من الأخبار .. لم أعلمه إلا بوحي من الله ، وأما" يختصمون " في شأن آدم حين قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة] قال ابن الجوزي في التبصرة: اختلف العلماء ما المقصود بإعلام الملائكة بخلق آدم على تسعة أقوال :

١ – أنه أراد إظهار كبر إبليس ، وكان ذلك قد خفي على الملائكة لما يرون من تعبده. ابن عباس

٢ – ليبلو طاعة الملائكة قاله الحسن

٣ – أنه لما خلق الله تعالى النار جزعت الملائكة فقال " هذه لمن عصاني " فقالوا : أو يأتي علينا زمان نعصيك فيه ؟ فأخبرهم بخلق غيرهم قاله ابن زيد .

٤ – أنه أراد إظهار عجزهم عما يعلمه لأنهم قاسوا على حال من كان قبل آدم .

٥ – أن الملائكة التي طردت الجن من الأرض قبل آدم أقاموا في الأرض يعبدون فأخبرهم أني جاعل في الأرض خليفة ليوطنوا أنفسهم على العزل .

٦ – أنهم ظنوا أن الله لا يخلق خلقا أكرم منهم فأخبرهم بما يخلق .

٧ – أنه أعلمهم بما سيكون ليعلموا علمه بالحادثات .

٨ – أنه أراد تعظيم آدم بذكره قبل وجوده .

٩ – أنه أعلمهم خلقه ليسكنه الأرض وإن كان ابتداء خلقه في السماء

الفصل الثاني

خلق آدم ونفخ الروح

حين أراد المولى ﷻ خلق آدم أبا البشر كان الأمر كما أراد الله ، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾ [الأعراف]

وقد جاءت الآيات تبين هذا الخلق والأمر :

قال تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨)﴾ [الحجر] وقال ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥)﴾ [الرحمن] قال تعالى ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١)﴾ [ص] وقال ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢)﴾ [المؤمنون] ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧)﴾ [السجدة] ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦)﴾ [ص] وقال ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (١١)﴾ [الصافات] ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠)﴾ [الروم: ٢٠] ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] قال تعالى { يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥] ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [فاطر: ١١] ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [غافر: ٦٧] ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الكهف: ٣٧] ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤)﴾ [الفرقان:] ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ [النور: ٤٥]

فأصبح الماء والتراب طينا يقول الحق تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ

مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) ﴾ [الأنعام] قال تعالى ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) ﴾ [الأعراف] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ﴾ [المؤمنون] ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ﴾ [السجدة] ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦)﴾ [ص] لازب : متماسك وهو الذي يلزق بعضه ببعض .

قال فِي الفتح فِي قَوْلُهُ : (لَازِبٍ لَازِم): يُرِيد تَفْسِير قَوْله تَعَالَى : (فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ) وَقَدْ رَوَى الطَّبَرِيُّ عَنْ مُجَاهِد فِي قَوْله : (مِنْ طِينٍ لَازِبٍ) قَالَ لَازِق . وَمِنْ طَرِيق عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة عَنْ ابْن عَبَّاس قَالَ : مِنْ التُّرَاب وَالْمَاء يَصِير طِينًا يَلْزَق . وَأَمَّا تَفْسِيره بِاللَّازِمِ فَكَأَنَّهُ بِالْمَعْنَى وَهُوَ تَفْسِير أَبِي عُبَيْدَة قَالَ : مَعْنَى اللَّازِب اللَّازِم ، قَالَ النَّابِغَة " وَلَا يَحْسَبُونَ الشَّرّ ضَرْبَة لَازِب " أَيْ لَازِم .

معاني الصلصال : الطين اليابس لم تصبه النار / الطين المنتن / الطين المخلوط برمل . قال في الفتح فِي قَوْلُهُ : (صَلْصَال طِين خُلِطَ بِرَمْلٍ فَصَلْصَلَ كَمَا يُصَلْصِل الْفَخَّار) هُوَ تَفْسِير الْفَرَّاء ، هَكَذَا ذَكَرَهُ . وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَة : الصَّلْصَال الْيَابِس الَّذِي لَمْ تُصِبْهُ نَار ، فَإِذَا نَقَرْته صَلَّ فَسَمِعْتَ لَهُ صَلْصَلَة ، فَإِذَا طُبِخَ بِالنَّارِ فَهُوَ فَخَّار . وَكُلّ شَيْء لَهُ صَوْت فَهُوَ صَلْصَال الحمأ : الطين المتغير الأسود / بلّ التراب حتى صار طينا ثم ترك حتى انتن وتغير .

المسنون : المنتن المتغير الرائحة / الرطب / المصبوب / الأملس .

(وَيَتَسَنَّهُ يَتَغَيَّرُ آسِن الْمَسْنُون الْمُتَغَيِّر حَمَأ جَمْع حَمْأَة وَهُوَ الطِّين الْمُتَغَيِّر)

سلالة : سل الشيء من الشيء ، استل من كل الأرض ، النطفة استلت من الطين.

السموم : الريح الحارة وفيها نار .

قال ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ [الأعراف] ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٤] ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) ﴾ [التغابن]

فمن تكريم الله تعالى لبني آدم أنه خلق آدم بيديه ونفخ فيه من روحه ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) ﴾ [ص] ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٩) ﴾ [السجدة] ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾ [الحجر: ٢٩] قال تعالى ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) ﴾ [ص] ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء: ٣٧] ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) ﴾ [البلد]

قال في الفتح في قَوْله : (فِي كَبَدٍ فِي شِدَّة خَلْق) هُوَ قَوْل ابْن عَبَّاس أَيْضًا ، رَوَيْنَاهُ فِي تَفْسِير ابْن عُيَيْنَةَ بِإِسْنَادٍ صَحِيح ، وَزَادَ فِي آخِره " ثُمَّ ذَكَرَ مَوْلِده وَنَبَات أَسْنَانه " وَأَخْرَجَهُ الْحَاكِم فِي " الْمُسْتَدْرَك " وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَة الْكَبَد الشِّدَّة .

فكان جسدا من طين أربعين سنة ثم نفخت في الروح .

قال الإمام احمد من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ جَاءَ مِنْهُمُ الْأَبْيَضُ وَالْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ وَبَيْنَ ذَلِكَ ». ونحوه عند أبي داود والترمذي

وروى ابن حجر في الفتح وَمِمَّا لَمْ يَذْكُرهُ (يعني البخاري) مَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيُّ وَالْبَزَّار وَصَحَّحَهُ ابْن حِبَّان مِنْ طَرِيق سَعِيد الْمَقْبُرِيّ وَغَيْره عَنْ أَبِي هُرَيْرَة مَرْفُوعًا . " إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ تُرَاب فَجَعَلَهُ طِينًا ثُمَّ تَرَكَهُ ، حَتَّى إِذَا كَانَ حَمَأً مَسْنُونًا خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ ثُمَّ تَرَكَهُ ، حَتَّى إِذَا كَانَ صَلْصَالًا كَالْفَخَّارِ كَانَ إِبْلِيس يَمُرّ بِهِ فَيَقُول : لَقَدْ خُلِقْت لِأَمْرٍ عَظِيم ؛ ثُمَّ نَفَخَ اللَّهُ فِيهِ مِنْ رُوحه وَكَانَ أَوَّل مَا جَرَى فِيهِ الرُّوح بَصَره وَخَيَاشِيمه ، فَعَطَسَ فَقَالَ : الْحَمْد لِلَّهِ . فَقَالَ اللَّهُ : يَرْحَمك رَبّك " الْحَدِيث . وَفِي الْبَاب عِدَّة أَحَادِيث : مِنْهَا حَدِيث أَبِي مُوسَى مَرْفُوعًا " إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَة قَبَضَهَا مِنْ جَمِيع الْأَرْض ، فَجَاءَ بَنُو آدَم عَلَى قَدْر الْأَرْض " الْحَدِيث أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيّ وَصَحَّحَهُ ابْن حِبَّان . وَمِنْهَا حَدِيث أَنَس رَفَعَهُ " لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ تَرَكَهُ مَا شَاءَ أَنْ يَدَعهُ فَجَعَلَ إِبْلِيس يُطِيف بِهِ ؛ فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَف عَرَفَ أَنَّهُ لَا يَتَمَالَك " رَوَاهُ أَحْمَد وَمُسْلِم .

وعند الإمام احمد عن انس أن النبي ﷺ قال « لَمَّا خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدَعَهُ فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ به يَنْظُرُ إِلَيْه فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خَلْقٌ لاَ يَتَمَالَكُ ».

هذه الرواية عند احمد وعند مسلم جاءت لفظة " لما صور " بدل " لما خلق " : قَالَ « لَمَّا صَوَّرَ اللهُ آدَمَ فِى الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ .. "

وعند ابن حبان في صحيحه عن انس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : لما نفخ في آدم فبلغ الروح رأسه عطس فقال : الحمد لله رب العالمين فقال له تبارك وتعالى : يرحمك الله " وفي رواية البزار فقال : الحمد لله فقال له ربه : رحمك ربك يا آدم .

[وفي المستدرك على الصحيحين للحاكم مع تعليقات الذهبي في التلخيص - عن أنس ﷺ قال : لما نفخ في آدم الروح فبلغ الخياشيم عطس فقال : الحمد لله رب العالمين فقال الله تبارك و تعالى يرحمك الله. هذا حديث صحيح على شرط مسلم وإن كان موقوفا فإن إسناده صحيح بمرة ، تعليق الذهبي قي التلخيص : صحيح على شرط مسلم]

وفي التبصرة لابن الجوزي (ج١ ص ١٤) (لما نفخ في آدم الروح مارت فطارت فصارت في رأسه فعطس فقال : الحمد لله . فقال له الله تعالى : رحمك الله) ورواه السيوطي في جامع الأحاديث : [لما نفخ في آدم الروح مارت وطارت فصارت في رأسه فعطس فقال الحمد لله رب العالمين ، فقال الله يرحمك الله] (ابن حبان ، والحاكم عن أنس)

صحيح البخاري ..عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ « خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِه ، طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا ، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ النَّفَرِ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ جُلُوسٌ ، فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ ، فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ . فَقَالَ السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ . فَقَالُوا السَّلاَمُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِّ . فَزَادُوهُ وَرَحْمَةُ اللهِّ ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ ، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الآنَ » .

[شرح (على صورته) الضمير في صورته عائد إلى آدم والمراد أنه خلق في أول نشأته على صورته التي كان عليها في الأرض وتوفي عليها وهي طوله ستون ذراعا ولم ينتقل أطوارا كذريته وكانت صورته في الجنة هي صورته في الأرض لم تتغير] أي لم يكن نطفة وعلقة ومضغة وجنينا وطفلا

وشابا وكهلا وشيخا والله أعلم .

في مصنف ابن أبي شيبة في مسند أحمد ..عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ : يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ مُرْدًا بيضًا جعَادًا مُكَحَّلِينَ ، أَبْنَاءَ ثَلاَثٍ وَثَلاَثِينَ ، عَلَى خَلْقِ آدَمَ ، سَبْعُونَ ذرَاعًا فِي سَبْعَةِ أَذْرُعٍ. تعليق شعيب الأرناؤوط قال : حسن بطرقه وشواهده دون قوله " في سبعة أذرع " والصحيح قوله " على خلق آدم ستون ذراعا "

وجاء في الصحيح للبخاري : عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – « إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّىٍّ فِى السَّمَاءِ إِضَاءَةً ، لاَ يَبُولُونَ وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ وَلاَ يَتْفُلُونَ وَلاَ يَمْتَخِطُونَ ، أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ ، وَمَجَامِرُهُمُ الأَلُوَّةُ الأَنْجُوجُ عُودُ الطِّيبِ ، وَأَزْوَاجُهُمُ الْحُورُ الْعِينُ ، عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ ، سِتُّونَ ذِرَاعًا فِى السَّمَاءِ » . (الألوة : العود الذى يتبخر به ، المجامر : جمع مجمر وهو الذى يوضع فيه النار للبخور ، الأنجوج : لغة في العود الذى يتبخر به)

وجاء في الفتح : حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَة " خَلَقَ اللَّه آدَم وَطُوله سِتُّونَ ذِرَاعًا " كَذَا وَقَعَ مِنْ هَذَا الْوَجْه وَعَبْد اللَّه الرَّاوِي عَنْ مَعْمَر هُوَ ابْن الْمُبَارَك ، وَقَدْ رَوَاهُ عَبْد الرَّزَّاق عَنْ مَعْمَر فَقَالَ " خَلَقَ اللَّه آدَم عَلَى صُورَته وَطُوله سِتُّونَ ذِرَاعًا ، " وَهَذِهِ الرِّوَايَة تَأْتِي فِي أَوَّل الِاسْتِئْذَان ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَام عَلَى مَعْنَى هَذِهِ اللَّفْظَة فِي أَثْنَاء كِتَاب الْعِتْق ، وَهَذِهِ الرِّوَايَة تُؤَيِّد قَوْل مَنْ قَالَ إِنَّ الضَّمِير لِآدَم ، وَالْمَعْنَى أَنَّ اللَّه تَعَالَى أَوْجَدَهُ عَلَى الْهَيْئَة الَّتِي خَلَقَهُ عَلَيْهَا لَمْ يَنْتَقِل فِي النَّشْأَة أَحْوَالًا وَلَا تَرَدَّدَ فِي الْأَرْحَام أَطْوَارًا كَذُرِّيَّتِهِ بَلْ خَلَقَهُ اللَّه رَجُلًا كَامِلًا سَوِيًّا مِنْ أَوَّل مَا نَفَخَ فِيهِ الرُّوح ، ثُمَّ عَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ " وَطُوله سِتُّونَ ذِرَاعًا " فَعَادَ الضَّمِير أَيْضًا عَلَى آدَم ، وَقِيلَ مَعْنَى قَوْله " عَلَى صُورَته : أَيْ لَمْ يُشَارِكهُ فِي خَلْقه أَحَد ، إِبْطَالًا لِقَوْلِ أَهْل الطَّبَائِع . وَخُصَّ بِالذِّكْرِ تَنْبِيهًا بِالْأَعْلَى عَلَى الْأَدْنَى ، وَاَللَّه أَعْلَم

قَوْلُهُ : (سِتُّونَ ذِرَاعًا) يُحْتَمَل أَنْ يُرِيد بِقَدْرِ الذِّرَاع الْمُتَعَارَف يَوْمَئِذٍ عِنْد الْمُخَاطَبِينَ ، وَالْأَوَّل أَظْهَر لِأَنَّ ذِرَاع كُلّ أَحَد بِقَدْرِ رُبُعه فَلَوْ كَانَ بِالذِّرَاعِ الْمَعْهُود لَكَانَتْ يَده قَصِيرَة فِي جَنْب طُول

جَسَده

قَوْلُهُ : (فَكُلّ مَنْ يَدْخُل الْجَنَّة عَلَى صُورَة آدَم) أَيْ عَلَى صِفَته ، وَهَذَا يَدُلّ عَلَى أَنَّ صِفَات النَّقْص مِنْ سَوَاد وَغَيْره تَنْتَفِي عِنْد دُخُول الْجَنَّة ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَان ذَلِكَ فِي " بَاب صِفَة الْجَنَّة " وَزَادَ عَبْد الرَّزَّاق فِي رِوَايَته هُنَا " وَطُوله سِتُّونَ ذِرَاعًا " وَإِثْبَات الْوَاو فِيهِ لِئَلَّا يُتَوَهَّم أَنَّ قَوْله " طُوله " تَفْسِير لِقَوْلِهِ " عَلَى صُورَة آدَم " وَعَلَى هَذَا فَقَوْله " طُوله " إِلَخْ " مِنْ الْخَاصّ بَعْد الْعَامّ ، وَوَقَعَ عِنْد أَحْمَد مِنْ طَرِيق سَعِيد بْن الْمُسَيَّب عَنْ أَبِي هُرَيْرَة مَرْفُوعًا " كَانَ طُول آدَم سِتِّينَ ذِرَاعًا فِي سَبْعَة أَذْرُع عَرْضًا " وَأَمَّا مَا رَوَى عَبْد الرَّزَّاق مِنْ وَجْه آخَر مَرْفُوعًا " أَنَّ آدَم لَمَّا أُهْبِطَ كَانَتْ رِجْلَاهُ فِي الْأَرْض وَرَأْسه فِي السَّمَاء ، فَحَطَّهُ اللَّهُ إِلَى سِتِّينَ ذِرَاعًا " فَظَاهِره أَنَّهُ كَانَ مُفْرِط الطُّول فِي ابْتِدَاء خَلْقه ، وَظَاهِر الْحَدِيث الصَّحِيح أَنَّهُ خُلِقَ فِي ابْتِدَاء الْأَمْر عَلَى طُول سِتِّينَ ذِرَاعًا وَهُوَ الْمُعْتَمَد ، وَرَوَى ابْن أَبِي حَاتِم بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب مَرْفُوعًا " أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَم رَجُلًا طِوَالًا كَثِير شَعْر الرَّأْس كَأَنَّهُ نَخْلَة سُحُوق " .

قَوْلُهُ : (فَلَمْ يَزَلْ الْخَلْقُ يَنْقُص حَتَّى الْآن) أَيْ أَنَّ كُلّ قَرْن يَكُون نَشَأْته فِي الطُّول أَقْصَر مِنْ الْقَرْن الَّذِي قَبْله ، فَانْتَهَى تَنَاقُص الطُّول إِلَى هَذِهِ الْأُمَّة وَاسْتَقَرَّ الْأَمْر عَلَى ذَلِكَ . وَقَالَ ابْن التِّين قَوْله " فَلَمْ يَزَلْ الْخَلْق يَنْقُص " أَيْ كَمَا يَزِيد الشَّخْص شَيْئًا فَشَيْئًا ، وَلَا يَتَبَيَّن ذَلِكَ فِيمَا بَيْن السَّاعَتَيْنِ وَلَا الْيَوْمَيْنِ حَتَّى إِذَا كَثُرَتْ الْأَيَّام تَبَيَّنَ ، فَكَذَلِكَ هَذَا الْحُكْم فِي النَّقْص ، وَيَشْكُل عَلَى هَذَا مَا يُوجَد الْآن مِنْ آثَار الْأُمَم السَّالِفَة كَدِيَارِ ثَمُود فَإِنَّ مَسَاكِنهمْ تَدُلّ عَلَى أَنَّ قَامَاتهمْ لَمْ تَكُنْ مُفْرِطَة الطُّول عَلَى حَسَب مَا يَقْتَضِيه التَّرْتِيب السَّابِق ، وَلَا شَكَّ أَنَّ عَهْدهمْ قَدِيم ، وَأَنَّ الزَّمَان الَّذِي بَيْنهمْ وَبَيْن آدَم دُون الزَّمَان الَّذِي بَيْنهمْ وَبَيْن أَوَّل هَذِهِ الْأُمَّة ، وَلَمْ يَظْهَر لِي إِلَى الْآن مَا يُزِيل هَذَا الْإِشْكَال .

خلق آدم في أفضل الأيام وهو يوم الجمعة : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : أَتَيْتُ الطُّورَ فَوَجَدْتُ ثَمَّ كَعْبًا فَمَكَثْتُ أَنَا وَهُوَ يَوْمًا أُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ التَّوْرَاةِ فَقُلْتُ لَهُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ أُهْبِطَ وَفِيهِ تِيبَ عَلَيْهِ وَفِيهِ قُبِضَ وَفِيهِ تَقُومُ

السَّاعَةُ مَا عَلَى الْأَرْض منْ دَابَّةٍ إِلَّا وَهيَ تُصْبحُ يَوْمَ الْجُمُعَة مُصيخَةً حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ شَفَقًا منْ السَّاعَة إِلَّا ابْنَ آدَمَ وَفيه سَاعَةٌ لَا يُصَادفُهَا مُؤْمنٌ وَهُوَ في الصَّلَاة يَسْأَلُ اللَّهَ فيهَا شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ فَقَالَ كَعْبٌ ذَلكَ يَوْمٌ في كُلِّ سَنَةٍ فَقُلْتُ بَلْ هيَ في كُلِّ جُمُعَةٍ فَقَرَأَ كَعْبٌ التَّوْرَاةَ ثُمَّ قَالَ صَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ في كُلِّ جُمُعَةٍ

فَخَرَجْتُ فَلَقيتُ بَصْرَةَ بْنَ أَبي بَصْرَةَ الْغفَاريَّ فَقَالَ منْ أَيْنَ جئْتَ قُلْتُ منْ الطُّور قَالَ لَوْ لَقيتُكَ منْ قَبْل أَنْ تَأْتيَهُ لَمْ تَأْته قُلْتُ لَهُ وَلمَ قَالَ إِنِّي سَمعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لَا تُعْمَلُ الْمَطيُّ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَة مَسَاجدَ الْمَسْجد الْحَرَام وَمَسْجدي وَمَسْجد بَيْت الْمَقْدس فَلَقيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ فَقُلْتُ لَوْ رَأَيْتَني خَرَجْتُ إِلَى الطُّور فَلَقيتُ كَعْبًا فَمَكَثْتُ أَنَا وَهُوَ يَوْمًا أُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُول اللَّهِ ﷺ وَيُحَدِّثُني عَنْ التَّوْرَاة فَقُلْتُ لَهُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فيه الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَة فيه خُلقَ آدَمُ وَفيه أُهْبطَ وَفيه تيبَ عَلَيْه وَفيه قُبضَ وَفيه تَقُومُ السَّاعَةُ مَا عَلَى الْأَرْض منْ دَابَّةٍ إِلَّا وَهيَ تُصْبحُ يَوْمَ الْجُمُعَة مُصيخَةً حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ شَفَقًا منْ السَّاعَة إِلَّا ابْنَ آدَمَ وَفيه سَاعَةٌ لَا يُصَادفُهَا عَبْدٌ مُؤْمنٌ وَهُوَ في الصَّلَاة يَسْأَلُ اللَّهَ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ قَالَ كَعْبٌ ذَلكَ يَوْمٌ في كُلِّ سَنَةٍ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ كَذَبَ كَعْبٌ قُلْتُ ثُمَّ قَرَأَ كَعْبٌ فَقَالَ صَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ في كُلِّ جُمُعَةٍ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ صَدَقَ كَعْبٌ إِنِّي لَأَعْلَمُ تلْكَ السَّاعَةَ فَقُلْتُ يَا أَخي حَدِّثْني بهَا قَالَ هيَ آخرُ سَاعَةٍ منْ يَوْم الْجُمُعَة قَبْلَ أَنْ تَغيبَ الشَّمْسُ فَقُلْتُ أَلَيْسَ قَدْ سَمعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لَا يُصَادفُهَا مُؤْمنٌ وَهُوَ في الصَّلَاة وَلَيْسَتْ تلْكَ السَّاعَةَ صَلَاةٌ قَالَ أَلَيْسَ قَدْ سَمعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ مَنْ صَلَّى وَجَلَسَ يَنْتَظرُ الصَّلَاةَ لَمْ يَزَلْ في صَلَاته حَتَّى تَأْتيَهُ الصَّلَاةُ الَّتي تُلَاقيهَا قُلْتُ بَلَى قَالَ فَهو ذاك . سنن النسائي وهو حديث صحيح . مُصيخة أي مُسْتَمعة مُنْصتة

في مسند أحمد عَنْ سَعْد بْن عُبَادَةَ أَنَّ رَجُلاً منَ الأَنْصَار أَتَى النَّبىَّ – ﷺ – فَقَالَ أَخْبرْنَا عَنْ يَوْم الْجُمُعَة مَاذَا فيه منَ الْخَيْر قَالَ « فيه خَمْسُ خلاَلٍ فيه خُلقَ آدَمُ وَفيه هَبَطَ آدَمُ وَفيه تُوُفِّىَ آدَمُ وَفيه سَاعَةٌ لاَ يَسْأَلُ اللَّهَ عَبْدٌ فيهَا شَيْئاً إلاَّ آتَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ مَا لَمْ يَسْأَلْ مَأْثَماً أَوْ قَطيعَةَ رَحمٍ وَفيه تَقُومُ السَّاعَةُ مَا منْ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ وَلاَ سَمَاءٍ وَلاَ أَرْضٍ وَلاَ جبَالٍ وَلاَ حَجَرٍ إلاَّ وَهُوَ يُشْفقُ منْ يَوْم الْجُمُعَة ».

وفي صحيح ابن خزيمة : عن أبي هريرة قال : أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال : إن الله خلق التربة يوم السبت و خلق فيها الجبال يوم الأحد و خلق الشجر يوم الاثنين و خلق المكروه يوم الثلاثاء و خلق النور يوم الأربعاء و بث فيها الدواب يوم الخميس و خلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة آخر خلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل .

وفي مسند أبي يعلى : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَن النَّبِيّ ﷺ ، قَالَ : إنَّ اللهَّ خَلَقَ آدَمَ منْ تُرَابٍ ، ثُمَّ جَعَلَهُ طينًا ، ثُمَّ تَرَكَهُ حَتَّى إذَا كَانَ حَمَأً مَسْنُونًا ، خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ ، ثُمَّ تَرَكَهُ حَتَّى إذَا كَانَ صَلْصَالا كَالْفَخَّار ، قَالَ : فَكَانَ إبْليسُ يَمُرُّ به ، فَيَقُولُ : لَقَدْ خُلقْتَ لأَمْرٍ عَظيمٍ ، ثُمَّ نَفَخَ اللهُّ فيه رُوحَهُ ، فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ جَرَى فيه الرُّوحُ بَصَرُهُ وَخَيَاشيمُهُ ، فَعَطَسَ فَلَقَّاهُ اللهُّ حَمْدَ رَبّه ، فَقَالَ الرَّبُّ : يَرْحَمُكَ رَبُّكَ ، ثُمَّ قَالَ اللهُّ : يَا آدَمُ اذْهَبْ إلَى أُولَئكَ النَّفَر ، فَقُلْ لَهُمْ ، وَانْظُرْ مَا يَقُولُونَ ، فَجَاءَ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ ، فَقَالُوا : وَعَلَيْكَ السَّلامُ وَرَحْمَةُ اللهَّ ، فَجَاءَ رَبَّهُ ، فَقَالَ : مَاذَا قَالُوا لَكَ ؟ وَهُوَ أَعْلَمُ بمَا قَالُوا لَهُ ، قَالَ : يَا رَبّ ، لَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِمْ ، قَالُوا : وَعَلَيْكَ السَّلامُ وَرَحْمَةُ اللهَّ ، قَالَ : يَا آدَمُ ، هَذَا تَحيَّتُكَ وَتَحيَّةُ ذُرّيَّتكَ ، قَالَ : يَا رَبّ ، وَمَا ذُرّيَّتي ؟ قَالَ : اخْتَرْ يَدي يَا آدَمُ ، قَالَ : أَخْتَارُ يَمينَ رَبّي ، وَكلْتَا يَدَيْ رَبّي يَمينٌ ، فَبَسَطَ اللهُّ كَفَّهُ ، فَإذَا كُلُّ مَا هُوَ كَائنٌ منْ ذُرّيَّته في كَفّ الرَّحْمَن عَزَّ وَجَلَّ ، فَإذَا رجَالٌ منْهُمْ عَلَى أَفْوَاههمُ النُّورُ ، وَإذَا رَجُلٌ يَعْجَبُ آدَمُ منْ نُوره ، قَالَ : يَا رَبّ ، مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : ابْنُكَ دَاوُدُ ، قَالَ : يَا رَبّ ، فَكَمْ جَعَلْتَ لَهُ منَ الْعُمُر ؟ قَالَ : جَعَلْتُ لَهُ ستّينَ ، قَالَ : يَا رَبّ ، فَأَتمَّ لَهُ منْ عُمُري حَتَّى يَكُونَ عُمُرُهُ مائَةَ سَنَةٍ ، فَفَعَلَ اللهُّ وَأَشْهَدَ عَلَى ذَلكَ ، فَلَمَّا نَفدَ عُمُرُ آدَمَ ، بَعَثَ اللهُّ إلَيْه مَلَكَ الْمَوْت ، فَقَالَ آدَمُ : أَوَلَمْ يَبْقَ منْ عُمُري أَرْبَعُونَ سَنَةً ؟ قَالَ الْمَلَكُ : أَلَمْ تُعْطهَا ابْنَكَ دَاوُدَ ؟ فَجَحَدَ ذَلكَ ، فَجَحَدَتْ ذُرّيَّتُهُ ، وَنَسيَ فَنَسيَتْ ذُرّيَّتُهُ .

رواه أبو يعلى وفيه إسماعيل بن رافع قال البخاري : ثقة مقارب الحديث وضعفه الجمهور وبقية رجاله رجال الصحيح

جاء في الإبانة الكبرى لابن بطة : عن ابن عمر ، قال : « إن الله خلق بيده أربعة أشياء : آدم والقلم والعرش وجنات عدن ، واحتجب من خلقه بأربعة : بنار وظلمة ونور وظلمة ، وقال :

لسائر الخلق : كن فكان » صححه الحاكم والذهبي والألباني في مختصر العلو .

وروى الحاكم في المستدرك على الصحيحين : عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : " قيل للنبي ﷺ : متى وجبت لك النبوة ؟ قال : « بين خلق آدم ونفخ الروح فيه » وهو عند الترمذي وغيره

روى الإمام البيهقي في " معرفة السنن والآثار " عن الشافعي : قال : قال الشافعي رحمه الله : « بدأ الله جل ثناؤه خلق آدم عليه السلام ، من ماء وطين ، وجعلهما معا طهارة ، وبدأ خلق ولده من ماء دافق ، فكان في ابتدائه خلق آدم ، من الطهارتين ، اللتين هما الطهارة دلالة أن لا يبدأ خلق غيره ، إلا من طاهر لا من نجس ، ودلت سنة رسول الله ﷺ على مثل ذلك » .

هل مكث ادم عليه الصلاة والسلام أربعين عاما طينا ؟!

هذا وجد في الآثار القديمة لعله يكون حقا أو لا يكون ، فهذا خبر وليس يقينا .

بعد أن نفخت الروح في آدم عليه السلام كان خلق الذرية :

بعض روايات مسح ظهر آدم

سنن الترمذي : عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ - « لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَىْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبِيصًا مِنْ نُورٍ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ فَقَالَ أَىْ رَبِّ مَنْ هَؤُلاَءِ قَالَ هَؤُلاَءِ ذُرِّيَّتُكَ فَرَأَى رَجُلاً مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ فَقَالَ أَىْ رَبِّ مَنْ هَذَا فَقَالَ هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ دَاوُدُ. فَقَالَ رَبِّ كَمْ جَعَلْتَ عُمْرَهُ قَالَ سِتِّينَ سَنَةً قَالَ أَىْ رَبِّ زِدْهُ مِنْ عُمْرِى أَرْبَعِينَ سَنَةً. فَلَمَّا انْقَضَى عُمْرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ فَقَالَ أَوَلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِى أَرْبَعُونَ سَنَةً قَالَ أَوَلَمْ تُعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدَ قَالَ فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ وَنَسِىَ آدَمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ وَخَطِئَ آدَمُ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ ». قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَقَدْ رُوِىَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ. النسمة : النفس والروح ، الوبيص : البريق

وفي مسند أبي يعلى زيادة مهمة : فَرَأَى فِيهِمُ الْقَوِيَّ وَالضَّعِيفَ وَالْغَنِيَّ وَالْفَقِيرَ وَالْمُبْتَلَى ، قَالَ : يَا رَبِّ ، أَلا سَوَّيْتَ بَيْنَهُمْ ؟ قَالَ : أَرَدْتُ أَنْ أُشْكَرَ

وفي "تفسير ابن أبي حاتم " : عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تبارك وتعالى لما أن خلق آدم مسح ظهره ، فخرجت منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، ونزع ضلعا من أضلاعه فخلق منه حواء ثم أخذ عليهم العهد : (ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) ، ثم اختلس كل نسمة من بني آدم بنوره في وجهه ، وجعل فيه البلوى الذي كتب أنه يبتلى بها في الدنيا من الأسقام » ، ثم عرضهم على آدم فقال : يا آدم هؤلاء ذريتك وإذا فيهم الأجذم ، والأبرص ، والأعمى ، وأنواع الأسقام ، فقال آدم : يا رب لم فعلت هذا بذريتي ؟ قال : كي تشكر نعمتي يا آدم ، وقال آدم : يا رب من هؤلاء الذين أراهم أظهر الناس نورا ؟ قال : هؤلاء الأنبياء ، يا آدم من ذريتك قال : فمن هذا الذي أراه أظهرهم نورا ؟ قال : هذا داود يكون في آخر الأمم ، قال : يا رب كم جعلت عمره ؟ قال : ستين سنة ، قال : يا رب كم جعلت عمري ؟ قال : كذا وكذا ، قال : رب فزده من عمري أربعين سنة حتى يكون عمره مائة سنة ، قال : أتفعل يا آدم ؟ قال : نعم يا رب ، قال : فنكتب ونختم ؟ إنا إن كتبنا وختمنا لم نغير ، قال : فأفعل أي رب ، قال رسول الله ﷺ : « فلما جاء ملك الموت إلى آدم ليقبض روحه » ، قال : ماذا تريد يا ملك الموت ؟ ، قال : أريد قبض روحك ، قال : ألم يبق من أجلي أربعون سنة ؟ قال : أو لم تعطها ابنك داود ؟ قال : لا « قال : فكان أبو هريرة يقول : فنسي آدم ونسيت ذريته ، وجحد آدم فجحدت ذريته " ، قال ابن شعيب : أخبرني أبو حفص بن أبي العاتكة ، قال : وعمره كان ألف سنة .

وفي مسند أحمد عَنْ أَبِى الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِىِّ -ﷺ- قَالَ « خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ حِينَ خَلَقَهُ فَضَرَبَ كَتِفَهُ الْيُمْنَى فَأَخْرَجَ ذُرِّيَّةً بَيْضَاءَ كَأَنَّهُمُ الذَّرُّ وَضَرَبَ كَتِفَهُ الْيُسْرَى فَأَخْرَجَ ذُرِّيَّةً سَوْدَاءَ كَأَنَّهُمُ الْحُمَمُ فَقَالَ لِلَّذِى فِى يَمِينِهِ إِلَى الْجَنَّةِ وَلاَ أُبَالِى وَقَالَ لِلَّذِى فِى كَفِّهِ الْيُسْرَى إِلَى النَّارِ وَلاَ أُبَالِى ».

معانى بعض الكلمات : الحمم : جمع الحممة وهو الفحم والرماد وكل ما احترق من النار

وفي سنن الترمذي : عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس فقال الحمد لله فحمد الله بإذنه فقال له ربه رحمك الله يا آدم اذهب إلى أولئك الملائكة إلى

ملإ منهم جلوس فقل السلام عليكم قالوا وعليك السلام ورحمة الله ثم رجع إلى ربه فقال إن هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم فقال الله له ويداه مقبوضتان اختر أيهما شئت قال اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته فقال أي رب ما هؤلاء ؟ فقال هؤلاء ذريتك فإذا كل إنسان مكتوب عمره بين عينيه فإذا فيهم رجل أضوؤهم أو من أضوئهم قال يا رب من هذا ؟ قال هذا ابنك داود قد كتبت له عمر أربعين سنة قال يا رب زده في عمره قال ذاك الذي كتبت له قال أي رب فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة ؟ قال أنت وذاك قال ثم أسكن الجنة ما شاء الله ثم اهبط منها فكان آدم يعد لنفسه قال فأتاه ملك الموت فقال له آدم قد عجلت قد كتب لي ألف سنة قال بلى ولكنك جعلت لابنك داود ستين سنة فجحد فجحدت ذريته ونسي فنسيت ذريته قال فمن يومئذ أمر بالكتاب والشهود . قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . قال الشيخ الألباني : حسن صحيح

ولفظ صحيح ابن حبان : عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس فقال : الحمد لله فحمد الله بإذن الله فقال له ربه : يرحمك ربك يا آدم اذهب إلى أولئك الملائكة ـ إلى ملأ منهم جلوس ـ فسلم عليهم فقال : السلام عليكم فقالوا : وعليكم السلام ورحمة الله ثم رجع إلى ربه فقال : هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم وقال الله جل وعلا ـ ويداه مقبوضتان ـ : اختر أيهما شئت فقال : اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة ثم بسطهما فإذا فيهما آدم وذريته فقال : أي رب ما هؤلاء ؟ فقال : هؤلاء ذريتك فإذا كل إنسان منهم مكتوب عمره بين عينيه فإذا فيهم رجل أضوؤهم ـ أو من أضوئهم لم يكتب له إلا أربعين سنة قال : يا رب ما هذا ؟ قال : هذا ابنك داود وقد كتب الله عمره أربعين سنة قال : أي رب زده في عمره قال : ذاك الذي كتبت له قال : فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة قال : أنت وذاك اسكن الجنة فسكن الجنة ما شاء الله ثم أهبط منها وكان آدم يعد لنفسه فأتاه ملك الموت فقال له آدم : قد عجلت قد كتب لي ألف سنة قال : بلى ولكنك جعلت لابنك داود منها ستين سنة فجحد فجحدت ذريته ونسي فنسيت ذريته فيومئذ أمر بالكتاب والشهود) قال شعيب

الأرنؤوط : إسناده قوي على شرط مسلم

عَنْ مُسْلِمِ بْنِ يَسَارٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُسْأَلُ عَنْهَا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ فَأَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً فَقَالَ خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً فَقَالَ خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللهِ فَفِيمَ الْعَمَلُ قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللهَ إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُدْخِلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيُدْخِلَهُ اللهُ النَّارَ قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ وَمُسْلِمُ بْنُ يَسَارٍ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ عُمَرَ .

وفي مسند أحمد عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ « يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ مُفْتَدِياً بِهِ قَالَ فَيَقُولُ نَعَمْ. قَالَ فَيَقُولُ قَدْ أَرَدْتُ نْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِى ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لاَ تُشْرِكَ ى شَيْئاً فَأَبَيْتَ إِلاَّ أَنْ تُشْرِكَ

وفي مسند أحمد عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : أَخَذَ اللهُ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ بِنَعْمَانَ – يَعْنِي عَرَفَةَ – فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا ، فَنَثَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالذَّرِّ ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قِبَلاً قَالَ : {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ}.

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ أَخَذَ رَسُولُ اللهِ –ﷺ– بِيَدِى فَقَالَ « خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الأَحَدِ وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الاِثْنَيْنِ وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلاَثَاءِ وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ وَخَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فِى آخِرِ الْخَلْقِ وَفِى آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ

قال ابن عباس : لما نفخ فيه الروح أتته النفخة من قبل رأسه فجعلت لا تجري منه في شيء إلا صار لحما ودما .

وفي الصحيحين { عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ : إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَجْتَنِبْ الْوَجْهَ فَإِنَّ اللهَّ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَته } ق

عَنْ سَعِيدٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ إِذَا ضَرَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَجَنَّبْ الْوَجْهَ وَلَا تَقُلْ قَبَّحَ اللهَّ وَجْهَكَ وَوَجْهَ مَنْ أَشْبَهَ وَجْهَكَ فَإِنَّ اللهَّ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَته } احمد

التصوير : الشكل . التسوية : عدلت صورته وأتممت خلقته . الروح : الروح التي يحيا به الإنسان وإنما سمي إجراء الروح فيه نفخا لأنها جرت في بدنه على مثل جري الريح فيه . فقعوا : أمر من الوقوع .

الفصل الثالث

تعليم آدم وعرضه على الملائكة

بعد أن خلق الله تعالى آدم ونفخ فيه الروح ، وقد أصبح بشرا يسمع ويرى ويتكلم ويعقل علمه الأسماء كلها وذلك في سورة البقرة حيث قال الله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)﴾ [البقرة] معنى آدم لأنه خلق من أديم الأرض / انه من الأدمة في اللون .

الأسماء : علمه كل الأسماء ، واختار ابن جرير أنه علمه أسماء الملائكة وأسماء الذرية لأنه قال (ثم عرضهم) عبارة عما يعقل ، وقال ابن كثير وهذا الذي رجح ليس بلازم .

وَآدَم اسْم سُرْيَانِيّ وَهُوَ عِنْد أَهْل الْكِتَاب آدَام ..، وَامْتَنَعَ صَرْفه لِلْعُجْمَةِ وَالْعَلَمِيَّة . وَقَالَ الثَّعْلَبِيّ التُّرَاب بِالْعِبْرَانِيَّةِ آدَامَ فَسُمِّيَ آدَم بِهِ ، وَقِيلَ هُوَ عَرَبِيّ جَزَمَ بِهِ الْجَوْهَرِيّ وَالْجُوَالِيقِيُّ . وَقِيلَ هُوَ بِوَزْنِ أَفْعَل مِنْ الْأُدْمَة وَقِيلَ مِنْ الْأَدِيم لِأَنَّهُ خُلِقَ مِنْ أَدِيم الْأَرْض وَهَذَا عَنْ ابْن عَبَّاس ، وَوَجَّهُوهُ بِأَنْ يَكُون كَأَعْيَن وَمَنْع الصَّرْف لِلْوَزْنِ وَالْعَلَمِيَّة ، وَقِيلَ هُوَ مِنْ أَدَمْت بَيْن الشَّيْئَيْنِ إِذَا خَلَطْت بَيْنهمَا لِأَنَّهُ كَانَ مَاء وَطِينًا فَخُلِطَا جَمِيعًا .

وفي صحيح البخاري من كتاب التفسير { عَنْ أَنَسٍ – ﷺ – عَنِ النَّبِىِّ ﷺ . قَالَ « يَجْتَمِعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُونَ لَوِ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ أَنْتَ أَبُو النَّاسِ ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلاَئِكَتَهُ ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَىْءٍ ، فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا . فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ – وَيَذْكُرُ ذَنْبَهُ فَيَسْتَحِى – ائْتُوا نُوحاً فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ . فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ . وَيَذْكُرُ سُؤَالَهُ رَبَّهُ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ فَيَسْتَحِى ، فَيَقُولُ ائْتُوا خَلِيلَ الرَّحْمَنِ فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ ، ائْتُوا مُوسَى عَبْداً كَلَّمَهُ اللَّهُ وَأَعْطَاهُ التَّوْرَاةَ فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ . وَيَذْكُرُ قَتْلَ النَّفْسِ بِغَيْرِ نَفْسٍ فَيَسْتَحِى مِنْ رَبِّهِ فَيَقُولُ ائْتُوا عِيسَى

عَبْدَ اللهِّ وَرَسُولَهُ ، وَكَلِمَةَ اللهِّ وَرُوحَهُ . فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ ، ائْتُوا مُحَمَّداً ﷺ عَبْداً غَفَرَ اللهُّ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِه وَمَا تَأَخَّرَ . فَيَأْتُونِى فَأَنْطَلِقُ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ عَلَى رَبِّى فَيُؤْذَنُ { لِى } فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّى وَقَعْتُ سَاجِداً ، فَيَدَعُنِى مَا شَاءَ اللهُّ ثُمَّ يُقَالُ ارْفَعْ رَأْسَكَ ، وَسَلْ تُعْطَهْ ، وَقُلْ يُسْمَعْ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ . فَأَرْفَعُ رَأْسِى فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيه ، ثُمَّ أَشْفَعُ ، فَيَحُدُّ لِى حَدًّا ، فَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ، ثُمَّ أَعُودُ إِلَيْه ، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّى – مِثْلَهُ – ثُمَّ أَشْفَعُ ، فَيَحُدُّ لِى حَدًّا ، فَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ { ثُمَّ أَعُودُ الثَّالِثَةَ } ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَقُولُ مَا بَقِىَ فِى النَّارِ إِلاَّ مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ وَوَجَبَ عَلَيْه الْخُلُودُ » . قَالَ أَبُو عَبْد اللهِّ « إِلاَّ مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ » . يَعْنِى قَوْلَ اللهِّ تَعَالَى (خَالِدِينَ فِيهَا) .

ولما تعلم آدم الأسماء كلها (ثم عرضهم) المسميات (على الملائكة) (فقال أنبئوني) اخبروني بهذه المسميات المعروضة أمامكم (بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) ، الله تعالى يريد أن يبين للملائكة عجزهم في معرفة الغيب ومعرفة أسرار الخلق وما قرروه من سفك الدماء والفساد في الأرض ، ويريد إعلامهم بعلم آدم عليهم وفضله الكبير عليهم فقالوا أمام عجزهم عن معرفة الأسماء المعروضة عليهم[قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) ﴾ اقروا بعلم الله الشامل الكامل وبحكمته فيما يفعل ويعلم ، ونزهوه عن النقص والعيب واعترفوا بأن علمهم هو ما تعلموه منه سبحانه وتعالى وأطلعهم عليه من العلم فأمام اعترافهم بعلمهم المحدود والقليل أمام علم الله تعالى الكامل والشامل والمحكم طلب الله من عبده آدم أن يخبرهم بأسماء هذه الأشياء المسميات فلبى آدم ذلك واخبرهم بهذه المسميات وقيل اخبر بأسماء الملائكة أنفسهم فلما ظهر فضل آدم عليه السلام على الملائكة عليهم السلام في سرده ما علمه الله تعالى من أسماء الأشياء قال الله قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)﴾

فبين الله علمه للظاهر والباطن السر وأخفى والذي أبدوه من الفساد وسفك الدماء ، والذي كتموه ما أضمره إبليس لأدم من الحسد والكبر وقيل ما كتموه من علمهم وكرمه على الخليفة

المنتظر فعرفوا أن الله فضل آدم عليهم بالعلم والكرم وقد سبق من الله تعالى ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣)﴾ [السجدة]

الفصل الرابع

تكريم آدم وبني آدم

أكرم الله تعالى آدم بأشياء منها خلقه في أحسن تقويم، وصوره فأحسن صوره ، وقد خلقه بيديه ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) ﴾ [ص] قال ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ [الأعراف] ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٤] ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) ﴾ التغابن قال تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ﴾ [التين] ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠) ﴾ [الإسراء] ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠)﴾ [الحجر: ٣٠] ﴾ ونحوها في ص ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) ﴾ [ص] ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ﴾ [آل عمران] ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١] ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ [البقرة: ٣٥]

معاني اصطفى : اختار فجعلهم صفوة خلقه

أحسن تقويم : أحسن صورة وشكل منتصب القامة ، سوى الأعضاء فحسنها

في المستدرك على الصحيحين للحاكم : عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: " خَلَقَ اللَّهُ أَرْبَعَةَ أَشْيَاءٍ بِيَدِهِ: الْعَرْشَ، وَجَنَّاتِ عَدْنٍ، وَآدَمَ، وَالْقَلَمَ، وَاحْتَجَبَ مِنَ الْخَلْقِ بِأَرْبَعَةٍ: بِنَارٍ، وَظُلْمَةٍ، وَنُورٍ، وَظُلْمَةٍ «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ» تعليق الذهبي في التلخيص : صحيح

مختصر العلو للعلي العظيم: حديث مُجَاهدٌ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: خَلَقَ اللَّهُ أَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ بِيَدِهِ: الْعَرْشَ وَالْقَلَمَ وَآدَمَ وَجَنَّةَ عَدْنٍ، ثُمَّ قَالَ لِسَائِرِ الْخَلْقِ: كُنْ، فَكَانَ. اسْنَادُهُ جَيِّدٌ

الفصل الخامس

سجود الملائكة

الخالق ﷻ عندما خلق آدم أبا البشر ونفخ فيه من روحه أراد إكرامه وتشريفه، و تكريما وتشريفا لهذا المخلوق الجديد أمر الملائكة بالسجود له فضلا ومنا وإحسانا واختبارا لملائكته وسكان سماواته فهو القائل في محكم التنزيل في الحجر وص: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠)﴾ [الحجر: ٣٠] ﴿ ﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ [البقرة: ٣٤] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ [الأعراف: ١١] ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ [الإسراء: ٦١] ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ [الكهف: ٥٠] ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ [طه: ١١٦] ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]

وفي صفة السجود لآدم أنه على صفة سجود الصلاة، وقيل إنه الانحناء والميل المساوي للركوع، وحديث الشفاعة الذي مر ذكره به إثبات السجود لآدم وهو مما امتن به الله تعالى على آدم وذريته، وحديث موسى ﷺ حديث الاحتجاج بالقدر الذي جاء فيه { قال أنت آدم الذي خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه واسجد له ملائكته } وسيأتي إن شاء الله تعالى

الفصل السادس

عصيان إبليس وعداوته لبني آدم

كان يعيش بين الملائكة جنيا اسمه إبليس، فلما جاء الأمر الإلهي بالسجود لآدم فما كان من هذا الجني إلا أن رفض الأمر وعصى الله وتكبر وكفر وفسق وظلم وحسد آدم وذريته .

قال تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) ﴾ [البقرة] ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) ﴾ [الأعراف] ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) ﴾ [الإسراء] ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠] ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (١١٦) ﴾ [طه] ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣)﴾ [الحجر] ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) ﴾ [ص]

قيل إبليس اسم أعجمي غير مشتق وقيل مشتق من الإبلاس وهو اليأس ، وقد آيس اللعين من رحمة الله وآيس من الخير كله .

معاني : أبى : امتنع .. استكبر من الكبر. وكان من الكافرين : صار من الكافرين .

ففسق عن أمر ربه : خرج عن طاعة ربه ، فلما أمر فعصى .

فلما أبى وامتنع إبليس الشيطان الأكبر من تنفيذ أمر الله ، ومشاركة الملائكة في السجود لأدم ، وطاعة الله تعالى فيما أمر ، جرى حوار بين الرب ﷻ وبين إبليس الرجيم وكان الحوار :

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف: ١٢] { قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) } ﴿ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)﴾ [ص] استكبرت أي استكبرت بنفسك حين أبيت السجود أم أنت من قوم يتكبرون فتكبرت عن السجود لكونك من قوم يتكبرون .

ما منعك : ما حملك وقيل ما الذي صدك وحملك على ترك ذلك .

فرد إبليس الرجيم على استفهام رب العالمين قائلا :

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) ﴾ [الأعراف] ﴿ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣)﴾ [الحجر] قال تعالى ﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) ﴾ [الإسراء] ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) ﴾ [ص]

أمام هذا العلو والتكبر ومنازعة الله في صفة الكبرياء غضب الله تعالى على إبليس وجعله رجيما وملعونا

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥)﴾ [الحجر] ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) ﴾ [ص] قال تعالى ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ [النساء] ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣)﴾ [الأعراف]

معاني : اهبط منها : قيل الجنة ، وقيل المنزلة التي كانت له في الملكوت الأعلى . الصاغرين : الذليلين الحقيرين . الرجيم : المرجوم المطرود عن الخيرات وعن الملأ الأعلى بالذم واللعن .

اللعن : الطرد من رحمة الله .

فلما سمع الحكم الفصل من ربه فما كان أمام ذلك المتكبر عندما سمع حكم الله تعالى بلعنه وطرده مما كان فيه من النعيم والعافية إلا أن قال : ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) ﴾ [الأعراف] قال تعالى ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الحجر] ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) ﴾ [ص] ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) ﴾ [الإسراء]

الشيطان إبليس – كما سماه القرآن الكريم – يرجو الله ﷻ ويدعوه أن يمهله ويؤخره ليوم القيامة أي لا يموت حتى يستطيع الانتقام من آدم وذريته .. فهو يقر بربوبيته تعالى ، ولم ينكر وجود الله تعالى وأنه مخلوق مربوب لله تعالى .

معنى : أنظرني : أمهلني وأخرني . هنا يتضمن الإمهال إشارة إلى معرفة إبليس أن هناك يوم بعث وحساب وثواب وعقاب ، ويطلب من الله أن يبعد الموت عنه إلى ذلك اليوم الموعود .

أرايتك : والمعنى اخبرني عن هذا الذي كرمت عليّ لم كرمته عليّ وقد خلقتني من نار .. فحذف هذا لأن في الكلام دليلا عليه .

وليكون الصراع بين الخير والشر في هذه الأرض ، وإبليس قائد الشر مع زبانيته أمهله العليم الحكيم إلى يوم يبعثون حتى يكون للجنة أهلها بقيادة الأنبياء والمرسلين ، ويكون للنار أهلها بزعامة إبليس وذريته من الشياطين ومن سار على نهجهم من بني آدم والجن فقال المولى سبحانه وتعالى : ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (١٥) ﴾ [الأعراف: ١٥] قال تعالى ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨)﴾ [الحجر] ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١)﴾ [ص]

أجابه الله تعالى إلى ما سأل لما في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع ولا معقب لحكمه .

الوقت المعلوم : المعلوم بموت الخلائق فيه وهو وقت النفخة الأولى . السلطان : الحجة / القهر والغلبة .

فلما حصل اللعين على الإمهال من رب العالمين أقسم بعزة الله تعالى أن يغوي بني آدم ويفتنهم حتى يكونوا معه في الجحيم في نار جهنم فجاء تعهده : ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص] ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) ﴾ [الإسراء]

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) ﴾ [الأعراف] ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) ﴾ [الحجر:] ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠) ﴾

[النساء] معاني : أغويتني : كما أضللتني ،أهلكتني ، بما : بمعنى القسم بمعنى الجزاء

روى الإمام احمد .. عَنْ سَبْرَةَ بْنِ أَبِي فَاكِهٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ لَهُ أَتُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ قَالَ فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ فَقَالَ أَتُهَاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ قَالَ فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ قَالَ ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ لَهُ هُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ وَيُقَسَّمُ الْمَالُ قَالَ فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَمَاتَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ

ورواه النسائي أيضا .

معاني : ولا تجد أكثرهم شاكرين : موحدين أو شاكرين لنعمتك . لأزينن لهم : أحبب وأحسن لهم المعاصي والباطل حتى يقعوا فيه . المخلصون : الذين اخلصوا دينهم لله عن كل شائبة تناقض الإخلاص . فبعزتك : يمين بصفة من صفات الله . لأحتنكن ذريته :لأستولين عليهم / لأضلنهم / لأستأصلنهم ، فالمعنى لأقودنهم كيف شئت . هذا قول ابن منبه . إلا قليلا : قال ابن عباس : هم أولياء الله الذين عصمهم . نصيبا مفروضا : قال ابن منبه : أي حظا افترضته لنفسي منهم فأضلهم ، وقال مقاتل : النصيب المفروض أن من كل ألف إنسان واحد في الجنة وسائرهم في النار وفي الصحيح عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَا آدَمُ

فَيَقُولُ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ قَالَ يَقُولُ أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ قَالَ وَمَا بَعْثُ النَّارِ قَالَ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ قَالَ فَذَاكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ قَالَ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِمْ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ فَقَالَ أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا وَمِنْكُمْ رَجُلٌ قَالَ ثُمَّ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَحَمِدْنَا اللَّهَ وَكَبَّرْنَا ثُمَّ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَحَمِدْنَا اللَّهَ وَكَبَّرْنَا ثُمَّ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِنَّ مَثَلَكُمْ فِي الْأُمَمِ كَمَثَلِ الشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ أَوْ كَالرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الْحِمَارِ. وفي رواية : مَا أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي الثَّوْرِ الْأَبْيَضِ . وَلَمْ يَذْكُرَا أَوْ كَالرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الْحِمَارِ } ق واحمد

وبعث النار هو نصيب الشيطان قال الزجاج : الفرض في اللغة القطع . لأضلنهم : عن الحق / عن سبيل الهدى ، وقيل ليس له من الضلال سوى الدعاء إليه .

تأمل هذه الآية من سورة إبراهيم : قال تعالى ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)﴾ [إبراهيم]

لأمنيهم : الكذب يخبرهم به يقول لهم لا جنة ولا نار ولا بعث ، التسويف بالتوبة ، تزيين الأماني لهم . فليبتكن آذان الأنعام : شق أذن البحيرة (يشققن) أو قطعته . فليغيرن خلق الله : التغيير بالخصاء أو الوشم

{ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ لَعَنَ اللَّهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ وَالنَّامِصَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللَّهِ قَالَ فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا أُمُّ يَعْقُوبَ وَكَانَتْ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَأَتَتْهُ فَقَالَتْ مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ لَعَنْتَ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللَّهِ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ وَمَا لِي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ

فِي كِتَابِ اللَّهِ فَقَالَتْ الْمَرْأَةُ لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ لَوْحَيْ الْمُصْحَفِ فَمَا وَجَدْتُهُ فَقَالَ لَئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ { وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا } فَقَالَتْ الْمَرْأَةُ فَإِنِّي أَرَى شَيْئًا مِنْ هَذَا عَلَى امْرَأَتِكَ الْآنَ قَالَ اذْهَبِي فَانْظُرِي قَالَ فَدَخَلَتْ عَلَى امْرَأَةِ عَبْدِ اللَّهِ فَلَمْ تَرَ شَيْئًا فَجَاءَتْ إِلَيْهِ فَقَالَتْ مَا رَأَيْتُ شَيْئًا فَقَالَ أَمَا لَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ نُجَامِعْهَا}.. غَيْرَ أَنَّ فِي حَدِيثِ سُفْيَانَ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ وَفِي حَدِيثِ مُفَضَّلٍ الْوَاشِمَاتِ وَالْمَوْشُومَاتِ }ق

دين الله قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]

فأعلمه وأخبره الله تعالى أن مصيره النار ، وكذلك مصير من اتبعه النار وكفر بالله ﷻ ، وانه ليس له سلطان على العباد المؤمنين قال في الإسراء :

﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (٦٥)﴾ [الإسراء] ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨)﴾ [الأعراف: ١٨] ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤)﴾ [الحجر] ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)﴾ [النحل] ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥)﴾ [ص] ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣)﴾ [السجدة]

معاني : قال ابن قتيبة : المذءوم : المذموم بأبلغ الذم والمدحور : المقصي المبعد ، المطرود أيضا .

قال ابن عباس : فأنا الحق وأقول الحق / اتبعوا الحق واسمعوا والزموا الحق .

اذهب : يتضمن إنظاره فقد أنظرتك (فمن تبعك منهم) تبع أمرك من ذرية آدم .

الموفور :الموفر / موفورا عليكم لا ينقص لكم منه / الوفر المال التام الكامل .

استفزز :استخف / بصوتك : الغناء والمزامير أو انه كل داع إلى معصية الله ، واجلب عليهم : صيح ، اجلب القوم : إذا صاحوا.

واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجلتهم ومعناه تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه وهذا أمر قدري كقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) ﴾ [مريم] أي تزعجهم إلى المعاصي . قال الزجاج : اجمع عليهم كل ما تقدر عليهم من مكايدك .

وقال قتادة :أن له خيلا ورجلا من الجن والإنس وهم الذين يطيعونه .

وشاركهم في الأموال : الإنفاق في معاصي الله / ما كانوا يحرمه من أنعامهم / الربا وغيره ، الأولاد : أولاد الزنا / المؤودة / تسمية الأولاد عبيد للأوثان عبد شمس عبد العزى/ ما مجسوا وهودوا ونصروا وصبغوا من أولادهم غير صبغة الإسلام .

عدهم : انه لا بعث لهم / النصرة لهم يمنيهم الغرور والأماني ، سيطول عمرك غرورا : باطلا يغرهم به .

هذه الآية لفظها لفظ الأمر ومعناها التهديد قال الزجاج إذا تقدم الأمر نهي عما يؤمر به فمعناه التهديد والوعيد .

ليس لك عليهم سلطان : إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين وحفظه إياهم وحراسته لهم من الشيطان ، وكيلا : حافظا ومؤيدا ونصيرا

عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن لينضى شياطينه كما ينضى أحدكم بعيره في السفر».

احمد ، ينضى يأخذ بناصيته ويقهره .

هذا صراط عليّ مستقيم: أي مرجعكم كلكم إليّ فأجازيكم بأعمالكم إن خيرا فخير وإن شرا فشر

سلطان : التسلط والحجة وليس له قدرة على حملهم ذنب لا يغفر .يتولونه : يطيعونه .

صفَة إبْليس وَجُنُوده

قال في [فتح الباري لابن حجر] قَوْلُهُ : (بَاب صفَة إبْليس وَجُنُوده) إبْليس اسْم أَعْجَميّ عنْد الْأَكْثَر ، وَقيلَ : مُشْتَقّ منْ أَبْلَسَ إذَا أَيْأَسَ ، قَالَ ابْن الْأَنْبَاريّ : لَوْ كَانَ عَرَبيًّا لَصُرفَ كَإكْليلٍ ، وَقَالَ الطَّبَريُّ : إنَّمَا لَمْ يُصْرَف وَإنْ كَانَ عَرَبيًّا لقلَّة نَظيره في كَلَام الْعَرَب فَشَبَّهُوهُ بالْعَجَميّ ، وَتُعُقّبَ بأَنَّ ذَلكَ لَيْسَ منْ مَوَانع الصَّرْف وَبأَنَّ لَهُ نَظَائر كَإخْريط وَإصْليت وَاسْتُبْعدَ كَوْنه مُشْتَقًّا أَيْضًا بأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلكَ لَكَانَ إنَّمَا سُمّيَ إبْليس بَعْد يَأْسه منْ رَحْمَة اللهَّ بطَرْده وَلَعْنه ، وَظَاهر الْقُرْآن أَنَّهُ كَانَ يُسَمَّى بذَلكَ قَبْل ذَلكَ ، كَذَا قيلَ ، وَلَا دَلَالَة فيه ، لجَوَاز أَنْ يُسَمَّى بذَلكَ باعْتبَار مَا سَيَقَعُ لَهُ ، نَعَمْ رَوَى الطَّبَريُّ وَابْن أَبي الدُّنْيَا عَنْ ابْن عَبَّاس قَالَ : كَانَ اسْم إبْليس حَيْثُ كَانَ مَعَ الْمَلَائكَة عَزَازيلُ ثُمَّ إبْليس بَعْدُ . وَهَذَا يُؤَيّد ذَلكَ الْقَوْل وَاللهَّ أَعْلَم . وَمنْ أَسْمَائه الْحَارث وَالْحَكَم ، وَكُنْيَته أَبُو مُرَّة . وَفي كتَاب " لَيْسَ لابْن خَالَوَيْه " كُنْيَته أَبُو الْكُرُوبيّينَ ، وَقَوْله : " وَجُنُوده " كَأَنَّهُ يُشير بذَلكَ إلَى حَديث أَبي مُوسَى الْأَشْعَريّ مَرْفُوعًا قَالَ : " إذَا أَصْبَحَ إبْليس بَثَّ جُنُوده فَيَقُول : مَنْ أَضَلَّ مُسْلمًا أَلْبَسْته التَّاج " الْحَديث أَخْرَجَهُ ابْن حبَّان وَالْحَاكم وَالطَّبَرَانيُّ . وَلمُسْلم منْ حَديث جَابر سَمعْت رَسُول اللهَّ ﷺ يَقُول : " عَرْش إبْليس عَلَى الْبَحْر ، فَيَبْعَث سَرَايَاهُ فَيَفْتنُونَ النَّاس ، فَأَعْظَمهمْ عنْده أَعْظَمهمْ فتْنَة " . وَاخْتُلفَ هَلْ كَانَ منْ الْمَلَائكَة ثُمَّ مُسخَ لَمَّا طُردَ أَوْ لَمْ يَكُنْ منْهُمْ أَصْلًا ؟ عَلَى قَوْلَيْن مَشْهُورَيْن سَيَأْتي بَيَانهمَا في التَّفْسير إنْ شَاءَ اللهَّ تَعَالَى .

قَوْلُهُ : (وَقَالَ مُجَاهد وَيُقْذَفُونَ يُرْمَوْنَ دُحُورًا مَطْرُودينَ) يُريد تَفْسير قَوْله تَعَالَى : (وَيُقْذَفُونَ منْ كُلّ جَانبٍ دُحُورًا) الْآيَة ، وَقَدْ وَصَلَهُ عَبْد بْن حُمَيْدٍ منْ طَريق ابْن أَبي نَجيح عَنْ مُجَاهد كَذَلكَ ، وَهَذه صفَة مَنْ يَسْتَرق السَّمْع منْ الشَّيَاطين ، وَسَيَأْتي في التَّفْسير أَيْضًا .

قَوْلُهُ : (وَيُقَال مَرِيدًا مُتَمَرِّدًا) هُوَ قَوْل أَبِي عُبَيْدَة قَالَ فِي قَوْله تَعَالَى : (وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا) أَيْ مُتَمَرِّدًا . قَالَ أَبُو عُبَيْدَة فِي قَوْله : (فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَام) أَيْ لَيَقْطَعُنَّ ، يُقَال بَتَكَهُ قَطَعَهُ .

قَوْلُهُ : (وَاسْتَفْزِزْ اسْتَخِفَّ بِخَيْلِك الْفُرْسَان وَالرَّجْل الرَّجَّالَة وَاحِدهَا رَاجِل مِثْل صَاحِب وَصَحْبٍ وَتَاجِر وَتَجْر) هُوَ كَلَام أَبِي عُبَيْدَة أَيْضًا .

قَوْلُهُ : (لَأَحْتَنِكَنَّ لَأَسْتَأْصِلَنَّ) قَالَ أَبُو عُبَيْدَة فِي قَوْله تَعَالَى : (لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا) يَقُول لَأَسْتَمِيلَنَّهُمْ وَلَأَسْتَأْصِلَنَّهُمْ يُقَال احْتَنَكَ فُلَان مَا عِنْد فُلَان إِذَا أَخَذَ جَمِيع مَا عِنْده .

قَوْلُهُ : (قَرِين شَيْطَان) رَوَى ابْن أَبِي حَاتِم مِنْ طَرِيق ابْن أَبِي نَجِيح عَنْ مُجَاهِد فِي قَوْله تَعَالَى : (قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ) قَالَ شَيْطَان وَعَنْ غَيْر مُجَاهِد خِلَافه ، وَرَوَى الطَّبَرِيُّ عَنْ مُجَاهِد وَالسُّدِّيّ فِي قَوْله تَعَالَى : (وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ) قَالَ شَيَاطِين .

الفصل السابع

آدم في الجنة

بين الله تعالى لأدم ﷺ أن هذا الشيطان وذريته عدو له ولذريته ، ومن ثم أكرمه بإدخاله الجنة هو وزوجته حواء التي خلقها من ضلعه { عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ } متفق عليه .

قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾ [النساء] ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) ﴾ [الأنعام] ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩)﴾ [الأعراف] ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الزمر: ٦]

وحذرهما الله ﷻ من أكل الشجرة ومن الشيطان فقال تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥)﴾ [طه] ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (١١٩) ﴾ [طه] ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) ﴾ [البقرة] قال تعالى ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) ﴾ [الأعراف]

معاني : الرغد : الرزق الواسع الكبير . عهدنا : أمرناه وأوصيناه . الظلم : وضع الشيء في غير موضعه . قال ابن عباس : إنما سمي الإنسان لأنه عهد إليه فنسي .

نسي : الترك ترك ما أمر به وقيل من النسيان الذي يخالف الذكر . عزما : لغة : توطين النفس على الفعل وهنا لم نجد له حفظا ، صبرا لم يصبر عما نهى عنه، حزما لا عزما في العود إلى الذنب تشقى : نصب الدنيا وتعبها من زرع وحرث وغيره .

قرن بين الجوع والعري : لان الجوع ذل الباطن والعري ذل الظاهر .

والظمأ حر الباطن والضحى حر الظاهر .

نفس واحدة آدم وجعل منها زوجها حواء وقيل غير ذلك

ليسكن إليها : ليأنس بها ويأوي إليها (فلما تغشاها) جامعها . الحمل : ما كان في بطن أو أخرجته شجرة والحمل بكسر الحاء ما يحمل والمراد بالحمل الخفيف : الماء .

فمرت به : استمرت به قعدت وقامت لم يثقلها : أي شكت وتمارت أحملت أم لا فلما أثقلت : صار حملا ثقيلا . قال أَبو عُبَيْدَة (فَمَرَّتْ به اسْتَمَرَّ بهَا الْحَمْل فَأَتَمَّتْهُ) .

الفصل الثامن

آدم والشيطان

تعهد إبليس بفتنة بني آدم وإغوائهم بكل الوسائل والطرق ، وجعل هدفه الأعظم إفساد بني آدم وحشرهم معه في نار جهنم وكانت البداية مع أبي البشر آدم صلى الله عليه وسلم ، فالله تعالى بين لأدم عداوة الشيطان له وأراد ابتلاءه وامتحانه فاسكنه الجنة وعهد إليه بترك شجرة معينة بان لا يقربها وحذره من ترك الأمر ومن المعصية حتى لا يجوع ولا يظمأ ويشقى ويضحى ويعرى ولكن كان من طبع الإنسان النسيان وحسن الظن فجرى له مع إبليس هذا الحوار :

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾ [البقرة: ٣٦] ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢) ﴾ [الأعراف] ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ﴾ [طه]

عن الحسن، عن أبيّ بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ : «كانَ آدَمُ كأنَّهُ نَخْلَةٌ سَحُوقٌ كَثِيرَ شَعْرِ الرأْس، فَلَمَّا وَقَعَ بالخَطيئَة بَدَتْ لَهُ عَوْرتُهُ وكانَ لا يَرَاها، فانْطَلَقَ فارًّا، فَتَعَرَّضَتْ لَهُ شَجَرَةٌ فَحَبَسَتْهُ بشَعْره، فَقالَ لَهَا: أرْسليني، فَقالَتْ: لَسْتُ بمُرْسلَتكَ، فَنادَاهُ رَبُّهُ: يا آدَمُ، أمنّي تَفرُّ؟ قالَ: لا، وَلَكنّي اسْتَحَيْتُكَ». الطبري

وقد رواه ابن جرير وابن مردويه من طرق، عن الحسن عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ مرفوعاً، والموقوف أصح إسناداً. تفسير ابن كثير .

عن محمد بن قيس، في قوله: وَنادَاهُما رَبُّهُما أَلَمْ أنْهَكُما عَنْ تلْكُما الشَّجَرَة وأقُلْ لَكُما إنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ لِمَ أكلتها وقد نهيتك عنها؟ قال: يا ربّ أطعمتني حوّاء قال لحوّاء: لم أطعمته؟

قالت: أمرتني الحية. قال للحية: لم أمرتها؟ قالت: أمرني إبليس. قال: ملعون مدحور أما أنت يا حوّاء فكما دَميت الشجرة تدْمين كلّ شهر، وأما أنت يا حية فأقطع قوائمك فتمشين على وجهك، وسيشدخ رأسك من لقيك اهْبطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوّ . الطبري ، تفسير البغوي فأنها مستقاة من الإسرائيليات، وخبر محمد بن قيس هذا: أخرجه الطبري في التفسير: وفي التاريخ .

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لما أكل آدم من الشجرة قيل له: لم أكلتَ من الشجرة التي نهيتك عنها؟ قال: حوّاء أمرتني، قال: فإني قد أعقبتها أن لا تحمل إلا كرها ولا تضع إلا كرها. قال: فرنَّت حوّاء عند ذلك، فقيل لها: الرنة عليك وعلى ولدك . الطبري

معاني : فأزلها بمعنى استزلها : نحاهما / أي من قبل الزلل أي بسببها .

(فَأَزَلَّهُمَا اسْتَزَلَّهُمَا) " فَأَزَلَّهُمَا " أَيْ دَعَاهُمَا إِلَى الزَّلَّة.

الشيطان : قال الخليل : كل متمرد عند العرب شيطان ، قيل من شطن أي بعد عن الخير وقيل انه من شاط إذا التهب واحترق .

شجرة الخلد : على شجرة من أكل منها لا يموت (وملك لا يبلى) ....

الوسوسة : إخفاء الصوت قال ابن فارس : الوسواس صوت الحلي ومنه وسواس الشيطان .

ليبدىء لهما : ليظهر لهما .. ما وري عنهما أي ستر .

(سَوْآتهمَا كنَايَة عَنْ فَرْجَيْهمَا) هُوَ تَفْسِير أَبِي عُبَيْدَة. السوءة : كناية عن الفرج.. وقد قيل إنما سميت السواة سوأة لان كشفها يسوء صاحبها .

طفقا : أخذا في الفعل . يخصفان : يجعلان ورقة على ورقة ومنه قيل للذي يرقع النعل خصاف يَخْصفَان أَخَذَ الْخصَاف منْ وَرَق الْجَنَّة يُؤَلّفَان الْوَرَق وَيَخْصفَان بَعْضه إِلَى بَعْض هُوَ تَفْسِير أَبِي عُبَيْدَة ، وَرَوَى الطَّبَرِيُّ عَنْ مُجَاهد في قَوْله : (يَخْصفَان) قَالَ : يُرَقّعَان كَهَيْئَة الثَّوْب وَتَقُول الْعَرَب خَصَفْت النَّعْل أَيْ خَرَزْتهَا . قاسمهما : حلف لهما . فدلاهما : في المعصية بأن غرهما.

الغي : الفساد وفي غوى قولان:

١ – ضل طريق الخلود حيث أراده من قبل المعصية .

٢ – فسد عليه عيشه .

روى احمد والحاكم بإسناد حسن { وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ وَعِزَّتِكَ (وجلالك) يَا رَبِّ لَا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ قَالَ الرَّبُّ وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي } صحيح الجامع ٢/ ٧٢

الفصل التاسع

خروج آدم من الجنة وتوبته

عصى آدم ربه فغوى، واكل من الشجرة ، فلم يجد له ربنا عزما، ونسي عهده مع الله أمام إغراءات ووساوس الشيطان فقال له الرحمن الرحيم :

﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) ﴾ [البقرة] ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢) ﴾ [الأعراف: ٢٢] ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥)﴾ [الأعراف] ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) ﴾ [طه] ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥) ﴾ [طه]

معاني : الهبوط : الانحدار من علو ، فتلقى : بمعنى اخذ وقبل ، متاع : المنفعة ، الحين : الزمان التوبة : الرجوع عن الذنب . الاجتباء : الاصطفاء والاختيار ، (فتاب عليه وهدى) هداه للتوبة . اهبطا : آدم وحواء أو آدم وإبليس . ضنكا : معيشة صعبة / الشقاء . مستقر : قرار وأعمار مضروبة إلى آجال معلومة قيل القبور وقيل فوق الأرض وتحتها .

الفصل العاشر

الشيطان

إبليس من الجن ، والجن من النار من مارج النار ، وقد خلق الجان قبل الإنس وهم يسكنون في الأرض وطبقات الجو ويصعد الجن إلى السماء ليسترق السمع .. والجن مكلفون بالعبادة كالإنس ، ولهم الخيار بين الطاعة والمعصية ، والكفر والإيمان ، فالجنة لها أهلها من الإنس والجن والنار لها أهلها من الإنس والجان .. والجن عالم من العوالم وخلق خاص ؛ ولكن الله تعالى أعطاه القدرة على التصور بصور مختلفة من صور الإنس أو الطير أو الحيوان والقدرة على دخول الأجسام كجسم الإنسان وغيره ، والجن أمم وشعوب كالإنس ، وهؤلاء الجن منهم إبليس زعيم الشر وقائد الفساد في الأرض وعدو بني آدم الأول ، وله ذرية شياطين مثله مهمتهم طاعة إبليس ومساعدته في إغواء الجن والإنس .

وإبليس هذا فهو كافر بالله ﷻ ونعوذ بالله من الخذلان والكفر آمين .

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)﴾ [البقرة] ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧)﴾ [النساء] ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠) ﴾ [النساء] ﴿وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) ﴾ [الإسراء] ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢] ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤)﴾ [البقرة] ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) ﴾ [الأنعام] ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧)﴾ [الأعراف] ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ [الأنفال: ١١] ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) ﴾

[الأنفال] ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)﴾ [إبراهيم] ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)﴾ [النحل] ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠)﴾ [الكهف] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣)﴾ [مريم] ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢)﴾ [يس] ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١)﴾ [سبأ] ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨)﴾ [البقرة] ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)﴾ [آل عمران] ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)﴾ [آل عمران] ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦)﴾ [فاطر] ﴿وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣] ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥)﴾ [القصص] ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧)﴾ [الحشر] ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٥)﴾ [يوسف] ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٢٩)﴾ [الفرقان]

معاني :

مريد : خارج عن الطاعة . الكفر لغة : التغطية وسمي الكافر كافرا لأنه يغطي الحق . إلى شياطينهم : رؤوسهم في الكفر والشرك والنفاق

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ أَتَيْتُ رَسُولَ اللهَّ ﷺ وَهُوَ فِي الْمَسْجِد فَجَلَسْتُ فَقَالَ يَا أَبَا ذَرٍّ هَلْ صَلَّيْتَ قُلْتُ لَا قَالَ قُمْ فَصَلِّ قَالَ فَقُمْتُ فَصَلَّيْتُ ثُمَّ جَلَسْتُ فَقَالَ يَا أَبَا ذَرٍّ تَعَوَّذْ باللهَّ منْ شَرّ شَيَاطين الْإِنْس وَالْجِنّ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهَّ وَللْإِنْس شَيَاطِينُ قَالَ نَعَمْ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهَّ الصَّلَاةُ قَالَ خَيْرٌ مَوْضُوعٌ مَنْ شَاءَ أَقَلَّ وَمَنْ شَاءَ أَكْثَرَ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهَّ فَمَا الصَّوْمُ قَالَ فَرْضٌ مُجْزِئٌ وَعنْدَ اللهَّ مَزِيدٌ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهَّ فَالصَّدَقَةُ قَالَ أَضْعَافٌ مُضَاعَفَةٌ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهَّ فَأَيُّهَا أَفْضَلُ قَالَ جَهْدٌ مُقلٍّ أَوْ سرٌّ إِلَى فَقيرٍ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهَّ أَيُّ الْأَنْبيَاء كَانَ أَوَّلُ قَالَ آدَمُ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهَّ وَنَبيٌّ كَانَ قَالَ نَعَمْ نَبيٌّ مُكَلَّمٌ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهَّ كَمْ الْمُرْسَلُونَ قَالَ ثَلَاثُ مائَةٍ وَبضْعَةَ عَشَرَ جَمًّا غَفيرًا وَقَالَ مَرَّةً خَمْسَةَ عَشَرَ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهَّ آدَمُ أَنَبيٌّ كَانَ قَالَ نَعَمْ نَبيٌّ مُكَلَّمٌ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهَّ أَيُّمَا أُنْزلَ عَلَيْكَ أَعْظَمُ قَالَ آيَةُ الْكُرْسيّ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ . رواه احمد وروى النسائي بعضه

{ ما تتلوا الشياطين } أي ما ترويه وتخبر به وتحدثه الشياطين على ملك سليمان من الكذب .

عَنْ عَبْد اللهَّ بْن مَسْعُودٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ إنَّ للشَّيْطَان لَمَّةً بابْن آدَمَ وَللْمَلَك لَمَّةً فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَان فَإِيعَادٌ بالشَّرّ وَتَكْذيبٌ بالْحَقّ وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلَك فَإِيعَادٌ بالْخَيْر وَتَصْديقٌ بالْحَقّ فَمَنْ وَجَدَ ذَلكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ منْ اللهَّ فَلْيَحْمَدْ اللهَّ وَمَنْ وَجَدَ الْأُخْرَى فَلْيَتَعَوَّذْ باللهَّ منْ الشَّيْطَان الرَّجيم ثُمَّ قَرَأَ الشَّيْطَانُ يَعدُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بالْفَحْشَاء الْآيَةَ أخرجه الترمذي

يعدكم الفقر : يخوفكم الفقر لتمسكوا ما بأيديكم ويأمركم بالمعاصي والماثم / يخوفكم الفقر بإعطاء الجيد أي يعدكم بالفقر والفحشاء البخل / والمعاصي والله يعدكم مغفرة لفحشاكم وفضلا في الرزق . شيطانا مريدا : المارد الخارج عن الطاعة ومعناه قد مرد في الشر / عتا في الشر الأمرد : الأملس / إنما يعبدون إبليس في نفس الأمر . يعدهم ويمنيهم : إخبار عن الواقع بأنه

يعد أولياءه بالنصرة والفوز في الدنيا والآخرة إلا غرورا :باطلا بغرهم به . الغرور والأماني / الظفر بأولياء الله . استزلهم : طلب زللهم / إن من ثواب الحسنة الحسنة وان من جزاء السيئة السيئة . يخوف أولياءه : يخوفكم بأوليائه / يخوف أولياءه المنافقين أي يخوفكم أولياءه ويوهمكم انهم ذو بأس وشدة . رجز الشيطان : كيده / العذاب . قضي الأمر : فرغ منه ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار . مصرخكم :... / نافعكم / ازا : تزعجهم إزعاجا حتى يركبوا المعاصي / الإغراء . جبلا : الخلق والجماعة / الخلق الكثير / خذولا : يخذله عن الحق ويستعمله في الباطل .

عن أبي موسى : عن النبي ﷺ قال : (إذا أصبح إبليس بث جنوده فيقول : من أضل اليوم مسلما ألبسته التاج قال : فيخرج هذا فيقول : لم أزل به حتى طلق امرأته : فيقول : أوشك أن يتزوج ويجيء هذا فيقول : لم أزل به حتى عق والديه فيقول : أوشك أن يبر ويجيء هذا فيقول : لم أزل به حتى أشرك فيقول : أنت أنت ويجيء فيقول : لم أزل به حتى زنى فيقول : أنت أنت ويجيء هذا فيقول : لم أزل به حتى قتل فيقول : أنت أنت ويلبسه التاج) صحيح ابن حبان السلسلة الصحيحة

عَنْ جَابِرٍ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِىَّ -ﷺ- يَقُولُ « إِنَّ عَرْشَ إِبْلِيسَ عَلَى الْبَحْرِ فَيَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَيَفْتِنُونَ النَّاسَ فَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً ». صحيح صحيح مسلم

عَنْ جَابِرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً يَجِىءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ مَا صَنَعْتَ شَيْئًا قَالَ ثُمَّ يَجِىءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ - قَالَ - فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ نِعْمَ أَنْتَ ». قَالَ الأَعْمَشُ أُرَاهُ قَالَ « فَيَلْتَزِمُهُ ». مسلم

الفصل الحادي عشر

آدم على الأرض وابني آدم

اهبط الله تعالى آدم الأرض ـ كما أخبر الملائكة قبل خلقه بأنه سيجعل في الأرض خليفة وهذا دليل واضح بان آدم خلق للحياة في الأرض ، وسكناه في الجنة كان تكريما لآدم وزوجه ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾ [البقرة] .

ليبدأ العمل في عمارة الأرض وليكون الاختبار والابتلاء والامتحان ، فلما استقر آدم على الأرض بدأت الحياة الدنيا للجنس البشري ، وبدأ التناسل والتكاثر والزرع والحرث والنسيج وعمارة المعابد، فآدم ﷺ تلقى من ربه كلمات فتاب وهداه واجتباه واصطفاه وجعله نبيا داعيا ذريته لطاعة الرحمن ومحذرا لهم من طاعة إبليس وذريته الشياطين ، وبين لهم عداوته لهم وما جرى له بسببه ، وحثهم على الخير والتقرب إلى الله بالأعمال الصالحة وان الكفر والظلم والفسوق جزاءه النار والعقاب الشديد .

قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) ﴾ [الأنعام] ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) ﴾ [الأنعام] ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) ﴾ [البقرة] ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤)﴾ [الأعراف] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾ [النساء] ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا

صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) ﴾ [الأعراف] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣)﴾ [المؤمنون] ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) ﴾ [الكهف]

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ جَالِسًا وَكَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ فَأَقْصَرُوا عَنْهُ حَتَّى جَاءَ أَبُو ذَرٍّ فَاقْتَحَمَ فَأَتَى فَجَلَسَ إِلَيْهِ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ يَا أَبَا ذَرٍّ هَلْ صَلَّيْتَ الْيَوْمَ قَالَ لَا قَالَ قُمْ فَصَلِّ فَلَمَّا صَلَّى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ الضُّحَى أَقْبَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ يَا أَبَا ذَرٍّ تَعَوَّذْ مِنْ شَرِّ شَيَاطِينِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ قَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَهَلْ لِلْإِنْسِ شَيَاطِينٌ قَالَ نَعَمْ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ثُمَّ قَالَ يَا أَبَا ذَرٍّ أَلَا أُعَلِّمُكَ مِنْ كَنْزِ الْجَنَّةِ قَالَ بَلَى جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ قَالَ قُلْ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ قَالَ فَقُلْتُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ قَالَ ثُمَّ سَكَتَ عَنِّي فَاسْتَبْطَأْتُ كَلَامَهُ قَالَ قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ وَعَبَدَةَ أَوْثَانٍ فَبَعَثَكَ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ أَرَأَيْتَ الصَّلَاةَ مَاذَا هِيَ قَالَ خَيْرٌ مَوْضُوعٌ مَنْ شَاءَ اسْتَقَلَّ وَمَنْ شَاءَ اسْتَكْثَرَ قَالَ قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَرَأَيْتَ الصِّيَامَ مَاذَا هُوَ قَالَ فَرْضٌ مُجْزِئٌ قَالَ قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَرَأَيْتَ الصَّدَقَةَ مَاذَا هِيَ قَالَ أَضْعَافٌ مُضَاعَفَةٌ وَعِنْدَ اللَّهِ الْمَزِيدُ قَالَ قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ فَأَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ قَالَ سِرٌّ إِلَى فَقِيرٍ وَجُهْدٌ مِنْ مُقِلٍّ قَالَ قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَيُّمَا نَزَلَ عَلَيْكَ أَعْظَمُ قَالَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ آيَةُ الْكُرْسِيِّ قَالَ قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَيُّ الشُّهَدَاءِ أَفْضَلُ قَالَ مَنْ سُفِكَ دَمُهُ وَعُقِرَ جَوَادُهُ قَالَ قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ فَأَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ قَالَ أَغْلَاهَا ثَمَنًا وَأَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا قَالَ قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ فَأَيُّ الْأَنْبِيَاءِ كَانَ أَوَّلَ قَالَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَام قَالَ قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَوَ نَبِيٌّ كَانَ آدَمُ قَالَ نَعَمْ نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ خَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ رُوحَهُ ثُمَّ قَالَ لَهُ يَا آدَمُ قُبْلًا قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَمْ وَفَّى عِدَّةُ الْأَنْبِيَاءِ قَالَ مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا الرُّسُلُ مِنْ ذَلِكَ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا .احمد والطبراني

عَنْ عُبَيْدِ بْنِ الْخَشْخَاشِ عَنْ قَالَ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ يَا أَبَا ذَرٍّ هَلْ صَلَّيْتَ قُلْتُ لَا قَالَ قُمْ فَصَلِّ قَالَ فَقُمْتُ فَصَلَّيْتُ ثُمَّ أَتَيْتُهُ فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ لِي يَا أَبَا ذَرٍّ

اسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَهَلْ لِلْإِنْسِ مِنْ شَيَاطِينَ قَالَ نَعَمْ يَا أَبَا ذَرٍّ أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ قَالَ قُلْتُ بَلَى بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي قَالَ قُلْ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا الصَّلَاةُ قَالَ خَيْرٌ مَوْضُوعٌ فَمَنْ شَاءَ أَكْثَرَ وَمَنْ شَاءَ أَقَلَّ قَالَ قُلْتُ فَمَا الصِّيَامُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فَرْضٌ مُجْزِئٌ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا الصَّدَقَةُ قَالَ أَضْعَافٌ مُضَاعَفَةٌ وَعِنْدَ اللَّهِ مَزِيدٌ قَالَ قُلْتُ أَيُّهَا أَفْضَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ جُهْدٌ مِنْ مُقِلٍّ أَوْ سِرٌّ إِلَى فَقِيرٍ قُلْتُ فَأَيُّ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكَ أَعْظَمُ قَالَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ حَتَّى خَتَمَ الْآيَةَ قُلْتُ فَأَيُّ الْأَنْبِيَاءِ كَانَ أَوَّلَ قَالَ آدَمُ قُلْتُ أَوَنَبِيٌّ كَانَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ قُلْتُ فَكَمْ الْمُرْسَلُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا .

وفي حديث الإسراء الذي في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما مر بآدم وهو في السماء " { .. ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِى فَعَرَجَ بِى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَلَمَّا جِئْتُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا قَالَ جِبْرِيلُ لِخَازِنِ السَّمَاءِ افْتَحْ . قَالَ مَنْ هَذَا قَالَ هَذَا جِبْرِيلُ . قَالَ هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ قَالَ نَعَمْ مَعِى مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم . فَقَالَ أُرْسِلَ إِلَيْهِ قَالَ نَعَمْ . فَلَمَّا فَتَحَ عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا ، فَإِذَا رَجُلٌ قَاعِدٌ عَلَى يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ وَعَلَى يَسَارِهِ أَسْوِدَةٌ ، إِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَسَارِهِ بَكَى ، فَقَالَ مَرْحَباً بِالنَّبِىِّ الصَّالِحِ وَالاِبْنِ الصَّالِحِ . قُلْتُ لِجِبْرِيلَ مَنْ هَذَا قَالَ هَذَا آدَمُ . وَهَذِهِ الأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ ، وَالأَسْوِدَةُ الَّتِى عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ ، فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى ، " البخاري ومسلم

ذكر قصة ابني آدم

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا

الْغُرَاب فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) ﴾ [المائدة]

وفي " التفسير الميسر " تجد خلاصة القصة وبدون إسرائيليات : واقصص -أيها الرسول- على بني إسرائيل خَبَر ابنَيْ آدم قابيل وهابيل، وهو خبرٌ حقٌ: حين قَدَّم كلٌّ منهما قربانًا -وهو ما يُتَقرَّب به إلى الله تعالى - فتقبَّل الله قُربان هابيل؛ لأنه كان تقيًّا، ولم يتقبَّل قُربان قابيل؛ لأنه لم يكن تقيًّا، فحسد قابيلُ أخاه، وقال: لأقتلنَّك، فَردَّ هابيل: إنما يتقبل الله ممن يخشونه. وقال هابيلُ واعظًا أخاه: لَئنْ مَدَدْتَ إليَّ يدكَ لتقتُلني لا تَجِدُ مني مثل فعْلك، وإني أخشى الله ربَّ الخلائق أجمعين ، إني أريد أن ترجع حاملا إثم قَتْلي، وإثمك الذي عليك قبل ذلك، فتكون من أهل النار وملازميها، وذلك جزاء المعتدين.

فَزَيَّنت لقابيلَ نفسُه أن يقتل أخاه، فقتله، فأصبح من الخاسرين الذين باعوا آخرتهم بدنياهم.

لما قتل قابيلُ أخاه لم يعرف ما يصنع بجسده، فأرسل الله غرابًا يحفر حفرةً في الأرض ليدفن فيها غرابًا مَيّتًا؛ ليدل قابيل كيف يدفن جُثمان أخيه؟ فتعجَّب قابيل، وقال: أعجزتُ أن أصنع مثل صنيع هذا الغراب فأستُرَ عورة أخي؟ فدَفَنَ قابيل أخاه، فعاقبه الله بالندامة بعد أن رجع بالخسران.

وفي هذا كفاية وإذا أحببت التوسع فاقرأ الصفحات فصل مسائل (قصة ابني آدم)

الفصل الثاني عشر

نهاية آدم

شيث : هبة الله من ولد آدم ووصيه قال أبو ذر في حديث عن رسول الله ﷺ " إن الله انزل مائة صحيفة وأربع صحف على شيث خمسين صحيفة " .

عَنْ الْحَسَن عَنْ عُتَيٍّ قَالَ رَأَيْتُ شَيْخًا بِالْمَدِينَة يَتَكَلَّمُ فَسَأَلْتُ عَنْهُ فَقَالُوا هَذَا أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ فَقَالَ إِنَّ آدَمَ عَلَيْه السَّلَام لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ لِبَنِيه أَيْ بَنِيَّ إِنِّي أَشْتَهِي مِنْ ثِمَار الْجَنَّة فَذَهَبُوا يَطْلُبُونَ لَهُ فَاسْتَقْبَلَتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ وَمَعَهُمْ أَكْفَانُهُ وَحَنُوطُهُ وَمَعَهُمْ الْفُؤُوسُ وَالْمَسَاحِي وَالْمَكَاتِلُ فَقَالُوا لَهُمْ يَا بَنِي آدَمَ مَا تُرِيدُونَ وَمَا تَطْلُبُونَ أَوْ مَا تُرِيدُونَ وَأَيْنَ تَذْهَبُونَ قَالُوا أَبُونَا مَرِيضٌ فَاشْتَهَى مِنْ ثِمَار الْجَنَّة قَالُوا لَهُمْ ارْجِعُوا فَقَدْ قُضِيَ قَضَاءُ أَبِيكُمْ فَجَاءُوا فَلَمَّا رَأَتْهُمْ حَوَّاءُ عَرَفَتْهُمْ فَلَاذَتْ بِآدَمَ فَقَالَ إِلَيْك إِلَيْك عَنِّي فَإِنِّي إِنَّمَا أُوتِيتُ مِنْ قِبَلك خَلِّي بَيْنِي وَبَيْنَ مَلَائِكَة رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَقَبَضُوهُ وَغَسَّلُوهُ وَكَفَّنُوهُ وَحَنَّطُوهُ وَحَفَرُوا لَهُ وَأَلْحَدُوا لَهُ وَصَلَّوْا عَلَيْه ثُمَّ دَخَلُوا قَبْرَهُ فَوَضَعُوهُ فِي قَبْره وَوَضَعُوا عَلَيْه اللَّبِنَ ثُمَّ خَرَجُوا مِنْ الْقَبْر ثُمَّ حَثَوْا عَلَيْه التُّرَابَ ثُمَّ قَالُوا يَا بَنِي آدَمَ هَذِه سُنَّتُكُمْ

رواه احمد وهو إسناد صحيح .

ففي مستدرك الحاكم ومعجم الطبراني الأوسط بإسناد صحيح عن أبي رضي الله عنه عن النبي ﷺ " لما توفي آدم غسلته الملائكة بالماء وترا والحدوا له وقالوا : هذه سنة آدم في ولده " صحيح الجامع ٥ / ٤٨

الفصل الثالث عشر

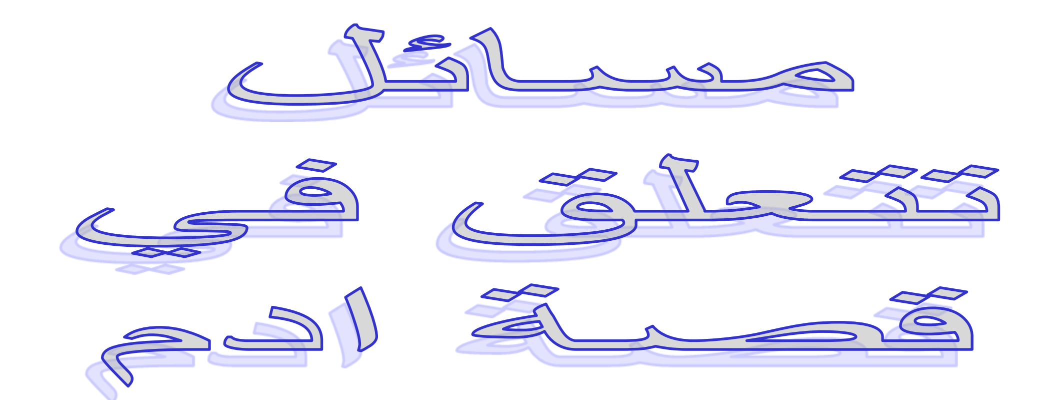
خلق الإنسان

هذه آيات تبين مراحل خلق الإنسان وتبين صفات وطبائع مخلوقة في تكوين الناس والبشر تحتاج منا للتأمل لنعرف انفسنا أكثر فتأملها معي . قال تعالى ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (١٠) ﴾ [الأعراف] ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥)﴾ [الأعراف] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾ [النساء] ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠)﴾ [الأعراف] ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) ﴾ [الكهف] ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٦) ﴾ [الزمر] ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٩) ﴾ [السجدة] ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء: ٣٧] ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (١١) ﴾ [الإسراء] ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (٢٨) ﴾ [النساء] ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤) ﴾ [الكهف] ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٤) ﴾ [النحل] ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧)﴾ [يس] ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (٦٧) ﴾ [الإسراء] ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ [إبراهيم] ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (١٠٠) ﴾ [الإسراء] ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ

وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨) ﴾ [الأعراف] ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) ﴾ [الإسراء] ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) ﴾ [مريم] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ﴾ [الحج] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)﴾ [المؤمنون] ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) ﴾ [العنكبوت] ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) ﴾ [لقمان] ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) ﴾ [الأحقاف] ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) ﴾ [الأحزاب] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ

إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦)﴾ [ق] ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) ﴾ [المعارج] ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) ﴾ [الإنسان] ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) ﴾ [البلد] ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) ﴾ [التين] ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) ﴾ [العلق] ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) ﴾ [العلق] ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦)﴾ [العاديات] ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) ﴾ [العصر] ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦)﴾ [الحج] ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (٤٨) ﴾ [الشورى] ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (١٥) ﴾ [الزخرف] ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) ﴾ [الزمر] ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧)﴾ [غافر] ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾ [الشورى] ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢)﴾ [النجم] ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (٤٨) ﴾ [النجم] ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤) ﴾ [الفرقان] ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) ﴾ [فاطر]

النطفة : المني ، العلقة : دم عبيط جامد ، المضغة : لحمة صغيرة .


مسائل
تتعلق في
قصة ادم

الفصل الرابع عشر

مسائل في قصة ادم

١ - مسالة " إني جاعل في الأرض خليفة " .. الاستخلاف كان قبل خلق آدم ...

٢ - عداوة إبليس لأدم والحكمة من خلق إبليس والشر ...

٣ – الحكمة من خلق الإنس والجن والملائكة ...

٤ – جنة آدم في السماء أم الأرض ...

٥ – اتصال إبليس بآدم ... ٦ – حواء ... ٧ – احتجاج آدم وموسى ...

٨ – أصل الخلق ونظرية دارون وغيره ... ٩ – نبوة آدم ...

١٠ –معصية آدم وعصمة الأنبياء ...

١١ – قصة الحية والطاووس ...

١٢ – حديث " خلقت عبادي حنفاء " ...

١٣ - الرسل والأنبياء ...

١٤ – هل إبليس من الملائكة ؟! ...

١٥ – علم إبليس بتضليله لبني آدم ...

١٦ – الروح ...

١٧ – الحكمة من بقاء إبليس لأخر الدهر وإماتة الرسل ...

١٨ – فلسفة الخروج من الجنة ...

١٩ – المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر ...

٢٠ - آية الإشهاد ..

٢١ – الطين والنار ...

٢٢ – النسب والذرية ...

٢٣- وقصة قابيل وهابيل .

(١)الاستخلاف في الأرض

قبل خلق آدم علم الملائكة أن هذا المخلوق خلق لعبادة الله تعالى في الأرض وأنه سوف يسكن مع شعوب وقبائل الجن وأن هذا المخلوق كريم عند الله ، وسيخلق الله تعالى من ذريته الأنبياء والرسل والأصفياء والصديقين والشهداء والعلماء والزعماء والملوك والطغاة ، وكتب عليهم الحياة في الأرض إلى أجل مسمى ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) ﴾ [الأعراف] وقال ﷻ ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥) ﴾ [طه] ثم يموتون ثم يبعثون للحساب والجزاء فاقرأ قوله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) ﴾ [الملك] وقال في سورة الكهف ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧)﴾ [الكهف] ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) ﴾ [الكهف] نخلص إلى القول أن الله تعالى خلق الأرض وما عليها للإنسان ، وجعل له فيها معايش من نبات وحيوان وجبال وشمس وقمر وليل ونهار ، ومن أنهار وبحار وفلك وعيون كل هذا لخدمة الإنسان ، ولكن الله تعالى لكرمه العظيم وحكمته العظمى أكرم أبانا آدم واسكنه الجنة ردحا من الزمن تكريما لأدم ذاته وشخصه – وفي تكريم الأب تكريم للأبناء بالتبعية ، كما يكون التكريم للابن تكريما للأب – وجعل الله ﷻ له علامة وساعة إذا فعلها أخرج من الجنة وهي الأكل من الشجرة الممنوعة ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) ﴾ [البقرة] ؛ لتبدأ ساعة البلاء وإعمار الأرض وتناسل الذرية ليكون آدم وذريته خلفاء في الأرض يخلف بعضهم بعضا ، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] ولقد أكرم مولانا الأعظم آدم بأن خلقه بيديه وعلمه الأسماء كلها ، وعرضه على الملائكة وأسجدهم له ، وحذره من عدوه اللعين إبليس فتركه لنفسه فنسي ﷺ ، وهبط إلى الأرض لتبدأ قصة الحياة والخلق والموت والشقاء والكد والصراع والملك والحضارات والتاريخ .

والنسيان صفة وطبع لبني آدم مهما علا ؛ ولكنه يتفاوت من مخلوق لآخر ومشيئة الله تعالى غالبة " وَنُسِّيَ آدَمُ فَنُسِّيَتْ ذُرِّيَّتُهُ " فآية الاستخلاف تدل على أن آدم خلق للأرض حتى يخرج من صلبه أهل الجنة وأهل النار كفرعون وهامان وقارون وأبي بن خلف فيقول الله تعالى ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ باللهَّ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذي خَلَقَ لَكُمْ مَا في الْأَرْض جَميعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بكُلِّ شَيْءٍ عَليمٌ (٢٩) ﴾ [البقرة] ويؤكد ذلك المعنى ما جاء في سورة ص عن اختصام الملائكة وتناظرهم في هذا المخلوق العاقل الجديد قال تعالى ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِيَ منْ علْمٍ بالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذيرٌ مُبينٌ (٧٠) ﴾ [ص]

الرسول محمد ﷺ قبل أن يوحى إليه بقصة خلق آدم لم يكن يعلم شيئا عن هذا الأمر، وهو تناظر الملائكة في شان آدم ، فيقول فلما علمت هذا بالوحي أخبرتكم ذلك ، وهؤلاء المخلوقون سيكونون خلفاء في الأرض جيلا بعد جيل ، وحيا يخلف ميتا إلى قيام الساعة ، الأبناء يقومون مقام الآباء والآباء مقام الأجداد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠) ﴾ [مريم] ، فخلق آدم وأبناؤه للأرض قبل أن يكون شيئا مذكورا ، خلق للأرض وهو في العدم في علم الله تعالى﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَان حينٌ منَ الدَّهْر لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١) ﴾ [الإنسان] ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ منْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) ﴾ [مريم] فالله تعالى هيأ الأرض لخلافة بني آدم ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ في الْأَرْض وَجَعَلْنَا لَكُمْ فيهَا مَعَايشَ قَليلًا مَا تَشْكُرُونَ (١٠) ﴾ [الأعراف]

ويؤكد هذا الاستخلاف أيضا قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿وَهُوَ الَّذي جَعَلَكُمْ خَلَائفَ الْأَرْض وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ليَبْلُوَكُمْ في مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَريعُ الْعقَاب وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحيمٌ (١٦٥) ﴾ [الأنعام] ﴿هُوَ الَّذي جَعَلَكُمْ خَلَائفَ في الْأَرْض ﴾ [فاطر: ٣٩] ويزيده تأكيدا ووضوحا قوله تعالى في سورة ص ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَليفَةً في الْأَرْض فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاس بالْحَقّ وَلَا تَتَّبع الْهَوَى فَيُضلَّكَ عَنْ سَبيل اللهَّ إِنَّ الَّذينَ يَضلُّونَ عَنْ سَبيل اللهَّ

لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) ﴾ [ص: ٢٦] ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) ﴾ [ص]

ويقول الإمام القرطبي رحمه الله : وليس المراد بالخليفة في أية البقرة آدم بدليل قوله ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾وآدم منزه عن ذلك . الأصالة ٣٦ ص ٦٠

(٢) عداوة إبليس لبني آدم

قال تعالى ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦)﴾ [فاطر] إبليس الشيطان الله تعالى خلقه رمزا للشر وداعيا إلى الفساد ، وإمام أهل النار يوم الحساب الأعظم ،وبدأت عداوة إبليس للخير عندما جاء الأمر الإلهي بالسجود لآدم ، فتكبر وكفر ، وغلبه طبعه الذي خلق منه ، ورأى فضلا للنار على الطين ، وجعل نفسه خيرا من آدم وعصى أمر الله تعالى بغروره وكبرياءه ونظر للأمر نظرة استعلاء وعلو ، ونسي من هو الآمر وأن الطاعة لله والسجود لآدم من باب تكريم الله عز وجل لهذا المخلوق والجنس الجديد ، ولم يسعفه طبعه وعلمه وذكاؤه بالتوبة والندم بل أصر على المعصية والحقد والحسد والغرور ، وبرر عدم الطاعة لأمر الله بأعذار واهية ، لا تسمن ولا تغني من جوع ، فبدأت معركته مع الله تعالى ومع البشر ونصب عداوته للخير وأصبح إماما للمعاصي والكفر والفجور في مشارق الأرض ومغاربها ؛ ليبتلي الله ﷻ به العباد ذكورا وإناثا جنا وإنسا ، ويقيم عليهم الحجة الدامغة ويكرمهم بالجنة والخلود الدائم ، أو يدخلهم النار .

واعلم أيها القارئ الكريم أن إبليس الرجيم لم يكن من الملائكة طرفة عين ، وأن الجن ليس نوعا من الملائكة وأنهم مخلوقون من مارج من النار ، والملائكة خلقت من النور كما صح ذلك عن النبي محمد ﷺ ، فالله يقول في حق الملائكة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم] ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠)﴾ [الأنبياء]

ومن حسن الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة أن الجنة والنار مخلوقتان لقوله تعالى في حق الجنة ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) ﴾ وقال في حق النار ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) ﴾ [آل عمران] وآيات كثيرة تبين هذا المعنى الاعتقادي ، وقد صح عن النبي ﷺ في الحديث الصحيح :

عَن ابْن عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهَّ –ﷺ– قَالَ « إنَّ أَحَدَكُمْ إذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْه مَقْعَدُهُ بالْغَدَاة وَالْعَشيّ إنْ كَانَ منْ أَهْل الْجَنَّة فَمنْ أَهْل الجَنَّة وَإنْ كَانَ منْ أَهْل النَّار فَمنْ أَهْل النَّار يُقَالُ هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللهُّ إلَيْه يَوْمَ الْقيَامَة ». متفق عليه

ومن حديث أبي هريرة قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ لَّما خَلَقَ اللهُّ الجَنَّةَ وَالنَّارَ أَرْسَلَ جبْريلَ قَالَ انْظُرْ إلَيْهَا وَإلَى مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلهَا فيهَا فَجَاءَ فَنَظَرَ إلَيْهَا وَإلَى مَا أَعَدَّ اللهُّ لأَهْلهَا فيهَا فَرَجَعَ إلَيْه قَالَ وَعزَّتكَ لَا يَسْمَعُ بهَا أَحَدٌ إلَّا دَخَلَهَا فَأَمَرَ بهَا فَحُجبَتْ بالْمَكَاره قَالَ ارْجعْ إلَيْهَا فَانْظُرْ إلَيْهَا وَإلَى مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلهَا فيهَا قَالَ فَرَجَعَ إلَيْهَا وَإذَا هيَ قَدْ حُجبَتْ بالْمَكَاره فَرَجَعَ إلَيْه قَالَ وَعزَّتكَ قَدْ خَشيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ قَالَ اذْهَبْ إلَى النَّار فَانْظُرْ إلَيْهَا وَإلَى مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلهَا فيهَا فَإذَا هيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَرَجَعَ قَالَ وَعزَّتكَ لَقَدْ خَشيتُ أَنْ لَا يَسْمَعَ بهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلَهَا فَأَمَرَ بهَا فَحُفَّتْ بالشَّهَوَات فَقَالَ وَعزَّتكَ لَقَدْ خَشيتُ أَنْ لَا يَنْجُوَ منْهَا أَحَدٌ إلَّا دَخَلَهَا . مسند أحمد د ، ت ، ن

واعلم أن الله ﷻ كتب المقادير قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة كما أشار ودل على هذا المعنى حديث ابن عمرو يَقُولُ سَمعْتُ رَسُولَ اللهَّ ﷺ يَقُولُ قَدَّرَ اللهُّ الْمَقَاديرَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَات وَالْأَرْضَ بخَمْسينَ أَلْفَ سَنَةٍ . مسند أحمد

فالقدر مكشوف لله تعالى بجميع درجاته ، وبما أن علم الله العظيم كامل قضت حكمته وإرادته أن يكون إبليس زعيم الشر في الأرض ليتم الاختبار والابتلاء والتمحيص للخلق والعباد ، فكان الرسل للدعوة للإيمان والتوحيد والخير وعبادة الرحمن ، وجعل الشيطان رسول الشر والكفر ، ولقد اختار إبليس ذلك بحسده وحقده لآدم ﷺ ، واختار عدم طاعة الأمر الرباني ، ولم يستجب لأمر ربه ،وأصر على المعصية وعدم الندم والتوبة وعلى قيادة الباطل وعداوة الأنبياء والصالحين والصديقين ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) ﴾

ولإبليس هذا ذرية وأتباع يعبدونه ويطيعونه فيما يأمر ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ

فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠) ﴾ [الكهف]

وفي صحيح مسلم عَنْ جَابِرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ مَا صَنَعْتَ شَيْئًا قَالَ ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَته - قَالَ - فَيُدْنِيه مِنْهُ وَيَقُولُ نِعْمَ أَنْتَ ». قَالَ الأَعْمَشُ أُرَاهُ قَالَ « فَيَلْتَزِمُهُ ».

ولقد ذكر لنا الإمام ابن القيم أبو عبد الله الجوزية في الكتاب الطيب " شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل " بعض الحكمة في خلق الشيطان إبليس .

قال : " قولهم أي حكمة في خلق إبليس وجنوده ، ففي ذلك من الحكم مالا يحيط بتفصيله إلا الله فمنها :

١-أن يكمل لأنبيائه وأوليائه مراتب العبودية بمجاهدة عدو الله وحزبه ومخالفته ومراغمته في الله وإغاظته وإغاظة أوليائه والاستعاذة به منه ، والإلجاء إليه أن يعيذهم من شره وكيده ، فيترتب لهم على ذلك من المصالح الدنيوية والأخروية ما لم يحصل بدونه ، وقدمنا أن الموقوف على الشيء لا يحصل بدونه .

٢-ومنها خوف الملائكة والمؤمنين من ذنبهم بعد ما شاهدوا من حال إبليس ما شاهدوه ، وسقوطه من المرتبة الملكية- أي الحياة مع الملائكة- إلى المنزلة الإبليسية يكون أقوى وأتم ولا ريب أن الملائكة لما شاهدوا ذلك حصلت لهم عبودية أخرى للرب تعالى ، وخضوع آخر وخوف آخر ، كما هو المشاهد من حال عبيد الملك إذا رأوه قد أهان أحدهم الإهانة التي بلغت منه كل مبلغ وهم يشاهدونه ، فلا ريب أن خوفهم وحذرهم يكون أشد

٣- ومنها أنه سبحانه جعله عبرة لمن خالف أمره وتكبر عن طاعته، وأصر على معصيته كما جعل ذنب أبي البشر عبرة لمن ارتكب نهيه أو عصى أمره ثم تاب وندم ورجع إلى ربه فابتلى أبوي الجن ـ بعض العلماء يعتبر إبليس أول الجن كما ادم أول الإنس ـ والإنس بالذنب وجعل هذا

الأب عبرة لمن أصر وأقام على ذنبه وهذا الأب عبرة لمن تاب ورجع إلى ربه ، فلله كم في ضمن ذلك من الحكم الباهرة والآيات الظاهرة .

٤-ومنها أنه محك امتحن الله به خلقه ليتبين به خبيثهم من طيبهم ؛ فإنه سبحانه خلق النوع الإنساني من الأرض ، وفيها السهل والحزن والطيب والخبيث فلا بد أن يظهر فيهم ما كان في مادتهم ، كما في الحديث الذي رواه الترمذي مرفوعا{ أن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على مثل ذلك منهم الطيب والخبيث والسهل والحزن وغير ذلك } (وها هو لفظ مسند أحمد : عنْ أَبِي مُوسَى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ إِنَّ اللَّهَ ﷻ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ جَاءَ مِنْهُمْ الْأَبْيَضُ وَالْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ وَبَيْنَ ذَلِكَ) فما كان في المادة الأصلية فهو كائن في المخلوق منها فاقتضت الحكمة الإلهية إخراجه وظهوره فلا بد إذا من سبب يظهر ذلك وكان إبليس محكا يميز به الطيب من الخبيث ، كما جعل أنبيائه ورسله محكا لذلك التمييز قال تعالى ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران: ١٧٩] فأرسله إلى المكلفين وفيهم الطيب والخبيث فانضاف الطيب إلى الطيب والخبيث إلى الخبيث واقتضت حكمته البالغة أن خلطهم في دار الامتحان فإذا صاروا إلى دار القرار يميز بينهم وجعل لهؤلاء دارا على حدة ولهؤلاء دارا على حدة حكمة بالغة وقدرة قاهرة

٥-ومنها أن يظهر كمال قدرته في خلق مثل جبريل والملائكة وإبليس والشياطين وذلك من أعظم آيات قدرته ومشيئته وسلطانه فإنه خالق الأضداد كالسماء والأرض والضياء والظلام والجنة والنار والماء والنار والحر والبرد والطيب والخبيث .

٦- ومنها أن خلق أحد الضدين من كمال حسن ضده فإن الضد إنما يظهر حسنه بضده فلولا القبيح لم تعرف فضيلة الجميل ولولا الفقر لم يعرف قدر الغنى.

٧- ومنها أنه سبحانه يحب أن يشكر بحقيقة الشكر وأنواعه ولا ريب أن أولياءه نالوا بوجود عدو الله إبليس وجنوده وامتحانهم به من أنواع شكره ما لم يكن ليحصل لهم بدونه، فكم بين

شكر آدم وهو في الجنة قبل أن يخرج منها وبين شكره بعد أن ابتلي بعدوه ثم اجتباه ربه وتاب عليه وقبله .

٨- ومنها أن المحبة والإنابة والتوكل والصبر والرضاء ونحوها أحب العبودية إلى الله سبحانه وهذه العبودية إنما تتحقق بالجهاد وبذل النفس لله وتقديم محبته على كل ما سواه ، فالجهاد ذروة سنام العبودية وأحبها إلى الرب سبحانه ، فكان في خلق إبليس وحزبه قيام سوق هذه العبودية وتوابعها التي لا يحصى حكمها وفوائدها وما فيها من المصالح إلا فالله .

٩- ومنها أن في خلق من يضاد رسله ويكذبهم ويعاديهم من تمام ظهور آياته وعجائب قدرته ولطائف صنعه ما وجوده أحب إليه وأنفع لأوليائه من عدمه كما تقدم من ظهور آية الطوفان والعصا واليد وفلق البحر وإلقاء الخليل في النار وأضعاف أضعاف ذلك من آياته وبراهين قدرته وعلمه وحكمته ، فلم يكن بد من وجود الأسباب التي يترتب عليها ذلك كما تقدم .

١٠-ومنها أن المادة النارية فيها الإحراق والعلو والفساد، وفيها الإشراق والإضاءة والنور ، فأخرج منها سبحانه هذا وهذا، كما أن المادة الترابية الأرضية فيها الطيب والخبيث والسهل والحزن والأحمر والأسود والأبيض فاخرج منها ذلك كله حكمة باهرة وقدرة قاهرة وآية دالة على أنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

١١-ومنها أن من أسمائه الخافض الرافع المعز المذل الحكم العدل المنتقم ، وهذه الأسماء تستدعي متعلقات يظهر فيها إحكامها كأسماء الإحسان والرزق الرحمة ونحوها ، ولا بد من ظهور متعلقات هذه وهذه .

١٢-ومنها أنه سبحانه الملك التام الملك ومن تمام ملكه عموم تصرفه وتنوعه بالثواب والعقاب والإكرام والإهانة والعدل والفضل والإعزاز والإذلال ، فلا بد من وجود من يتعلق به أحد النوعين كما أوجد من يتعلق به النوع الآخر .

١٣-ومنها أن من أسمائه الحكيم والحكمة من صفاته سبحانه ، وحكمته تستلزم وضع كل شيء موضعه الذي لا يليق به سواه ، فاقتضت خلق المتضادات وتخصيص كل واحد منها لا يليق به

غيره من الإحكام والصفات والخصائص ، وهل تتم الحكمة إلا بذلك فوجود هذا النوع من تمام الحكمة كما أنه من كمال القدرة .

١٤- ومنها أن حمده سبحانه تام كامل من جميع الوجوه ، فهو محمود على عدله ومنعه وخفضه وانتقامه وإهانته ، كما هو محمود على فضله وعطائه ورفعه وإكرامه ، فلله الحمد التام الكامل على هذا وهذا ، وهو يحمد نفسه على ذلك كله ، ويحمده عليه ملائكته ورسله وأوليائه، ويحمده عليه أهل الموقف جميعهم ، وما كان من لوازم كمال حمده وتمامه فله في خلقه وإيجاده الحكمة التامة كما له عليه الحمد التام فلا يجوز تعطيل حمده كما لا يجوز تعطيل حكمته .

١٥- ومنها أنه سبحانه يحب أن يظهر لعباده حلمه وصبره وأناته وسعة رحمته وجوده ، فاقتضى ذلك خلق من يشرك به ويضاده في حكمه ويجتهد في مخالفته ويسعى في مساخطه بل يشبهه سبحانه ، وهو مع ذلك يسوق إليه أنواع الطيبات ويرزقه ويعاقبه ويمكن له من أسباب ما يتلذذ به من أصناف النعم ويجيب دعاءه ويكشف عنه السوء ويعامله من بره وإحسانه بضد ما يعامله هو به من كفره وشركه وإساءته ، فلله كم في ذلك من حكمة وحمد ، ويتحبب إلى أوليائه ويتعرف بأنواع كمالاته كما في الصحيح عنه ﷺ [أنه قال لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله يجعلون له الولد وهو يرزقهم ويعاقبهم] عَنْ أَبِى مُوسَى قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ « لاَ أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ منَ اللهَّ ﷻ إِنَّهُ يُشْرَكُ به وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ ثُمَّ هُوَ يُعَافيهمْ وَيَرْزُقُهُمْ ». ق

١٦- وفي الصحيح عنه ﷺ فيما يروي عن ربه [شتمني ابن آدم وما ينبغي له ذلك وكذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك أما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفؤا أحد وأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون عليه من إعادته] النسائي وغيره وعند البخاري جزء منه رواه عن أبي هريرة . هو سبحانه مع هذا الشتم له والتكذيب يرزق الشاتم المكذب ويعاقبه ويدفع عنه ويدعوه إلى جنته ويقبل توبته إذا تاب إليه ويبدله بسيئاته حسنات ، ويلطف به في جميع أحواله ويؤهله لإرسال رسله ، ويأمرهم بأن يلينوا له القول ويرفقوا به .

قال الفضيل بن عياض: ما من ليلة يختلط ظلامها إلا نادى الجليل جل جلاله من أعظم مني جودا ،الخلائق لي عاصون وأنا أكلأهم في مضاجعهم ؛ كأنهم لم يعصوني ،وأتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا ،أجود بالفضل على العاصي ،وأتفضل على المسيء، من ذا الذي دعاني فلم ألبه ، ومن ذا الذي سألني فلم أعطه ، أنا الجواد ومني الجود ،أنا الكريم ومني الكرم ،ومن كرمي أني أعطي العبد ما سألني وأعطيه ما لم يسألني، ومن كرمي أني أعطي التائب كأنه لم يعصني، فأين عني يهرب الخلق؟ وأين عن بابي يتنحى العاصون ؟.

وفي أثر " إلهي أني والإنس والجن في نبأ عظيم أخلق ويعبد غيري وأرزق ويشكر سواي وفي أثر حسن : ابن آدم ما أنصفتني خيري إليك نازل وشرك إلي صاعد ، كم أتحبب إليك بالنعم وأنا غني عنك وكم تتبغض إلي بالمعاصي وأنت فقير إلي ولا يزال الملك الكريم يعرج إلي منك بعمل قبيح ، وفي الحديث الصحيح [لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم] أخرجه مسلم واحمد فهو سبحانه لكمال محبته لأسمائه وصفاته اقتضى حمده وحكمته أن يخلق خلقا يظهر فيهم أحكامها وآثارها ، فالمحبة للعفو خلق من يحسن العفو عنه ، ولمحبته للمغفرة خلق من يغفر له ويحلم عنه ويصبر عليه ولا يعاجله بل يكون يحب أمانه وإمهاله ، ولمحبته لعدله وحكمته خلق من يظهر فيهم عدله وحكمته ، ولمحبته للجود والإحسان والبر خلق من يعامله بالإساءة والعصيان وهو سبحانه يعامله بالمغفرة والإحسان ، فلولا خلق من يجري على أيديهم أنواع المعاصي والمخالفات لفاتت هذه الحكم والمصالح وأضعافها وأضعاف أضعافها ، فتبارك الله رب العالمين وأحكم الحاكمين ذو الحكمة البالغة والنعم السابغة الذي وصلت حكمته إلى حيث وصلت قدرته ، وله في كل شيء حكمة باهرة ، كما أن له فيه قدرة قاهرة وهدايات ، إنما ذكرنا منه قطرة من بحر وإلا فعقول البشر أعجز وأضعف وأقصر من أن تحيط بكمال حكمته في شيء من خلقه ، فكم حصل بسبب هذا المخلوق البغيض للرب المسخوط له من محبوب له تبارك وتعالى يتصل في حبه ما حصل به من مكروهه ، والحكيم الباهر الحكمة هو الذي يحصل أحب الأمرين إليه باحتمال المكروه الذي يبغضه ويسخطه إذا كان

طريقا إلى حصول ذلك المحبوب ، ووجود الملزوم بدون لازمه محال ؛ فإن يكن قد حصل بعدو الله إبليس من السرور والمعاصي ما حصل ، فكم حصل بسبب وجوده ووجود جنوده من طاعة هي أحب إلى الله وأرضى له من جهاد في سبيله ومخالفة هوى النفس وشهوتها له ويحتمل المشاق والمكاره في محبته ومرضاته ، وأحب شيء للحبيب أن يرى محبه يتحمل لأجله من الأذى والوصب ما يصدق محبته .

فان أغضب هذا المخلوق ربه فقد أرضاه فيه أنبيائه ورسله وأوليائه ، وذلك الرضاء أعظم من ذلك الغضب ، وأن أسخطه ما يجري على يديه من المعاصي والمخالفات ؛ فإنه سبحانه أشد فرحا بتوبة عبده من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه إذا وجدها في المفاوز المهلكات عَن الْحَارِث بْن سُوَيْدٍ قَالَ دَخَلْتُ عَلَى عَبْد اللهِّ أَعُودُهُ وَهُوَ مَرِيضٌ فَحَدَّثَنَا بِحَدِيثَيْنِ حَدِيثًا عَنْ نَفْسه وَحَدِيثًا عَنْ رَسُول اللهِّ -ﷺ- قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِّ -ﷺ- يَقُولُ « للهِّ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَة عَبْده الْمُؤْمن منْ رَجُلٍ فِى أَرْضٍ دَوِيَّةٍ مَهْلَكَةٍ مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ ثُمَّ قَالَ أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِى الَّذِى كُنْتُ فيه فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ. فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعده ليَمُوتَ فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَاللهُّ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَة الْعَبْد الْمُؤْمن منْ هَذَا بِرَاحِلَته وَزَاده ». صحيح مسلم / الدوية : الصحراء التي لا نبات بها، وإن أغضبه ما جرى على أنبيائه ورسله من هذا العدو ، فقد سره وأرضاه ما جرى على أيديهم من حربه ومعصيته ومراغمته وكبته وغيظه ، وهذا الرضاء أعظم عنده وأبر لديه من فوات ذلك المكروه المستلزم لفوات هذا المرضي المحبوب ، وإن أسخطه أكل آدم من الشجرة فقد أرضاه توبته وإنابته وخضوعه وتذلله بين يديه وانكساره له ، وإن أغضبه إخراج أعدائه لرسوله من حرمه وبلدته ذلك الخروج فقد أرضاه أعظم الرضاء دخوله إليها ذلك الدخول ، وإن أسخطه قتلهم أوليائه وأحبائه وتمزيق لحومهم وإراقة دمائهم فقد أرضاه نيلهم الحياة التي لا أطيب منها ولا أنعم ولا ألذ في قربه وجواره، وإن أسخطه معاصي عباده فقد أرضاه شهود ملائكته وأنبيائه ورسله وأوليائه سعة مغفرته وعفوه وبره وكرمه وجوده والثناء

عليه بذلك ، وحمده وتمجيده بهذه الأوصاف التي حمده بها وأثنى عليه بها أحب إليه وأرضى له من فوات تلك المعاصي وفوات هذه المحبوبات .

وأعلم أن الحمد هو الأصل الجامع لذلك كله فهو عقد نظام الخلق والأمر والرب تعالى له الحمد كله بجميع وجوهه واعتباراته وتصاريفه ، فما خلق شيئا ولا حكم بشيء إلا وله فيه الحمد ، فوصل حمده إلى حيث وصل خلقه وأمره حمدا حقيقيا يتضمن محبته والرضا به وعنه والثناء عليه والإقرار بحكمته البالغة في كل ما خلقه وأمر به ، فتعطيل حكمته غير تعطيل حمده- كما تقدم بيانه- فكما أنه لا يكون إلا حميدا فلا يكون إلا حكيما ، فحمده وحكمته كعلمه وقدرته وحياته من لوازم ذاته ولا يجوز تعطيل شيء من صفاته وأسمائه عن مقتضياتها وآثارها ؛ فإن ذلك يستلزم النقص الذي يناقض كماله وكبريائه وعظمته يوضحه(الوجه التالي) .

إنه كما أن من صفات الكمال وأفعال الحمد والثناء أنه يجود ويعطي ويمنح

فمنها أن يعيذ وينصر ويغيث فكما يحب أن يلوذ به اللائذون يحب أن يعوذ به العائذون وكمال الملوك أن يلوذ بهم أولياؤهم ويعوذوا بهم كما قال أحمد بن حسين الكندي في ممدوحه

يا مَنْ أَلُوذُ به فيمَا أُؤمّلُهُ	وَمَنْ أعُوذُ به ممّا أُحاذرُهُ
ولو قال ذلك في ربه وفاطره	لكان أسعد به من مخلوق مثله

والمقصود أن ملك الملوك يحب أن يلوذ به مماليكه، وأن يعوذوا به كما أمر رسوله أن يستعيذ به من الشيطان الرجيم في غير موضع من كتابه ؛ وبذلك يظهر تمام نعمته على عدوه إذا أعاذه وأجاره من عدوه فلم يكن إعاذته وإجارته منه بأدنى النعمتين ، والله تعالى يحب أن يكمل نعمته على عباده المؤمنين ويريهم نصره لهم على عدوهم وحمايتهم منه وظفرهم بهم، فيا لها من نعمة كمل بها سرورهم ونعيمهم ، وعدل أظهره في أعدائه وخصمائه .

(٣) الحكمة من خلق الإنس والجن والملائكة

قال العلي الحكيم في الذاريات ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [الذاريات] العبادة فمن أجل هذه الغاية العظمى خلق الإنس والجن ، خلقهم سبحانه وتعالى لعبادته وعدم الشرك به ، قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) ﴾ [الأنبياء] وكذلك خلق لإظهار آثار قدرته وعلمه وحكمته وخلقه وترك لنا معشر الإنس والجن الخيار بين الطاعة والمعصية وعرضهم للامتحان والابتلاء ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩) ﴾ [البقرة] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)﴾ [الحجرات]

وأما الملائكة الكرام فهم مخلوقون لعبادة الرحمن أيضا ؛ ولكنهم مفطورون على العبادة والطاعة والإيمان لا يعصون الله أبدا ، لا يرتكبون الآثام والمعاصي ولا يشتهون المعصية وليست لهم شهوات حسية كالأكل والشرب والنكاح والولد ، فهم عقلاء ومكلفون مثلنا وليس لها الخيار بين الإيمان والكفر والطاعة والمعصية ، وما يقال عن معصية هاروت وماروت وأنهما ملكان فليس الأمر صحيحا ، وإن ثبت ملكيتهما فليس هناك سند صحيح عن زناهما وقتلهما وشربهما للخمر ، فالله ﷻ يقول في حق الملائكة واصفا لهم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم] لا يعصون الله في أي طلب ، لا تكون منهم المعاصي والجريمة ، وأيضا لا يفعلون شيئا إلا بأمر منه سبحانه ، وهذا جبريل ؊ وهو من أعظم الملائكة قدرا وبدنا يسأله الرسول ﷺ زيارته كما جاء في صحيح البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِجِبْرِيلَ مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا فَنَزَلَتْ ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ

أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) ﴾ [مريم]
فهؤلاء الخلق تركهم للمعصية جبلة ، وفعلهم للطاعة جبلة دون مشقة وتكلف ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠) ﴾ [النحل] فالتزامهم تكليف خاص بهم فهم عباد مكرمون ينفذون أوامر الله ﷻ كما يريدها فهم جند الله ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩) ﴾ [الأنبياء] وبالتأكيد أنهم خلقوا قبل الإنس لاختصامهم في خلق آدم ، وخلقهم خلق عظيم{ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ } ولهم أجنحة للطيران ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)﴾ [فاطر] وصورهم جميلة ، كما جاء في تفسير ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) ﴾ [النجم] أي ذو قوة، قاله مجاهد ، وقال ابن عباس: ذو منظر حسن، وقال قتادة: ذو خلق طويل حسن. ولا منافاة بين القولين فإنه عليه السلام ذو منظر حسن وقوة شديدة. *تفسير ابن كثير*
ونحوه في سورة يوسف ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) ﴾ [يوسف]
وهؤلاء الملائكة ليسوا خلق واحد فمنهم من له جناحان ومنهم من له ستمائة جناح كجبريل ؑ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨) ﴾ [النجم] قَالَ رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ. صحيح مسلم
وهم متفاوتون في المنازل والمقام ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) ﴾ [الصافات] وأفضلهم من شهد يوم بدر مع المصطفى ﷺ كما ورد في صحيح الإمام البخاري رحمه الله من حديث مُعَاذِ بْنِ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ الزُّرَقِيِّ عَنْ أَبِيهِ وَكَانَ أَبُوهُ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ قَالَ جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ قَالَ مِنْ

أَفْضَل الْمُسْلمينَ أَوْ كَلمَةً نَحْوَهَا قَالَ وَكَذَلكَ مَنْ شَهدَ بَدْرًا منْ الْمَلَائكَة .

وهم لا يفترون عن العبادة فقد جاء في حقهم ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠)﴾ [الأنبياء] وجاء في فصلت ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩ (٣٨) ﴾ [فصلت] ، ومساكنهم السماوات ، ولهم أعمال متنوعة وكثيرة ولهم علاقة عظيمة مع الإنسان منذ أن يكون جنينا حتى يهلك وربما يرافقون الكثير حتى دخول النار و هم خلق كثير ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (٣١) ﴾ [المدثر] وصح عن النبي ﷺ أنه يطوف بالبيت المعمور – كعبة أهل السماء السابعة – سبعون ألف ملك كل يوم والحديث في الصحيحين من حديث أنس ﷺ في قصة المعراج " فُتحَ لَنَا فَإذَا أَنَا بإبْرَاهيمَ ﷺ مُسْندًا ظَهْرَهُ إلَى الْبَيْت الْمَعْمُور وَإذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لاَ يَعُودُونَ إلَيْه .. " وذا حديث مسلم يشير إلى كم هم عددا عَنْ عَبْد اللَّه قَالَ رَسُولُ اللَّه –ﷺ– « يُؤْتَى بجَهَنَّمَ يَوْمَئذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زمَامٍ مَعَ كُلِّ زمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا ».

وحدث رسول ﷺ عن حجم أحدهم ، فعَنْ جَابر بْن عَبْد اللَّه عَن النَّبىِّ –ﷺ– قَالَ « أُذنَ لى أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ منْ مَلاَئكَة اللَّه منْ حَمَلَة الْعَرْش إنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَة أُذُنه إلَى عَاتقه مَسيرَةُ سَبْعمائَة عَامٍ ». سنن أبى داود

وكل إنسان منا معه عدد منهم لحفظه وكتابة أعماله وأقواله ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١] ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)﴾ [ق]

ولم يثبت أنهم يموتون قبل يوم القيامة والله أعلم ، وهم كرام بررة سفرة ويوصفون بالحياء والسرعة وعندهم علم علمهم الله إياه ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ

الْحَكِيمُ (٣٢)﴾ [البقرة] ولهم القدرة على التعرف على الأشياء فهم عقلاء ، ويتخاصمون في أهل الأرض ، ويتناظرون ويتحاورون فيما خفي عليهم ، ويستغفرون لنا ، ويدعون لنا ، ويهتمون بالنظام والصفوف ومن مهمتهم تبليغ الوحي وغير ذلك من المهام .

وأما الجن فهم أجسام نارية الأصل فهي مخلوقة من مارج من نار كما ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥) ﴾ [الرحمن] ولهم القدرة على التشكل بصور مختلفة على صورة الإنس كما يتمثل الشيطان بذلك ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨)﴾ [الأنفال] ويستطيع التشكل على صور الحيوان عن أبي ثعلبة الخشني ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : الجن ثلاثة أصناف : صنف لهم أجنحة يطيرون في الهواء و صنف حيات و كلاب و صنف يحلون و يظعنون . المستدرك للحاكم

والجان يتناسلون ويتزوجون ففيهم الذكر والأنثى ، وهم مكلفون مثلنا بالإيمان والعبادات والمعاملات والأخلاق ، ففيهم المسلم والكافر والعاصي ، والصورة التي يتشكلون عليها تحكم عليهم ، فهم لا يتخلصون من الصورة بسهولة كالملائكة ، فلو تعرض أحدهم للأذى وهو على صورة ما فيبقى عليها ودليله ، عن أَبِي السَّائب أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ فِى بَيْتِه قَالَ فَوَجَدْتُهُ يُصَلِّى فَجَلَسْتُ أَنْتَظِرُهُ حَتَّى يَقْضِىَ صَلاَتَهُ فَسَمِعْتُ تَحْرِيكًا فِى عَرَاجِينَ فِى نَاحِيَةِ الْبَيْتِ فَالْتَفَتُّ فَإِذَا حَيَّةٌ فَوَثَبْتُ لأَقْتُلَهَا فَأَشَارَ إِلَىَّ أَن اجْلِسْ. فَجَلَسْتُ فَلَمَّا انْصَرَفَ أَشَارَ إِلَى بَيْتٍ فِى الدَّار فَقَالَ أَتَرَى هَذَا الْبَيْتَ فَقُلْتُ نَعَمْ. قَالَ كَانَ فِيه فَتًى مِنَّا حَدِيثُ عَهْدٍ بِعُرْسٍ - قَالَ - فَخَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - إِلَى الْخَنْدَقِ فَكَانَ ذَلِكَ الْفَتَى يَسْتَأْذِنُ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - بِأَنْصَافِ النَّهَارِ فَيَرْجِعُ إِلَى أَهْلِه فَاسْتَأْذَنَهُ يَوْمًا فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - « خُذْ عَلَيْكَ سِلاَحَكَ فَإِنِّى أَخْشَى عَلَيْكَ قُرَيْظَةَ ». فَأَخَذَ الرَّجُلُ سِلاَحَهُ ثُمَّ رَجَعَ فَإِذَا امْرَأَتُهُ بَيْنَ الْبَابَيْنِ قَائِمَةً فَأَهْوَى إِلَيْهَا الرُّمْحَ لِيَطْعُنَهَا بِه وَأَصَابَتْهُ غَيْرَةٌ فَقَالَتْ لَهُ اكْفُفْ عَلَيْكَ رُمْحَكَ وَادْخُلِ الْبَيْتَ حَتَّى تَنْظُرَ مَا الَّذِى أَخْرَجَنِى. فَدَخَلَ فَإِذَا بِحَيَّةٍ عَظِيمَةٍ مُنْطَوِيَةٍ عَلَى الْفِرَاشِ فَأَهْوَى إِلَيْهَا بِالرُّمْحِ فَانْتَظَمَهَا بِه ثُمَّ

خَرَجَ فَرَكَزَهُ فى الدَّار فَاضْطَرَبَتْ عَلَيْه فَمَا يُدْرَى أَيُّهُمَا كَانَ أَسْرَعَ مَوْتًا الْحَيَّةُ أَم الْفَتَى قَالَ فَجِئْنَا إِلَى رَسُول اللَّهِ -ﷺ- فَذَكَرْنَا ذَلكَ لَهُ وَقُلْنَا ادْعُ اللَّهَ يُحْيِيه لَنَا. فَقَالَ « اسْتَغْفِرُوا لِصَاحِبِكُمْ ». ثُمَّ قَالَ « إِنَّ بِالْمَدِينَةِ جِنًّا قَدْ أَسْلَمُوا فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهُمْ شَيْئًا فَآذِنُوهُ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ فَإِنْ بَدَا لَكُمْ بَعْدَ ذَلكَ فَاقْتُلُوهُ فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ ». رواه مسلم .

هذه الحية كانت جنا فقتلت ، فظلت على صورة الحية والله تعالى أعلم . فهم في ذلك فيهم شبه من الملائكة الطيران والانتقال بسرعة وسماع خبر السماء ، وفيهم شبه كبير من الإنس من ولادة وزواج وأكل وشرب وتكليف ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٢) ﴾ [الأحقاف] ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) ﴾ [الجن] والنبي ﷺ رسول للإنس والجن وخلقهم الله ﷻ لعبادته ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) ﴾ [الجن] ولهم قدرة على رؤيتنا وأما نحن فلم نعطى قدرة على رؤيتهم على صورهم الجنية ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧) ﴾ [الأعراف] ، عَنْ عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " سَتْرُ مَا بَيْنَ أَعْيُنِ الجِنِّ وَعَوْرَاتِ بَنِي آدَمَ: إِذَا دَخَلَ أَحَدُهُمُ الخَلَاءَ، أَنْ يَقُولَ: بِسْمِ اللَّهِ " ت وصححه الالباني وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَشْيَاءُ فِي هَذَا» والشياطين فرقة من الجن وهم المردة العصاة وسيدهم إبليس الرجيم .

(٤) جنة آدم في السماء أم الأرض

أكرم المولى الكريم عبده آدم بعد خلقه وإسجاد ملائكته له بأن اسكنه الجنة هو وزوجه حواء تكريما وفضلا ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) ﴾ [البقرة] ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) ﴾ [الأعراف] ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (١١٩)﴾ [طه]

فذهب جمهور العلماء على أنها جنة المأوى لظاهر الآيات والأحاديث كحديث الشفاعة وحديث الاحتجاج بالقدر ، حديث الحوار بين موسى وآدم عليهم السلام ، عن أَبِى هُرَيْرَةَ وعَنْ حُذَيْفَةَ قَالاَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « يَجْمَعُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ يَا أَبَانَا اسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّةَ. فَيَقُولُ وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلاَّ خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ اذْهَبُوا إِلَى ابْنِى إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ .. الحديث " صحيح مسلم ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ حَاجَّ مُوسَى آدَمَ فَقَالَ لَهُ أَنْتَ الَّذِي أَخْرَجْتَ النَّاسَ مِنْ الْجَنَّةِ بِذَنْبِكَ وَأَشْقَيْتَهُمْ قَالَ قَالَ آدَمُ يَا مُوسَى أَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي أَوْ قَدَّرَهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى " صحيح البخاري

[وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ]لا خلاف أن الله تعالى أخرج إبليس عند كفره وأبعده عن الجنة قال تعالى ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣)﴾ [الأعراف] ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) ﴾ [الأعراف] وبعد إخراجه قال لآدم: اسكن، أي لازم الإقامة واتخذها مسكنا، وهو محل السكون.

وقال ابن مسعود وابن عباس: لما أسكن آدم الجنة مشى فيها مستوحشا، فلما نام خلقت حواء

من ضلعه القصرى من شقه الأيسر ليسكن إليها ويأنس بها، فلما انتبه رآها فقال: من أنت ؟ قالت: امرأة خلقت من ضلعك لتسكن إلي، وهو معنى قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: (إن المرأة خلقت من ضلع – في رواية: وإن أعوج شئ في الضلع أعلاه – لن تستقيم لك على طريقة واحدة فإن استمتعت بها استمتعت [بها] وبها عوج وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها).

قوله تعالى: (الْجَنَّةَ) الجنة: البستان. واستدلوا على بدعتهم بأنها لو كانت جنة الخلد لما وصل إليه إبليس، فإن الله يقول: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣)﴾ [الطور] ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا (٣٥)﴾ [النبأ] ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦)﴾ [الواقعة] وأنه لا يخرج منها أهلها لقوله ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨)﴾ [الحجر]

وقال أبو الحسن الماوردي في تفسيره: "واختلف الناس في الجنة التي أسكناها على قولين: أحدهما أنها جنة الخلد. الثاني: أنها جنة أعدها الله تعالى لهما وجعلها ابتلاء وليست هي جنة الخلد التي جعلها دار جزاء" ومن قال بهذا اختلفوا فيه قولين:

أحدهما: أنها في السماء لأنه أهبطها منها وهذا قول الحسن

الثاني: أنها في الأرض لأنه امتحنهما فيها بالنهي عن الشجرة التي نهيا عنها دون غيرها من الثمار – وهذا قول ابن بحر – وكان ذلك بعد أن أمر إبليس بالسجود لآدم عليه الصلاة والسلام والله أعلم بصواب ذلك هذا كلامه.

وقال ابن الخطيب في تفسيره المشهور واختلفوا في الجنة المذكورة في هذه الآية هل كانت في الأرض أو في السماء، وبتقدير أنها كانت في السماء فهل هي الجنة التي هي دار الثواب وجنة الخلد أو جنة أخرى فقال أبو القاسم البلخي وأبو مسلم الأصبهاني: "هذه الجنة في الأرض" وحملا الإهباط على الانتقال من بقعة إلى بقعة كما في قوله: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ [البقرة: ٦١

] واحتجا عليه بوجوه.

القول الثاني وهو قول الجبائي أن تلك الجنة التي كانت في السماء السابعة.

قال :الباب الثالث: في سياق حجج من اختار أنها جنة الخلد التي يدخلها الناس يوم القيامة قالوا قولنا هذا هو الذي فطر الله عليه الناس صغيرهم وكبيرهم ، لم يخطر بقلوبهم سواه ، وأكثرهم لا يعلم في ذلك نزاعا.

قالوا وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي مالك عن أبي حازم عن أبي هريرة وأبي مالك عن ربعي عن حذيفة قالا قال رسول الله ﷺ : " يجمع الله تعالى الناس فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة فيأتون آدم عليه السلام فيقولون يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم". وذكر الحديث.

قالوا وهذا يدل على أن الجنة التي أخرج منها هي بعينها التي يطلب منه أن يستفتحها.

وفي الصحيحين حديث احتجاج آدم وموسى وقول موسى أخرجتنا ونفسك من الجنة ولو كانت في الأرض فهم قد خرجوا من بساتين فلم يخرجوا من الجنة ، وكذلك قول آدم للمؤمنين يوم القيامة وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم وخطيئته لم تخرجهم من جنات الدنيا.

قالوا وقد قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا منْهَا رَغَدًا حَيْثُ شئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذه الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا منَ الظَّالمينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا ممَّا كَانَا فيه وَقُلْنَا اهْبطُوا بَعْضُكُمْ لبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ في الْأَرْض مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إلَى حينٍ (٣٦)﴾ [البقرة] فهذا يدل على أن هبوطهم كان من الجنة إلى الأرض من وجهين أحدهما من لفظة اهبطوا فإنه نزول من علو إلى سفل والثاني ولكم في الأرض مستقر عقب قوله اهبطوا فدل على أنهم لم يكونوا قبل ذلك في الأرض ثم أكد هذا بقوله في سورة الأعراف ﴿قَالَ فيهَا تَحْيَوْنَ وَفيهَا تَمُوتُونَ وَمنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥)﴾ ولو كانت الجنة في الأرض لكانت حياتهم فيها قبل الإخراج وبعده.

قالوا وقد وصف سبحانه جنة آدم بصفات لا تكون إلا في جنة الخلد فقال : ﴿إنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ

فيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (١١٩) ﴾ [طه] وهذا لا يكون في الدنيا أصلا ؛ فإن الرجل ولو كان في أطيب منازلها لا بد أن يعرض له شيء من ذلك ، وقابل سبحانه بين الجوع والظمأ والعري والضحى ؛ فإن الجوع ذل الباطن والعري ذل الظاهر، والظمأ حر الباطن والضحى حر الظاهر ، فنفى عن سكانها ذل الظاهر والباطن وحر الظاهر والباطن وذلك أحسن من المقابلة بين الجوع والعطش والعري والضحى وهذا شأن ساكن جنة الخلد.

قالوا وأيضا فلو كانت تلك الجنة في الدنيا لعلم آدم كذب إبليس في قوله : ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠)﴾ [طه] فإن آدم كان يعلم أن الدنيا منقضية فانية وأن ملكها يبلى.

قالوا وأيضا هذه القصة في سورة البقرة ظاهرة جدا في أن الجنة التي أخرج منها فوق السماء فإنه سبحانه قال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) ﴾ [البقرة] فهذا إهباط آدم وحواء وإبليس من الجنة فلهذا أتى فيه بضمير الجمع ، وقد قيل إن الخطاب لهما وللحية وهذا ضعيف جدا إذ لا ذكر للحية في شيء من قصة آدم ولا في السياق ما يدل عليها ، وقيل الخطاب لآدم وحواء وأتى فيه بضمير الجمع كقوله ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨)﴾ [الأنبياء] وهما داود وسليمان ، وقيل لآدم وحواء وذريتهما.

وهذه الأقوال ضعيفة غير الأول لأنها قول لا دليل عليه بين ما يدل اللفظ على خلافه ، فثبت أن إبليس داخل في هذا الخطاب وأنه من المهبطين فإذا تقرر هذا فقد ذكر سبحانه الإهباط ثانيا بقوله: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) ﴾ [البقرة] والظاهر أن هذا الإهباط الثاني في غير الأول وهو إهباط من السماء

إلى الأرض والأول إهباط من الجنة وحينئذ فتكون الجنة التي اهبط منها أولا فوق السماء جنة الخلد، وقد ظن الزمخشري أن قوله اهبطوا منها جميعا خطاب لآدم وحواء خاصة وعبر عنهما بالجمع لاستتباعهما ذرياتهما قال والدليل عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) ﴾ [طه] قال ويدل على ذلك قوله: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩) ﴾ [البقرة] وما هو إلا حكم يعم الناس كلهم.

ومعنى قوله بعضكم لبعض عدو ما عليه الناس من التعادي والتباغي وتضليل بعضهم بعضا وهذا الذي اختاره أضعف الأقوال في الآية فإن العداوة التي ذكرها الله تعالى إنما هي بين آدم وإبليس وذريتهما كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر: ٦] وهو سبحانه قد أكد أمر العداوة بين الشيطان والإنسان، وأعاد وأبدى ذكرها في القرآن لشدة الحاجة إلى التحرز من هذا العدو، وأما آدم وزوجته فإنه إنما أخبر في كتابه أنه خلقها ليسكن إليها، وجعل بينهما مودة ورحمة، فالمودة والرحمة بين الرجل وامرأته والعداوة بين الإنسان والشيطان.

وأما قوله تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [طه: ١٢٣] وهذا خطاب لآدم وحواء، وقد جعل بعضهم لبعض عدوا، فالضمير في قوله اهبطا منها أما أن يرجع إلى آدم وزوجته أو إلى آدم وإبليس ولم يذكر الزوجة لأنها تبع له، وعلى هذا فالعداوة المذكورة للمتخاطبين بالإهباط وهما آدم وإبليس فالأمر ظاهر، وأما على الأول فتكون الآية قد اشتملت على أمرين:

أحدهما: أمره تعالى لآدم وزوجه بالهبوط. والثاني: إخباره بالعداوة بين آدم وزوجته وبين إبليس ولهذا أتى الضمير الجمع في الثاني دون الأول ولا بد أن يكون إبليس داخلا في حكم هذه العداوة قطعا كما قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ [طه: ١١٧] وقال للذرية ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر: ٦]

وتأمل كيف اتفقت المواضع التي فيها ذكر العداوة على ضمير الجمع دون التثنية؟

لكن العداوة بين الإنس بعضهم ببعض كائنة ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤] ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤] ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١] ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤)﴾ [التوبة] وأما الإهباط فتارة يذكره بلفظ الجمع وتارة بلفظ التثنية وتارة بلفظ الأفراد كقوله في سورة الأعراف قال ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٣] وكذلك في سورة ص وهذا لإبليس وحده ، وحيث ورد بصيغة الجمع فهو لآدم وزوجه وإبليس ؛ إذ مدار القصة عليهم وحيث ورد بلفظ التثنية فأما أن يكون لآدم وزوجه إذ هما اللذان باشرا الأكل من الشجرة وأقدما على المعصية ، وإما أن يكون لآدم وإبليس إذ هما أبوا الثقلين وأصلا الذرية فذكر حالهما ومآل أمرهما ليكون عظة وعبرة لأولادهما وقد حكيت القولين في ذلك.

والذي يوضح أن الضمير في قوله ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [طه: ١٢٣] اهبطا منها جميعا لآدم وإبليس إن الله سبحانه لما ذكر المعصية أفرد بها آدم دون زوجه فقال: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [طه] وهذا يدل على أن المخاطب بالإهباط هو آدم ومن زين له المعصية ، ودخلت الزوجة تبعا ؛ فإن المقصود إخبار الله تعالى للثقلين بما جرى على أبويهما من شؤم المعصية ومخالفة الأمر فذكر أبويهما أبلغ في حصول هذا المعنى من ذكر أبوي الإنس فقط.

وبالجملة فقوله ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦] ظاهر في الجمع فلا يسوغ حمله على الأثنين في قوله(اهْبِطَا) من غير موجب .

قالوا وأيضا فالجنة جاءت معرفة بلام التعريف في جميع المواضع كقوله: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] ونظائره ولا جنة يعهدها المخاطبون ويعرفونها إلا جنة الخلد التي وعد الرحمن عباده بالغيب فقد صار هذا الاسم علما عليها بالغلبة كالمدينة والنجم والبيت والكتاب ونظائرها فحيث ورد لفظها معرفا انصرف إلى الجنة المعهودة المعلومة في قلوب المؤمنين ، وأما

أن أريد به جنة غيرها فإنها تجيء منكرة أو مقيدة بالإضافة أو مقيدة من السياق بما يدل على أنها جنة في الأرض: فالأول كقوله: ﴿جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ [الكهف: ٣٢] والثاني: كقوله ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ [الكهف: ٣٩] والثالث كقوله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧]

قالوا: ومما يدل على أن جنة آدم هي جنة المأوى ما روى هوذة بن خليفة عن عوف عن قسامة بن زهير عن أبي موسى الأشعري قال إن الله تعالى لما أخرج آدم من الجنة زوده من ثمار الجنة وعلمه صنعة كل شيء فثماركم هذه من ثمار الجنة غير إن هذه تتغير وتلك لا تتغير .*المستدرك صحيح الإسناد و لم يخرجاه ، تعليق الذهبي في التلخيص : صحيح قال الألباني : ضعيف مرفوعاً ، صحيح موقوفاً .*

قالوا وقد ضمن الله سبحانه وتعالى له إن تاب إليه وأناب أن يعيده إليها كما روى المنهال عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) ﴾ [البقرة] قال يا رب ألم تخلقني بيدك قال بلى قال أي رب ألم تنفخ في من روحك قال بلى قال أي رب ألم تسكني جنتك قال بلى قال أي رب ألم تسبق رحمتك غضبك قال بلى قال أرأيت أن تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة قال بلى قال فهو قوله تعالى ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) ﴾ [البقرة] وله طرق عن ابن عباس وفي بعضها كان آدم قال لربه إذ عصاه رب إن أنا تبت وأصلحت فقال له ربه إني راجعك إلى الجنة فهذا بعض ما احتج به القائلون بأنها جنة الخلد ونحن نسوق حجج الآخرين.

قال الألباني في التوسل : وقال الحاكم : (صحيح الإسناد) ووافقه الذهبي وهو كما قالا

قلت : وقول ابن عباس هذا في حكم المرفوع من وجهين :

الأول : أنه أمر غيبي لا يقال من مجرد الرأي . الثاني : أنه ورد في تفسير الآية وما كان كذلك فهو في حكم المرفوع كما تقرر في محله ولا سيما إذا كان من قول إمام المفسرين عبد الله بن عباس ﷺ الذي دعا له رسول الله ﷺ بقوله : (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)

وقد قيل في تفسير هذه الكلمات : إنها ما في الآية الأخرى : { قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين } . وبهذا جزم السيد رشيد رضا في (تفسيره) لكن أشار ابن كثير إلى تضعيفه ولا منافاة عندي بين القولين بل أحدهما يتمم الآخر فحديث ابن عباس لم يتعرض لبيان ما قاله آدم عليه السلام بعد أن تلقى من ربه تلك الكلمات

قال في الباب الرابع في سياق حجج الطائفة التي قالت ليست جنة الخلد وإنما هي جنة في الأرض قالوا هذا قول تكثر الدلائل الموجبة للقول به فنذكر بعضها قالوا قد أخبر الله سبحانه على لسان جميع رسله أن جنة الخلد أنها يكون الدخول إليها يوم القيامة ، ولم يأت زمن دخولها بعد ، وقد وصفها الله سبحانه وتعالى لنا في كتابه بصفاتها ، ومحال أن يصف الله سبحانه وتعالى شيئا بصفته ثم يكون ذلك الشيء بغير تلك الصفة التي وصفه بها .

قالوا فوجدنا الله تعالى وصف الجنة التي أعدت للمتقين بأنها دار المقامة ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) ﴾ [فاطر: ٣٥] ، فمن دخلها أقام بها ولم يقم آدم بالجنة التي دخلها ، ووصفها بأنها جنة الخلد ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥) ﴾ [الفرقان: ١٥] وآدم لم يخلد فيها ، ووصفها بأنها دار ثواب وجزاء لا دار تكليف وأمر ونهى ، ووصفها بأنها دار سلامة مطلقة لا دار ابتلاء وامتحان ، وقد ابتلى آدم فيها بأعظم الابتلاء ، ووصفها بأنها دار لا يعصي الله فيها أبدا وقد عصى آدم ربه في جنته التي دخلها ، ووصفها بأنها ليست دار خوف ولا حزن وقد حصل للأبوين فيها من الخوف والحزن ما حصل ، وسماها دار السلام ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ [الأنعام: ١٢٧] ولم يسلم فيها الأبوان من الفتنة ، ودار القرار ولم يستقرا فيها ، وقال في داخلها وما هم منها بمخرجين ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) ﴾ [الحجر] وقد اخرج منها الأبوان ، وقال لا يمسهم فيها نصب وقد ند فيها آدم هاربا فارا وطفق يخصف ورق الجنة على نفسه وهذا النصب بعينه ، وأخبر أنه لا لغو فيها ولا تأثيم ،وقد سمع فيها آدم لغو إبليس وإثمه ، وأخبر أنه لا يسمع فيها لغو ولا كذاب ، وقد سمع فيها آدم عليه السلام كذب

إبليس ، وقد سماها الله سبحانه وتعالى مقعد صدق ، وقد كذب فيها إبليس وحلف على كذبه وقد قال تعالى للملائكة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠] ولم يقل إني جاعل في جنة المأوى فقالت الملائكة ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة: ٣٠] ، ومحال أن يكون هذا في جنة المأوى وقد أخبر الله تعالى عن إبليس إنه قال لآدم ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠) ﴾ [طه] ؛ فإن كان الله سبحانه وتعالى قد اسكن آدم جنة الخلد والملك الذي لا يبلى فكيف لم يرد عليه ويقول له كيف تدلني على شيء أنا فيه وقد أعطيته ولم يكن الله سبحانه وتعالى قد اخبر آدم إذ أسكنه الجنة أنه فيها من الخالدين ، ولو علم أنها دار الخلد لما ركن إلى قول إبليس ولا مال إلى نصيحته ؛ ولكنه لما كان في غير دار خلود غره بها أطمعه فيه من الخلد .

قالوا ولو كان أدم أسكن جنة الخلد وهي دار القدس التي لا يسكنها إلا طاهر مقدس فكيف توصل إليها إبليس الرجس النجس المذموم المدحور حتى فتن فيها أدم عليه السلام ووسوس له ، وهذه الوسوسة إما أن تكون في قلبه ، وإما أن تكون في أذنه وعلى التقديرين فكيف توصل اللعين إلى دخول دار المتقين ، وأيضا فبعد أن قيل له ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) ﴾ [الأعراف] أيفسح له أن يرقى إلى جنة المأوى فوق السماء السابعة بعد السخط عليه والأبعاد له والزجر والطرد بعتوه واستكباره وهل هذا يلائم قوله فما يكون لك أن تتكبر فيها ؛ فإن كانت مخاطبته لآدم بما خاطبه به وقاسمه عليه ليست تكبرا ، فما التكبر بعد هذا ؟ فإن قلتم فلعل وسوسته وصلت إلى الأبوين وهو في الأرض وهما فوق السماء في عليين فهذا غير معقول لغة ولا حسا ولا عرفا ، وإن زعمتم أنه دخل في بطن الحية حتى أوصل إليهما الوسوسة فأبطل وأبطل إذ كيف يرتقي بعد الاهباط إلى أن يدخل الجنة ولو في بطن الحية ، وإذا قلتم إنه دخل في قلوبهما ووسوس إليهما فالمحذور قائم ، وأيضا فإن الله سبحانه وتعالى حكى مخاطبته لهما كلاما سمعاه شفاها فقال ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ﴾ [الأعراف: ٢٠] وهذا دليل على مشاهدته لهما وللشجرة ، ولما كان آدم خارجا من

الجنة وغير ساكن فيها قال الله تعالى له ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ﴾ [الأعراف: ٢٢] ولم يقل عن هذه الشجرة ، فعندما قال لهما ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة لما أطمعهما في ملكها والخلود في مقرها أتى باسم الإشارة بلفظ الحضور تقريبا لها وإحضارا لها عندهما وربهما تعالى ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ﴾ [الأعراف: ٢٢] ولما أراد إخراجهما منها فأتى باسم الإشارة بلفظ البعد والغيبة كأنهما لم يبق لهما من الجنة حتى ولا مشاهدة الشجرة التي نهيا عنها، وأيضا فإنه سبحانه قال ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ [فاطر: ١٠] ووسوسة اللعين من أخبث الكلم فلا تصعد إلى محل القدس ، وقد روى عن النبي أن آدم عليه السلام نام في جنته ، وجنة الخلد لا نوم فيها بالنص وإجماع المسلمين فإن النبي سئل أينام أهل الجنة في الجنة قال لا النوم أخو الموت والنوم وفاة وقد نطق به القرآن ، والوفاة تقلب حال ودار السلام مسلمة من تقلب الأحوال والنائم ميت أو كالميت ، قلت الحديث الذي أشار إليه المعروف أنه موقوف من رواية أبن أبي نجيح عن مجاهد قال خلقت حواء من قصيري آدم وهو نائم وقال أسباط عن السدي أسكن آدم عليه السلام الجنة وكان يمشي فيها وحشا ليس له زوج يسكن إليها فنام نومه فاستيقظ فإذا عند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه فسألها ما أنت قالت امرأة قال ولم خلقت قالت لتسكن إلي . وقال ابن إسحاق عن ابن عباس ألقى الله على آدم عليه السلام السنة ثم اخذ ضلعا من أضلاعه من شقه الأيسر ولأم مكانه لحما وآدم نائم لم يهب من نومته حتى خلق الله من ضلعه تلك زوجته حواء فسواها امرأة يسكن إليها فلما كشف عنه السنة وهب من نومته رآها إلى جنبه فقال لحمي ودمي وروحي فسكن إليها .

قالوا ولا نزاع أن الله سبحانه وتعالى خلق آدم في الأرض ولم يذكر في موضع واحد أصلا أنه نقله إلى السماء بعد ذلك ، ولو كان قد نقله ذلك إلى السماء لكان هذا أولى بالذكر لأنه من أعظم الآيات ومن أعظم النعم عليه ؛ فإنه كان معراجا ببدنه وروحه من الأرض إلى فوق السماوات قالوا وكيف ينقله سبحانه ويسكنه فوق السماء وقد اخبر ملائكته أنه جاعله في الأرض خليفة وكيف يسكنه دار الخلد التي من دخلها خلد فيها ولا يخرج منها قال تعالى ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا

بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر: ٤٨]

قالوا ولم يكن معنا في المسألة إلا أن الله سبحانه أهبط إبليس من السماء حين امتنع من السجود لآدم عليه السلام وهذا أمر تكوين لا يمكن وقوع خلافه ثم أدخل آدم عليه السلام الجنة بعد هذا فإن الأمر بالسجود كان عقب خلقه من غير فصل فلو كانت الجنة فوق السماوات لم يكن لإبليس سبيل إلى صعوده إليها وقد أهبط منها ، وأما تلك التقادير التي قدرتموها فتكلفات ظاهرة كقول من قال يجوز أن يصعد إليها صعودا عارضا لا مستقرا وقول من قال أدخلته الحية وقول من قال دخل في أجوافها وقول من قال يجوز أن تصل وسوسته إليهما وهو في الأرض وهما فوق السماء ولا يخفى ما في ذلك من التعسف الشديد والتكلف البعيد ، وهذا بخلاف قولنا فإنه سبحانه لما أهبطه من ملكوت السماء حيث لم يسجد لآدم عليه السلام أشرب عداوته ، فلما أسكنه جنته حسده عدوه وسعى بكيده وغروره في إخراجه منها والله أعلم .

وقالوا ومما يدل على أن جنة آدم لم تكن جنة الخلد التي وعد المتقون أن الله سبحانه لما خلقه أعلمه أن لعمره أجلا ينتهي إليه وأنه لم يخلقه للبقاء كما روى الترمذي في جامعه من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله لما خلق الله آدم عليه السلام ونفخ فيه الروح عطس فقال الحمد لله فحمد الله بأذنه فقال ربه يرحمك الله يا آدم أذهب إلى أولئك الملائكة إلى ملأ منهم جلوس فقال السلام عليكم قالوا وعليك السلام الخ ثم رجع إلى ربه فقال إن هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم فقال الله له ويداه مقبوضتان أختر أيهما شئت فقال أخترت يمين ربي وكلتا يديه يمين مباركة ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته فقال يا رب ما هؤلاء قال هؤلاء ذريتك فإذا كل إنسان مكتوب بين عينيه عمره فاذا فيهم رجل أضوؤهم قال يا رب من هذا قال هذا ابنك داود قد كتبت له عمرا أربعين سنة قال يا رب زده في عمره قال ذلك الذي كتبت له قال أي رب فاني قد جعلت له من عمري ستين سنة قال أنت وذلك قال ثم اسكن الجنة ما شاء الله ثم اهبط منها فكان آدم عليه السلام يعد لنفسه قال فأتاه ملك الموت فقال له آدم قد عجلت قد كتبت إلى ألف سنة قال بلى ولكنك جعلت لأبنك داود ستين سنة فجحد فجحدت ذريته ونسي فنسيت ذريته قال فمن

يومئذ أمر بالكتاب والشهود قال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ، وقد روى من غير وجه عن أبي هريرة قالوا فهذا صريح في أن آدم عليه السلام لم يخلق في دار البقاء التي لا يموت من دخلها وإنما خلق في دار الفناء التي جعل الله تعالى لها ولسكانها أجلا معلوما وفيها اسكن فإن قيل فإذا كان آدم عليه السلام قد علم أن له عمرا مقدرا وأجلا ينتهي إليه وإنه ليس من الخالدين فكيف لم يعلم كذب إبليس في قوله هل أدلك على شجرة الخلد وقوله أو تكونا من الخالدين فالجواب من وجهين أحدهما أن الخلد لا يستلزم الدوام والبقاء بل هو المكث الطويل كما سيأتي الثاني أن إبليس لما حلف له وغره وأطمعه في الخلود نسي ما قدر له من عمره .

قالوا وأيضا فمن المعلوم الذي لا ينازع فيه مسلم أن الله سبحانه خلق آدم عليه السلام من تربة هذه الأرض وأخبر أنه خلقه من سلالة من طين وأنه خلقه من صلصال من حمأ مسنون فقيل هو الذي له صلصلة لبيسة ، وقيل هو الذي تغيرت رائحته من قولهم صل اللحم إذا تغير والحمأ الطين الأسود المتغير والمسنون المصبوب وهذه كلها أطوار للتراب الذي هو مبدؤه الأول كما أخبر عن أطوار خلق الذرية من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ولم يخبر سبحانه وتعالى أنه رفعه من الأرض إلى فوق السماوات لا قبل التخليق ولا بعده فأين الدليل الدال على إصعاد مادته أو إصعاده هو بعد خلقه وهذا ما لا دليل لكم عليه ولا هو لازم من لوازم ما اخبر الله به .

وقالوا من المعلوم أن ما فوق السموات ليس بمكان للطين الأرضي المتغير الرائحة الذي قد انتن من تغيره ، وإنما محل هذه الأرض التي هي محل المتغيرات الفاسدات ، وأما ما فوق الأفلاك فلا يلحقه تغير ولا نتن ولا فساد ولا استحالة ، فهذا أمر لا يرتاب فيه العقلاء .

قالوا وقد قال الله تعالى ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) ﴾ [هود] فأخبر سبحانه أن عطاء جنة الخلد غير مجذوذ قالوا فإذا جمع ما أخبر به سبحانه من أنه خلقه من الأرض وجعله خليفة في الأرض، وأن إبليس وسوس إليه في مكانه الذي أسكنه فيه بعد أن أهبطه من السماء بامتناعه من السجود له ، وانه أخبر ملائكته أنه جاعل في الأرض خليفة ، وان دار الخلد دار جزاء وثواب

على الامتحان والتكاليف ،وأنه لا لغو فيها ولا تأثيم ولا كذاب ، وأن من دخلها لا يخرج منها ولا ييأس ولا يحزن ولا يخاف ولا ينام ، وان الله حرمها على الكافرين وإبليس رأس الكفر ؛ فإذا جمع ذلك بعضه إلى بعض وفكر فيه المنصف الذي رفع له علم الدليل فشمر إليه بنفسه عن حضيض التقليد تبين له الصواب والله الموفق ، فلو لم يكن في المسألة إلا أن الجنة ليست دار تكليف وقد كلف الله سبحانه الأبوين بنهيهما عن الأكل من الشجرة فدل على أنها دار تكليف لا جزاء وخلد ، فهذا أيضا بعض ما احتجت به هذه الفرقة على قولها والله أعلم .

قالوا أما قولكم إن قولنا هو الذي فطر الله عليه عباده بحيث لا يعرفون سواه ، فالمسألة سمعية لا تعرف إلا بأخبار الرسل ، ونحن وأنتم أنما تلقينا هذا من القرآن لا من المعقول ولا من الفطرة فالمتبع فيه ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ، ونحن نطالبكم بصاحب واحد أو تابع أو أثر صحيح أو حسن بأنها جنة الخلد التي أعدها الله للمؤمنين بعينها ، ولن تجدوا إلى ذلك سبيلا ، وقد أوجدناكم من كلام السلف ما يدل على خلافه ؛ ولكن لما وردت الجنة مطلقة في هذه القصة ووافقت أسم الجنة التي أعدها الله لعباده في أطلاقها وبعض أوصافها فذهب كثير من الأوهام إلى أنها هي بعينها ؛ فإن أردتم بالفطرة هذا القدر لم يفدكم شيئا؛ وإن أردتم أن الله فطر الخلق على ذلك كما فطرهم على حسن العدل وقبح الظلم وغير ذلك من الأمور الفطرية فدعوى باطلة ونحن إذا رجعنا إلى فطرنا لم نجد علمها بذلك كعلمها بوجوب الواجبات واستحالة المستحيلات ، وأما استدلالكم بحديث أبي هريرة ﷺ وقول آدم وهل أخرجكم منها إلا خطيئة أبيكم ، فإنما يدل على تأخر آدم عليه السلام عن الاستقباح للخطيئة التي قد تقدمت منه في دار الدنيا ، وأنه بسبب تلك الخطيئة حصل له الخروج من الجنة كما في اللفظ الآخر أني نهيت عن أكل الشجرة فأكلت منها ، فأين في هذا ما يدل على أنها جنة المأوى بمطابقة أو تضمن أو استلزام وكذلك قول موسى له أخرجتنا ونفسك من الجنة ؛ فإنه لم يقل له أخرجتنا من جنة الخلد ، وقولكم أنهم خرجوا إلى بساتين من جنس الجنة التي في الأرض ، فاسم الجنة وأن أطلق على تلك البساتين فبينها وبين جنة آدم ما لا يعلمه إلا الله ، وهي كالسجن بالنسبة إليها ، واشتراكهما

في كونها في الأرض لا ينفي تفاوتها أعظم تفاوت في جميع الأشياء ، وأما استدلالكم بقوله تعالى وقلنا أهبطوا عقيب إخراجهم من الجنة ، فلفظ الهبوط لا يستلزم النزول من السماء إلى الأرض ، غايته أن يدل على النزول من مكان عال إلى أسفل منه ، وهذا غير منكر ؛ فإنها كانت جنة في أعلى الأرض فاهبطوا منها إلى الأرض ، وقد بينا أن الأمر كان لآدم عليه السلام وزوجه وعدوهما ، فلو كانت الجنة في السماء لما كان عدوهما متمكنا منها بعد اهباطه الأول لما أبى السجود لآدم عليه السلام ، فالآية أيضا من أظهر الحجج عليكم ولا تغني عنكم وجوه التعسفات والتكلفات التي قدرتموها وقد تقدمت ، وأما قوله تعالى ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين فهذا لا يدل على أنهم لم يكونوا قبل ذلك في الأرض ؛ فإن الأرض اسم جنس ، وكانوا في أعلاها وأطيبها وأفضلها في محل لا يدركهم فيه جوع ولا عرى ولا ظمأ ولا ضحى فاهبطوا إلى أرض يعرض فيها ذلك كله ، وفيها حياتهم وموتهم وخروجهم من القبور والجنة التي اسكناها لم تكن دار نصب ولا تعب ولا أذى والأرض التي اهبطوا إليها هي محل التعب والنصب والأذى وأنواع المكاره ، وأما قولكم إنه سبحانه وتعالى وصفها بصفات لا تكون في الدنيا فجوابه أن تلك الصفات لا تكون في الأرض التي أهبطوا إليها فمن أين لكم أنها لا تكون في الأرض التي اهبطوا منها ، وأما قولكم إن آدم عليه السلام كان يعلم إن الدنيا منقضية فانية فلو كانت الجنة فيها لعلم كذب إبليس في قوله هل أدلك على شجرة الخلد ، فجوابه من وجهين أحدهما أن اللفظ أنها يدل على الخلد وهو أعم من الدوام الذي لا انقطاع له ؛ فإنه في اللغة المكث الطويل ، ومكث كل شيء بحسبه ، ومنه قولهم رجل مخلد إذا أسن وكبر، ومنه قولهم لأثافي الصخور خوالد لطول بقائها بعد دروس الأطلال قال : إلا رمادا هامدا دفعت ... عنه الرياح خوالد الفحم (سحم)

ونظير هذا أطلاقهم القديم على ما تقادم عهده ، وإن كان له أول كما قال تعالى كالعرجون القديم وإنك لفي ضلالك القديم وأفك قديم ، وقد أطلق تعالى الخلود في النار على عذاب بعض العصاة كقاتل النفس ، وأطلقه النبي ﷺ على قاتل نفسه .

الوجه الثاني أن العلم بانقطاع الدنيا ومجيء الآخرة أنما يعلم بالوحي ، ولم يتقدم لآدم عليه الصلاة والسلام نبوة يعلم بها ذلك ، وهو وإن نبأه الله سبحانه وتعالى وأوحى إليه وأنزل عليه صحفا كما في حديث أبي ذر لكن هذا بعد اهباطه إلى الأرض بنص القرآن ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) ﴾ [طه: ١٢٣] وكذلك في سورة البقرة ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) ﴾ [البقرة]

وأما قولكم أن الجنة وردت معرفة باللام التي للعهد فتنصرف إلى جنة الخلد ، فقد وردت معرفة باللام غير مراد بها جنة الخلد قطعا ،كقوله تعالى ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧)﴾ [القلم] ، وقولكم أن السياق ها هنا دل على أنها جنة في الأرض ، قلنا والأدلة التي ذكرناها دلت على أن جنة آدم عليه السلام في الأرض فلذلك صرنا إلى موجبها إذ لا يجوز تعطيل دلالة الدليل الصحيح

وأما استدلالكم بأثر أبي موسى أن الله أخرج آدم عليه السلام من الجنة وزوده من ثمارها فليس فيه زيادة على ما دل عليه القرآن إلا تزوده منها ،وهذا لا يقتضي أن تكون جنة الخلد

وقولكم أن هذه تتغير وتلك لا تتغير فمن أين لكم أن الجنة التي اسكنها آدم كان التغير يعرض لثمارها كما يعرض لهذه الثمار ، وقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم أي لم يتغير ولم ينتن وقد أبقى سبحانه في هذا العالم طعام العزير وشرابه مائة سنة لم يتغير . الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَوْلَا بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَخْنَزْ اللَّحْمُ وَلَوْلَا حَوَّاءُ لَمْ تَخُنْ أُنْثَى زَوْجَهَا الدَّهْرَ .صحيح البخاري ، ورواية مسلم ،« لَوْلاَ بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَخْبُثِ الطَّعَامُ وَلَمْ يَخْنَزِ اللَّحْمُ وَلَوْلاَ حَوَّاءُ لَمْ تَخُنْ أُنْثَى زَوْجَهَا الدَّهْرَ ».

وأما قولكم أن الله سبحانه وتعالى ضمن لآدم عليه السلام إن تاب أن يعيده إلى الجنة فلا ريب أن الأمر كذلك؛ ولكن ليس يعلم أن الضمان إنما يتناول عوده إلى تلك الجنة بعينها بل إذا أعاده إلى جنة الخلد فقد وفى سبحانه بضمانه حق الوفاء ، ولفظ العود لا يستلزم الرجوع إلى عين الحالة

الأولى ولا زمانها ولا مكانها بل ولا إلى نظيرها كما قال شعيب لقومه ﴿قَد افْتَرَيْنَا عَلَى اللهَّ كَذبًا إنْ عُدْنَا في ملَّتكُمْ بَعْدَ إذْ نَجَّانَا اللهَّ منْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فيهَا إلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهَّ رَبُّنَا ﴾ [الأعراف: ٨٩] ، وقد جعل الله سبحانه المظاهر عائدا بإرادته الوطء ثانيا أو بنفس الوطء أو بالإمساك وكل منها غير الأول لا عينه ، فهذا ما أجابت به هذه الطائفة لمن نازعها .

الباب السادس في جواب من زعم أنها جنة الخلد عما احتج به منازعوهم

قالوا أما قولكم إن الله سبحانه أخبر أن جنة الخلد إنما يقع الدخول إليها يوم القيامة، ولم يأت زمن دخولها بعد ، فهذا حق في الدخول المطلق الذي هو دخول استقرار ودوام ، وأما الدخول العارض فيقع قبل يوم القيامة ، وقد دخل النبي ﷺ الجنة ليلة الإسراء وأرواح المؤمنين والشهداء في البرزخ في الجنة ، وهذا غير الدخول الذي اخبر الله به في يوم القيامة فدخول الخلود إنما يكون يوم القيامة ، فمن أين لكم أن مطلق الدخول لا يكون في الدنيا ، وبهذا خرج الجواب عن استدلالكم بكونها دار المقامة ودار الخلد .

قالوا وأما احتجاجكم بسائر الوجوه التي ذكرتموها في الجنة ، وأنها لم توجد في جنة آدم عليه السلام من العرى والنصب والحزن واللغو والكذب وغيرها ، فهذا كله حق لا ننكره نحن ولا أحد من أهل الإسلام ؛ ولكن هذا إذا دخلها المؤمنون يوم القيامة كما يدل عليه سياق الآيات كلها ، فإن نفي ذلك مقرون بدخول المؤمنين إياها ، وهذا لا ينفي أن يكون فيها بين أبوي الثقلين ما حكاه الله سبحانه وتعالى من ذلك ، ثم يصير الأمر عند دخول المؤمنين إياها إلى ما أخبر الله عنها فلا تنافي بين الأمرين .

وأما قولكم أنها دار جزاء وثواب لا دار تكليف وقد كلف الله سبحانه آدم بالنهي عن الأكل من تلك الشجرة فدل على أن تلك الجنة دار تكليف لا دار خلود فجوابه من وجهين :

أحدهما أنه إنما تمتنع أن تكون دار تكليف إذا دخلها المؤمنين يوم القيامة فحينئذ ينقطع التكليف وأما وقوع التكليف فيها في دار الدنيا فلا دليل على امتناعه البتة ، كيف وقد ثبت عن النبي أنه قال دخلت البارحة الجنة فرأيت امرأة تتوضأ إلى جانب قصر فقلت لمن أنت الحديث (أَنَّ أَبَا

هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُول اللهِّ ﷺ إِذْ قَالَ بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي فِي الْجَنَّةِ فَإِذَا امْرَأَةٌ تَتَوَضَّأُ إِلَى جَانِبِ قَصْرٍ فَقُلْتُ لِمَنْ هَذَا الْقَصْرُ فَقَالُوا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَذَكَرْتُ غَيْرَتَهُ فَوَلَّيْتُ مُدْبِرًا فَبَكَى عُمَرُ وَقَالَ أَعَلَيْكَ أَغَارُ يَا رَسُولَ اللهِّ . متفق عليه) وغير ممتنع أن يكون فيها من يعمل بأمر الله ويعبد الله قبل يوم القيامة بل هذا هو الواقع ؛ فإن من فيها الآن مؤتمرون بأوامر من قبل ربهم لا يتعدونها سواء سمى ذلك تكليفا أو لم يسم .

الوجه الثاني أن التكليف لم يكن بالأعمال التي يكلف بها الناس في الدنيا من الصيام والصلاة والجهاد ونحوها ، وإنما كان حجرا عليهما في شجرة واحدة من جملة أشجارها ، إما واحدة بالعين أو بالنوع وهذا القدر لا يمتنع وقوعه في دار الخلد كما أن كل واحد محجور عليه أن يقرب أهل غيره فيها ، فإن أردتم بكونها ليست دار تكليف امتناع وقوع مثل هذا فيها في وقت من الأوقات فلا دليل عليه ، وإن أردتم أن تكاليف الدنيا منتفية عنها فهو حق ؛ ولكن لا يدل على مطلوبكم .

وأما استدلالكم بنوم آدم فيها والجنة لا ينام أهلها ، فهذا إن ثبت النقل بنوم آدم فإنما ينفي النوم عن أهلها يوم دخول الخلود حيث لا يموتون ، وأما قبل ذلك فلا .

وأما استدلالكم بقصة وسوسة إبليس له بعد اهباطه وإخراجه من السماء ، فلعمر الله أنه لمن أقوى الأدلة وأظهرها على صحة قولكم ، وتلك التعسفات لدخوله الجنة وصعوده إلى السماء بعد اهباط الله له منها لا يرتضيها منصف ؛ ولكن لا يمتنع أن يصعد إلى هنالك صعودا عارضا لتمام الابتلاء والامتحان الذي قدره الله تعالى وقدر أسبابه ؛ وإن لم يكن ذلك المكان مقعدا له مستقرا كما كان ، وقد اخبر الله سبحانه عن الشياطين أنهم كانوا قبل مبعث رسول الله يقعدون من السماء مقاعد للسمع فيستمعون الشيء من الوحي ، وهذا صعود إلى هناك ؛ ولكنه صعود عارض لا يستقرون في المكان الذي يصعدون إليه مع قوله تعالى ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦] فلا تنافي بين هذا الصعود وبين الأمر بالهبوط فهذا محتمل والله اعلم .

وأما استدلالكم بأن الله سبحانه أعلم آدم عليه السلام مقدار أجله وما ذكرتم من الحديث

وتقرير الدلالة منه ، فجوابه أن إعلامه بذلك لا ينافي إدخاله جنة الخلد وإسكانه فيها مدة .

وأما احتجاجكم بكونه خلق من الأرض ، فلا ريب في ذلك ؛ ولكن من أين لكم أنه كمل خلقه فيها ، وقد جاء في بعض الآثار أن الله سبحانه ألقاه على باب الجنة أربعين صباحا فجعل إبليس يطوف به ويقول لأمر ما خلقت فلما رآه أجوف علم أنه خلق لا يتمالك فقال لئن سلطت عليه لأهلكنه ولئن سلط علي لأعصينه مع أن قوله سبحانه ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)﴾ [البقرة] يدل على أنه كان معهم في السماء حيث أنبأهم بتلك الأسماء ، وإلا فهم لم ينزلوا كلهم إلى الأرض حتى سمعوا منه ذلك ، ولو كان خلقه قد كمل في الأرض ، لم يمتنع أن يصعده سبحانه إلى السماء لأمر دبره وقدره ، ثم يعيده إلى الأرض ، فقد اصعد المسيح إلى السماء ثم ينزله إلى الأرض قبل يوم القيامة ، وقد أسرى ببدن رسول الله وروحه إلى فوق السماوات ، فهذا جواب القائلين بأنها جنة الخلد لمنازعيهم والله أعلم .

وقد ذكر الإمام الحافظ ابن كثير في سفر "البداية والنهاية" في جزء قصص الأنبياء هذا الخلاف فقال رحمه الله : وإنما الخلاف الذي ذكروه في أن هذه الجنة التي دخلها آدم هل هي في السماء أو في الأرض هو الخلاف الذي ينبغي فصله والخروج منه ، والجمهور على أنها هي التي في السماء وهي جنة المأوى لظاهر الآيات والأحاديث كقوله تعالى ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] والألف واللام ليست للعموم ، ولا لمعهود لفظي ، وإنما تعود على معهود ذهني وهو المستقر شرعا من جنة المأوى ، وكقول موسى عليه السلام لآدم عليه السلام علام أخرجتنا ونفسك من الجنة الحديث كما سيأتي الكلام عليه ، وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي مالك الأشجعي واسمه سعد بن طارق عن أبي حازم سلمة بن دينار عن أبي هريرة وأبو مالك عن ربعي عن حذيفة قالا قال رسول الله ﷺ يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حين

تزلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم ، وذكر الحديث بطوله ، وهذا فيه قوة جيدة ظاهرة في الدلالة على أنها جنة المأوى وليست تخلو عن نظر

وقال آخرون بل الجنة التي أسكنها آدم لم تكن جنة الخلد لأنه كلف فيها أن لا يأكل من تلك الشجرة ؛ ولأنه نام فيها ، وأخرج منها ،ودخل عليه إبليس فيها ، وهذا مما ينافي أن تكون جنة المأوى ، وهذا القول محكي عن أبي بن كعب وعبدالله بن عباس ووهب بن منبه وسفيان بن عيينة واختاره ابن قتيبة في المعارف والقاضي منذر بن سعيد البلوطي في تفسيره وأفرد له مصنفا على حدة وحكاه عن أبي حنيفة الإمام وأصحابه رحمهم الله ، ونقله أبو عبدالله محمد بن عمر الرازي بن خطيب الري في تفسيره عن أبي القاسم البلخي وأبي مسلم الأصبهاني ، ونقله القرطبي في تفسيره عن المعتزلة والقدرية ، وهذا القول هو نص التوراة التي بأيدي أهل الكتاب ، وممن حكى الخلاف في هذه المسألة أبو محمد بن حزم في الملل والنحل وأبو محمد بن عطية في تفسيره وأبو عيسى الرماني في تفسيره

وحكى عن الجمهور الأول وأبو القاسم الراغب والقاضي الماوردي في تفسيره فقال واختلف في الجنة التي أسكناها يعني آدم وحواء على قولين أحدهما أنها جنة الخلد الثاني جنة أعدها الله لهما وجعلها دار ابتلاء وليست جنة الخلد التي جعلها دار جزاء ومن قال بهذا اختلفوا على قولين أحدهما أنها في السماء لأنه أهبطهما منها وهذا قول الحسن والثاني أنها في الأرض لأنه امتحنهما فيها بالنهي عن الشجرة التي نهيا عنها دون غيرها من الثمار وهكذا قول ابن يحيى وكان ذلك بعد أن أمر إبليس بالسجود لآدم والله أعلم بالصواب من ذلك .

هذا كلامه فقد تضمن كلامه حكاية أقوال ثلاثة وأشعر كلامه أنه متوقف في المسألة ولقد حكى أبو عبدالله الرازي في تفسيره في هذه المسألة أربعة أقوال هذه الثلاثة التي أوردها الماوردي ورابعها الوقف ، وحكى القول بأنها في السماء وليست جنة المأوى عن أبي علي الجبائي ، وقد أورد أصحاب القول الثاني سؤالا يحتاج مثله إلى جواب فقالوا لا شك أن الله سبحانه وتعالى

طرد إبليس حين امتنع من السجود عن الحضرة الإلهية وأمره بالخروج عنها والهبوط منها ، وهذا الأمر ليس من الأوامر الشرعية بحيث يمكن مخالفته ، وإنما هو أمر قدري لا يخالف ولا يمانع ؛ ولهذا ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا﴾ [الأعراف: ١٨] قال اخرج ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣)﴾ [الأعراف] ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤)﴾ [الحجر] والضمير عائد إلى الجنة أو السماء أو المنزلة وأيا ما كان ، فمعلوم أنه ليس له الكون قدرا في المكان الذي طرد عنه وأبعد منه ، لا على سبيل الاستقرار ولا على سبيل المرور والاجتياز .

قالوا ومعلوم من ظاهر سياقات القرآن أنه وسوس لآدم وخاطبه بقوله له ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠)﴾ [طه:] وبقوله ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢)﴾ [الأعراف] وهذا ظاهر في اجتماعه معهما في جنتهما ، وقد أجيبوا عن هذا بأنه لا يمتنع أن يجتمع بهما في الجنة على سبيل المرور فيها لا على سبيل الاستقرار بها ، أو أنه وسوس لهما وهو على باب الجنة أو من تحت السماء وفي الثلاثة نظر والله أعلم .

ومما احتج به أصحاب هذه المقالة ما رواه عبدالله بن الإمام أحمد في الزيادات عن هدبة بن خالد عن حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن البصري عن يحيى بن ضمرة السعدي عن أبي بن كعب قال إن آدم لما احتضر اشتهى قطفا من عنب الجنة فقالوا لهم ارجعوا فقد كفيتموه فانتهوا إليه فقبضوا روحه وغسله وحنطوه وكفنوه وصلى عليه جبريل ومن خلفه من الملائكة ودفنوه وقالوا هذه سنتكم في موتاكم وسيأتي الحديث بسنده وتمام لفظه عند ذكر وفاة آدم عليه السلام ، قالوا فلولا أنه كان الوصول إلى الجنة التي كان فيها آدم التي اشتهى منها القطف ممكنا لما ذهبوا يطلبون ذلك ، فدل على أنها في الأرض لا في السماء والله تعالى أعلم

قالوا والاحتجاج بأن الألف واللام في قوله ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] لم يتقدم عهد يعود عليه ، فهو المعهود الذهني مسلم ، ولكن هو ما دل عليه سياق الكلام فإن آدم خلق من الأرض ، ولم ينقل أنه رفع إلى السماء ، وخلق ليكون في الأرض ، وبهذا أعلم الرب الملائكة حيث قال ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] قالوا وهذا كقوله تعالى ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧] فالألف واللام ليس للعموم ، ولم يتقدم معهود لفظي ، وإنما هي للمعهود الذهني الذي دل عليه السياق وهو البستان.

قالوا وذكر الهبوط لا يدل على النزول من السماء قال الله تعالى ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨)﴾ [هود] وإنما كان في السفينة حين استقر على الجودي ونضب الماء عن وجه الأرض أمر أن يهبط إليها هو ومن معه مباركا عليه وعليهم ، وقال تعالى ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة] الآية وقال تعالى ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] الآية وفي الأحاديث واللغة من هذا كثير .

قالوا ولا مانع بل هو الواقع أن الجنة التي أسكنها آدم كانت مرتفعة عن سائر بقاع الأرض ذات أشجار وثمار وظلال ونعيم ونضرة وسرور كما قال تعالى ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (١١٩)﴾ [طه] أي لا يذل باطنك بالجوع ولا ظاهرك بالعرى وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى أي لا يمس باطنك حر الظمأ ولا ظاهرك حر الشمس ولهذا قرن بين هذا وهذا وبين هذا وهذا لما بينهما من الملائمة، فلما كان منه ما كان من أكله من الشجرة التي نهى عنها أهبط إلى أرض الشقاء والتعب والنصب والكدر والسعي والنكد والابتلاء والاختبار والامتحان واختلاف السكان دينا وأخلاقا وأعمالا وقصودا وإرادات وأقوالا وأفعالا كما ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦)﴾ [البقرة] ، ولا يلزم من هذا أنهم كانوا في السماء كما ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ

الْآخِرَة جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) ﴾ [الإسراء: ١٠٤] ومعلوم أنهم كانوا فيها لم يكونوا في السماء قالوا وليس هذا القول مفرعا على قول من ينكر وجود الجنة والنار اليوم ، ولا تلازم بينهما ، فكل من حكى عنه هذا القول من السلف ، وأكثر الخلف ممن يثبت وجود الجنة والنار اليوم كما دلت عليه الآيات والأحاديث الصحاح .. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب

أقول ختاما لهذا المبحث المسالة علمية لا تؤثر على الاعتقاد الصحيح والله أعلم .

(٥) اتصال إبليس بآدم

الاتصال ثابت بنص القرآن ، اعلم أن إبليس قبل أن يصبح شيطانا كان عبدا صالحا يحيا ويعبد الله ﷻ مع الملائكة كما جاءت بهذا الآثار وهو مضمون الكتاب الحكيم ، ومما يدل على هذا المعنى شموله أمر السجود قال تعالى { قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ } الأعراف ، فهو من المشمولين بالسجود لآدم ﷺ .

فمن هذه الأبواب دخل الشيطان على آدم ﷺ ، فاستغل نسيانه لأمر الشجرة المحرمة﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) ﴾ طه ، وغره بالخلود والملك الدائم ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠) ﴾طه ، ﴿ وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) ﴾ ولحسن ظن آدم وزوجه بهذا المخلوق الذي يحلف الأيمان المغلظة في جنة آدم ، وذاك الناصح الشفوق ذاقا الشجرة ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ ﴾ فجرى لهما ما جرى .

تأمل معي هذه الآيات : فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤) ﴾ [الأعراف]

قال تعالى ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ﴾ [طه] ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) ﴾[البقرة] وفي سورة الناس﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ

الْخَنَّاس (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاس (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاس (٦) ﴾ [الناس]
الوسوسة والوسواس: الصوت الخفي. ويقال لهمس الصائد والكلاب، وصوت الحلي: وسواس. والوسوس بكسر الواو الأول مصدر، وبفتحها الاسم، وهو أيضاً من أسماء الشيطان كما في قوله تعالى: {مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ} ويقال لحديث النفس: وسواس ووسوسة.
روى ابن كثير في تفسيره عند قول الله تعالى ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨)﴾ [الأنفال]
عن ابن عباس أن إبليس خرج مع قريش في صورة سراقة بن مالك بن جعشم فلما حضر القتال ورأى الملائكة نكص على عقبيه وقال: إني بريء منكم فتشبث به الحارث بن هشام فنخر في وجهه فخر صعقاً فقيل له: ويلك يا سراقة على هذه الحال تخذلنا وتبرأ منا فقال: إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب.
فهذا الأثر وغيره تبين لنا قدرة الجن والشياطين على تقمص صور الإنس والحيوان ، فقد ورد في الصحيحين أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- يَقُولُ « مَنْ رَآنِى فِى الْمَنَامِ فَسَيَرَانِى فِى الْيَقَظَةِ أَوْ لَكَأَنَّمَا رَآنِى فِى الْيَقَظَةِ لاَ يَتَمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِى ». " وإن من فتنته أن يقول لأعرابي أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك وأتشهد أني ربك ؟ فيقول نعم . فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه فيقولان يا بني اتبعه . فإنه ربك "
فسياق الحوار الذي دار بين آدم وزوجه وإبليس يدل على أنهما رأياه متمثلا بصورة ما وليس على وسوسة داخلية أي حديث نفس لأنه كان يخاطب الاثنين معا في بعض الآيات الكريمات) ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا

أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) ﴾ فقوله ﷻ (وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ) فيه إشارة إلى خطاب وجها لوجه مع الاثنين وكذلك القسم (وَقَاسَمَهُمَا) لولا انه مباشرة ويرونه لما غر الزوجان ، فلو أقسم الشيطان في جوف الإنسان، لا يعتبر الإنسان هذا القسم قسما ، ولا يعتد به سيدرجه تحت حديث النفس ، وربما الذي دفع آدم وحواء إلى تصديقه للقسم واليمين أنه جرى في الجنة ، ولا يمكن للشيطان العودة إليها بعد طرده من سكن السماء ، ولم يفطن أن امتحانه سيكون في هذه الشجرة المحرمة ، وللطباع التي خلق عليها الإنسان من النسيان وحسن الظن والغفلة وحب الخلود وكره الموت دور في التصديق والاستسلام لإغواء الشيطان .ولابد أن الشيطان لم يأته على الصورة التي عرفه به والله أعلم .

واستخدام لفظ (النَّاصِحِينَ) فيه إشارة للحب الذي يبديه لهما ، وأنه صاحب وناصح ومخلص لهما ،[فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ] بدأ معهما شيئا فشيئا ، خطوات الشيطان المعروفة لنا .

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١)﴾

وأية طه تشير إلى حوار بينهم وقال تعالى (فَأَكَلَا مِنْهَا) فدل على سماع له وانصياع لنصيحته وتأثرهما بنصحه واستدراجه لهما . ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) ﴾[البقرة]

فَأَزَلَّهُمَا : تدل عن أن الإغواء كان للاثنين معا ؛ ولذلك لما أدركا الذنب : ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) ﴾[الأعراف]

العلي الحكيم خلق آدم ليستقر في الأرض ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ وأراد الله ﷻ أن يختبر عبده آدم قبل اهباطه للأرض كما أطلع الملائكة قبل خلقه ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ ، وقد اختبر الله إبليس ولم يوفق في الاختبار ، ورفض الطاعة وطرد من الرحمة الربانية ، وصار مرجوما وعدوا للإنسان والخير ، وأذن الله ﷻ له بغاوية بني آدم وإضلالهم وإفسادهم إن استطاع إلى ذلك سبيلا ؛ لتتم حكمة الله في خلقه ، وللقيام

بهذه المهام الشريرة وأن يكون زعيم ورائد الشر في العالم أعطاه الخالق القدرة على البقاء وعدم الموت حتى يوم القيامة وأعطاه القدرة على الوسوسة وتزيين الفساد والضلال .. وجعل الله ﷻ البداية مع أبي البشر ، لنعلم أن كل بني خطأ ولنتعلم من تصرف أبينا الأول كيف نفعل إذا صرنا في الإثم والعدوان بأن نتوب إلى الرحمن ونقول ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) ﴾ ولا نصاب باليأس والإبلاس والاستسلام للخطيئة مهما عظم الذنب ، فها هما الأبوان أصابا الخطيئة في الجنة ، وتابا فتاب عليهم التواب الرحيم ، ولنعلم أننا ضعفاء ولا غنى لنا عن عون الله تعالى . ﴿قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩] وإبليس ذكي وحسود ومتكبر وشرير ، وقد علم عدو الله أنهما إذا أكلا من الشجرة بدت لهما عوراتهما وستبدأ رحلة شقائهما في الأرض ، ولقد علم الملائكة ذلك قبل خلق آدم ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾ فهم علموا أنه سيكون في الأرض فساد وسفك دماء ، وبما أن الشيطان كان معهم فهو يعلم ذلك الشأن ، وسيكون لنا كلام عن كيف علموا ذلك .

فإبليس يعلم أن أكلهما للشجرة سيكشف لهما عوراتهما ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) ﴾ ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ﴾ [الأعراف] وبذلك يعصيان الرحمن فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ فهذا الجزء من الآية يشير أنه قابلهما وهمس لهم وخدعهم ، ولم يكن حديثه حديث نفس ؛ لأنه وسوس لهما معا ، وليس على انفراد ، ولم يكن معه شيطان آخر ليوسوس كل منهما لشخص ، صحيح أن كل إنسان له قرين كما صح ذلك عن النبي ﷺ وذلك كان بعد الخروج من جنة آدم ويبدو لنا أنهما لم يعرفا أنه الشيطان عدوهما الذي حذرهم منه ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) ﴾ طه ، لم يعرفاه لدخوله عليهما الجنة لاعتقادهما أنه لا يمكن دخوله للجنة لغضب الله ﷻ عليه وطرده ولعنه ، فلبس الأمر عليهم

لأن آدم كان صاحب علم قبل دخوله الجنة ولو علم أن هذا الذي يكلمه الشيطان لرفض طاعته فهو ليس مضطرا لطاعته فهو مختار لفعله .. ونسيا تحذير الرب لهما ولم يتحققا من شخصه ، ولعلهما ظنا أنه من سكان الجنة التي يحييان فيها .. ونحن نرى في واقع الحياة مهما بلغ الإنسان من الذكاء والعلم فيصيبه النسيان والغفلة وحسن الظن فيقع في الكوارث والمصائب ، وإبليس نفسه سقط رغم حياته وصحبته للملائكة ﴿قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ﴾ ﴿ الخلاصة أنهما اطمئنا إليه ووثقا بكلامه وسمعاه يقول عن تلك الشجرة شجرة الخلد .. كذب عدو الله عليهما ما سماها الله شجرة الخلد إنما الشيطان أطلق عليها ذاك الاسم﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠) ﴾ هذا الاسم اختراع الشيطان .. وهكذا يفعل أهل الفجور يسمون الأشياء المحرمة بأسماء جميلة لتزينها للمسلمين .. فهؤلاء يحاكون الشيطان ويقلدونه في الفتنة والإفساد .

وبعد أن وسوس لهما وبين لهما أن الشجرة المحرمة عليهما هي شجرة الخلد وأن من طعمها خلد وكان من الخالدين ، ولحب الإنسان الخلود والخوف من الموت والنهاية ، واستغل الشيطان هذا الضعف بطبعهما لوجود الخلود بنفسيهما بذا سقطا .. فالإنسان إذا كان في مكان جميل هادئ بين يديه كل أسباب الراحة البدنية والحسية ليس هناك منغصات فهو يستريح ويتمنى البقاء في هذا المكان والنعيم الأرضي .. فكيف بالجنة؟! .. هما رغبا بالبقاء والخلود في الجنة فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ .. أي غرهما وخدعهما بكلامه المثير الناعم عن الخلد والبقاء الدائم والملك الذي لا يزول فقال ﴿ وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) ﴾ [الأعراف] ثم حلف أمامهما بأنه ناصح ، وما ادعاه إلا صدق ،أقسم على ما بين لهما من فائدة الأكل من هذه الشجرة فجاء حكاية عنه ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) ﴾ أنا وأنت لا نعتقد أن أحدا يقسم كاذبا مع أن ذلك واقع في حياة الناس، وعندنا يقين أن الكثير يحلفون بالله كذبا .. لكن في الجنة هل يكذب أحد ويقسم كذبا ..؟! فنحن نعظم القسم في المسجد أو أمام القاضي في المحكمة، وبعض الجهال يعظمون القسم أمام القبور وما يسمونه

المقام سواء لنبي أم صالح من الناس .. الموقف عصيب .. كاد الشيطان لهما كيدا عظيما .. الله ﷻ يريد اختبارهما وابتلائهما .. أراد لهم الحياة في الأرض .. فتركهما للشيطان سبحانه وتعالى لا حول ولا قوة إلا بالله .. كاد لهم ووقعوا في كيده واستدراجه وحيلته ومكره ، ونسيا تحذير الرحمن لهما .. وقد تركا لنفسيهما والشيطان ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١) ﴾ [النازعات] النفس والشيطان .. فوقعا في المحذور ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) ﴾ عهد الله ﷻ إليه ألا يأكل من الشجرة ، فنسي آدم وطمعت نفسه بالخلود والبقاء في الجنة .. فأكلا سوية ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾ فتكشفت لهما سوءاتهما ، فأدركا أنهما خالفا الأمر الإلهي .. وأدركا أن الشيطان مكر بهما وهو الذي غرر بهما .. وسعد الشيطان بذلك ، وعلم وتأكد له أن الإنسان ضعيف يمكن إغوائه وإهلاكه .. وأدرك الإنسان أن حافظه من مكر الشيطان وكيده الإيمان بالله والالتزام بأمره ونهيه .

قال الإمام الفاضل ابن القيم في كتابه القيم" إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان " عن هذه الأحداث الكبيرة في بداية الصراع الأبدي بين الخير والشر والإنسان والشيطان معقبا على قوله ﷻ ﴿ وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) ﴾ أي : إلا كراهة أن تكونا ملكين ، وكراهة أن تخلدا في الجنة ، ومن هاهنا دخل عليهما لما عرف أنهما يريدان الخلود فيها ، وهذا باب كيده الأعظم الذي يدخل منه على ابن آدم فإنه يجري منه مجرى الدم حتى يصادف نفسه ويخالطه ويسألها عما تحبه وتؤثره ؛ فإذا عرفه استعان بها على العبد ودخل عليه من هذا الباب ، وكذلك علم إخوانه وأولياءه من الإنس إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضا أن يدخلوا عليهم من الباب الذي يحبونه ويهوونه فإنه باب لا يخذل عن حاجته من دخل منه ، ومن رام الدخول من غيره فالباب عليه مسدود وهو عن طريق مقصده مصدود .

فشام عدو الله الأبوين فأحس منهما إيناسا وركونا إلى الخلد في تلك الدار في النعيم المقيم ، فعلم

أنه لا يدخل عليهما من غير هذا الباب فقاسمهما بالله إنه لهما لمن الناصحين وقال : ﴿ وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) ﴾ وكان عبدالله بن عباس يقرؤها ملكين بكسر اللام ويقول لم يطمعا أن يكونا من الملائكة ولكن استشرفا أن يكونا ملكين فأتاهما من جهة الملك ويدل على هذه القراءة قوله في الآية الأخرى :﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠) ﴾ وأما على القراءة المشهورة فيقال : كيف أطمع عدو الله آدم عليه السلام أن يكون بأكله من الشجرة من الملائكة وهو يرى الملائكة لا تأكل ولا تشرب ، وكان آدم عليه السلام أعلم بالله وبنفسه وبالملائكة من أن يطمع أن يكون منهم بأكله ولا سيما مما نهاه الله ﷻ .

فالجواب : أن آدم وحواء عليهما السلام لم يطمعا في ذلك أصلا ، وإنما كذبهما عدو الله وغرهما بأن سمى تلك الشجرة شجرة الخلد ، فهذا أول المكر والكيد ، ومنه ورث أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التي تحب النفوس مسمياتها فسموا الخمر : أم الأفراح وسموا أخاها بلقيمة الراحة وسموا الربا بالمعاملة (والفجرة اليوم وجدوا أسماء جديدة فيقولون عن الربا فائدة وأرباح ، وعن الخمر والسكر مشروبات روحية ، وعن الرقص وتوابعه الفن والنجوم)وسمو المكوس بالحقوق السلطانية ، وسموا أقبح الظلم وأفحشه شرع الديوان ، وسموا أبلغ الكفر وهو جحد صفات الرب تنزيها ، وسموا مجالس الفسوق مجالس الطيبة ، فلما سماها شجرة الخلد قال : ما نهاكما عن هذه الشجرة إلا كراهة أن تأكلا منها فتخلدا في الجنة ولا تموتا فتكونان مثل الملائكة الذين لا يموتون ، ولم يكن آدم عليه السلام قد علم أنه يموت بعد واشتهى الخلود في الجنة ، وحصلت الشبهة من قول العدو وإقسامه بالله جهد أيمانه أنه ناصح لهما فاجتمعت الشبهة والشهوة ، وساعد القدر فأخذتهما سنة الغفلة واستيقظ لهما العدو كما قيل :

واستيقظوا وأراد الله غفلتهم ... لينفذ القدر المحتوم في الأزل

إلا أن هذا الجواب يعترض عليه قوله أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ فيقال : الماكر المخادع لا بد أن يكون فيما يمكر به ويكيد من التناقض والباطل ما يدل على مكره وكيده ، ولا حاجة بنا إلى

تصحيح كلام عدو الله واعتذار عنه ، وإنما يعتذر عن الأب في كون ذلك راج عليه وولج سمعه فهو لم يجزم لهما بأنهما إن أكلا منها صارا ملكين وإنما ردد الأمر بين أمرين : أحدهما ممتنع والآخر ممكن وهذا من أبلغ أنواع الكيد والمكر ، ولهذا لما أطمعه في الأمر الممكن جزم له به ولم يردده ، فقال هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى فلم يدخل أداة الشك ههنا كما أدخلها في قوله :إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ فتأمله ثم قال عنه : وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فتضمن هذا الخبر أنواعا من التأكيد :

أحدها : تأكيده بالقسم .

الثاني : تأكيده بأن .

الثالث : تقديم المعمول على العامل إيذانا بالاختصاص أي نصيحتي مختصة بكما وفائدتها إليكما لا إلي .

الرابع : إتيانه باسم الفاعل على الثبوت واللزوم دون الفعل الدال على التجدد : أي النصح صفتي وسجيتي ليس أمرا عارضا لي .

الخامس : إتيانه بلام التأكيد في جواب القسم .

السادس : أنه صور نفسه لهما ناصحا من جملة الناصحين فكأنه قال لهما : الناصحون لكما في ذلك كثير ، وأنا واحد منهم كما تقول لمن تأمره بشيء : كل أحد معي على هذا وأنا من جملة من يشير عليك به .

سعى نحوها حتى تجاوز حده ... وكثر فارتابت ولو شاء قللا

وورث عدو الله هذا المكر لأوليائه وحزبه عند خداعهم للمؤمنين كما كان المنافقون يقولون لرسول الله ﷺ إذا جاءوه ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) ﴾ [المنافقون] فأكدوا خبرهم بالشهادة وبأن وبلام التأكيد ، وكذلك قوله سبحانه : ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ ﴾ [التوبة: ٥٦]

ثم قال تعالى : فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ قال أبو عبيدة : خذلهما وخلاهما من تدلية الدلو وهو إرسالها في البئر ، وذكر الأزهري لهذه اللفظة أصلين : أحدهما قال : أصله الرجل العطشان يتدلى في البئر ليروى من الماء فلا يجد فيها ماء فيكون قد تدلى فيها بالغرور فوضعت التدلية موضع الإطماع فيما لا يجدي نفعا فيقال : دلاه إذا أطمعه ..

الثاني : فدلاهما بغرور أي جرأهما على أكل الشجرة وأصله : دللهما من الدلال والدالة وهي الجراءة قال شمر : يقال : ما دللك علي : أي ما جرأك علي وأنشد لقيس ابن زهير :

أظن الحلم دل علي قومي ... وقد يستجهل الرجل الحليم

ذكر السيوطي رحمه الله تعالى في " لقط المرجان في أحكام الجان " ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦) ﴾ [الناس] قال القاضي أبو يعلى : الوسواس يحتمل أن يكون كلاما خفيا يدركه القلب ، ويمكن أن يكون هو الذي يقع عند الفكرة ، ويكون منه مس وشكوك ودخول في أجزاء الإنسان خلافا لبعض المتكلمين في إنكارهم لشكوك الشيطان في أجسام الإنس ، وزعموا أنه لا يجوز وجود روحين في جسد واحد ويدل عليه قوله تعالى ﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) ﴾ وقوله ﷺ « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِى مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ وَإِنِّى خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِى قُلُوبِكُمَا شَيْئًا ». ق ومن كتاب " غرائب وعجائب الجن " : واصل الوسوسة الحركة والصوت الخفي الذي لا يحس فيحترز منه .. فالوسواس الإلقاء الخفي في النفس .. وأما الخناس فقال : من خنس يخنس إذا توارى واختفى .

وقوله الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) صفة ثالثة للشيطان .. فذكر وسوسته أولا ثم ذكر محلها ثانيا في صدور الناس .. وتأمل السر في قوله الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) ولم يقل في قلوبهم ، والصدر هي ساحة القلب وبيته فمنه تدخل الواردات عليه ، فتجتمع الأوامر والإرادات إلى الصدر ثم تتفرق على الجنود ومن فهم هذا فهم قوله ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) ﴾ [آل عمران

] فالشيطان يدخل إلى ساحة القلب وبيته فيلقي ما يريد إلقاءه إلى القلب ، فهو يوسوس في الصدر ووسوسته واصلة إلى القلب ولهذا فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ ولم يقل فيه والله اعلم . فإن قيل كيف يصح سلوكه في الإنسان وتحفظه له وهو من نار ، ومعلوم أن النار تحرق الآدمي ؟ قيل النار لا تحرق بطبعها وإنما يحدث فيها الإحراق حالا فحالا ، فيجوز أن لا يحدث فيها الإحراق في حال سلوكه .

عَنْ عَائشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِّ ﷺ قَالَ إنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتيه الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ مَنْ خَلَقَكَ فَيَقُولُ اللهُّ فَيَقُولُ فَمَنْ خَلَقَ اللهَّ فَإذَا وَجَدَ ذَلكَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقْرَأْ آمَنْتُ باللهَّ وَرُسُله فَإنَّ ذَلكَ يُذْهبُ عَنْهُ مسند أحمد

في كتاب " عالم الجن والشياطين " للشيخ عمر الأشقر قال : الشيطان يستطيع أن يصل إلى فكر الإنسان وقلبه بطريقة لا ندركها ، ولا نعرفها ، يساعده على ذلك طبيعته التي خلق عليها وهذا هو الذي نسميه بالوسوسة ، وقد أخبرنا الله بذلك إذ سماه : منْ شَرّ الْوَسْوَاس الْخَنَّاس (٤) الَّذي يُوَسْوسُ في صُدُور النَّاس (٥) قال ابن كثير في تفسيره : (الوسواس الخنَّاس) : الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل وسوس ، فإذا ذكر الله خنس .

وقد تتمثل الشياطين في صورة بشر ، وقد يحدّثون الإنسان ، ويُسمعونه ، ويأمرونه ، وينهونه ، بمرادهم .

المراتب التي يدعو إليها الشيطان

١- الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله .

٢- البدعة وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي .

٣- الكبائر .

٤- الصغائر .

٥-وهي اشتغاله بالمباحات التي لا ثواب ولا عقاب بل عقابها فوات الثواب .

٦-أن يشغله بالعمل بالمفضول عما هو أفضل منه .

(٦) حواء

{ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ } البقرة ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ الأعراف

والله تعالى خلق حواء من نفس وذات آدم قال تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ الأعراف وقال ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ النساء

قال القرطبي تفسيره :

روي أن الملائكة سألته عن ذلك لتجرب علمه، وأنهم قالوا له: أتحبها يا آدم ؟ قال: نعم، قالوا لحواء: أتحبينه يا حواء ؟ قالت: لا، وفي قلبها أضعاف ما في قلبه من حبه.

وقال ابن مسعود وابن عباس: لما أسكن آدم الجنة مشى فيها مستوحشا، فلما نام خلقت حواء من ضلعه القصرى من شقه الأيسر ليسكن إليها ويأنس بها، فلما انتبه رآها فقال: من أنت ؟ قالت: امرأة خلقت من ضلعك لتسكن إلي، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ الأعراف

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : (إن المرأة خلقت من ضلع – في رواية: وإن أعوج شئ في الضلع أعلاه – لن تستقيم لك على طريقة واحدة فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها).

هي الضلع العوجاء ليست تقيمها * ألا إن تقويم الضلوع انكسارها

أتجمع ضعفا واقتدارا على الفتى * أليس عجيبا ضعفها واقتدارها

وذكر ابن كثير تفسيره في القصة والرواية : عن ابن عباس وعن مرة وعن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة: أخرج إبليس من الجنة وأسكن آدم الجنة فكان يمشي فيها وحشاً ليس له زوج يسكن إليه فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه، فسألها: ما أنت ؟

قالت امرأة، قال: ولِمَ خلقت ؟ قالت لتسكن إلي. قالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه، ما اسمها يا آدم، قال: حواء، قالوا: ولِمَ سميت حواء ؟ قال: إنها خلقت من شيء حي. قال الله: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ البقرة

قال ابن العربي : فَضَّلَ اللَّهُ تَعَالَى الذَّكَرَ عَلَى الْأُنْثَى مِنْ سِتَّةِ أَوْجُهٍ :

الْأَوَّلُ : أَنَّهُ جُعِلَ أَصْلَهَا وَجُعِلَتْ فَرْعَهُ ؛ لِأَنَّهَا خُلِقَتْ مِنْهُ ، كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ.

الثَّانِي : أَنَّهَا خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعِهِ الْعَوْجَاءِ ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : { إنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ أَعْوَجَ ، فَإِنْ ذَهَبْت تُقِيمُهَا كَسَرْتهَا ، وَإِنْ اسْتَمْتَعْت بِهَا اسْتَمْتَعْت بِهَا عَلَى عِوَجٍ ، وَقَالَ : وَكَسْرُهَا طَلَاقُهَا }.

الثَّالِثُ : أَنَّهُ نَقَصَ دِينَهَا.

الرَّابِعُ : أَنَّهُ نَقَصَ عَقْلَهَا ، وَفِي الْحَدِيثِ : { مَا رَأَيْت مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْكُنَّ }.

قُلْنَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا ؟ قَالَ : أَلَيْسَ تَمْكُثُ إحْدَاكُنَّ اللَّيَالِيَ لَا تَصُومُ وَلَا تُصَلِّي ، وَشَهَادَةُ إحْدَاكُنَّ عَلَى نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ ؟ }.

الْخَامِسُ : أَنَّهُ نَقَصَ حَظَّهَا فِي الْمِيرَاثِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ }

السَّادِسُ : أَنَّهَا نَقَصَتْ قُوَّتُهَا ؛ فَلَا تُقَاتِلُ وَلَا يُسْهَمُ لَهَا ، وَهَذِهِ كُلُّهَا مَعَانٍ حُكْمِيَّةٌ.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ الْحُجُرَات١٣ ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ ال عمران ٣٦ ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ البقرة ٢٢٨ ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥) ﴾ [الأنعام] ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١)﴾

[الإسراء] ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) ﴾ [الزخرف] ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ [النساء: ٣٤]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ " وفي لفظ " وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلَعٍ وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا " خ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ " لَوْلَا بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَخْنَزْ اللَّحْمُ وَلَوْلَا حَوَّاءُ لَمْ تَخُنْ أُنْثَى زَوْجَهَا " ق

قال النووي على شرح مسلم : قوله ﷺ (لولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر) أي لم تخنه أبدا وحواء بالمد روينا عن ابن عباس قال سميت حواء لأنها أم كل حي قيل أنها ولدت لآدم أربعين ولدا في عشرين بطنا في كل بطن ذكر وأنثى ، واختلفوا متى خلقت من ضلع آدم ، فقيل قبل دخولها الجنة فدخلاها ، وقيل في الجنة ، قال القاضي ومعنى هذا الحديث أنها أم بنات آدم فأشبهنها ونزع العرق لما جرى لها في قصة الشجرة مع إبليس فزين لها أكل الشجرة فأغواها فأخبرت آدم بالشجرة فأكل منها.

ولكن صريح القرآن أنهما أكلا معا ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا ﴾ ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ ﴾ [الأعراف: ٢٢] ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾

وفسره الحافظ ابن حجر في فتح الباري فقال : عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ رَجُلا طُوَالا كَثِيرَ شَعْرِ الرَّأْسِ كَأَنَّهُ نَخْلَةٌ سَحُوقٌ، فَلَمَّا ذَاقَ الشَّجَرَةَ سَقَطَ عَنْهُ لِبَاسُهُ، فَأَوَّلُ مَا بَدَا مِنْهُ عَوْرَتُهُ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى عَوْرَته جَعَلَ يَشْتَدُّ فِي الْجَنَّة، فَأَخَذَتْ شَعْرَهُ شَجَرَةٌ فَنَازَعَهَا، فَنَادَاهُ الرَّحْمَنُ: يَا آدَمُ مِنِّي تَفِرُّ ؟ فَلَمَّا سَمِعَ كَلامَ الرَّحْمَنِ، قَالَ: يَا رَبِّ لا، وَلَكِن اسْتِحْيَاءً". وفي لفظ آخر عن أبي بن كعب ﷺ قال : قال عليه السلام : "إن أباكم آدم كان

رجلاً طويلاً كالنخلة السحوق ستون ذراعا كثير الشعر مواري العورة فلما واقع الخطيئة بدت سوءته فانطلق في الجنة هارباً فمر بشجرة فأخذت بناصيته فأجلسته فناداه ربه أفراراً مني يا آدم؟ قال : لا يا رب ولكن حياء منك".

قالوا وسميت حواء لأنها خلقت من حي أو لأنها أصل كل حي أو لأنها كانت في ذقنها حوة أي : حمرة مائلة إلى السواد وقيل في شفتها ، وسميت امرأة لأنها خلقت من المرء كما أن آدم سمي بآدم لأنه خلق من أديم الأرض ، وعاشت بعد آدم سبع سنين وسبعة أشهر وعمرها تسعمائة سنة وسبع وتسعون سنة. وقيل إن حواء ماتت بعد آدم بسنة . ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْت ﴾

تفسير آية الأعراف قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللهَّ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللهَّ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) ﴾ [الأعراف] يعني بالنفس آدم وقيل غير ذلك ، وبزوجها حواء ، ومعنى ﴿ لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ ليأنس بها ويأوي إليها ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا ﴾ أي جامعها ، قال الزجاج : وهذا أحسن كناية عن الجماع، والحمل بفتح الحاء ما كان في بطن أو أخرجته شجرة والحمل بكسر الحاء ما يحمل، والمراد بالحمل الخفيف الماء . قوله تعالى ﴿ فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ أي استمرت به قعدت وقامت ولم يثقلها .. ﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ ﴾ أي صار حملها ثقيلا ﴿ أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللهَّ ﴾ يعني آدم وحواء ﴿ لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا ﴾ وفي المراد بالصالح قولان : ذكر أهل التفسير : أن إبليس جاء حواء فقال : ما يدريك ما في بطنك لعله كلب أو خنزير أو حمار ، وما يدريك من أين يخرج أيشق بطنك أم يخرج من فيك أو من منخريك فأحزنها ذلك ، فدعوا الله حينئذ ، فجاء إبليس فقال كيف تجدينك قالت ما أستطيع القيام إذا قعدت ، قال : أفرأيت إن دعوت الله فجعله إنسانا مثلك ومثل آدم أتسمينه باسمي ، قالت : نعم ، فلما ولدته سويا جاءها إبليس فقال : لم لا تسمينه بي كما وعدتني ، فقالت : وما اسمك ؟ قال : الحارث - وكان اسم إبليس في الملائكة الحارث- فسمته عبد الحارث وقيل عبد شمس برضى آدم ، فذلك قوله ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ

شُرَكَاءَ ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم شركاء بضم الشين والمد جمع شريك وقرأ نافع وأبو بكر عن عاصم شركا مكسورة الشين على المصدر لا على الجمع ، قال أبو علي من قرأ شركا حذف المضاف كأنه أراد جعلا له ذا شرك وذوي شريك فيكون المعنى جعلا لغيره شركا لأنه إذا كان التقدير جعلا له ذوي شرك فالمعنى جعلا لغيره شركا وهذه القراءة في المعنى كقراءة من قرأ شركاء ، وقال غيره معنى شركاء شريكا فأوقع الجمع موقع الواحد كقوله ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٧٣] والمراد بالشريك إبليس لأنهما أطاعاه في الاسم فكان الشرك في الطاعة لا في العبادة ، ولم يقصدا أن الحارث ربهما لكن قصدا أنه سبب نجاة ولدهما ، وقد يطلق العبد على من ليس بمملوك قال الشاعر :

وإني لعبد الضيف ما دام ثاويا ... وما في إلا تلك من شيمة العبد ...

وقال مجاهد كان لا يعيش لآدم ولد فقال الشيطان إذا ولد لكما ولد فسمياه عبد الحارث فأطاعاه في الاسم فذلك قوله فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ هذا قول الجمهور وفيه قول ثان رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس قال ما أشرك آدم إن أول الآية لشكر وآخرها مثل ضربه الله لمن يعبده في قوله فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ وروى قتادة عن الحسن قال هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادا فهودوهم ونصروهم ،وروي عن الحسن وقتادة قالا الضمير في قوله جعلا له شركاء عائد إلى النفس وزوجه من ولد آدم لا إلى آدم وحواء وقيل الضمير راجع إلى الولد الصالح وهو السليم الخلق ، فالمعنى جعل له ذلك الولد شركاء وإنما قيل جعلا لأن حواء كانت تلد في كل بطن ذكرا وأنثى . جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ .

قال ابن الانباري الذين جعلوا له شركاء اليهود والنصارى وغيرهم من الكفار الذين هم أولاد آدم وحواء فتأويل الآية فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جعل أولادهما له شركاء فحذف الأولاد وأقامهما مقامهم كما قال واسأل القرية وذهب السدي إلى أن قوله ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ في مشركي العرب خاصة وأنها مفصولة عن قصة آدم وحواء {حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً} وذلك أول الحمل لا

تجد المرأة له ألماً، إنما هي النطفة ثم العلقة ثم المضغة.

أي: { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ } أيها الرجال والنساء، المنتشرون في الأرض على كثرتكم وتفرقكم. { مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ } وهو آدم أبو البشر ﷺ . { وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا } أي: خلق من آدم زوجته حواء لأجل أن يسكن إليها لأنها إذا كانت منه حصل بينهما من المناسبة والموافقة ما يقتضي سكون أحدهما إلى الآخر، فانقاد كل منهما إلى صاحبه بزمام الشهوة. { فَلَمَّا تَغَشَّاهَا } أي: تجللها مجامعا لها قدَّر الباري أن يوجد من تلك الشهوة وذلك الجماع النسل، [وحينئذ] حَمَلَتْ حَمْلا خَفيفًا، وذلك في ابتداء الحمل، لا تحس به الأنثى، ولا يثقلها. { فَلَمَّا } استمرت به و { أَثْقَلَتْ } به حين كبر في بطنها، فحينئذ صار في قلوبهما الشفقة على الولد، وعلى خروجه حيا، صحيحا، سالما لا آفة فيه [كذلك] فدعوا { اللهَّ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا } ولدا { صَالِحًا } أي: صالح الخلقة تامها، لا نقص فيه { لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ } . { فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا } على وفق ما طلبا، وتمت عليهما النعمة فيه { جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا } أي: جعلا للهّ شركاء في ذلك الولد الذي انفرد اللهّ بإيجاده والنعمة به، وأقرَّ به أعين والديه، فَعَبَّدَاه لغير اللهّ. إما أن يسمياه بعبد غير اللهّ كـ "عبد الحارث" و "عبد العزير" و "عبد الكعبة" ونحو ذلك، أو يشركا باللهّ في العبادة، بعدما منَّ اللهّ عليهما بما منَّ من النعم التي لا يحصيها أحد من العباد. ولكن الأمر جاء على العكس، فأشركوا باللهّ من لا { يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ } . { وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ } أي: لعابديها { نَصْرًا وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ } . أي: فلمَّا رزَقَهما اللهُ ولدًا صالحًا كما سألاه، جعَلَ أهلُ الكُفر من بني آدمَ لله شُرَكاءَ فيما رزَقَهم ، سبحانَه ، وإن تدعوا، أيها المشركون هذه الأصنام، التي عبدتم من دون اللهّ { إِلَى الْهُدَى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ } .

(٧) احتجاج آدم وموسى

روايات مسلم

١ – عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – « احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ عِنْدَ رَبِّهِمَا فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى قَالَ مُوسَى أَنْتَ آدَمُ الَّذِى خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلاَئِكَتَهُ وَأَسْكَنَكَ فِى جَنَّتِهِ ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الأَرْضِ فَقَالَ آدَمُ أَنْتَ مُوسَى الَّذِى اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ وَأَعْطَاكَ الأَلْوَاحَ فِيهَا تِبْيَانُ كُلِّ شَىْءٍ وَقَرَّبَكَ نَجِيًّا فَبِكَمْ وَجَدْتَ اللَّهَ كَتَبَ التَّوْرَاةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ قَالَ مُوسَى بِأَرْبَعِينَ عَامًا. قَالَ آدَمُ فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) قَالَ نَعَمْ. قَالَ أَفَتَلُومُنِى عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلاً كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَىَّ أَنْ أَعْمَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِى بِأَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – « فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى ».

٢ – عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ « تَحَاجَّ آدَمُ وَمُوسَى فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى فَقَالَ لَهُ مُوسَى أَنْتَ آدَمُ الَّذِى أَغْوَيْتَ النَّاسَ وَأَخْرَجْتَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ فَقَالَ آدَمُ أَنْتَ الَّذِى أَعْطَاهُ اللَّهُ عِلْمَ كُلِّ شَىْءٍ وَاصْطَفَاهُ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِهِ قَالَ نَعَمْ. قَالَ فَتَلُومُنِى عَلَى أَمْرٍ قُدِّرَ عَلَىَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ ».

٣ – قَالَ سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – « احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى فَقَالَ مُوسَى يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا خَيَّبْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الْجَنَّةِ فَقَالَ لَهُ آدَمُ أَنْتَ مُوسَى اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِكَلاَمِهِ وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ أَتَلُومُنِى عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللَّهُ عَلَىَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِى بِأَرْبَعِينَ سَنَةً ». فَقَالَ النَّبِىُّ – ﷺ – « فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى ». وَفِى حَدِيثِ ابْنِ أَبِى عُمَرَ وَابْنِ عَبْدَةَ قَالَ أَحَدُهُمَا خَطَّ. وَقَالَ الآخَرُ كَتَبَ لَكَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ.

٤ – عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – « احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى فَقَالَ لَهُ مُوسَى أَنْتَ آدَمُ الَّذِى أَخْرَجَتْكَ خَطِيئَتُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَقَالَ لَهُ آدَمُ أَنْتَ مُوسَى الَّذِى اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ ثُمَّ تَلُومُنِى عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِّرَ عَلَىَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى ».

روايات البخاري

٥ – أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى فَقَالَ لَهُ مُوسَى أَنْتَ آدَمُ الَّذِي

أَخْرَجَتْكَ خَطِيئَتُكَ مِنْ الْجَنَّةِ فَقَالَ لَهُ آدَمُ أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلَامِهِ ثُمَّ تَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قُدِّرَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى مَرَّتَيْنِ

٦ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى فَقَالَ مُوسَى أَنْتَ آدَمُ الَّذِي أَخْرَجْتَ ذُرِّيَّتَكَ مِنْ الْجَنَّةِ قَالَ آدَمُ أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ وَكَلَامِهِ ثُمَّ تَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِّرَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى

٧- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ حَاجَّ مُوسَى آدَمَ فَقَالَ لَهُ أَنْتَ الَّذِي أَخْرَجْتَ النَّاسَ مِنْ الْجَنَّةِ بِذَنْبِكَ وَأَشْقَيْتَهُمْ قَالَ قَالَ آدَمُ يَا مُوسَى أَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي أَوْ قَدَّرَهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى

روايات مسند أحمد

٨- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى قَالَ فَقَالَ مُوسَى يَا آدَمُ أَنْتَ الَّذِي خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ أَغْوَيْتَ النَّاسَ وَأَخْرَجْتَهُمْ مِنْ الْجَنَّةِ قَالَ فَقَالَ آدَمُ أَنْتَ مُوسَى أَنْتَ اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِكَلَامِهِ تَلُومُنِي عَلَى عَمَلٍ أَعْمَلُهُ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَالَ فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى

٩- عَن أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لَقِيَ آدَمَ مُوسَى فَقَالَ أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ وَأَسْكَنَكَ الْجَنَّةَ ثُمَّ فَعَلْتَ فَقَالَ أَنْتَ مُوسَى الَّذِي كَلَّمَكَ اللَّهُ وَاصْطَفَاكَ بِرِسَالَتِهِ وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ التَّوْرَاةَ ثُمَّ أَنَا أَقْدَمُ أَمْ الذِّكْرُ قَالَ لَا بَلْ الذِّكْرُ فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَام

١٠- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَقِيَ آدَمَ مُوسَى فَقَالَ أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَأَسْكَنَكَ جَنَّتَهُ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ ثُمَّ صَنَعْتَ مَا صَنَعْتَ فَقَالَ آدَمُ لِمُوسَى أَنْتَ الَّذِي كَلَّمَكَ اللَّهُ وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ التَّوْرَاةَ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَهَلْ تَجِدُهُ مَكْتُوبًا عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَام

١١ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى فَقَالَ مُوسَى لآدَمَ يَا آدَمُ أَنْتَ الَّذِي أَدْخَلْتَ ذُرِّيَّتَكَ النَّارَ فَقَالَ آدَمُ يَا مُوسَى اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ التَّوْرَاةَ فَهَلْ وَجَدْتَ أَنِّي أَهْبِطُ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَحَجَّهُ آدَمُ

سنن أبي داود

١٢ - أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – « إِنَّ مُوسَى قَالَ يَا رَبِّ أَرِنَا آدَمَ الَّذِى أَخْرَجَنَا وَنَفْسَهُ مِنَ الْجَنَّةِ فَأَرَاهُ اللَّهُ آدَمَ فَقَالَ أَنْتَ أَبُونَا آدَمُ فَقَالَ لَهُ آدَمُ نَعَمْ. قَالَ أَنْتَ الَّذِى نَفَخَ اللَّهُ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَعَلَّمَكَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا وَأَمَرَ الْمَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ قَالَ نَعَمْ. قَالَ فَمَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ أَخْرَجْتَنَا وَنَفْسَكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَقَالَ لَهُ آدَمُ وَمَنْ أَنْتَ قَالَ أَنَا مُوسَى. قَالَ أَنْتَ نَبِىُّ بَنِى إِسْرَائِيلَ الَّذِى كَلَّمَكَ اللَّهُ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ لَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ رَسُولاً مِنْ خَلْقِهِ قَالَ نَعَمْ. قَالَ أَفَمَا وَجَدْتَ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِى كِتَابِ اللَّهِ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ قَالَ نَعَمْ. قَالَ فَفِيمَ تَلُومُنِى فِى شَىْءٍ سَبَقَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ الْقَضَاءُ قَبْلِى ». قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –ﷺ– عِنْدَ ذَلِكَ « فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى

مسند أبي يعلى

عن ابن عمر : عن عمر – قال : أبو محمد أكثر ظني أنه رفعه – قال : التقى آدم و موسى قال موسى لآدم : أنت أبو الناس أسكنك الله جنته وأسجد لك ملائكته قال آدم لموسى : أما تجده مكتوبا ؟ قال : فحج آدم موسى فحج آدم موسى

شرح هذا الحديث

وآدم أعرف بربه من أن يحتج بقضائه وقدره على معصيته ، بل إنما لام موسى آدم على المعصية التي نالت الذرية بخروجهم من الجنة ، ونزولهم إلى دار الابتلاء والمحنة بسبب خطيئة أبيهم ، فذكر الخطيئة تنبيها على سبب المصيبة والمحنة التي نالت الذرية ؛ ولهذا قال له أخرجتنا ونفسك من الجنة وفي لفظ خيبتنا ، فاحتج آدم بالقدر على المصيبة ، وقال إن هذه المصيبة التي نالت الذرية بسبب خطيئتي كانت مكتوبة بقدره قبل خلقي .

وقد يتوجه جواب آخر وهو أن الاحتجاج بالقدر على الذنب ينفع في موضع ويضر في موضع

ويضر في موضع فينفع إذا احتج به بعد وقوعه والتوبة منه وترك معاودته كما فعل آدم فيكون في ذكر القدر إذ ذاك من التوحيد ومعرفة أسماء الرب وصفاته وذكرها ما ينتفع به الذاكر والسامع لأنه لا يدفع بالقدر أمرا ولا نهيا ولا يبطل به شريعة بل يخبر بالحق المحض على وجه التوحيد والبراءة من الحول والقوة يوضحه : أن آدم قال لموسى أتلومني على أن عملت عملا كان مكتوبا علي قبل أن أخلق ؛ فإذا أذنب الرجل ذنبا ثم تاب منه توبة وزال أمره حتى كأن لم يكن فأنبه مؤنب عليه ولامه حسن منه أن يحتج بالقدر بعد ذلك ويقول هذا أمر كان قد قدر عليّ قبل أن أخلق فإنه لم يدفع بالقدر حقا ولا ذكره حجة له على باطل ولا محذور في الاحتجاج به .

وأما الموضع الذي يضر الاحتجاج به ففي الحال والمستقبل بأن يرتكب فعلا محرما أو يترك واجبا فيلومه عليه لائم فيحتج بالقدر على إقامته عليه وإصراره فيبطل بالاحتجاج به حقا ويرتكب باطلا ، كما احتج به المصرون على شركهم وعبادتهم غير الله فقالوا ﴿ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٤٨] ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ [الزخرف: ٢٠] فاحتجوا به مصوبين لما هم عليه، وأنهم لم يندموا على فعله، ولم يعزموا على تركه ، ولم يقروا بفساده ، فهذا ضد احتجاج من تبين له خطأ نفسه وندم وعزم كل العزم على أن لا يعود ؛ فإذا لامه لائم بعد ذلك قال كان ما كان بقدر الله فإن قيل فقد احتج علي بالقدر في ترك قيام الليل وأقره النبي ﷺ كما في الصحيح عن علي أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة ليلا فقال لهم ألا تصلون قال فقلت يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثها بعثها فانصرف رسول الله ﷺ حين قلت له ذلك ولم يرجع إلي شيئا ثم سمعته وهو مدبر يضرب فخذه وهو يقول وكان الإنسان أكبر شيء جدلا قيل علي لم يحتج بالقدر على ترك واجب ولا فعل محرم وإنما قال أن نفسه ونفس فاطمة بيد الله فإذا شاء أن يوقظها ويبعث أنفسها بعثها وهذا موافق لقول النبي ﷺ ليلة ناموا في الوادي أن الله قبض أرواحنا حيث شاء وردها حيث شاء وهذا احتجاج صحيح صاحبه يعذر فيه فالنائم غير مفرط ، واحتجاج غير المفرط بالقدر صحيح ،وقد أرشد النبي ﷺ إلى الاحتجاج بالقدر في الموضع الذي ينفع العبد الإحتجاج به فروى مسلم في صحيحه عن أبي

هريرة قال قال رسول الله ﷺ المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا وكذا ولكن قل قدر الله ما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان فتضمن هذا الحديث الشريف أصولا عظيمة من أصول الإيمان أحدها أن الله سبحانه وتعالى موصوف بالمحبة وأنه يحب حقيقة الثاني أنه يحب مقتضى أسمائه وصفاته وما يوافقها فهو القوي ويحب المؤمن القوي وهو وتر يحب الوتر وجميل يحب الجمال وعليم يحب العلماء ونظيف يحب النظافة ومؤمن يحب المؤمنين ومحسن يحب المحسنين وصابر يحب الصابرين وشاكر يحب الشاكرين

ومنها أن محبته للمؤمنين تتفاضل فيحب بعضهم أكثر من بعض

ومنها أن سعادة الإنسان في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومعاده والحرص هو بذل الجهد واستفراغ الوسع فإذا صادف ما ينتفع به الحريص كان حرصه محمودا وكماله كله في مجموع هذين الأمرين أن يكون حريصا وأن يكون حرصه على ما ينتفع به فإن حرص على مالا ينفعه أو فعل ما ينفعه بغير حرص فاته من الكمال بحسب ما فاته من ذلك فالخير كله في الحرص على ما ينفع ولما كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئته وتوفيقه أمره أن يستعين به ليجتمع له مقام إياك نعبد وإياك نستعين فإن حرصه على ما ينفعه عبادة لله ولا تتم إلا بمعونته فأمره بأن يعبده وأن يستعين به ثم قال ولا تعجز فإن العجز ينافي حرصه على ما ينفعه وينافي استعانته بالله فالحريص على ما ينفعه المستعين بالله ضد العاجز فهذا إرشاد له قبل رجوع المقدور إلى ما هو من أعظم أسباب حصوله وهو الحرص عليه مع الاستعانة بمن أزمة الأمور بيده ومصدرها منه ومردها إليه فإن فاته ما لم يقدر له فله حالتان حالة عجز وهي مفتاح عمل الشيطان فيلقيه العجز إلى لو ولا فائدة في لو ههنا بل هي مفتاح اللوم والجزع والسخط والأسف والحزن وذلك كله من عمل الشيطان فنهاه صلى الله عليه و سلم عن افتتاح عمله بهذا المفتاح وأمره بالحالة الثانية وهي النظر إلى القدر وملاحظته وأنه لو قدر له لم يفت ولم يغلبه عليه أحد فلم يبق له ههنا أنفع من شهود القدر ومشيئة الرب النافذة التي توجب وجود المقدور وإذا

انتفت امتنع وجوده فلهذا قال فإن غلبك أمر فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فأرشده إلى ما ينفعه في الحالتين حالة حصول مطلوبة وحالة فواته .

شرح ابن حجر للحديث

التعليق على سند الحديث ورواته ومخرجيه من أصحاب الصحاح والسنن :

" قَالَ ابْن عَبْد الْبَرّ : هَذَا الْحديث ثَابت بالاتّفَاق رَوَاهُ عَنْ أَبي هُرَيْرَة جَمَاعَةٌ منْ التَّابعينَ ، وَرُويَ عَنْ النَّبيّ صَلَّى اللهَّ عَلَيْه وَسَلَّمَ منْ وُجُوه أُخْرَى منْ روَايَة الْأَئمَّة الثّقَات الْأَثْبَات . قُلْت : وَقَعَ لَنَا منْ طَريق عَشَرَة عَنْ أَبي هُرَيْرَة : منْهُمْ طَاوُسٌ في الصَّحيحَيْن وَالْأَعْرَج كَمَا ذَكَرْته وَهُوَ عنْد مُسْلم منْ روَايَة الْحَارث بْن أَبي الذُّبَاب وَعنْد النَّسَائيّ عَنْ عَمْرو بْن أَبي عَمْرو كلَاهُمَا عَنْ الْأَعْرَج وَأَبُو صَالح السَّمَّان عنْد التّرْمذيّ وَالنَّسَائيّ وَابْن خُزَيْمَةَ كُلّهمْ منْ طَريق الْأَعْمَش عَنْهُ وَالنَّسَائيّ أَيْضًا منْ طَريق الْقَعْقَاع بْن حَكيم عَنْهُ ، وَمنْهُمْ أَبُو سَلَمَة بْن عَبْد الرَّحْمَن عنْد أَحْمَد وَأَبي عَوَانَة منْ روَايَة الزُّهْريّ عَنْهُ وَقيلَ عَنْ الزُّهْريّ عَنْ سَعيد بْن الْمُسَيّب وَقيلَ عَنْهُ عَنْ حُمَيْد بْن عَبْد الرَّحْمَن وَمنْ روَايَة أَيُّوب بْن النَّجَّار عَنْ أَبي سَلَمَة في الصَّحيحَيْن أَيْضًا وَقَدْ تَقَدَّمَ في تَفْسير سُورَة طَه وَمنْ روَايَة مُحَمَّد بْن عَمْرو بْن عَلْقَمَة عَنْ أَبي سَلَمَة عنْد ابْن خُزَيْمَةَ وَأَبي عَوَانَة وَجَعْفَر الْفرْيَابيّ في الْقَدَر وَمنْ روَايَة يَحْيَى بْن أَبي كَثير عَنْهُ عنْد أَبي عَوَانَة ، وَمنْهُمْ حُمَيْدُ بْن عَبْد الرَّحْمَن عَنْ أَبي هُرَيْرَة كَمَا تَقَدَّمَ في قصَّة مُوسَى منْ أَحَاديث الْأَنْبيَاء وَيَأْتي في التَّوْحيد وَأَخْرَجَهُ مُسْلم ، وَمنْهُمْ مُحَمَّد بْن سيرينَ كَمَا مَضَى في تَفْسير طَه وَأَخْرَجَهُ مُسْلم ، وَمنْهُمْ الشَّعْبيّ أَخْرَجَهُ أَبُو عَوَانَة وَالنَّسَائيُّ ، وَمنْهُمْ هَمَّام بْن مُنَبّه أَخْرَجَهُ مُسْلم ، وَمنْهُمْ عَمَّار بْن أَبي عَمَّار أَخْرَجَهُ أَحْمَد ، وَمَنْ رَوَاهُ عَنْ النَّبيّ صَلَّى اللهَّ عَلَيْه وَسَلَّمَ عُمَر عنْد أَبي دَاوُدَ وَأَبي عَوَانَة وَجُنْدَب بْن عَبْد اللهَّ عنْد النَّسَائيّ وَأَبُو سَعيد عنْد الْبَزَّار وَأَخْرَجَهُ ابْن أَبي شَيْبَة وَعَبْد الرَّزَّاق وَالْحَارث منْ وَجْه آخَر عَنْهُ ، وَقَدْ أَشَارَ إلَى هَذه الثَّلَاثَة التّرْمذيّ .

متن الحديث وألفاظه : في روَايَة هَمَّام وَمَالكٍ " تَحَاجَّ " كَمَا في التَّرْجَمَة وَهيَ أَوْضَحُ ، وَفي روَايَة أَيُّوب ابْن النَّجَّار وَيَحْيَى بْن كَثير " حَجَّ آدَم وَمُوسَى " وَعَلَيْهَا شَرَحَ الطّيبيُّ فَقَالَ : مَعْنَى قَوْله

حَجَّ آدَم وَمُوسَى غَلَبَهُ بالحُجَّة وَقَوْله بَعْد ذَلكَ " قَالَ مُوسَى أَنْتَ آدَم إلَخْ " تَوْضيح لذَلكَ وَتَفْسير لمَا أُجْملَ ، وَقَوْله في آخره " فَحَجَّ آدَم مُوسَى " تَقْرير لمَا سَبَقَ وَتَأْكيد لَهُ ، وَفي روَايَة يَزيد بْن هُرْمُز كَمَا تَقَدَّمَتْ الْإشَارَة إلَيْه " عنْد رَبّهمَا " وَفي روَايَة مُحَمَّد بْن سيرينَ " الْتَقَى آدَم وَمُوسَى " وَفي روَايَة عَمَّار وَالشَّعْبيّ " لَقيَ آدَم مُوسَى " وَفي حَديث عُمَر " لَقيَ مُوسَى آدَم " كَذَا عنْد أَبي عَوَانَة ، وَأَمَّا أَبُو دَاوُدَ فَلَفْظه كَمَا تَقَدَّمَ " قَالَ مُوسَى يَا رَبّ أَرني آدَم " .

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاء في وَقْت هَذَا اللَّفْظ فَقيلَ يَحْتَمل أَنَّهُ في زَمَان مُوسَى فَأَحْيَا اللهُ لَهُ آدَم مُعْجزَة لَهُ فَكَلَّمَهُ أَوْ كَشَفَ لَهُ عَنْ قَبْره فَتَحَدَّثَا أَوْ أَرَاهُ اللهُ رُوحَهُ كَمَا أَرَى النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ لَيْلَة الْمعْرَاج أَرْوَاحَ الْأَنْبيَاء أَوْ أَرَاهُ اللهُ لَهُ في الْمَنَام وَرُؤْيَا الْأَنْبيَاء وَحْيٌ وَلَوْ كَانَ يَقَع في بَعْضهَا مَا يَقْبَلُ التَّعْبيرَ كَمَا في قصَّة الذَّبيح ، أَوْ كَانَ ذَلكَ بَعْد وَفَاة مُوسَى فَالْتَقَيَا في الْبَرْزَخ أَوَّلَ مَا مَاتَ مُوسَى فَالْتَقَتْ أَرْوَاحهمَا في السَّمَاء ، وَبذَلكَ جَزَمَ ابْن عَبْد الْبَرّ وَالْقَابسيُّ ، وَقَدْ وَقَعَ في حَديث عُمَر لَمَّا قَالَ مُوسَى أَنْتَ آدَم قَالَ لَهُ مَنْ أَنْتَ قَالَ أَنَا مُوسَى وَأَنَّ ذَلكَ لَمْ يَقَع بَعْدُ وَإنَّمَا يَقَع في الْآخرَة : وَالتَّعْبير عَنْهُ في الحَديث بلَفْظ الْمَاضي لتَحَقُّق وُقُوعه . وَذَكَرَ ابْن الجَوْزيّ احْتمَال الْتقَائهمَا في الْبَرْزَخ وَاحْتمَال أَنْ يَكُون ذَلكَ ضَرْبَ مَثَلٍ وَالْمَعْنَى لَوْ اجْتَمَعَا لَقَالَا ذَلكَ ، وَخُصَّ مُوسَى بالذّكْر لكَوْنه أَوَّلَ نَبيٍّ بُعثَ بالتَّكَاليف الشَّديدَة ، قَالَ : وَهَذَا وَإنْ أُحْتُملَ لَكنَّ الْأَوَّل أَوْلَى ، قَالَ : وَهَذَا ممَّا يَجبُ الْإيمَانُ به لثُبُوته عَنْ خَبَر الصَّادق وَإنْ لَمْ يُطَّلَع عَلَى كَيْفيَّة الحَال ، وَلَيْسَ هُوَ بأَوَّل مَا يَجب عَلَيْنَا الْإيمَان به وَإنْ لَمْ نَقف عَلَى حَقيقَة مَعْنَاهُ كَعَذَاب الْقَبْر وَنَعيمه ، وَمَتَى ضَاقَتْ الحيَل في كَشْف الْمُشْكلَات لَمْ يَبْقَ إلَّا التَّسْليم . وَقَالَ ابْن عَبْد الْبَرّ مثْل هَذَا عنْدي يَجب فيه التَّسْليم وَلَا يُوقَف فيه عَلَى التَّحْقيق ؛ لأَنَّا لَمْ نُؤْتَ منْ جنْس هَذَا الْعلْم إلَّا قَليلًا .

قَوْله (أَنْتَ أَبُونَا) في روَايَة يَحْيَى بْن أَبي كَثير " أَنْتَ أَبُو النَّاس " وَكَذَا في حَديث عُمَر ، وَفي روَايَة الشَّعْبيّ " أَنْتَ آدَمُ أَبُو الْبَشَر " قَوْله (خَيَّبْتَنَا وَأَخْرَجْتنَا منْ الجَنَّة) في روَايَة حُمَيْد بْن عَبْد الرَّحْمَن " أَنْتَ آدَم الَّذي أَخْرَجَتْك خَطيئَتُك منْ الجَنَّة " هَكَذَا في أَحَاديث الْأَنْبيَاء عَنْهُ ، وَفي التَّوْحيد " أَخْرَجْت ذُرّيَّتَك " وَفي روَايَة مَالك " أَنْتَ الَّذي أَغْوَيْت النَّاس وَأَخْرَجْتهمْ منْ

الْجَنَّة " وَمِثْله فِي رِوَايَة هَمَّام وَكَذَا فِي رِوَايَة أَبِي صَالِح ، وَفِي رِوَايَة مُحَمَّد بْن سِيرِينَ " أَشْقَيْت " بَدَلَ " أَغْوَيْت " وَمَعْنَى أَغْوَيْت كُنْت سَبَبًا لِغِوَايَة مَنْ غَوَى مِنْهُمْ ، وَهُوَ سَبَبٌ بَعِيدٌ ؛ إِذْ لَوْ لَمْ يَقَع الْأَكْلُ مِنْ الشَّجَرَة لَمْ يَقَع الْإِخْرَاج مِنْ الْجَنَّة ، وَلَوْ لَمْ يَقَعْ الْإِخْرَاجُ مَا تَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ الشَّهَوَاتُ وَالشَّيْطَانُ الْمُسَبِّب عَنْهُمَا الْإِغْوَاءُ ، وَالْغَيُّ ضِدُّ الرُّشْد وَهُوَ الِانْهِمَاكُ فِي غَيْر الطَّاعَة ، يُطْلَق أَيْضًا عَلَى مُجَرَّد الْخَطَأ يُقَال غَوَى أَيْ أَخْطَأَ صَوَابَ مَا أُمِرَ بِه . وَفِي تَفْسِير طه مِنْ رِوَايَة أَبِي سَلَمَة " أَنْتَ الَّذِي أَخْرَجْت النَّاس مِنْ الْجَنَّة بِذَنْبِك " وَعِنْد أَحْمَد مِنْ طَرِيقه " أَنْتَ الَّذِي أَدْخَلْت ذُرِّيَّتَك النَّارَ " وَالْقَوْل فِيه كَالْقَوْلِ فِي أَغْوَيْت ، وَزَادَ هَمَّام " إِلَى الْأَرْض " وَكَذَا فِي رِوَايَة يَزِيد بْن هُرْمُز " فَأَهْبَطْت النَّاس بِخَطِيئَتِك إِلَى الْأَرْض " وَأَوَّلُهُ عِنْده " أَنْتَ الَّذِي خَلَقَك اللهُ بِيَدِه وَأَسْجَدَ لَك مَلَائِكَتَهُ " وَمِثْله فِي رِوَايَة أَبِي صَالِح لَكِنْ قَالَ " وَنَفَخَ فِيك مِنْ رُوحه " وَلَمْ يَقُلْ " وَأَسْجَدَ لَك مَلَائِكَته " وَمِثْله فِي رِوَايَة مُحَمَّد بْن عَمْرو وَزَادَ " وَأَسْكَنَك جَنَّتَهُ " وَمِثْله فِي رِوَايَة مُحَمَّد بْن سِيرِينَ وَزَادَ " ثُمَّ صَنَعْت مَا صَنَعْت " وَفِي رِوَايَة عَمْرو بْن أَبِي عَمْرو عَنْ الْأَعْرَج " يَا آدَمُ خَلَقَك اللهُ بِيَدِه ثُمَّ نَفَخَ فِيك مِنْ رُوحه ثُمَّ قَالَ لَك كُنْ فَكُنْت ثُمَّ أَمَرَ الْمَلَائِكَة فَسَجَدُوا لَك ثُمَّ قَالَ لَك (اُسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُك الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِه الشَّجَرَةَ) فَنَهَاك عَنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ فَعَصَيْت " وَزَادَ الْفِرْيَابِيّ " وَأَكَلْت مِنْهَا " وَفِي رِوَايَة عِكْرِمَة بْن عَمَّار عَنْ أَبِي سَلَمَة " أَنْتَ آدَم الَّذِي خَلَقَك اللهُ بِيَدِه " فَأَعَادَ الضَّمِير فِي قَوْله خَلَقَكَ إِلَى قَوْله أَنْتَ وَالْأَكْثَر عَوْدُهُ إِلَى الْمَوْصُول ، فَكَأَنَّهُ يَقُول خَلَقَهُ اللهُ ، وَنَحْو ذَلِكَ مَا وَقَعَ فِي رِوَايَة الْأَكْثَر " أَنْتَ الَّذِي أَخْرَجَتْك خَطِيئَتُك " وَفِي حَدِيث عُمَر بَعْد قَوْله أَنْتَ آدَم " قَالَ نَعَمْ ، قَالَ أَنْتَ الَّذِي نَفَخَ اللهُ فِيك مِنْ رُوحه وَعَلَّمَك الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ، أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَك ، قَالَ نَعَمْ ، قَالَ فَلِمَ أَخْرَجْتنَا وَنَفْسَك مِنْ الْجَنَّة " وَفِي لَفْظ لِأَبِي عَوَانَة " فَوَاللهِ لَوْلَا مَا فَعَلْت مَا دَخَلَ أَحَد مِنْ ذُرِّيَّتك النَّار " وَوَقَعَ فِي حَدِيث أَبِي سَعِيد عِنْد ابْن أَبِي شَيْبَة " فَأَهْلَكْتنَا وَأَغْوَيْتنَا " وَذَكَرَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَذْكُر ، مِنْ هَذَا وَهَذَا يُشْعِر بِأَنَّ جَمِيع مَا ذُكِرَ فِي هَذِه الرِّوَايَات مَحْفُوظٌ وَأَنَّ بَعْض الرُّوَاة حَفِظَ مَا لَمْ يَحْفَظ الْآخَر ، وَقَوْله " أَنْتَ آدَم " اسْتِفْهَام تَقْرِير ، وَإِضَافَة اللهِ خَلْقَ آدَمَ إِلَى يَده فِي الْآيَة إِضَافَةُ

تَشْرِيفٍ وَكَذَا إِضَافَة رُوحه إِلَى اللهَّ ، وَمِنْ فِي قَوْله مِنْ رُوحه زَائِدَة عَلَى رَأْي ، وَالنَّفْخ بِمَعْنَى الْخَلْق أَيْ خَلَقَ فِيك الرُّوح ، وَمَعْنَى قَوْله أَخْرَجْتنَا كُنْت سَبَبًا لِإِخْرَاجِنَا كَمَا تَقَدَّمَ تَقْرِيره ، وَقَوْله أَغْوَيْتنَا وَأَهْلَكْتنَا مِنْ إِطْلَاق الْكُلّ عَلَى الْبَعْض بِخِلَاف أَخْرَجْتنَا فَهُوَ عَلَى عُمُومه ، وَمَعْنَى قَوْله أَخْطَأْت وَعَصَيْت وَنَحْوهمَا فَعَلْت خِلَاف مَا أُمِرْت بِهِ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ : خَيَّبْتنَا بِالْخَاءِ الْمُعْجَمَة ثُمَّ الْمُوَحَّدَة مِنْ الْخَيْبَة فَالْمُرَاد بِهِ الْحِرْمَان ، وَقِيلَ هِيَ كَـ أَغْوَيْتَنَا مِنْ إِطْلَاق الْكُلّ عَلَى الْبَعْض ، وَالْمُرَاد مَنْ يَجُوز مِنْهُ وُقُوع الْمَعْصِيَة ، وَلَا مَانِع مِنْ حَمْله عَلَى عُمُومه وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَوْ اسْتَمَرَّ عَلَى تَرْك الْأَكْل مِنْ الشَّجَرَة لَمْ يَخْرُج مِنْهَا وَلَوْ اسْتَمَرَّ فِيهَا لَوُلِدَ لَهُ فِيهَا وَكَانَ وَلَده سُكَّان الْجَنَّة عَلَى الدَّوَام ، فَلَمَّا وَقَعَ الْإِخْرَاج فَاتَ أَهْلَ الطَّاعَة مِنْ وَلَده اسْتِمْرَارُ الدَّوَام فِي الْجَنَّة وَإِنْ كَانُوا إِلَيْهَا يَنْتَقِلُونَ ، وَفَاتَ أَهْلَ الْمَعْصِيَة تَأَخُّرَ الْكَوْن فِي الْجَنَّة مُدَّةَ الدُّنْيَا وَمَا شَاءَ اللهَّ مِنْ مُدَّة الْعَذَاب فِي الْآخِرَة إِمَّا مُؤَقَّتًا فِي حَقّ الْمُوَحّدِينَ وَإِمَّا مُسْتَمِرًّا فِي حَقّ الْكُفَّار فَهُوَ حِرْمَان نِسْبِيٌّ .

فِي رِوَايَة الْأَعْرَج " أَنْتَ مُوسَى الَّذِي أَعْطَاك اللهَّ عِلْم كُلّ شَيْء وَاصْطَفَاك عَلَى النَّاس بِرِسَالَته " وَفِي رِوَايَة هَمَّام نَحْوه لَكِنْ بِلَفْظ " اِصْطَفَاك وَأَعْطَاهُ " وَزَادَ فِي رِوَايَة يَزِيد بْن هُرْمُز " وَقَرَّبَك نَجِيًّا وَأَعْطَاك الْأَلْوَاحَ فِيهَا بَيَانُ كُلّ شَيْءٍ " وَفِي رِوَايَة اِبْن سِيرِينَ " اِصْطَفَاك اللهَّ بِرِسَالَته وَاصْطَفَاك لِنَفْسِهِ وَأَنْزَلَ عَلَيْك التَّوْرَاةَ " وَفِي رِوَايَة أَبِي سَلَمَة " اِصْطَفَاك اللهَّ بِرِسَالَته وَكَلَامه " وَوَقَعَ فِي رِوَايَة الشَّعْبِيّ " فَقَالَ نَعَمْ " وَفِي حَدِيث عُمَر " قَالَ أَنَا مُوسَى ، قَالَ نَبِيُّ بَنِي إِسْرَائِيل ؟ قَالَ نَعَمْ ، قَالَ أَنْتَ الَّذِي كَلَّمَك اللهَّ مِنْ وَرَاء حِجَاب وَلَمْ يَجْعَل بَيْنك وَبَيْنه رَسُولًا مِنْ خَلْقه ؟ قَالَ نَعَمْ " .

فِي رِوَايَة يَحْيَى بْن أَبِي كَثِير عَنْ أَبِي سَلَمَة " فَكَيْف تَلُومُنِي عَلَى أَمْر كَتَبَهُ اللهَّ أَوْ قَدَّرَهُ اللهَّ عَلَيَّ " وَلَمْ يَذْكُرْ الْمُدَّة وَثَبَتَ ذِكْرهَا فِي رِوَايَة طَاوُسٍ ، وَفِي رِوَايَة مُحَمَّد بْن عَمْرو عَنْ أَبِي سَلَمَة وَلَفْظه " فَكَمْ تَجِد فِي التَّوْرَاة أَنَّهُ كَتَبَ عَلَيَّ الْعَمَلَ الَّذِي عَمِلْته قَبْل أَنْ أُخْلَقَ ؟ قَالَ : بِأَرْبَعِينَ سَنَة . قَالَ : فَكَيْف تَلُومُنِي عَلَيْهِ " وَفِي رِوَايَة يَزِيد بْن هُرْمُز نَحْوه وَزَادَ " فَهَلْ وَجَدْت فِيهَا وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ؟ قَالَ نَعَمْ " وَكَلَام اِبْن عَبْد الْبَرّ قَدْ يُوهِم تَفَرُّد اِبْن عُيَيْنَةَ عَنْ أَبِي الزِّنَاد بِزِيَادَتِهَا لَكِنَّهُ

بالنِّسْبَة لأَبِي الزِّنَاد وَإِلَّا فَقَدْ ذَكَرَ التَّقْيِيدَ بالْأَرْبَعينَ غَيْرُ ابْن عُيَيْنَةَ كَمَا تَرَى ، وَفِي روَايَة الزُّهْريّ عَنْ أَبِي سَلَمَة عنْد أَحْمَد " فَهَلْ وَجَدْت فيهَا – يَعْني الْأَلْوَاح أَوْ التَّوْرَاة – أَنِّي أُهْبَط " وَفِي روَايَة الشَّعْبِيّ أَفَلَيْسَ تَجِد فيمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْك أَنَّهُ سَيُخْرجُني منْهَا قَبْل أَنْ يُدْخلَنيهَا ؟ قَالَ بَلَى " وَفِي روَايَة عَمَّار ابْن أَبِي عَمَّار " أَنَا أَقْدَمُ أَمْ الذِّكْر ؟ قَالَ بَلْ الذِّكْر " وَفِي روَايَة عَمْرو بْن أَبِي عَمْرو عَنْ الْأَعْرَج " أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدَّرَ هَذَا عَلَيَّ قَبْل أَنْ يَخْلُقَني " وَفِي روَايَة ابْن سيرينَ " فَوَجَدْته كَتَبَ عَلَيَّ قَبْل أَنْ يَخْلُقَني ؟ قَالَ نَعَمْ " وَفِي روَايَة أَبِي صَالح " فَتَلُومُني فِي شَيْءٍ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْل خَلْقي " وَفِي حَديث عُمَر قَالَ " فَلَمْ تَلُومني عَلَى شَيْء سَبَقَ منْ اللهِ تَعَالَى فيه الْقَضَاء " وَوَقَعَ فِي حَديث أَبِي سَعيد الْخُدْريّ " أَتَلُومُني عَلَى أَمْر قَدَّرَهُ عَلَيَّ قَبْل أَنْ يَخْلُق السَّمَاوَات وَالْأَرْض " وَالْجَمْع بَيْنه وَبَيْن الرِّوَايَة الْمُقَيَّدَة بأَرْبَعينَ سَنَة حَمْلهَا عَلَى مَا يَتَعَلَّق بالْكتَابَة وَحَمْل الْأُخْرَى عَلَى مَا يَتَعَلَّق بالْعلْم ، وَقَالَ ابْن التِّين : يَحْتَمل أَنْ يَكُون الْمُرَاد بالْأَرْبَعينَ سَنَة مَا بَيْن قَوْله تَعَالَى (إِنِّي جَاعلٌ فِي الْأَرْض خَليفَةً) إِلَى نَفْخ الرُّوح فِي آدَم ، وَأَجَابَ غَيْره أَنَّ ابْتدَاء الْمُدَّة وَقْت الْكتَابَة فِي الْأَلْوَاح وَآخرهَا ابْتدَاء خَلْق آدَم ، وَقَالَ ابْن الْجَوْزيّ : الْمَعْلُومَات كُلّهَا قَدْ أَحَاطَ بهَا علْم اللهِ الْقَديم قَبْل وُجُود الْمَخْلُوقَات كُلّهَا ، وَلَكنَّ كتَابَتَهَا وَقَعَتْ فِي أَوْقَاتٍ مُتَفَاوتَةٍ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحيح يَعْني صَحيح مُسْلم " أَنَّ اللهَ قَدَّرَ الْمَقَاديرَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَات وَالْأَرْضَ بخَمْسينَ أَلْفَ سَنَةٍ " فَيَجُوز أَنْ تَكُون قصَّة آدَم بخُصُوصهَا كُتبَتْ قَبْل خَلْقه بأَرْبَعينَ سَنَة ، وَيَجُوز أَنْ يَكُون ذَلكَ الْقَدْر مُدَّة لُبْثه طينًا إِلَى أَنْ نُفخَتْ فيه الرُّوحُ ، فَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحيح مُسْلم أَنَّ بَيْنَ تَصْويره طينًا وَنَفْخ الرُّوح فيه كَانَ مُدَّةَ أَرْبَعينَ سَنَة ، وَلَا يُخَالف ذَلكَ كتَابَة الْمَقَادير عُمُومًا قَبْل خَلْق السَّمَاوَات وَالْأَرْض بخَمْسينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَقَالَ الْمَازريُّ : الْأَظْهَر أَنَّ الْمُرَاد أَنَّهُ كَتَبَهُ قَبْل خَلْق آدَم بأَرْبَعينَ عَامًا ، وَيَحْتَمل أَنْ يَكُون الْمُرَاد أَظْهَرَهُ للْمَلَائكَة أَوْ فَعَلَ فعْلًا مَا أَضَافَ إِلَيْه هَذَا التَّاريخ وَإِلَّا فَمَشيئَة اللهِ وَتَقْديره قَديم ، وَالْأَشْبَهُ أَنَّهُ أَرَادَ بقَوْله " قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ " أَيْ كَتَبَهُ فِي التَّوْرَاة لقَوْله فِي الرِّوَايَة الْمُشَار إِلَيْهَا قَبْلُ " فَكَمْ وَجَدْته كَتَبَ فِي التَّوْرَاة قَبْل أَنْ أُخْلَقَ " وَقَالَ النَّوَويّ : الْمُرَاد بتَقْديرهَا كَتْبُهُ فِي اللَّوْح الْمَحْفُوظ أَوْ فِي التَّوْرَاة أَوْ فِي الْأَلْوَاح ، وَلَا يَجُوز

أَنْ يُرَاد أَصْل الْقَدَر ؛ لأَنَّهُ أَزَلِيٌّ وَلَمْ يَزَلْ اللهَّ - سُبْحَانه تَعَالَى - مُرِيدًا لمَا يَقَع منْ خَلْقه . وَكَانَ بَعْض شُيُوخنَا يَزْعُم أَنَّ الْمُرَاد إظْهَار ذَلكَ عنْد تَصْوير آدَم طينًا فَإنَّ آدَم أَقَامَ في طينَته أَرْبَعينَ سَنَة ، وَالْمُرَاد عَلَى هَذَا بخَلْقه نَفْخ الرُّوح فيه . قُلْت : وَقَدْ يُعَكّر عَلَى هَذَا روَايَة الْأَعْمَش عَنْ أَبي صَالح " كَتَبَهُ اللهَّ عَلَيَّ قَبْل أَنْ يَخْلُق السَّمَاوَات وَالْأَرْض " لَكنَّهُ يُحْمَل قَوْله فيه " كَتَبَهُ اللهَّ عَلَيَّ " قَدَّرَهُ أَوْ عَلَى تَعَدُّد الْكتَابَة لتَعَدُّد الْمَكْتُوب ، وَالْعلْم عنْد اللهَّ تَعَالَى .

كَذَا في هَذه الطُّرُق وَلَمْ يُكَرَّر في أَكْثَر الطُّرُق عَنْ أَبي هُرَيْرَة ، فَفي روَايَة أَيُّوب بْن النَّجَّار كَالَّذي هُنَا لَكنْ بدُون قَوْله " ثَلَاثًا " وَكَذَا لمُسْلمٍ منْ روَايَة ابْن سيرينَ ، كَذَا في حَديث جُنْدَبٍ عنْد أَبي عَوَانَة ، وَثَبَتَ في حَديث عُمَر بلَفْظ " فَاحْتَجَّا إلَى اللهَّ فَحَجَّ آدَم مُوسَى ، قَالَهَا ثَلَاث مَرَّات " وَفي روَايَة عَمْرو بْن أَبي عَمْرو عَنْ الْأَعْرَج " لَقَدْ حَجَّ آدَم مُوسَى ، لَقَدْ حَجَّ آدَم مُوسَى ، لَقَدْ حَجَّ آدَم مُوسَى " وَفي حَديث أَبي سَعيد عنْد الْحَارث " فَحَجَّ آدَم مُوسَى ثَلَاثًا " وَفي روَايَة الشَّعْبيّ عنْد النَّسَائيّ " فَخَصَمَ آدَم مُوسَى ، فَخَصَمَ آدَم مُوسَى وَاتَّفَقَ الرُّوَاة وَالنَّقَلَة وَالشُّرَّاح عَلَى أَنَّ آدَم بالرَّفْع وَهُوَ الْفَاعل ، وَشَذَّ بَعْض النَّاس فَقَرَأَهُ بالنَّصْب عَلَى أَنَّهُ الْمَفْعُول وَمُوسَى في مَحَلّ الرَّفْع عَلَى أَنَّهُ الْفَاعل نَقَلَهُ الْحَافظ أَبُو بَكْر بْن الْخَاصّيَّة عَنْ مَسْعُود بْن نَاصر السَّجْزيّ الْحَافظ قَالَ : سَمعْته يَقْرَأ " فَحَجَّ آدَمَ " بالنَّصْب ، قَالَ وَكَانَ قَدَريًّا . قُلْت : هُوَ مَحْجُوج بالاتّفَاق قَبْله عَلَى أَنَّ آدَم بالرَّفْع عَلَى أَنَّهُ الْفَاعل ، وَقَدْ أَخْرَجَهُ أَحْمَد منْ روَايَة الزُّهْريّ عَنْ أَبي سَلَمَة عَنْ أَبي هُرَيْرَة بلَفْظ " فَحَجَّهُ آدَمُ " وَهَذَا يَرْفَع الْإشْكَال فَإنَّ رُوَاتَهُ أَئمَّةٌ حُفَّاظٌ ، وَالزُّهْريُّ منْ كبَار الْفُقَهَاء الْحُفَّاظ فَروَايَته هيَ الْمُعْتَمَدَة في ذَلكَ ، وَمَعْنيّ حَجَّهُ غَلَبَهُ بالْحُجَّة ، يُقَال حَاجَجْت فُلَانًا فَحَجَجْته مثْل خَاصَمْته فَخَصَمْته ، قَالَ ابْن عَبْد الْبَرّ : هَذَا الْحَديث أَصْلٌ جَسيمٌ لأَهْل الْحَقّ في إثْبَات الْقَدَر ، وَأَنَّ اللهَّ قَضَى أَعْمَال الْعبَاد فَكُلُّ أَحَدٍ يَصير لمَا قُدّرَ لَهُ بمَا سَبَقَ في علْم اللهَّ ، قَالَ : وَلَيْسَ فيه حُجَّة للْجَبْريَّة ، وَإنْ كَانَ في بَادئ الرَّأْي يُسَاعدهُمْ . وَقَالَ الْخَطَّابيُّ في " مَعَالم السُّنَن " : يَحْسَبُ كَثير منْ النَّاس أَنَّ مَعْنَى الْقَضَاء وَالْقَدَر يَسْتَلْزم الْجَبْر وَقَهْر الْعَبْد وَيُتَوَهَّم أَنَّ غَلَبَة آدَم كَانَتْ منْ هَذَا الْوَجْه ، وَلَيْسَ كَذَلكَ وَإنَّمَا مَعْنَاهُ الْإخْبَار عَنْ إثْبَات علْم اللهَّ بمَا يَكُون منْ

أَفْعَال الْعبَاد وَصُدُورهَا عَنْ تَقْدير سَابق مِنْهُ ، فَإِنَّ الْقَدَر اسْم لِمَا صَدَرَ عَنْ فعْل الْقَادر ، وَإِذَا كَانَ كَذَلكَ فَقَدْ نَفَى عَنْهُمْ منْ وَرَاء علْم اللهِ أَفْعَالَهُمْ وَأَكْسَابَهُمْ وَمُبَاشَرَتَهُمْ تلْكَ الْأُمُورَ عَنْ قَصْد وَتَعَمُّد وَاخْتيَار ، فَالْحُجَّة إِنَّمَا تُلْزِمُهُمْ بهَا وَاللَّائمَة إِنَّمَا تَتَوَجَّه عَلَيْهَا ، وَجِمَاع الْقَوْل فِي ذَلكَ أَنَّهُمَا أَمْرَان لَا يُبَدَّل أَحَدهمَا عَنْ الْآخَر : أَحَدهمَا بمَنْزلَة الْأَسَاس وَالْآخَر بمَنْزلَة الْبنَاء وَنَقْضه ، وَإِنَّمَا جهَة حُجَّة آدَم أَنَّ اللهَ عَلمَ منْهُمْ أَنَّهُ يَتَنَاوَل منْ الشَّجَرَة فَكَيْف يُمْكنُهُ أَنْ يَرُدَّ علْمَ اللهِ فيه ، وَإِنَّمَا خُلقَ للْأَرْض وَأَنَّهُ لَا يُتْرَك فِي الْجَنَّة بَلْ يُنْقَل منْهَا إِلَى الْأَرْض فَكَانَ تَنَاوُله منْ الشَّجَرَة سَبَبًا لإِهْبَاطه وَاسْتخْلَافه فِي الْأَرْض كَمَا قَالَ تَعَالَى قَبْل خَلْقه (إِنِّي جَاعلٌ فِي الْأَرْض خَليفَةً) قَالَ فَلَمَّا لَامَهُ مُوسَى عَنْ نَفْسه قَالَ لَهُ : أَتَلُومُني عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ ؟ فَاللَّوْمُ عَلَيْه منْ قبَلك سَاقطٌ عَنِّي إِذْ لَيْسَ لأَحَدٍ أَنْ يُعَيِّرَ أَحَدًا بذَنْبٍ كَانَ منْهُ ، لأَنَّ الْخَلْق كُلَّهُمْ تَحْت الْعُبُوديَّة سَوَاء ، وَإِنَّمَا يَتَّجه اللَّوْم منْ قبَل اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – إِذْ كَانَ نَهَاهُ فَبَاشَرَ مَا نَهَاهُ عَنْهُ ، قَالَ : وَقَوْل مُوسَى وَإِنْ كَانَ فِي النَّفْس منْهُ شُبْهَةٌ وَفِي ظَاهره تَعَلُّق لاحْتجَاجه بالسَّبَب لَكنَّ تَعَلُّق آدَم بالْقَدَر أَرْجَح فَلهَذَا غَلَبَهُ . وَالْغَلَبَة تَقَع مَعَ الْمُعَارَضَة كَمَا تَقَع مَعَ الْبُرْهَان انْتَهَى مُلَخَّصًا . وَقَالَ فِي أَعْلَام الْحَديث نَحْوه مُلَخَّصًا وَزَادَ : وَمَعْنَى قَوْله " فَحَجَّ آدَم مُوسَى " دَفْع حُجَّتَهُ الَّتي أَلْزَمَهُ اللَّوْم بهَا . قَالَ : وَلَمْ يَقَع منْ آدَم إِنْكَار لِمَا صَدَرَ منْهُ بَلْ عَارَضَهُ بأَمْرٍ دَفَعَ به عَنْهُ اللَّوْمَ . قُلْت : وَلَمْ يَتَلَخَّص منْ كَلَامه مَعَ تَطْويله فِي الْمَوْضعَيْن دَفْعٌ للشُّبْهَة إِلَّا فِي دَعْوَاهُ أَنَّهُ لَيْسَ للآدَميّ أَنْ يَلُوم آخَرَ مثْلَهُ عَلَى فعْل مَا قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيْه ، وَإِنَّمَا يَكُون ذَلكَ للهِ تَعَالَى لأَنَّهُ هُوَ الَّذي أَمَرَهُ وَنَهَاهُ . وَللْمُعْتَرض أَنْ يَقُول : وَمَا الْمَانع إِذَا كَانَ ذَلكَ للهِ أَنْ يُبَاشرهُ مَنْ تَلَقَّى عَنْ اللهِ منْ رَسُوله وَمَنْ تَلَقَّى عَنْ رُسُله مِمَّنْ أُمرَ بالتَّبْليغ عَنْهُمْ ؟ وَقَالَ الْقُرْطُبيّ : إِنَّمَا غَلَبَهُ بالْحُجَّة ؛ لأَنَّهُ عَلمَ منْ التَّوْرَاة أَنَّ اللهَ تَابَ عَلَيْه فَكَانَ لَوْمُهُ لَهُ عَلَى ذَلكَ نَوْعَ جَفَاءٍ كَمَا يُقَال ذكْر الْجَفَاء بَعْد حُصُول الصَّفَاء جَفَاء ، وَلأَنَّ أَثَر الْمُخَالَفَة بَعْد الصَّفْح يَنْمَحي حَتَّى كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فَلَا يُصَادف اللَّوْم منْ اللَّائم حينَئذٍ مَحَلًّا انْتَهَى . وَهُوَ مُحَصَّل مَا أَجَابَ به الْمَازريُّ وَغَيْره منْ الْمُحَقّقينَ ، وَهُوَ الْمُعْتَمَد . وَقَدْ أَنْكَرَ الْقَدَريَّة هَذَا الْحَديث لأَنَّهُ صَريح فِي إِثْبَات الْقَدَر السَّابق وَتَقْرير النَّبيّ ﷺ لآدَمَ عَلَى الاحْتجَاج به وَشَهَادَته بأَنَّهُ غَلَبَ

مُوسَى فَقَالُوا : لَا يَصحّ لأَنَّ مُوسَى لَا يَلُوم عَلَى أَمْر قَدْ تَابَ مِنْهُ صَاحبه ، وَقَدْ قَتَلَ هُوَ نَفْسًا لَمْ يُؤْمَرْ بِقَتْلِهَا ، ثُمَّ قَالَ : رَبّ اغْفِرْ لِي ، فَغَفَرَ لَهُ ، فَكَيْفَ يَلُوم آدَم عَلَى أَمْر قَدْ غُفِرَ لَهُ ؟ ثَانِيهَا لَوْ سَاغَ اللَّوْم عَلَى الذَّنْب بِالْقَدَر الَّذِي فُرِغَ مِنْ كِتَابَته عَلَى الْعَبْد لَا يَصحّ هَذَا لَكَانَ مَنْ عُوتِبَ عَلَى مَعْصِيَةٍ قَدْ ارْتَكَبَهَا فَيَحْتَج بِالْقَدَر السَّابِق وَلَوْ سَاغَ ذَلِكَ لَانْسَدَّ بَاب الْقِصَاص وَالْحُدُود وَلَاحْتَجَّ بِهِ كُلّ أَحَد عَلَى مَا يَرْتَكِبهُ مِنْ الْفَوَاحِش ، وَهَذَا يُفْضِي إِلَى لَوَازِمَ قَطْعِيَّةٍ ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ هَذَا الْحَدِيث لَا أَصْل لَهُ .

وَالْجَوَابُ مِنْ أَوْجُهٍ :

أَحَدهَا أَنَّ آدَم إِنَّمَا احْتَجَّ بِالْقَدَر عَلَى الْمَعْصِيَة لَا الْمُخَالَفَة ، فَإِنَّ مُحَصَّل لَوْم مُوسَى إِنَّمَا هُوَ عَلَى الْإِخْرَاج فَكَأَنَّهُ قَالَ أَنَا لَمْ أُخْرِجْكُمْ وَإِنَّمَا أَخْرَجَكُمْ الَّذِي رَتَّبَ الْإِخْرَاج عَلَى الْأَكْل مِنْ الشَّجَرة وَالَّذِي رَتَّبَ ذَلِكَ قَدَّرَهُ قَبْل أَنْ أُخْلَقَ فَكَيْفَ تَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ لَيْسَ لِي فِيهِ نِسْبَةٌ إِلَّا الْأَكْل مِنْ الشَّجَرَة وَالْإِخْرَاج الْمُرَتَّب عَلَيْهَا لَيْسَ مِنْ فِعْلِي . قُلْت : وَهَذَا الْجَوَابُ لَا يَدْفَعُ شُبْهَةَ الْجَبْرِيَّة .

ثَانِيهَا إِنَّمَا حَكَمَ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لآدَم بِالْحُجَّة فِي مَعْنَى خَاصّ ، وَذَلِكَ لأَنَّهُ لَوْ كَانَتْ فِي الْمَعْنَى الْعَامّ لَمَا تَقَدَّمَ مِنْ اللهُ تَعَالَى لَوْمه بِقَوْله (أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَة) وَلَا أَخَذَهُ بِذَلِكَ حَتَّى أَخْرَجَهُ مِنْ الْجَنَّة وَأَهْبَطَهُ إِلَى الْأَرْض ، وَلَكِنْ لَمَّا أَخَذَ مُوسَى فِي لَوْمه وَقَدَّمَ قَوْله لَهُ أَنْتَ الَّذِي خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِه وَأَنْتَ وَأَنْتَ لِمَ فَعَلْت كَذَا ؟ عَارَضَهُ آدَم بِقَوْله أَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ وَأَنْتَ وَأَنْتَ . وَحَاصِل جَوَابه إِذَا كُنْت بِهَذِه الْمَنْزِلَة كَيْف يَخْفَى عَلَيْك أَنَّهُ لَا مَحِيدَ مِنْ الْقَدَر ، وَإِنَّمَا وَقَعَتْ الْغَلَبَةُ لآدَمَ مِنْ وَجْهَيْن :

أَحَدهمَا أَنَّهُ لَيْسَ لِمَخْلُوقٍ أَنْ يَلُوم مَخْلُوقًا فِي وُقُوع مَا قُدّرَ عَلَيْه إِلَّا بِإِذْنٍ مِنْ اللهُ تَعَالَى فَيَكُون الشَّارِع هُوَ اللَّائِمَ ، فَلَمَّا أَخَذَ مُوسَى فِي لَوْمه مِنْ غَيْر أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ فِي ذَلِكَ عَارَضَهُ بِالْقَدَر فَأَسْكَتَهُ وَالثَّانِي أَنَّ الَّذِي فَعَلَهُ آدَم اجْتَمَعَ فِيه الْقَدَر وَالْكَسْب ، وَالتَّوْبَةُ تَمْحُو أَثَرَ الْكَسْب ، وَقَدْ كَانَ اللهُ تَابَ عَلَيْه فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْقَدَر ، وَالْقَدَر لَا يَتَوَجَّه عَلَيْه لَوْم لأَنَّهُ فِعْل اللهُ وَلَا يُسْأَل عَمَّا يَفْعَلُ .

ثَالِثهَا قَالَ ابْن عَبْد الْبَرّ : هَذَا عِنْدِي مَخْصُوص بِآدَم لأَنَّ الْمُنَاظَرَة بَيْنهمَا وَقَعَتْ بَعْد أَنْ تَابَ اللهُ عَلَى

آدَم قَطْعًا كَمَا قَالَ تَعَالَى (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّه كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْه) فَحَسُنَ مِنْهُ أَنْ يُنْكِر عَلَى مُوسَى لَوْمَهُ عَلَى الْأَكْل مِنْ الشَّجَرَة لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ تِيبَ عَلَيْه مِنْ ذَلِكَ وَإِلَّا فَلَا يَجُوز لِأَحَدٍ أَنْ يَقُول لِمَنْ لَامَهُ عَلَى ارْتِكَاب مَعْصِيَةٍ كَمَا لَوْ قَتَلَ أَوْ زَنَى أَوْ سَرَقَ : هَذَا سَبَقَ فِي عِلْم اللّٰهِ وَقَدَره عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي فَلَيْسَ لَك أَنْ تَلُومَنِي عَلَيْه ، فَإِنَّ الْأُمَّة أَجْمَعَتْ عَلَى جَوَاز لَوْم مَنْ وَقَعَ مِنْهُ ذَلِكَ بَلْ عَلَى اسْتِحْبَاب ذَلِكَ كَمَا أَجْمَعُوا عَلَى اسْتِحْبَاب مَحْمَدَة مَنْ وَاظَبَ عَلَى الطَّاعَة . قَالَ : وَقَدْ حَكَى ابْن وَهْب فِي كِتَاب الْقَدَر عَنْ مَالِك عَنْ يَحْيَى بْن سَعِيد أَنَّ ذَلِكَ كَانَ مِنْ آدَم بَعْدَ أَنْ تِيبَ عَلَيْه .

رَابِعهَا إِنَّمَا تَوَجَّهَتْ الْحُجَّة لِآدَم لِأَنَّ مُوسَى لَامَهُ بَعْد أَنْ مَاتَ وَاللَّوْم إِنَّمَا يُتَوَجَّه عَلَى الْمُكَلَّف مَا دَامَ فِي دَار التَّكْلِيف ، فَإِنَّ الْأَحْكَام حِينَئِذٍ جَارِيَةٌ عَلَيْهِمْ ، فَيُلَام الْعَاصِي وَيُقَام عَلَيْه الْحَدّ وَالْقِصَاص وَغَيْر ذَلِكَ ، وَأَمَّا بَعْد أَنْ يَمُوت فَقَدْ ثَبَتَ النَّهْي عَنْ سَبّ الْأَمْوَات " وَلَا تَذْكُرُوا مَوْتَاكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ " لِأَنَّ مَرْجِعَ أَمْرهمْ إِلَى اللّٰهِ ، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ لَا يُثَنِّي الْعُقُوبَة عَلَى مَنْ أُقِيمَ عَلَيْه الْحَدّ ، بَلْ وَرَدَ النَّهْي عَنْ التَّثْرِيب عَلَى الْأَمَة إِذَا زَنَتْ وَأُقِيمَ عَلَيْهَا الْحَدُّ ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَلَوْم مُوسَى لِآدَم إِنَّمَا وَقَعَ بَعْد انْتِقَاله عَنْ دَار التَّكْلِيف ، وَثَبَتَ أَنَّ اللّٰهَ تَابَ عَلَيْه فَسَقَطَ عَنْهُ اللَّوْم ، فَلِذَلِكَ عَدَلَ إِلَى الِاحْتِجَاج بِالْقَدَر السَّابِق وَأَخْبَرَ النَّبِيّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ بِأَنَّهُ غَلَبَ مُوسَى بِالْحُجَّة . قَالَ الْمَازِرِيُّ : لَمَّا تَابَ اللّٰهُ عَلَى آدَم صَارَ ذِكْر مَا صَدَرَ مِنْهُ إِنَّمَا هُوَ كَالْبَحْث عَنْ السَّبَب الَّذِي دَعَاهُ إِلَى ذَلِكَ ، فَأَخْبَرَ هُوَ أَنَّ الْأَصْل فِي ذَلِكَ الْقَضَاءُ السَّابِقُ فَلِذَلِكَ غَلَبَ بِالْحُجَّة .

قَالَ الدَّاوُدِيُّ فِيمَا نَقَلَهُ ابْن التِّين : إِنَّمَا قَامَتْ حُجَّةُ آدَم لِأَنَّ اللّٰهَ خَلَقَهُ لِيَجْعَلَهُ فِي الْأَرْض خَلِيفَةً ، فَلَمْ يَحْتَجَّ آدَم فِي أَكْله مِنْ الشَّجَرَة بِسَابِق الْعِلْم لِأَنَّهُ كَانَ عَنْ اخْتِيَارٍ مِنْهُ ، وَإِنَّمَا احْتَجَّ بِالْقَدَر لِخُرُوجِه لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ ذَلِكَ . وَقِيلَ إِنَّ آدَم أَبٌ وَمُوسَى ابْنٌ وَلَيْسَ لِلِابْن أَنْ يَلُوم أَبَاهُ ، حَكَاهُ الْقُرْطُبِيّ وَغَيْره ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَبَّرَ عَنْهُ بِأَنَّ آدَم أَكْبَرُ مِنْهُ ، وَتَعَقَّبَهُ بِأَنَّهُ بَعِيد مِنْ مَعْنَى الْحَدِيث ، ثُمَّ هُوَ لَيْسَ عَلَى عُمُومه بَلْ يَجُوز لِلِابْن أَنْ يَلُوم أَبَاهُ فِي عِدَّة مَوَاطِنَ ، وَقِيلَ إِنَّمَا غَلَبَهُ لِأَنَّهُمَا فِي شَرِيعَتَيْن مُتَغَايِرَتَيْن ، وَتُعُقِّبَ بِأَنَّهَا دَعْوَى لَا دَلِيل عَلَيْهَا ، وَمِنْ أَيْنَ يُعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ فِي شَرِيعَة آدَم أَنَّ الْمُخَالِف يَحْتَجُّ بِسَابِق الْقَدَر ، وَفِي شَرِيعَة مُوسَى أَنَّهُ لَا يَحْتَجُّ أَوْ أَنَّهُ يُتَوَجَّه لَهُ اللَّوْم عَلَى الْمُخَالِف ، وَفِي

الجُمْلَة فَأَصَحُّ الْأَجْوبَة الثَّاني وَالثَّالث ، وَلَا تَنَافِيَ بَيْنَهُمَا فَيُمْكن أَنْ يَمْتَزِجَ منْهُمَا جَوَابٌ وَاحدٌ ، وَهُوَ أَنَّ التَّائب لَا يُلَام عَلَى مَا تيبَ عَلَيْه منْهُ وَلَا سيَّمَا إذَا انْتَقَلَ عَنْ دَار التَّكْليف . وَقَدْ سَلَكَ النَّوَويّ هَذَا الْمَسْلَك فَقَالَ : مَعْنَى كَلَام آدَم أَنَّك يَا مُوسَى تَعْلَم أَنَّ هَذَا كُتبَ عَلَيَّ قَبْل أَنْ أُخْلَق فَلَا بُدّ منْ وُقُوعه ، وَلَوْ حَرَصْت أَنَا وَالخَلْق أَجْمَعُونَ عَلَى رَدّ مثْقَال ذَرَّةٍ منْهُ لَمْ نَقْدرْ فَلَا تَلُمْني فَإِنَّ اللَّوْم عَلَى الْمُخَالَفَة شَرْعيٌّ لَا عَقْليٌّ ، وَإِذَا تَابَ اللهُ عَلَيَّ وَغَفَرَ لي زَالَ اللَّوْم فَمَنْ لَامَني كَانَ مَحْجُوجًا بالشَّرْع . فَإِنْ قيلَ فَالْعَاصي الْيَوْم لَوْ قَالَ هَذه الْمَعْصيَة قُدّرَتْ عَلَيَّ فَيَنْبَغي أَنْ يَسْقُط عَنّي اللَّوْم قُلْنَا الْفَرْق أَنَّ هَذَا الْعَاصي بَاقٍ في دَار التَّكْليف جَاريَة عَلَيْه الْأَحْكَام منْ الْعُقُوبَة وَاللَّوْم وَفي ذَلكَ لَهُ وَلغَيْره زَجْر وَعظَة ، فَأَمَّا آدَم فَمَيّت خَارج عَنْ دَار التَّكْليف مُسْتَغْنٍ عَنْ الزَّجْر فَلَمْ يَكُنْ للَوْمه فَائدَة بَلْ فيه إيذَاء وَتَخْجيل فَلذَلكَ كَانَ الْغَلَبَة لَهُ . وَقَالَ التُّورْبَشْتيُّ : لَيْسَ مَعْنَى قَوْله كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ أَلْزَمَني به وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ أَثْبَتَهُ في أُمّ الْكتَاب قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ آدَم وَحَكَمَ أَنَّ ذَلكَ كَائن . ثُمَّ إنَّ هَذه الْمُحَاجَجَة إنَّمَا وَقَعَتْ في الْعَالَمَ الْعُلْويّ عنْد مُلْتَقَى الْأَرْوَاح وَلَمْ تَقَع في عَالَمَ الْأَسْبَاب ، وَالْفَرْق بَيْنَهُمَا أَنَّ عَالَمَ الْأَسْبَاب لَا يَجُوز قَطْع النَّظَر فيه عَنْ الْوَسَائط وَالاكْتسَاب ، بخلَاف الْعَالَمَ الْعُلْويّ بَعْد انْقطَاع مُوجب الْكَسْب وَارْتفَاع الْأَحْكَام التَّكْليفيَّة ، فَلذَلكَ احْتَجَّ آدَمُ بالْقَدَر السَّابق .

قُلْت : وَهُوَ مُحَصَّل بَعْض الْأَجْوبَة الْمُتَقَدّم ذكْرُهَا ، وَفيه اسْتعْمَال التَّعْريض بصيغَة الْمَدْح يُؤْخَذ ذَلكَ منْ قَوْل آدَم لمُوسَى " أَنْتَ الَّذي اصْطَفَاك اللهُ برسَالَته " إلَى آخر مَا خَاطَبَهُ به ، وَذَلكَ أَنَّهُ أَشَارَ بذَلكَ إلَى أَنَّهُ اطَّلَعَ عَلَى عُذْره وَعَرَفَهُ بالْوَحْي فَلَوْ اسْتَحْضَرَ ذَلكَ مَا لَامَهُ مَعَ وُضُوح عُذْره ، وَأَيْضًا فَفيه إشَارَة إلَى شَيْءٍ آخَرَ أَعَمّ منْ ذَلكَ وَإِنْ كَانَ لمُوسَى فيه اخْتصَاصٌ فَكَأَنَّهُ قَالَ : لَوْ لَمْ يَقَع إخْرَاجي الَّذي رُتّبَ عَلَى أَكْلي منْ الشَّجَرَة مَا حَصَلَتْ لَك هَذه الْمَنَاقبُ لأَنّي لَوْ بَقيت في الْجَنَّة وَاسْتَمَرَّ نَسْلي فيهَا مَا وُجدَ مَنْ تَجَاهَرَ بالْكُفْر الشَّنيع بمَا جَاهَرَ به فرْعَوْن حَتَّى أُرْسلْت أَنْتَ إلَيْه وَأُعْطيت مَا أُعْطيت ، فَإذَا كُنْت أَنَا السَّبَبَ في حُصُول هَذه الْفَضَائل لَك فَكَيْفَ يَسُوغُ لَك أَنْ تَلُومَني .

قَالَ الطِّيبِيُّ مَذْهَب الْجَبْرِيَّة إِثْبَات الْقُدْرَة للهِ وَنَفْيُهَا عَنْ الْعَبْد أَصْلًا ، وَمَذْهَب الْمُعْتَزِلَة بِخِلَافِهِ ، وَكِلَاهُمَا مِنْ الْإِفْرَاط وَالتَّفْرِيط عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ، وَالطَّرِيق الْمُسْتَقِيم الْقَصْد ، فَلَمَّا كَانَ سِيَاق كَلَام مُوسَى يَؤُولُ إِلَى الثَّانِي بِأَنْ صَدَّرَ الْجُمْلَة بِحَرْف الْإِنْكَار وَالتَّعَجُّب وَصَرَّحَ بِاسْم آدَم وَوَصَفَهُ بِالصِّفَات الَّتِي كُلّ وَاحِدَة مِنْهَا مُسْتَقِلَّة فِي عِلِّيَّة عَدَم ارْتِكَابه الْمُخَالَفَة ثُمَّ أَسْنَدَ الْإِهْبَاط إِلَيْهِ وَنَفْس الْإِهْبَاط مَنْزِلَة دُون فَكَأَنَّهُ قَالَ : مَا أَبْعَدَ هَذَا الِانْحِطَاط مِنْ تِلْكَ الْمَنَاصِب الْعَالِيَة ، فَأَجَابَ آدَم بِمَا يُقَابِلُهَا بَلْ أَبْلَغَ فَصَدَّرَ الْجُمْلَة بِهَمْزَةِ الْإِنْكَار أَيْضًا وَصَرَّحَ بِاسْم مُوسَى وَوَصَفَهُ بِصِفَاتٍ كُلٌّ وَاحِدَة مُسْتَقِلَّة فِي عِلِّيَّة عَدَم الْإِنْكَار عَلَيْهِ ، ثُمَّ رَتَّبَ الْعِلْم الْأَزَلِيّ عَلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ أَتَى بِهَمْزَةِ الْإِنْكَار بَدَلَ كَلِمَة الِاسْتِبْعَاد فَكَأَنَّهُ قَالَ : تَجِد فِي التَّوْرَاة هَذَا ثُمَّ تَلُومنِي قَالَ : وَفِي هَذَا التَّقْرِير تَنْبِيه عَلَى تَحَرِّي قَصْد الْأُمُور . قَالَ وَخَتَمَ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحَدِيث بِقَوْلِهِ " فَحَجَّ آدَم مُوسَى " تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ بَعْض أُمَّته كَالْمُعْتَزِلَةِ يُنْكِرُونَ الْقَدَر فَاهْتَمَّ لِذَلِكَ وَبَالَغَ فِي الْإِرْشَاد . قُلْت : وَيَقْرُب مِنْ هَذَا مَا تَقَدَّمَ فِي كِتَاب الْإِيمَان فِي الرَّدّ عَلَى الْمُرْجِئَة بِحَدِيثِ ابْن مَسْعُود رَفَعَهُ " سِبَابُ الْمُسْلِم فُسُوقٌ وَقِتَاله كُفْر " فَلَمَّا كَانَ الْمَقَام مَقَامَ الرَّدّ عَلَى الْمُرْجِئَة اكْتَفَى بِهِ مُعْرِضًا عَمَّا يَقْتَضِيه ظَاهِره مِنْ تَقْوِيَة مَذْهَب الْخَوَارِج الْمُكَفِّرِينَ بِالذَّنْبِ اعْتِمَادًا عَلَى مَا تَقَرَّرَ مِنْ دَفْعه فِي مَكَانه ، فَكَذَلِكَ هُنَا لَمَّا كَانَ الْمُرَاد بِهِ الرَّدَّ عَلَى الْقَدَرِيَّة الَّذِينَ يُنْكِرُونَ سَبْق الْقَدَر اكْتَفَى بِهِ مُعْرِضًا عَمَّا يُوهِمُهُ ظَاهِرُهُ مِنْ تَقْوِيَة مَذْهَب الْجَبْرِيَّة لِمَا تَقَرَّرَ مِنْ دَفْعه فِي مَكَانه وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَفِي هَذَا الْحَدِيث عِدَّةٌ مِنْ الْفَوَائِد غَيْر مَا تَقَدَّمَ : قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ فَفِيهِ حُجَّةٌ لِأَهْلِ السُّنَّة فِي أَنَّ الْجَنَّة الَّتِي أُخْرِجَ مِنْهَا آدَم هِيَ جَنَّة الْخُلْد الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ وَيَدْخُلُونَهَا فِي الْآخِرَة ، خِلَافًا لِمَنْ قَالَ مِنْ الْمُعْتَزِلَة وَغَيْرهمْ إِنَّهَا جَنَّةٌ أُخْرَى ، وَمِنْهُمْ مَنْ زَادَ عَلَى ذَلِكَ فَزَعَمَ أَنَّهَا كَانَتْ فِي الْأَرْض ، وَقَدْ سَبَقَ الْكَلَام عَلَى ذَلِكَ فِي أَوَاخِر كِتَاب الرِّقَاق . وَفِيهِ إِطْلَاق الْعُمُوم وَإِرَادَة الْخُصُوص فِي قَوْله " أَعْطَاك عِلْمَ كُلّ شَيْءٍ " وَالْمُرَاد بِهِ كِتَابُهُ الْمُنَزَّلُ عَلَيْهِ وَكُلّ شَيْء يَتَعَلَّق بِهِ ؛ وَلَيْسَ الْمُرَاد عُمُومه لِأَنَّهُ قَدْ أَقَرَّ الْخَضِر عَلَى قَوْله " وَإِنِّي عَلَى عِلْم مِنْ عِلْم اللهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ " وَقَدْ مَضَى وَاضِحًا فِي تَفْسِير سُورَة الْكَهْف . وَفِيهِ مَشْرُوعِيَّة الْحُجَج فِي الْمُنَاظَرَة لِإِظْهَار طَلَب الْحَقّ وَإِبَاحَة التَّوْبِيخ

وَالتَّعْرِيض فِي أَثْنَاء الْحِجَاج لِيُتَوَصَّل إِلَى ظُهُور الْحُجَّة وَأَنَّ اللَّوْم عَلَى مَنْ أَيْقَنَ وَعَلِمَ أَشَدُّ مِنْ اللَّوْم عَلَى مَنْ لَمْ يَحْصُل لَهُ ذَلِكَ . وَفِيهِ مُنَاظَرَة الْعَالِم مَنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ وَالِابْن أَبَاهُ وَمَحَلّ مَشْرُوعِيَّة ذَلِكَ إِذَا كَانَ لِإِظْهَار الْحَقّ أَوْ الِازْدِيَاد مِنْ الْعِلْم وَالْوُقُوف عَلَى حَقَائِق الْأُمُور . وَفِيهِ حُجَّة لِأَهْل السُّنَّة فِي إِثْبَات الْقَدَر وَخَلْق أَفْعَال الْعِبَاد . وَفِيهِ أَنَّهُ يُغْتَفَر لِلشَّخْصِ فِي بَعْض الْأَحْوَال مَا لَا يُغْتَفَر فِي بَعْضٍ كَحَالَة الْغَضَب وَالْأَسَف وَخُصُوصًا مِمَّنْ طُبِعَ عَلَى حِدَّة الْخُلُق وَشِدَّة الْغَضَب ، فَإِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام لَمَّا غَلَبَتْ عَلَيْهِ حَالَةُ الْإِنْكَار فِي الْمُنَاظَرَة خَاطَبَ آدَمَ مَعَ كَوْنه وَالِدَهُ بِاسْمِهِ مُجَرَّدًا وَخَاطَبَهُ بِأَشْيَاءَ لَمْ يَكُنْ لِيُخَاطِبَ بِهَا فِي غَيْر تِلْكَ الْحَالَة ، وَمَعَ ذَلِكَ فَأَقَرَّهُ عَلَى ذَلِكَ وَعَدَلَ إِلَى مُعَارَضَته فِيمَا أَبْدَاهُ مِنْ الْحُجَّة فِي دَفْع شُبْهَته .

شرح طويل وعظيم وعميق ؛ لكنه ضروري لمن شاء أن يفهم هذا الحديث ، وألا يحتج العصاة على ذنوبهم بالقدر والاستدلال بهذا الأثر العظيم ؟!

(٨) أصل الخلق ونظرية التطور

مما تقدم من قصة آدم تبين لنا انه كان خلقا خاصا وأنه أول البشر وقد خلق الله ﷻ منه حواء خلقا خاصا ، ثم بدأ التناسل من كليهما من اجتماع مني الرجل وبويضة الأنثى وإخصابها .

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾آل عمران قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ ﴿٥﴾ ﴾ الحج قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾المؤمنون قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ ﴾الزمر ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ ﴾الكهف قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾الروم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ فاطر قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾غافر ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾الروم ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾يس

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ غافر قَالَ تَعَالَى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ التغابن قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾ الأعراف قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ النحل ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾ النجم قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾ الروم قَالَ تَعَالَى: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ الشورى قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ لقمان قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ الأحقاف ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) ﴾ [البقرة] ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ ﴾ النجم قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا

خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ الحجرات قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ الأنعام قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ الملك قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾ نوح ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ القيامة ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ ﴾ مريم ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ الإنسان ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ المرسلات ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾ ﴾ عبس قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾ الانفطار قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ الأعلى قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ ﴾ الطارق ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ الواقعة.

هذه الآيات الطيبات من كتاب الله ﷻ القرآن الكريم فيها كيف بدأ الخلق وأطواره ، وأن آدم هو أول الخلق البشري في غير نزاع ، ومن يقل غير هذه فهو مفتر دجال ، ولم يكن عن تطور كما يرى علماء الضلال والإلحاد الذين يقولون إن الإنسان تطور عن مخلوق بدائي حتى أصبح قردا ثم تطور لم يعرفه الناس اليوم بالإنسان .

كان علماء الغرب النصراني يخوضون في القرون الماضية صراعا مرعبا مع الكنيسة الأوربية ، وللكفر بنصرانيتهم اختلقوا مثل هذه البدع والضلالات المجرمة ، وأشهر من حمل نظرية التطور الإنجليزي الشهير " شارل دارون "، وشاع أمرها بين الكفرة والملحدين الذين يكفرون بالأديان واستغلوها لدعوة الناس لإنكار الله جل في علاه .

والشبهات التي يوردها الكفار والفجار كثيرة ، ولا تنتهي لسنة الدفع الموجودة في الحياة ، وقد فند القرآن الكثير من الشبهات والضلالات والدعوات الفاسدة ، وباب العقيدة مليء بدفع الكثير من هذه الأمور وتصحيحها والرد عليها ، ولولا ظهور هذه البدعة والضلالة ـ نظرية التطور ـ وانتشارها بين المسلمين لما احتجنا لذكرها في قصة آدم .

فقد استغلت هذه النظرية الرديئة بين الناس ، وخاصة طبقة من يزعمون أنهم مثقفون ومتنورون فلزم الحديث عنها في قصة آدم لأنه هو الخلق الإنساني الأول ، ولتقوية الإيمان ودحض هذه الفرية الكبيرة عن تطور الإنسان عن مخلوقات مختلفة .

والكفر موجود منذ القدم منذ انتشار الذرية ، وهناك أناس ينكرون البعث والحياة الأخرى ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤)﴾ [الجاثية] ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩)﴾ [الأنعام] ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) ﴾ [المؤمنون: ٣٧]

نشأة الحياة

منذ كم بدأت الحياة هذا لا يعلمه إلا الله ﷻ ؟! ، اليوم نسمع أرقاما بالمليارات والملايين عن بداية الكون والانفجار الكبير، كل هذا يبقى ظنيا ، للناس في صفة نشأة الحياة مذهبان، المذهب الأول يرى ويؤمن بالخلق المباشر كن فيكون أو ما يمكن تسميته بالخلية الأولى من كل جنس ونوع ، بمعنى أن الله خلق الكون وسائر الحيوان ، بقوله : كن، فكان ما أراد سبحانه، وعلى هذا المذهب والقول علماء الأديان وأكثر علماء الطبيعة.

وذهب الفريق الثاني إلى أن نشوء الحياة في سائر الحيوان كان عن طريق النشوء البطيء، وتحول

أنواع، وظهور أنواع جديدة، وكان من أشهر القائلين بهذا الرأي العالم الفرنسي "لامارك" الذي زعم أن أنواع الأحياء ليست أصيلة في الخلق والتكوين، بل يشتق بعضها من بعض بطريق التحول والارتقاء التدريجي.

وظل هذا المذهب ضعيفا، لا يقوى على الوقوف أمام مذهب أهل الأديان، إلى أن جاء داروين فدفع مذهب التحول دفعة قوية للأمام، عندما وضع سنة ١٨٥٩م كتابه في أصل الأنواع بطريق الانتخاب الطبيعي، ثم أصدر بعده كتابه (تسلسل الإنسان) سنة ١٨٧١م.

فلاسفة أوروبا والإيمان بوجود الخالق

يقول "ديكارت": "إنّي مع شعوري بنقصٍ في ذاتي، أُحسُّ في الوقت نفسه بوجود ذاتٍ كاملة، وأراني مضطرًّا إلى اعتقادي؛ لأنَّ الشعور قد غَرَسَتْه في ذاتي تلك الذات الكاملة المتحليَّة بجميع صفات الكمال؛ وهي الله". ويقول ديكارت أيضاً: " أنا موجود فمن أوجدني ومن خلقني؟ إنني لم أخلق نفسي، فلا بد لي من خالق. وهذا الخالق لا بد أن يكون واجب الوجود، وغير مفتقر إلى من يوجده، أو يحفظ له وجوده ، ولا بد أن يكون متصفا بكل صفات الجمال. وهذا الخالق هو الله بارئ كل شيء " ويقول "أناكساغورس" أحد فلاسفة اليونان الأوائل: " من المستحيل على قوة عمياء، أن تبدع هذا الجمال، وهذا النظام اللذين يتجليان في هذا العالم، لأن القوة العمياء لا تنتج إلا الفوضى، فالذي يحرك المادة هو عقل رشيد، بصير حكيم "

ويقول باسكال: " إن إدراكنا لوجود الله، هو من الإدراكات الأولية، التي لا تحتاج إلى جدل البراهين العقلية، فإنه كان يمكن أن لا أكون، لو كانت أمي ماتت قبل أن أولد حيا، فلست إذا كائنا واجب الوجود، ولست دائما ولا نهائيا، فلا بد من كائن واجب الوجود، دائم لا نهائي، يعتمد عليه وجودي، وهو الله الذي ندرك وجوده إدراكا أوليا، بدون أن نتورط في جدل البراهين العقلية، ولكن على الذين لم يقدر لهم هذا الإيمان القلبي أن يسعوا للوصول إليه بعقولهم.."

وبهذه الثلة من أقوال هؤلاء الفلاسفة ، يتبين أن الإيمان بوجود الخالق قضية ضرورية بديهية،

مركوزة في النفس والعقل، لا يخالطها ريب ولا شك، ولا تحتاج لبرهان إلا لمن فسدت فطرته، والله الموفق والهادي إلى سواء لسبيل.

فَإِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَانَ يُحَدِّثُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِه أَوْ يُنَصِّرَانِه أَوْ يُمَجِّسَانِه كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ { فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} الْآيَةَ . ق

فالإيمان بوجود الخالق فطرة فطر عليها الإنسان وإنما يحدث الانحراف والزيغ بالتربية والنشأة الفاسدة .

لكن لما اشتد الصراع الفكري في أوروبا بين الكنيسة المتبلدة ورجال الإلحاد والشيوعيين بدأ استغلال نظريات وأبحاث لم تنضج لزعزعة عقيدة الخالق الله .

وكان العالم الانجليزي داروين قد أظهر نظرياته وأبحاثه العلمية إلى الوجود ، وهي موجودة من قبله ؛ ولكن أهل الإلحاد استغلوا اسمه وشهرته لكفرهم وإلحادهم .

تشارلز روبرت داروين (١٨٠٩ – ١٨٨٢م). باحث وعالم بريطاني ، ولد داروين في شروزبري بإنجلترا وكان حفيدًا لأحد الأطباء المعروفين الذين كانوا يبحثون في علوم الطبيعة وهو إرازمَوسْ داروين ، وكان هذا الجد قد سبق له أن تقدم بنظرية عن التطور في خلال التسعينيات من القرن الثامن عشر ، وفي خلال الفترة التي كان فيها تشارلز صبيًا، كان كثيرًا ما يستمع الحفيد إلى نظريات جده وهي تناقش على مسمع منه.

درس تشارلز داروين الطب في جامعة أدنبره، كما درس اللاهوت في جامعة كمبردج حيث نال درجة البكالوريوس من هذه الجامعة عام ١٨٣١م. ومنذ عام ١٨٣١م حتى عام ١٨٣٦م، عمل باحثًا في العلوم الطبيعة مع إحدى بعثات العلوم الطبيعية التي كانت تعمل على السفينة البريطانية بيجل ، وطافت السفينة حول كثير من بلاد العالم، وكان داروين يدرس كثيرًا من النباتات والحيوانات حيثما ذهبت السفينة.

وجد داروين في أمريكا الجنوبية بعض الأحافير لبعض الحيوانات المنقرضة التي كانت تشبه إلى

حد كبير الأنواع الحديثة ، وفي جزر جلاباجوس في المحيط الهادئ لاحظ اختلافات كبيرة بين النباتات والحيوانات التي تنتمي إلى النوع العام نفسه في أمريكا الجنوبية ، وجمع داروين الأحافير وغيرها من عينات الأعضاء لدراستها في المستقبل.

عاد داروين إلى إنجلترا عام ١٨٣٦م واستقر في لندن ، وقضى بقية حياته يدرس العينات، ويجري التجارب ويكتب الملاحظات حول ما يخرج به من آراء من تلك الدراسات ، وكان من بين كتبه التي ألفها في البداية: تركيب وتوزيع طبقات الفحم (١٨٤٢م)، كما كتب يوميات حول أبحاثه عندما كان يجري أبحاثه على ظهر السفينة بيجل.

وهو قد عكف على دراسة علوم الطبيعة، واقترن اسمه بنظرية النشوء والارتقاء وبها اشتهر، وكان داروين يقول :" إن كل الأنواع الحية من نباتات وحيوانات قد تطورت تدريجيًا من أصول مشتركة خلال الملايين من السنين التي مرت عليها".

عرض داروين نظرياته في كتابه أصل الأنواع (١٨٥٩م) ، وكذلك جمع داروين بعض ما اعتبره أدلة لتأييد نظريته عن التطور، كما أفاد بأن التطور حدث عن طريق عملية سماها الانتخاب الطبيعي. أحدثت نظريات داروين صدمات عظيمة لكل الذين كانوا يعيشون في عصره ، إذ كان الناس ومازالوا يؤمنون بأن الله قد خلق كل نوع من الكائنات الحية بطريقة مستقلة عن غيرها ، وكتابه الذي يطلق عليه أصل الأنواع قد أثار بعض ردود الفعل لما اشتمل عليه من آراء تشكك في العقائد السماوية ، ومن جانب آخر فقد أحدثت هذه النظرية حركة في علم الأحياء ودراسته.

نظريات داروين: أجرى داروين دراسات على العينات التي أحضرها من رحلته البحرية على ظهر السفينة ـبيجل ـ ، وقد زعم بعد ذلك بأن الأنواع الحديثة من الحيوان والنَّبات قد تطورت ونشأت من أنواع قليلة سابقة ، وسجل ما ظنَّه أدلة علمية في مذكرات قدمها لأول مرة لاجتماع علمي عقد في عام ١٨٥٨م وكان عنوان البحث نظريات عن التطور.

وحسب ما رأى داروين، فإنه في معظم الحالات لا يوجد عضوان من أعضاء الأنواع متشابهين

تمامًا، إذ لكل كائن عضوي تكوين مستقل في السمات، ومعظم هذه السمات والمميزات موروثة. وأشار داروين إلى أن المزارعين الذين يعملون في البساتين قد أنتجوا بجهودهم المشتركة أنواعًا خاصة من النباتات والحيوانات عن طريق الانتخاب والتوليد المهجن لكائنات عضوية لها سمات ومميزات خاصة يريدها الناس.

وكان داروين يرى بأن عملية مماثلة من الانتخاب قد حدثت بشكل مستمر في الطبيعة ، وأطلق داروين على هذه العملية الانتخاب الطبيعي أو بقاء الأصلح.

أوضح داروين أن الكائنات الحية تنتج أجيالاً أخرى كثيرة مشتركة ليحل بعضها محل بعض، وأن الأرض لا تستطيع أن تتحمل أعباء حياة كل هذه الكائنات، ولذلك فإن عليها أن تتنافس في الحصول على الضروريات مثل الطعام والمقر ، وبالإضافة إلى ذلك فإن حياتها تتعرض دائمًا لتهديد حيوانات أخرى تعيش على افتراسها أو طقس غير مؤات أو أي ظروف بيئية أخرى.

وذكر داروين بأن بعض أفراد الأنواع لها سمات تساعدها في صراعها من أجل البقاء ، وهناك أنواع أخرى لا تتمتع بمثل هذه المميزات ولذلك فإن احتمال استمرارها في الحياة يصبح أقل من الأولى ، وفي المتوسط فإن الكائنات التي لها مميزات مؤاتية تعيش لفترة أطول، كما أنها تلد أجيالاً أكثر من الأخرى ، إضافة إلى أنها تورّث أجيالها القادمة هذه المميزات المؤاتية ، وتموت في آخر الأمر الكائنات ذات السمات غير المؤاتية ، وفي أماكن أخرى مختلفة، وفي عصور متغايرة فإن بعض هذه الكائنات الحية قد تجد ما يعينها على استمرار حياتها، وبعضها يفنى ويزول ، وبمثل هذه الكيفية فإن أنواعًا مختلفة من الكائنات تظهر وتصبح بالتدريج أنواعًا منفصلة عن غيرها. ألف داروين عدة كتب كانت تزيد من حدّة مناقشة نظرياته عن التطور، ومن بين هذه الكتب أصل الإنسان والانتخاب فيما يتعلق بالجنس (١٨٧١م)؛ تعبير عن الانفعالات عند الرجل والحيوان (١٨٧٢م). وفي أوروبا أثارت آراء داروين عن التطور اختلافات حادة بين دارسي علم الحياة ورجال الدين النصارى وغيرهم ؛ ولذلك فإنهم انتقدوا بغضب شديد آراءه عن التطور؛ ولكن بعض رجال العلوم من البريطانيين مثل توماس هنري هكسلي، وألفرد رسل

والاس أيدوا أعمال داروين، كما أن بعض الجماعات الأخرى قبلت في النهاية نظرياته.
أمدَّت هذه النظريات والآراء بعض الباحثين في علم الحياة بتصورات مختلفة عن أصول الكائنات الحية والعلاقات بين أنواع الحياة المختلفة.
أوجدت نظرية داروين حول التطور عن طريق الانتخاب الطبيعي دراسات في علم الأحياء، وخاصة في علم الإحاثة (أي الأحافير)، وعلم التشريح المقارن ، وخلال النصف الأول من القرن العشرين الميلادي استخدمت الاكتشافات الجينية وعلم الأحياء المتطوّر براهين لنظريات التطور التي كانت تعتبر الانتخاب الطبيعي شيئًا غير مهم ؛ ولكن بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥م، أصبحت نظريات داروين مرة أخرى ذات نفوذ في البيولوجيا، (علم الأحياء التطوري) الذي كثيرًا ما يسمى بالداروينية الحديثة ، وقد قدَّمت الداروينية الحديثة توضيحًا للأصل الجيني للاختلافات داخل الأنواع المستقلة، وللطريقة التي تشكلت بها الأنواع ومنذ بداية الستينيات في القرن العشرين استخدمت الاكتشافات في علم الأحياء الجزيئي، وعلم الإحاثة (الأحافير) لتأييد النظريات المضادة لنظرية داروين عن التطور.
هناك عدد من البيولوجيين (علماء الأحياء) الذين يرفضون المبدأ الأساسي للنظرية الداروينية الجديدة في بعض أنحاء الغرب ، وما زالت نظريات داروين الحديثة حتى الآن أساسًا لأكثر الدراسات البيولوجية (الأحيائية) المعاصرة في الغرب رغم ما تجده من معارضة في كثير من بلاد العالم. كان لنظرية داروين أثر قوي في الأفكار الدينية، فقد كانت مخالفة لكافة الأديان السماوية، وقد عارض كثير من رجال الأديان تلك الآراء الخاصة بالتطور لأنها تتعارض مع المعتقدات الدينية. وينادي النصارى مثلاً بأن نظرية التطور لا تتفق مع قصة الكتاب المقدس عن خلق الحياة. ويذكر داروين بأن البشر يشبهون الحيوانات في أشياء كثيرة ، ولا شك أن النظر إلى الإنسان بوصفه كان قردًا أمر بالغ الخطورة في الجوانب الاجتماعية والأخلاقية.
بعض الكتاب استغلوا تلك النَّظرية لدعم آرائهم الخاصة حول المجتمع ، فقد قارن الألماني كارل ماركس الكفاح من أجل البقاء بين الكائنات العضوية مع الكفاح من أجل السيطرة

السياسية بين الطبقات الاجتماعية ، واعتمد كُتّاب وباحثون آخرون على فكرة الانتخاب الطبيعي لكي يبرروا مفهوم تطور العنصر الإنساني الراقي للجنس البشري ، واستخدم بعض الدارسين الذين عرفوا باسم الداروينيين الاجتماعيين أفكار داروين لتأييد الفكرة التي تقول بأن على الناس في أي مجتمع، وعلى الجماعات أن تتنافس على البقاء حيثما كانت.

كان لداروين دور كبير في بعث حركة التفكير العلمي في أوروبا في القرن التاسع عشر الميلادي بسبب نظريته هذه، ولقيت آراؤه رواجًا كبيرًا بين بعض الباحثين الغربيين وغير الغربيين، إلا أن نظرياته وأفكاره هذه لقيت معارضة شديدة في الفكر الإسلامي حيث قام بتفنيدها علماء كبار وأساتذة متخصصون. ففيما يتعلق تحديدًا بقول النظرية: إن أصل الإنسان قرد فهو أمر مرفوض ؛ لأن النظرية تفترض أن كل التطورات التي حدثت إنما هي بفعل المصادفة وحدها وتنكر الخالق ﷻ ، ثم هي لا تملك القدرة على إثبات ما تدعو إليه لأنها تحيل على أزمنة بعيدة جدًا تقدر بملايين السنين ولا يمكن الجزم بصحة ذلك.

والمسلم يرى أن ذلك كله مخالف لحقيقة أن الله تعالى هو الخالق وأن أصل خلق الإنسان من طين، وأن الله قد خلقه وكرمه وأحسن صورته وفضَّله على كثير ممن خلق تفضيلاً، وقد عرض القرآن الكريم لموضوع خلق الإنسان في كثير من المواضع ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]   وقال أحدهم عن نظريات دارون : لم يكن دارون ملحدا، ولم يكن يقول في نظريته عن الخلق بأن الحياة نشأت مصادفة، بل كان مؤمنا بوجود إله خالق، ولكنه كان يقول إن الخلق جميعا نشأ من أصل واحد، وأراد – من خلال نظريته النشوء والارتقاء – أن يقدم تفسيرا علميا للقانون الذي أنشأ الله به الخلق، ويمكن شرح تلك النظرية عن طريق شرح النواميس الأربعة التي يرى دارون أن الأحياء جميعها خاضعة لها:

١ . ناموس "تنازع البقاء ": ومعناه أن الكائن في هذه الحياة في صراع دائم مع الطبيعة من جهة، ومع أبناء نوعه من جهة أخرى، وفي خضم هذا الصراع يحاول الكائن أن يحيا ويتغلب على

خصومه، إلا أن الفوز في معركة البقاء، يتطلب في الفائز صفات معينة تؤهله للفوز، وهذه الصفات تختلف من كائن لآخر، فقد تكون صفة الفوز لكائن هي القوة، ولآخر هي عظم الجثة، ولآخر السرعة أو الجمال أو الذكاء أو الشجاعة وغيرها، فإذا تم الفوز للأفراد الذين لهم شيء من هذه الصفات كتب البقاء لهم، في حين يكتب الفناء والهلاك على من افتقد تلك الصفات.

٢. ناموس "تباينات الأفراد": ومعناه أن الأجساد الحية ميَّالة للتباين ببعض صفاتها عن الأصل الذي نشأت منه، لذلك لا يتم التشابه الكلي بين الآباء والأبناء، ولا بين الأصول والفروع، وبمرور الدهور الطويلة تتعمق هذه التباينات، وتظهر الأنواع الجديدة تحت أشكال مختلفة، كالإنسان الذي تطور من قرد حيث أن ذلك – وفق زعمهم – لم يحدث فجأة وإنما نتيجة تراكم التباينات جيلا بعد جيل، حتى أدت تلك التباينات في نهاية المطاف إلى ظهور الإنسان واختفاء صورة القرد عنه.

٣. ناموس "تباينات بالإرث" وهذا الناموس متمم للناموس السابق، فالتباينات التي تحدث للأفراد تنتقل بالوراثة من الأصول إلى الفروع، وتكون في أول الأمر جزئية وعرضية، ثم تصبح بمرور الأزمنة الطويلة جوهرية وتظهر في الأنواع.

٤ . ناموس "الانتخاب الطبيعي" وعليه يرتكز المذهب كله، وخلاصته أن ناموس الوراثة، كما ينقل التباينات، ينقل أيضا جميع الصفات التي يحملها الأصل إلى الفرع، مادية كانت أو معنوية، أصلية أو مكتسبة، وهذه الصفات منها النافع كالقوة والصحة والذكاء، ومنها الضار كالأمراض والأوجاع والعاهات، أما الضارة فتنتهي إلى أحد أمرين: إما أن تتلاشى بتغلب الصفات النافعة، وإما أن تؤدي إلى ملاشاة صاحبها بذاته أو بنسله ، وأما النافعة فهي التي تجعل صاحبها ممتازا وفائزا في معركة البقاء.

دارون والملاحدة

سبق أن قلنا أن داروين لم يكن ملحدا، بل كان – كما يقول الباحثون – مؤمنا بوجود خالق، إلا أن نظريته استغلت من قبل الملاحدة الماديين، الذين لا يؤمنون بوجود إله، إذ وجدوا فيها سندا

يدعمهم في تفسير الخلق والكون، فتبنوها وأخذوا يدافعون عنها، وأنكروا على دارون اعترافه أن الحياة وجدت في الأصل بقدرة الخالق، فاتهموه بأنه يمالئ رجال الدين، ويترضاهم، وأخذوا يخترعون تفسيرا لنشأة الحياة الأولى من المادة الميتة، فزعم بعضهم أن أصل الحياة كُرّية بسيطة ذات خلية واحدة، وزعم آخرون أن الحياة عبارة عن كتل زلالية حية صغيرة هي أدنى من ذات الخلية الواحدة وأبسط، وأنها تكونت من الجماد عن طريق التولد الذاتي، ومن أشهر القائلين بذلك العالم البيولوجي الألماني " أرنست هيجل " . لقد ارتكب الملاحدة أشد الشنائع العلمية من التزوير والكذب نصرة لمعتقداتهم، وقد ذكر الباحثون أنواعا من التزوير ارتكبها الملاحدة، لتأييد النظرية الدارونية نصرة لعقائدهم، من تلك التزويرات: ما قام به العالم الألماني "ارنست هيجل (١٨٢٤ -١٩١٩) عندما رأى أن صور الأجنة لا تتطابق تماماً مع نظرية التطور، الذي يعد من كبار أنصارها، حينئذ قام بعمليات رتوش وحذف في صور تلك الأجنة البشرية لكي تتطابق مع نظرياتهم ، لكن أحد العلماء اكتشف عملية التزوير هذه وأعلنها في إحدى الصحف وتحدى فيها "ارنست هيجل" الذي لم ير بدّاً من الاعتراف بجريمته العلمية والأخلاقية بعد فترة صمت وتردد، فاعترف في مقالة كتبها في ١٤/ ١٢/ ١٩٠٨م وقال فيها: " إن ما يعزّيه هو أنه لم يكن الوحيد الذي قام بعملية تزوير لإثبات صحة نظرية التطور، بل إن هناك المئات من العلماء والفلاسفة قاموا بعمليات تزوير في الصور التي توضح بنية الأحياء، وعلم التشريح، وعلم الأنسجة، وعلم الأجنة، لكي تطابق نظرية التطور" إذن فهناك مئات من عمليات التزوير، قام بها أنصار نظرية التطور لنصرة مذهبهم!!. وهناك عملية تزوير مشهورة جرت في إنكلترا، وهي عملية تزوير "إنسان بلتداون **Piltdown Man**" ، والتي حدثت في سنة ١٩١٢م، عندما صنع أنصار نظرية التطور جمجمة من تركيب قحف إنسان على فك قرد "أورانجتون" مع إضافة أسنان إنسانية إلى الفك، وقدموا هذه الجمجمة على أنها الحلقة المفقودة بين القرد والإنسان ، وخدعت عملية التزوير هذه كبار علماء البيولوجيا وأطبّاء الأسنان الذين فحصوا هذه الجمجمة المزيفة مدة تقارب ٤٠ سنة، وألفت المئات من الكتب

فيها، وتم تقديم رسائل دكتوراه عديدة، وكتب ما يقارب نصف مليون مقالة حولها، وفي سنة ١٩٤٩ قام "كنت أوكلي" بإجراء تجربة الفلور على هذه الجمجمة ، فتبين أنها ليست قديمة – حيث أُدّعى سابقاً أن عمرها يبلغ نصف مليون سنة – ثم قام "كنيت أوكلي" و "سير ولفود لي كروس كلارك" من جامعة أكسفورد بإجراء تجارب أكثر دقة ، واستخدموا فيها أشعة اكس، فتبين أن هذه الجمجمة زائفة تماماً ومصنوعة. وجاء في التقرير الذي نشر سنة ١٩٥٣م : " إن "إنسان بلتداون" ليس إلا قضية تزوير وخداع تمت بمهارة من قبل أناس محترفين، فالجمجمة تعود لإنسان معاصر. أما عظام الفك فهي لقرد "أورانج" بعمر عشر سنوات، والأسنان أسنان إنسان غرست بشكل اصطناعي وركبت على عظام الفك ، وظهر كذلك أن العظام عوملت بمحلول ديكرومايت البوتاسيوم لإحداث آثار بقع للتمويه وإعطاء شكل تاريخي قديم لها"

نقض الدارونية

يجدر التنبيه بداية إلى أن نظرية دارون، وإن لاقت شهرة واسعة، وغدت مادة تدرس – في فترة ما – في المدارس والجامعات بقوة دفع الملحدين، إلا أنها لم تتعد في نظر العلماء مصطلح النظرية، أي أنها لم تصل وفق المصطلح العلمي إلى مرتبة الحقيقة العلمية، وإنما هي مجموعة من الافتراضات في تفسير نشأة الحياة، وقد كرّ عليها العلماء بالنقض والإبطال، وذكروا وجوها متنوعة في نقضها، منها:

أنها نظرية قاصرة فهي لم تفسر جميع ظواهر الحياة في هذا الكون، فهي لا تقدم أي تفسير لأصل الحشرات مع أنها تمثل ٨٠ ٪ من مجموع الحيوانات، فهل تطورت تلك الحشرات أم بقيت على ما هي عليه، ولمَ لَمْ يجر عليها قانون التطور ؟!!. وكذلك لم تقدم نظرية دارون أي تفسير عن أصل القوارض، مع أن أعدادها هائلة وتزيد على أعداد الثدييات الأخرى. ولم تقدم نظرية دارون كذلك أيَّ تفسير لأصل الطيران بجميع أشكاله، فأصله غير معروف تماماً ، فهي لا تقدم أيَّ تفسير لكيفية ظهور الطيران لدى الحشرات، والخفافيش، والطيور!!

إذن ما قيمة نظرية لا تقوم بتفسير ٩٠ ٪ من الظواهر التي من المفترض تناولها، وهل هناك نظرية علمية أخرى أبدت عجزها عن تفسير ٩٠ ٪ من الظواهر التي تصدّت لتفسيرها ؟ وهل يمكن أن تقبل الأوساط العلمية مثل هذه النظرية ؟ هذا مع التسليم بأنها فسرت النسبة الباقية تفسيرا علميا صحيحا !!

ومن أوجه نقض نظرية دارون – وهذا يَردُ على أنصار النظرية من الملاحدة –، هو في سؤالهم عن كيفية انتقال الحياة من جمادٍ ميت ؟! ولقد أجابوا عن ذلك بأن الانتقال تم فجأة ومصادفة، ولا يخفى أن جواب المصادفة ليس جواباً علمياً، بل جوابٌ يصادم العلم، لأنه كلما زادت معلوماتنا عن الخلية الحية، ومدى تعقيدها تأكدنا أكثر وأكثر مدى استحالة ظهورها مصادفة.

ويكفي أن نعلم أن جزيئات D.N.A الموجودة في الإنسان، تحتوي على معلومات لو قمنا بتسجيلها على الورق لاحتجنا لـ ٩٠٠ ألف صفحة تقريباً، وهذا يعادل ٣٤ ضعف المعلومات الواردة في دائرة المعارف البريطانية ، فكيف يمكن إذن أن تظهر الخلية إلى الوجود مصادفة ؟ وقد عُلم من تطبيق قوانين الاحتمالات الرياضية استحالة تكوّن جزيئة واحدة من البروتين عن طريق المصادفة، خلال أضعاف عمر الكون، فكيف يمكن ظهور خلية واحدة حيّة بطريق المصادفة ؟ هذا ما لم يستطع الملاحدة الجواب عنه ولن يستطيعوا !!

ومن أوجه نقض نظرية دارون أنها تدعي أن الأحياء قد تطورت من خلية واحدة إلى أحياء ذات خلايا متعددة، ثم تشعّبت مساراتها في التطور، حتى ظهرت الأحياء الحالية، التي تبلغ أعدادها عدة ملايين، لذا فحسب هذه النظرية لابد من وجود عشرات الحلقات الوسطى أو الحلقات الانتقالية بين كل نوعين، أي أن عدد أحياء الحلقات الوسطى يجب أن تبلغ عشرات ومئات الملايين، ولكن لم يتم العثور حتى الآن على أي حلقة وسطى ، ولم يصح الزعم القائل بأن طائر "الاركيوتاتريكس" يمثل الحلقة الوسطى بين الزواحف والطيور، لأنه تم العثور على متحجرة طائر في نفس العهد الذي عاش فيه "الاركيوتاتريكس". لذا لا يمكن أن يكون طائر "الاركيوتاتريكس" جَدَّاً وسلفاً للطيور، بينما كانت هناك طيور حقيقية تعيش معه.

كما قدّم التطوريون بعض الجماجم التي تعود لقرود -كانت تعيش سابقاً ثم انقرضت- وكأنها الحلقات المفقودة بين الإنسان والقرد ، وكل هذه الجماجم مدار شك ونقاش حتى من قبل علماء التطور أنفسهم، وسبق أن ذكرنا تزويرهم لإنسان بلتداون. . ولو كانت نظرية التطور صحيحة لكان من المفترض أن نعثر على مئات الآلاف من متحجرات الأحياء، التي تمثل الحلقات الوسطى الانتقالية بين الأنواع.

وهذا الفشل الذريع في الحصول على هذه المتحجرات (لأنها غير موجودة أصلاً)، هو الذي دفع بعض علماء التطور إلى البحث عن مخرج من هذه الورطة الكبيرة، التي تهدد بإعدام نظرية التطور، فزعموا أن التطور حصل فجأة، ودون مراحل انتقالية، ولم يستطيعوا أن يقدموا لهذه الفرضية الخيالية أي دليل ، وبهذا دخلت نظرية التطور في طريق مسدود، وخف الداعون لها، ومن راقب الحال بين ما كان لهذه النظرية من بريق ولمعان، وبين ما آلت إليه من خفوت وضمور، علم ما وصلت إلية نظرية دارون، وصدق الله إذ يقول: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) ﴾ [الأنبياء: ١٨]

وقال آخر : ظهر كتاب أصل الأنواع سنة ١٨٥٩م لتشارلز داروين الذي يركز على قانون الانتقاء الطبيعي وبقاء الأنسب وقد جعلت الجد الحقيقي للإنسان جرثومة صغيرة عاشت في مستنقع راكد قبل ملايين السنين، والقرد مرحلة من مراحل التطور التي كان الإنسان آخرها، وهذه النظرية أدت إلى انهيار العقيدة الدينية ونشر الإلحاد، وقد استغل اليهود هذه النظرية بدهاء وخبث.

جاء في كتاب "موقف الإسلام من نظرية ماركس" وتتلخص نظرية دارون في التطور بما يلي : ظهرت الحياة أول ما ظهرت على شكل بروتوبلازم الذي هو أصل الحياة في النبات والحيوان ، وبعد ذلك ظهر الحيوان الدودي ومنه الرخويات كالحلازين ، ثم تطورت الشوكيات كنجوم البحر ، ثم القشريات كالسراطين ، ثم ظهرت صور جديدة من الحيوان ، هي عشائر ذوات صفات مستحدثة ، دل وجودها على وقوع انقلاب خطير في سير الحياة ، وأصبح لهذه الصورة

الجديدة حبل متين يمتد طوال الجسم، تدرج بواسطة التطور إلى تكوين الفقار . ثم تنشأت الفقاريات واللافقاريات ، وبعد ذلك تنشأت البرمائيات ذوات التنفسين كالضفدع ، ثم تدرج سلم التطور من البرمائيات إلى الزواحف كالحيات والتماسيح ، ومن فروع الزواحف تنشأت الطيور وذوات الثدي ، ومن ذوات الثدي تنشأت السعادين والقردة ثم تنشأت البشرانيات.
أما من أية من الشعب العديدة التي تحولت عن الصنابير قد تنشأ الإنسان ؟ فأمر لا يزال محوطا بالشك عند العلماء ! ومن هنا نرى أنه بالتطور قد وجدت جميع الكائنات الحية ، فخرج بعضها من بعض على طول الأحقاب الجيولوجية(منقول من أصل الأنواع المترجم بتصرف)
وقال مترجم الكتاب " أصل الأنواع " المدعو إسماعيل مظهر : " حتى منتصف القرن الماضي (١٩) كان المعتقد أن كل نوع من الأنواع الحية قد خلق مستقلا ، وأن خلق الإنسان كان النهاية التي توجت أعمال الخلق ، وينبغي على هذا أن الأنواع ثابتة لا تتغير ولا تتطور " وفي سنة ١٨٥٩ أظهر داروين خطأ هذه العقيدة ، وأن الأنواع المختلفة نباتا كانت أم حيوانا ، ومعها الإنسان ، إنما نشأت تدرجا من طريق الاحتفاظ بمختلف التحولات التي تنشأ في أفراد كل منها ، أما هذا التحول استغرق أحقابا طويلة جد الطول ، وفقا لما يقتضيه تأثير سنن طبيعية دائمة التأثير في طبائع الأحياء .
وفي كتاب "الإسلام يتحدى " كتب سير آرثر كيث يقول: (إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علميا ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان ونحن لا نؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو (الإيمان بالخلق الخاص المباشر) وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه) ! نتيجة لظهور هذه النظرية اهتزت العقيدة النصرانية في العالم الغربي ، وقد استغلها الملحدون غاية الاستغلال لإظهار الإلحاد علنا ونشرا في بلادهم ، فتزعزع الإيمان بآدم وحواء وجنة عدن والخطيئة الأولى التي يقوم عليها صراع الإيمان النصراني ، والذي أعطى الداروينية الزخم الكبير في أوروبا ما يلي :
١-الظروف السيئة التي نشأت فيها النظرية وترعرعت حيث كان الوقت وقت صراع حاد بين العلم والدين ، والثورة الصناعية أخذت تطمس ملامح المجتمع الأوروبي وتصبغه بصبغة

٢-التحلل من الدين والأخلاق .

٣-الاستغلال البشع للنظرية من قبل اليهود لتحطيم النصرانية وتأجيج نار الثورة ضد الكنيسة.

٤- أضف إلى ذلك الإهمال الكامل للنظريات اللاهوتية حتى أن " والاس" شريك داروين في اكتشاف النظرية - لا يكاد يعرف - لأنه قال بأن وراء عملية التطور قوة مدبرة .

الآثار التي جلبتها هذه النظرية

١ - انهيار العقيدة الدينية في أوروبا وبروز العقيدة المادية .

٢-نفي فكرة الغاية والقصد فنتج عنها نظرية الصدفة خاصة فيما يتعلق بهذا الكون فتزعزت

٣-قيمة الحياة في نظر الناس .

٤-حيوانية الإنسان وماديته وتطوره من جرثومة حقيرة وخضوعه للقوانين المادية كسائر المواد

٥-القول بالتطور المطلق الذي نشأ عنه القول الحتمية والاضطراب ، فكل مرحلة من مراحل التطور أعقبت سلفها بطريقة حتمية .

تفنيد هذه النظرية

أولا : فكرة التطور لم تثبت علميا عندهم فهي ليست حقيقة علمية ، فشهادة العلماء أنفسهم أنها لا تملك أدلة إثبات يقينية فيما يتعلق بتاريخ الإنسان وإنما هي مجرد فروض ومزاعم ، وقد سبق أن ذكرنا قول سير آرثر كيت ، القضية عناد وكفر والحاد .

ثانيا : كون التطور ذاتيا وهي فكرة ساقطة لا تقوم على أدلة فالمادة حادثة ومخلوقة لله .

ثالثا : تكون الإنسان نتيجة سلسلة متطورة عن الحيوانات قضية مرفوضة ، وذلك أن الله ﷻ أبان لنا قصة خلق الإنسان بالذات وأنه خلق لمقصد وغاية وهذا يتنافى كليا مع نظرية داروين ، وهم ليس لهم دليل واحد على صحتها إنما هي تخريصات وأوهام وجدت من يستغلها لترويج أفكار الحادية مادية .

رابعا : أبحاث أهل الاختصاص في علوم الحياة دلت على تفرد الإنسان في كثير من ظواهر الخلق

والصفات عن الحيوانات والتي تهدم أهم قضيتين في النظرية وهما القول بمادية الإنسان أي حصره بنطاق الحواس فحسب ومعاملته كأنه عنصر من عناصر المواد ثم حصره بحدود حاجات الحيوان من مأكل ومشرب وجنس ، يقول احد الملحدين " ليس للحيوانات تاريخ ذاتي إذ أن بداية ونهاية نشاط كل واحد منها ينحصران في حدود حياته الفردية ، فالحيوانات لا تغتني بمعارف الحياة الماضية ، ولا تستشف المستقبل .."

ويقول آخر : " فالإنسان يتكلم ويضحك ويمل وينمي ثقافته ويتعبد ويدرس علوم الدين ولديه معرفة سابقة في الموت ، ويكافح في سبيل تحسين شخصيته ، ولا توجد مثل هذه العمليات ونواتجها بوضوح في الكائنات الغريزية ... "

ويقول ثالث :" كيف يمكن لمخلوق ضعيف الجسم وضعيف العقل أن يعيش وحوله الأسد والفيل والدب والنمر ...؟ ولو حدث شيء من التطور حسب ادعاء داروين للزم أن يتطور القردة الموجودة في زماننا وتترقى كما ترقى أسلافها من قبل وكما تمدنوا فأصبحوا بشرا بعد أن كانوا قردة ..." هل يمكن للطبيعة أن تخلق كما يزعمون ؟! ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥)﴾ [الطور: ٣٥]

(٩) نبوة آدم

قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ٣٣﴾ [آل عمران] ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ٥٨﴾ [مريم:] ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]

روى ابن حبان صحيح بتحقيق الأرناؤوط : عن أبي ذر قال : (دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس وحده قال : (يا أبا ذر إن للمسجد تحية وإن تحيته ركعتان فقم فاركعها) قال : فقمت فركعتها ثم عدت فجلست إليه فقلت : يا رسول الله إنك أمرتني بالصلاة فما الصلاة ؟ قال : (خير موضوع استكثر أو استقل) قال : قلت : يا رسول الله أي العمل أفضل ؟ قال : (إيمان بالله وجهاد في سبيل الله) قال : قلت : يا رسول الله فأي المؤمنين أكمل إيمانا ؟ قال : (أحسنهم خلقا) قلت : يا رسول الله فأي المؤمنين أسلم ؟ قال : (من سلم الناس من لسانه ويده) قال : قلت : يا رسول الله فأي الصلاة أفضل ؟ قال : (طول القنوت) قال : قلت : يا رسول الله فأي الهجرة أفضل ؟ قال : (من هجر السيئات) قال : قلت : يا رسول الله فما الصيام قال : (فرض مجزئ وعند الله أضعاف كثيرة) قال : قلت : يا رسول الله فأي الجهاد أفضل ؟ قال : (من عقر جواده وأهريق دمه) قال : قلت : يا رسول الله فأي الصدقة أفضل ؟ قال : (جهد المقل يسر إلى فقير) قلت : يا رسول الله فأي ما أنزل الله عليك أعظم ؟ قال : (آية الكرسي) ثم قال : (يا أبا ذر ما السماوات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة) قال : قلت : يا رسول الله كم الأنبياء ؟ قال : (مئة ألف وعشرون ألفا) قلت : يا رسول الله كم الرسل من ذلك ؟ قال : (ثلاث مئة وثلاثة عشر جما غفيرا) قال : قلت : يا رسول الله من كان أولهم ؟ قال : (آدم) قلت : يا رسول الله أنبي مرسل قال : (نعم خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وكلمه قبلا) ثم قال : (يا أبا ذر أربعة سريانيون : آدم وشيث وأخنوخ وهو إدريس وهو أول من خط بالقلم ونوح وأربعة من العرب : هود

وشعيب وصالح ونبيك محمد صلى الله عليه و سلم) قلت : يا رسول الله كم كتابا أنزله الله ؟ قال : (مئة كتاب وأربعة كتب أنزل على شيث خمسون صحيفة وأنزل على أخنوخ ثلاثون صحيفة وأنزل على إبراهيم عشر صحائف وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والقرآن) قال : قلت : يا رسول الله ما كانت صحيفة إبراهيم ؟ قال : (كانت أمثالا كلها : أيها الملك المسلط المبتلى المغرور إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكني بعثتك لترد عني دعوة المظلوم فإني لا أردها ولو كانت من كافر وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله أن تكون له ساعات : ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يتفكر فيها في صنع الله وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب وعلى العاقل أن لا يكون ظاعنا إلا لثلاث : تزود لمعاد أو مرمة لمعاش أو لذة في غير محرم وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه مقبلا على شأنه حافظا للسانه ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه) قلت : يا رسول الله فما كانت صحف موسى ؟ قال : (كانت عبرا كلها : عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح وعجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك وعجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن إليها وعجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم لا يعمل) قلت : يا رسول الله أوصني قال : (أوصيك بتقوى الله فإنه رأس الأمر كله) قلت : يا رسول الله زدني قال : (عليك بتلاوة القرآن وذكر الله فإنه نور لك في الأرض وذخر لك في السماء) قلت : يا رسول الله زدني : قال : (إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب ويذهب بنور الوجه) قلت : يا رسول الله زدني قال : (عليك بالصمت إلا من خير فإنه مطردة للشيطان عنك وعون لك على أمر دينك) قلت : يا رسول الله زدني قال : (عليك بالجهاد فإنه رهبانية أمتي) قلت : يا رسول الله زدني قال : (أحب المساكين وجالسهم) قلت : يا رسول الله زدني قال : (انظر إلى من تحتك ولا تنظر إلى من فوقك فإنه أجدر أن لا تزدرى نعمة الله عندك) قلت : يا رسول الله زدني قال : (قل الحق وإن كان مرا) قلت : يا رسول الله زدني قال : (ليردك عن الناس ما تعرف من نفسك ولا تجد عليهم فيما تأتي وكفى بك عيبا أن تعرف من

الناس ما تجهل من نفسك أو تجد عليهم فيما تأتي) ثم ضرب بيده على صدري فقال : (يا أبا ذر لا عقل كالتدبير ولا ورع كالكف ولا حسب كحسن الخلق)

قال أبو حاتم رضي الله عنه : أبو إدريس الخولاني هذا هو عائذ الله بن عبد الله ولد عام حنين في حياة رسول الله صلى الله عليه و سلم ومات بالشام سنة ثمانين ، و يحيى بن يحيى الغساني من كندة من أهل دمشق من فقهاء أهل الشام وقرائهم سمع أبا إدريس الخولاني وهو ابن خمس عشرة سنة ومولده يوم راهط في أيام معاوية بن يزيد سنة أربع وستين وولاه سليمان بن عبد الملك قضاء الموصل سمع سعيد بن المسيب وأهل الحجاز فلم يزل على القضاء بها حتى ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة فأقره على الحكم فلم يزل عليها أيامه وعمر حتى مات بدمشق سنة ثلاث وثلاثين ومئة . قال شعيب الأرناؤوط : إسناده ضعيف جدا

وفي مسند البزار كاملا : عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُّ عَنْهُ ، قَالَ : أَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ ، فَجَلَسْتُ إِلَيْه في الْمَسْجد ، فَقَالَ : يَا أَبَا ذَرٍّ ، اسْتَعذْ باللهَّ منْ شَيَاطين الإنْس وَالْجنّ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله وَللإِنْس شَيَاطينُ ؟ قَالَ : نَعَمْ قَالَ : يَا أَبَا ذَرّ ، أَلا أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ منْ كُنُوز الْجَنَّة ؟ قَالَ : قُلْتُ : بَلَى يَا رَسُولَ الله ، قَالَ : لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ باللهَّ فَإِنَّهَا منْ كُنُوز الْجَنَّة ، قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله مَا الصّيَامُ ؟ قَالَ : فَرْضٌ مُجْزِى ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله مَا الصَّلاةُ ؟ قَالَ : خَيْرٌ مَوْضُوعٌ ، فَمَنْ شَاءَ أَقَلَّ ، وَمَنْ شَاءَ أَكْثَرَ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، مَا الصَّدَقَةُ ؟ قَالَ : أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَعنْدَ الله مَزيدٌ قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، أَيُّهَا أَفْضَلُ ؟ قَالَ : جَهْدٌ مُقلٌّ أَوْ سرٌّ إِلَى فَقيرٍ قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله أَيُّمَا أُنْزلَ عَلَيْكَ أَعْظَمُ ؟ قَالَ : اللهُّ لاَ إِلَهَ إلاَّ هُوَ الْحَيُّ حَتَّى خَتَمَ الآيَةَ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، أَيُّ الأَنْبيَاء كَانَ أَوَّلا ؟ قَالَ : آدَمُ ، قُلْتُ : وَنَبيٌّ هُوَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : نَعَمْ ، نَبيٌّ مُكَلّمٌ قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، كَم الأَنْبيَاءُ ؟ قَالَ : ثَلاثُ مائَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ جُمٌّ غَفيرٌ.

وَهَذَا الْكَلامُ لاَ نَعْلَمُهُ يُرْوَى بهَذَا اللَّفْظ إلاَّ عَنْ أَبِي ذَرٍّ وَعُبَيْدُ بْنُ الْخَشْخَاش لاَ نَعْلَمُ رَوَى عَنْ أَبِي ذَرٍّ إلاَّ هَذَا الْحَديثَ.

وفي مسند أحمد : " قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهَّ أَيُّ الأَنْبيَاء كَانَ أَوَّلُ قَالَ آدَمُ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهَّ وَنَبيٌّ كَانَ

قَالَ نَعَمْ نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهَّ كَمْ الْمُرْسَلُونَ قَالَ ثَلَاثُ مائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا وَقَالَ مَرَّةً خَمْسَةَ عَشَرَ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهَّ آدَمُ أَنَبِيٌّ كَانَ قَالَ نَعَمْ نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهَّ أَيُّمَا أُنْزِلَ عَلَيْكَ أَعْظَمُ قَالَ آيَةُ الْكُرْسِيِّ { اللهُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ }

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمُ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلَا فَخْرَ قَالَ أَبُو عِيسَى وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَقَدْ رُوِيَ بِهَذَا الْإِسْنَادِ عَنْ أَبِي نَضْرَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ

(١٠) معصية آدم وعصمة الأنبياء

اتفقت الأمة على أنَّ الرسل معصومون في تحمّل الرسالة ، فلا ينسون شيئاً مما أوحاه الله إليهم إلاّ شيئاً قد نُسخ ، وهم معصومون في التبليغ ، فالرسل لا يكتمون شيئاً ممّا أوحاه الله إليهم ، ذلك أن الكتمان خيانة ، والرسل يستحيل أن يكونوا كذلك ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ المائدة ، ولو حدث شيء من الكتمان أو التغيير لما أوحاه الله ، فإن عقاب الله يحلّ بذلك الكاتم المغيّر قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ الحاقة ومن العصمة ألاّ ينسوا شيئاً مما أوحاه الله إليهم ، وبذلك لا يضيع شيء من الوحي ، أما الأعراض البشرية كالخوف والغضب والنسيان تقع من الرسل والأنبياء وهي لا تنافي عصمتهم ، والأمثلة على ذلك في الكتاب والسنة كثيرة ، فمن ذلك :

١ – خوف إبراهيم عليه السلام من ضيوفه : أوجس إبراهيم عليه السلام في نفسه خيفة عندما رأى أيدي ضيوفه لا تمتد إلى الطعام الذي قدمه لهم ، ولم يكن يعلم أنّهم ملائكة تشكلوا في صور البشر قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ﴿٧٠﴾ ﴾ هود

٢– عدم صبر موسى عليه السلام على تصرفات العبد الصالح الخضر : وموسى وعد الخضر بأن يصبر في صحبته له ، فلا يسأله عن أمر يفعله العبد الصالح حتى يحدث له منه ذكراً ، ولكنه لم يتمالك نفسه ، إذ رأى تصرفات غريبة ، فكان في كل مرّة يسأل أو يعترض أو يوجه ، وفي كل مرّة يذكّره العبد الصالح ويقول له : ﴿ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٥﴾ ﴾ الكهف وعندما كشف له عن سر أفعاله قال له: ﴿ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا

٣– تصرفات موسى عليه السلام عندما رأى قومه يعبدون العجل : وغضب موسى غضباً شديداً ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه ، وألقى الألواح وفي نسختها هدى عندما عاد إلى قومه بعد

أن تمّ ميقات ربه ، فوجدهم يعبدون العجل ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾الأعراف وفي الحديث : " ليس الخبر كالمعاينة ، إنَّ الله تعالى أخبر موسى بما صنع قومه في العجل ، فلم يلق الألواح ، فلمّا عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت " احمد .

٤- نسيان آدم وجحوده : ومن ذلك نسيان آدم عليه السلام وجحوده ، فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " لما خلق الله آدم مسح ظهره ، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة ، وجعل بين عيني كلٍّ منهم وبيصاً من نور ، ثمّ عرضهم على آدم ، فقال : أي ربّ مَن هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريتك ، فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه ، فقال : أي ربّ من هذا ؟ فقال : هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك ، يقال له داود ، فقال : ربّ كم جعلت عمره ؟ قال : ستين سنة ، قال : أي ربّ زده من عمري أربعين سنة ، فلما انقضى عمر آدم ، جاءه ملك الموت ، فقال : أو لم يبق من عمري أربعون سنة ، قال : أو لم تعطها ابنك داود ؟ قال : فجحد آدم ، فجحدت ذريته ، ونسي آدم ، فنسيت ذريته ، وخطئ آدم فخطئت ذريته "

٥- نبي يحرق قرية النمل : ومن ذلك ما وقع من نبي من الأنبياء غضب إذ قرصته نملة ، فأمر بقرية النمل فأحرقت ، فعاتبه الله على ذلك ، ففي الحديث الذي يرويه أبو هريرة عن النبي ﷺ : " نزل نبيٌّ من الأنبياء تحت شجرة ، فلدغته نملة ، فأمر بجهازه فأخرج من تحتها ، ثمّ أمر ببيتها فأحرق بالنار ، فأوحى الله إليه : فهلاّ نملة واحدة ".

٦- نسيان نبينا صلى الله عليه وسلم وصلاته الظهر ركعتين : ومن ذلك نسيان الرسول ﷺ في غير البلاغ ، وفي غير أمور التشريع ، فمن ذلك ما رواه ابن سيرين عن أبي هريرة قال : " صلى بنا رسول الله ﷺ ، إحدى صلاتي العشيّ ، فصلى ركعتين ، ثمّ سلّم ، فقام إلى خشبة معروضة في المسجد ، فاتكأ عليها كأنّه غضبان ، ووضع يده اليمنى على اليسرى ، وشبّك بين أصابعه ،

ووضع خدّه الأيمن على ظهر كفه اليسرى ، وخرجت السرعان من أبواب المسجد ، فقالوا : قصرت الصلاة ، وفي القوم أبو بكر وعمر ، فهابا أن يكلماه . وفي القوم رجل يقال له ذو اليدين فقال : يا رسول الله ، أنسيت أم قصرت الصلاة ؟ فقال : لم أنس ، ولم تقصر ، فقال : أكما يقول ذو اليدين ؟ فقالوا : نعم . فتقدم فصلّى ما ترك ، ثمّ سلّم ، ثمّ كبّر ، وسجد مثل سجود أو أطول ثمّ رفع رأسه وكبّر ، وسجد مثل سجوده أو أطول ، ثمّ رفع رأسه وكبّر ، فربما سألوه ، ثمّ سلّم فيقول : أنبئت أنّ عمران بن حصين ، قال : ثمّ سلّم " متفق عليه ، وليس لمسلم فيه وضع اليد على اليد ولا التشبيك .

وفي رواية ، قال : " بينما أنا أصلّي مع النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الظهر سلّم من ركعتين ، فقام رجل من بني سليم ، فقال : يا رسول الله أقصرت الصلاة أم نسيت ؟ " وساق الحديث ، رواه أحمد ومسلم . وهذا يدل على أنّ القصة كانت بحضرته وبعد إسلامه .

وفي رواية متفق عليها لما قال : " لم أنس ولم تقصر ، قال : بلى ، قد نسيت " وهذا يدل على أن ذا اليدين تكّلم بعدما علم عدم النسخ كلاماً ليس بجواب سؤال .

وقد صرح الرسول ﷺ بطروء النسيان عليه كعادة البشر ، ففي حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ولكنّي إنّما أنا بشر ، أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكروني " قال هذا بعد نسيانه في إحدى الصلوات .

أمّا الحديث الذي يروى بلفظ : " إني لا أنسى ، ولكن أُنسَّى لأسنّ " فلا يجوز أن يعارض به الحديث السابق ، لأنّ هذا الحديث – كما يقول ابن حجر – لا أصل له ، فإنّه من بلاغات مالك التي لم توجد موصولة بعد البحث الشديد .

الأنبياء والرسل يجتهدون في حكم ما يعرض عليهم من وقائع ، ويحكمون وفق ما يبدو لهم ، فهم لا يعلمون الغيب ، وقد يخطئون في إصابة الحق ، فمن ذلك عدم إصابة نبي الله داود في الحكم ، وتوفيق الله لابنه سليمان في تلك المسألة .

فعن أبي هريرة أنه سمع النبي ﷺ يقول:" كانت امرأتان معهما ابناهما ، جاء الذئب فذهب بابن

إحداهما ، فقالت صاحبتها : إنّما ذهب بابنك ، وقالت الأخرى : إنّما ذهب بابنك ، فتحاكمنا إلى داود ، فقضى به للكبرى ، فخرجتا على سليمان بن داود ، فأخبرتاه ، فقال : ائتوني بالسكين أشقّه بينهما ، فقالت الصغرى : لا تفعل يرحمك الله ، هو ابنها ، فقضى به للصغر "خ

وقد وضح الرسول ﷺ هذه القضية وجلاّها ، فقد روت أمُّ سلمة زوج النبي ﷺ : " أنّ النبي ﷺ سمع خصومة بباب حجرته ، فخرج إليهم ، فقال : " إنّما أنا بشر ، وإنّه يأتيني الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صدق ، فأقضي له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم ، فإنما هي قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها "خ .

العصمة من الكبائر

الأمة الإسلامية مجمعة على عصمة الأنبياء والرسل من الكبائر من الذنوب وقبائح العيوب ، كالزنى والسرقة والمخادعة ، وصناعة الأصنام وعبادتها ، والسحر ، ونحو ذلك .

العصمة من الصغائر

ذهب أكثر علماء الإسلام إلى أن الأنبياء ليسوا معصومين من الصغائر ، وقال ابن تيمية : " القول بأن الأنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام ، وجميع الطوائف ، حتى إنه قول أكثر أهل الكلام ، كما ذكر أبو الحسن الآمدي أنّ هذا قول أكثر الأشعرية ، وهو أيضاً قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء، بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلاّ ما يوافق هذا القول .." .

يقول صاحب كتاب عصمة الأنبياء الإمام فخر الدين الرازي : اعلم أن الاختلاف في هذه المسالة واقع في أربعة مواضع :

الأول ما يتعلق بالاعتقادية ، واجتمعت الأمة على أن الأنبياء معصومون عن الكفر والبدعة ... إلا الفضيلية والروافض .

الثاني ما يتعلق بجميع الشرائع والأحكام من الله تعالى ، واجمعوا على أنه لا يجوز عليهم التحريف والخيانة في هذا الباب لا بالعمد ولا بالسهو ، وإلا لم يبق الاعتماد على شيء من الشرائع

الثالث ما يتعلق بالفتوى ، واجمعوا على أنه لا يجوز تعمد الخطأ ، فأما على سبيل السهو فقد اختلفوا فيه .

الرابع ما يتعلق بأفعالهم وأحوالهم ، وقد اختلفوا فيه على خمسة مذاهب :

الأول : الحشوية وهو أنه يجوز عليهم الإقدام على الكبائر والصغائر .

الثاني : أنه لا يجوز منهم تعمد الكبيرة البتة ، وأما تعمد الصغيرة فهو جائز ، بشرط أن لا تكون منفرا ، وأما إن كانت منفرا فذلك لا يجوز عليهم ، مثل التطفيف بما دون الحبة ، وهو قول أكثر المعتزلة .

الثالث : أنه يجوز عليهم تعمد الكبيرة والصغيرة ، ولكن يجوز صدور الذنب منهم على سبيل الخطأ في التأويل ، وهو قول أبي علي الجبائي .

الرابع : أنه لا يجوز عليهم الكبيرة ولا الصغيرة ، لا بالعمد ولا بالتأويل والخطأ ، أما السهو والنسيان فجائز ثم أنهم يعاتبون على ذلك السهو والنسيان... وهذا قول إبراهيم النظام .

الخامس : أنه لا يجوز عليهم الكبيرة ولا الصغيرة لا بالعمد ولا بالتأويل ولا بالسهو والنسيان وهذا مذهب الشيعة .

واختلفوا في وقت وجوب العصمة ، فقال بعضهم إنها من أول الولادة إلى آخر العمر ، وقال الأكثرون : هذه العصمة إنما تجب في زمان النبوة ، فأما قبلها فهي غير واجبة ، وهذا قول أكثر أصحابنا (يعني الأشاعرة) وقال به بعض المعتزلة .

ويقول : إن الأنبياء معصومون في زمان النبوة عن الكبائر والصغائر بالعمد ، أما على سبيل السهو فهو جائز ويدل على وجوب العصمة وجوه خمسة عشر :

الحجة الأولى لو صدر الذنب عنهم لكان حالهم في استحقاق الذم عاجلا والعقاب آجلا اشد من حال عصاة الأمة وهذا باطل فصدور الذنب أيضا باطل .. وكل من كانت عليه نعم الله أكثر كان صدور الذنب عنه أفحش وصريح العقل يدل عليه ثم يؤكده النقل قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ

يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ الأحزاب قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ ﴾ الأحزاب

الحجة الثانية لو صدر الذنب عنهم لما كانوا مقبولي الشهادة لـقوله تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ الحجرات أمر بالتثبت والتوقف في قبول شهادة الفاسق إلا أن هذا باطل فإن من لم تقبل شهادته في حال الدنيا ، فكيف تقبل شهادته في الأديان الباقية إلى يوم القيامة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴿١٤٣﴾ ﴾ البقرة ، وأيضا فإنه تعالى شهد بأن محمدا ﷺ شهيد على الكل يوم القيامة ومن كان شهيدا لجميع الرسل يوم القيامة كيف يكون بحال لا تقبل شهادته في الجنة .

الحجة الثالثة لو صدر الذنب عنهم لوجب زجرهم ،لأن الدلائل دالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لكن زجر الأنبياء غير جائز لقوله تعالى قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾ ﴾ الأحزاب فكان صدور الذنب عنهم ممتنعا .

الحجة الرابعة لو صدر الفسق عن محمد لكنا إما أن نكون مأمورين بالاقتداء به وهذا لا يجوز ، أو لا نكون مأمورين بالاقتداء به وهذا باطل أيضا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣١﴾ ﴾ آل عمران قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَٱتَّبِعُوهُۚ ﴾ الأنعام ولما كان صدور الفسق يفضي إلى هذين القسمين الباطلين كان صدور الفسق عنه محالا .

الحجة الخامسة لو صدرت المعصية عن الأنبياء لوجب أن يكونوا موعودين بعذاب الله بعذاب جهنم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ

عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ النساء ولكانوا ملعونين قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾هود وبإجماع الأمة هذا باطل فكان صدور المعصية عنهم باطلا .

الحجة السادسة أنهم كانوا يأمرون بالطاعات وترك المعاصي ولو تركوا الطاعة وفعلوا المعصية لدخلوا تحت قوله تعالى قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾الصف وتحت قوله تَعَالَىٰ:﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ البقرة ومعلوم أن هذا في غاية القبح وأيضا أخبر الله تعالى عن رسوله شعيب أنه برأ نفسه من ذلك قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ ﴿٨٨﴾ ﴾ هود

الحجة السابعة قال الله تعالى في صفة إبراهيم وإسحاق ويعقوب قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ الأنبياء والألف واللام في صيغة الجمع تفيد العموم فدخل تحت لفظ (الخيرات) فعل كل ما ينبغي وترك كل ما لا ينبغي ، وذلك يدل على أنهم كانوا فاعلين لكل الطاعات وتاركين لكل المعاصي

الحجة الثامنة قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ص وهو أن اللفظين أعني (ٱلْمُصْطَفَيْنَ) وقوله (ٱلْأَخْيَارِ) يتناولان جملة الأفعال والتروك ، بدليل جواز الاستثناء .. والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل ، فدلت هذه الآية على أنهم كانوا من المصطفين الأخيار في كل الأمور ، وهذا ينافي صدور الذنب عنهم ، ونظيره قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾الحج قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾آل عمران قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾البقرة قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾الأعراف قَالَ

تَعَالَى: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ص

لا يقال : الاصطفاء لا يمنع من فعل الذنب بدليل قَالَ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾فاطر قسم المصطفين إلى الظالم والمقتصد والسابق لأنا نقول : الضمير في قوله (منهم) عائد على إلى قوله (عبادنا) لا إلى قوله (ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا) لأن عود الضمير إلى اقرب المذكورين واجب .

الحجة التاسعة قوله تعالى حكاية عن إبليس قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ص استثنى المخلصين من إغوائه وإضلاله ، ثم أنه تعالى شهد على إبراهيم وإسحاق ويعقوب أنهم من المخلصين حيث قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ ﴾ص وقال في حق يوسف قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ يوسف فلما اقر إبليس أنه لا يغوي المخلصين ، وشهد الله بأن هؤلاء من المخلصين ثبت أن إغواء إبليس ووسوسته ما وصلت إليهم وذلك يوجب القطع بعدم صدور المعصية عنهم .

الحجة العاشرة قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ سبأ فهؤلاء الذين لم يتبعوا إبليس إما أن يقال : إنهم الأنبياء أو غيرهم ، فإن كانوا غيرهم لزم أن يكونوا أفضل منهم لقوله تعالى قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴿١٣﴾ ﴾الحجرات وتفضيل غير النبي على النبي باطل بالإجماع ، فوجب القطع بأن أولئك الذين لم يتبعوا إبليس هم الأنبياء ، وكل من أذنب فقد اتبع إبليس فدل هذا على أن الأنبياء ما أذنبوا .

الحجة الحادية عشرة أنه تعالى قسم المكلفين إلى قسمين حزب الشيطان كما قَالَ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾المجادلة وحزب الله كما قَالَ تَعَالَى: ﴿

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ المجادلة ولا شك أن حزب الشيطان هو الذي يفعل ما يريد الشيطان ويأمره به ، فلو صدرت الذنوب عن الأنبياء لصدق عليهم أنهم من حزب الشيطان ، ولصدق عليهم قوله تعالى ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ المجادلة ، ولصدق على الزهاد من آحاد الأمة قوله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ وحينئذ يلزم أن يكون واحد من آحاد الأمة أفضل بكثير من الأنبياء ولا شك في بطلانه

الحجة الثانية عشرة إن أصحابنا بينوا أن الأنبياء أفضل من الملائكة وثابت بالدلالة على أن الملائكة ما أقدموا على شيء من الذنوب ، فلو صدرت الذنوب عن الأنبياء لامتنع أن يكونوا زائدين في الفضل على الملائكة لقوله تعالى قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ ص

الحجة الثالثة عشرة قال الله في حق إبراهيم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ ﴿١٢٤﴾ ﴾ البقرة والإمام هو الذي يقتدى به فلو صدر الذنب عن إبراهيم لكان اقتداء الخلق به في ذلك الذنب واجبا وإنه باطل .

الحجة الرابعة عشرة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ البقرة فكل من أقدم على الذنب كان ظالما لنفسه لقوله تعالى . إذا عرفت هذا فنقول ذلك العهد الذي حكم الله تعالى بأنه لا يصل إلى الظالمين إما أن يكون هو عهد النبوة أو عهد الإمامة ، فإن كان الأول فهو المقصود ، وان كان الثاني فالمقصود أشهر ، لأن عهد الإمامة أقل درجة من عهد النبوة ، فإذا لم يصل عهد الإمامة إلى المذنب العاصي ، فبأن لا يصل عهد النبوة إليه أولى .

الحجة الخامسة عشرة روي أن خزيمة بن ثابت الأنصاري شهد على وفق دعوى النبي مع أنه ما كان عالما بتلك الواقعة فقال خزيمة " إني أصدقك فيما تخبر عنه من أحوال السماء ، أفلا أصدقك في هذا القدر ؟! فلما ذكر ذلك صدقه النبي فيه ولقبه بذي الشهادتين، حَدَّثَنِي عُمَارَةُ

بن خُزَيْمَةَ بن ثَابتٍ ، عَنْ أَبيه ، أَن ّالنَّبيَّ ﷺ اشْتَرَى فَرَسًا منْ سَوَاء بن الحَارث فَجَحَدَهُ فَشَهدَ لَهُ خُزَيْمَةُ بن ثَابتٍ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ : " مَا حَمَلَكَ عَلَى الشَّهَادَة وَلَمْ تَكُنْ مَعَهُ حَاضرًا ؟ " قَالَ : صَدَّقْتُكَ لَمَّا جئْتَ به وَعَلمْتُ أَنَّكَ لا تَقُولُ إلا حَقًّا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ : " مَنْ شَهدَ لَهُ خُزَيْمَةُ أَوْ شَهدَ عَلَيْه فَحَسْبُهُ ". المعجم الكبير للطبراني ولو كان الذنب جائزا على الأنبياء لكانت شهادة خزيمة غير جائزة .

عصمة الملائكة

هل الملائكة معصومون عن الذنوب ؟ يقول صاحب كتاب العصمة الرازي : فلنذكر الآن ما يدل على عصمة الملائكة ، ويدل عليه وجوه أربعة :

الأول قوله تعالى في صفة الملائكة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٥٠ ﴾ النحل يتناول جميع الملائكة في فعل جميع المأمورات وترك جميع المنهيات ، لأن كل من نهي عن فعل فقد أمر بتركه .

الثاني قوله تعالى ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ ﴾ الأنبياء في وصفهم

الثالث قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠ ﴾ الأنبياء وما كانت صفته كذلك لا يصدر عنه الذنب

الرابع أن الملائكة رسل الله لقوله تعالى ﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ۝١ ﴾ فاطر والرسل معصومون لقوله تعالى في تعظيمهم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ الأنعام

ذكر مؤلف كتاب الرسل والرسالات الشيخ عمر الأشقر : ذهب أكثر علماء الإسلام إلى أن الأنبياء ليسوا معصومين من الصغائر ، وقال ابن تيمية : " القول بأن الأنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام ، وجميع الطوائف ، حتى أنه قول أكثر أهل

الكلام ، كما ذكر أبو الحسن الآمدي أنّ هذا قول أكثر الأشعرية ، وهو أيضاً قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء، بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلاّ ما يوافق هذا القول .." .

الأدلة :

وقد استدل جماهير العلماء على دعواهم بأدلة :

١ – معصية آدم بأكله من الشجرة التي نهاه الله تعالى عن الأكل منها ، ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه

والآية في غاية الوضوح والدلالة على المراد ، فقد صرحت بعصيان آدم ربه .

٢- ونوح دعا ربه في ابنه الكافر قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ هود ، فلامه ربه على مقالته هذه ، وأعلمه أنّه ليس من أهله ، وأن هذا منه عمل غير صالح قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ هود فاستغفر ربّه من ذنبه وتاب وأناب قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ هود والآية صريحة في كون ما وقع منه كان ذنباً يحتاج إلى مغفرة (وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ) .

٣- وموسى أراد نصرة الذي من شيعته ، فوكز خصمه فقضى عليه قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ

﴿ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾ القصص ، فقد اعترف موسى بظلمه لنفسه ، وطلب من الله أن يغفر له ، وأخبر الله بأنه غفر له .

٤- وداود عليه السلام تسّرع في الحكم قبل سماع قول الخصم الثاني ، فأسرع إلى التوبة فغفر الله له ذنبه قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ص

٥- ونبينا محمد ﷺ عاتبه ربه في أمور قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ التحريم نزلت بسبب تحريم الرسول ﷺ العسل على نفسه ، أو تحريم مارية القبطية . وعاتبه ربه بسبب عبوسه في وجه الأعمى ابن أم مكتوم ، وانشغاله عنه بطواغيت الكفر يدعوهم إلى الله ، والإقبال على الأعمى الراغب فيما عند الله هو الذي كان ينبغي أن يكون من الرسول ﷺ : قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ عبس وقبل الرسول ﷺ من أسرى بدر الفدية فأنزل الله تعالى : ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ الأنفال

هذه أمثلة اكتفينا بذكرها عن غيرها ، وإلاّ فقد ورد في القرآن مغاضبة يونس لقومه، وخروجه من قومه من غير إذن من ربه ، وما صنعه أولاد يعقوب بأخيهم يوسف في إلقائه في غيابة الجبّ ثم أوحى الله إليهم وجعلهم أنبياء .

القائلون بعصمة الأنبياء من الصغائر :

يستعظم بعض الباحثين أن ينسب إلى الأنبياء صغائر الذنوب التي أخبرت نصوص الكتاب والسنة بوقوعها منهم ، ويذهب هؤلاء إلى تهويل الأمر ، ويزعمون أنّ القول بوقوع مثل هذا منهم فيه طعن بالرسل والأنبياء ، ثم يتحملون في تأويل النصوص ، وهو تأويل يصل إلى درجة تحريف آيات الكتاب كما يقول ابن تيمية ، وكان الأحرى بهم تفهم الأمر على حقيقته ، وتقديس نصوص الكتاب والسنة ، واستمداد العقيدة في هذا الأمر وفي كل أمر من القرآن وأحاديث

الرسول ، وبذلك نحكمها في كل أمر ، وهذا هو الذي أمرنا به ، أمّا هذا التأويل ، والتحريف بعد تصريح الكتاب بوقوع مثل ذلك منهم فإنّه تحكيم للهوى ، ونعوذ بالله من ذلك .

وقد انتشرت هذه التأويلات عند الكتاب المحدثين ، وهي تأويلات فاسدة من جنس تأويلات الباطنية والجهمية ، كما يقول ابن تيمية.

شبهتان :

الذين منعوا من وقوع الصغائر من الأنبياء أوردوا شبهتين :

الأولى : أن الله أمر بإتباع الرسل والتأسي بهم قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ ﴿٢١﴾ ﴾ الأحزاب: ٢١، وهذا شأن كل رسول ، والأمر بإتباع الرسول يستلزم أن تكون اعتقاداته وأفعاله وأقواله جميعها طاعات لا محالة ، لأنه لو جاز أن يقع من الرسول معصية لله تعالى لحصل تناقض في واقع الحال ، إذ يقتضي أن يجتمع في هذه المعصية التي وقعت من الرسول الأمر بإتباعها وفعلها من حيث كوننا مأمورين بالتأسي بالرسول ﷺ ، والنهي عن موافقتها من حيث كونها معصية منهي عنها ، وهذا تناقض ، فلا يمكن أن يأمر الله عبداً بشيء في حال أنه ينهاه عنه . وقولهم هذا يكون صحيحاً ، لو بقيت معصية الرسول خافية غير ظاهرة بحيث تختلط علينا الطاعة بالمعصية ، أمّا وأنّ الله ينبه رسله وأنبياؤه إلى ما وقع منهم من مخالفات ويوفقهم إلى التوبة منها ، من غير تأخير فإنّ ما أوردوه لا يصلح دليلاً بل يكون التأسي بهم في هذا منصباً على الإسراع في التوبة عند وقوع المعصية ، وعدم التسويف في هذا ، تأسياً بالرسل والأنبياء الكرام في مبادرتهم بالتوبة من غير تأخير .

الثانية : أنّ هؤلاء توهموا أن الذنوب تنافي الكمال ، وأنها تكون نقصاً وإن تاب التائب منها ، وهذا غير صحيح ، فإنّ التوبة تغفر الحوبة ، ولا تنافي الكمال ، ولا يتوجه إلى صاحبها اللوم ، بل إنّ العبد في كثير من الأحيان يكون بعد توبته من معصيته خيراً منه قبل وقوع المعصية ، وذلك لما يكون في قلبه من الندم والخوف والخشية من الله تعالى ، ولما يجهد به نفسه من الاستغفار

والدعاء ، ولما يقوم به من صالح الأعمال ، يرجو بذلك أن تمحو الصالحات السيئات ، وقد قال بعض السلف : " كان داود عليه السلام بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة " ، وقال آخر : " لو لم تكن التوبة أحبّ الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه " .

وقد ثبت في الصحاح " أن الله أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل أضلته ناقته بأرض فلاة ، وعليها طعامه وشرابه ، فنام نومة فقام فوجد راحلته فوق رأسه فقال : اللهم أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح " .

وفي الكتاب الكريم : قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ البقرة وقال تعالى مبيناً مثوبة التائبين : قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ الفرقان

وفي يوم القيامة " يدني الله المؤمن ، فيضع عليه كنفه ويستره ، فيقول : أتعرف ذنب كذا ، أتعرف ذنب كذا ، فيقول : نعم ، أي رب ، حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه هلك ، قال : سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ".

ومعلوم أنه لم يقع ذنب من نبي إلا وقد سارع إلى التوبة والاستغفار منه ، يدلنا على هذا أن القرآن لم يذكر ذنوب الأنبياء إلا مقرونة بالتوبة والاستغفار ، فأدم وزوجه عصيا فبادرا إلى التوبة قائلين : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الأعراف وما كادت ضربة موسى تسقط القبطي قتيلاً حتى سارع طالباً الغفران والرحمة قائلاً : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾ القصص. وداود ما كاد يشعر بخطيئته حتى خرّ راكعاً مستغفراً ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ص فالأنبياء لا يقرون على الذنب ، ولا يؤخرون التوبة ، فالله عصمهم من ذلك ، وهم بعد التوبة أكمل منهم قبلها .

وبذلك انهارت هاتان الشبهتان ، ولم يثبتا في مجال الحجاج والنقاش ، وحسبنا بالأدلة الواضحة البينة التي تهدي للتي هي أقوم .

السبب في عصمة الأنبياء مما عصموا منه وعدم عصمتهم مما لم يعصموا منه : الرسل والأنبياء بشر من البشر ، عصمهم الله في تحمل الرسالة وتبليغها ، فلا ينسون شيئاً ، ولا ينقصون شيئاً ، وبذلك يصل الوحي الذي أنزله الله إلى الذين أرسلوا إليهم كاملاً وافياً ، كما أراده الله جلّ وعلا وهذه العصمة لا تلازمهم في كلّ أمورهم فقد تقع منهم المخالفة الصغيرة ، بحكم كونهم بشراً ولكنّ رحمة الله تتداركهم ، فينبههم الله إلى خطئهم ، ويوفقهم للتوبة والأوبة إليه .

يقول الشيخ مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر : " إنّ الوحي لا يلازم الأنبياء في كلّ عمل يصدر عنهم ، وفي كلّ قول يبدر منهم ، فهم عرضة للخطأ ، يمتازون عن سائر البشر بأنّ الله لا يقرّهم على الخطأ بعد صدوره ، ويعاتبهم عليه أحياناً " .

تكريم الأنبياء وتوقيرهم

هذه الصغائر التي تقع من الأنبياء لا يجوز أن تتخذ سبيلاً للطعن فيهم ، والإزراء عليهم ، فهي أمور صغيرة ومعدودة غفرها الله لهم ، وتجاوز عنها ، وطهرهم منها ، وعلى المسلم أن يأخذ العبرة والعظة لنفسه من هذه ، فإذا كان الرسل الكرام الذين اختارهم الله واصطفاهم عاتبهم الله ولامهم على أمور كهذه ، فإنّه يجب أن نكون على حذر وتخوف من ذنوبنا وآثامنا ، وعلينا أن نتأسى بالرسل والأنبياء في المسارعة إلى التوبة والأوبة إلى الله، وكثرة التوجه إليه واستغفاره

قال الرازي : فقد تمسكوا بها – قصة آدم – من وجوه ستة :

الأول أنه كان عاصيا والعاصي لابد أن يكون صاحب الكبيرة ، وإنما قلنا عاصيا لقوله تَعَالَىٰ: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾ طه وإنما قلنا إن العاصي صاحب الكبيرة لوجهين :

أحدهما أن النص يقتضي كونه معاقبا وهو قوله تعالى ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ النساء ولا معنى لصاحب

الكبيرة إلا من فعل فعلا يعاقب عليه . وثانيهما أن العصيان اسم ذم فلا يطلق إلا على صاحب الكبيرة .

الثاني أنه تائب والتائب مذنب، وإنما قلنا أنه تائب لقوله تعالى قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ طه وقوله تعالى ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ البقرة وإنما قلنا إن التائب مذنب لأن التائب هو النادم على فعل الذنب والنادم على فعل الذنب مخبر عن كونه فاعلا للذنب ، فإن كذب في ذلك الإخبار فهو مذنب بفعل الكذب وان صدق فيه فهو المطلوب .

الثالث أنه ارتكب المنهي عنه لقوله تعالى ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ ﴿٢٢﴾ ﴾ الأعراف وقوله ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴿٣٥﴾ ﴾ البقرة وارتكاب المنهي عنه عين الذنب .

الرابع أنه تعالى سماه ظالما في قوله ﴿ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ البقرة وهو أيضا سمى نفسه ظالما في قوله تعالى ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴿٢٣﴾ ﴾ الأعراف ، والظالم ملعون لقوله تعالى ﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ هود ومن كان كذلك كان صاحب كبيرة .

الخامس أنه اعترف بأنه لولا مغفرة الله تعالى له لكان خاسرا في قوله تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الأعراف

السادس أنه أخرج من الجنة بسبب وسوسة الشيطان وازلاله جزاء على ما أقدم عليه من طاعة الشيطان ، وذلك يدل على كونه صاحب كبيرة .

وقال الرازي والجواب عن الكل عندنا : أن ذلك كان قبل النبوة ، فلا يكون واردا علينا .

وأقول : انظر ما يراه ابن تيمية وكثير من علماء السلف من وقوع الصغائر من الأنبياء ومن ثم توبتهم العاجلة ، فترى أن الأمر لا يحتاج لتضخيم خطأ هؤلاء الأنبياء . والله أعلم

(١١) قصة الحية والطاووس

جاء في " تفسير الطبري": عن ابن عباس وعن مُرَّة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ : لما قال الله ﷻ لآدم:" اسكن أنتَ وزوجُك الجنة وكلا منها رغدًا حيث شئتما، ولا تقربا هذه الشجرةَ فتكونا من الظالمين"، أراد إبليس أن يدخل عليهما الجنة، فمنعته الخزَنة. فأتى الحية – وهي دابَّة لها أربعُ قوائم كأنها البعير، وهي كأحسن الدواب – فكلمها أن تُدخله في فمها حتى تدخل به إلى آدم، فأدخلته في فُقْمها – قال أبو جعفر: والفقم جانب الشدق – فمرت الحية على الخزنة فدخلت ولا يعلمون لما أراد الله من الأمر.

وفي رواية أخرى في " تفسير الطبري " : عن ابن عباس، قال: إن عدو الله إبليس عرض نفسه على دوابّ الأرض أيُّها يحمله حتى يدخل الجنة معها ويكلم آدم وزوجته ، فكلّ الدواب أبى ذلك عليه، حتى كلّم الحية فقال لها: أمنعك من ابن آدم، فأنت في ذمتي إن أنت أدخلتني الجنة. فجعلته بين نابين من أنيابها، ثم دخلت به، فكلمهما من فيها؛ وكانت كاسية تمشي على أربع قوائم، فأعراها الله وجعلها تمشي على بطنها. قال: يقول ابن عباس: اقتلوها حيث وَجَدتُموها، أخفروا ذمَّةَ عدوّ الله فيها .

وفي تفسير الدر المنثور: وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن مسعود وناس من الصحابة قالوا : لما قال الله لآدم اسكن أنت وزوجك الجنة أراد إبليس أن يدخل عليهما الجنة فأتى الحية هي دابة لها أربع قوائم كأنها البعير وهي كأحسن الدواب فكلمها إن تدخله في فمها حتى تدخل به إلى آدم فأدخلته في فمها فمرت الحية على الخزنة فدخلت ولا يعلمون لما أراد الله من الأمر فكلمه من فمها فلم يبال بكلامه فخرج إليه فقال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى وحلف لهما بالله إني لكما لمن الناصحين فأبى آدم أن يأكل منها فقعدت حواء فأكلت ثم قالت : يا آدم كل فإني قد أكلت فلم يضر بي ، فلما أكل بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن ابن عباس قال : إن عدو الله إبليس عرض نفسه على دواب

الأرض أنها تحمله حتى يدخل الجنة معها ويكلم آدم ، فكل الدواب أبى ذلك عليه حتى كلم الحية فقال لها : أمنعك من ابن آدم فإنك في ذمتي إن أدخلتني الجنة فحملته بين نابين حتى دخلت به فكلمه من فيها وكانت كاسية تمشي على أربع قوائم فأعراها الله وجعلها تمشي على بطنها .

يقول ابن عباس : فاقتلوها حيث وجدتموها اخفروا ذمة عدو الله فيها . وأخرج سفيان بن عيينة وعبد الرزاق وابن المنذر وابن عساكر في تاريخه عن ابن عباس قال : كانت الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته السنبلة فلما أكلا منها بدت لهما سوآتهما وكان الذي دارى عنهما من سوآتهما أظفارهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ورق التين يلزقان بعضه إلى بعض فانطلق آدم موليا في الجنة فأخذت برأسه شجرة من شجر الجنة فناداه به : يا آدم أمني تفر ؟ قال : لا ولكني استحيتك يا رب قال : أما كان لك فيما منحتك من الجنة وأبحتك منها مندوحة عما حرمت عليك ؟ قال : بلى يا رب ولك – وعزتك – ما حسبت أن أحدا يحلف بك كاذبا قال : فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلا كدا .

فاهبطا من الجنة وكانا يأكلان منها رغدا فاهبط إلى غير رغد من طعام ولا شراب فعلم صنعة الحديد وأمر بالحرث فحرث فزرع ثم سقى حتى إذا بلغ حصد درسه ثم ذراه ثم طحنه عجنه ثم خبزه ثم أكله فلم يبلغه حتى بلغ منه ما شاء الله أن يبلغ وكان آدم حين أهبط من الجنة بكى بكاء لم يبكه أحد فلو وضع بكاء داود على خطيئته وبكاء يعقوب على ابنه وبكاء ابن آدم على أخيه حين قتله ثم بكاء أهل الأرض ما عدل ببكاء آدم عليه السلام حين أهبط .

ولدينا قصة أخرى عن الطريقة التي وصل بها إبليس إلى ادم وحواء ذكرها الثعلبي بكتابة المسمى قصص الأنبياء أو العرائس . " وقيل إن إبليس لما سمع بدخول آدم الجنة حسده وقال : يا ويلاه ! أنا اعبد الله منذ كذا وكذا ألف سنة ولم يدخلني الجنة ، وهذا خلق خلقه الله تعالى الآن فأدخله الجنة ، فأحتال في إخراج آدم من الجنة .

فوقف على باب الجنة وتعبد ثلاثمائة سنة هنالك حتى اشتهر بالعبادة وعرفوه بها، وهو في كل ذلك ينتظر خروج خارج من الجنة يتوصل به إلى آدم ، فمكث على باب الجنة ثلاثمائة سنة لا

يأذن الله تعالى في خروج خلق منها ، فبينما هو كذلك إذ خرج إليه الطاووس وكان سيد طيور الجنة ، فلما رآه إبليس قال له: أيها الخلق الكريم من أنت ؟ وما اسمك ؟ فما رأيت من خلق الله أحسن منك ! قال : أنا طائر من طيور الجنة اسمي طاووس . فبكى إبليس فقال له الطاووس : من أنت ؟ ومم بكاؤك ؟! فقال له إبليس : أنا ملك من الملائكة الكروبيين ، وإنما بكيت تأسفا على ما يفوتك من حسنك وكمال خلقتك .فقال له الطاووس :أيفوتني ما أنا فيه ؟! قال : بلى ، وإنك تفنى وتبيد وكل الخلائق يبيدون إلا من تناول من شجرة الخلد فإنهم المخلدون من تلك الخلائق . فقال الطاووس : وأين تلك الشجرة ؟! قال إبليس : هي في الجنة . قال الطاووس : ومن يدلنا بمكانها ؟! قال إبليس : أنا أدلك عليها إن أدخلتني الجنة . قال الطاووس : كيف لي بإدخالك الجنة ولا سبيل إلى ذلك لمكان رضوان ؛ فإنه لا يدخل الجنة أحد ولا يخرج منها أحد إلا بإذنه؛ ولكنى سأدلك على خلق لله تعالى يدخلكها فإنه أقدر على ذلك ، فهو دون غيره ؛ فإنه خادم خليفة الله تعالى آدم . قال : ومن هو ؟! قال : الحية . قال له إبليس : فبادر إليها فإن لنا فيه سعادة الأبد لعلها تقدر على ذلك . فجاء الطاووس إلى الحية وأخبرها بمكان إبليس وما سمع منه وقال : إني رأيت بباب الجنة ملكا من الكروبيين من صفته كيت وكيت فهل لك أن تدخليه الجنة ليدلنا على شجرة الخلد . فأسرعت الحية نحوه ، فلما جاءته قال لها إبليس نحو ما قاله للطاووس . فقالت : كيف لي بإدخالك الجنة ورضوان إذا رآك لم يمكنك من دخولها ؟! فقال لها : أتحول ريحا فتجعليني بين أنيابك .قالت : نعم . فتحول إبليس– لعنه الله– ريحا ، ودخل في فم الحية ، فأدخلته الجنة ، فلما دخل إبليس الجنة أراها الشجرة التي نهى الله تعالى عنها آدم ، وجاء حتى وقف بين يدي آدم وحواء عليهما السلام ، وهما لا يعلمان أنه إبليس ، فناح عليهما نياحة أحزنتهما فبكيا . وكان أول من ناح فقال له : ما يبكيك ؟! فقال : أبكي عليكما تموتان فتفارقان ما أنتما فيه من النعيم والكرامة . فوقع ذلك في أنفسهما وانغما لذلك ، وبكى إبليس ومضى ، ثم أن إبليس أتاهما بعد ذلك ، وقد أثر قوله فيهما فقال : يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟ قال : نعم . قال : كل من هذه الشجرة شجرة الخلد . قال : نهاني ربي

عنها. فقال إبليس : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين فأبى أن يقبل منه ، فأقسم لهما بالله أنه لهما من الناصحين ، فاغترا بذلك ، وما كانا يظنان أن أحدا يحلف بالله كاذبا ، فبادرت حواء إلى أكل الشجرة ثم زينت لآدم حتى أكلها .

وقال بعضهم : إن حواء أسكرت آدم فلما سكر أكل من الشجرة .

قد تساهل بعض أهل العلم القدماء الذين ألفوا في التفسير ، وأدخلوا في كتبهم في التفسير أو التاريخ والقصص كثير من الآثار والخرافات والإسرائيليات لتوضيح وبيان الكثير من المبهمات التي لم يتحدث عنها القرآن والسنة الصحيحة ، ولو كان لها ضرورة لفصلها الله ﷻ ولبينها النبي ﷺ ، فكثير من التفاصيل في القصص القرآني من المبهمات والخوض فيها من القول على الله بغير علم ، وجهلها لا يضر في الإيمان ولا في العلم .

فجهلنا بالشجرة التي حرمت على آدم لا يضرنا ولا ينقص من علمنا ومعرفتنا ، وكذلك الطريقة التي وصل بها الشيطان لآدم لا تؤثر في إيماننا ، فالشيطان عدو لنا ، وأعطاه الله قدرة لدخول أجسامنا ليوسوس لنا ، وليمحص الله الناس .

والقصة أي قصة الحية والطاووس لم تثبت بحديث صحيح ، وهي قصة ساذجة وركيكة وتدل على جهل واضعها لم فيها من الأخطاء العقدية ، وجهل آدم وحواء الذي علم الأسماء كلها ، وذكاء إبليس ، وغفلة رضوان ، والسكر حتى يفقد العقل ، هذا كله غير مقبول ، فما سكت عنه فالأفضل السكوت عنه لقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ الإسراء

(١٢) خلقت عبادي حنفاء

قال أبو الفرج في تلبيس إبليس : فمتى سول للإنسان أمرا فينبغي أن يحذر منه أشد الحذر ، وليقل له حين أمره إياه بالسوء إنما تريد بها تأمر به نصحي ببلوغي شهوتي ، وكيف يتضح صواب النصح للغير لمن لا ينصح نفسه ؟ كيف أثق بنصيحة عدو؟ فانصرف فما فيّ لقولك منفذ ، فلا يبقى إلا أنه يستعين بالنفس لأنه يحث على هواها ، فليستحضر العقل إلى بيت الفكر في عواقب الذنب ، لعل مدد توفيق يبعث جند عزيمته فيهزم عسكر الهوى والنفس .

عَنْ عِيَاض بْن حَمَارٍ الْمُجَاشعىّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فى خُطْبَته « أَلاَ إِنَّ رَبِّى أَمَرَنى أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنى يَوْمى هَذَا كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلاَلٌ وَإِنِّى خَلَقْتُ عِبَادى حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دينهمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بى مَا لَمْ أُنْزِلْ به سُلْطَانًا ، وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلاَّ بَقَايَا منْ أَهْلِ الْكتَابِ وَقَالَ إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِىَ بكَ وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كتَابًا لاَ يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنى أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا فَقُلْتُ رَبِّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسى فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً قَالَ اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ. قَالَ وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلاَثَةٌ ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِى قُرْبَى وَمُسْلِمٍ وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ – قَالَ – وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ الضَّعِيفُ الَّذِى لاَ زَبْرَ لَهُ الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لاَ يَتْبَعُونَ أَهْلاً وَلاَ مَالاً وَالْخَائِنُ الَّذِى لاَ يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ وَإِنْ دَقَّ إِلاَّ خَانَهُ وَرَجُلٌ لاَ يُصْبِحُ وَلاَ يُمْسِى إِلاَّ وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ ». وَذَكَرَ الْبُخْلَ أَوِ الْكَذِبَ « وَالشِّنْظِيرُ الْفَحَّاشُ ». وَلَمْ يَذْكُرْ أَبُو غَسَّانَ فى حَدِيثِه « وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ ». صحيح مسلم

يثلغ : يكسر ، اجتال : أضل ، الزبر : العقل ، الشنظير : سيئ الخلق ، نغزك : نعينك

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]

في صحيح البخاري : قَالَ ابْنُ شِهَابٍ يُصَلَّى عَلَى كُلِّ مَوْلُودٍ مُتَوَفًّى وَإِنْ كَانَ لِغَيَّةٍ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ وُلِدَ عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ يَدَّعِي أَبَوَاهُ الْإِسْلَامَ أَوْ أَبُوهُ خَاصَّةً وَإِنْ كَانَتْ أُمُّهُ عَلَى غَيْرِ الْإِسْلَامِ إِذَا اسْتَهَلَّ صَارِخًا صُلِّيَ عَلَيْهِ وَلَا يُصَلَّى عَلَى مَنْ لَا يَسْتَهِلُّ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ سِقْطٌ فَإِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يُحَدِّثُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ { فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا } الْآيَةَ .

وفي رواية أخرى : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ كَمَا تُنْتِجُونَ الْبَهِيمَةَ هَلْ تَجِدُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا

ورواية صحيح مسلم : عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ هَذَا مَا حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ- فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ - « مَنْ يُولَدْ يُولَدْ عَلَى هَذِهِ الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ كَمَا تَنْتِجُونَ الإِبِلَ فَهَلْ تَجِدُونَ فِيهَا جَدْعَاءَ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا ». قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَرَأَيْتَ مَنْ يَمُوتُ صَغِيرًا قَالَ « اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ ».

ورواية ثانية في صحيح مسلم : « مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلاَّ وَهُوَ عَلَى الْمِلَّةِ ». وَفِى رِوَايَةِ أَبِى بَكْرٍ عَنْ أَبِى مُعَاوِيَةَ « إِلاَّ عَلَى هَذِهِ الْمِلَّةِ حَتَّى يُبَيِّنَ عَنْهُ لِسَانُهُ ». وَفِى رِوَايَةِ أَبِى كُرَيْبٍ عَنْ أَبِى مُعَاوِيَةَ « لَيْسَ مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلاَّ عَلَى هَذِهِ الْفِطْرَةِ حَتَّى يُعَبِّرَ عَنْهُ لِسَانُهُ ».

قال ابن القيم في : شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل : وقد اختلف في معنى هذه الفطرة والمراد بها فقال القاضي أبو يعلي في معنى الفطرة: "ها هنا روايتان عن أحمد أحدهما الإقرار بمعرفة الله تعالى وهو العهد الذي أخذه الله عليهم في أصلاب آبائهم حتى مسح ظهر آدم فأخرج من ذريته إلى يوم القيامة أمثال الذر وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى فليس أحد إلا وهو يقر بأن له صانعا ومدبرا وإن سماه بغير اسمه قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} فكل مولود يولد على ذلك الإقرار الأول" قال وليس الفطرة هنا الإسلام لوجهين أحدهما أن معنى الفطرة ابتداء الخلقة ومنه قوله تعالى: { فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْض } أي مبتدئها وإذ كانت الفطرة هي الابتداء وجب أن تكون تلك هي التي وقعت لأول الخليقة وجرت في فطرة المعقول وهو استخراجهم ذرية لأن تلك حالة ابتدائهم ؛ ولأنها لو كانت الفطرة هنا الإسلام لوجب إذا ولد بين أبوين كافرين أن لا يرثهما ولا يرثانه ما دام طفلا لأنه مسلم واختلاف الدين يمنع الإرث ولوجب أن لا يصح استرقاقه ولا يحكم بإسلامه بإسلام أبيه لأنه مسلم" قال وهذا تأويل ابن قتيبة

والرواية الثانية: "الفطرة هنا ابتداء خلقه في بطن أمه " أومأ أحمد إلى هذا في رواية على بن سعيد وقد سأله عن قوله كل مولود يولد على الفطرة فقال : على الشقاوة والسعادة .

ونسب إليه ابن تيمية قوله عن الفطرة : الدين والإسلام .

ولهذا قالوا لمالك بن أنس أن القدرية يحتجون علينا بأول الحديث . فقال احتجوا عليهم بآخره وهو قول (الله أعلم بما كانوا عاملين) .

وقد ثبت في صحيح مسلم عن عياض بن حماد عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى أنه قال خلقت عبادي حنفاء كلهم فاختالتهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا ، وهذا صريح في أنه خلقهم على الحنيفية وأن الشياطين اختالتهم بعد ذلك وكذلك في حديث الأسود بن سريع الذي رواه احمد وغيره قال بعث النبي ﷺ سرية فأفضى بهم القتل إلى الذرية فقال لهم النبي ﷺ ما حملكم على قتل الذرية قالوا يا رسول الله أليسوا أولاد المشركين قال أوليس خياركم أولاد المشركين ثم قام النبي ﷺ خطيبا فقال ألا إن كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فخطبته لهم بهذا الحديث عقيب نهيه لهم عن قتل أولاد المشركين وقوله لهم أو ليس خياركم أولاد المشركين نص أنه أراد بهم ولدوا غير كفار ثم الكفر طرأ بعد ذلك

وفي الصحيحين من رواية الأعمش ما من مولود إلا وهو على الملة وفي رواية ابن معاوية عنه إلا على هذه الملة حتى يعرب عنه لسانه فهذا صريح بأنه يولد على ملة الإسلام كما فسره ابن شهاب راوي الحديث واستشهاد أبي هريرة بالآية يدل على ذلك .

والحنيف في كلام العرب المستقيم المخلص ولا استقامة أكثر من الإسلام .

عن ابن زيد قال فطرة الله التي فطر الناس عليها قال : الإسلام منذ خلقهم الله من آدم جميعا يقرون بذلك ، وعن مجاهد فطرة الله قال : الدين الإسلام ، ثم روى عن يزيد بن أبي مريم قال عمر لمعاذ بن جبل فقال ما قوام هذه الأمة قال معاذ ثلاث وهن المنجيات الإخلاص وهو الفطرة فطرة الله التي فطر الناس عليها ، والصلاة وهي الملة ، والطاعة وهي العصمة فقال عمر صدقت لا تبديل لخلق الله يقول : لا تغيير لدين الله أي لا يصلح ذلك ولا ينبغي أن يفعل قال ابن أبي نجيح عن مجاهد لا تبديل لخلق الله أي لدين الله .

قال أبو عمر بن عبد البر اختلف العلماء في الفطرة المذكورة في هذا الحديث اختلافا كثيرا وكذلك اختلفوا في الأطفال وحكمهم في الدنيا والآخرة فسئل عنه ابن المبارك فقال تفسيره آخر الحديث هو قوله الله أعلم بما كانوا عاملين .

الأسود بن سريع قال قال رسول الله ﷺ : ما بال أقوام بلغوا في القتل حتى قتلوا الولدان فقال رجل أو ليس إنما هم أولاد المشركين فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم أو ليس خياركم أولاد المشركين أنه ليس من مولود يولد إلا على الفطرة حتى يعبر عنه لسانه ويهوده أبواه أو ينصرانه ... قال وروى عوف الأعرابي عن سمرة بن جندب عن النبي ﷺ : قال كل مولود يولد على الفطرة فناداه الناس يا رسول الله وأولاد المشركين قال وأولاد المشركين

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية بعدما ناقش أقوال بعض العلماء : ولكن كون الطفل يتبع أباه في الدين في الأحكام الدنيوية أمر ما زال مشروعا وما زال الأطفال تبعا لأبويهم في الأمور الدنيوية والحديث لم يقصد بيان هذه الأحكام وإنما قصد بيان ما ولد عليه الأطفال من الفطرة .

ومما ينبغي أن يعلم أنه إذا قيل أنه ولد على الفطرة أو على الإسلام أو على هذه الملة أو خلق حنيفا فليس المراد به أنه حين خرج من بطن أمه يعلم هذا الدين ويريده فإن الله يقول { والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا } ولكن فطرته موجبة مقتضية لدين الإسلام لمعرفته ومحبته فنفس الفطرة تستلزم الإقرار بخالقه ومحبته وإخلاص الدين له وموجبات الفطرة ومقتضياتها

تحصل شيئا بعد شيء بحسب كمال الفطرة إذا سلمت من المعارض .

وقال آخرون يعني قوله كل مولود يولد على الفطرة أن الله فطرهم على الإنكار والمعرفة وعلى الكفر والإيمان. وسئل حماد بن سلمة عن قول النبي ﷺ كل مولود يولد على الفطرة فقال هذا عندنا حيث أخذ العهد عليهم في أصلاب آبائهم ، قال ابن قتيبة يريد حين مسح ظهر آدم فاستخرج منه ذريته إلى يوم القيامة أمثال الذر وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى .

قد علم بالاضطرار من شرع الرسول أن أولاد الكفار تبع لآبائهم في أحكام الدنيا وأن أولادهم لا ينزعون منهم إذا كانوا ذمة فإن كانوا محاربين استرقوا ولم يتنازع المسلمون في ذلك لكن تنازعوا في الطفل إذا مات أبواه أو احدهما هل يحكم بإسلامه وعن أحمد في ذلك ثلاث روايات إحداهن يحكم بإسلامه بموت الأبوين أو أحدهما لقوله فأبواه يهودانه وينصرانه وهذا ليس معه أبواه وهو على الفطرة وهي الإسلام لما تقدم فيكون مسلما والثانية لا يحكم بإسلامه بذلك وهذا قول الجمهور قال شيخنا وهذا القول هو الصواب بل هو إجماع قديم من السلف والخلف بل هو ثابت بالسنة التي لا ريب فيها فقد علم أن أهل الذمة كانوا على عهد رسول الله ﷺ بالمدينة ووادي القرى وخيبر ونجران واليمن وغير ذلك وكان فيهم من يموت وله ولد صغير ولم يحكم النبي ﷺ بإسلام أهل الذمة ولا حلفاؤه وأهل الذمة كانوا في زمانهم طبق الأرض بالشام ومصر والعراق وخراسان وفيهم أيتام هم عدد كثير ولم يحكموا بإسلام واحد منهم .

والرواية الثالثة أن كفله أهل دينه فهو باق على أبويه وإن كلفه المسلمون فهو مسلم .

قال أبو عمر وقال آخرون في معنى قول النبي ﷺ كل مولود يولد على الفطرة لم يرد رسول الله ﷺ بذكر الفطرة ها هنا كفرا ولا إيمانا ولا معرفة ولا إنكارا وإنما أراد أن كل مولود يولد على السلامة خلقة وطبعا وبنية ليس معها كفر ولا إيمان ولا معرفة ولا إنكار ثم يعتقد الكفر أو الإيمان بعد البلوغ إذا ميز ..

مسألة أولاد المشركين كما جاء في الفتح : أَحَدهَا أَنَّهُمْ فِي مَشِيئَة اللَّه تَعَالَى ، وَهُوَ مَنْقُول عَنْ الْحَمَّادَيْنِ وَابْن الْمُبَارَك وَإِسْحَاق ، وَنَقَلَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي " الاعْتِقَاد " عَنْ الشَّافِعِيّ فِي حَقّ أَوْلَاد

الْكُفَّار خَاصَّة ، قَالَ ابْن عَبْد الْبَرّ : وَهُوَ مُقْتَضَى صَنِيع مَالك ، وَلَيْسَ عنْده في هَذه الْمَسْأَلَة شَيْء مَنْصُوص ، إلَّا أَنَّ أَصْحَابه صَرَّحُوا بأَنَّ أَطْفَال الْمُسْلمينَ في الْجَنَّة وَأَطْفَال الْكُفَّار خَاصَّة في الْمَشيئَة وَالْحُجَّة فيه حَديث " اللهَّ أَعْلَم بِمَا كَانُوا عَاملينَ " .

ثَانيهَا أَنَّهُمْ تَبَع لآبَائهمْ ، فَأَوْلَاد الْمُسْلمينَ في الْجَنَّة وَأَوْلَاد الْكُفَّار في النَّار ، وَحَكَاهُ ابْن حَزْم عَنْ الْأَزَارقَة منْ الْخَوَارج ، وَاحْتَجُّوا بقَوْله تَعَالَى (رَبّ لَا تَذَر عَلَى الْأَرْض منْ الْكَافرينَ دَيَّارًا) وَتَعَقَّبَهُ بأَنَّ الْمُرَاد قَوْم نُوح خَاصَّة ، وَإِنَّمَا دَعَا بذَلكَ لَمَّا أَوْحَى اللهَّ إلَيْه (أَنَّهُ لَنْ يُؤْمن منْ قَوْمك إلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ) وَأَمَّا حَديث " هُمْ منْ آبَائهمْ أَوْ منْهُمْ " فَذَاكَ وَرَدَ في حُكْم الْحَرْبِيّ ، وَرَوَى أَحْمَد منْ حَديث عَائشَة " سَأَلْت رَسُول اللهَّ صَلَّى اللهَّ عَلَيْه وَسَلَّمَ عَنْ ولْدَان الْمُسْلمينَ ، قَالَ : في الْجَنَّة . وَعَنْ أَوْلَاد الْمُشْركينَ ، قَالَ : في النَّار فَقُلْت يَا رَسُول اللهَّ لَمْ يُدْركُوا الْأَعْمَال ، قَالَ : رَبّك أَعْلَم بِمَا كَانُوا عَاملينَ ، لَوْ شئْت أَسْمَعْتُك تَضَاغيهمْ في النَّار " وَهُوَ حَديث ضَعيف جدًّا لأَنَّ في إسْنَاده أَبَا عُقَيْل مَوْلَى بُهَيَّة وَهُوَ مَتْرُوك .

ثَالثهَا أَنَّهُمْ يَكُونُونَ في بَرْزَخ بَيْن الْجَنَّة وَالنَّار ، لأَنَّهُمْ لَمْ يَعْمَلُوا حَسَنَات يَدْخُلُونَ بهَا الْجَنَّة ، وَلَا سَيِّئَات يَدْخُلُونَ بهَا النَّار .

رَابعهَا خَدَم أَهْل الْجَنَّة ، وَفيه حَديث عَنْ أَنَس ضَعيف أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالسيّ وَأَبُو يَعْلَى ، وَللطَّبَرَانِيّ وَالْبَزَّار منْ حَديث سَمُرَة مَرْفُوعًا " أَوْلَاد الْمُشْركينَ خَدَم أَهْل الْجَنَّة " وَإسْنَاده ضَعيف .

خَامسهَا أَنَّهُمْ يَصيرُونَ تُرَابًا ، رُويَ عَنْ ثُمَامَة بْن أَشْرَس .

سَادسهَا هُمْ في النَّار حَكَاهُ عيَاض عَنْ أَحْمَد ، وَغَلَّطَهُ ابْن تَيْمية بأَنَّهُ قَوْل لبَعْض أَصْحَابه وَلَا يُحْفَظ عَنْ الْإمَام أَصْلًا .

سَابعهَا أَنَّهُمْ يُمْتَحَنُونَ في الْآخرَة بأَنْ تُرْفَع لَهُمْ نَار ، فَمَنْ دَخَلَهَا كَانَتْ عَلَيْه بَرْدًا وَسَلَامًا ، وَمَنْ أَبَى عُذّبَ ، أَخْرَجَهُ الْبَزَّار منْ حَديث أَنَس وَأَبي سَعيد ، وَأَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ منْ حَديث مُعَاذ بْن جَبَل . وَقَدْ صَحَّتْ مَسْأَلَة الامْتحَان في حَقّ الْمَجْنُون وَمَنْ مَاتَ في الْفَتْرَة منْ طُرُق صَحيحَة ،

وَحَكَى الْبَيْهَقِيُّ فِي " كِتَاب الِاعْتِقَاد " أَنَّهُ الْمَذْهَب الصَّحِيح ، وَتُعُقِّبَ بِأَنَّ الْآخِرَة لَيْسَتْ دَارَ تَكْلِيف فَلَا عَمَل فِيهَا وَلَا ابْتِلَاء ، وَأُجِيبَ بِأَنَّ ذَلِكَ بَعْد أَنْ يَقَع الِاسْتِقْرَار فِي الْجَنَّة أَوْ النَّار ، وَأَمَّا فِي عَرَصَات الْقِيَامَة فَلَا مَانِع مِنْ ذَلِكَ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى (يَوْم يُكْشَف عَنْ سَاق وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُود فَلَا يَسْتَطِيعُونَ) وَفِي الصَّحِيحَيْنِ " أَنَّ النَّاس يُؤْمَرُونَ بِالسُّجُودِ ، فَيَصِير ظَهْر الْمُنَافِق طَبَقًا ، فَلَا يَسْتَطِيع أَنْ يَسْجُد " .

ثَامِنهَا أَنَّهُمْ فِي الْجَنَّة ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْل فِيهِ فِي " بَاب فَضْل مَنْ مَاتَ لَهُ وَلَد " قَالَ النَّوَوِيّ : وَهُوَ الْمَذْهَب الصَّحِيح الْمُخْتَار الَّذِي صَارَ إِلَيْهِ الْمُحَقِّقُونَ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَث رَسُولًا) وَإِذَا كَانَ لَا يُعَذَّب الْعَاقِل لِكَوْنِهِ لَمْ تَبْلُغهُ الدَّعْوَة فَلَأَنْ لَا يُعَذَّب غَيْر الْعَاقِل مِنْ بَاب الْأَوْلَى ، وَلِحَدِيثِ سَمُرَة الْمَذْكُور فِي هَذَا الْبَاب ، وَلِحَدِيثِ عَمَّة خَنْسَاء الْمُتَقَدِّم ، وَلِحَدِيثِ عَائِشَة الْآتِي قَرِيبًا .

تَاسِعهَا الْوَقْف .

عَاشِرهَا الْإِمْسَاك وَفِي الْفَرْق بَيْنهمَا دِقَّة ثُمَّ أَوْرَدَ الْمُصَنِّف فِي الْبَاب ثَلَاثَة أَحَادِيث : أَحَدهَا حَدِيث ابْن عَبَّاس وَأَبِي هُرَيْرَة " سُئِلَ عَنْ أَوْلَاد الْمُشْرِكِينَ " وَفِي رِوَايَة ابْن عَبَّاس " ذَرَارِيّ الْمُشْرِكِينَ " وَلَمْ أَقِف فِي شَيْء مِنْ الطُّرُق عَلَى تَسْمِيَة هَذَا السَّائِل ، لَكِنْ عِنْد أَحْمَد وَأَبِي دَاوُدَ عَنْ عَائِشَة مَا يَحْتَمِل أَنْ تَكُون هِيَ السَّائِلَة ، فَأَخْرَجَا مِنْ طَرِيق عَبْد اللَّهِ بْن أَبِي قَيْس عَنْهَا قَالَتْ " قُلْت : يَا رَسُول اللَّه ذَرَارِيّ الْمُسْلِمِينَ ؟ قَالَ : مَعَ آبَائِهِمْ . قُلْت : يَا رَسُول اللَّه بِلَا عَمَل ؟ قَالَ : اللَّه أَعْلَم بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ " الْحَدِيث . وَرَوَى عَبْد الرَّزَّاق مِنْ طَرِيق أَبِي مُعَاذ عَنْ الزُّهْرِيّ عَنْ عُرْوَة عَنْ عَائِشَة قَالَتْ " سَأَلَتْ خَدِيجَة النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَوْلَاد الْمُشْرِكِينَ ، فَقَالَ : هُمْ مَعَ آبَائِهِمْ ، ثُمَّ سَأَلَتْهُ بَعْد ذَلِكَ فَقَالَ : اللَّه أَعْلَم بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ ، ثُمَّ سَأَلَتْهُ بَعْدَمَا اسْتَحْكَمَ الْإِسْلَام فَنَزَلَ (وَلَا تَزِر وَازِرَة وِزْر أُخْرَى) قَالَ : هُمْ عَلَى الْفِطْرَة ، أَوْ قَالَ : فِي الْجَنَّة " وَأَبُو مُعَاذ هُوَ سُلَيْمَان بْن أَرْقَم وَهُوَ ضَعِيف ، وَلَوْ صَحَّ هَذَا لَكَانَ قَاطِعًا لِلنِّزَاعِ رَافِعًا لِكَثِيرٍ مِنْ الْإِشْكَال الْمُتَقَدِّم .وَالْحَقّ أَنَّهُ إِخْبَار مِنْ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا وَقَعَ فِي نَفْس الْأَمْر ، وَلَمْ يُرِدْ بِهِ إِثْبَات أَحْكَام

الدُّنْيَا . وَأَشْهَرُ الْأَقْوَال أَنَّ الْمُرَاد بِالْفِطْرَة الْإِسْلَام ، قَالَ ابْن عَبْد الْبَرّ : وَهُوَ الْمَعْرُوف عِنْد عَامَّة السَّلَف . وَأَجْمَعَ أَهْل الْعِلْم بِالتَّأْوِيلِ عَلَى أَنَّ الْمُرَاد بِقَوْلِهِ تَعَالَى (فِطْرَة اللَّه الَّتِي فَطَرَ النَّاس عَلَيْهَا) الْإِسْلَام ، وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِ أَبِي هُرَيْرَة فِي آخِر حَدِيث الْبَاب : اِقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ (فِطْرَة اللَّه الَّتِي فَطَرَ النَّاس عَلَيْهَا) وَبِحَدِيثِ عِيَاض بْن حِمَار عَنْ النَّبِيّ ﷺ فِيمَا يَرْوِيه عَنْ رَبّه " إِنِّي خَلَقْت عِبَادِي حُنَفَاء كُلّهمْ ، فَاجْتَالَتْهُمْ الشَّيَاطِين عَنْ دِينهمْ "

(١٣) الرسل والأنبياء

كثر البشر والخلق من ذرية آدم ، وظهر الفساد والقتل والشر فيهم ، صار بينهم الخير والشر والإيمان والكفر ، ونشطت الشياطين في الإفساد والإضلال ، فلما برز الكفر والفسوق والعصيان قضت حكمة الله بإرسال الأنبياء والرسل لتذكير الذرية والعودة بها إلى الصراط السوي المستقيم والعودة إلى عهد آدم ودين الله .

يقول ابن القيم في زاد المعاد : " وَمِنْ هَاهُنَا تَعْلَمُ اضْطِرَارَ الْعِبَادِ فَوْقَ كُلِّ ضَرُورَةٍ إِلَى مَعْرِفَةِ الرّسُولِ وَمَا جَاءَ بِهِ وَتَصْدِيقِهِ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ وَطَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَ فَإِنّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى السّعَادَةِ وَالْفَلَاحِ لَا فِي الدّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ إِلّا عَلَى أَيْدِي الرّسُلِ وَلَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَةِ الطّيّبِ وَالْخَبِيثِ عَلَى التّفْصِيلِ إِلّا مِنْ جِهَتِهِمْ وَلَا يُنَالُ رِضَا اللهِّ الْبَتّةَ إِلّا عَلَى أَيْدِيهِمْ فَالطّيّبُ مِنْ الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ وَالْأَخْلَاقِ لَيْسَ إِلّا هَدْيَهُمْ وَمَا جَاءُوا بِهِ ، فَهُمْ الْمِيزَانُ الرّاجِحُ الّذِي عَلَى أَقْوَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ تُوزَنُ الْأَقْوَالُ وَالْأَخْلَاقُ وَالْأَعْمَالُ وبِمُتَابَعَتِهِمْ يَتَمَيّزُ أَهْلُ الْهُدَى مِنْ أَهْلِ الضّلَالِ فَالضّرُورَةُ إِلَيْهِمْ أَعْظَمُ مِنْ ضَرُورَةِ الْبَدَنِ إِلَى رُوحِهِ وَالْعَيْنِ إِلَى نُورِهَا وَالرّوحِ إِلَى حَيَاتِهَا فأي ضرورة وحاجة فرضت فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير "

وقال ابن تيمية في النبوات : "والرسالة ضرورية للعباد، لا بدّ لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كلّ شيء ، والرسالة روح العالم، ونوره، وحياته. فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور، والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة ، وكذلك العبد ما لم تُشرق في قلبه شمس الرسالة، ويناله من حياتها وروحها، فهو في ظلمة، وهو من الأموات. قال تعالى:{ أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا } [الأنعام، ١٢٢]، فهذا وصف المؤمن، كان ميتاً في ظلمة الجهل، فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نوراً يمشي به في الناس ، وأما الكافر فميّت القلب في الظلمات".

والرسالة ضرورية في إصلاح العبد في معاشه ومعاده، فكما أنه لا صلاح له في آخرته إلا بإتباع

الرسالة، فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلا بإتباع الرسالة؛ فإنّ الإنسان مضطر إلى الشرع؛ فإنه بين حركتين؛ حركة يجلب بها ما ينفعه، وحركة يدفع بها ما يضرّه ، والشرع هو النور الذي يُبيّن ما ينفعه وما يضرّه. والشرع نور الله في أرضه، وعدله بين عباده، وحصنه الذي من دخله كان آمناً.

وقال في مقام آخر : فَإِنَّ اللهَّ سُبْحَانَهُ جَعَلَ الرُّسُلَ وَسَائطَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عبَاده في تَعْريفهمْ مَا يَنْفَعُهُمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ وَتَكْميلُ مَا يُصْلحُهُمْ في مَعَاشهمْ وَمُعَادهمْ وَبُعثُوا جَميعًا بالدَّعْوَة إلَى اللهَّ وَتَعْريف الطَّريق الْموصل إلَيْه وَبَيَان حَالهمْ بَعْدَ الْوُصُول إلَيْه .

وقال ابن القيم في " مفتاح دار السعادة " : حاجة الناس إلى الشريعة ضرورية فوق حاجتهم إلى كل شيء ولا نسبة لحاجتهم إلى علم الطب إليها ألا ترى أن أكثر العالم يعيشون بغير طبيب ولا يكون الطبيب إلا في بعض المدن الجامعة ... وقد فطر الله بني آدم على تناول ما ينفعهم واجتناب ما يضرهم .

وأما الشريعة فمبناها على تعريف مواقع رضى الله وسخطه في حركات العباد الاختيارية فمبناها على الوحي المحض .

فليس الناس قط إلى شيء أحوج منهم إلى معرفة ما جاء به الرسول ﷺ والقيام به والدعوة إليه والصبر عليه وجهاد من خرج عنه حتى يرجع إليه .

العقل لا يكفي وحده للإيمان فلابد من الرسول والنبي .

وظائف الرّسّل ومهمّاتهم

احدها: البلاغ قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ المائدة ، والبلاغ يحتاج إلى الشجاعة وعدم خشية الناس ، والبلاغ يكون بتلاوة النصوص التي أوحاها الله من غير نقصان ولا زيادة ، ،ومن البلاغ توضيح ما أنزل الله قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤ ﴾ والبيان يكون بالقول والفعل

ثانيها : الدّعوة إلى الله ﷻ ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ النحل ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ الأنبياء

ثالثها : التبشير والإنذار قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ الكهف

رابعها : إصلاح النفوس وتزكيتها قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢﴾ ﴾ الجمعة

خامسها : تقويم الفكر المنحرف والعقائد الزائفة : كان الناس في أول الخلق على الفطرة السليمة يعبدون الله وحده ، ولا يشركون به أحداً ، فلمّا تفرقوا واختلفوا أرسل الله الرسل ليعيدوا الناس إلى جادة الصواب ، وينتشلوهم من الضلال ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ البقرة

سادسها: إقامة الحجّة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾ ﴾ النساء قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ ﴾ الإسراء قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴿٢٤﴾ ﴾ فاطر

سابعها : سياسة الأمة ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ ﴾ ص اعلم النبوة منحة إلهية ، لا تنال بمجرد التشهي والرغبة ، ولا تنال بالمجاهدة والمعاناة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ الأنعام والنبوة تحتاج إلى دليل لإثباتها ، وقد يكون الدليل معجزة وآية يجريها الله تعالى على يدي النبي ، وقد تكون بشارة الأنبياء السابقين بالأنبياء اللاحقين ، وقد تكون أحوال النبي أو دعوتهم ، وقد تكون بنصر الله تعالى لهم .

(١٤) هل إبليس من الملائكة؟

قال أبو الوفا علي بن عقيل في كتاب الإرشاد : إن قيل لك إبليس كان من الملائكة أم لا ؟ فقال من الملائكة خلافا لبعض أصحابنا لأن الباري سبحانه قال قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴿٣٤﴾ ﴾البقرة والاستثناء لا يكون من غير الجنس هذا هو المشهور في لغة العرب .. وقال الذي يدل على صحة هذا وأنه من الملائكة .. إنه لو لم يكن منهم لما حسن لومه وسبه بامتناعه لأن له أن يقول أمرت الملائكة .

وقد كان مناظرا على ما هو أقل من هذا ، فلما عدل إلى قوله﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾الأعراف علم أنه انصرف الأمر إليه.. فإن قالوا فقد خصه باسم فقال ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾الكهف قيل الجن نوع من الملائكة يقال لهم الجن ، كما يقال الكروبيون والروحانيون والخزنة والزبانية وهم كلهم جنس واحد يشتمل على أنواع كالآدميين زنج عرب وعجم . "اهـ

وقال أبو يعلى رأيت في تعليقات أبي إسحاق بن شاقلا يقول : سمعت الشيخ – يعني أبا بكر – وقد سئل عن إبليس أمن الملائكة ؟ فقال : أمر بالسجود فلولا أن إبليس منهم ما كان مأمورا قال أبو إسحاق فقلت :اجمعنا أن الملائكة لا تتناكح ولا لها ذرية ، وقد كان لإبليس ذرية ، دل على أنه من غيرها ، وظاهر كلام أبي بكر عبد العزيز أنه من جملة الملائكة .

وهذا قول ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن المسيب، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: كان إبليس اسمه عزازيل، وكان من أشرف الملائكة من ذوي الأجنحة الأربعة، ثم أبلس بعد

وقال صالح مولى التوأمة عن ابن عباس: أن من الملائكة قبيلاً يقال لهم الجن: وكان إبليس منهم، وكان يسوس ما بين السماء والأرض، فعصى، فمسخه الله شيطاناً رجيماً، رواه ابن جرير

قال قتادة عن سعد بن المسيب: كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا .

وقال ابن جرير: عن الحسن، قال: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط ، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس، وهذا الإسناد صحيح عن الحسن، وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن

أسلم سواء.

وفي تفسير الطبري : عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ : جعل إبليس على مُلك سماء الدنيا، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم "الجنّ"، وإنما سُمُّوا الجن لأنهم خُزَّان الجنة. وكان إبليس مع مُلكه خازنًا .

وفي تفسير ابن كثير : عن ابن عباس، قال: كان إبليس من حي من أحياء الملائكة يقال لهم الجن، خلقوا من نار السموم من بين الملائكة، وكان اسمه الحارث، وكان خازناً من خزان الجنة، قال: وخلقت الملائكة كلهم من نور غير هذا الحي، قال: وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار وهو لسان النار الذي يكون فيه طرفها إذا ألهبت، قال: وخلق الإنسان من طين، فأول من سكن الأرض الجن فأفسدوا فيها، وسفكوا الدماء، وقتل بعضهم بعضاً، قال: فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة وهم هذا الحي الذي يقال لهم الجن فقتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال فلما فعل إبليس ذلك اغتر في نفسه، فقال: قد صنعت شيئاً لم يصنعه أحد، قال: فاطلع الله على ذلك من قلبه ولم تطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه .

كل هذه الإخبار عن ملائكية إبليس مستقاة والله أعلم عن أهل الكتاب فهي من الإسرائيليات والإسرائيليات لا توثق بها العقائد إلا إذا ثبتت في الكتاب والسنة الصحيحة ، فانتبه لهذا .

وعن ابن شهاب أنه سئل عن إبليس قال : إبليس من الجن وهو أبو الجن كما أن آدم من الناس وهو أبو الناس والله أعلم .

وقال شهر بن حوشب: كان إبليس من الجن الذين طردتهم الملائكة فأسره بعض الملائكة فذهب به إلى السماء، رواه ابن جرير

عن سعد بن مسعود، قال: كانت الملائكة تقاتل الجن فسبي إبليس وكان صغيراً فكان مع الملائكة يتعبد معها فلما أمروا بالسجود لآدم سجدوا، فأبى إبليس، فلذلك قال تعالى:

{ إلاَّ إبْلِيسَ كَانَ منَ الجْنّ}

في تفسير روح المعاني : قال الحسن فيما أخرجه عنه ابن المنذر وابن أبي حاتم قاتل الله تعالى أقواما زعموا أن إبليس من الملائكة ، والله تعالى يقول كان من الجن ، وأخرج عنه ابن جرير وابن الأنباري في كتاب الأضداد وأبو الشيخ في العظمة أنه قال : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين وإنه لأصل الجن كما إن آدم عليه السلام لأصل الإنس .

وذكر في تفسير الطبري : عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: بعث ربّ العزّة تبارك وتعالى إبليس، فأخذ من أديم الأرض، من عذبها وملحها، فخلق منه آدم، فكل شيء خُلق من عذبها فهو صائر إلى السعادة وإن كان ابن كافرين، وكلّ شيء خَلقه من ملحها فهو صائر إلى الشقاوة وإن كان ابن نبيين؛ ومن ثم قال إبليس(أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا): أي هذه الطينة أنا جئت بها، ومن ثم سُمّي آدم. لأنه خُلق من أديم الأرض.

الصحيح والله أعلم أن إبليس من الجن

١ – لظاهر الآية في الكهف

٢– ثبوت أن له ذرية

٣– جواز أن يكون الاستثناء منقطعا في النحو واللغة .

٤–معصيته لله والملائكة لا يعصون البتة .

٥– اعترافه أنه خلق من النار .

٦– حسده لآدم وتكبره ولا تتصف الملائكة بذلك .

٧– طلبه الإمهال من الله لتيقنه بالموت وأن الجن يموتون .

٨– لم ينقل نقلا صحيحا عن النبي ﷺ أن الجن طائفة من الملائكة .

(١٥) كيف علم إبليس بتضليله لبني آدم ؟

سؤال كيف علم إبليس بأنه سوف يضل بني آدم ؟ ومن أين علم بالعواقب حتى قال ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ ﴾ النساء وقال في الأعراف قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ الإسراء

الجواب في زاد المسير لابن الجوزي :

أحدها أنه ظن ذلك فتحقق ظنه وذلك قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ سبأ قاله الحسن وابن زيد ، وفي سبب ذلك الظن قولان

أحدهما أنه لما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ص علم أنه ينال ما يريد . والثاني أنه لما استزل آدم قال ذرية هذا أضعف منه .

والثاني أن المعنى لأحرضن ولأجتهدن في ذلك لا أنه كان يعلم الغيب قاله ابن الأنباري

والثالث أن من الجائز أن يكون علم من جهة الملائكة بخبر من الله تعالى أن أكثر الخلق لا يشكرون ذكره الماوردي

فان قيل فلم اقتصر على بعضهم فقال ﴿ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ ﴾ النساء وقال ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ وقال ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾

فعنه ثلاثة أجوبة

أحدها أنه يجوز أن يكون علم مآل الخلق من جهة الملائكة كما بيننا

والثاني أنه لم ينل من آدم كل ما يريد طمع في بعض أولاده وأيس من بعض

والثالث أنه لما عاين الجنة والنار علم أنهما خلقتا لمن يسكنهما فأشار بالنصيب المفروض إلى ساكني النار .

(١٦) الروح

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾الإسراء ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ص قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾الحجر

عَنْ عَائشَةَ رَضيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ سَمعْتُ النَّبيَّ ﷺ يَقُولُ الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ منْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ منْهَا اخْتَلَفَ . البخاري

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهَّ -ﷺ- قَالَ « الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ منْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ منْهَا اخْتَلَفَ ». مسلم

عَنْ عَبْد اللهَّ قَالَ حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهَّ – ﷺ - وَهُوَ الصَّادقُ الْمَصْدُوقُ « إنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فى بَطْن أُمِّه أَرْبَعينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ فى ذَلكَ عَلَقَةً مثْلَ ذَلكَ ثُمَّ يَكُونُ فى ذَلكَ مُضْغَةً مثْلَ ذَلكَ ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فيه الرُّوحَ وَيُؤْمَرُ بأَرْبَع كَلمَاتٍ بكَتْب رزْقه وَأَجَله وَعَمَله وَشَقىٌّ أَوْ سَعيدٌ فَوَالَّذى لاَ إلَهَ غَيْرُهُ إنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بعَمَل أَهْل الْجَنَّة حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إلاَّ ذرَاعٌ فَيَسْبقُ عَلَيْه الْكتَابُ فَيَعْمَلُ بعَمَل أَهْل النَّار فَيَدْخُلُهَا وَإنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بعَمَل أَهْل النَّار حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إلاَّ ذرَاعٌ فَيَسْبقُ عَلَيْه الْكتَابُ فَيَعْمَلُ بعَمَل أَهْل الْجَنَّة فَيَدْخُلُهَا ». مسلم

عَنْ عَبْد اللهَّ ﷺ قَالَ بَيْنَا أَنَا مَعَ النَّبيِّ ﷺ في حَرْثٍ وَهُوَ مُتَّكئٌ عَلَى عَسيبٍ إذْ مَرَّ الْيَهُودُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لبَعْضٍ سَلُوهُ عَنْ الرُّوح فَقَالَ مَا رَأْيُكُمْ إلَيْه وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا يَسْتَقْبلُكُمْ بشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ فَقَالُوا سَلُوهُ فَسَأَلُوهُ عَنْ الرُّوح فَأَمْسَكَ النَّبيُّ ﷺ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهمْ شَيْئًا فَعَلمْتُ أَنَّهُ يُوحَى إلَيْه فَقُمْتُ مَقَامي فَلَمَّا نَزَلَ الْوَحْيُ قَالَ { وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوح قُلْ الرُّوحُ منْ أَمْر رَبِّي وَمَا أُوتيتُمْ منْ الْعلْم إلَّا قَليلًا } البخاري

خلق الروح

قال شيخ الإسلام ابن القيم في كتابه " الروح " : والذي يدل على خلقها وجوه :

الوجه الأول قول الله تَعَالَىٰ:﴿ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴿١٦﴾ ﴾الرعد... فهو سبحانه بذاته وصفاته الخالق وما سواه مخلوق ومعلوم قطعا أن الروح ليست هي الله ولا صفة من صفاته ، وإنما هي مصنوع من مصنوعاته ، فوقوع الخلق عليها كوقوعه على الملائكة والجن والإنس .

الوجه الثاني قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٩﴾ ﴾مريم وهذا الخطاب لروحه وبدنه ليس لبدنه فقط فإن البدن وحده لا يفهم ولا يخاطب ولا يعقل وإنما الذي يفهم ويعقل ويخاطب هو الروح .

الوجه الثالث قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾الصافات

الوجه الرابع قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾ الأعراف وهذا الإخبار إنما يتناول أرواحنا وأجسادنا كما يقوله الجمهور ، وإما أن يكون واقعا على الأرواح قبل خلق الأجساد كما يقوله من يزعم ذلك وعلى التقدير فهو صريح في خلق الأرواح .

الوجه الخامس النصوص الدالة على أنه سبحانه ربنا ورب آبائنا الأولين ورب كل شيء وهذه الربوبية شاملة لأرواحنا وأبداننا فالأرواح مربوبة له مملوكة كما أن الأجسام كذلك وكل مربوب مملوك فهو مخلوق .

الوجه السادس أول سورة في القرآن وهي الفاتحة تدل على أن الأرواح مخلوقة من عدة أوجه

أحدها قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ الفاتحة والأرواح من جملة العالم فهو ربها

الثاني قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾الفاتحة فالأرواح عابدة له مستعينة ولو كانت غير مخلوقة لكانت معبودة مستعانا بها

الثالث إنها فقيرة إلى هداية فاطرها وربها تسأله أن يهديها صراطه المستقيم

الرابع أنها منعم عليها مرحومة ومغضوب عليها وضالة شقية وهذا شأن المربوب والمملوك لا شأن القديم غير المخلوق

الوجه السابع النصوص الدالة على أن الإنسان عبد بجملته وليست عبوديته واقعة على بدنه دون روحه بل عبوديته الروح أصل وعبودية البدن تبع كما أنه تبع لها في الأحكام وهي التي تحركه وتستعمله وهو تبع لها في العبودية

الوجه الثامن قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ ﴾ الإنسان فلو كانت روحه قديمة لكان الإنسان لم يزل شيئا مذكورا فإنه إنما هو إنسان بروحه لا ببدنه فقط كما قيل

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته ... فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

الوجه التاسع النصوص الدالة على أن الله سبحانه كان ولم يكن شيء غيره كما ثبت في صحيح البخاري من حديث عمران حصين أن أهل اليمن قالوا يا رسول الله جئناك لنتفقه في الدين ونسألك عن أول هذا الأمر فقال كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء " فلم يكن مع الله أرواح ولا نفوس قديمة يساوى وجودها وجوده تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا بل هو الأول وحده لا يشاركه غيره في أوليته بوجه

الوجه العاشر النصوص الدالة على خلق الملائكة وهم أرواح مستغنية عن أجساد تقوم بها وهم مخلوقون قبل خلق الإنسان وروحه فإذا كان الملك الذي يحدث الروح في جسد ابن آدم بنفخته مخلوقا ، فكيف تكون الروح الحادثة بنفخه قديمة ، وهؤلاء الغالطون يظنون أن الملك يرسل إلى الجنين بروح قديمة أزلية ينفخها فيه كما يرسل الرسول بثوب إلى الإنسان يلبسه إياه وهذا ضلال وخطأ ، وإنما يرسل الله سبحانه إليه الملك فينفخ فيه نفخة تحدث له الروح بواسطة تلك النفخة فتكون النفخة هي سبب حصول الروح وحدوثها له كما كان الوطء والإنزال سبب تكوين جسمه والغذاء سبب نموه ، فمادة الروح من نفخة الملك ومادة الجسم من صب الماء في الرحم فهذه مادة سماوية وهذه مادة أرضية فمن الناس من تغلب عليه المادة السماوية فتصير روحه علوية شريفة تناسب الملائكة ومنهم من تغلب عليه المادة الأرضية فتصير روحه سفلية ترابية مهينة تناسب الأرواح السفلية فالملك أب لروحه والتراب أب لبدنه وجسمه .

الوجه الحادي عشر حديث أبى هريرة رضى الله عنه الذي في صحيح البخاري وغيره عن النبي الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف والجنود المجندة لا تكون إلا مخلوقة وهذا الحديث رواه عن النبي أبو هريرة وعائشة أم المؤمنين وسلمان الفارسي وعبد الله بن عباس وعبد الله ابن مسعود وعبد الله بن عمرو وعلى بن أبى طالب وعمرو بن عبسة رضى الله عنهم

الوجه الثاني عشر أن الروح توصف بالوفاة والقبض والإمساك والإرسال ، وهذا شأن المخلوق المحدث المربوب قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾الزمر والأنفس ها هنا هي الأرواح قطعا وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن أبى قتادة الأنصاري عن أبيه قال " سرنا مع رسول الله في سفر ذات ليلة فقلنا يا رسول الله لو عرست بنا فقال إني أخاف أن تناموا فمن يوقظنا للصلاة فقال بلال أنا يا رسول الله فعرس بالقوم فاضطجعوا واستند بلال إلى راحلته فغلبته عيناه فاستيقظ رسول الله وقد طلع جانب الشمس فقال يا بلال أين ما قلت لنا فقال والذي بعثك بالحق ما ألقيت على نومة مثلها فقال رسول الله إن الله قبض أرواحكم حين شاء وردها حين شاء " فهذه الروح المقبوضة هي النفس التي يتوفاها الله حين موتها وفي منامها التي يتوفاها ملك الموت وهي التي تتوفاها رسل الله سبحانه وهي التي يجلس الملك عند رأس صاحبها ويخرجها من بدنه كرها ويكفنها بكفن من الجنة أو النار ويصعد بها إلى السماء فتصلى عليها الملائكة أو تلعنها وتوقف بين يدي ربها فيقضى فيها أمره ثم تعاد إلى الأرض فتدخل بين الميت وأكفانه فيسأل ويمتحن ويعاقب وينعم وهي التي تجعل في أجواف الطير الخضر تأكل وتشرب من الجنة وهي التي تعرض على النار غدوا وعشيا وهي التي تؤمن وتكفر وتطيع وتعصى وهي الأمارة بالسوء وهي اللوامة وهي المطمئنة إلى ربها وأمره وذكره وهي التي تعذب وتنعم وتسعد وتشقى وتحبس وترسل وتصح

وتسقم وتلذ وتألم وتخاف وتحزن وما ذاك إلا سمات مخلوق مبدع وصفات منشأ مخترع وأحكام مربوب مدبر مصرف تحت مشيئة خالقه وفاطره وبارئه ، " وكان رسول الله يقول عند نومه اللهم أنت خلقت نفسي وأنت توفاها لك مماتها ومحياها فإن أمسكتها فارحمها وإن أرسلتها فأحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين " وهو تعلى بارىء النفوس كما هو بارىء الأجساد قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ ﴾الحديد قيل من قبل أن نبرأ المصيبة وقيل من قبل أن نبرأ الأرض وقيل من قبل أن نبرأ الأنفس وهو أولى لأنه أقرب مذكور إلى الضمير ، ولو قيل يرجع إلى الثلاثة أي من قبل أن نبرأ المصيبة والأرض والأنفس لكان أوجه .

وكيف تكون قديمة مستغنية عن خالق محدث مبدع لها وشواهد الفقر والحاجة والضرورة أعدل شواهد على أنها مخلوقة مربوبة مصنوعة وأن وجود ذاتها وصفاتها وأفعالها من ربها وفاطرها ليس لها من نفسها إلا العدم ، فهي لا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا لا تستطيع أن تأخذ من الخير إلا ما أعطاها وتتقى من الشر إلا ما وقاها ولا تهتدي إلى شيء من صالح دنياها وأخراها إلا بهداه وتصلح إلا بتوفيقه لها وإصلاحه إياها ولا تعلم إلا ما علمها ولا تتعدى ما ألهمها ، فهو الذي خلقها فسواها وألهمها فجورها وتقواها قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾الشمس فأخبر سبحانه أنه خالقها ومبدعها وخالق أفعالها من الفجور والتقوى خلافا لمن يقول إنها ليست مخلوقة ولمن يقول إنها وإن كانت مخلوقة فليس خالقا لأفعالها بل هي التي تخلق أفعالها .

فشواهد الخلق والحدوث على الأرواح كشواهده على الأبدان قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾فاطر ، وهذا الخطاب بالفقر إليه للأرواح والأبدان ليس هو للأبدان فقط ، وهذا الغنى التام لله وحده لا يشركه فيه غيره وقد أرشد الله سبحانه عباده إلى أوضح دليل على ذلك بقوله ﴿ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ

﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ الواقعة أي فلولا أن كنتم غير مملوكين ومقهورين ومربوبين ومجازين بأعمالكم تردون الأرواح إلى الأبدان إذا وصلت إلى هذا الموضع أو لا تعلمون بذلك أنها مدينة مملوكة مربوبة محاسبة مجزية بعملها .

وهذا الأمر أوضح من أن تساق الأدلة عليه ، ولولا ضلال من المتصوفة وأهل البدع ومن قصر فهمه في كتاب الله وسنة رسوله فأتى من سوء الفهم لا من النص تكلموا في أنفسهم وأرواحهم بما دل على أنهم من أجهل الناس بها ، وكيف يمكن من له أدنى مسكة من عقل أن ينكر أمرا تشهد عليه به نفسه وصفاته وأفعاله وجوارحه وأعضاؤه بل تشهد به السموات والأرض والخليقة فلله سبحانه في كل ما سواه آية بل آيات تدل على أنه مخلوق مربوب وأنه خالقه وربه وبارؤه ومليكه ولو جحد ذلك فمعه شاهد عليه .

فمحكم القرآن من أوله إلى آخره يدل على أن الله تعالى خالق الأرواح ومبدعها .

والروح في القرآن على عدة أوجه

أحدها الوحي كقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴿٥٢﴾ ﴾ الشورى وقوله تعالى: ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ ﴾ غافر سمى الوحي روحا لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح

الثاني القوة والثبات والنصرة التي يؤيد بها من شاء من عباده المؤمنين كما قال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴿٢٢﴾ ﴾ المجادلة

الثالث جبريل كقوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ الشعراء: وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿٩٧﴾ ﴾ البقرة وهو روح القدس قال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ ﴿١٠٢﴾ ﴾ النحل

الرابع الروح التي سأل عنها اليهود فأجيبوا بأنها من أمر الله وقد قيل أنها الروح المذكورة في قوله تَعَالَىٰ: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ﴾ النبأ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) ﴾ القدر

الخامس المسيح ابن مريم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ (١٧١) ﴾ النساء

السادس وأما أرواح بني آدم فلم تقع تسميتها في القرآن إلا بالنفس قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ﴾ الفجر وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) ﴾ القيامة وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ﴾ الأنعام وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) ﴾ الشمس وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ (١٨٥) ﴾ آل عمران

وأما في السنة فجاءت بلفظ النفس والروح

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾ الحجر فينبغي أن يعلم أن المضاف إلى الله سبحانه نوعان صفات لا تقوم بأنفسها كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها فعلمه وكلامه وإرادته وقدرته وحياته وصفات له غير مخلوقة وكذلك وجهه ويده سبحانه

والثاني إضافة أعيان منفصلة عنه كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه ومصنوع إلى صانعه لكنها إضافة تقتضي تخصيصا وتشريفا يتميز به المضاف عن غيره كبيت الله وإن كانت البيوت كلها ملكا له ، وكذلك ناقة الله والنوق كلها ملكه وخلقه لكن هذه إضافة إلى إلهيته تقتضي محبته لها وتكريمه وتشريفه بخلاف الإضافة العامة إلى ربوبيته حيث تقتضي خلقه وإيجاده فالإضافة العامة تقتضي الإيجاد والخاصة تقتضي الاختيار ، والله يخلق ما يشاء ويختار مما خلقه كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ (٦٨) ﴾ القصص وإضافة الروح إليه من هذه الإضافة الخاصة لا من العامة ولا من باب إضافة الصفات فتأمل هذا الموضع

فإنه يخلصك من ضلالات كثيرة وقع فيها من شاء الله من الناس ؛ فإن قيل فما تقولون في قوله تعالى ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ فأضاف النفخ إلى نفسه وهذا يقتضي المباشرة منه تعالى كما في قوله خلقت بيدي ولهذا فرق بينهما في الذكر في الحديث الصحيح في قوله " فيأتون آدم فيقولون أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء " فذكروا لآدم أربع خصائص اختص بها عن غيره ، ولو كانت الروح التي فيه إنما هي من نفخة الملك لم يكن له خصيصة بذلك وكان بمنزلة المسيح بل وسائر أولاده ؛ فإن الروح حصلت فيهم من نفخة الملك وقد قال تعالى ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾الحجر فهو الذي سواه بيده وهو الذي نفخ فيه من روحه

قيل هذا الموضع الذي أوجب لهذه الطائفة أن قالت بقدم الروح وتوقف فيها آخرون ولم يفهموا مراد القرآن فأما الروح المضافة إلى الرب فهي روح مخلوقة أضافها إلى نفسه إضافة تخصيص وتشريف كما بينا وأما النفخ فقد قال تعالى في مريم التي أحصنت فرجها ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴿١٢﴾ ﴾ التحريم وقد أخبر في موضع آخر أنه أرسل إليها الملك فنفخ في فرجها ، وكان النفخ مضافا إلى الله أمرا وإذنا وإلى الرسول مباشرة .

يبقى ها هنا أمران :

أحدهما أن يقال فإذا كان النفخ حصل في مريم من جهة الملك وهو الذي ينفخ الأرواح في سائر البشر فما وجه تسمية المسيح روح الله وإذا كان سائر الناس تحدث أرواحهم من هذه الروح فما خاصية المسيح ؟

الثاني أن يقال فهل تعلق الروح بآدم كانت بواسطة نفخ هذا الروح هو الذي نفخها فيه بإذن الله كما نفخها في مريم أم الرب تعالى هو الذي نفخها بنفسه كما خلقه بيده قيل لعمر الله أنهما سؤالان مهمان .

فأما الأول فالجواب عنه أن الروح الذي نفخ في مريم هو الروح المضاف إلى الله الذي اختصه لنفسه وأضافه إليه وهو روح خاص من بين سائر الأرواح وليس بالملك الموكل بالنفخ في بطون الحوامل من المؤمنين والكفار فإن الله سبحانه وكل بالرحم ملكا ينفخ الروح في الجنين فيكتب رزق المولود وأجله وعمله وشقاوته وسعادته

وأما هذا الروح المرسل إلى مريم فهو روح الله الذي اصطفاه من الأرواح لنفسه فكان لمريم بمنزلة الأب لسائر النوع فان نفخته لما دخلت في فرجها كان ذلك بمنزلة لقاح الذكر للأنثى من غير أن يكون هناك وطء .

وأما ما اختص به آدم فإنه لم يخلق كخلقة المسيح من أم ولا كخلقة سائر النوع من أب وأم ولا كان الروح الذي نفخ الله فيه منه هو الملك الذي ينفخ الروح في سائر أولاده ولو كان كذلك لم يكن لآدم به اختصاص وإنما ذكر في الحديث ما اختص به على غيره وهو أربعة أشياء خلق الله له بيده ونفخ فيه من روحه وإسجاد ملائكته له وتعليمه أسماء كل شيء فنفخه فيه من روحه يستلزم نافخا ونفخا ومنفوخا منه فالمنفوخ منه هو الروح المضافة إلى الله فمنها سرت النفخة في طينة آدم والله تعالى هو الذي نفخ في طينته من تلك الروح هذا هو الذي دل عليه النص ، وأما كون النفخة بمباشرة منه سبحانه كما خلقه بيده أن أنها حصلت بأمره كما حصلت في مريم عليها السلام فهذا يحتاج إلى دليل والفرق بين خلق الله له بيده ونفخه فيه من روحه أن اليد غير مخلوقة والروح مخلوقة والخلق فعل من أفعال الرب وأما النفخ فهل هو من أفعاله القائمة به أو هو مفعول من مفعولاته القائمة بغير المنفصلة عنه وهذا مما لا يحتاج إلى دليل وهذا بخلاف النفخ في فرج مريم فإنه مفعول من مفعولاته وأضافه إليه لأنه بإذنه وأمره فنفخه في آدم هل هو فعل له أو مفعول وعلى كل تقدير فالروح الذي نفخ منها في آدم روح مخلوقة غير قديمة وهي مادة روح آدم فروحه أولى أن تكون حادثة مخلوقة وهو المراد .

حقيقة النفس والروح كما بينها ابن القيم في كتاب الروح

الروح أنه جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس وهو جسم نوراني علوي خفيف حي متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء ويسري فيها سريان الماء في الورد وسريان الدهن في الزيتون والنار في الفحم ، فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقي ذلك الجسم اللطيف مشابكا لهذه الأعضاء وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة الإرادية، وإذا فسدت هذه الأعضاء بسب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها وخرجت عن قبول تلك الآثار فارق الروح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح .

وقال رحمه الله : وهذا القول هو الصواب في المسألة هو الذي لا يصح غيره وكل الأقوال سواه باطلة وعليه دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة ونحن نسوق الأدلة عليه على نسق واحد .

الدليل الأول قوله تَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾الزمر ففي الآية ثلاثة أدلة الأخبار بتوفيها وإمساكها وإرسالها

الرابع قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ ﴿٩٤﴾ ﴾ الأنعام وفيها أربعة أدلة :

أحدها بسط الملائكة أيديهم لتناولها ! الثاني وصفها بالإخراج والخروج

الثالث الإخبار عن عذابها في ذلك اليوم الرابع الإخبار عن مجيئها إلى ربها فهذه سبعة أدلة

الثامن قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ

﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ الأنعام

وفيها ثلاثة أدلة :

أحدها الإخبار بتوفي الأنفس بالليل الثاني بعثها إلى أجسادها بالنهار

الثالث توفي الملائكة له عند الموت فهذه عشرة أدلة

الحادي عشر قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ الفجر وفيها ثلاثة أدلة

أحدها وصفها بالرجوع الثاني وصفها بالدخول الثالث وصفها بالرضا

واختلف السلف هل يقال لها ذلك عند الموت أو عند البعث أو في الموضعين على ثلاثة أقوال وقد روى في حديث مرفوع أن النبي ﷺ قال لأبي بكر الصديق أما أن الملك سيقولها لك عند الموت قال زيد بن أسلم بشرت بالجنة عند الموت ويوم الجمع وعند البعث وقال أبو صالح ارجعي إلى ربك راضية مرضية هذا عند الموت فأدخلي عبادي وادخلي جنتي قال هذا يوم القيامة فهذه أربعة عشر دليلا

الخامس عشر قوله إن الروح إذا قبض تبعه البصر ففيه دليلان

أحدهما وصفه بأنه يقبض الثاني أن البصر يراه

السابع عشر ما رواه النسائي عن عمارة بن خزيمة أن أباه قال رأيت في المنام كأني أسجد على جبهة النبي فأخبرته بذلك فقال إن الروح ليلقى الروح فأقنع رسول الله هكذا قال عفان برأسه إلى حلقه فوضع جبهته على جبهة النبي فأخبر أن الأرواح تتلاقى في المنام وقد تقدم قول ابن عباس تلتقي أرواح الأحياء والأموات في المنام فيتساءلون بينهم فيمسك الله أرواح الموتى

الثامن عشر قوله في حديث بلال إن الله قبض أرواحكم وردها إليكم حين شاء ففيه دليلان وصفها بالقبض والرد

العشرون قوله نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة وفيه دليلان

أحدهما كونها طائرا الثاني تعلقها في شجر الجنة وأكلها على اختلاف التفسيرين

الثاني والعشرون قوله أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش فأطلع إليهم ربك اطلاعة فقال أي شيء تريدون الحديث وقد تقدم وفيه ستة أدلة :

أحدها كونها مودعة في جوف طير الثاني أنها تسرح في الجنة

الثالث أنها تأكل من ثمارها وتشرب من أنهارها الرابع أنها تأوي إلى تلك القناديل أي تسكن إليها الخامس أن الرب تعالى خاطبها واستنطقها فأجابته وخاطبته

السادس أنها طلبت الرجوع إلى الدنيا فعلم أنها مما يقبل الرجوع فإن قيل هذا كله صفة الطير لا صفة الروح قيل بل الروح المودعة في الطير قصد وعلى الرواية التي رجحها أبو عمر وهي قوله أرواح الشهداء كطير ينفي السؤال بالكلية

التاسع والعشرون قوله في حديث طلحة بن عبيد الله أردت مالي بالغابة فأدركني الليل فأويت إلى قبر عبد الله بن عمرو بن حزام فسمعت قراءة من القبر ما سمعت أحسن منها فقال رسول الله ذاك عبد الله ألم تعلم أن الله قبض أرواحهم فجعلها في قناديل من زبرجد وياقوت ثم علقها وسط الجنة فإذا كان الليل ردت إليهم أرواحهم فلا تزال كذلك حتى إذا طلع الفجر ردت أرواحهم إلى مكانها التي كانت وفيه أربعة أدلة سوى ما تقدم

أحدها جعلها في القناديل الثاني انتقالها من حيز إلى حيز

الثالث تكلمها وقراءتها في القبر الرابع وصفها بأنها في مكان

الثالث والثلاثون حديث البراء بن عازب وقد تقدم سياقه وفيه عشرون دليلا

أحدها قول ملك الموت لنفسه يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية وهذا الخطاب لمن يفهم ويعقل الثاني قوله اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان

الثالث قوله فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء

الرابع قوله فلا يدعونها في يده طرفة عين حتى يأخذوها منه

الخامس قوله حتى يكفنوها في ذلك الكفن ويحنطوها بذلك الحنوط فأخبر أنه تكفن وتحنط

السادس قوله ثم يصعد بروحه إلى السماء

السابع قوله ويوجد منها كأطيب نفحة مسك وجدت

الثامن قوله فتفتح له أبواب السماء

التاسع قوله ويشيعه من كل سماء مقربوها حتى ينتهي إلى الرب تعالى

العاشر قوله فيقول تعالى ردوا عبدي إلى الأرض

الحادي عشر قوله فترد روحه في جسده

الثاني عشر قوله في روح الكافر فتفرق في جسده فيجذبها فتنقطع منها العروق والعصب

الثالث عشر قوله ويوجد لروحه كأنتن ريح وجدت على وجه الأرض

الرابع عشر قوله فيقذف بروحه عن السماء وتطرح طرحا فتهوى إلى الأرض

الخامس عشر قوله فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذا الروح الطيب وما هذا الروح الخبيث

السادس عشر قوله فيجلسان ويقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل فإن كان هذا للروح فظاهر وإن كان للبدن فهو بعد رجوع الروح إليه من السماء

السابع عشر قوله فإذا صعد بروحه قيل أي رب عبدك فلان

الثامن عشر قوله أرجعوه فأروه ماذا أعددت له من الكرامة فيرى مقعده من الجنة أو النار

التاسع عشر قوله في الحديث إذا خرجت روح المؤمن صلى عليها كل ملك لله بين السماء والأرض فالملائكة تصلي على روحه وبني آدم يصلون على جسده

العشرون قوله فينظر إلى مقعده من الجنة أو النار حتى تقوم الساعة والبدن قد تمزق وتلاشى وإنما الذي يرى المقعدين الروح

الرابع والخمسون حديث أبي موسى تخرج نفس المؤمن أطيب من ريح المسك فتنطلق بها الملائكة الذين يتوفونه فتلقاهم ملائكة من دون السماء فيقولون هذا فلان ابن فلان كان يعمل

كيت وكيت بمحاسن عمله فيقولون مرحبا بكم وبه فيقبضونها منهم فيصعد به من الباب الذي كان يصعد منه عمله فيشرق في السموات وهو كبرهان الشمس حتى ينتهي بها إلى العرش وأما الكافر فإذا قبض انطلق بروحه فيقولون من هذا فيقولون فلان ابن فلان كان يعمل كيت وكيت لمساوي أعماله فيقولون لا مرحبا لا مرحبا ردوه فيرد إلى أسفل الأرض إلى

الثرى ففيه عشرة أدلة

أحدها خروج نفسه الثاني طيب ريحها الثالث انطلاق الملائكة بها

الرابع تحية الملائكة لها الخامس قبضهم لها السادس صعودهم بها

السابع إشراق السموات لضوئها الثامن انتهاؤها إلى العرش

التاسع قول الملائكة من هذا وهذا سؤال عن عين وذات قائمة بنفسها

العاشر قوله ردوه إلى أسفل الأرضين

الرابع والستون حديث أبي هريرة إذا خرجت روح المؤمن تلقاه ملكان فيصعدانه إلى السماء فيقول أهل السماء روح طيبة جاءت من قبل الأرض صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمرينه وذكر المسك ثم يصعد به إلى ربه عز و جل فيقول ردوه إلى آخر الأجلين ففيه ستة أدلة

أحدها قوله تلقاه ملكان الثاني قوله فيصعدانه إلى السماء الثالث قول الملائكة روح طيبة جاءت من قبل الأرض الرابع صلاتهم عليها الخامس طيب ريحها

السادس الصعود بها إلى الله عز و جل

الحادي والسبعون حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن المؤمن تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا أخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب أخرجي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج فيعرج بها حتى ينتهي بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا فيقال فلان ابن فلان فيقال مرحبا بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عز و جل وإذا كان الرجل السوء قال أخرجي أيتها النفس الخبيثة

كانت في الجسد الخبيث أخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج فلا يزال يقال لها حتى تخرج فينتهي بها إلى السماء فيقال من هذا فيقال فلان ابن فلان فيقال لا مرحبا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ارجعي ذميمة فإنه لا تفتح لك أبواب السماء فترسل إلى الأرض ثم تصير إلى القبر وهو حديث صحيح وفيه عشرة أدلة

أحدها قوله كانت في الجسد الطيب وكانت في الجسد الخبيث فها هنا حال ومحل

الثاني قوله أخرجي حميدة

الثالث قوله وأبشري بروح وريحان فهذا بشارة بها تصير إليه بعد خروجها

الرابع قوله فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء

الخامس قوله فيستفتح لها

السادس قوله أدخلي حميدة

السابع قوله حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله تعالى

الثامن قوله لنفس الفاجر ارجعي ذميمة

التاسع فإنه لا تفتح لك أبواب السماء

العاشر قوله فترسل إلى الأرض ثم تصير إلى القبر

الحادي والثمانون قوله الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف فوصفها بأنها جنود مجندة والجنود ذوات قائمة بنفسها ووصفها بالتعارف والتناكر ومحال أن تكون هذه الجنود أعراضا أو تكون لا داخل العالم ولا خارجه ولا بعض لها ولا كل

الثاني والثمانون قوله في حديث ابن مسعود رضي الله عنه على الأرواح تتلاقى وتتشامم كما تشام الخيل وقد تقدم

الثالث والثمانون قوله في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن أرواح المؤمنين تتلاقى على مسيرة يومين وما رأى أحدهما صاحبه

الرابع والثمانون الآثار التي ذكرناها في خلق آدم وأن الروح لما دخل في رأسه عطس فقال الحمد لله فلما وصل الروح إلى عينيه نظر إلى ثمار الجنة فلما وصل إلى جوفه اشتهي الطعام فوثب قبل أن يبلغ الروح رجليه وأنها دخلت كارهة وتخرج كارهة وتخرج كارهة

الخامس والثمانون الآثار التي فيها إخراج الرب تعالى النسم وتمييز شقيهم من سعيدهم وتفاوتهم حينئذ في الإشراق والظلمة وأرواح الأنبياء فيهم مثل السرج وقد تقدم

السادس والثمانون حديث تميم الداري أن روح المؤمن إذا صعد بها إلى الله خر ساجدا بين يديه وأن الملائكة تتلقى الروح بالبشرى وأن الله تعالى يقول لملك الموت انطلق بروح عبدى فضعه في مكان كذا وكذا وقد تقدم

السابع والثمانون الآثار التي ذكرناها في مستقر الأرواح بعد الموت واختلاف الناس في ذلك وفي ضمن ذلك الاختلاف إجماع السلف على أن للروح مستقرا بعد الموت وإن اختلف في تعيينه

الثامن والثمانون ما قد علم بالضرورة أن رسول الله جاء به وأخبر به الأمة أنه تنبت أجسادهم في القبور فإذا نفخ في الصور رجعت كل روح إلى جسدها فدخلت فيه فانشقت الأرض عنه فقام من قبره

وفي حديث الصور أن إسرافيل عليه السلام يدعو الأرواح فتأتيه جميعا أرواح المسلمين نورا والأخرى مظلمة فيجمعها جميعا فيعلقها في الصور ثم ينفخ فيه فيقول الرب جل جلاله وعزتي ليرجعن كل روح إلى جسده فتخرج الأرواح من الصور مثل النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض فيأتي كل روح إلى جسده فيدخل ويأمر الله الأرض فتنشق عنهم فيخرجون سراعا إلى ربهم ينسلون مهطعين إلى الداعي يسمعون المنادي من مكان قريب فإذا هم قيام ينظرون وهذا معلوم بالضرورة أن الرسول أخبر به وإن الله سبحانه لا ينشيء لهم أرواحا غير أرواحهم التي كانت في الدنيا بل هي الأرواح التي اكتسبت الخير والشر أنشأ أبدانها نشأة أخرى ثم ردها إليها

التاسع والثمانون أن الروح والجسد يختصمان بين يدي الرب ﷻ يوم القيامة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال ما تزال الخصومة بين الناس يوم القيامة حتى يخاصم الروح الجسد فيقول الروح

يا رب إنما كنت روحا منك جعلتني في هذا الجسد فلا ذنب لي ويقول الجسد يا رب كنت جسدا خلقتني ودخل في هذا الروح مثل النار فيه كنت أقوم وبه كنت أقعد وبه أذهب وبه أجيء لا ذنب لي قال فيقال أنا أقضي بينكما أخبراني عن أعمى ومقعد دخلا حائطا فقال المقعد للأعمى إني أرى ثمرا فلو كانت لي رجلان لتناولت فقال الأعمى أنا أحملك على رقبتي فحمله فتناول من الثمر فأكلا جميعا فعلى من الذنب قالا عليهما جميعا فقال قضيتما على أنفسكما

التسعون الأحاديث والآثار الدالة على عذاب القبر ونعيمه إلى يوم البعث فمعلوم أن الجسد تلاشى واضمحل وأن العذاب والنعيم المستمرين إلى يوم القيامة إنما هو على الروح

الحادي والتسعون أخبار الصادق المصدوق في الحديث الصحيح عن الشهداء إنهم لما سئلوا ما تريدون قالوا نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل فيك مرة أخرى فهذا سؤال وجواب من ذات حية عالمة ناطقة تقبل الرد إلى الدنيا والدخول في أجساد خرجت منها وهذه الأرواح سئلت وهي تسرح في الجنة والأجساد قد مزقها البلى

الثاني والتسعون ما ثبت عن سلمان الفارسي وغيره من الصحابة رضوان الله عليهم أن أرواح المؤمنين في برزخ تذهب حيث شاءت وأرواح الكفار في سجين وقد تقدم

الثالث والتسعون رؤية النبي لأرواح الناس عن يمين آدم ويساره ليلة الإسراء فرآها متحيزة بمكان معين

الرابع والتسعون رؤيته أرواح الأنبياء في السموات وسلامهم عليه وترحيبهم به كما أخبر به وأما أبدانهم ففي الأرض

الخامس والتسعون رؤيته أرواح الأطفال حول إبراهيم الخليل عليه السلام

السادس والتسعون رؤيته أرواح المعذبين في البرزخ بأنواع العذاب في حديث سمرة الذي رواه البخاري في صحيحه وقد تلاشت أجسادهم واضمحلت وإنما كان الذي رآه أرواحهم ونسمهم يفعل بها ذلك

السابع والتسعون إخباره سبحانه عن الذين قتلوا في سبيله أنهم أحياء عند ربهم يرزقون وأنهم فرحون مستبشرين بإخوانهم وهذا للأرواح قطعا لأن الأبدان في التراب تنظر عود أرواحهم إليها يوم البعث

الثامن والتسعون ما تقدم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ونحن نسوقه ليتبين كم فيه من دليل على بطلان قول الملاحدة وأهل البدع في الروح وقد ذكرنا إسناده فيما تقدم قال بينما رسول الله ذات يوم قاعدا تلا هذه الآية ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت الآية ثم قال والذي نفس محمد بيده ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة أو النار فإذا كان عند ذلك صف له سماطان من الملائكة ينتظمان ما بين الخافقين كأن وجوههم الشمس فينظر إليهم ما يرى غيرهم وإن كنتم ترون أنه ينظر إليكم مع كل ملك منهم أكفان وحنوط فإن كان مؤمنا بشروه بالجنة وقالوا أخرجي أيتها النفس المطمئنة إلى رضوان الله وجنته فقد أعد الله لك من الكرامة ما هو خير لك من الدنيا وما فيها فلا يزالون يبشرونه فهم ألطف به وأرأف من الوالدة بولدها ثم يسلون روحه من تحت كل ظفر ومفصل يموت الأول فالأول ويبرد كل عضو الأول فالأول ويهون عليهم وإن كنتم ترونه شديدا حتى تبلغ ذقنه فلهي أشد كراهية للخروج من الجسد من الولد حين يخرج من الرحم فيبتدرونها كل ملك منهم أيهم يقبضها فيتولى قبضها ملك ثم تلا رسول الله قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون فيتلقاها بأكفان بيض ثم يحتضنها إليه فلهو أشد لزوما من المرأة لولدها ثم يفوح منها ريح أطيب من المسك فيستنشقون ريحا طيبا ويتباشرون بها ويقولون مرحبا بالريح الطيبة والروح الطيب اللهم صل عليه روحا وصل على جسد خرجت منه قال فيصعدون بها فتفوح لهم ريح أطيب من المسك فيصلون عليها ويتباشرون بها وتفتح لهم أبواب السماء ويصلى عليها كل ملك في كل سماء تمر بهم حتى تنتهي بين يدي الجبار جل جلاله فيقول الجبار ﷻ مرحبا بالنفس الطيبة ادخلوها الجنة وأروها مقعدها من الجنة وأعرضوا عليها ما أعددت لها من الكرامة والنعيم ثم اذهبوا بها إلى الأرض فإني قضيت أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى فوالذي

نفس محمد بيده لهي أشد كراهية للخروج منها حين كانت تخرج من الجسد وتقول أين تذهبون بي إلى ذلك الجسد الذي كنت فيه فيقولون إنا مأمورون بهذا فلا بد لك منه فيهبطون به على قدر فراغهم من غسله وأكفانه فيدخلون ذلك الروح بين الجسد وأكفانه ، فتأمل كم في الحديث من موضع يشهد ببطلان قول المبطلين في الروح

التاسع والتسعون ما ذكره عبد الرزاق عن معمر عن زيد بن أسلم عن عبد الرحمن ابن البيلماني عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال إذا توفي المؤمن بعث إليه ملكان بريحان من الجنة وخرقة تقبض فيها فتخرج كأطيب رائحة وجدها أحد قط بأنفه حتى يؤتى به الرحمن جل جلاله فتسجد الملائكة قبله ويسجد بعدهم ثم يدعى ميكائيل عليه السلام فيقال اذهب بهذه النفس فأجعلها مع أنفس المؤمنين حتى أسألك عنها يوم القيامة

وقد تظاهرت الآثار عن الصحابة أن روح المؤمن تسجد بين يدي العرش في وفاة النوم ووفاة الموت وأما حين قدومها على الله فأحسن تحيتها أن تقول اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام

وحدثني القاضي نور الدين بن الصائغ قال كانت لي خالة وكانت من الصالحات العابدات قال عدتها في مرض موتها فقالت لي الروح إذا قدمت على الله ووقفت بين يديه ما تكون تحيتها وقولها له قال فعظمت على مسألتها وفكرت فيها ثم قلت تقول اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام قال فلما توفيت رأيتها في المنام فقالت لي جزاك الله خيرا لقد دهشت فما أدري ما أقوله ثم ذكرت تلك الكلمة التي قلت لي فقلتها

المائة ما قد اشترك في العلم به عامة أهل الأرض من لقاء أرواح الموتى وسؤالهم لهم وإخبارهم إياهم بأمور خفيت عليهم فرأوها عيانا وهذا أكثر من أن يتكلف إيراده

وأعجب من هذا الوجه الحادي والمائة أن روح النائم يحصل لها في المنام آثار فتصبح يراها على البدن عيانا وهي من تأثير للروح في الروح كما ذكر القيراوني في كتاب البستان

قال كان لي جار يشتم أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فلما كان ذات يوم أكثر من شتمهما فتناولته وتناولني فانصرفت إلى منزلي وأنا مغموم حزين فنمت وتركت العشاء فرأيت رسول الله في المنام فقلت يا رسول الله فلان يسب أصحابك قال من أصحابي قلت أبو بكر وعمر فقال خذ هذه المدية فأذبحه بها فأخذتها فأضجعته وذبحته ورأيت كأن يدي أصابها من دمه فألقيت المدية وأهويت بيدي إلى الأرض لأمسحها فانتبهت وأنا أسمع الصراخ من نحو داره فقلت ما هذا الصراخ قالوا فلان مات فجأة فلما أصبحنا جئت فنظرت إليه فإذا خط موضع الذبح

وفي كتاب المنامات لابن أبي الدنيا عن شيخ من قريش قال رأيت رجلا بالشام قد أسود نصف وجهه وهو يغطيه فسألته عن ذلك فقال قد جعلت لله على أن لا يسألني أحد عن ذلك إلا أخبرته به كنت شديد الوقيعة في علي بن أبي طالب رضي الله عنه فبينا أنا ذات ليلة نائم إذ أتاني آت في منامي فقال لي أنت صاحب الوقيعة في فضرب شق وجهي فأصبحت وشق وجهي أسود كما ترى

وذكر مسعدة عن هشام بن حسان عن واصل مولى أبي عيينة عن موسى بن عبيدة عن صفية بنت شيبة قالت كنت عند عائشة رضي الله عنها فأتتها امرأة مشتملة على يدها فجعل النساء يولعن بها فقالت ما أتيتك إلا من أجل يدي أن أبي كان رجلا سمحا وأني رأيت في المنام حياضا عليها رجال معهم آنية يسقون من أتاهم فرأيت أبي قلت أين أمي فقال انظري فنظرت فإذا أمي ليس عليها إلا قطعة خرقة فقال إنها لم تتصدق قط إلا بتلك الخرقة وحمة من بقرة ذبحوها فتلك الشحمة تذاب وتطرى بها وهي تقول وأعطشاه قالت فأخذت إناء من الآنية فسقيتها فنوديت من فوقي من سقاها أيبس الله يده فأصبحت يدي كما ترين

وذكر الحارث بن أسد المحاسبي واصبغ وخلف بن القاسم وجماعة عن سعيد بن مسلمة قال بينما امرأة عند عائشة إذ قالت بايعت رسول الله على أن لا أشرك بالله شيئا ولا أسرق ولا أزني ولا أقتل ولدي ولا آتي ببهتان أفتريه من بين يدي ورجلي ولا أعصي في معروف فوفيت لربي ووفا لي ربي فوالله لا يعذبني الله فأتاها في المنام ملك فقال لها كلا إنك تتبرجين وزينتك تبدين

وخيرك تكندين *(كَنَدَ يَكْنُدُ كُنوداً كَفَرَ النّعْمَة)* وجارك تؤذين وزوجك تعصين ثم وضع أصابعه الخمس على وجهها وقال خمس بخمس ولو زدت زدناك فأصبحت وأثر الأصابع في وجهها

وقال عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك سمعت مالكا يقول إن يعقوب بن عبد الله بن الأشج كان من خيار هذه الأمة نام في اليوم الذي استشهد فيه فقال لأصحابه إني قد رأيت أمرا ولأخبرنه أني رأيت كأني أدخلت الجنة فسقيت لبنا فقاء اللبن واستشهد بعد ذلك قال أبو القاسم وكان في غزوة في البحر بموضع لا لبن فيه وقد سمعت غير مالك يذكره ويذكر أنه معروف فقال أني رأيت كأني أدخل الجنة فسقيت فيها لبنا فقال له بعض القوم أقسمت عليك لما تقيأت فقاء لبنا يصلد أي يبرق وما في السفينة لبن ولا شاة قال ابن قتيبة قوله يصلد أي يبرق يقال صلد اللبن ومنه يصلد ومنه حديث عمر أن الطبيب سقاه لبنا فخرج من الطعنة أبيض يصلد

وكان نافع القارىء إذا تكلم يشم من فيه رائحة المسك فقيل له كلما قعدت تتطيب فقال ما أمس طيبا ولا أقربه ولكن رأيت النبي في المنام وهو يقرأ في فمي فمن ذلك الوقت يشم من في هذه الرائحة

وذكر مسعدة في كتابه في الرؤيا عن ربيع بن الرقاشي قال أتاني رجلان فقعدا إلى فأغتابا رجلا فنهيتهما فأتاني أحدهما بعد فقال إني رأيت في المنام كأن زنجيا أتاني بطبق عليه جنب خنزير لم أر لحما قط اسمن منه فقال لي كل فقلت آكل لحم خنزير فتهددني فأكلت فأصبحت وقد تغير فمي فلم يزل يجد الريح في فمه شهرين

وكان العلاء بن زياد له وقت يقوم فيه فقال لأهله تلك الليلة إني أجد فترة فإذا كان وقت كذا فأيقظوني فلم يفعلوا قال فأتاني آت في منامي فقال قم يا علاء بن زياد اذكر الله يذكرك وأخذ بشعرات في مقدم رأسي فقامت تلك الشعرات في مقدم رأسي فلم تزل قائمة حتى مات قال يحيى بن بسطام فلقد غسلناه يوم مات وإنهن لقيام في رأسه

وذكر ابن أبي الدنيا عن أبي حاتم الرازي عن محمد بن علي قال كنا بمكة في المسجد الحرام قعودا فقام رجل نصف وجهه أسود ونصفه أبيض فقال يا أيها الناس اعتبروا بي فإني كنت أتناول الشيخين وأشتمهما فبينما أنا ذات ليلة نائم إذ أتاني آت فرفع يده فلطم وجهي وقال لي يا عدو الله يا فاسق ألست تسب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فأصبحت وأنا على هذه الحالة

وقال محمد بن عبد الله المهلبي رأيت في المنام كأني في رحبة بني فلان وإذا النبي جالس على أكمة ومعه أبو بكر وعمر واقف قدامه فقال له عمر يا رسول الله إن هذا يشتمني ويشتم أبا بكر فقال جيء به يا أبا حفص فأتى برجل فإذا هو العماني وكان مشهورا بسبهما فقال له النبي أضجعه فأضجعه ثم قال اذبحه فذبحه قال فما نبهني إلا صياحه فقلت مالي لا أخبره عسى أن يتوب فلما تقربت من منزله سمعت بكاء شديدا فقلت ما هذا البكاء فقالوا العماني ذبح البارحة على سريره قال فدنوت من عنقه فإذا من أذنه إلى أذنه طريقة حمراء كالدم المحصور

وقال القيرواني أخبرني شيخ لنا من أهل الفضل قال أخبرني أبو الحسن المطلبي أمام مسجد النبي قال رأيت بالمدينة عجبا كان رجل يسب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فبينا نحن يوما من الأيام بعد صلاة الصبح إذ أقبل رجل وقد خرجت عيناه وسالتا على خديه فسألناه ما قصتك فقال رأيت البارحة رسول الله وعلى بين يديه ومعه أبو بكر وعمر فقالا يا رسول الله هذا الذي يؤذينا ويسبنا فقال لي رسول الله من أمرك بهذا يا أبا قيس فقلت له على وأشرت عليه فأقبل علي بوجهه ويده وقد ضم أصابعه وبسط السبابة والوسطى وقصد بها إلى عيني فقلت إن كنت كذبت ففقأ الله عينيك وادخل أصبعيه في عيني فانتهت من نومي وأنا على هذه الحال فكان يبكي يخبر الناس وأعلن بالتوبة

قال القيرواني وأخبرني شيخ من أهل الفضل قال أخبرني فقيه قال كان عندنا رجل يكثر الصوم ويسرده ولكنه كان يؤخر الفطر فرأي في المنام كأن أسودين آخذين بضبعيه وثيابه إلى تنور محمى ليلقياه قال فقلت لهما على ماذا فقالا على خلافك لسنة رسول الله فإنه أمر بتعجيل الفطر وأنت تؤخره قال فأصح وجهه قد اسود من وهج النار فكان يمشي متبرقعا في الناس

وأعجب من هذا الرجل يرى في المنام وهو شديد العطش والجوع والألم أن غيره قد سقاه وأطعمه أو داواه بدواء فيستيقظ وقد زال عنه ذلك كله وقد رأي الناس من هذا عجائب

وقد ذكر مالك عن أبي الرجال عن عمرة عن عائشة أن جارية لها سحرتها وأن سنديا دخل عليها وهي مريضة فقال إنك سحرت قالت ومن سحرني قال جارية في حجرها صبي قد بال عليها فدعت جاريتها فقالت حتى أغسل بولا في ثوبي فقالت لها أسحرتني قالت نعم قالت وما دعاك إلى ذلك قالت أردت تعجيل العتق فأمرت أخاها أن يبيعها من الأعراب ممن يسئ ملكها فباعها ثم إن عائشة رأت في منامها أن اغتسلي من ثلاثة آبار يمد بعضها بعضا فأستسقى لها فأغتسلت فبرأت

وكان سماك بن حرب قد ذهب بصره فرأى إبراهيم الخليل في المنام فمسح على عينيه وقال اذهب إلى الفرات فتنغمس فيه ثلاثا ففعل فأبصر

وكان إسماعيل بن بلال الحضرمي قد عمى فأتى في المنام فقيل له قل يا قريب يا مجيب يا سميع الدعاء يا لطيف بمن يشاء رد على بصري فقال الليث بن سعد أنا رأيته قد عمى ثم أبصر

وقال عبيد الله بن أبي جعفر اشتكيت شكوى فجهدت منها فكنت أقرأ آية الكرسي فنمت فإذا رجلان قائمان بين يدي فقال أحدهما لصاحبه أن يقرأ آية فيها ثلاثمائة وستون رحمة أفلا يصيب هذا المسكين فيها رحمة واحدة فأستيقظت فوجدت خفة

وقال جالينوس السبب الذي دعاني إلى فصد العروق الضوارب أني أمرت به في منامي مرتين قال كنت إذ ذاك غلاما قال وأعرف إنسانا شفاه الله من وجع كان به في جنبه بفصد العرق الضارب لرؤيا رآها في منامه . والوقائع في هذا الباب أكثر من أن تذكر قال بعض الناس إن أصل الطب من المنامات ولا ريب أن كثيرا من أصوله مستند إلى الرؤيا كما أن بعضها عن التجارب وبعضها عن القياس وبعضها عن الهام ومن أراد الوقوف على ذلك فلينظر في تاريخ الأطباء وفي كتاب البستان للقيرواني وغير ذلك

الوجه الثاني بعد المائة قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ الأعراف: ٤٠

وهذا دليل على أن المؤمنين تفتح لهم أبواب السماء وهذا التفتيح هو تفتيحها لأرواحهم عند الموت كما تقدم في الأحاديث المستفيضة أن السماء تفتح لروح المؤمن حتى ينتهي بها إلى بين يدي الرب تعالى ، وأما الكافر فلا تفتح لروحه أبواب السماء ولا تفتح لجسده أبواب الجنة

الوجه الثالث بعد المائة قول النبي يا بلال ما دخلت الجنة إلا سمعت خشخشتك بين يدي فبم ذاك قال ما أحدثت في ليل أو نهار إلا توضأت وصليت ركعتين قال بهما ومعلوم أي الذي سمع خشخشته بين يديه هو روح بلال وإلا فجسده لم ينقل إلى الجنة

الوجه الرابع بعد المائة الأحاديث والآثار التي في زيارة القبور والسلام على أهلها ومخاطبتهم والأخبار عن معرفتهم بزوارهم وردهم عليهم السلام وقد تقدمت الإشارة إليها

الوجه الخامس بعد المائة شكاية كثير من أرواح الموتى إلى أقاربهم وغيرهم أمورا مؤذية فيجدونها كما شكوه فيزيلونها

الوجه السادس بعد المائة لو كانت الروح عبارة عن عرض من أعراض البدن أو جوهر مجرد ليس بجسم ولا حال فيه لكان قول القائل خرجت وذهبت وقمت وجئت وقعدت وتحركت ودخلت ورجعت ونحو ذلك كله أقوالا باطلة لأن هذه الصفات ممتنعة الثبوت في حق الأعراض والمجردات وكل عاقل يعلم صدق قوله وقول غيره ذلك فالقدح ذلك قدح في أظهر المعلومات من باب السفسطة لا يقال حاصل هذا الدليل التمسك بألفاظ الناس وإطلاقاتهم وهي تحتمل الحقيقة والمجاز فلعل مرادهم دخل جسمي وخرج لأنا إنما استدللنا بشهادة العقل والفطرة بمعاني هذه الألفاظ فكل أحد يشهد عقله وحسه بأنه هو الذي دخل وخرج وانتقل لا مجرد بدنه فشهادة الحس والعقل بمعاني هذه الألفاظ وإضافتها إلى الروح أصلا وإلى البدن تبعا من أصدق الشهادات والاعتماد على ذلك مجرد الإطلاق اللفظي

الوجه السابع بعد المائة أن البدن مركب ومحل لتصرف النفس فكان دخول البدن وخروجه وانتقاله جاريا مجرى دخول مركبه من فرسه ودابته فلو كانت النفس غير قابله للدخول والخروج والانتقال والحركة والسكون لكان ذلك بمنزلة دخول مركب الإنسان إلى الدار وخروجه منها دون دخوله هو وهذا معلوم البطلان بالضرورة وكل أحد يعلم أن نفسه وروحه هي التي دخلت وخرجت وانتقلت وصرفت البدن وجعلته تبعا لها في الدخول والخروج فهو لها بالأصل وللبدن بالتبع كلنه للبدن بالمشاهدة وللروح بالعلم والعقل

الوجه الثامن بعد المائة أن النفس لو كانت كما يقوله أنها عرض لكان الإنسان كل وقت قد يبدل مائة ألف نفس أو أكثر والإنسان إنما هو إنسان بروحه ونفسه لا ببدنه وكان الإنسان الذي هو الإنسان غير الذي قبله بلحظة وبعده بلحظة وهذا من نوع الهوس ولو كانت الروح مجردة وتعلقها بالبدن بالتدبير فقط لا بالمساكنة والمداخلة لم يمتنع أن ينقطع تعلقها بهذا البدن وتتعلق بغيره كما يجوز انقطاع تدبير المدبر لبيت أو مدينة عنها ويتعلق بتدبير غيرها وعلى هذا التدبير فنصير شاكين في أن هذه النفس التي لزيد هي النفس الأولى أو غيرها وهل زيد هو ذلك الرجل أم غيره وعاقل لا يجوز ذلك فلو كانت الروح عرضا أو أمرا مجردا لحصل الشك المذكور

الوجه التاسع بعد المائة أن كل أحد يقطع أن نفسه موصوفة بالعلم والفكر والحب والبغض والرضا والسخط وغيرها من الأحوال النفسانية ويعلم أن الموصوف ليس بذلك عرضا من أعراض بدنه ولا جوهرا مجردا منفصلا عن بدنه غير مجاور له ويقطع ضرورة بأن هذه الإدراكات لأمر داخل في بدنه كما يقطع بأنه إذا سمع وأبصر وشم وذاق ولمس وتحرك وسكن فتلك أمور قائمة به مضافة إلى نفسه وأن جوهر النفس هو الذي قام به ذلك كله لم يقم بمجرد ولا بعرض بل قام بمتحيز داخل العالم منتقل من مكان إلى مكان يتحرك ويسكن ويخرج ويدخل وليس إلا هذا البدن والجسم الساري فيه المشابك له الذي لولاه لكان بمنزلة الجماد

الوجه العاشر بعد المائة إن النفس لو كانت مجردة وتعلقها بالبدن تعلق التدبير فقط كتعلق الملاح بالسفينة والجمال بحمله لأمكنها ترك تدبير هذا البدن واشتغالها بتدبير بدن آخر كما يمكن

الملاح والجمال ذلك وفي ذلك تجويز نقل النفوس من أبدان إلى أبدان ولا يقال أن النفس اتحدت ببدنها فامتنع عليها الانتقال أو أنها لها عشق طبيعي وشوق ذاتي إلى تدبير هذا البدن فلهذا السبب امتنع انتقالها لأنا نقول الاتحاد ما لا يتحيز بالمتحيز محال ولأنها لو اتحدت به لبطلت ببطلانه ولأنها بعد الاتحاد إن بقيا فهما اثنان لا واحد وإن عدما معا وحدث ثالث فليس من الاتحاد في شيء وإن بقي أحدهما وعد الآخر فليس باتحاد أيضا وأما عشق النفس الطبيعي للبدن فالنفس إنما تعشقه لأنها تتناول اللذات بواسطته وإذا كانت الأبدان متساوية في حصول مطلوبها كانت نسبتها إليها على السواء فقولكم أن النفس المعينة عاشقة للبدن المعين باطل ومثال ذلك العطشان إذا صادف آنية متساوية كل مها يحصل غرضه امتنع عليه أن يعشق واحدا منها بعينه دون سائرها

الوجه الحادي عشر بعد المائة أن نفس الإنسان لو كانت جوهرا مجردا لا داخل العالم ولا خارجه ولا متصلة بالعالم ولا منفصلة عنه ولا مباينة ولا مجانبة لكان يعلم بالضرورة أنه موجود بهذه الصفة لأن علم الإنسان بنفسه وصفاتها أظهر من كل معلوم وأن علمه بما عداه تابع لعلمه بنفسه ومعلوم قطعا أن ذلك باطل فإن جماهير أهل الأرض يعلمون أن إثبات هذا الوجود محال في العقول شاهدا وغائبا فمن قال ذلك في نفسه وربه فلا نفسه عرف ولا ربه عرف

الوجه الثاني عشر بعد المائة أن هذا البدن المشاهد محل لجميع صفات النفس وإدراكاتها الكلية والجزئية ومحل للقردة على الحركات الإرادية فوجب أن يكون الحامل لتلك الإدراكات والصفات هو البدن وما سكن فيه أما أن يكون محلها جوهرا مجردا لا داخل العالم ولا خارجه فباطل بالضرورة

الوجه الثالث عشر بعد المائة أن النفس لو كانت مجردة عن الجسمية والتحيز لامتنع أن يتوقف فعلها على مماسة محل الفعل لأن ما لا يكون متحيزا يمتنع أن يصير مماسا للمتحيز ولو كان الأمر كذلك لكان فعلها على سبيل الاختراع من غير حاجة إلى حصول مماسة وملاقاة بين الفاعل وبين محل الفعل فكان الواحد منا يقدر على تحريك الأجسام من غير أن يماسها أو يماس شيئا

يماسها فإن النفس عندكم كما كانت قادرة على تحريك البدن من غير أن يكون بينها وبينه مماسة كذلك لا تمنع قدرتها على تحريك جسم غيره من غير مماسة له ولا لما يماسه وذلك باطل بالضرورة فعلم أن النفس لا تقوى على التحريك إلا بشرط أن تماس محل الحركة أو تماس ما يماسه وكل ما كان مماسه للجسم أو لما يماسه فهو جسم فإن قيل يجوز أن يكون تأثير النفس في تحريك بدنها الخاص غير مشروط بالمماسة وتأثيرها في تحريك غيره موقوف على حصول المماسة بين بدنها وبين ذلك الجسم فالجواب أنه لما كان قبول البدن لتصرفات النفس لا يتوقف على حصول المماسة بين النفس وبين البدن وجب أن تكون الحال كذلك في غيره من الأجسام لأن الأجسام متساوية في قبول الحركة ونسبة النفس إلى جميعها سواء لأنها إذا كانت مجردة عن الحجمية وعلائق الحجمية كانت نسبة ذاتها إلى الكل بالسوية ومتى كانت ذات الفاعل نسبتها إلى الكل بالسوية والقوابل نسبتها إلى ذلك الفاعل بالسوية كان التأثير بالنسبة إلى الكل على السواء فإذا استغنى الفاعل عن مماسة محل الفعل في حق البعض وجب أن يستغني في حق الجميع وإن افتقر إلى المماسة في البعض وجب افتقاره في الجميع فإن قيل النفس عاشقة لهذا البدن دون غيره فكان تأثيرها فيه أقوى من تأثيرها في غيره قيل هذا العشق الشديد يقتضي أن يكون تعلقها بالبدن أكثر وتصرفها فيه أقوى فأما أن يتغير مقتضى ذاتها بالنسبة إلى هذه الأجسام فذلك محال وهذا دليل في غاية القوة

الوجه الرابع عشر بعد المائة أن العقلاء كلهم متفقون على أن الإنسان هو هذا الحي الناطق المتغذي النامي الحساس المتحرك بالإرادة وهذه الصفات نوعان صفات لبدنه وصفات لروحه ونفسه الناطقة فلو كانت الروح جوهرا مجردا لا داخل العالم ولا خارجه ولا متصلة به ولا منفصلة عنه لكان الإنسان لا داخل العالم ولا خارجه ولا متصلا به ولا منفصلا عنه أو كان بعضه في العالم وبعضه لا داخل العالم ولا خارجه وكل عاقل يعلم بالضرورة بطلان ذلك وأن الإنسان بجملته داخل العالم بدنه وروحه وهذا في البطلان يضاهي قول من قال أن نفسه قديمة

غير مخلوقة فجعلوا نصف الإنسان مخلوقا ونصفه غير مخلوق فإن قيل نحن نسلم أن الإنسان كما ذكرتم إلا أنا نثبت جوهرا مجردا يدبر الإنسان الموصوف بهذه الصفات

قلنا فذلك الجوهر الذي أثبتموه مغاير للإنسان أو هو حقيقة الإنسان ولا بد لكم من أحد الأمرين فإن قلتم هو غير الإنسان رجع كلامكم إلى أنكم أثبتم للإنسان مدبرا غيره سميتموه نفسها وكلامنا الآن إنما هو في حقيقة الإنسان لا في مدبره فإن مدبر الإنسان وجميع العالم العلوي والسفلي هو الله الواحد القهار

الوجه الخامس عشر بعد المائة أن كل عاقل إذا قيل له ما الإنسان فإنه يشير إلى هذه البنية وما قام بها لا يخطر بباله أمر مغاير لها مجرد ليس في العالم ولا خارجه والعلم بذلك ضروري لا يقبل شكا ولا تشكيكا

الوجه السادس عشر بعد المائة أن عقول العالمين قاضيه بأن الخطاب متوجه إلى هذه البنية وما قام بها وساكها وكذلك المدح والذم والثواب والعقاب والترغيب والترهيب ولو أن رجلا قال المأمور والمنهي والممدوح والمذموم والمخاطب والعاقل جوهر مجرد ليس في العالم ولا خارجه ولا متصل به ولا منفصل عنه لأضحك العقلاء على عقله ولأطبقوا على تكذيبه وكل ما شهدت بدائه العقول وصرائحها ببطلانه كان الاستدلال على ثبوته استدلالا على صحة وجود المحال وبالله التوفيق

هل النفس والروح شيء واحد أم شيئان متغايران ؟؟

فأختلف الناس في ذلك ، فمن قائل أن مسماهما واحد وهم الجمهور

ومن قائل أنهما متغايران ونحن نكشف سر المسألة بحول الله وقوته فنقول النفس تطلق على أمور

أحدها الروح قال الجوهري النفس الروح والنفس الجسد

قلت (ابن القيم) والنفس في القرآن تطلق على الذات بجملتها كقوله تعالى ﴿ فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ ﴾ النور وقوله تعالى ﴿ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ النحل وقوله تعالى ﴿ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴾ المدثر وتطلق على الروح وحدها كقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴾ الفجر وقوله تعالى ﴿ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ﴾ الأنعام وقوله تعالى ﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴾ النازعات وقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ ﴾ يوسف

وأما الروح فلا تطلق على البدن لا بإنفراده ولا مع النفس ، وتطلق الروح على القرآن الذي أوحاه الله تعالى إلى رسوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ وعلى الوحي الذي يوحيه إلى أنبيائه ورسله قَالَ تَعَالَى: ﴿ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾ غافر ﴿ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ النحل وسمى ذلك روحا لما يحصل به من الحياة النافعة فإن الحياة بدونه لا تنفع صاحبها البتة بل حياة الحيوان البهيم خير منها وأسلم عاقبة .

وسميت الروح روحا لأن بها حياة البدن ، وكذلك سميت الريح لما يحصل بها من الحياة وهي من ذوات الواو ولهذا تجمع على أرواح قال الشاعر

إذا ذهبت الأرواح من نحو أرضكم ... وجدت لمسرها على كبدي بردا

ومنها الروح والريحان والاستراحة ، فسميت النفس روحا لحصول الحياة بها ، وسميت نفسا إما من الشيء النفيس لنفاستها وشرفها ، وإما من تنفس الشيء إذا خرج فلكثرة خروجها ودخولها في البدن سميت نفسا ومنه النفس بالتحريك فإن العبد كلما نام خرجت منه فإذا

استيقظ رجعت إليه فإذا مات خرجت خروجا كليا فإذا دفن عادت إليه فإذا سئل خرجت فإذا بعث رجعت إليه

فالفرق بين النفس والروح فرق بالصفات لا فرق بالذات وإنما سمي الدم نفسا لأن خروجه الذي يكون معه الموت يلازم خروج النفس وإن الحياة لا تتم إلا به كما لا تتم إلا بالنفس فلهذا قال

تسيل على حد الظباة نفوسنا ... وليست على غير الظباة تسيل

ويقال فاضت نفسه وخرجت نفسه وفارقت نفسه كما يقال خرجت روحه وفارقت ولكن الفيض الاندفاع وهلة واحدة ومنه الإفاضة وهي الاندفاع بكثرة وسرعة لكن أفاض إذا دفع باختياره وإرادته إذا اندفع قسرا وقهرا فالله سبحانه هو الذي يفيضها عند الموت فتفيض هي

وقالت فرقة أخرى من أهل الحديث والفقه والتصوف الروح غير النفس

قال مقاتل بن سليمان للإنسان حياة وروح ونفس فإذا نام خرجت نفسه التي يعقل بها الأشياء ولم تفارق الجسد بل تخرج كحبل ممتد له شعاع فيرى الرؤيا بالنفس التي خرجت منه وتبقى الحياة والروح في الجسد فيه يتقلب ويتنفس فإذا حرك رجعت إليه أسرع من طرفة عين فإذا أراد الله عز و جل أن يميته في المنام أمسك تلك النفس التي خرجت وقال أيضا إذا نام خرجت نفسه فصعدت إلى فوق فإذا رأت الرؤيا رجعت فأخبرت الروح ويخبر الروح فيصبح يعلم أنه قد رأى كيت وكيت

هل تموت الأرواح؟

ثم اختلفوا في الأرواح هل تموت بموت الأبدان والأنفس أو لا تموت ؟

اختلف الناس في هذا فقالت طائفة تموت الروح وتذوق الموت لأنها نفس وكل نفس ذائقة الموت ، قالوا وقد دلت الأدلة على أنه لا يبقى إلا الله وحده قال تعالى كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام وقال تعالى كل شيء هالك إلا وجهه

وقال آخرون لا تموت الأرواح فإنها خلقت للبقاء وإنما تموت الأبدان قالوا وقد دلت على هذا الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها ولو ماتت الأرواح لانقطع عنها النعيم والعذاب وقد قال تعالى { ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم } هذا مع القطع بأن أرواحهم قد فارقت أجسادهم وقد ذاقت الموت والصواب أن يقال موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت وإن أريد أنها تعدم وتضمحل وتصير عدما محضا فهي لا تموت بهذا الاعتبار بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في عذاب كما سيأتي إن شاء الله تعالى بعد هذا وكما صرح به النص أنها كذلك حتى يردها الله في جسدها وقد نظم أحمد بن الحسين الكندي هذا الاختلاف في قوله

تنازع الناس حتى لا اتفاق لهم ... إلا على شجب والخلف في الشجب

فقيل تخلص نفس المرء سالمة ... وقيل تشرك جسم المرء في العطب

قال أبو عبد الله وقال شيخنا أحمد بن عمرو الذي يزيح هذا الإشكال إن شاء الله تعالى أن الموت ليس بعدم محض وإنما هو انتقال من حال إلى حال ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين وهذه صفة الأحياء في الدنيا وإذا كان هذا في الشهداء كان الأنبياء بذلك أحق وأولى مع أنه قد صح عن النبي أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء وأنه اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس وفي السماء وخصوصا بموسى وقد أخبر بأنه ما من مسلم يسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن أموت لأنبياء إنما هو راجع إلى أن غيبوا عنا بحيث لا ندركهم وإن كانوا موجودين جاءوا ذلك كالحال في الملائكة فإنهم أحياء موجودون ولا تراهم وإذا تقرر أنهم أحياء فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق صعق كل من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله فأما صعق غير الأنبياء فموت وأما صعق الأنبياء فالأظهر أنه غشية فإذا نفخ في الصور نفخة

البعث فمن مات حى ومن غشى عليه أفاق ولذلك قال في الحديث المتفق على صحته فأكون أول من يفيق فنبينا أول من يخرج من قبره قبل جميع الناس إلا موسى فإنه حصل فيه تردد هل بعث قبله من غشيته أو بقى على الحالة التي كان عليها قبل نفخة الصعق مفيقا لأنه حوسب بصعقة يوم الطور وهذه فضيلة عظيمة لموسى ولا يلزم من فضيلة واحدة أفضليته على نبينا مطلقا لأن الشيء الجزئي لا يوجب أمرا كليا انتهى

أين مستقر الروح؟

أين مستقر الأرواح ما بين الموت إلى القيامة ؟ هل هي في السماء أم في الأرض ؟ وهل هي في الجنة أم لا ؟ وهل تودع في أجساد غير أجسادها التي كانت فيها فتنعم وتعذب فيها أم تكون مجردة ؟

فقال قائلون أرواح المؤمنين عند الله في الجنة شهداء كانوا أم غير شهداء إذا لم يحبسهم عن الجنة كبيرة ولا دين وتلقاهم ربهم بالعفو عنهم والرحمة لهم وهذا مذهب أبى هريرة وعبد الله بن عمر رضى الله عنهم

وقالت طائفة هم بفناء الجنة على بابها يأتيهم من روحها ونعيمها ورزقها

وقالت طائفة الأرواح على أفنية قبورها

قيل الأرواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت فمنها أرواح في أعلى عليين في الملا الأعلى وهي أرواح الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وهم متفاوتون في منازلهم كما رآهم النبي ليلة الإسراء

ومنها أرواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت وهي أرواح بعض الشهداء لا جميعهم بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه أو غيره كما في المسند عن محمد بن عبد الله بن جحش أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله مالي إن قتلت في سبيل الله قال الجنة فلما ولى قال إلا الذين ! سارني به جبريل آنفا

ومنهم من يكون محبوسا على باب الجنة كما في الحديث الآخر رأيت صاحبكم محبوسا على باب الجنة

ومنهم من يكون محبوسا في قبره كحديث صاحب الشملة التي غلها ثم استشهد فقال الناس هنيئا له الجنة فقال النبي والذي نفسي بيده إن الشملة التي غلها لتشتعل عليه نارا في قبره

ومنهم من يكون مقره باب الجنة كما في حديث ابن عباس الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية رواه أحمد وهذا بخلاف جعفر بن أبى طالب حيث أبدله الله من يديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء

ومنهم من يكون محبوسا في الأرض لم تصعد روحه إلى الملأ الأعلى فإنها كانت روحا سفلية أرضية فإن الأنفس الأرضية لا تجامع الأنفس السماوية كما لا تجامعها في الدنيا والنفس التي لم تكتسب في الدنيا معرفة ربها ومحبته وذكره والأنس به والتقرب إليه بل هي أرضية سفلية لا تكون بعد المفارقة لبدنها إلا هناك كما أن النفس العلوية التي كانت في الدنيا عاكفة ، فالروح بعد المفارقة تلحق بأشكالها وأخواتها وأصحاب عملها فتكون معهم هناك

ومنها أرواح تكون في تنور الزناة والزاني وأرواح في نهر الدم تسبح فيه وتلقم الحجارة فليس للأرواح سعيدها وشقيها مستقر واحد بل روح في أعلى عليين وروح أرضية سفلية لا تصعد عن الأرض

وذكر ابن كثير في تفسيره : ذكر السهيلي الخلاف بين العلماء في أن الروح هي النفس أو غيرها وقرر أنها ذات لطيفة كالهواء سارية في الجسد كسريان الماء في عروق الشجر وقرر أن الروح التي ينفخها الملك في الجنين هي النفس بشرط اتصالها بالبدن واكتسابها بسببه صفات مدح أو ذم فهي إما نفس مطمئنة أو أمارة بالسوء كما أن الماء هو حياة الشجر ثم يكسب بسبب اختلاطه معها اسماً خاصاً فإذا اتصل بالعنبة وعصر منها صار إما مصطاراً أو خمراً ولا يقال له ماء حينئذ إلا على سبيل المجاز وكذا لا يقال للنفس روح إلا على هذا النحو وكذا لا يقال للروح نفس إلا

باعتبار ما تؤول إليه فحاصل ما نقول: إن الروح هي أصل النفس ومادتها والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن فهي هي من وجه لا من كل وجه وهذا معنى حسن والله أعلم

قال ابن حجر في فتح الباري: قَوْلُهُ : (بَاب الْأَرْوَاح جُنُود مُجَنَّدَة) كَذَا ثَبَتَتْ هَذه التَّرْجَمَة في مُعْظَم الرِّوَايَات ، وَهيَ مُتَعَلِّقَة بتَرْجَمَة آدَم وَذُرِّيَّته ، للْإِشَارَة إِلَى أَنَّهُمْ رُكِّبُوا منْ الْأَجْسَام وَالْأَرْوَاح .

قَالَ الْخَطَّابِيُّ : يُحْتَمَل أَنْ يَكُون إِشَارَة إِلَى مَعْنَى التَّشَاكُل في الْخَيْر وَالشَّرّ وَالصَّلَاح وَالْفَسَاد ، وَأَنَّ الْخَيِّرَ منْ النَّاس يَحِنّ إِلَى شَكْله وَالشِّرِّير نَظير ذَلكَ يَميل إِلَى نَظيره فَتَعَارُف الْأَرْوَاح يَقَع بحَسَب الطِّبَاع الَّتي جُبلَتْ عَلَيْهَا منْ خَيْر وَشَرّ ، فَإِذَا اتَّفَقَتْ تَعَارَفَتْ ، وَإِذَا اخْتَلَفَتْ تَنَاكَرَتْ . وَيُحْتَمَل أَنْ يُرَاد الْإِخْبَار عَنْ بَدْء الْخَلْق في حَال الْغَيْب عَلَى مَا جَاءَ أَنَّ الْأَرْوَاح خُلقَتْ قَبْل الْأَجْسَام ، وَكَانَتْ تَلْتَقي فَتَتَشَاءَم ، فَلَمَّا حَلَّتْ بالْأَجْسَام تَعَارَفَتْ بالْأَمْر الْأَوَّل فَصَارَ تَعَارُفهَا وَتَنَاكُرهَا عَلَى مَا سَبَقَ منْ الْعَهْد الْمُتَقَدّم . وَقَالَ غَيْره : الْمُرَاد أَنَّ الْأَرْوَاح أَوَّل مَا خُلقَتْ خُلقَتْ عَلَى قسْمَيْن ، وَمَعْنَى تَقَابُلهَا أَنَّ الْأَجْسَاد الَّتي فيهَا الْأَرْوَاح إِذَا الْتَقَتْ في الدُّنْيَا ائْتَلَفَتْ أَوْ اخْتَلَفَتْ عَلَى حَسَب مَا خُلقَتْ عَلَيْه الْأَرْوَاح في الدُّنْيَا إِلَى غَيْر ذَلكَ بالتَّعَارُف . قُلْت : وَلَا يُعَكّر عَلَيْه أَنَّ بَعْض الْمُتَنَافرينَ رُبَّمَا ائْتَلَفَا ، لأَنَّهُ مَحْمُول عَلَى مَبْدَأ التَّلَاقي ، فَإِنَّهُ يَتَعَلَّق بأَصْل الْخلْقَة بغَيْر سَبَب . وَأَمَّا في ثَاني الْحَال فَيَكُون مُكْتَسَبًا لتَجَدُّد وَصْف يَقْتَضي الْأُلْفَة بَعْد النُّفْرَة كَإِيمَان الْكَافر وَإِحْسَان الْمُسيء . وَقَوْله " جُنُود مُجَنَّدَة " أَيْ أَجْنَاس مُجَنَّسَة أَوْ جُمُوع مُجَمَّعَة ، قَالَ ابْن الْجَوْزيّ : وَيُسْتَفَاد منْ هَذَا الْحَديث أَنَّ الْإِنْسَان إِذَا وَجَدَ منْ نَفْسه نُفْرَة ممَّنْ لَهُ فَضيلَة أَوْ صَلَاح فَيَنْبَغي أَنْ يَبْحَث عَنْ الْمُقْتَضي لذَلكَ ليَسْعَى في إِزَالَته حَتَّى يَتَخَلَّص منْ الْوَصْف الْمَذْمُوم ، وَكَذَلكَ الْقَوْل في عَكْسه . وَقَالَ الْقُرْطُبيّ : الْأَرْوَاح وَإِنْ اتَّفَقَتْ في كَوْنهَا أَرْوَاحًا لَكنَّهَا تَتَمَايَز بأُمُورٍ مُخْتَلفَة تَتَنَوَّع بهَا ، فَتَتَشَاكَل أَشْخَاص النَّوْع الْوَاحد وَتَتَنَاسَب بسَبَب مَا اجْتَمَعَتْ فيه منْ الْمَعْنَى الْخَاصّ لذَلكَ النَّوْع للْمُنَاسَبَة ، وَلذَلكَ نُشَاهد أَشْخَاص كُلّ نَوْع تَأْلَف نَوْعهَا وَتَنْفر منْ مُخَالفهَا . ثُمَّ إِنَّا نَجد

بَعْض أَشْخَاص النَّوْع الْوَاحد يَتَآلَف وَبَعْضهَا يَتَنَافَر ، وَذَلكَ بحَسَب الْأُمُور الَّتي يَحْصُل الاتّفَاق وَالانْفرَاد بسَبَبهَا .

وَرُوّينَاهُ مَوْصُولًا في مُسْنَد أَبي يَعْلَى وَفيه قصَّة في أَوَّله عَنْ عَمْرَةَ بنْت عَبْد الرَّحْمَن قَالَتْ " كَانَتْ امْرَأَة مَزَّاحَة بمَكَّة فَنَزَلَتْ عَلَى امْرَأَة مثْلهَا في الْمَدينَة ، فَبَلَغَ ذَلكَ عَائشَة فَقَالَتْ : صَدَقَ حبّي ، سَمعْت رَسُول اللَّه ﷺ : " فَذَكَرَ مثْله .

(١٧) الحكمة من بقاء إبليس لآخر الدهر

العزيز الحكيم أمهل إبليس اللعين شيطان الشر إلى يوم الوقت المعلوم قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾ الحجر وجعله شيطانا بعدما كان صالحا عالما طائعا فأبلسه وأذن له في الفساد في الأرض وإغواء بني آدم وقومه الجن ، وفي هذا الإمهال من الحكم والفوائد العظيمة الكثير الكثير كما يقول الإمام ابن القيم في شفاء العليل تضيق به الأوهام فمنها فمنها أنه سبحانه لما جعله محكا ومحنة يخرج به الطيب من الخبيث ووليه من عدوه اقتضت حكمته إبقاءه ليحصل الغرض المطلوب بخلقه ، ولو أماته لفات ذلك الغرض كما أن الحكمة اقتضت بقاء أعدائه الكفار في الأرض إلى آخر الدهر ، ولو أهلكهم البتة لتعطلت الحكم الكثيرة في إبقائهم فكما اقتضت حكمته امتحان أبي البشر اقتضت امتحان أولاده من بعده به فتحصل السعادة لمن خالفه وعاداه وينحاز إليه من وافقه ووالاه .

ومنها أنه لما سبق حلمه وحكمته أنه لا نصيب له في الآخرة وقد سبق له طاعة وعبادة جزاه بها في الدنيا بأن أعطاه البقاء فيها إلى آخر الدهر فإنه سبحانه لا يظلم أحدا حسنة عملها فأما المؤمن فيجزيه بحسناته في الدنيا وفي الآخرة وأما الكافر فيجزيه بحسنات ما عمل في الدنيا فإذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له شيء كما ثبت هذا المعنى في الصحيح عن النبي ﷺ .

ومنها أن إبقاءه لم يكن كرامة في حقه فإنه لو مات كان خيرا له وأخف لعذابه وأقل لشره ولكن لما غلظ ذنبه بالإصرار على المعصية ومخاصمة من ينبغي التسليم لحكمه والقدح في حكمته والحلف على اقتطاع عباده وصدهم عن عبوديته كانت عقوبة الذنب أعظم عقوبة بحسب تغلظه فأبقى في الدنيا وأملى له ليزداد هذا إثما على أثم ذلك الذنب فيستوجب العقوبة التي لا تصلح لغيره فيكون رأس أهل الشر في العقوبة كما كان رأسهم في الشر والكفر ولما كان مادة كل شر فعنه ينشأ جوزي في النار مثل فعله فكل عذاب ينزل بأهل النار يبدأ به فيه ثم يسري منه إلى أتباعه عدلا ظاهرا أو حكمة بالغة

ومنها أنه قال في مخاصمته لربه ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾الإسراء وعلم سبحانه أن في الذرية من لا يصلح لمساكنته في داره ولا يصلح إلا لما يصلح له الشوك والروث أبقاه له وقال له بلسان القدر هؤلاء أصحابك وأوليائك فاجلس في انتظارهم وكلما مر بك واحد منهم فشأنك به فلو صلح لي لما ملكتك منه فإني أتولى الصالحين وهم الذي يصلحون لي وأنت ولي المجرمين الذين غنوا عن موالاتي وابتغاء مرضاتي قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾النحل

فأما إماتة الأنبياء والمرسلين فلم يكن ذلك لهوانهم عليه ولكن ليصلوا إلى محل كرامته ويستريحوا من نكد الدنيا وتعبها ومقاساة أعدائهم أتباعهم وليحي الرسل بعدهم يرى رسولا بعد رسول فأماتتهم أصلح لهم وللأمة، أما هم فلراحتهم من الدنيا ولحوقهم بالرفيق الأعلى في أكمل لذة وسرور ولا سيما وقد خيرهم ربهم بين البقاء في الدنيا واللحاق به ، وأما الأمم فيعلم أنهم لم يطيعوهم في حياتهم خاصة بل أطاعوهم بعد مماتهم كما أطاعوهم في حياتهم وأن أتباعهم لم يكونوا يعبدونهم بل يعبدون الله بأمرهم ونهيهم والله هو الحي الذي لا يموت ، فكم في إماتتهم من حكمة ومصلحة لهم وللأمم هذا ، وهم بشر ولم يخلق الله البشر في الدنيا على خلقه قابلة للدوام بل جعلهم خلائف في الأرض يخلف بعضهم بعضا فلو أبقاهم لفاتت المصلحة والحكمة في جعلهم خلائف ولضاقت بهم الأرض فالموت كمال لكل مؤمن ، ولولا الموت لما طاب العيش في الدنيا ولا هناء لأهلها بها فالحكمة في الموت كالحكمة في الحياة

(١٨) فلسفة الخروج من الجنة

واذا قيل: أي حكمة ومصلحة في إخراج آدم من الجنة إلى دار الابتلاء والامتحان فالجواب أن يقال كم لله سبحانه في ذلك من حكمة وكم فيه من نعمة ومصلحة تعجز العقول عن معرفتها على التفصيل ولو استفرغت قواها كلها في معرفة ذلك ، وإهباط آدم وإخراجه من الجنة كان يعسر كماله ليعود إليها على أحسن أحواله .

وهو سبحانه إنما خلقه ليستعمره وذريته في الأرض ويجعلهم خلفاء يخلف بعضهم بعضا فخلقهم سبحانه ليأمرهم وينهاهم ويبتليهم وليست الجنة دار ابتلاء وتكليف فأخرج الأبوين إلى الدار التي خلقوا منها وفيها ليتزودوا منها إلى الدار التي خلقوا لها فإذا وفوا تعب دار التكليف ونصبها عرفوا قدر تلك الدار وشرفها وفضلها ولو نشأوا في تلك الدار لما عرفوا قدر نعمته عليهم بها فأسكنهم دار الامتحان وعرضهم فيها لأمره ونهيه لينالوا بالطاعة أفضل ثوابه وكرامته وكان من الممكن أن يحصل لهم النعيم المقيم هناك لكن الحاصل عقيب الابتلاء والامتحان ومعاناة الموت وما بعده وأهوال القيامة والعبور على الصراط نوع آخر من النعيم لا يدرك قدره وهو أكمل من نعيم من خلق في الجنة من الولدان والحور العين بما لا يشبه بينهما بوجه من الوجوه .

ومن الحكم في ذلك أنه سبحانه أراد أن يتخذ من ذرية آدم رسلا وأنبيائه وشهداء يحبهم ويحبونه وينزل عليهم كتبه ويعهد إليهم عهده ويستعبدهم له في السراء والضراء ويؤثرون محابه ومراضيه على شهواتهم وما يحبونه ويهوونه فاقتضت حكمته أن أنزلهم إلى دار ابتلاهم فيها بما ابتلاهم ليكلموا بذلك الابتلاء مراتب عبوديته ويعبدونه بما تكرهه نفوسهم وذلك محض العبودية وإلا فمن يعبد الله إلا بما يحبه ويهواه فهو في الحقيقة إنما يعبد نفسه وهو سبحانه يحب من أوليائه أن يولوا فيه ويعادوا فيه ويبذلوا نفوسهم في مرضاته ومحابه وهذا كله لا يحصل في دار النعيم المطلق ، ومن الحكمة في إخراجه من الجنة ما تقدم التنبيه عليه من اقتضاء أسماء الله الحسنى لمسمياتها ومتعلقاتها كالغفور الرحيم التواب العفو المنتقم الخافض الرافع المعز المذل

المحيي المميت الوارث ولا بد من ظهور أثر هذه الأسماء ووجود ما يتعلق به فاقتضت حكمته أن إنزال الأبوين من الجنة ليظهر مقتضى أسمائه وصفاته فيهما وفي ذريتهما فلو تربت الذرية في الجنة لفاتت أثار هذه الأسماء وتعلقاتها ، والكمال الإلهي يأبى ذلك فإنه الملك الحق المبين والملك هو الذي يأمر وينهى ويكرم ويهين ويثيب ويعاقب ويعطي ويمنع ويعز ويذل فأنزل الأبوين والذرية إلى دار تجري عليهم هذه الأحكام .

وأيضا فإنهم أنزلوا إلى دار يكون إيمانهم تاما فإن الإيمان قول وعمل وجهاد وصبر واحتمال وهذا كله إنما يكون في دار الامتحان لا في جنة النعيم وقد ذكر غير واحد من أهل العلم منهم أبو الوفا بن عقيل وغيره أن أعمال الرسل والأنبياء والمؤمنين في الدنيا أفضل من نعيم الجنة قالوا لأن نعيم الجنة حظهم وتمتعهم فأين يقاس إلى الإيمان وأعماله والصلوات وقراءة القرآن والجهاد في سبيل الله وبذل النفوس في مرضاته وإيثاره على هواها وشهواتها فالأيمان متعلق به سبحانه وهو حقه عليهم ونعيم الجنة متعلق بهم وهو حظهم فهم إنما خلقوا للعبادة والجنة دار نعيم لا دار تكليف وعبادة.

وأيضا فإنه سبحانه سبق حكمه وحكمته بأن يجعل في الأرض خليفة وأعلم بذلك ملائكته فهو سبحانه قد أراد بكون هذا الخليفة وذريته في الأرض قبل خلقه لما له في ذلك من الحكم والغايات الحميدة فلم يكن بد من إخراجه من الجنة إلى دار قد سكناهم فيها قبل أن يخلقه وكان ذلك التقدير بأسباب وحكم فمن أسبابه النهي عن تلك الشجرة وتخليته بينه وبين عدوه حتى وسوس إليه بالأكل وتخليته بينه وبين نفسه حتى وقع في المعصية وكانت تلك الأسباب موصلة إلى غايات محمودة مطلوبة يترتب على خروجه من الجنة ثم يترتب على خروجه أسباب أخر جعلت غايات لحكم ومن تلك الغايات عوده إليها على أكمل الوجوه فذلك التقدير وتلك الأسباب وغاياتها صادرة عن محض الحكمة البالغة التي يحمده عليها أهل السماوات والأرض والدنيا والآخرة فما قدر أحكم الحاكمين ذلك باطلا ولا دبره عبثا ولا أخلاه من حكمته البالغة وحمده التام.

وأيضا فإنه سبحانه قال للملائكة ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾البقرة ثم أظهر سبحانه من علمه وحكمته الذي خفي على الملائكة من أمر هذا الخليفة ما لم يكونوا يعرفونه بأن جعل من نسله من أوليائه وأحبائه ورسله وأنبيائه من يتقرب إليه بأنواع التقرب ويبذل نفسه في محبته ومرضاته يسبح بحمده أناء الليل وأطراف النهار ويذكره قائما وقاعدا وعلى جنبه ويعبده ويذكره ويشكره في السراء والضراء والعافية والبلاء والشدة والرخاء فلا يثنيه عن ذكره وشكره وعبادته شدة ولا بلاء ولا فقر ولا مرض ويعبده مع معارضة الشهوة وغلبات الهوى وتعاضد الطباع لأحكامها ومعاداة بني جنسه وغيرهم له فلا يصده ذلك عن عبادته وشكره وذكره والتقرب إليه فإن كانت عبادتكم لي بلا معارض ولا ممانع فعبادة هؤلاء لي مع هذه المعارضات والموانع والشواغل

وأيضا فإنه سبحانه أراد أن يظهر لهم ما خفي عليهم من شأن ما كانوا يعظمونه ويجلونه ولا يعرفون ما في نفسه من الكبر والحسد والشر فذلك الخير وهذا الشر كامن في نفوس لا يعلمونها فلا بد من إخراجه وإبرازه لكي يعلم حكمة أحكم الحاكمين في مقابلة كل منهما بما يليق به

وأيضا فإنه سبحانه لما خلق خلقه أطوارا وأصنافا وسبق في حكمه وحكمته تفضيل آدم وبنيه على كثير ممن خلق تفضيلا جعل عبوديتهم أكمل من عبودية غيرهم وكانت العبودية أفضل أحوالهم وأعلى درجاتهم أعني العبودية الاختيارية التي يأتون بها طوعا واختيارا لا كرها واضطرارا ولهذا أرسل الله جبريل إلى سيد هذا النوع الإنساني يخيره بين أن يكون عبدا رسولا أو ملكا نبيا فاختار بتوفيق ربه له أن يكون عبدا رسولا وذكره سبحانه بأتم العبودية في أشرف مقاماته وأفضل أحواله كمقام الدعوة والتحدي والإسراء وإنزال القرآن قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴿١٩﴾ ﴾الجن قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴿٢٣﴾ ﴾البقرة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴿١﴾ ﴾الإسراء قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴿١﴾ ﴾

الفرقان فأثنى عليه ونوه الله لعبوديته التامة له ولهذا يقول أهل الموقف حين يطلبون الشفاعة اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فلما كانت العبودية أشرف أحوال بني آدم وأحبها إلى الله وكان لها لوازم وأسباب مشروطة لا يحصل إلا بها كان من أعظم الحكمة أن أخرجوا إلى دار تجري عليهم فيها أحكام العبودية وأسبابها وشروطها وموجباتها فكان إخراجهم من الجنة تكميلا لهم وإتماما لنعمته عليهم مع ما في ذلك من محبوبات الرب تعالى فإنه يحب إجابة الدعوات وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات ومغفرة الزلات وتكفير السيئات ودفع البليات وإعزاز من يستحق العز وإذلال من يستحق الذل ونصر المظلوم وجبر الكسير ورفع بعض خلقة على بعض وجعلهم درجات ليعرف قدر فضله وتخصيصه فاقتضى ملكه التام وحمده الكامل أن يخرجهم إلى دار يحصل فيها محبوباته سبحانه وإن كان لكثير منها طرق وأسباب يكرهها فالوقوف على الشيء لا بدونه وإيجاد لوازم الحكمة من الحكمة كما أن إيجاد لوازم العدل من العدل .

وأنه سبحانه أبرز خلقه من العدم إلى الوجود ليجري عليه أحكام أسمائه وصفاته فيظهر كماله المقدس وإن كان لم يزل كاملا فمن كماله ظهور آثار كماله في خلقه وأمره وقضائه وقدره ووعده ووعيده ومنعه وإعطائه وإكرامه وإهانته وعدله وفضله وعفوه وإنعامه وسعة حلمه وشدة بطشه وقد اقتضى كماله المقدس سبحانه أنه كل يوم هو في شأن فمن جملة شؤونه أن يغفر ذنبا ويفرج كربا ويشفي مريضا ويفك عانيا وينصر مظلوما ويغيث ملهوفا ويجبر كسيرا ويغني فقيرا ويجيب دعوة ويقيل عثرة ويعز ذليلا ويذل متكبرا ويقصم جبارا و يميت ويحيي ويضحك ويبكي ويخفض ويرفع ويعطي ويمنع ويرسل رسله من الملائكة ومن البشر في تنفيذ أوامره وسوق مقاديره التي قدرها إلى مواقيتها التي وقتها لها وهذا كله لم يكن ليحصل في ذات البقاء وإنما اقتضت حكمته البالغة حصوله في دار الامتحان والابتلاء يوضحه

أن كمال ملكه التام اقتضى كمال تصرفه فيه بأنواع التصرف ولهذا جعل الله سبحانه الدور ثلاثة دارا أخلصها للنعيم واللذة والبهجة والسرور ودارا أخلصها للألم والنصب وأنواع البلاء

والشرور ودارا خلط خيرها بشرها ومزج نعيمها بشقائها ومزج لذتها بألمها يلتقيان ويطالبان وجعل عمارة تينك الدارين من هذه الدار وأجرى أحكامه على خلقه في الدور الثلاثة بمقتضى ربوبيته وإلهيته وعزته وحكمته وعدله ورحمته فلو أسكنهم كلهم دار البقاء من حين أوجدهم لتعطلت أحكام هذه الصفات ولم يترتب عليها آثارها

أن يوم المعاد الأكبر يوم مظهر الأسماء والصفات وأحكامها ولهذا يقول سبحانه ﴿ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦ ﴾ غافر قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ ٢٦ ﴾ الفرقان قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩ ﴾ الانفطار حتى أن الله سبحانه ليتعرف إلى عباده ذلك اليوم بأسماء وصفات لم يعرفوها في هذه الدار فهو يوم ظهور المملكة العظمى والأسماء الحسنى والصفات العلي فتأمل ما أخبر به والله ورسوله من شأن ذلك اليوم وأحكامه وظهور عزته تعالى وعظمته وعدله وفضله ورحمته وآثار صفاته المقدسة التي لو خلقوا دار البقاء لتعطلت وكماله سبحانه ينفي ذلك وهذا دليل مستقل لمن عرف الله تعالى وأسمائه وصفاته على وقوع المعاد وصدق الرسل فيما أخبروا به عن الله عنه فيطابق دليل العقل ودليل السمع على وقوعه

أن الله سبحانه يحب أن يعبد بأنواع التعبدات كلها ولا يليق ذلك إلا بعظمته وجلاله ولا يحسن ولا ينبغي إلا الإله وحده ومن المعلوم أن أنواع التعبد الحاصلة في دار الابتلاء والامتحان لا يكون في دار المجازاة وإن كان في هذه الدار بعض المجازاة وكمالها وتمامها إنما هو في تلك الدار وليست دار عمل وإنما هي دار جزاء وثواب أوجب كماله المقدس قَالَ تَعَالَى: ﴿ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ٣١ ﴾ النجم فلم يكن بد من دار تقع فيها الإساءة والإحسان ويجري على أهلها أحكام الأسماء والصفات ثم يعقبها دارا يجازي فيها المحسن والمسيء ويجري على أهلها فيها أحكام الأسماء والصفات فتعطيل أسمائه وصفاته ممتنع ومستحيل وهو تعطيل

لربوبيته وإلهيته وملكه وعزه وحكمته فمن فتح له باب من الفقه في أحكام الأسماء والصفات وعلم اختصاصها لآثارها ومتعلقاتها واستحالة تعطيلها علم أن الأمر كما أخبرت به الرسل وأنه لا يجوز عليه سبحانه ولا ينبغي له غيره وأنه ينزه عن خلاف

ذلك كما ينزه عن سائر العيوب والنقائص وهذا باب عزيز من أبواب الإيمان فيفتحه الله على من يشاء من عباده ويحرمه من يشاء

أنه كم لله سبحانه من حكمة وحمد وأمر ونهي وقضاء وقدر في جعل بعض عباده فتنة لبعض كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴿٥٣﴾﴾ الأنعام قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ الفرقان فهو سبحانه جعل أوليائه فتنة لأعدائه وأعداءه فتنته لأوليائه والملوك فتنة للرعية والرعية فتنة لهم والرجال فتنة للنساء وهن فتنة لهم والأغنياء فتنة للفقراء والفقراء فتنة لهم وابتلى كل أحد بضد جعله متقابلا فما استقرت أقدام الأبوين على الأرض إلا وضدهما مقابلهما واستمر الأمر في الذرية كذلك إلى أن يطوي الله الدنيا ومن عليها وكم له سبحانه في مثل هذا الابتلاء والامتحان من حكمة بالغة ونعمة سابغة وحكم نافذ وأمر ونهي وتصريف دال على ربوبيته وإلهيته وملكه وحمده وكذلك ابتلاء عباده بالخير والشر في هذه الدار هو من كمال حكمته ومقتضى حمده التام

أنه لولا هذا الابتلاء والامتحان لما ظهر فضل الصبر والرضا والتوكل والجهاد والعفة والشجاعة والحلم والعفو والصفح والله سبحانه يحب أن يكرم أوليائه بهذه الكمالات ويحب ظهورها عليهم ليثني بها عليهم هو وملائكته وينالوا باتصافهم بها غاية الكرامة واللذة والسرور وإن كانت مرة المبادئ فلا أحلى من عواقبها ووجود الملزم بدون لازمه ممتنع وقد أجرى الله سبحانه حكمته بأن كمال الغايات تابعة لقوة أسبابها وكمالها ونقصانها لنقصانها فمن كمل أسباب النعيم واللذة كملت له غاياتها ومن حرمها حرمها ومن نقصها نقص له من غاياتها وعلى هذا قام الجزاء بالقسط والثواب والعقاب وكفى بهذا العالم شاهدا لذلك فرب الدنيا

والآخرة واحد وحكمته مطردة فيهما وله الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون يوضحه

وهو أن أفضل العطاء وأجله على الإطلاق الإيمان وجزاؤه وهو لا يتحقق إلا بالامتحان والاختبار قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾ العنكبوت فذكر سبحانه في هذه السورة أنه لا بد أن يمتحن خلقه ويفتنهم ليتبين الصادق من الكاذب والمؤمن من الكافر ومن يشكره ويعبده ممن يكفره ويعرض عنه ويعبد غيره وذكر أحوال الممتحنين في العاجل والآجل وذكر أئمة الممتحنين في الدنيا وهم الرسل وأتباعهم وعاقبة أمرهم وما صاروا إليه وافتتح بالإنكار على من يحسب أنه يتخلص من الامتحان والفتنة في هذه الدار إذا ادعى الإيمان وأن حكمته سبحانه وشأنه في خلقه يأبى ذلك وأخبر عن سر هذه الفتنة والمحنة وهو تبيين الصادق من الكاذب والمؤمن من الكافر وهو سبحانه كان يعلم ذلك قبل وقوعه ولكن اقتضى عدله وحمده أنه لا يجزي العباد بمجرد علمه فيهم بل بمعلومه إذا وجد وتحقق والفتنة هي التي أظهرته وأخرجته إلى الوجود فحينئذ حسن وقوع الجزاء عليه ثم أنكر سبحانه على من لم يلتزم الإيمان به ومتابعة رسله خوف الفتنة والمحنة التي يمتحن بها رسله وأتباعهم ظنه وحسبانه أنه بإعراضه عن الإيمان وتصديق رسله يتخلص من الفتنة والمحنة فإن بين يديه من الفتنة والمحنة والعذاب أعظم وأشق مما فرعنه فإن المكلفين بعد إرسال الرسل إليهم بين أمرين إما أن يقول أحدهم آمنت وإما أن لا يقول بل يستمر على السيئات فمن قال آمنا امتحنه الرب تعالى وابتلاه لتتحقق بالإيمان حجة إيمانه وثباته عليه وأنه ليس بإيمان عافية ورخاء فقط بل إيمان ثابت في حالتي النعماء والبلاء ومن لم يؤمن فلا يحسب أنه يعجز ربه تعالى ويفوته بل هو في قبضته وناصيته بيده فله من البلاء أعظم مما ابتلى به من قال آمنت فمن آمن به وبرسله فلا بد أن يبتلي من أعداد رسله بما يؤلمه ويشق عليه ومن لم يؤمن به

وبرسله فلا بد أن يعاقبه فيحصل له من الألم والمشقة أضعاف ألم المؤمنين فلا بد من حصول الألم لكل نفس مؤمنة أو كافرة لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا أشد ثم ينقطع ويعقبه أعظم اللذة والكافر يحصل له اللذة والسرور ابتداء ثم ينقطع ويعقبه أعظم الألم والمشقة وهكذا حال الذين يتبعون الشهوات فيلتذون بها ابتداء ثم تعقبها الآلام لم بحسب ما نالوه منها والذين يصبرون عنها ينالون بفقدها ابتداء ثم يعقب ذلك الألم من اللذة والسرور بحسب ما صبروا عنه وتركوه منها فالألم واللذة أمر ضروري لكل إنسان لكن الفرق بين العاجل المنقطع اليسير والآجل الدائم العظيم بون ولهذا كان خاصة العقل النظر في العواقب والغايات فمن ظن أنه يتخلص من الألم بحيث لا يصيبه البتة فظنه أكذب الحديث فإن الإنسان خلق عرضة للذة والألم والسرور والحزن والفرح والغم وذلك من جهتين من جهة تركبه وطبيعته وهيئته فإنه مركب من أخلاط متفاوتة متضادة يمتنع أو يعز اعتدالها من كل وجه بل لا بد أن يبغي بعضها على بعض فيخرج عن حد الاعتدال فيحصل الألم ومن جهة بني جنسه فإنه مدني بالطبع لا يمكنه أن يعيش وحده بل لا يعيش إلا معهم وله ولهم لذاذات ومطالب متضادة ومتعارضة لا يمكن الجمع بينها بل إذا حصل منها شيء فات منها أشياء فهو يريد منهم أن يوافقوه على مطالبه وإرادته وهم يريدون منه ذلك فإن وافقهم حصل له من الألم والمشقة بحسب ما فاته من إرادته وإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه وسعوا في تعطيل مراداته كما لم يوافقهم على مراداتهم فيحصل له من الألم والتعذيب بحسب ذلك فهو في ألم ومشقة وعناء وافقهم أو خالفهم ولا سيما إذا كانت موافقتهم على أمور يعلم أنها عقائد باطلة وإرادات فاسدة وأعمال تضره في عواقبها ففي موافقتهم أعظم الألم وفي مخالفتهم حصول الألم فالعقل والدين والمروءة والعلم تأمره باحتمال أخف الألمين تخلصا من أشدهما وبإيثار المنقطع منهما لينجو من الدائم المستمر فمن كان ظهيرا للمجرمين من الظلمة على ظلمهم ومن أهل الأهواء والبدع على أهوائهم وبدعهم ومن أهل الفجور والشهوات على فجورهم وشهواتهم ليتخلص بمظاهرتهم من ألم أذاهم أصابه من ألم الموافقة لهم عاجلا وآجلا أضعاف أضعاف ما فر منه وسنة الله في خلقه أن يعذبهم بإنذار من إيمانهم وظاهرهم وأن صبر

على ألم مخالفتهم وجانبتهم أعقبه ذلك لذة عاجلة وآجلة تزيد على لذة الموافقة بأضعاف مضاعفة وسنة الله في خلقه أن يرفعه عليهم ويذلهم به بحسب صبره وتقواه وتوكله وإخلاصه وإذا كان لا من الألم والعذاب فذلك في الله وفي مرضاته ومتابعة رسله أولى وأنفع منه في الناس ورضائهم وتحصيل مراداتهم ولما كان زمن التألم والعذاب فصبره طويل فأنفاسه ساعات وساعاته أيام وأيامه شهور وأعوام بلا سبحانه المتحنين فيه بأن ذلك الابتلاء آجلا ثم ينقطع وضرب لأهله أجلا للقائه يسليهم به ويشكر نفوسهم ويهون عليهم أثقاله فقال [من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم] فإذا تصور العبد أجل ذلك البلاء وانقطاعه وأجل لقاء المبتلى سبحانه وإثباته هان عليه ما هو فيه وخف عليه حمله ثم لما كان ذلك لا يحصل إلا بمجاهدة للنفس وللشيطان ولبني جنسه وكان العامل إذا علم أن ثمرة علمه وتعبه يعود عليه وحده لا يشكره فيه غيره كأن أتم اجتهادا وأوفر سعيا فقال تعالى ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه أن الله لغني عن العالمين وأيضا فلا يتوهم متوهم أن منفعة هذه المجاهدة والصبر والاحتمال يعود على الله سبحانه فإنه غني عن العالمين لم يأمرهم بما أمرهم به حاجة منه إليهم ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلا منه عليهم بل أمرهم بما يعود نفعه ومصلحته عليهم في معاشهم ومعادهم ونهاهم عما يعود مضرته وعتيه عليهم في معاشهم ومعادهم فكانت ثمرة هذا الابتلاء والامتحان مختصة بهم واقتضت حكمته أن نصب ذلك سببا مقضيا إلى يميز الخبيث من الطيب والشقي من الغوي ومن يصلح له ممن لا يصلح قال تعالى[ما كان الله لينذر المؤمنين على ما انتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب] فابتلاهم سبحانه بإرسال الرسل إليهم بأوامره ونواهيه واختياره فامتاز برسله طيبهم من خبيثهم وجيدهم من رديئهم فوقع الثواب والعقاب على معلوم أظهره ذلك الابتلاء والامتحان ثم لما كان الممتحن لا بد أن ينحرف عن طريق الصبر والمجاهدة لدواعي طبيعته وهواه وضعفه عن مقاومة ما ابتلي به وعده سبحانه أن يتجاوز له عن ذلك ويكفره عنه لأنه لما أمر به والتزم طاعته اقتضت رحمته أن كفر عنه سيئاته وجازاه بأحسن أعماله ثم ذكر سبحانه ابتلاء العبد بأبويه وما أمر به من طاعتهما وصبره على مجاهدتهما له على أن لا يشرك به

فيصبر على هذه المحنة والفتنة ولا يطيعهما بل يصاحبهما على هذه الحال معروفا ويعرض عنهما إلى متابعة سبيل رسله .

وفي الإعراض عنهما وعن سبيلهما والإقبال على من خالفهما وعلى سبيله من الامتحان والابتلاء ما فيه ثم ذكر سبحانه حال من دخل في الإيمان على ضعف عزم وقلة صبر وعدم ثبات على المحنة والابتلاء وأنه إذا أوذي في الله كما جرت به سنة الله واقتضت حكمته من ابتلاء أوليائه بأعدائه وتسليطهم عليهم بأنواع المكاره والأذى لم يصبر على ذلك وجزع منه وفر منه ومن أسبابه كما يفر من عذاب الله فجعل فتنة الناس له على الإيمان وطاعة رسله كعذاب الله لمن يعذبه على الشرك ومخالفة رسله وهذا يدل على عدم البصيرة وأن الإيمان لم يدخل قلبه ولا ذاق حلاوته حتى سوى بين عذاب الله له على الإيمان بالله ورسوله وبين عذاب الله لمن لم يؤمن به وبرسله وهذا حال من يعبد الله على حرف واحد لم ترسخ قدمه في الإيمان وعبادة الله فهو من المفتونين المعذبين وإن فر من عذاب الناس له على الإيمان ثم ذكر حال هذا عند نصرة المؤمنين وأنهم إذا نصروا لجأ إليهم وقال كنت معكم والله سبحانه يعلم من قلبه خلاف قوله ثم ذكر سبحانه ابتلاء نوح بقومه ألف سنة إلا خمسين عاما وابتلاء قومه بطاعته فكذبوه فابتلاهم بالغرق ثم بعده بالحرق ثم ذكر ابتلاء إبراهيم بقومه وما ردوا عليه وابتلاهم بطاعته ومتابعته ثم ذكر ابتلاء لوط بقومه وابتلاءهم به وما صار إليه أمره وأمرهم ثم ذكر ابتلاء شعيب بقومه وابتلاءهم به وما انتهت إليه حالهم وحاله ثم ذكر ما ابتلى به عادا وثمود وقارون وفرعون وهامان وجنودهم من الإيمان به وعبادته وحده ثم ما ابتلاهم به من أنواع العقوبات ثم ذكر ابتلاء رسوله محمد ﷺ بأنواع الكفار من المشركين وأهل الكتاب وأمره أن يجادل أهل الكتاب بالتي هي أحسن ثم أمر عباده المبتلين بأعدائه أن يهاجروا من أرضهم إلى أرضه الواسعة فيعبدونه فيها ثم نبههم بالنقلة الكبرى من دار الدنيا إلى دار الآخرة على نقلتهم الصغرى من أرض إلى أرض وأخبرهم أن مرجعهم إليه فلا قرار لهم في هذه الدار دون لقائه ثم بين لهم حال الصابرين على الابتلاء فيه بأنه يبوؤهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها فسلاهم عن أرضهم ودارهم التي تركوها

لأجله وكانت مباء لهم بأن بوأهم دارا أحسن منها وأجمع لكل خير ولذة ونعيم مع خلود الأبد وأن ذلك بصبرهم على الابتلاء وتوكلهم على ربهم ثم أخبرهم بأنه ضامن لرزقهم في غير أرضهم كما كان يرزقهم في أرضهم فلا يهتموا بحمل الرزق فكم من دابة سافرت من مكان إلى مكان لا تحمل رزقها ثم أخبرهم أن مدة الابتلاء والامتحان في هذه الدار قصيرة جدا بالنسبة إلى دار الحيوان والبقاء ثم ذكر سبحانه عاقبة أهل الابتلاء ممن لم يؤمن به وأن مقامهم في هذه الدار تمتع وسوف يعلمون عند النقلة منها ما فاتهم من النعيم المقيم وما حصلوا عليه من العذاب الأليم وذكر عاقبة أهل الابتلاء ممن آمن به وأطاع رسله وجاهد نفسه وعدوه في دار الابتلاء ما به هاديه وناصره فأخبر سبحانه أن أجل عطاه وأفضله في الدنيا والآخرة هو لأهل الابتلاء الذين صبروا على ابتلائه وتوكلوا عليه وأخبر أن أعظم عذابه وأشقه هو للذين لم يصبروا على ابتلائه وفروا منه وآثروا النعيم العاجل عليه فمضمون هذه السورة هو سر الخلق والأمر فإنها سورة الابتلاء والامتحان وبيان حال أهل البلوى في الدنيا والآخرة ومن تأمل فاتحتها ووسطها وخاتمها وجد في ضمنها أن أول الأمر ابتلاء وامتحان ووسطه صبر وتوكل وآخره هداية ونصر والله المستعان

وهو أنه سبحانه أخبر أنه خلق السموات والأرض العالم العلوي والسفلي ليبلونا أينا أحسن عملا وأخبر أنه زين الأرض بما عليها من حيوان ونبات ومعادن وغيرها لهذا الابتلاء وأنه خلق الموت والحياة لهذا الابتلاء فكان هذا الابتلاء غاية الخلق والأمر فلم يكن من بد من دار يقع فيها هذا الابتلاء وهي دار التكليف ولما سبق في حكمته أن الجنة دار نعيم لا دار ابتلاء وامتحان جعل قبلها دار الابتلاء جسرا يعبر عليه إليها ومزرعة يبذر فيها وميناء يزود منها وهذا هو الحق الذي خلق الخلق به ولأجله وهو أن يعبد وحده بما أمر به على ألسنة رسله فأمر ونهى ..ووعدنا بالثواب والعقاب ولم يخلق خلقه سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يتركهم هملا لا يثيبهم بل خلقوا للأمر والنهي والثواب والعقاب لا يليق بحكمته وحمده غير ذلك .

(١٩) المفاضلة بين الملائكة وصالحي الإنس

فهذا عبد الله بن سلام يقول : " ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من محمد . فقيل له : ولا جبريل ولا ميكائيل ؟ " فقال للسائل: " أتدري ما جبريل وميكائيل؟ إنما جبريل وميكائيل خلق مسخر كالشمس والقمر ، وما خلق الله خلقاً أكرم عليه من محمد ﷺ " . رواه الحاكم في مستدركه وصححه هو والذهبي .

الأقوال في المسألة : يذكر شارح الطحاوية أنه ينسب إلى أهل السنة تفضيل صالحي البشر والأنبياء فقط على الملائكة ، وأن المعتزلة يفضلون الملائكة ، وأتباع الأشعري على قولين ، منهم من يفضل الأنبياء والأولياء ، ومنهم من يقف ، ولا يقطع في ذلك قولاً ، وحكي عن بعضهم ميل إلى تفضيل الملائكة ، وحكي ذلك عن غيرهم من أهل السنة وبعض الصوفية .

وقالت الشيعة : إن جميع الأئمة أفضل من جميع الملائكة ، ومن الناس من فصّل تفصيلاً آخر . ولم يقل أحد ممن له قول يؤثر: إن الملائكة أفضل من بعض الأنبياء دون بعض ، وذكر أن أبا حنيفة ـ رحمه الله ـ توقف في الجواب عن هذه المسألة ، وإلى التوقف جنح شارح الطحاوية رحمه الله . وذكر السفاريني أنّ الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ كان يقول : " يخطئ من فضَّل الملائكة ، وقال : كل مؤمن أفضل من الملائكة " .

موطن النزاع : لا خلاف في أن الكفرة والمنافقين غير داخلين في المفاضلة ، فهؤلاء أضل من البهائم : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ ﴾الأعراف: ١٧٩ ولا نعني بالمفاضلة : التفضيل بين حقيقة البشر وحقيقة الملائكة ، وإنّما المفاضلة بين صالحي البشر والملائكة ، وإن ذهب بعض الناس إلى أن الملائكة أفضل من سائر المؤمنين ، والنزاع عندهم في المفاضلة بين الأنبياء والملائكة حجة الذين يفضلون صالحي البشر على الملائكة : بعد أن حررنا محل النزاع نبين حجة الذين ذهبوا إلى تفضيل البشر .

الدليل الأول : أن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم ، فلولا فضله لما أمروا بالسجود له : ﴿ وَإِذۡ

﴿ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ البقرة

ورد بعضهم أن السجود كان لله ، وآدم إنما كان قبلة لهم ، ولو كان هذا صحيحاً لقال : اسجدوا إلى آدم ، وما قال :﴿ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ ﴾ الإسراء ولو كان المقصود اتخاذ آدم قبلة لما امتنع من السجود ، ولما زعم أنّه خير من آدم ، فإنّ القبلة تكون أحجاراً ، وليس في اتخاذها قبلة تفضيل لها . صحيح أن سجود الملائكة لآدم كان عبادة لله ، وطاعة له ، وقربة يتقربون بها إليه ، إلا أنه تشريف لآدم وتكريم وتعظيم . ولم يأت أن آدم سجد للملائكة ، بل لم يؤمر آدم وبنوه بالسجود إلا لله رب العالمين ؛ لأنّهم – والله أعلم – أشرف الأنواع ، وهم صالحوا بني آدم ، ليس فوقهم أحد يحسن السجود له إلا الله رب العالمين .

الدليل الثاني : قوله قصصاً عن إبليس : ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴿٦٢﴾ ﴾ الإسراء فإن هذا نص في تكريم آدم على إبليس إذ أمر بالسجود له .

الدليل الثالث : أن الله تعالى خلق آدم بيده ، وخلق الملائكة بكلمته .

الدليل الرابع : قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿٣٠﴾ ﴾ البقرة فالخليفة يفضل على من ليس خليفة ، وقد طلبت الملائكة أن يكون الاستخلاف فيهم ، والخليفة منهم حيث قالوا :

﴿ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴿٣٠﴾ ﴾ البقرة فلولا أن الخلافة درجة عالية أعلى من درجاتهم لما طلبوها وغبطوا صاحبها .

الدليل الخامس : تفضيل بني آدم عليهم بالعلم حين سألهم الله ﷻ عن علم الأسماء ، فلم يجيبوه ؛ بل اعترفوا أنهم لا يحسنونها ، فأنبأهم آدم بذلك ، وقد قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ الزمر

الدليل السادس : ومما يدل على تفضيلهم أن طاعة البشر أشقّ ، والأشق أفضل ، فإن البشر مجبولون على الشهوة ، والحرص ، والغضب ، والهوى ، وهي مفقودة في الملك .

الدليل السابع : أن السلف كانوا يحدثون الأحاديث المتضمنة فضل صالحي البشر على الملائكة

وتروى على رؤوس الناس، ولو كان هذا منكراً لأنكروه ، فدلّ على اعتقادهم ذلك .

الدليل الثامن : مباهاة الله بهم الملائكة : فالله يباهي بعباده الملائكة ، إذا أدوا ما أوجبه عليهم وأمرهم به . فإذا صلوا الفريضة باهى بهم الملائكة ، ففي المسند وابن ماجة عن عبد الله : أن الرسول ﷺ قال : (ابشروا ، هذا ربكم قد فتح باباً من أبواب السماء ، يباهي بكم الملائكة ، يقول : انظروا إلى عبادي قد قضوا فريضة ، وهم ينتظرون أخرى) .

وعن أبي هريرة : أن الرسول ﷺ قال : (إن الله يباهي بأهل عرفات أهل السماء ، فيقول لهم : انظروا إلى عبادي هؤلاء جاءوني شعثاً غبراً) . إسناده صحيح ، رواه ابن حبان في صحيحه ، والحاكم ، والبيهقي في السنن .

والذين فضلوا الملائكة احتجوا بمثل حديث : (من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم) .

واحتجوا بأن بني آدم فيهم النقص والقصور ، وتقع منهم الزلات والهفوات ، واحتجوا بمثل قوله تعالى : قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ الأنعام وهذا يدل على فضل الملائكة على البشر .

تحقيق القول في ذلك : وتحقيق القول في ذلك ما ذكره ابن تيمية من أن صالحي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية ، وذلك إنما يكون إذا دخلوا الجنة ، ونالوا الزلفى ، وسكنوا الدرجات العلا وحياهم الرحمن ، وخصهم بمزيد قربه ، وتجلى لهم ، يستمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم ، وقامت الملائكة في خدمتهم بإذن ربهم .

والملائكة أفضل باعتبار البداية ، فإن الملائكة الآن في الرفيق الأعلى ، منزهون عمّا يلابسه بنو آدم مستغرقون في عبادة الرب ، ولا ريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر .

قال ابن القيم : وبهذا التفصيل يتبين سرّ التفضيل ، وتتفق أدلة الفريقين ، ويصالح كل منهم على حقه . والله أعلم بالصواب .

ومن أراد مزيداً من البحث في هذه المسألة فليرجع إلى (مجموع الفتاوى) ، وإلى (لوامع الأنوار البهية) ، وإلى (شرح العقيدة الطحاوية) . وقد طبع كتاب السيوطي (الحبائك في أخبار الملائك . وفيه مبحث طويل في المفاضلة بين الملائكة وبني آدم .

وفي "الحبائك في أخبار الملائك "قال : مسألة: في التفصيل بين الملائكة والبشر

اعلم أن هنا ثلاث صور: الأول: التفضيل بين الأنبياء والملائكة، وفي هذه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الأنبياء أفضل وعليه جمهور أهل السنة واختاره الإمام فخر الدين في الأربعين وفي المحصل.

والثاني: أن الملائكة أفضل وعليه المعتزلة واختاره من أئمة السنة الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني والقاضي أبو بكر الباقلاني والحاكم والحليمي والإمام فخر الدين في العالم وأبو شامة.

والثالث: الوقف واختاره إلكيا الهراسي ومحل الخلاف في غير نبينا ﷺ ، أما هو فأفضل الخلق بلا خلاف، لا يفضل عليه ملك مقرب ولا غيره، كذا ذكره الشيخ تاج الدين بن السبكي في منع الموانع، والشيخ سراج الدين البلقيني في منهج الأصلين، والشيخ بدر الدين الزركشي في شرح جمع الجوامع، وقال: إنهم استثنوه، وإن الإمام فخر الدين نقل في تفسيره الإجماع على ذلك.

الصورة الثانية: التفضيل بين خواص الملائكة، وأولياء البشر، وهم من عدا الأنبياء وهذه الصورة لا نعلم فيها خلافا أن خواص الملائكة أفضل، وقد نقل الشيخ سعد الدين التفتازاني في شرح العقائد الإجماع على ذلك، لكن رأيت عن طائفة من الحنابلة أنهم فضلوا أولياء البشر على خواص الملائكة وخالفهم ابن عقيل من أئمتهم وقال: إن في ذلك شناعة عظيمة عليهم.

الصورة الثالثة: التفضيل بين أولياء البشر وغير الخواص من الملائكة، وفي هذه قولان: أحدهما: تفضيل جميع الملائكة على أولياء البشر، وجزم به ابن السبكي في جمع الجوامع وفي منظومته، وذكر البلقيني في منهجه أنه قول أكثر العلماء.

والثاني: تفضيل أولياء البشر على أولياء الملائكة، وجزم به الصفار من الحنفية في أسئلته،

والنسفي منهم في عقائده، وذكر البلقيني أنه المختار عند الحنفية، ومال إلى بعضه وهو أنه قد يوجد من أولياء البشر من هو أفضل من غير الخواص من الملائكة وها أنا أسوق نصوص العلماء في ذلك: قال البيهقي في شعب الإيمان: قد تكلم الناس قديما وحديثا في المفاضلة بين الملك والبشر، فذهب ذاهبون إلى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة، وذهب آخرون إلى أن الملأ الأعلى مفضلون على سكان الأرض، ولكل من القولين وجه، قال: ومن قال بالأول احتج بأنهم خلقوا بلا شهوة، فمن يعبد الله وطينه معجون وقع في المعصية؟ وذكر قصة هاروت وماروت وساقها من ثلاثة طرق. ثم أخرج عن عبد الله بن سلام أنه قال: (إن أكرم خليفة الله على الله أبو القاسم ﷺ قيل: رحمك الله وأين الملائكة؟ قال: الملائكة خلق كخلق الخلائق، وإن أكرم الخلق على الله أبو القاسم ﷺ). وأخرج عن ابن عباس قال: إن الله تعالى فضل محمدا على أهل السماء وعلى الأنبياء قالوا: ما فضله على أهل السماء؟ قال إن الله قال لأهل السماء ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ الأنبياء وقال لمحمد ﷺ ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴿٢﴾ ﴾ الفتح

وأخرج عن ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ : ما شيء أكرم على الله تعالى من ابن آدم، قيل: يا رسول الله ولا الملائكة؟ قال: الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر " قال البيهقي: تفرد به عبيد الله بن غانم السلمي عن خالد الحذاء وعبيد الله قال البخاري: عنده عجائب قال ورواه غيره عن خالد الحذاء موقوفا على ابن عمرو وهو الصحيح قال: ومن قال بالقول الآخر أشبه أن يقول: إذا كان التوفيق للطاعة من الله تعالى؛ وجب أن يكون الأفضل من كان توفيقه له وعصمته إياه أكثر، ووجدنا الطاعة التي وجدوها بتوفيقه وعصمته من الملائكة أكثر، فوجب أن يكونوا بذلك أفضل.

ثم أخرج عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : بينا أنا قاعد إذ جاء جبريل فوكز بين كتفي، فقمت

إلى شجرة وارتفعت إلى شجرة فيها مثل وكرى الطائر، فقعدت في أحدهما وقعد في الآخر، فسمت وارتفعت حتى سدت بين الخافقين وأنا أقلب طرفي ولو شئت أن أمس السماء لمسست فالتفت فإذا جبريل كأنه خلس لأطىء فعرفت فضل علمه بالله على.

وأخرج عن محمد بن عمير بن عطارد بن حاجب التميمي عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ : لما أسرى بي كنت أنا في شجرة وجبريل في شجرة، فغشينا من أمر الله بعض ما غشينا، فخر جبريل مغشيا عليه وثبت على أمري، فعرفت فضل إيمان جبريل على إيماني . وأخرجه من وجه آخر بلفظ)فوقع جبريل مغشيا عليه كأنه حلس فعرفت فضل خشيته على خشيتي(قلت: هذا الحديث وإن لم نجره على ظاهره ويجب علينا السعي في تأويله لتفضيل النبي صلى الله عليه وسلم على جبريل؛ فإنه يستدل به لتفضيل جبريل على الصحابة وأولياء البشر ضرورة، فإن قلت: بماذا يؤول؟ قلت: هذه قصة كانت في مبدأ البعثة، وقد ترقى صلى الله عليه وسلم بعدها إلى أسنى المقامات، وقد قال العلماء في قوله ﷺ لمن قال له: يا خير البرية: ذاك إبراهيم إن هذا قبل أن يوحي إليه أنه خير الخلق، فيجاب بذلك هنا والله أعلم. ثم قال البيهقي: وقد ذكر الحليمي توجيه القولين واختار تفضيل الملائكة، وأكثر أصحابنا ذهبوا إلى القول الأول والأمر فيه سهل وليس فيه من الفائدة إلا معرفة الشيء على ما هو به، ثم أخرج حديث.

لما خلق الله آدم وذريته قالت الملائكة: رب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون ويركبون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة فقال الله تبارك وتعالى: لا أجعل من خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له كن فكان ثم قال: وفي ثبوته نظر، ومن قال في الملائكة قبيلان أشبه أن يقول: إن هذا أراد القبيل الذي كان منهم إبليس دون الملأ الأعلى وهم الأشراف والعظماء والله أعلم، هذا جميع ما ذكره البيهقي في هذه المسألة، وقاله الإمام فخر الدين الرازي في كتاب الأربعين.

مسألة: في أن الملائكة أفضل أم الأنبياء عليهم السلام؟

مذهب أصحابنا والشيعة: أن الأنبياء أفضل من الملائكة، وقال الفلاسفة والمعتزلة: الملائكة السماوية أفضل من البشر، وهو اختيار القاضي أبي بكر الباقلاني ، وأبي عبد الله الحليمي من أصحابنا، واحتج القائلون بتفضيل الأنبياء بوجوه:

الحجة الأولى: أن آدم عليه السلام كان مسجود الملائكة، والمسجود أفضل من الساجد، فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال: السجدة كانت لله تعالى، وآدم كالقبلة؟ سلمنا أن السجدة كانت لآدم، لكن لم يجوز أن يكون المراد من السجدة التواضع والترحيب؟ ... سلمنا أن السجدة عبارة عن وضع الجبهة على الأرض، لكن لا نسلم أن هذا غاية التواضع، لأن هذا قضية عرفية، والقضايا العرفية يجوز أن تختلف باختلاف الأزمنة، فلعل العرف في ذلك الوقت أن من سلم على غيره وضع جبهته على الأرض، وتسليم الكامل على غيره أمر معتاد، والجواب عن الأسئلة الثلاثة: أن ذلك السجود لو لم يكن دالا على زيادة منصب المسجود على الساجد، لما قال إبليس: (أَرَأَيتُكَ هَذا الَّذي كَرَمتَ عَلَيَّ) " الإسراء: ٦٢ " فإنه لم يوجد شيء آخر يصرف هذا الكلام إليه سوى هذا السجود، فدل ذلك على أن ذلك السجود اقتضى ترجيح منصب المسجود له على الساجد.

الحجة الثانية: أن آدم عليه السلام كان أعلم من الملائكة، والأعلم أفضل، بيان الأول قوله تعالى (وَعَلَمَ آدَمَ الأَسمَاءَ كُلَها) إلى قوله (قَالوا سُبحانَكَ لا علمَ لَنَا إلاّ ما عَلَمَتَنا إنّكَ أَنتَ العَليمُ الحَكيم) " البقرة: ٣١ - ٣٢ " وبيان الثاني (هَل يَستَوي الَّذينَ يَعلَمَونَ وَالَّذينَ لا يَعلَمُون) " الزمر: ٩.

الحجة الثالثة: أن طاعة البشر أشق والأشق أفضل، بيان الأول من وجوه:

الأول: الشهوة، والحرص، والغضب، والهوى، من أعظم الموانع عن الطاعات، وهذه الصفات موجودة في البشر ومفقودة في الملائكة، والفعل مع المانع أشق منه مع غير المانع.

الثاني: أن تكاليف الملائكة مبنية على النصوص قال تعالى: (لا يَسبقُونَهُ بالقَول) " الأنبياء: ٢٧ " وتكاليف الشريعة بعضها مبنية على النصوص وبعضها على الاستنباط، قال تعالى: (فاعتَبرُوا

يا أُولي الأَبصار) " الحشر: ٢ وقال: (لَعَلَمَهُ الَّذينَ يَسْتَنبطُونَهُ منهُم) " النساء ٨٣ " والتمسك بالاجتهاد والاستنباط في معرفة الشيء أشق من التمسك بالنص.

الثالث: أن الإنسان مبتلى بوسوسة الشيطان، وهذه الآفة غير حاصلة للملائكة.

الرابع: أن شبهات البشر أكثر، وذلك لأن من جملة الشبهات القوية ربط الحوادث الأرضية بالاتصالات الفلكية، والمناسبات الكوكبية، والملائكة ليس لهم هذا النوع من الشبهة، لأن سكان السموات مشاهدون لأحوالها فيعلمون بالضرورة أنها ليست بأحياء ولا ناطقة، بل هي مفتقرة إلى التدبير كافتقار الأرضيات، فثبت بهذه الوجوه أن الطاعات للبشر أشق، وإنما قلنا: إن الأشق أفضل للنص والقياس، أما النص فقوله عليه السلام: أفضل العبادات أحمزها، أي أشقها: وقال عليه السلام لعائشة: (أجرك على قدر نصبك) وأما القياس: فهو أن الطاعات السهلة والطاعات الشاقة لو اشتركتا في قدر الثواب لكان تحمل ذلك القدر من الشقة الزائدة خاليا عن الفائدة، وتحمل الضرر الخالي من الفائدة محظور قطعا، فكان يجب أن تحرم تلك الطاعات الشاقة، ولما لم يكن كذلك علمنا أن الأشق أكثر ثوابا.

الحجة الرابعة: قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ آل عمران والعالم عبارة عن كل ما سوى الله، والآل: يراد به الرجل نفسه فيبقى معمولا في حق الأنبياء، فإن قيل يشكل هذا بقوله تعالى في بني إسرائيل ﴿ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ البقرة فإنه لو كان الأمر كما ذكرتم لزم تفضيل أنبياء بني إسرائيل على محمد ﷺ.

الجواب: تحمل التخصيص في آية لا يوجب تحمله في سائر الآيات، وأيضا شرط العالم أن يكون موجودا، ومحمد ﷺ ما كان موجودا حال وجود أنبياء بني إسرائيل، أما الملائكة فهم موجودون حال وجود محمد عليه السلام فظهر الفرق.

الحجة الخامسة: الملائكة لهم عقول بلا شهوة، والبهائم لهم شهوة بلا عقل، والآدمي له عقل وشهوة، ثم إن الآدمي إن رجح شهوته على عقله كان أخس من البهيمة قال تعالى: (أُولَئكَ

كالأَنعام بَل هُم أَضَل) الأعراف: ١٧٩ فعلى هذا القياس لو رجح عقله على شهوته، وجب أن يكون أفضل من الملك.

هذا ملخص دلائل من فضل الأنبياء على الملائكة، أما الذين قالوا بتفضيل الملائكة على الأنبياء فقد تمسكوا بوجوه:

الحجة الأولى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ النساء وهذا يقتضي كون الملائكة أفضل من المسيح، ألا ترى أنه يقال: إن فلانا لا يستنكف الوزير من خدمته ولا السلطان، ولا يقال: إنه لا يستنكف السلطان من خدمته ولا الوزير، فلما ذكر المسيح أولا والملائكة ثانيا، علمنا أن الملائكة أفضل من المسيح، والاعتراض من وجوه.

الأول: أن محمد ﷺ أفضل من المسيح ولا يلزم من كون الملائكة أفضل من المسيح كونهم أفضل من محمد، والثاني: أن قوله (وَلاَ المَلاَئكَةُ المُقَرَبونَ) صيغة الجمع فيتناول الكل، فهذا يقتضي كون مجموع الملائكة أفضل من المسيح، فلم قلتم إنه يقتضي كون كل واحد من الملائكة أفضل من المسيح؟ والثالث: أن الواو في قوله (وَلاَ المَلائكَةُ المُقَرَبونَ) حرف العطف وهو يفيد الجمع المطلق، ولا يفيد الترتيب، فأما المثال الذي ذكرتموه فليس بحجة لأن الحكم الكلي لا يثبت بالمثال الجزئي، ثم إنه معارض بسائر الأمثلة كقوله: ما أعانني على هذا الأمر لا عمرو ولا زيد ، فهذا لا يفيد كون المتأخر في الذكر أفضل من المتقدم ، ومنه قوله تعالى (وَلا الهَدى وَلاَ القَلائدَ وَلاَ آَمينَ البَيتَ) المائدة:٢ ولما اختلفت الأمثلة امتنع التعويل عليها، ثم التحقيق في المسألة أنه إذا قيل هذا العالم لا يستنكف من خدمته الوزير ولا السلطان، فنحن نعلم بعقولنا أن السلطان أعظم درجة من الوزير، فعرفنا أن الغرض من ذكر الثاني في المسألة أنه إذا قيل هذا العالم لا يستنكف من خدمته الوزير ولا السلطان، فنحن نعلم بعقولنا أن السلطان أعظم درجة من الوزير، فعرفنا أن الغرض من ذكر الثاني هو المبالغة، فهذه المبالغة إنما عرفناها بهذا الطريق لا لمجرد الترتيب في الذكر فهاهنا في هذه الآية لا يمكننا أن نعرف أن المراد من قوله (وَلاَ الملائكَةُ

الْمُقَرَبونَ) بيان المبالغة إلا إذا عرفنا قبل ذلك أن الملائكة المقربين أفضل من المسيح، وحينئذ تتوقف صحة الدليل على صحة المطلوب.

الرابع: هب أن الآية دالة على أن منصب الملك أعلى وأزيد من منصب المسيح لكنها لا تدل على أن تلك الزيادة في جميع المناصب أو في بعضها، فإنه إذا قيل: هذا العالم لا يستنكف من خدمته الوزير ولا السلطان فهو لا يفيد إلا أن السلطان أكمل من الوزير في بعض الأشياء، وهو القدرة والسلطنة، ولا يفيد كون السلطان أزيد من الوزير في العلم والزهد، إذ ثبت هذا فنحن نقول بموجبه، وذلك لأن الملك أفضل من البشر في القدرة والقوة والبطش، فإن جبريل عليه السلام قلع مدائن قوم لوط، والبشر لا يقدرون على شيء من ذلك، فلم قلتم إن الملك أفضل من البشر في كثرة الثواب الحاصل بسبب مزيد الخشوع والعبودية؟، وتمام التحقيق أن الفصل المختلف فيه في هذه المسألة هو كثرة الثواب، ثم إن كثرة الثواب لا تحصل إلا بنهاية التواضع والخضوع وكون العبد موصوفا بنهاية التواضع لله، لا يلائم صيرورته مستنكفا من عبودية الله تعالى، بل يناقضها وينافيها، فامتنع أن يكون المراد من الآية هذا المعنى، أما اتصاف الشخص بالقدرة الشديدة والقوة الكاملة فإنه مناسب للتمرد وترك العبودية، فالنصارى لما شاهدوا من المسيح إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص أخرجوه بسبب هذا القدر عن عبودية الله تعالى، فقال تعالى: إن عيسى لا يستنكف بسبب هذا القدر عن عبوديتي ولا الملائكة المقربون الذين هم فوقه في القدرة والبطش والاستيلاء على عالم السموات والأرضين، وعلى هذا الوجه تنتظم دلالة الآية على أن الملك أفضل من البشر في الشدة والقوة والبطش، لكنها لا تدل ألبته على أن الملك أفضل من البشر في كثرة الثواب، أو يقال إنهم إنما ادعوا إلهية المسيح، لأنه حصل لا من أب فقيل لهم: الملك حصل لا من أب ولا أم فكانوا أعجب من عيسى في هذا الباب مع أنهم لا يستنكفون عن عبودية الله تعالى.

الحجة الثاني: لمن قال بتفضيل الملك على البشر، التمسك بقوله تعالى (وَمَن عِندَهُ لاَ يَستكبِرُونَ عَن عبادَته) الأنبياء: ١٩ والاستدلال به من وجهين الأول: أنه تعالى احتج بعدم استكبار

الملائكة عن عبادته على أن البشر يجب أن لا يستكبر عنها، ولو كان البشر أفضل من الملائكة، لما تم هذا الاستدلال، فإن السلطان إذا أراد أن يقرر على رعيته وجوب طاعتهم له، فإنه يقول: الملوك لا يستكبرون عن طاعتي، فمن هؤلاء المساكين؟ وبالجملة فظاهر أن هذا الاستدلال لا يتم إلا بالأقوى على الأضعف، الثاني: أنه تعالى قال: (وَمَن عندَهُ) وهذه العندية ليست عندية الجهة، بل عندية الفضيلة والقربة، والاعتراض على هذا الوجه الأول: لعل المراد أن الملائكة مع شدة قوتهم لا يتمردون عن طاعة الله تعالى، فما بال البشر يتمردون عن طاعة الله مع غاية ضعفهم؟ وهذا يوجب كون الملك أقوى من البشر، لكنه لا يوجب كونه أفضل من البشر، بمعنى كثرة الثواب، وعلى الوجه الثاني: أنه معارض بقوله تعالى في صفة البشر (فِي مَقعَد صدقٍ عندَ مَليكٍ مُقتَدَر) القمر: ٥٥.

وقال عليه السلام حكاية عن الله تعالى: أَنا عندَ الْمُنكَسِرة قُلوبُهُم ، وهذا أفضل لأنه قال في الملائكة: (إِنَّهُم عندَ رَبهم) وقال في وصف المنكسرة قلوبهم: (إنّ رَبَهُم عندَهُم).

الحجة الثالثة: عبادات الملائكة أشق فتكون أفضل قلنا: إنها أشق لوجوه، الأول: أنهم آمنون من الآفات التي يكون البشر خائفين عليها مثل الغرق والحرق والقتل والمرض والحاجة والشقاوة والكفر والمعصية، وأيضا فالسماوات التي هي مساكنهم وأماكنهم كالجنان والبساتين الطيبة بالنسبة إلى الأرض وكل من كان بنعمة أكثر وخوفه أقل كان تمرد أشد، ولهذا قال تعالى: (فَإذا رَكبوا فِي الفُلك دَعُوا الله مُخلصينَ لَهُ الدينَ فَلَما نَجاهُم إلى البَرِ إذا هُم يُشرِكونَ) " العنكبوت: ٦٥ ثم إن الملائكة مع كثرة أسباب النعم منذ خلقوا بقوا مشتغلين بالعبادة، خاشعين وجلين مشفقين لا يلتفتون إلى نعيم الجنان واللذات بل بقوا مقبلين على الطاعات الشاقة موصوفين بالفزع الشديد وكأنه لا يقدر أحد من بني بآدم أن يتقي كذلك يوما واحدا، فضلا عن تلك الأعصار المتطاولة، ويؤكده قصة آدم عليه السلام، فإنه أطلق له في جميع مواضع الجنة بقوله (وَكُلا منها رَغَدًا حَيثُ شئتُما) البقرة: ٣٥ ومنعه من شجرة واحدة فلم يملك نفسه حتى وقع فيها، وهذا يدل على أن طاعتهم أشق من طاعة البشر الوجه الثاني: في بيان أن طاعتهم أشق أن

انتقال المكلف من نوع عباده إلى نوع آخر، كالانتقال من بستان إلى بستتان، أما الإقامة على نوع واحد فإنها تورث الملالة، ولهذا السبب جعلت التصانيف مقسومة بالأبواب والفصول، وجعل كتاب مقسوما بالسور والأخماس والأعشار، ثم أن الملائكة كل منهم يواظب على عمل واحد لا يعدل عنه إلى غيره، كما قال تعالى: (يَسَبحونَ اللَيلَ وَالنَّهارَ لاَ يَفتَرونَ) الأنبياء: ٢٠ وقال حكاية عنهم: (وَإِنَّا لَنَحنُ الصَافُونَ وَإِنَّا لَنَحنُ المُسَبحونَ) الصافات: ١٦٥،١٦٦ فثبت بما ذكرنا أن عباداتهم أشق، فإذا ثبت هذا وجب أن يكونوا أكثر لقوله عليه السلام" أفضل العبادات أحمزها" والاعتراض عليه أنه معارض بما ذكرنا أن عبادات البشر أشق فتكون أفضل.

الحجة الرابعة: عبادات الملائكة أدوم فوجب أن تكون أفضل إنما قلنا إنها أدوم لقوله تعالى: (يُسَبحونَ اللَيلَ وَالنَّهارَ لا يَفتَرُونَ) وعلى هذا التقدير لو كانت أعمارهم مساوية لأعمار البشر لكان طاعتهم أدوم وأكثر فكيف ولا نسبة لعمر كل البشر إلى عمر الملائكة، وإنما قلنا إن الأدوم أفضل، لوجوه: (أحدها): أن الأدوم أشق، فكان أفضل، وقدمنا هذا الوجه. (والثاني): قوله عليه السلام: أفضل العبادات من طال عمره وحسن عمله، والملائكة أطول العباد عمرا وأحسنهم عملا، فوجب أن يكونوا أفضل . (الثالث) قوله عليه السلام: الشيخ في قومه كالنبي في أمته، وهذا يقتضي أن يكون الملك فيما بين البشر كالنبي في الأمة، وذلك يوجب فضلهم على البشر. (الرابع): أن طاعات الملائكة مساوية لطاعات بني آدم في الخشية والخوف، قال تعالى: (يَخافُونَ رَبَهُم من فَوقهم) النحل: ٥٠ وقال (لاَيَسبقُونَهُ بالقَول وَهُم بأَمره يَعمَلُونَ) الأنبياء:٢٧ وقال: (وَهُم من خَشيَته مُشفقُونَ) الأنبياء: ٢٨ وقال: (حَتى إذا فَزعَ عَن قُلُوبهم) سبأ ٢٣ فهذه الآيات دالة على أن خشوع الملائكة وخضوعهم إن لم يكن أزيد من خشوع البشر وخضوعهم فلا أقل منه، إذا ثبت هذا فنقول: طاعات الملائكة تساوي طاعات البشر في الكيفية الموجبة للثواب، وهي الخضوع والخشوع وأزيد منها في المدة والدوام، فوجب القطع بأن ثوابهم أكثر وأزيد.

الحجة الخامسة: الملائكة أسبق في العبادة من البشر، والأسبق أفضل، أما أنهم أسبق فلا شك فيه، ومن المعلوم أنه لا خصلة من خصال الدين إلا وهم أئمة مقتدى بهم فيها بل هم المنشئون العامرون لطرق الدين، وأما أن الأسبق أفضل فلوجهين:

الأول: قوله تعالى: (وَالسَابِقُونَ السَابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَبونَ) الواقعة:١٠، ١١ والثاني قوله عليه السلام: "من سنّ حسنه فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة". وهذا يقتضي أن يكون قد حصل للملائكة من الثواب كل ما حصل للأنبياء مع زيادة الثواب التي استحقوها بأفعالهم التي أتوا بها قبل خلق البشر.

الحجة السادسة: الملائكة رسل الله إلى الأنبياء، والرسل أفضل من الأمة، بيان المقدمة الأولى قوله تعالى: (عَلَمَهُ شَديدُ القُوى) النجم:٥ (نزَلَ به الرُوحُ الأَمينُ عَلى قَلبكَ) الشعراء: ١٩٣ (يُنَزلُ المَلائكَةَ بالرُوح من أَمره عَلى مَن يَشاءُ من عباده) النحل:٢ وأما أن الرسل أفضل من الأمة فلوجهين؛ الأول: أن الرسول البشرى أفضل من أمته، فهكذا هنا، فإن قيل: الفرق أن السلطان إذا أرسل واحدا إلى جمع عظيم ليكون متوليا لأمورهم وحاكما فيهم فذلك الشخص أفضل من ذلك الجمع، أما إذا أرسل شخصا واحدا إلى شخص واحد لأجل الإعلام، فالظاهر أن الرسول أقل حالا من المرسل إليه، كما إذا أرسل الملك عبده إلى الوزير، قلنا: هذا مدفوع لأن جبريل عليه السلام مبعوث إلى كافة الأنبياء والرسل من البشر؛ فجبريل عليه السلام رسول، وأمته كل الأنبياء فعلى القانون الذي ذكره السائل يلزم أن يكون جبريل أفضل منهم. الوجه الثاني: الملائكة رسل الله لقوله تعالى: (جَاعلُ المَلائكَة رُسُلاً) فاطر: ١ والملك إما مرسل إلى ملك آخر، وإما أن يكون رسولا إلى البشر، وعلى التقديرين فالملك رسول وأمته أيضا رسل، وأما الرسول البشري فهو مرسل، لكن أمته ليس برسل، ومعلوم أن الرسول الذي يكون كل أمته رسلا، أفضل من الرسول الذي لا يكون أحد من أمته رسولا، فثبت فضل الملك على البشر من هذه الجهة، ولأن إبراهيم عليه السلام كان رسولا إلى لوط فكان أفضل منه، وموسى كان رسولا إلى الأنبياء الذين كانوا في عسكره وكان أفضل منهم، فكذا هنا.

الحجة السابعة: الملائكة أتقى من البشر، والأتقى أفضل، إنما قلنا إنهم أتقى لأنهم مبرءون عن الزلات وعن الميل إليها، لأن خوفهم دائم قال تعالى: (يَخَافُونَ رَبَّهُم من فَوقهم) النحل: ٥٠ وقال: (وَهُم من خشيَته مُشفقونَ) الأنبياء: ٢٨ والخوف والإشفاق ينافيان العزم على المعصية، أما الأنبياء عليهم السلام فلم يخل أحد منهم عن شيء هو صغيرة أو ترك مندوب.

(٢٠) آية الإشهاد

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾ الأعراف

عَن ابْن عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَالَ أَخَذَ اللهُ الْمِيثَاقَ منْ ظَهْر آدَمَ بنَعْمَانَ يَعْني عَرَفَةَ فَأَخْرَجَ منْ صُلْبه كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا فَنَثَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْه كَالذَّرّ ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قبَلًا قَالَ { أَلَسْتُ برَبّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقيَامَة إنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافلينَ أَوْ تقولُوا إنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا منْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرّيَّةً منْ بَعْدهمْ أَفَتُهْلكُنَا بمَا فَعَلَ الْمُبْطلُونَ } مسند أحمد

عَنْ أُبَيّ بْن كَعْبٍ في قَوْل اللهَّ ﷻ (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ) الْآيَةَ قَالَ جَمَعَهُمْ فَجَعَلَهُمْ أَرْوَاحًا ثُمَّ صَوَّرَهُمْ فَاسْتَنْطَقَهُمْ فَتَكَلَّمُوا ثُمَّ أَخَذَ عَلَيْهمْ الْعَهْدَ وَالْميثَاقَ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسهمْ أَلَسْتُ برَبّكُمْ قَالَ فَإنّي أُشْهدُ عَلَيْكُمْ السَّمَوَات السَّبْعَ وَالْأَرَضينَ السَّبْعَ وَأُشْهدُ عَلَيْكُمْ أَبَاكُمْ آدَمَ عَلَيْه السَّلَام أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقيَامَة لَمْ نَعْلَمْ بهَذَا اعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إلَهَ غَيْري وَلَا رَبَّ غَيْري فَلَا تُشْركُوا بي شَيْئًا وَإنّي سَأُرْسلُ إلَيْكُمْ رُسُلي يُذَكّرُونَكُمْ عَهْدي وَميثَاقي وَأُنْزلُ عَلَيْكُمْ كُتُبي قَالُوا شَهدْنَا بأَنَّكَ رَبُّنَا وَإلَهُنَا لَا رَبَّ لَنَا غَيْرُكَ فَأَقَرُّوا بذَلكَ وَرَفَعَ عَلَيْهمْ آدَمَ يَنْظُرُ إلَيْهمْ فَرَأَى الْغَنيَّ وَالْفَقيرَ وَحَسَنَ الصُّورَة وَدُونَ ذَلكَ فَقَالَ رَبّ لَوْلَا سَوَّيْتَ بَيْنَ عبَادكَ قَالَ إنّي أَحْبَبْتُ أَنْ أُشْكَرَ وَرَأَى الْأَنْبيَاءَ فيهمْ مثْلَ السُّرُج عَلَيْهمْ النُّورُ خُصُّوا بميثَاقٍ آخَرَ في الرّسَالَة وَالنُّبُوَّة وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى { وَإذْ أَخَذْنَا منْ النَّبيّينَ ميثَاقَهُمْ إلَى قَوْله عيسَى ابْن مَرْيَمَ } كَانَ في تلْكَ الْأَرْوَاح فَأَرْسَلَهُ إلَى مَرْيَمَ فَحَدَّثَ عَنْ أُبَيٍّ أَنَّهُ دَخَلَ منْ فيهَا . مسند أحمد مشكاة المصابيح

التفسير من زاد المسير : روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان ونعمان قريب من عرفة ذكره ابن قتيبة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلا وقال ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين

ومعنى الآية وإذا أخذ ربكم من ظهور بني آدم فقوله من ظهورهم بدل من بني آدم وقيل إنما قال من ظهورهم ولم يقل من ظهر آدم لأنه أخرج بعضهم من ظهور بعض فاستغنى عن ذكر ظهر آدم لأنه قد علم أنهم بنوه وقد أخرجوا من ظهره وقوله تعالى ذرياتهم قرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي ذريتهم على التوحيد وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر ذرياتهم على الجمع قال أبو علي الذرية تكون جمعا وتكون واحدا وفي قوله وأشهدهم على أنفسهم ثلاثة أقوال

أحدها أشهدهم على أنفسهم بإقرارهم قاله مقاتل

والثاني دلهم بخلقه على توحيده قاله الزجاج

والثالث أنه أشهد بعضهم على بعض بإقرارهم بذلك قاله ابن جرير

قوله تعالى ألست بربكم والمعنى وقال لهم ألست بربكم وهذا سؤال تقرير قالوا بلى شهدنا أنك ربنا قال السدي قوله شهدنا خبر من الله تعالى عن نفسه وملائكته أنهم شهدوا على إقرار بني آدم ويحسن الوقف على قوله بلى لأن كلام الذرية قد انقطع وزعم الكلبي أن الذرية لما قالت بلى قال الله للملائكة اشهدوا فقالوا شهدنا وروى أبو العالية عن أبي بن كعب قال جمعهم جميعا فجعلهم أزواجا ثم صورهم ثم استنطقهم ثم قال ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أنك آلهنا قال فاني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين لم نعلم بهذا وقال السدي أجابته طائفة طائعين وطائفة كارهين تقية

وفي قوله (إنا كنا) قولان

أحدهما أنه إشارة إلى الميثاق والإقرار

والثاني أنه إشارة إلى معرفة أنه الخالق

قال المفسرون وهذه الآية تذكير من الله تعالى بما أخذ على جميع المكلفين من الميثاق واحتجاج عليهم لئلا يقول الكفار إنا كنا على هذا الميثاق غافلين لم نذكره ، ونسيانهم لا يسقط الاحتجاج بعد أن أخبر الله تعالى بذلك على لسان النبي ﷺ الصادق وإذا ثبت هذا بقول الصادق قام في

النفوس مقام الذكر فالاحتجاج به قائم

قوله تعالى ﴿ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ﴿١٧٣﴾ ﴾الأعراف: فاتبعنا منهاجهم على جهل منا بآلهيتك ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ في دعواهم أن معك إلها فقطع الله احتجاجهم بمثل هذا إذ أذكرهم أخذ الميثاق على كل واحد منهم وجماعة أهل العلم على ما شرحنا من أنه استنطق الذر وركب فيهم عقولا وأفهاما عرفوا بها ما عرض عليهم وقد ذكر بعضهم أن معنى أخذ الذرية إخراجهم إلى الدنيا بعد كونهم نطفا ومعنى إشهادهم على أنفسهم اضطرارهم إلى العلم بأنه خالقهم بما أظهر لهم من الآيات والبراهين ولما عرفوا ذلك ودعاهم كل ما يرون ويشاهدون إلى التصديق كانوا بمنزلة الشاهدين والمشهدين على أنفسهم بصحته كما قال﴿ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ﴿١٧﴾ ﴾ التوبة: يريدهم بمنزلة الشاهدين وإن لم يقولوا نحن كفرة كما يقول الرجل قد شهدت جوارحي بصدقك أي قد عرفته ومن هذا الباب قوله { شهد الله } أي بين وأعلم وقد حكى نحو هذا القول ابن الانباري والأول أصح لموافقة الآثار قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾ أي كما بينّا في أخذ الميثاق الآيات ليتدبرها العباد فيعملوا بموجبها ولعلهم يرجعون أي ولكي يرجعوا عما هم عليه من الكفر إلى التوحيد

وفي تفسير ابن كثير : يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾الروم وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : "كل مولود يولد على الفطرة، وفي رواية على هذه الملة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تولد بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء" وفي صحيح مسلم عن

عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: "يقول الله إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم"

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله: عن الأسود بن سريع من بني سعد قال غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات قال فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشتد عليه ثم قال: "ما بال أقوام يتناولون الذرية" فقال رجل يا رسول الله أليسوا أبناء المشركين ؟ فقال: "إن خياركم أبناء المشركين ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها فأبواها يهودانها وينصرانها" .

قال الحسن والله لقد قال الله في كتابه ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴿١٧٢﴾﴾ الآية، وقد رواه الإمام أحمد بسنده عن الحسن قال حدثني الأسود بن سريع فذكره ولم يذكر قول الحسن البصري واستحضاره الآية عند ذلك، وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وفي بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم. قال الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال: "يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به قال: فيقول: نعم فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي" أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة به.

(حديث آخر) قال الإمام أحمد ..عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: " أخذ الله الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلاً قال : {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا – إلى قوله – الْمُبْطِلُونَ} . عن ابن عباس قال أخرج الله ذرية آدم من ظهره كهيئة الذر وهو في أذى من الماء.

حدثنا أبو مسعود عن جرير قال مات ابن الضحاك بن مزاحم ابن ستة أيام قال: فقال: يا جابر إذا أنت وضعت ابني في لحده فأبرز وجهه وحل عنه عقده فإن ابني مجلس ومسؤول ففعلت به

الذي أمر فلما فرغت قلت يرحمك الله عما يسأل ابنك من يسأله إياه قال: يسأل عن الميثاق الذي أقر به في صلب آدم قلت: يا أبا القاسم وما هذا الميثاق الذي أقر به في صلب آدم قال: حدثني ابن عباس: أن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خلقها إلى يوم القيامة فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وتكفل لهم بالأرزاق ثم أعادهم في صلبه فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأول ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يقر به لم ينفعه الميثاق الأول ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول على الفطرة فهذه الطرق كلها مما تقوي وقف هذا على ابن عباس والله أعلم.

(حديث آخر) قال ابن جرير .. عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ} قال: أخذ من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى} قالت الملائكة {شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ}

(حديث آخر) قال الإمام أحمد ..عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى} الآية فقال عمر بن الخطاب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال: "إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية قال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون: " فقال رجل يا رسول الله ففيم العمل ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار" وهكذا رواه أبو داود عن القعنبي والنسائي عن قتيبة والترمذي في تفسيرهما عن إسحاق بن موسى عن معن وابن أبي حاتم عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب وابن جرير عن روح بن عبادة وسعيد بن عبد الحميد بن جعفر، وأخرجه ابن حبان في

صحيحه من رواية أبي مصعب الزبيري كلهم عن الإمام مالك بن أنس به قال الترمذي وهذا حديث حسن .

(حديث آخر) قال الترمذي عند تفسيره هذه الآية .. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : "لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور ثم عرضهم على آدم فقال: أي رب من هؤلاء قال: هؤلاء ذريتك فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه قال: أي رب من هذا قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود قال رب وكم جعلت عمره قال ستين سنة قال أي رب وقد وهبت له من عمري أربعين سنة فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت قال أو لم يبق من عمري أربعون سنة قال أو لم تعطها ابنك داود قال فجحد آدم فجحدت ذريته ونسي آدم فنسيت ذريته وخطيء آدم فخطئت ذريته" ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح . ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه أنه حدث عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ فذكر نحو ما تقدم إلى أن قال: "ثم عرضهم على آدم فقال يا آدم هؤلاء ذريتك وإذا فيهم الأجذم والأبرص والأعمى وأنواع الأسقام فقال آدم: يا رب لم فعلت هذا بذريتي ؟ قال: كي تشكر نعمتي وقال آدم: يا رب من هؤلاء الذين أراهم أظهر الناس نوراً قال هؤلاء الأنبياء يا آدم من ذريتك" ثم ذكر قصة داود كنحو ما تقدم.

(حديث آخر) عن هشام بن حكيم رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أتبدأ الأعمال أم قد قضي القضاء قال: فقال رسول الله ﷺ : "إن الله قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم ثم أشهدهم على أنفسهم ثم أفاض بهم في كفيه ثم قال هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار" رواه ابن جرير وابن مردويه من طرق عنه.

(حديث آخر) عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: "لما خلق الله الخلق وقضى القضية أخذ أهل اليمين بيمينه وأهل الشمال بشماله فقال يا أصحاب اليمين فقالوا لبيك وسعديك قال

ألست بربكم ؟ قالوا بلى قال يا أصحاب الشمال قالوا لبيك وسعديك قال ألست بربكم ؟ قالوا بلى ثم خلط بينهم فقال قائل له يا رب لم خلطت بينهم ؟ قال لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ثم ردهم في صلب آدم" رواه ابن مردويه.

(أثر آخر) عن أبي بن كعب في قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ} الآيات قال: فجمعهم له يومئذ جميعاً ما هو كائن منه إلى يوم القيامة فجعلهم في صورهم ثم استنطقهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق {وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى} الآية قال: فإني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا اعلموا أنه لا إله غيري ولا رب غيري ولا تشركوا بي شيئاً وإني سأرسل إليكم رسلاً لينذروكم عهدي وميثاقي وأنزل عليكم كتبي قالوا: نشهد أنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك ولا إله لنا غيرك فأقروا له يومئذ بالطاعة ورفع أباهم آدم فنظر إليهم فرأى فيهم الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك فقال: يا رب لو سويت بين عبادك ؟ قال: إني أحببت أن أشكر ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة فهو الذي يقول تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ} الآية وهو الذي يقول {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ} الآية ومن ذلك قال {هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى} ومن ذلك قال {وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ} الآية، رواه عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه، ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه في تفاسيرهم من رواية أبي جعفر الرازي به

وروي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والسدي وغير واحد من علماء السلف سياقات توافق هذه الأحاديث اكتفينا بإيرادها عن التطويل في تلك الآثار كلها وبالله المستعان. فهذه الأحاديث دالة على أن الله ﷻ استخرج ذرية آدم من صلبه وميز بين أهل الجنة وأهل النار، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم فما هو إلا في حديث كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وفي حديث عبد الله بن عمرو وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان كما تقدم ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف أن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد

كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المجاشعي ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سريع وقد فسر الحسن الآية بذلك قالوا: ولهذا قال: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ} ولم يقل من آدم {مِنْ ظُهُورِهِمْ} ولم يقل من ظهره {ذُرِّيَّتَهُمْ} أي جعل نسلهم جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن كقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ} وقال {وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ} وقال {كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ} ثم قال {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى} أي أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالاً وقالاً والشهادة تارة تكون بالقول كقوله: {قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا} الآية وتارة تكون حالاً كقوله تعالى: { مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ} أي حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك وكذا قوله تعالى: {وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ} كما أن السؤال تارة يكون بالقال وتارة يكون بالحال كقوله: {وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ} قالوا ومما يدل على أن المراد بهذا هذا أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك فلو كان قد وقع هذا كما قال من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه فإن قيل إخبار الرسول صلى الله عليه وسلم به كاف في وجوده فالجواب أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد ولهذا قال {أَنْ تَقُولُوا} أي لئلا تقولوا يوم القيامة {إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا} أي التوحيد {غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا} الآية.

وفي " شرح الطحاوية في العقيدة السلفية ":

قال القرطبي : وهذه آية مشكلة وقد تكلم العلماء في تأويلها وأحكامها، فنذكر ما ذكروه من ذلك حسب ما وقفنا عليه فقال قوم: معنى الآية أن الله تعالى أخرج من ظهور بني آدم بعضهم من بعض. قالوا: معنى " أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم " دلهم بخلقه على توحيده، لأن كل بالغ يعلم ضرورة أن له ربا واحدا.

" ألست بربكم " أي قال فقام ذلك مقام الإشهاد عليهم، والإقرار منهم، كما قال تعالى في السماوات والأرض: " قالتا أتينا طائعين " ذهب إلى هذا القفال وأطنب.

وقيل: إنه سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، وإنه جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها.

ثم ذكر القرطبي بعد ذلك الأحاديث الواردة في ذلك إلى آخر كلامه .

وَأَقْوَى مَا يَشْهَدُ لصحَّة الْقَوْل الْأَوَّل : حَديثُ أَنَسٍ الْمُخَرَّجُ في الصَّحيحَيْن الَّذي فيه : « قَدْ أَرَدْتُ منْكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ منْ ذَلكَ ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ في ظَهْر آدَمَ أَنْ لَا تُشْركَ بي شَيْئًا فَأَبَيْتَ إلَّا أَنْ تُشْركَ بي » . وَلَكنْ قَدْ رُويَ منْ طَريقٍ أُخْرَى : « قَدْ سَأَلْتُكَ أَقَلَّ منْ ذَلكَ وَأَيْسَرَ فَلَمْ تَفْعَلْ ، فَيُرَدُّ إلَى النَّار » . وَلَيْسَ فيه "في ظَهْر آدَمَ " . وَلَيْسَ في الرّوَايَة الْأُولَى إخْرَاجُهُمْ منْ ظَهْر آدَمَ عَلَى الصّفَة الَّتي ذَكَرَهَا أَصْحَابُ الْقَوْل الْأَوَّل .

بَل الْقَوْلُ الْأَوَّلُ مُتَضَمّنٌ لأَمْرَيْن عَجيبَيْن :

أَحَدُهُمَا : كَوْنُ النَّاس تَكَلَّمُوا حينَئذٍ وَأَقَرُّوا بالْإيمَان وَأَنَّهُ بهَذَا تَقُومُ الْحُجَّةُ عَلَيْهمْ يَوْمَ الْقيَامَة .

وَالثَّاني : أَنَّ الْآيَةَ دَلَّتْ عَلَى ذَلكَ ، وَالْآيَةُ لَا تَدُلُّ عَلَيْه لوُجُوهٍ :

أَحَدُهَا : أَنَّهُ قَالَ : منْ بَني آدَمَ ، وَلَمْ يَقُلْ : منْ آدَمَ .

الثَّاني : أَنَّهُ قَالَ : منْ ظُهُورهمْ ، وَلَمْ يَقُلْ : منْ ظَهْره ، وَهَذَا بَدَلُ بَعْضٍ ، أَوْ بَدَلُ اشْتمَالٍ ، وَهُوَ أَحْسَنُ .

الثَّالثُ : أَنَّهُ قَالَ : ذُرّيَّاتهمْ وَلَمْ يَقُلْ : ذُرّيَّتَهُ .

الرَّابعُ : أَنَّهُ قَالَ : وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسهمْ ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الشَّاهدُ ذَاكرًا لمَا شَهدَ به ، وَهُوَ إنَّمَا يَذْكُرُ شَهَادَتَهُ بَعْدَ خُرُوجه إلَى هَذه الدَّار – كَمَا تَأْتي الْإشَارَةُ إلَى ذَلكَ – لَا يَذْكُرُ شَهَادَةً قَبْلَهُ .

الْخَامسُ : أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ أَنَّ حكْمَةَ هَذَا الْإشْهَاد إقَامَةٌ للْحُجَّة عَلَيْهمْ ، لئَلَّا يَقُولُوا يَوْمَ الْقيَامَة : { إنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافلينَ } ، وَالْحُجَّةُ إنَّمَا قَامَتْ عَلَيْهمْ بالرُّسُل وَالْفطْرَة الَّتي فُطرُوا عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: { رُسُلًا مُبَشّرينَ وَمُنْذرينَ لئَلَّا يَكُونَ للنَّاس عَلَى الله حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُل } .

السَّادسُ : تَذْكيرُهُمْ بذَلكَ ، لئَلَّا يَقُولُوا يَوْمَ الْقيَامَة : { إنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافلينَ } ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ غَافلُونَ عَن الْإخْرَاج لَهُمْ منْ صُلْب آدَمَ كُلّهُمْ وَإشْهَادهمْ جَميعًا ذَلكَ الْوَقْتَ ، فَهَذَا لَا يَذْكُرُهُ أَحَدٌ منْهُمْ .

السَّابعُ : قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ تَقُولُوا إنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا منْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرّيَّةً منْ بَعْدهمْ } ، فَذَكَرَ حكْمَتَيْن في هَذَا الْإشْهَاد ؛ لئَلَّا يَدَّعُوا الْغَفْلَةَ ، أَوْ يَدَّعُوا التَّقْليدَ ، فَالْغَافلُ لَا شُعُورَ لَهُ ، وَالْمُقَلّدُ مُتَّبعٌ في تَقْليده لغَيْره . وَلَا تَتَرَتَّبُ هَاتَان الْحكْمَتَان إلَّا عَلَى مَا قَامَتْ به الْحُجَّةُ منَ الرُّسُل وَالْفطْرَة .

الثَّامنُ : قَوْلُهُ : { أَفَتُهْلكُنَا بمَا فَعَلَ الْمُبْطلُونَ } ، أَيْ لَوْ عَذَّبَهُمْ بجُحُودهمْ وَشرْكهمْ لَقَالُوا ذَلكَ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ إنَّمَا يُهْلكُهُمْ بمُخَالَفَة رُسُله وَتَكْذيبهمْ ، وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ليُهْلكَ الْقُرَى بظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافلُونَ ، وَإنَّمَا يُهْلكُهُمْ بَعْدَ الْإعْذَار وَالْإنْذَار بإرْسَال الرُّسُل .

التَّاسعُ : أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَشْهَدَ كُلَّ وَاحدٍ عَلَى نَفْسه أَنَّهُ رَبُّهُ وَخَالقُهُ ، وَاحْتَجَّ عَلَيْه بهَذَا في غَيْر مَوْضعٍ منْ كتَابه ، كَقَوْله : { وَلَئنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ } ، فَهَذه هيَ الْحُجَّةُ الَّتي أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسهمْ بمَضْمُونهَا ، وَذَكَّرَتْهُمْ بهَا رُسُلُهُ ، بقَوْلهمْ : { أَفي اللهَّ شَكٌّ فَاطر السَّمَاوَات وَالْأَرْض }.

الْعَاشرُ : أَنَّهُ جَعَلَ هَذَا آيَةً ، وَهيَ الدَّلَالَةُ الْوَاضحَةُ الْبَيّنَةُ الْمُسْتَلْزمَةُ لَمَدْلُولهَا [بحَيْثُ لَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا الْمَدْلُولُ] وَهَذَا شَأْنُ آيَات الرَّبّ تَعَالَى ، [فَإنَّهَا أَدلَّةٌ مُعينَةٌ عَلَى مَطْلُوبٍ مُعَيَّنٍ مُسْتَلْزَمَةٌ للْعلْم به] فَقَالَ تَعَالَى : وَكَذَلكَ نُفَصّلُ الْآيَات وَلَعَلَّهُمْ يَرْجعُونَ ، وَإنَّمَا ذَلكَ بالْفطْرَة الَّتي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْديلَ لخَلْق الله ، فَمَا منْ مَوْلُودٍ إلَّا يُولَدُ عَلَى الْفطْرَة ، لَا يُولَدُ مَوْلُودٌ عَلَى غَيْر هَذه الْفطْرَة ، هَذَا أَمْرٌ مَفْرُوغٌ منْهُ ، لَا يَتَبَدَّلُ وَلَا يَتَغَيَّرُ . وَقَدْ تَقَدَّمَت الْإشَارَةُ إلَى هَذَا . وَاللهُّ أَعْلَمُ

(٢١) الطين والنار

في "بدائع الفوائد " للإمام القيم الجوزية : مناظرة إبليس في آدم

في ذكر مناظرة إبليس عدو الله في شأن آدم وامتناعه من السجود له وبيان فسادها وقد كرر الله تعالى ذكرها في كتابه وأخبر فيها أن امتناع إبليس من السجود كان كبرا منه وكفرا ومجرد إباء وإنما ذكر الشبهة تعنتا وإلا فسبب معصيته الاستكبار والإباء والكفر وإلا فليس في أمره بالسجود لآدم ما يناقض الحكمة بوجه ، وأما شبهته الداحضة وهي أن أصله وعنصره النار وأصل آدم وعنصره التراب ورتب على ذلك أنه خير من آدم ثم رتب على هاتين المقدمين أنه لا يحسن منه الخضوع لمن هو فوقه وخير منه فهي باطلة من وجوه عديدة منها أن دعواه كونه خيرا من آدم دعوى كاذبة باطلة واستدلاله عليها بكونه مخلوقا من نار وآدم من طين استدلال باطل وليست النار خيرا من الطين والتراب بل التراب خير من النار وأفضل عنصرا من وجوه:

أحدها: أن النار طبعها الفساد وإتلاف ما تعلقت به بخلاف التراب.

الثاني: أن طبعها الخفة والحدة والطيش والتراب طبعه الرزانة والسكون والثبات

الثالث: أن التراب يتكون فيه ومنه أرزاق الحيوان وأقواتهم ولباس العباد وزينتهم والآت معايشهم ومساكنهم والنار لا يتكون فيها شيء من ذلك

الرابع: أن التراب ضروري للحيوان لا يستغني عنه البتة ولا عن ما يتكون فيه ومنه والنار يستغني عنها الحيوان البهيم مطلقا وقد يستغنى عنها الإنسان الأيام والشهور فلا تدعوه إليها الضرورة فأين انتفاع الحيوان كله بالتراب إلى انتفاع الإنسان بالنار في بعض الأحيان.

الخامس: أن التراب إذا وضع فيه القوت أخرجه أضعاف أضعاف ما وضع فيه فمن بركته يؤدي إليك ما تستودعه فيه مضاعفا ولو استودعته النار لخانتك وأكلته ولم تبق ولم تذر.

السادس: أن النار لا تقوم بنفسها بل هي مفتقرة إلى محل تقوم به فيكون حاملا لها والتراب لا يفتقر إلى حامل فالتراب أكمل منها

السابع: أن النار مفتقرة إلى التراب وليس بالتراب فقر إليها فإن المحمل الذي تقوم به النار لا

يكون إلا مكونا من التراب أو فيه فهي الفقيرة إلى التراب وهو الغني عنها

الثامن: أن المادة الإبليسية هي المارج من النار وهو ضعيف يتلاعب به الهوى فيميل معه كيفما مال ولهذا غلب الهوى على المخلوق منه فأسره وقهره ولما كانت المادة الآدمية التراب وهو قوي لا يذهب مع الهوى أينما ذهب وقهر هواه وأسره ورجع إلى ربه فاجتباه واصطفاه فكان الهوى الذي مع المادة الآدمية عارضا سريع الزوال فزال وكان الثبات والرزانة أصليا له فعاد إليه وكان إبليس بالعكس من ذلك فرجع كل من الأبوين إلى أصله وعنصر آدم إلي أصله الطيب الشريف واللعين إلى أصله الرديء.

التاسع: أن النار وإن حصل بها بعض المنفعة والمتاع فالشر فيها لا يصدها عنه إلا قسرها وحبسها ولولا القاسر والحابس لها لأفسدت الحرث والنسل وأما التراب فالخير والبر والبركة كامن فيه كلما أثير وقلب ظهرت بركته وخيره وثمرته فأين أحدهما من الآخر.

العاشر: أن الله تعالى أكثر ذكر الأرض في كتابه وأخبر عن منافعها وخلقها وأنه جعلها مهادا وفراشا وبساطا وقرارا وكفاتا للأحياء والأموات ودعا عباده إلى التفكر فيها والنظر في آياتها وعجائب ما أودع فيها ولم يذكر النار إلا في معرض العقوبة والتخويف والعذاب إلا موضعا أو موضعين ذكرها فيه بأنها تذكرة ومتاع للمقوين تذكرة بنار الآخرة ومتاع لبعض أفراد الإنسان وهم المقوون النازلون بالأرض الخالية إذا نزلها المسافر تمتع بالنار في منزلة فأين هذا من أوصاف الأرض في القرآن.

الحادي عشر: أن الله تعالى وصف الأرض بالبركة في غير موضع من كتابه خصوصا وأخبر أنه بارك فيها عموما فقال: { أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ} فهذه بركة عامة وأما البركة الخاصة ببعضها فكقوله: { وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ} وقوله: { وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرىً ظَاهِرَةً} وقوله: { وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا} وأما النار فلم يخبر

أنه جعل فيها بركة أصلا بل المشهور أنها مذهبة للبركة ما حقه لها فأين المبارك في نفسه المبارك فيما وضع فيه إلى مزيل البركة وما حقها.

الثاني عشر: أن الله تعالى جعل الأرض محل بيوته التي يذكر فيها اسمه ويسبح له فيها بالغدو والآصال عموما وبيته الحرام الذي جعله قياما للناس مباركا فيه وهدى للعالمين خصوصا ولو لم يكن في الأرض إلا بيته الحرام لكفاها ذلك شرفا وفضلا على النار.

الثالث عشر: أن الله تعالى أودع في الأرض من المنافع والمعادن والأنهار والعيون والثمرات والحبوب والأقوات وأصناف الحيوانات وأمتعتها والجبال والجنان والرياض والمراكب البهية والصور البهيجة ما لم يودع في النار شيئا منه فأي روضة وجدث في النار أو جنة أو معدن أو صورة أو عين فوارة أو نهر مطرد أو ثمرة لذيذة أو زوجة حسنة أو لباس وسترة.

الرابع عشر: أن غاية النار أنها وضعت خادمة لما في الأرض فالنار إنما محلها محل الخادم لهذه الأشياء المكمل لها فهي تابعة لها خادمة فقط إذا استغنت عنها طردتها وأبعدتها عن قربها وإذا احتاجت إليها استدعتها استدعاء المخدوم لخادمة ومن يقضي حوائجه.

الخامس عشر: أن اللعين لقصور نظره وضعف بصيرته رأى صورة الطين ترابا ممتزجا بماء فاحتقره ولم يعلم أن الطين مركب من أصلين الماء الذي جعل الله تعالى منه كل شيء حي والتراب الذي جعله خزانة المنافع والنعم هذا وكم يجيء من الطين من المنافع وأنواع الأمتعة فلو تجاوز نظره صورة الطين إلى مادته ونهايته لرأى أنه خير من النار وأفضل وإذا استقريت الوجوه التي تدلك على أن التراب أفضل من النار وخير منها وجدتها كثيرة جدا وإنما أشرنا إليها إشارة ثم لو سلم بطريق الفرض الباطل أن النار خير من الطين لم يلزمه من ذلك أن يكون المخلوق منها خيرا من المخلوق من الطين فإن القادر على كل شيء يخلق من المادة المفضولة من هو خير ممن خلقه من المادة الفاضلة والاعتبار بكمال النهاية لا ينقص المادة فاللعين لم يتجاوز نظره محل المادة ولم يعبر منها إلى كمال الصورة ونهاية الخلقة فأين الماء المهين الذي هو نطفة ومضغة واستقذار النفوس له إلى كمال الصورة الإنسانية التامة المحاسن خلقا وخلقا وقد خلق

الله تعالى الملائكة من نور وآدم من تراب ومنه ذرية آدم من هو خير من الملائكة وإن كان النور أفضل من التراب فهذا وأمثاله مما يدلك على ضعف مناظرة اللعين وفساد نظره وإدراكه وأن الحكمة كانت توجب عليه خضوعه لآدم فعارض حكمه الله وأمره برأيه الباطل ونظره الفاسد فقياسه باطل نصا وعقلا وكل من عارض نصوص الأنبياء بقياسه ورأيه فهو من خلفائه وأتباعه فنعوذ بالله من الخذلان ونسأله التوفيق .

(٢٢) النسب والأنساب والذرية

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾الحجرات قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ ﴿٩﴾ ﴾إبراهيم

وقال وهب: إن آدم كان يولد له من كل بطن ذكر وأنثى وكان الرجل منهم يتزوج أي أخواته شاء إلا توأمته .. " المعارف قال أبو محمد: وفي التوراة ...، وولد لآدم أربعون ولداً في عشرين بطناً، وأنزل عليه تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وحروف المعجم في إحدى وعشرين ورقة، وهو أول كتاب كان في الدنيا حد الله عليه الألسنة كلها. قال أبو محمد: ووجدت في التوراة أن جميع ما عاش آدم تسعمائة سنة وثلاثون سنة. قال وهب: وعاش آدم ألف سنة. قال وهب: كان شيث بن آدم أجل ولد آدم وأفضلهم وأشبههم بآدم وأحبهم إليه، وكان وصي أبيه وولي عهده، وهو الذي ولد البشر كلهم، إليه انتهى أنساب الناس، وهو الذي بنى الكعبة بالطين والحجارة، وكانت هناك خيمة لآدم وضعها الله له من الجنة ، وأنزل الله على شيث بن آدم خمسين صحيفة، وعاش شيث تسعمائة سنة واثنتي عشرة سنة وولد لشيث أنوش وبنون وبنات، وولد لأنوش قينان وولد لقينان مهلائيل وولد لمهلائيل اليارد وولد لليارد أخنوخ وهو إدريس.

شيث

انوش بنون بنات

قينان

مهلائيل

البارد (يرد)

اخنوخ (ادريس)

متوسلخ / متوشالح

لمك أو لامك

نوح

سام حام يافث

ورد في "الكامل في التاريخ ":

روى أبو ذرّ عن النبي، ﷺ ، أنه قال: (الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، قال: قلت: يا رسول الله كم الرسل من ذلك؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر جمّاً غفيراً، يعني كثيراً، طيّباً، قال: قلت: من أولهم؟ قال: آدم، قال: قلت: يا رسول الله وهو نبي مرسل؟ قال: نعم، خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه ثم سواه قبلاً، وكان ممن أنزل عليه تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وحروف المعجم في إحدى وعشرين ورقة.

وكانت ولادته بعد مضيّ مائة وعشرين سنة لآدم، وبعد قتل هابيل بخمس سنين، وقيل: ولد فرداً بغير توأم، وتفسير شيث هبة الله، ومعناه أنه خلف من هابيل، وهو وصيّ آدم، وقال ابن عباس: كان معه توأم، ولما حضرت آدم الوفاة عهد إلى شيث وعلّمه ساعات الليل والنهار وعبادة الخلوة في كل ساعة منها وأعلمه بالطوفان، **وصارت الرياسة بعد آدم إليه، وأنزل الله** عليه خمسين صحيفة، وإليه أنساب بني آدم كلّهم اليوم.

وأما الفرس الذين قالوا إن جيومرث هو آدم، فإنهم قالوا: ولد لجيومرث ابنته ميشان أخت ميشى، وتزوج ميشى أخته ميشان فولدت له سيامك وسيامي، وفولد لسيامك بن جيومرث افروال ودقس وبواسب واجرب واوراش، وأمهم جميعا سيامي ابنه ميشي، وهي أخت أبيهم ولد افروال بن سيامك وأعقابهم، فولد لافروال ابن سيامك من افرى ابنة سيامك أو شهنج بيشداد الملك، وهو الذي خلف جدّه جيومرث في الملك، وهو أول من جميع ملك الأقاليم السبعة .. وقد زعم بعض نسّابة الفرس أن أوشهنج هذا هو مهلائيل، وأنّ أباه أفروال هو قينان، وأنّ سيامك هو أنوش أبو قينان، وأن ميشي هو شيث أبو أنوش، وأنّ جيومرث هو آدم

وقال ابن عباس: لما خرج نوح من السفينة دفن آدم ببيت المقدس. وكانت وفاته يوم الجمعة.

وقال ابن عباس: ولد لشيث أنوش وولد معه نفر كثير، وإليه أوصى شيث، ثم ولد لأنوش بن

شيث ابنه قينان من أخته نعمة بنت شيث بعد مضيّ تسعين سنة من عمر أنوش وولد معه نفر كثير، وإليه الوصيّة، وولد قينان مهلائيل ونفراً كثيراً عنه، وإليه الوصيّة، وولد مهلائيل يرد، وهو اليارد، ونفراً معه، وإليه الوصيّة، فولد يرد حنوخ، وهو إدريس النبيّ، ونفراً معه، وإليه الوصية، وولد حنوخ متوشلخ ونفراً معه، وإليه الوصية.

وأما التوراة ففيها أن مهلائيل ولد بعد أن مضى من عمر آدم، عليه السلام، ثلاثمائة وخمس وتسعون سنة، ومن عمر قينان سبعون، وولد يرد لمهلائيل بعدما مضى من عمر آدم أربعمائة سنة وستون سنة، فكان على منهاج أبيه، غير أن الأحداث بدأت في زمانه.

زعمت الفرس أنه ملك بعد موت أوشهنج طهمورث بن ويونجهان، يعني خير أهل الأرض، ابن حبايداد بن أوشهنج، ملك بعد طهمورث جم شيد، والشيد عندهم الشعاع، وجم القمر، لقبوه بذلك لجماله، وهو جم بن ويونجهان، وهو أخو طهمورث.

نقلت مادة هذا الفصل من المعارف لابن قتيبة والكامل في التاريخ لابن الأثير رحمهم الله تعالى والله أعلم بصحة هذه الأخبار والأنساب .

عن أبى مجلز قال : قال رجل لعلى بن أبى طالب أنا أنسب الناس ، قال : إنك لا تنسب الناس قال : بلى فقال له علي ﷺ أرأيت قوله : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ ﴾ الفرقان أرأيت قوله : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ﴿٩﴾ ﴾ إبراهيم فسكت (ابن الضريس في فضائل القرآن عن على) [كنز العمال]

وفي "الطبقات الكبرى لابن سعد " عن ابن عباس أن النبي عليه الصلاة والسلام، كان إذا أنتسب لم يجاوز في نسبه معد بن عدنان بن أدد ثم يمسك ويقول: كذب النسابون، قال الله، ﷻ : وَقُرُونَۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا . قال ابن عباس: لو شاء رسول الله، ﷺ أن يعلمه لعلمه، عن عبد الله أنه كان يقرأ: (وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ) كذب النسابون.

أخبرنا هشام بن محمد عن أبيه قال: بين معد وإسماعيل، ﷺ نيف وثلاثون أباً، وكان لا يسميهم ولا ينفذهم، ولعله ترك ذلك حيث سمع حديث أبي صالح عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه كان إذا بلغ معد بن عدنان أمسك.

وفي " الأنساب للصحاري " وعن ابن لهيعة عن عائشة قالت: كذَبَ النَسَّابون، ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء مَعدَ بن عدنان بن قحطان إلا تَّخرص.

وكان ابن مسعود إذا قرأ(كَدَأب عادٍ وثَمُوْدَ وَالَّذين من بَعدهم) قال كَذَب النَّسابون قال: ولقي الحسن بن علي دَغفل النَّسَّابة فقال له: أنت الذي تنسب الناس إلى آدم ! ! فكيف تصنع بقوله (وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا).

الحقيقة الصحيحة أن آدم أول الإنس وكل البشر منه قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ ﴾ النساء ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ ١٨٩ ﴾ الأعراف قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا ٥٤ ﴾ الفرقان

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالآبَاءِ مُؤْمِنٌ تَقِىٌّ وَفَاجِرٌ شَقِىٌّ أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجِعْلاَنِ الَّتِى تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتْنَ ».رواه أبو داود وحسنه الشيخ الألباني .

الجعل : جمع الجعل وهو دويبة سوداء كالخنفساء . العبية : الكبر والفخر

وفي " سنن الترمذي " : عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم فتح مكة فقال : يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعاظمها بآبائها فالناس رجلان بر تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب قال الله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ الحجرات قال الشيخ الألباني : صحيح .

بيان الكلام حول هذه الآية : قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ **الصافات** روى الإمام القرطبي في تفسيره : قال ابن عباس: لما خرج نوح من السفينة مات من معه من الرجال والنساء إلا ولده ونساءه، فذلك قوله: " وجعلنا ذريته هم الباقين ".

وقال سعيد بن المسيب: كان ولد نوح ثلاثة والناس كلهم من ولد نوح: فسام أبو العرب وفارس والروم واليهود والنصارى ، وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب: السند والهند والنوب والزنج والحبشة والقبط والبربر وغيرهم ، ويافث أبو الصقالبة والترك و " اللان " والخزر ويأجوج ومأجوج وما هنالك.

وقال قوم: كان لغير ولد نوح أيضا نسل، بدليل قوله: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ ﴿٣﴾ ﴾ **الإسراء** " وقوله: ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ **هود** " فعلى هذا معنى الآية: " ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ " دون ذرية من كفر أنا أغرقنا أولئك.

وفي " تفسير ابن كثير " : عن قتادة في قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ قال الناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام، وقد روى الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم من حديث سعيد بن بشير عن قتادة عن الحسن عن سمرة ﷺ عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ قال سام وحام ويافث ، وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب عن سعيد عن قتادة عن الحسن عن سمرة ﷺ أن نبي الله ﷺ قال: "سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم" ورواه الترمذي.

(٢٣) قصة قابيل وهابيل

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١)﴾ [المائدة] هذه الآيات من سورة المائدة تحدثنا عن قصة ابني آدم قابيل القاتل وهابيل المقتول ، ولأهل التفسير تأويل فيها، وفيها من الأقوال والأخبار والإسرائيليات فلعلك تنتفع بالاطلاع عليها ، وترى غرائب المفسرين :

في تفسير زاد المسير في : قوله تعالى وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ النبأ الخبر وفي ابني آدم قولان

أحدهما : أنهما ابناه لصلبه وهما قابيل وهابيل قاله ابن عمر وابن عباس ومجاهد وقتادة

والثاني : أنهما أخوان من بني إسرائيل ولم يكونا ابني آدم لصلبه هذا قول الحسن.

والعلماء على الأول وهو أصح لقوله لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ولو كان من بني إسرائيل لكان قد عرف الدفن ولأن النبي ﷺ قال عنه إنه أول من سن القتل .

وعند المفسر الإمام القرطبي : واختلف في ابني آدم، فقال الحسن البصري: ليسا لصلبه، كانا رجلين من بني إسرائيل – ضرب الله بهما المثل في إبانة حسد اليهود - وكان بينهما خصومة، فتقربا بقربانين ولم تكن القرابين إلا في بني إسرائيل.

قال ابن عطية: وهذا وهم، وكيف يجهل صورة الدفن أحد من بني إسرائيل حتى يقتدي بالغراب؟ والصحيح أنهما ابناه لصلبه، هذا قول الجمهور من المفسرين وقاله ابن عباس وابن عمر وغيرهما، وهما قابيل وهابيل، وكان قربان قابيل حزمة من سنبل - لأنه كان صاحب زرع - واختارها من أردأ زرعه، ثم أنه وجد فيها سنبلة طيبة ففركها وأكلها.

وكان قربان هابيل كبشا - لأنه كان صاحب غنم - أخذه من أجود غنمه.

" فتقبل " فرفع إلى الجنة، فلم يزل يرعى فيها إلى أن فدي به الذبيح عليه السلام، قاله سعيد بن جبير وغيره.

وفي الزاد : وقوله تعالى (بالحق)أي كما كان والقربان فعلان من القرب .

وفي السبب الذي قربا لأجله قولان :

أحدهما : أن آدم عليه السلام كان قد نهي أن ينكح المرأة التي أخاها الذي هو توأمها وأجيز له أن ينكحها غيره من إخوتها ، وكان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى ، فولدت له ابنة وسيمة وأخرى دميمة ، فقال أخو الدميمة لأخي الوسيمة : أنكحني أختك وأنكحك أختي . فقال أخو الوسيمة : أنا أحق بأختي . وكان أخو الوسيمة صاحب حرث، وأخو الدميمة صاحب غنم . فقال : هلم فلنقرب قربانا فأينا تقبل قربانه فهو أحق بها .

فجاء صاحب الغنم بكبش أبيض أعين أقرن، وجاء صاحب الحرث بصبرة من طعام فتقبل الكبش ، فخزنه الله في الجنة أربعين خريفا فهو الذي ذبحه إبراهيم فقتله صاحب الحزاد ، فولد آدم كلهم من ذلك الكافر . رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس

والثاني أنهما قرباه من غير سبب روى العوفي عن ابن عباس أن ابني آدم كانا قاعدين يوما فقالا : لو قربنا قربانا . فجاء صاحب الغنم بخير غنمه وأسمنها ، وجاء الآخر ببعض زرعه ، فنزلت النار فأكلت الشاة وتركت الزرع . فقال لأخيه أتمشي في الناس وقد علموا أن قربانك تقبل وأنك خير مني لأقتلنك ؟

واختلفوا هل قابيل وأخته ولدا قبل هابيل وأخته أم بعدهما على قولين وهل كان قابيل كافرا أو فاسقا غير كافر فيه قولان

وفي سبب قبول قربان هابيل قولان

أحدهما أنه كان أتقى لله من قابيل والثاني أنه تقرب بخيار ماله وتقرب قابيل بشر ماله وهل كان قربانهما بأمر آدم أم من قبل أنفسهما فيه قولان : أحدهما أنه كان وآدم قد ذهب إلى زيارة البيت والثاني أن آدم أمرهما بذلك وهل قتل هابيل بعد تزويج أخت قابيل أم لا فيه قولان :

أحدهما أنه قتله قبل ذلك لئلا يصل إليها والثاني أنه قتله بعد نكاحها

قوله تعالى قال لأقتلنك وروى زيد عن يعقوب لأقتلنك بسكون النون وتخفيفها والقائل هو الذي لم يتقبل منه قال الفراء إنما حذف ذكره لأن المعنى يدل عليه

وفي تفسير القرطبي : فلما تقبل قربان هابيل لأنه كان مؤمنا – قال له قابيل حسدا: أنه كان كافرا (أيعقل أن يكون ولده كافرا ؟!) – أتمشي على الأرض يراك الناس أفضل مني ! " لاقتلنك "

وقيل: سبب هذا القربان أن حواء عليها السلام كانت تلد في كل بطن ذكرا وأنثى – إلا شيثا عليه السلام فإنها ولدته منفردا عوضا من هابيل على ما يأتي، واسمه هبة الله، لان جبريل عليه السلام قال لحواء لما ولدته: هذا هبة الله لك بدل هابيل.

وكان آدم يوم ولد شيث ابن ثلاثين ومائة سنة – وكان يزوج الذكر من هذا البطن الأنثى من البطن الآخر، ولا تحل له أخته توأمته، فولدت مع قابيل أختا جميلة واسمها إقليمياء، ومع هابيل أختا ليست كذلك واسمها ليوذا، فلما أراد آدم تزويجهما قال قابيل: أنا أحق بأختي، فأمره آدم فلم يأتمر، وزجره فلم ينزجر، فاتفقوا على التقريب (أي تقديم القربان والله اعلم) ، قاله جماعة من المفسرين منهم ابن مسعود. وروي أن آدم حضر ذلك. والله أعلم.

وقد روي في هذا الباب عن جعفر الصادق: إن آدم لم يكن يزوج ابنته من ابنه، ولو فعل ذلك آدم لما رغب عنه النبي ﷺ، ولا كان دين آدم إلا يكن النبي ﷺ، وأن الله تعالى لما أهبط آدم وحواء إلى الأرض وجمع بينهما ولدت حواء بنتا فسماها عناقا فبغت ، وهي أول من بغى على وجه الأرض، فسلط الله عليها من قتلها، ثم ولدت لآدم قابيل، ثم ولدت له هابيل، فلما أدرك قابيل أظهر الله له جنية من ولد الجن، يقال لها: جمالة في صورة إنسية، وأوحى الله إلى آدم أن زوجها من قابيل فزوجها منه.

فلما أدرك هابيل أهبط الله إلى آدم حورية في صفة إنسية وخلق لها رحما، وكان اسمها بزلة، فلما نظر إليها هابيل أحبها، فأوحى الله إلى آدم أن زوج بزلة من هابيل ففعل.

فقال قابيل: يا أبت ألست أكبر من أخي ؟ قال: نعم.

قال: فكنت أحق بها فعلت به منه ! فقال له آدم: يا بني إن الله قد أمرني بذلك، وإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، فقال: لا والله، ولكنك آثرته علي.

فقال آدم: " فقربا قربانا فأيكما يقبل قربانه فهو أحق بالفضل ".

قلت (القرطبي): هذه القضية عن جعفر ما أظنها تصح ، وأن القول ما ذكرناه من أنه كان يزوج غلام هذا البطن لجارية تلك البطن.

والدليل على هذا من الكتاب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ ١﴾ النساء وهذا كالنص ثم نسخ ذلك ، وكان جميع ما ولدته حواء أربعين من ذكر وأنثى في عشرين بطنا، أولهم قابيل وتوأمته إقليمياء، وآخرهم عبد المغيث.

ثم بارك الله في نسل آدم. قال ابن عباس: لم يمت آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفا.

وما روي عن جعفر - من قوله : فولدت بنتا وأنها بغت - فيقال: مع من بغت ؟ أمع جني تسول لها ! ومثل هذا يحتاج إلى نقل صحيح يقطع العذر، وذلك معدوم. والله أعلم.

وفي قول هابيل ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧﴾ كلام قبله محذوف ، لأنه لما قال له قابيل: " لاقتلنك " قال له: ولم تقتلني وأنا لم أجن شيئا ؟ ولا ذنب لي في قبول الله قرباني، أما إني أتقيته وكنت على لاحب (واضح) الحق وإنما يتقبل الله من المتقين.

قال ابن عطية: المراد بالتقوى هنا اتقاء الشرك بإجماع أهل السنة، فمن اتقاه وهو موحد فأعماله التي تصدق فيها نيته مقبولة، وأما المتقي الشرك والمعاصي فله الدرجة [العليا] من القبول والختم بالرحمة، علم ذلك بإخبار الله تعالى لا أن ذلك يجب على الله تعالى عقلا.

وقال عدي بن ثابت وغيره: قربان متقي هذه الأمة الصلاة.

قلت: وهذا خاص في نوع من العبادات.

وقد روى البخاري عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : (إن الله تبارك وتعالى قال من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وما يزال عبدي

يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لاعيذنه وما ترددت عن شئ أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته).

وفي الزاد : المراد بالمتقين قولان :

أحدهما أنهم الذين يتقون المعاصي قاله ابن عباس والثاني أنهم الذين يتقون الشرك قاله الضحاك

قوله تعالى مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك) فيه قولان :

أحدهما ما أنا بمنتصر لنفسي قاله ابن عباس والثاني ما كنت لأبتدئك قاله عكرمة وفي سبب امتناعه من دفعه عنه قولان

أحدهما أنه منعه التحرج مع قدرته على الدفع وجوازه له قاله ابن عمر وابن عباس

والثاني أن دفع الإنسان عن نفسه لم يكن في ذلك الوقت جائزا قاله الحسن ومجاهد وقال ابن جرير ليس في الآية دليل على أن المقتول علم عزم القاتل على قتله ثم ترك الدفع عن نفسه وقد ذكر أنه قتله غيلة فلا يدعى ما ليس في الآية إلا بدليل إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين

قوله تعالى إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فيه قولان :

أحدهما إني أريد أن ترجع بإثم قتلي وإثمك الذي في عنقك هذا قول ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك

والثاني أن تبوء بإثمي في خطاياي وإثمك في قتلك لي ، وهو مروي عن مجاهد أيضا قال ابن جرير والصحيح عن مجاهد القول الأول وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال [لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل] ؛ فان قيل كيف أراد هابيل وهو من المؤمنين أن يبوء قابيل بالإثم وهو معصية والمؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ؟ فعنه ثلاثة أجوبة :

أحدها أنه ما أراد لأخيه الخطيئة وإنما أراد إن قتلتني أردت أن تبوء بالإثم وإلى هذا المعنى ذهب الزجاج

والثاني أن في الكلام محذوفا تقديره إني أريد أن لا تبوء بإثمي وإثمك فحذف لا ، كقوله تَعَالَىٰ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ **لقمان: ١٠** أي أن لا تميد بكم

والثالث أن المعنى أريد زوال أن تبوء بإثمي وإثمك وبطلان أن تبوء بإثمي وإثمك فحذف ذلك وقامت أن مقامه كقوله ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾**البقرة** أي حب العجل ذكره والذي قبله ابن الأنباري .

وفي تفسير القرطبي : لَئنْ بَسَطْتَ إلَيَّ يَدَكَ لتَقْتُلَني مَا أَنَا ببَاسطٍ يَديَ إلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إنّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمينَ، إنّي أُريدُ أَنْ تَبُوءَ بإثْمي وَإثْمكَ فَتَكُونَ منْ أَصْحَاب النَّار وَذَلكَ جَزَاءُ الظَّالمينَ

فيه مسألتان: الأولى - قوله تعالى: (لئن بسطت إلي يدك) الآية.

أي لئن قصدت قتلي فأنا لا أقصد قتلك، فهذا استسلام منه. وفي الخبر: (إذا كانت الفتنة فكن كخير ابني آدم).

وروى أبو داود عن سعد بن أبي وقاص قال قلت يا رسول: إن دخل علي بيتي وبسط يده [إلي] ليقتلني ؟ قال فقال رسول الله ﷺ: (كن كخير ابني آدم) وتلا هذه الآية " لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ".

قال مجاهد: كان الفرض عليهم حينئذ ألا يستل أحد سيفا، وألا يمتنع ممن يريد قتله.

قال علماؤنا: وذلك مما يجوز ورود التعبد به، إلا أن في شرعنا يجوز دفعه إجماعا.

وفي وجوب ذلك عليه خلاف، والأصح وجوب ذلك، لما فيه من النهي عن المنكر.

وفي الحشوية قوم لا يجوزون للمصول عليه الدفع، واحتجوا بحديث أبي ذر (وهو في مسند أحمد وغيره = : عَنْ عَبْد اللَّه بْن الصَّامت عَنْ أَبي ذَرٍّ قَالَ كُنْتُ خَلْفَ النَّبيّ ﷺ حينَ خَرَجْنَا منْ حَاشي الْمَدينَة فَقَالَ يَا أَبَا ذَرٍّ صَلّ الصَّلَاةَ لوَقْتهَا وَإنْ جئْتَ وَقَدْ صَلَّى الْإمَامُ كُنْتَ قَدْ أَحْرَزْتَ

صَلَاتَكَ قَبْلَ ذَلِكَ وَإِنْ جِئْتَ وَلَمْ يُصَلّ صَلَّيْتَ مَعَهُ وَكَانَتْ صَلَاتُكَ لَكَ نَافِلَةً وَكُنْتَ قَدْ أَحْرَزْتَ صَلَاتَكَ يَا أَبَا ذَرٍّ أَرَأَيْتَ إِنْ النَّاسُ جَاعُوا حَتَّى لَا تَبْلُغَ مَسْجِدَكَ مِنْ الْجُهْدِ أَوْ لَا تَرْجِعَ إِلَى فِرَاشِكَ مِنْ الْجُهْدِ فَكَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ قَالَ قُلْتُ اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ تَصَبَّرْ يَا أَبَا ذَرٍّ أَرَأَيْتَ إِنْ النَّاسُ مَاتُوا حَتَّى يَكُونَ الْبَيْتُ بِالْعَبْدِ فَكَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ قَالَ قُلْتُ اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ تَعَفَّفْ قَالَ يَا أَبَا ذَرٍّ أَرَأَيْتَ إِنْ النَّاسُ قُتِلُوا حَتَّى يَغْرَقَ حِجَارَةُ الزَّيْتِ مِنْ الدِّمَاءِ كَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ قُلْتُ اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ تَدْخُلُ بَيْتَكَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ فَإِنْ أَنَا دُخِلَ عَلَيَّ قَالَ تَأْتِي مَنْ أَنْتَ مِنْهُ قَالَ قُلْتُ وَأَحْمِلُ السِّلَاحَ قَالَ إِذًا شَارَكْتَ قَالَ قُلْتُ كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ إِنْ خِفْتَ أَنْ يَبْهَرَكَ شُعَاعُ السَّيْفِ فَأَلْقِ طَائِفَةً مِنْ رِدَائِكَ عَلَى وَجْهِكَ يَبُوءُ بِإِثْمِكَ وَإِثْمِه .) ، وحمله العلماء على ترك القتال في الفتنة، وكف اليد عند الشبهة، على ما بيناه في كتاب " التذكرة ".

وقال عبد الله بن عمرو وجمهور الناس: كان هابيل أشد قوة من قابيل ولكنه تحرج.

قال ابن عطية: وهذا هو الأظهر، ومن ها هنا يقوى أن قابيل إنما هو عاص لا كافر، لأنه لو كان كافرا لم يكن للتحرج هنا وجه، وإنما وجه التحرج في هذا أن المتحرج يأبى أن يقاتل موحدا، ويرضى بأن يظلم ليجازي في الآخرة، ونحو هذا فعل عثمان رضي الله عنه.

وقيل: المعنى لا أقصد قتلك بل أقصد الدفع عن نفسي، وعلى هذا قيل: كان نائما فجاء قابيل ورضخ رأسه بحجر على ما يأتي ومدافعة الإنسان عمن يريد ظلمه جائزة وإن أتى على نفس العادي.

وقيل: لئن بدأت بقتلي فلا أبدأ بالقتل.

وقيل: أراد لئن بسطت إلى يدك ظلما فما أنا بظالم، إني أخاف الله رب العالمين.

قوله تعالى (وذلك جزاء الظالمين) الإشارة إلى مصاحبة النار

الثانية قوله تعالى: (إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك) قيل: معناه معنى قول النبي ﷺ : (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار) قيل: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال: (إنه كان حريصا على قتل صاحبه) ؛ وكأن هابيل أراد أني لست بحريص على قتلك، فالإثم

الذي كان يلحقني لو كنت حريصا على قتلك أريد أن تحمله أنت مع إثمك في قتلي.

وقيل: المعنى " بإثمي " الذي يختص بي فيما فرطت ، أي يؤخذ من سيئاتي فتطرح عليك بسبب ظلمك لي، وتبوء بإثمك في قتلك، وهذا يعضده قوله عليه الصلاة والسلام: (يؤتى يوم القيامة بالظالم والمظلوم فيؤخذ من حسنات الظالم فتزاد في حسنات المظلوم حتى ينتصف فإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم فتطرح عليه).

أخرجه مسلم بمعناه، وقد تقدم ، ويعضده قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴿١٣﴾ ﴾ **العنكبوت** وهذا بين لا إشكال فيه.

وقيل: المعنى إني أريد ألا تبوء بإثمي وإثمك كما قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴿١٥﴾ ﴾ **النحل** أي لئلا تميد بكم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾ **النساء** أي لئلا تضلوا فحذف " لا ".

قلت: وهذا ضعيف، لقوله عليه السلام: (لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الاول كفل من دمها لانه أول من سن القتل)، فثبت بهذا أن إثم القتل حاصل، ولهذا قال أكثر العلماء: إن المعنى، ترجع بإثم قتلي وإثمك الذي عملته قبل قتلي. قال الثعلبي: هذا قول عامة أكثر المفسرين.

وقيل: هو استفهام، أي أو إني أريد ؟ على جهة الإنكار، كقوله تعالى: " وتلك نعمة " أي أو تلك نعمة ؟ وهذا لان إرادة القتل معصية.[حكاه القشيري]

وسئل أبو الحسن بن كيسان: كيف يريد المؤمن أن يأثم أخوه وأن يدخل النار ؟ فقال: إنما وقعت الإرادة بعد ما بسط يده إليه بالقتل، والمعنى: لئن بسطت إلي يدك لتقتلني لامتنعن من ذلك مريدا للثواب، فقيل له: فكيف قال: بإثمي وإثمك، وأي إثم له إذا قتل ؟ فقال: فيه ثلاثة أجوبة،

أحدها – أن تبوء بإثم قتلي وإثم ذنبك الذي من أجله لم يتقبل قربانك، ويروى هذا القول عن مجاهد.

والوجه الآخر – أن تبوء بإثم قتلي وإثم اعتدائك علي، لأنه قد يأثم بالاعتداء وإن لم يقتل.

والوجه الثالث – أنه لو بسط يده إليه أثم، فرأى أنه إذا أمسك عن ذلك فإثمه يرجع على صاحبه.

فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ دليل على أنهم كانوا في ذلك الوقت مكلفين قد لحقهم الوعد والوعيد.

وقد استدل بقول هابيل لأخيه قابيل: " فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِۚ " على أنه كان كافرا، لأن لفظ أصحاب النار إنما ورد في الكفار حيث وقع في القرآن.

وهذا مردود هنا بما ذكرناه عن أهل العلم في تأويل الآية.

ومعنى " من أصحاب النار " مدة كونك فيها. والله أعلم.

قوله فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فيه أربع مسائل: الاولى – قوله تعالى: " فطوعت له نفسه ". أي سولت وسهلت نفسه عليه الأمر وشجعته وصورت له أن قتل أخيه طوع سهل له يقال: طاع الشيء يطوع أي سهل وانقاد ، وطوعه فلان له أي سهله.

قال الهروي: طوعت وأطاعت واحد، يقال: طاع له كذا إذا أتاه طوعا.

وقيل: طاوعته نفسه في قتل أخيه، فنزع الخافض فانتصب.

وفي الزاد : أحدها تابعته على قتل أخيه قاله ابن عباس والثاني شجعته قاله مجاهد والثالث زينت له قاله قتادة والرابع رخصت له قاله أبو الحسن الأخفش والخامس أن طوعت فعلت من الطوع والعرب تقول طاع لهذه الظبية أصول هذا الشجر وطاع له كذا أي أتاه طوعا حكاه الزجاج عن المبرد وقال ابن قتيبة شايعته وانقادت له يقال لساني لا يطوع بكذا أي لا ينقاد وهذه المعاني تتقارب

وفي كيفية قتله ثلاثة أقوال :

أحدها أنه رماه بالحجارة حتى قتله رواه أبو صالح عن ابن عباس

والثاني ضرب رأسه بصخرة وهو نائم رواه مجاهد عن ابن عباس والسدي عن أشياخه

والثالث رضخ رأسه بين حجرين قال ابن جريج لم يدر كيف يقتله

فتمثل له إبليس وأخذ طائرا فوضع رأسه على حجر ثم شدخه بحجر آخر ففعل به هكذا وكان لهابيل يومئذ عشرون سنة وفي موضع مصرعه ثلاثة أقوال :

أحدها على جبل ثور قاله ابن عباس والثاني بالبصرة قاله جعفر الصادق والثالث عند عقبة حراء حكاه ابن جرير الطبري

وفي القرطبي: وروي أنه جهل كيف يقتله فجاء إبليس بطائر - أو حيوان غيره - فجعل يشدخ رأسه بين حجرين ليقتدي به قابيل ففعل، قال ابن جريج ومجاهد وغيرهما.

وقال ابن عباس وابن مسعود: وجده نائما فشدخ رأسه بحجر وكان ذلك في ثور - جبل بمكة - قاله ابن عباس.

وقيل: عند عقبة حراء، حكاه محمد بن جرير الطبري. وقال جعفر الصادق: بالبصرة في موضع المسجد الأعظم. وكان لهابيل يوم قتله قابيل عشرون سنة.

ويقال: إن قابيل كان يعرف القتل بطبعه، لان الإنسان وإن لم ير القتل فإنه يعلم بطبعه أن النفس فانية ويمكن إتلافها، فأخذ حجرا فقتله بأرض الهند. والله أعلم.

ولما قتله ندم فقعد يبكي عند رأسه إذ أقبل غرابان فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر ثم حفر له حفرة فدفنه، ففعل القاتل بأخيه كذلك.

والسوءة يراد بها العورة، وقيل: يراد بها جيفة المقتول، ثم إنه هرب إلى أرض عدن من اليمن، فأتاه إبليس وقال: إنما أكلت النار قربان أخيك لأنه كان يعبد النار، فانصب أنت أيضا نارا تكون لك ولعقبك، فبنى بيت نار، فهو أول من عبد النار فيما قيل. والله أعلم.

وروي عن ابن عباس أنه لما قتله وآدم بمكة اشتاك الشجر، وتغيرت الأطعمة، وحمضت الفواكه، وملحت المياه، واغبرت الأرض، فقال آدم عليه السلام: قد حدث في الأرض حدث، فأتى الهند فإذا قابيل قد قتل هابيل.

وقيل: إن قابيل هو الذي انصرف إلى آدم، فلما وصل إليه قال له: أين هابيل ؟ فقال: لا أدري كأنك وكلتني بحفظه.

فقال له آدم: أفعلتها ؟ ! والله إن دمه لينادي، اللهم العن أرضا شربت دم هابيل.

فروي أنه من حينئذ ما شربت أرض دما.

ثم إن آدم بقي مائة سنة لم يضحك، حتى جاءه ملك فقال له: حياك الله يا آدم وبياك.

فقال: ما بياك ؟ قال: أضحكك، قاله مجاهد وسالم بن أبي الجعد.

ولما مضى من عمر آدم مائة وثلاثون سنة – وذلك بعد قتل هابيل بخمس سنين ولدت له شيثا، وتفسيره هبة الله، أي خلفا من هابيل.

وقال مقاتل: كان قبل قتل قابيل هابيل السباع والطيور تستأنس بآدم ، فلما قتل قابيل هابيل هربوا ، فلحقت الطيور بالهواء، والوحوش بالبرية، ولحقت السباع بالغياض.

وفي قوله فأصبح من الخاسرين ثلاثة أقوال :

أحدها من الخاسرين الدنيا والآخرة فخسرانه الدنيا أنه أسخط والديه وبقي بلا أخ وخسرانه الآخرة أنه أسخط ربه وصار إلى النار قاله ابن عباس ، والثاني أنه أصبح من الخاسرين الحسنات قال الزجاج ، والثالث مني الخاسرين أنفسهم بإهلاكهم إياها قاله القاضي أبو يعلى

وروي أن آدم لما تغيرت الحال قال:

تغيرت البلاد ومن عليها * فوجه الأرض مغبر قبيح

تغير كل ذي طعم ولون * وقل بشاشة الوجه المليح

في أبيات كثيرة ذكرها الثعلبي وغيره.

قال ابن عطية: هكذا هو الشعر بنصب " بشاشة " وكف التنوين.

قال القشيري وغيره قال ابن عباس: ما قال آدم الشعر، وإن محمدا والأنبياء كلهم في النهي عن الشعر سواء، لكن لما قتل هابيل رثاه آدم وهو سرياني، فهي مرثية بلسان السريانية أوصى بها إلى ابنه شيث وقال: إنك وصيي فاحفظ مني هذا الكلام ليتوارث، فحفظت منه إلى زمان يعرب بن قحطان، فترجم عنه يعرب بالعربية ، وجعله شعرا .

الثانية – روي من حديث أنس قال: سئل النبي ﷺ عن يوم الثلاثاء فقال: (يوم الدم فيه حاضت حواء وفيه قتل ابن آدم أخاه).

وثبت في صحيح مسلم وغيره عن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ : (لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل).

وهذا نص على التعليل، وبهذا الاعتبار يكون على إبليس كفل من معصية كل من عصى بالسجود، لأنه أول من عصى به ، وكذلك كل من أحدث في دين الله ما لا يجوز من البدع والأهواء، قال ﷺ: (من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة).

وهذا نص في الخير والشر. وقال ﷺ: (إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون).

وهذا كله صريح، ونص صحيح في معنى الآية، وهذا ما لم يتب الفاعل من تلك المعصية، لان أدم عليه السلام كان أول من خالف في أكل ما نهي عنه، ولا يكون عليه شئ من أوزار من عصى بأكل ما نهى عنه ولا شربه ممن بعده بالإجماع، لان آدم تاب من ذلك وتاب الله عليه،

قوله تعالى (فبعث الله غرابا يبحث) قال ابن عباس حمله على عاتقه فكان إذا مشى تخط يداه ورجلاه في الأرض وإذا قعد وضعه إلى جنبه حتى رأى غرابين اقتتلا فقتل أحدهم الآخر ثم بحث له الأرض حتى واراه بعد أن حمله سنين ، وقال مجاهد حمله على عاتقه مائة سنة وقال عطية حمله حتى أروح وقال مقاتل حمله ثلاثة أيام فصار كمن لم يجن.

الثالثة – تضمنت هذه الآية البيان عن حال الحاسد، حتى أنه قد يحمله حسده على إهلاك نفسه بقتل أقرب الناس إليه قرابة، وأمسه به رحما، وأولاهم بالحنو عليه ودفع الأذية عنه.

الرابعة – قوله تعالى: (فأصبح من الخاسرين) أي ممن خسر حسناته.

وقال مجاهد: علقت إحدى رجلي القاتل بساقها إلى فخذها من يومئذ إلى يوم القيامة، ووجهه إلى الشمس حيثما دارت، عليه في الصيف حظيرة من نار، وعليه في الشتاء حظيرة من ثلج.

قال ابن عطية: فإن صح هذا فهو من خسرانه الذي تضمنه قوله تعالى: " فأصبح من الخاسرين " وإلا فالخسران يعم خسران الدنيا والآخرة.

قلت: ولعل هذا يكون عقوبته على القول بأنه عاص لا كافر، فيكون المعنى " فأصبح من الخاسرين " أي في الدنيا. والله أعلم.

قال مؤلف كتاب "مع قصص السابقين في القرآن" الشيخ صلاح الخالدي حول هذه الآية فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخيه فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ منَ الْخَاسرينَ : قتل الأخ أخاه! لكن ماذا استفاد من ذلك ؟هل حقق مراده وأهدافه ؟ هل نال ما وعده به شيطانه اللعين ونفسه الشريرة؟

قال ومن مظاهر خسارته :

١- لقد خسر أخاه عندما سفك دمه .

٢- لقد خسر والديه وأهله حيث غضبوا عليه لجريمته .

٣- لقد خسر معاني الأخوة التي تربطه بأخيه .

٤- لقد خسر كل معاني الإنسانية الخيرة مثل الرحمة والمودة والتسامح .

٥- لقد خسر نفسه وهدوءه واطمئنانه وسعادته .

٦- لقد خسر حياته حيث حولها من حياة خيرة نافعة إيجابية إلى حياة شريرة ظالمة .

٧- لقد خسر آخرته .

٨- لقد خسر تاريخه ...فصار قدوة لكل قاتل ظالم .

فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ في الْأَرْض ليُريَهُ كَيْفَ يُوَاري سَوْءَةَ أَخيه قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مثْلَ هَذَا الْغُرَاب فَأُوَاريَ سَوْءَةَ أَخي فَأَصْبَحَ منَ النَّادمينَ

فيه خمس مسائل: الأولى – قوله تعالى: (فبعث الله غرابا يبحث في الأرض) قال مجاهد: بعث الله غرابين فاقتتلا حتى قتل أحدهما صاحبه ثم حفر فدفنه. وكان ابن ادم هذا أول من قتل.

وقيل: إن الغراب بحث الأرض على طعمه ليخفيه إلى وقت الحاجة إليه، لأنه من عادة الغراب فعل ذلك، فتنبه قابيل ذلك على مواراة أخيه.

وروي أن قابيل لما قتل هابيل جعله في جراب، ومشى به يحمله في عنقه مائة سنة، قاله مجاهد.

وروى ابن القاسم عن مالك :أنه حمله سنة واحدة، وقاله ابن عباس.

وقيل: حتى أروح ولا يدري ما يصنع به إلى أن أقتدى بالغراب كما تقدم.

وفي الخبر عن أنس قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (امتن الله على ابن آدم بثلاث بعد ثلاث بالريح بعد الروح فلولا أن الريح يقع بعد الروح ما دفن حميم حميما وبالدود في الجثة فلولا أن الدود يقع في الجثة لاكتنزتها الملوك وكانت خيرا لهم من الدراهم والدنانير وبالموت بعد الكبر وإن الرجل ليكبر حتى يمل نفسه ويمله أهله وولده وأقرباؤه فكان الموت أستر له).

وقال قوم: كان قابيل يعلم الدفن، ولكن ترك أخاه بالعراء استخفافا به، فبعث الله غرابا يبحث التراب على هابيل ليدفنه، فقال عند ذلك: يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ حيث رأى إكرام الله لهابيل بأن قيض له الغراب حتى واراه، ولم يكن ذلك ندم توبة، وقيل: إنما ندمه كان على فقده لا على قتله، وإن كان فلم يكن موفيا شروطه. أو ندم ولم يستمر ندمه، فقال ابن عباس: ولو كانت ندامته على قتله لكانت الندامة توبة منه.

ويقال: إن آدم وحواء أتيا قبره وبكيا أياما عليه.

ثم إن قابيل كان على ذروة جبل فنطحه ثور فوقع إلى السفح وقد تفرقت عروقه.

ويقال: دعا عليه آدم فانخسفت به الأرض.

ويقال: إن قابيل استوحش بعد قتل هابيل ولزم البرية ، وكان لا يقدر على ما يأكله إلا من الوحش، فكان إذا ظفر به وقذه حتى يموت ثم يأكله.

قال ابن عباس: فكانت الموقوذة حراما من لدن قابيل بن آدم، وهو أول من يساق من الآدميين إلى النار، وذلك قوله تعالى :﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ فصلت فإبليس رأس الكافرين من الجن، وقابيل رأس الخطيئة من الإنس .

وقد قيل: إن الندم في ذلك الوقت لم يكن توبة، والله بكل ذلك أعلم وأحكم.

وظاهر الآية أن هابيل هو أول ميت من بني آدم، ولذلك جهلت سنة المواراة، وكذلك حكى الطبري عن ابن إسحق عن بعض أهل العلم بها في كتب الأوائل.

وقوله " يبحث " معناه يفتش التراب بمنقاره ويثيره. ومن هذا سميت سورة " براءة " البحوث ، لأنها فتشت عن المنافقين، الثانية - بعث الله الغراب حكمة، ليرى ابن آدم كيفية المواراة، وهو معنى قوله تعالى: " ثم أماته فأقبره " [عبس: ٢١] فصار فعل الغراب في المواراة سنة باقية في الخلق، فرضا على جميع الناس على الكفاية، من فعله منهم سقط فرضه عن الباقين. وأخص الناس به الأقربون الذين يلونه، ثم الجيرة، ثم سائر المسلمين.

وأما الكفار فقد روى أبو داود عن علي قال: قلت للنبي ﷺ : إن عمك الشيخ الضال قد مات، قال: (أذهب فوار أباك التراب ثم لا تحدثن شيئا حتى تأتيني) فذهبت فواريته وجئته فأمرني فاغتسلت ودعا لي.

الثالثة - ويستحب في القبر سعته وإحسانه، لما رواه ابن ماجة عن هشام بن عامر رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : (احفروا وأوسعوا وأحسنوا).

وروي عن الادرع السلمي قال: جئت ليلة أحرس النبي ﷺ ، فإذا رجل قراءته عالية، فخرج النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله: هذا مراء (من الرياء وكأنه عليه الصلاة والسلام أعرض عن كلامه تنبيها على أنه خطأ، ثم بين في وقت آخر أن الأمر على خلاف ما زعم.(هامش ابن

ماجة).) ، قال: فمات بالمدينة ففرغوا من جهازه فحملوا نعشه، فقال رسول الله ﷺ : (ارفقوا به رفق الله به إنه كان يحب الله ورسوله).

قال: وحضر حفرته فقال: (أوسعوا له وسع الله عليه) فقال بعض أصحابه: [يا رسول الله] لقد حزنت عليه ؟ فقال: (أجل إنه كان يحب الله ورسوله)، أخرجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن زيد بن الحباب عن موسى بن عبيدة عن سعيد بن أبي سعيد.

والأصل في " يا ويلتي " يا ويلتي ثم أبدل من الياء ألف.

وقرأ الحسن على الأصل بالياء، والأول أفصح، لان حذف الياء في النداء أكثر.

وهي كلمة تدعو بها العرب عند الهلاك، قال سيبويه.

وقال الأصمعي: " ويل " بعد.

وقرأ الحسن: " أعجزت " بكسر الجيم.

قال النحاس: وهي لغة شاذة، إنما يقال عجزت المرأة إذا عظمت عجيزتها، وعجزت عن الشيء عجزا ومعجزة ومعجزة. والله أعلم.

وفي المراد بسوأة أخيه قولان : أحدهما عورة أخيه والثاني جيفة أخيه

قوله تعالى فأصبح من النادمين قان قيل أليس الندم توبة فلم لم يقبل منه فعنه أربعة أجوبة

أحدها أنه يجوز أن لا يكون الندم توبة لمن تقدمنا ويكون توبة لهذه الأمة لأنها خصت بخصائص لم تشارك فيها قاله الحسن بن الفضل

والثاني أنه ندم على حمله لا على قتله والثالث أنه ندم إذ لم يواره حين قتله والرابع أنه ندم على فوات أخيه لا على ركوب الذنب وفي هذه القصة تحذير من الحسد لأنه الذي أهلك قابيل.

وعقب الشيخ الخالدي في كتابه السابق الذكر : بعدما دفن القاتل أخاه أحس بندم كبير ..ولم يكن ندمه ندما إيجابيا؛ ولكنه كان ندما سلبيا ، كان ندم العاجز الحاقد ، وليس ندم المذنب التائب ، كان ندم الذي شعر بالخسارة البالغة .

يقول الخالدي :" بما أن القاتل ندم على جريمته بنص القرآن فلماذا لم يتب الله عليه ؟ ولماذا لم يغفر الله له ؟

الجواب أن القاتل لو ندم ندم التائب لتاب الله عليه ، لكن القاتل لم يندم هذا الندم ،إنه لم يتب ، ولم يستغفر ، ولم يشعر بالخطأ والإثم ، ولو فعل هذا لتاب الله عليه ،لأن الله يغفر الذنوب جميعا ... لقد كان ندم القاتل ناتجا عن عجزه عن التصرف في الجثة ...وكذلك لم يحقق ما أراد من القتل ..فجمع بين حسرة الخسارة وحسرة الندم .

الدروس المستفادة من القصة كما بينها الخالدي في كتابه" مع قصص السابقين في القرآن ":

١- إن ابني آدم يمثلان نموذجين مختلفين من نماذج البشر : نموذج المؤمن الهادئ المسالم الوادع ونموذج الشرير الحاقد الظالم ، وهذا النموذجان لا تخلو منهما البشرية في أي زمان ومكان .

٢- إن الرجل القاتل قد اسلم نفسه للشيطان ، وإن جريمته هي النتيجة الطبيعية للاستجابة للشيطان .

٣- كون الرجل القاتل ابنا لآدم من صلبه يوحي بإشارة هامة ، فمع أن آدم نبي إلا أن ابنه اختار الكفر والباطل ، وقد يكون للأنبياء أولاد فاسدون كافرون _ مثل ابن ادم ونوح _ وقد يكون للصالحين أبناء فاسدون ، وهذا لا يعيب الآباء الصالحين ، بشرط أن يقوموا بواجبهم مع

٤- أولادهم بالدعوة والنصح والتذكير .

٥- إن الله يتقبل من المتقين ...فعلينا تحقيق صفة التقوى .

٦- لا يمكن لمؤمن إن يقتل مؤمنا إلا خطأ .

٧- إن الذي يمنع المؤمن من سفك دم أخيه هو الخوف من الله وليس هو الضعف والعجز والجبن وقلة الحيلة .

٨- إن المجرم عندما يرتكب جريمته يخسر كل شيء .

٩- الندم ندمان ندم يقود للتوبة والمغفرة .. وندم لا يقود لذلك ندم العاجز الفاشل الخاسر.

وذكر غير ذلك من العبر والفوائد . والله اعلم .

قضية كفر ابن ادم قضية غير محسومة في نظري ففي السلسلة الصحيحة للألباني :

" كان بين آدم ونوح عشرة قرون وبين نوح وإبراهيم عشرة قرون "

وفي مسند البزار كاملا " عَن عكْرمة ، عَن ابن عباس ، رَضي الله عنهما ، قال : كان بين آدم ونوح عشر قرون كلهم على شريعة الحق قال : فلما بعث الله النبي ﷺ وأنزل كتابه قال : [فكان الناس أمة واحده].

وفي صحيح ابن حبان بتحقيق الأرناؤوط : عن أبي أمامه : أن رجلا قال : يا رسول الله أنبي كان آدم ؟ قال : (نعم مكلم) قال : فكم كان بينه وبين نوح ؟ قال : (عشرة قرون) قال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح

وفي أضواء البيان : يدل على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح أنها على الإسلام. كما قال ابن عباس: كانت بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام؛ نقله عنه ابن كثير في تفسير هذه الآية.

وهذا المعنى تدل عليه آيات أخر. كقوله { كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ} الآية[١٧/١٧]، وقوله. { وَمَا كَانَ النَّاسُ إلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ } الآية[١٠/ ١٩]. لأن معنى ذلك على أصح الأقوال أنهم كانوا على طريق الإسلام، حتى وقع ما وقع من قوم نوح من الكفر. فبعث الله النَّبيين ينهون عن ذلك الكفر، مبشرين من أطاعهم بالجنة، ومنذرين من عصاهم بالنار. وأولهم في ذلك نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

فهل كان قاتل هابيل كافرا ؟ هل كان الكفر في عهد آدم ؟! سؤال كبير ،ولكن لا تشغل فكرك في كثيرا ، واشغل نفسك بما ينجيك من غضب الله ﷻ واقرأ هذا الخبر الشريف :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُّ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُّ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُّ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُّ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهَّ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهَّ

وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيمَنْ عِنْدَهُ وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ . رواية احمد في المسند وهو عند مسلم .

العبر والعظات

(١) سعة علم الله تعالى

وقالوا :إنه يستحيل إيجاده الأشياء مع الجهل ، وبدون إرادة ، والإرادة تستلزم تصور المراد ، وتصور المراد هو العلم بالمراد ؛ لأن المخلوقات فيها من الإحكام والإتقان مما يستلزم علم فاعلها لها (*) *شرح العقيدة الطحاوية ابن ابو العز الحنفي.*

نفي الجهل لا يكون صفة مدح ، أما إثبات صفة العلم لله ﷻ تنفي عنه الجهل

هل يصنع الإنسان الجاهل شيئا مهما ؟!

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)} [البقرة]

اعلم أيها الإنسان أن علم الله تعالى شامل الكليات والجزئيات ، يعلم الظاهر والباطن ، لما أخبر سبحانه الملائكة بخلق آدم وذريته حدث استفهام منهم اتجاه هذا الخلق الجديد فأعلمهم الله أنه أعلم منهم بما يشاء ويريد قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ، فأقروا بذلك وبينوا ضعف علمهم إلى علمه تعالى .

وأكد فقال ﷻ {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)} [البقرة]

فهو يعلم الغيب وما يظهر وما يبطن وهو حكيم في علمه فقال في أكثر من آية {إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨)} [الأنعام]

وأخبرتنا الملائكة أن الله هو العليم الحكيم ، وقد أخبرت امرأة عمران أنه هو السميع العليم : { رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥)} وأعلمنا في

الآية التالية أنه واسع العلم ، وأنه عليم خبير ، العلم يحتاج لحكمة لخبرة لسعة ، علم بغير حكمة قد يفسد ويضر

قال {وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢)} [النور] {وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠)} [الأنعام] وقال {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)} [لقمان]

فهذه خمسة علوم خصها الرحمن بنفسه ، أولها علم الساعة وقتها وقت وقوعها ، لم يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل ، ولكن الناس يعلمون أمارات وأشراط الساعة بما أخبرتهم به الأنبياء والرسل ، والأمة المحمدية كما ثبت في الأخبار الصحيحة علمت أنها ستكون يوم الجمعة .

والعلم الثاني ساعة نزول الغيث هو الذي يأمر بنزوله ، وقتما يشاء وكيفما يشاء وعلى من يشاء ووقت وقفه وانقطاعه ، ومهما بذل أهل الأرض لانزال المطر فلا يستطيعون ، فالأمر يتحكم به الله وحده ، والواقع المشاهد يدل على ذلك ، فما زلنا عاجزين عن معرفة وقت الزلازل ووقت الأعاصير والبراكين وغير ذلك من الظواهر الطبيعية.

والعلم الثالث العلم ما في الأرحام من خلق من حمل وعقم وشقاء وسعادة وعقل وإعاقة وأشياء أخرى كثيرة .

والرابع ماذا يكسب المخلوق يوم غد من طعام من شراب من سعادة من حزن من مال ؟

والعلم الخامس أين سيكون مكان الموت ؟ في أرضه التي ولد فيها في سفر في بيته في سوقه في المشفى في الطريق في المسجد في الملهى كله بعلمه وحده .

يعلم من يستحق الشكر والثناء {فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨)} [البقرة] ومتى يحلم عن عباده {وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢)} [النساء:] {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦)} [الأنعام] {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨٦)} [الحجر] { قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) } [سبأ] {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) } [النحل] لقد اقترن اسم العلم بكثير من الأسماء الحسنى .. فتأمل ذلك بقلبك!

اعلم أن علم الله ﷻ كامل شامل تأمل معي هذه الآيات حول علم مولاي ومولاك عز وجل:

{هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦)} [آل عمران: ٦٦] {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣)} [الأنعام: ٣] {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩) } [الأنعام: ٥٩] {وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧)} [طه: ٧] {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦)} [ق: ١٦] {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) } [الرعد: ٨] {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩)} [غافر: ١٩] {قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ } [البقرة: ١٤٠] {وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)} [الملك: ١٣، ١٤] من المعلم الحقيقي لنا ؟ اقرأ ..

{ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) } [النساء: ١١٣] {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) } [البقرة]

{وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤)} [طه: ١١٤]

وهو الذي يعلم من خلق فقال تعالى : {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨) } [الأنعام: ٥٨، ٥٩] { إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧)} [الأنعام: ١١٧] {اللَّهُ أَعْلَمُ

حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [الأنعام: ١٢٤] {وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ } [النساء: ٢٥] {وَاللهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ} [النساء: ٤٥] {وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ} [يوسف: ٧٧] { أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ} [الأنعام: ٥٣] {وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ } [آل عمران: ١١٥]

هذه جملة من آيات القرآن الكريم تبين لنا وتوضح بجلاء بين أن علم الله شامل للكليات والجزئيات ، ولا يخفى عليه شيئا ظاهرا أو باطنا ، وعلمه واسع ولا يحيط به أحد من خلقه .

{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ } [البقرة: ٢٥٥]

واعلم أيها المسلم " أن نفي الجهل لا يكون صفة مدح ؛ لأنه لا تثبت صفة العلم بذلك ، أما إثباتنا صفة العلم لله ﷻ ينفي عنه الجهل "

عندما تصف أنت شخصا بالجهل ، فهذا يعني أنه ليس بعالم ، وإذا نفيت عنه الجهل قلت "ليس فلان بجاهل " ، فلا يعتقد السامع أنه عالم ، أما لو أنك قلت :" زيد عالم " فيفهم السامع أنه غير جاهل ، تأمل الكلام أعلاه ، اذا وصفنا ربنا بعالم كما وصف نفسه وذاته بالضرورة نفينا عنه صفة الجهل .

وقالوا : إنه يستحيل إيجاده الأشياء مع الجهل ، وبدون إرادة وقدرة ، والإرادة تستلزم تصور المراد ، وتصور المراد هو العلم بالمراد ؛ لأن المخلوقات فيها من الإحكام والإتقان مما يستلزم علم فاعلها لها ، هل يصنع الإنسان الجاهل شيئا مهما ؟! تأمل معي مرة أخرى هذه الآيات

إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ، فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ، هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ . أرأيت ؟! علم مع حكمة خبرة سعة قدرة سمع فتح شكر ، لا يكون ذلك إلا لله وحده ! "وقالوا : لأن المخلوقات منها ما هو عالم ، والعلم صفة كمال ، ويمتنع أن لا يكون الخالق عالما وهذا له طريقان :

أحدهما : أن يقال نحن نعلم بالضرورة أن الخالق أكمل من المخلوق ، وأن الواجب أكمل من الممكن ، لو فرضنا عالم وغير عالم كان العالم أكمل ، فلو لم يكن الخالق عالما لزم أن يكون الممكن أكمل منه وهو ممتنع .

الثاني : أن يقال كل علم في الممكنات التي هي المخلوقات فهو منه ، ومن الممتنع أن يكون فاعل الكمال ومبدعه عاريا منه ، بل هو أحق به ، فكل ما يثبت للمخلوق من كمال ، فالخالق به أحق وكل نقص تنزه عن المخلوق فالخالق عنه أولى .(*) *شرح العقيدة الطحاوية ابن ابو العز الحنفي*

قال الإمام الراغب في المفردات معرفا للعلم : العلم ادراك الشيء بحقيقته ،وذلك ضربان أحدهما : ذات الشيء ، الثاني : الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له ، أو نفي شيء هو منفي عنه .

والعلم من وجه ضربان نظري وعملي ، ومن وجه آخر عقلي وسمعي .

[عن سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ [في قصة الخضر] فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ وَقَالَ هَلْ بِأَرْضِي مِنْ سَلَامٍ مَنْ أَنْتَ قَالَ أَنَا مُوسَى قَالَ مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَمَا شَأْنُكَ قَالَ جِئْتُ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رَشَدًا قَالَ أَمَا يَكْفِيكَ أَنَّ التَّوْرَاةَ بِيَدَيْكَ وَأَنَّ الْوَحْيَ يَأْتِيكَ يَا مُوسَى إِنَّ لِي عِلْمًا لَا يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَهُ وَإِنَّ لَكَ عِلْمًا لَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَعْلَمَهُ فَأَخَذَ طَائِرٌ بِمِنْقَارِهِ مِنْ الْبَحْرِ وَقَالَ وَاللَّهِ مَا عِلْمِي وَمَا عِلْمُكَ فِي جَنْبِ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا كَمَا أَخَذَ هَذَا الطَّائِرُ بِمِنْقَارِهِ مِنْ الْبَحْرِ] صحيح البخاري

قال {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: ٧]

قيل بدأت الآية بالعلم ، وختمت بالعلم ، ومعنى ذلك هو معنا بعلمه ، وليس بذاته كما يقول

بعض الناس فكر بذلك .

ما القصد أن لله صفة العلم ؟ القصد بأن تؤمن بأن الله تعالى علم كل شيء جملة وتفصيلاً ، فعلم ما كان وما سيكون ، فكل شيء معلوم لله ، سواء كان دقيقاً أم جليلاً من أفعاله أو أفعال خلقه .

[فإنه سبحانه يعلم ما كَانَ وما يكون، ومالم يكن أن لو كَانَ كيف يكون، كما قال تعالى:[وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ] [الأنعام:٢٨]. وإن كَانَ يعلم أنهم لا يُردون، ولكن أخبر أنهم لو ردوا لعادوا للكفر والعصيان ، كما قال تعالى: [وَلَوْ عَلِمَ اللهُّ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ] [الأنفال:٢٣] وفي ذلك رد عَلَى الرافضة والقدرية الذين قالوا: إنه لا يعلم الشيء قبل أن يخلقه ويوجده ..] اهـ. *العقيدة الطحاوية شرح العقيدة الطحاوية ابن ابو العز الحنفي*

وقال ابن ابي العز : وغلاة المعتزلة { طائفة من المسلمين }ينكرون علم الله في الأزل ، ذكر أن غلاة المعتزلة المتقدمين أنكروا هذا النوع وزعموا أن الله لا يعلم الأشياء حتى توجد، وقال بعضهم: إنه يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات، أي: يعلم عموم الأشياء ولا يعلم تفاصيلها، ومقتضى هذا أنه يعلم عدد الخلق ولكن لا يعلم تفاصيل أعمالهم، فإذا علم أن هذه القبيلة يبلغ عددها كذا وكذا، فلا يعلم أعمال هذا الإنسان حتى يعملها.

وهذا يعتبر تنقصاً لعلم الله القائل: { وَاللهُّ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [البقرة:٢٨٢]، { وَأَنَّ اللهَّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ } [التوبة:٧٨]، فيلزم التنقص إذا وصف بأنه لا يعلم الأشياء إلا بعد حدوثها.

هؤلاء الذين أنكروا العلم السابق الأزلي هم الذين عناهم الإمام الشافعي في هذه الكلمة: (ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خُصموا، وإن أنكروا كفروا)، يعني: هل تقرون بأن الله بكل شيء عليم؟ هل تقرون بأن الله عالم بكل شيء؛ لأن الله علام الغيوب، وأن الله يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون؟ هل تقرون بسعة علم الله تعالى؟ فإن أقروا خُصموا،

فإن العلم بالتفاصيل داخل في ذلك، وإن جحدوا كفروا، وذلك لأنهم إذا جحدوا علم الله تعالى لزمهم أن يصفوه بالعجز وبالجهل، وبأنه يكون في الوجود ما لا يريد ، فيلزم من ذلك التنقص، ولا شك أنه إنكار للأدلة، فيكونون بذلك كفاراً جاحدين لصفات الله تعالى.

وقد أقر الأشعرية { طائفة من المسلمين } بوصف الله تعالى بأنه بكل شيء عليم، ولكنهم أنكروا بعض الصفات الفعلية، أما المعتزلة فأنكروا صفة العلم لله سبحانه وتعالى، ووصفوه بأنه لا يجهل؛ هكذا في معتقداتهم!

وأقروا أن لله سبحانه علما كما قال : { أَنْزَلَهُ بعلْمه } [سورة النساء : ١٦٦] ، { وَمَا تَحْمِلُ منْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إلَّا بعلْمه } [سورة فاطر : ١١] .

يثبت أهل السنة والجماعة لله تعالى صفة العلم ، وقد قرر هذا الإسماعيلي في كتابه اعتقاد أئمة أهل الحديث فقال :[قولهم في صفة الوجه والسمع والبصر والعلم والقدرة والكلام]

ويثبتون أن له وجها، وسمعا، وبصرا، وعلما، وقدرة، وقوة، وكلاما، لا على ما يقوله أهل الزيغ من المعتزلة وغيرهم، ... وقال: {أَنْزَلَهُ بعلْمه} [النساء: ١٦٦] وقال: {وَلَا يُحيطُونَ بشَيْءٍ منْ علْمه إلَّا بمَا شَاءَ} [البقرة: ٢٥٥]، ويقولون لا سبيل لأحد أن يخرج عن علم الله ولا أن يغلب فعله وإرادته مشيئة الله ولا أن يبدل علم الله، فإنه العالم لا يجهل ولا يسهو، والقادر لا يغلب.

وكذلك الصابوني في عقيدة السلف أصحاب الحديث حيث قال : (وكذلك يقولون في جميع الصفات التي نزل بذكرها القرآن ووردت بها الأخبار الصحاح من السمع . . والعلم) ، وهذا هو ما دلت عليه الأدلة من كتاب الله كقوله تعالى : { وَعنْدَهُ مَفَاتحُ الْغَيْب لَا يَعْلَمُهَا إلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا في الْبَرّ وَالْبَحْر وَمَا تَسْقُطُ منْ وَرَقَةٍ إلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ في ظُلُمَات الْأَرْض وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابسٍ إلَّا في كتَابٍ مُبينٍ } [سورة الأنعام: ٥٩] . (*) *اعتقاد أئمة الحديث / أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي*

فهذه الآية العظيمة من أعظم الآيات تفصيلا لعلمه المحيط بجميع الأشياء ، وكتابه المحيط بجميع الحوادث ، وعلمه الكامل بالغيوب كلها التي يطلع على ما شاء منها من شاء من خلقه وكثير منها طوى علمه عن الملائكة والمرسلين فضلا عن غيرهم من العالمين .

وأنه يعلم ما في البراري والقفار من الحيوانات والأشجار ، والرمال والحصى والتراب ، وما في البحار من حيوانات ومعادنها وصيدها ، وغير ذلك مما تحتويه أرجاؤها ويشتمل عليه ماؤها ، كل ذلك عنده في كتاب مبين ، أي في اللوح المحفوظ ، وهذا دليل على عظمته سبحانه وتعالى ، ولو أن الخلق اجتمعوا كلهم على أن يحيطوا ببعض صفاته لم يكن لهم قدرة ولا طاقة على ذلك فالنصوص الشرعية الدالة على صفة العلم كثيرة ، فأهل السنة والجماعة أجمعوا على الإيمان بها وأثبتوا ما تدل عليه معنى ونَفَوا الكيفية .

قال الأشعري في رسالة أهل الثغر : (وأجمعوا على أنه تعالى لم يزل موجودا حيا قادرا عالما . .)

أما الجهمية فأنكروا أن يكون لله علم أضافه لنفسه ، وجحدوا أن يكون قد أحاط بكل شيء علما ، وحاربوا النصوص الدالة على ذلك ، فمعبودهم على هذا الاعتقاد ليس العليم الخبير الذي هو بكل شيء عليم وإنما يعبدون العدم .

صفة العلم صفة ثابتة لله تعالى دل عليها الكتاب والسنة والإجماع .

فقصة آدم ﷺ المذكورة في الكتاب العظيم تثبت صفة العلم لله ﷻ {قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة: ٣٠] {قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ } [البقرة: ٣٣] الله علم ضلالة إبليس ، وعلم الأنبياء من ذرية آدم ، وإمامهم محمد ﷺ

قَالَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامت لابْنه يَا بُنَىَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقيقَة الإِيمَان حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ ليُخْطئَكَ وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ ليُصيبَكَ سَمعْتُ رَسُولَ اللهِ – ﷺ – يَقُولُ « إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ

اللهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ اكْتُبْ. قَالَ رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ قَالَ اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ ». يَا بُنَيَّ إِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – يَقُولُ « مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّى ». سنن أبى داود

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظْ اللهَ يَحْفَظْكَ احْفَظْ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ . الترمذي

قال الشيخ الألباني : صحيح .

تأمل مرة أخرى هذه الآيات

إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ / وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ / إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ / إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ / فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ / ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ / وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ / إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ / وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ / إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ

(٢) الكبر

قال ابن عيينة: من كانت معصيته في شهوة فأرجو له التوبة ؛ فإن آدم عصى مشتهيا فغفر له ، وإذا كانت معصيته في كبر فأخشى على صاحبه اللعن فإن إبليس أبى مستكبرا فلعن

ومما يحذر منه في قصة آدم الكبر ، وعرفه الرسول ﷺ : عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِىِّ -ﷺ- قَالَ « لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ ». قَالَ رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ « إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ ». صحيح مسلم

وعرفه الراغب في المفردات في غريب القرآن : والْكِبْرُ والتَّكَبُّرُ والاسْتِكْبَارُ تتقارب، فالكبر الحالة التي يتخصّص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره ، وأعظم التّكبّر التّكبّر على الله بالامتناع من قبول الحقّ والإذعان له بالعبادة. والاسْتِكْبارُ يقال على وجهين:

أحدهما: أن يتحرّى الإنسان ويطلب أن يصير كبيرا ، وذلك متى كان على ما يجب، وفي المكان الذي يجب، وفي الوقت الذي يجب فمحمود.

والثاني: أن يتشبّع فيظهر من نفسه ما ليس له، وهذا هو المذموم، وعلى هذا ما ورد في القرآن. وهو ما قال تعالى:(أَبى وَاسْتَكْبَرَ) [البقرة/ ٣٤] . وقال تعالى: (أَفَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ) [البقرة/ ٨٧] ، وقال:(وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً)[نوح/ ٧] ، (اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ)[فاطر/ ٤٣] ،(فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ) [فصلت/ ١٥] ،(تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ) [الأحقاف/ ٢٠] ، وقال:(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ) [الأعراف/ ٤٠] ، { قالُوا ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ } [الأعراف/ ٤٨] ، وقوله:{ فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا } [غافر/ ٤٧] قابل المستكبرين بالضّعفاء تنبيها أنّ استكبارهم كان بما لهم من القوّة من البدن والمال. وقال تعالى: { قالَ الْمَلَأُ

الَّذينَ اسْتكْبَرُوا منْ قَوْمه للَّذينَ اسْتُضْعفُوا} [الأعراف/ ٧٥] فقابل المستكبرين بالمستضعفين { ﭐاسْتكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْرمين } ﭐ [الأعراف/ ١٣٣] نبّه بقوله: فَاسْتَكْبَرُوا على تكبّرهم وإعجابهم بأنفسهم وتعظّمهم عن الإصغاء إليه، ونبّه بقوله: {وَكانُوا قَوْماً مُجْرمينَ} [الأعراف/ ١٣٣] أنّ الذي حملهم على ذلك هو ما تقدّم من جرمهم ، وأنّ ذلك لم يكن شيئا حدث منهم بل كان ذلك دأبهم قبل. وقال تعالى:{ فَالَّذينَ لا يُؤْمنُونَ بالْآخرَة قُلُوبُهُمْ مُنْكرَةٌ وَهُمْ مُسْتكْبرُونَ } [النحل/ ٢٢] ، وقال بعده:{ إنَّهُ لا يُحبُّ الْمُسْتكْبرينَ } [النحل/ ٢٣] .

والتَّكَبُّرُ يقال على وجهين:

أحدهما: أن تكون الأفعال الحسنة كثيرة في الحقيقة وزائدة على محاسن غيره، وعلى هذا وصف الله تعالى بالتّكبّر. قال: { الْعَزيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ} [الحشر/ ٢٣] .

والثاني: أن يكون متكلّفا لذلك متشبّعا، وذلك في وصف عامّة الناس نحو قوله:{ فَبئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرينَ} [الزمر/ ٧٢] ، وقوله:{ كَذلكَ يَطْبَعُ اللهُّ عَلى كُلّ قَلْب مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ } [غافر/ ٣٥] ومن وصف بالتّكبّر على الوجه الأوّل فمحمود، ومن وصف به على الوجه الثاني فمذموم، ويدلّ على أنه قد يصحّ أن يوصف الإنسان بذلك ولا يكون مذموما، وقوله:{ سَأَصْرفُ عَنْ آياتيَ الَّذينَ يَتَكَبَّرُونَ في الْأَرْض بغَيْر الْحَقّ} [الأعراف/ ١٤٦] فجعل متكبّرين بغير الحقّ، وقال: { عَلى كُلّ قَلْب مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ } [غافر/ ٣٥] بإضافة القلب إلى المتكبّر.

ومن قرأ: بالتّنوين جعل المتكبّر صفة للقلب، والْكبْرِيَاءُ: الترفع عن الانقياد، وذلك لا يستحقه غير الله، فقال:{ وَلَهُ الْكبْرياءُ في السَّماوات وَالْأَرْض} [الجاثية/ ٣٧] ولما قلنا روي عنه صلّى الله عليه وسلم يقول عن الله تعالى: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني في واحد منهما قصمته »

وقال تعالى: { قالُوا أَجئْتَنا لتَلْفتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْه آباءَنا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكبْرياءُ في الْأَرْض } [يونس/ ٨٧] .

قال الإمام ابن القيم في الروح : وَالْفرق بَين المهابة وَالْكبر أَن المهابة أثر من آثَار امتلاء الْقلب

بعظمه الله ومحبته وإجلاله ، وَأما الْكبر فأثر من آثَار الْعجب وَالْبَغي من قلب قد امْتَلَأَ بِالْجَهْل وَالظُّلم ترحلت مِنْهُ الْعُبُودِيَّة وَنزل عَلَيْهِ المقت فنظره إِلَى النَّاس شزر ومشيه بَينهم تبختر ومعاملته لَهُم مُعَاملَة الاستئثار لَا الإيثار وَلَا الْإِنْصَاف ذَاهب بِنَفسِهِ تيها لَا يبْدَأ من لقِيه بِالسَّلَامِ وَإِن رد عَلَيْهِ رأى أَنه قد بَالغ فِي الإنعام عَلَيْهِ لَا ينْطَلق لَهُم وَجهه وَلَا يسعهم خلقه وَلَا يرى لأحد عَلَيْهِ حَقًا وَيرى حُقُوقه على النَّاس وَلَا يرى فَضلهمْ عَلَيْهِ وَيرى فَضله لَا يزْدَاد من الله إِلَّا بعدا وَمن النَّاس إِلَّا صغَارًا أَو بغضا

عن أبي هريرة قال صلى الله عليه و سلم : يُحْشَرُ الجبارون المتكَبّرونَ في صُور الذَّرّ يطؤُهُمُ النَّاسُ بأقدامهم . رواه أحمد

قَالَ تَعَالَى:﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ الأعراف: ١٤٦

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ النحل: ٢٣

عن ابن عيينة قال : من كانت معصيته في شهوة فأرجو له التوبة ؛ فإن آدم عصى مشتهيا فغفر له وإذا كانت معصيته في كبر فأخشى على صاحبه اللعن فإن إبليس أبى مستكبرا فلعن . شعب الإيمان

وجاء في مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة : واعلم: أن الكبر خلق باطن تصدر عنه أعمال هي ثمرته، فيظهر على الجوارح، وذلك الخلق هو رؤية النفس على المتكبر عليه، يعنى يرى نفسه فوق الغير في صفات الكمال، فعند ذلك يكون متكبراً.

لأن صاحبه لا يقدر أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، فلا يقدر على التواضع، ولا على ترك الحقد والحسد والغضب، ولا على كظم الغيظ وقبول النصح، ولا يسلم من الازدراء بالناس واغتيابهم، فما من خلق ذميم إلا وهو مضطر إليه.

ومن شر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم (وَقَالَ مُجَاهِدٌ : لَا يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ مُسْتَحْيٍ وَلَا مُسْتَكْبِرٌ . صحيح البخاري) ، وقبول الحق، والانقياد له.

وقد تحصل المعرفة للمتكبر، ولكن لا تطاوعه نفسه على الانقياد للحق، كما قال تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [النمل: ١٤] {فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا} [المؤمنون: ٤٧] {إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا} [إبراهيم: ١٠]

إن التكبر على العباد هو احتقارهم واستعظام نفسه عليهم، وذلك أيضاً يدعو إلى التكبر على أمر الله تعالى، كما حمل إبليس كبره على آدم عليه السلام أن امتنع من امتثال أمر ربه في السجود.

اعلم: أن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاثة درجات:

الأولى: أن يكون الكبر مستقراً في قلب الإنسان منهم، فهو يرى نفسه خيراً من غيره، إلا أنه يجتهد ويتواضع، فهذا في قلبه شجرة الكبر مغروسة، إلا أنه قد قطع أغصانها.

الثانية: أن يظهر لك بأفعاله من الترفع في المجالس، والتقدم على الأقران، والإنكار على من يقصر في حقه، فترى العالم يصعر خده للناس، كأنه معرض عنهم، والعابد يعيش ووجهه كأنه مستقذر لهم، وهذان قد جهلا ما أدب الله به نبيه ﷺ، حين قال: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ٢١٥].

الدرجة الثالثة: أن يظهر الكبر بلسانه، كالدعاوى والمفاخر، وتزكية النفس، وحكايات الأحوال في معرض المفاخرة لغيره، وكذلك التكبر بالنسب، فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب ، وإن كان أرفع منه عملاً.

قال ابن عباس: يقول الرجل للرجل: أنا أكرم منك، وليس أحد أكرم من أحد إلا بالتقوى. قال الله تعالى: { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات: ١٣}.

وكذلك التكبر بالمال، والجمال، والقوة، وكثرة الأتباع، ونحو ذلك، فالكبر بالمال أكثر ما يجرى بين الملوك والتجار ونحوهم.

والتكبر بالجمال أكثر ما يجرى بين النساء، ويدعوهن إلى التنقص والغيبة وذكر العيوب.

وأما التكبر بالأتباع والأنصار، فيجرى بين الملوك بالمكاثرة بكثرة الجنود، وبين العلماء بالمكاثرة بالمستفيدين.

وفي الجملة فكل ما يمكن أن يعتقد كمالاً، فإن لم يكن في نفسه كمالاً، أمكن أن يتكبر به، حتى إن الفاسق قد يفتخر بكثرة شرب الخمرة والفجور ، لظنه أن ذلك كمال.

واعلم: أن التكبر يظهر في شمائل الإنسان، كصعر وجهه، ونظره شزراً، وإطراق رأسه، وجلوسه متربعاً ومتكئاً، وفى أقواله، حتى في صوته ونغمته، وصيغة إيراده الكلام، ويظهر ذلك أيضاً في مشيه وتبختره، وقيامه وقعوده وحركاته وسكناته وسائر تقلباته.

ومن خصائل المتكبر، أن يحب قيام الناس له. والقيام على ضربين:

قيام على رأسه وهو قاعد، فهذا منهي عنه، قال رسول الله ﷺ : "مَنْ أحب أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ قيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ منْ النَّار ". ت . وهذه عادة الأعاجم والمتكبرين.

الثاني: قيام عند مجيء الإنسان، فقد كان السلف لا يكادون يفعلون ذلك.

عن أَنَسٍ قَالَ : لَمْ يَكُنْ شَخْصٌ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ منْ رَسُول اللهِّ ﷺ قَالَ وَكَانُوا إِذَا رَأَوْهُ لَمْ يَقُومُوا لمَا يَعْلَمُونَ منْ كَرَاهيَته لذَلكَ قَالَ أَبُو عيسَى هَذَا حَديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ والأدب المفرد

ومن خصال المتكبر: أن لا يمشى إلا ومعه أحد يمشى خلفه.

ومنها أن لا يزور أحداً تكبراً على الناس. ومنها أن يستنكف من جلوس أحد إلى جانبه أو مشيه معه. وقد روى أنس رضى الله عنه قال: قَالَ إِنْ كَانَتْ الْأَمَةُ منْ أَهْل الْمَدينَة لَتَأْخُذُ بيَد رَسُول اللهِّ ﷺ فَتَنْطَلقُ به في حَاجَتهَا .خ

ومنها أن لا يتعاطى بيده شغلاً في بيته، وهذا بخلاف ما كان عليه رسول الله ﷺ ومنها أن لا يحمل متاعه من سوقه إلى بيته، وقد اشترى رسول الله ـ ﷺ ـ شيئاً وحمله ، وكان أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ يحمل الثياب إلي السوق يتجر فيها ، واشترى عمر ـ رضى الله عنه ـ لحماً فعلقه بيده وحمله إلى بيته ، واشترى علي ـ رضى الله عنه ـ تمراً فحمله في ملحفة، فقال له قائل: أحمل عنك؟ قال: لا، أبو العيال أحق أن يحمل.

وأقبل أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ يوماً من السوق وقد حمل حزمة حطب، وهو يومئذ خليفة مروان، فقال لرجل: أوسع الطريق للأمير.

بيان معالجة الكبر واكتساب التواضع

واعلم: أن الكبر من المهلكات، ومداواته فرض عين، ولك في معالجته مقامان: الأول: في استئصال أصله وقطع شجرته، وذلك بأن يعرف الإنسان نفسه ، ويعرف ربه، فإنه إذا عرف نفسه حق المعرفة، علم أنه أذل من كل ذليل، ويكفيه أن ينظر في أصل وجوده بعد العدم من تراب، ثم من نطفة خرجت من مخرج البول، ثم من علقة، ثم من مضغة، فقد صار شيئاً مذكوراً، بعد أن كان جماداً لا يسمع ولا يبصر، ولا يحس ولا يتحرك، فقد ابتدأ بموته قبل حياته، وبضعفه قبل قوته، وبفقره قبل غناه. وقد أشار الله تعالى إلى هذا بقوله: {مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ} [عبس] ثم امتن عليه بقوله: {ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ} وأما معرفة ربه، فيكفيه أن ينظر في آثار قدرته وعجائب صنعته، فتلوح له العظمة، وتظهر له المعرفة، فهذا هو العلاج القالع لأصل الكبر. ومن العلاج العملي التواضع بالفعل لله تعالى ولعباده.

المقام الثاني: فيما يعرض من التكبر بالأنساب، فمن اعتراه الكبر من جهة النسب، فليعلم أن هذا تعزز بكمال غيره ، ثم يعلم أباه وجده، فإن أباه القريب نطفة قذرة، وأباه البعيد تراب، ومن اعتراه الكبر بالجمال، فلينظر إلى باطنه نظر العقلاء، ولا ينظر إلى ظاهره نظر البهائم، ومن اعتراه من جهة القوة، فليعلم أنه لو آلمه عرق، عاد أعجز من كل عاجز، إن حمى يوم تحلل من قوته ما لا يود في مدة، وإن شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته، وبقة لو دخلت في أذنه لأقلقته.

ومن تكبر بسبب الغنى، فإذا تأمل خلقاً من اليهود، وجدهم أغنى منه، فأف لشرف تسبق به اليهود ويستلبه السارق في لحظة، فيعود صاحبه ذليلاً.

ومن تكبر بسبب العلم، فليعلم أن حجة الله على العالم آلد من الجاهل، وليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصدده، فإن خطره أعظم من خطر غيره، كما أن قدره أعظم من قدر غيره.

عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ وَأَبِى هُرَيْرَةَ قَالاَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - « الْعِزُّ إِزَارُهُ وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ فَمَنْ يُنَازِعُنِى عَذَّبْتُهُ ». صحيح مسلم

(٣) الحسد

والحسدُ مركوزٌ في طباع البشر ، وهو أنَّ الإنسان يكرهُ أن يفوقَهُ أحدٌ منْ جنسهِ في شيءٍ من الفضائل .

الحسد: تمنّي زوال نعمة من مستحق لها، وربما كان مع ذلك سعي في إزالتها.

قال الفضيل: «المؤمن يغبط والمنافق يحسد»

قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم : عن أنس ، عن النَّبيِّ – ﷺ – ، قال : ((لا تباغَضُوا ، ولا تحاسَدوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عبادَ الله إخواناً)) . فقوله – ﷺ – : ((لا تحاسدوا)) يعني : لا يحسُدْ بعضُكم بعضاً ، والحسدُ مركوزٌ في طباع البشر ، وهو أنَّ الإنسان يكرهُ أن يفوقَهُ أحدٌ منْ جنسه في شيءٍ من الفضائل .

ثم ينقسم الناس بعدَ هذا إلى أقسام ، فمنهم من يسعى في زوال نعمة المحسود بالبغي عليه بالقول والفعل ، ثمَّ منهم من يسعى في نقل ذلك إلى نفسه ، ومنهم من يَسعى في إزالته عن المحسود فقط من غير نقل إلى نفسه ، وهو شرُّهما وأخبثهما ، وهذا هو الحسدُ المذمومُ المنهيُّ عنه ، وهو كان ذنبَ إبليس حيث حسدَ آدم – عليه السلام – لمَّا رآه قد فاق على الملائكة بأنْ خلقه الله بيده ، وأسجد له ملائكتَه ، وعلَّمه أسماء كلّ شيءٍ ، وأسكنه في جواره ، فما زال يسعى في إخراجه من الجنَّة حتَّى أخرج منها ، ويروى عن ابن عمرَ أنَّ إبليسَ قال لنوح : اثنتان بهما أُهلك بني آدم : الحسد ، وبالحسد لُعنتُ وجُعلتُ شيطاناً رجيماً ، والحرص وبالحرص أُبيح آدمُ الجنةَ كلَّها ، فأصبتُ حاجتي منه بالحرص . خرَّجه ابنُ أبي الدُّنيا .

وقد وصف الله اليهودَ بالحسد في مواضع من كتابه القرآن ، كقوله تعالى : { وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقّ } ، وقوله : { أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِه } .

وقسم آخر من الناس إذا حسدَ غيره ، لم يعمل بمقتضى حسده ، ولم يبغ على المحسود بقولٍ ولا فعلٍ . وقد رُوي عن الحسن أنَّه لا يأثمُ بذلك ، وهذا على نوعين :

أحدهما : أنْ لا يمكنه إزالةُ الحسد من نفسه ، فيكون مغلوباً على ذَلكَ ، فلا يأثمُ به .

والثاني : من يُحدّثُ نفسَه بذلك اختياراً ، ويُعيده ويُبديه في نفسه مُستروحاً إلى تمنّي زوال نعمة أخيه ، فهذا شبيهٌ بالعزم المصمّم على المعصية ، وفي العقاب على ذلك اختلافٌ بين العلماء ، ... لكن هذا يَبعُدُ أن يَسلَمَ من البغي على المحسود ، ولو بالقول ، فيأثم بذلك .

وقسم آخر إذا حسد لم يتمنَّ زوال نعمة المحسود ، بل يسعى في اكتساب مثل فضائله ، ويتمنَّى أنْ يكونَ مثله ، فإن كانت الفضائلُ دنيويَّةً ، فلا خيرَ في ذلك ، كما قال الَّذينَ يُريدُونَ الحياةَ الدُّنيا : { يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ } ، وإنْ كانت فضائلَ دينيَّةً ، فهو حسن ، وقد تمنَّى النَّبيُّ – صلى الله عليه وسلم – الشَّهادة في سبيل الله – عز وجل – . وفي " الصحيحين " عنه – ﷺ – ، قال : ((لا حسدَ إلاَّ في اثنتين : رجلٌ آتاه اللهُ مالاً ، فهو يُنفقه آناء الليل وآناء النَّهار ، ورجلٌ آتاهُ اللهُ القرآن ، فهو يقومُ به آناء اللَّيل وآناءَ النَّهار)) ، وهذا هو الغبطة ، وسماه حسداً من باب الاستعارة .

وقسم آخر إذا وجدَ من نفسه الحسدَ سعى في إزالته ، وفي الإحسان إلى المحسود بإسداء الإحسان إليه ، والدُّعاء له ، ونشر فضائله ، وفي إزالة ما وَجَدَ له في نفسه منَ الحسد حتّى يبدلَه بمحبَّة أنْ يكونَ أخوه المسلمُ خيراً منه وأفضلَ ، وهذا منْ أعلى درجات الإيمان ، وصاحبه هو المؤمنُ الكاملُ الذي يُحبُّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه ، .. في صحيح البخاري عن انس قال ﷺ : لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ .

قَالَ تَعَالَى:﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾ الفلق قَالَ تَعَالَى:﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾ الفتح قَالَ تَعَالَى:﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾ النساء قَالَ تَعَالَى:﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾ القلم

قال ابن قدامة في مختصر منهاج القاصدين : اعلم: أن الغضب شعلة من النار، ومن نتائج الغضب: الحقد والحسد، ومما يدل على ذم الغضب قول النبي ﷺ في صحيح البخاري

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَوْصِني قَالَ لَا تَغْضَبْ فَرَدَّدَ مِرَارًا قَالَ لَا

تَغْضَبْ ، وفى حديث آخر أن ابن عمر ﷺ سأل النبي ﷺ ، ماذا يبعدني من غضب الله ﷻ ؟ قال: "لا تغضب".

وفى المتفق عليه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ

اعلم: أن الغيظ إذا كظم لعجز عن التشفي في الحال رجع إلى الباطن، فاحتقن فيه فصار حقداً. وعلامته دوام بغض الشخص واستثقاله والنفور منه، فالحقد ثمرة الغضب، والحسد من نتائج الحقد.

عَن الزُّبَيْر بْن الْعَوَّام ﷺقَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَم قَبْلَكُمْ الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ وَالْبَغْضَاءُ هيَ الْحَالقَةُ حَالقَةُ الدّين لَا حَالقَةُ الشَّعَر وَالَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَده لَا تُؤْمنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بشَيْءٍ إذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ حم

وفى "الصحيحين" عن النبي ﷺ أنه قَالَ « لاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَكُونُوا عبَادَ اللَّهِ إخْوَانًا

وفى حديث آخر أنه قال: "يطلع عليكم من هذا الفج رجل من أهل الجنة، فطلع رجل، فسئل عن عمله، فَقَالَ مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ غَيْرَ أَنّي لَا أَجدُ في نَفْسي لأَحَدٍ منْ الْمُسْلمينَ غشًّا وَلَا أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ إيَّاهُ .

وقال إبليس لنوح عليه السلام: إياك والحسد، فإنه صيرني إلى هذه الحال.

واعلم: أن الله تعالى إذا نعم على أخيك نعمة، فلك فيها حالتان:

إحداها: أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها، فهذا هو الحسد.

والحالة الثانية: أن لا تكره وجودها ولا تحب زوالها، ولكنك تشتهى لنفسك مثلها، فهذا يسمى غبطة.

وفى "الصحيحين" من حديث ابن عمر رضى الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : لاَ حَسَدَ إلاَّ في اثْنَتَيْن : رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ به آنَاءَ اللَّيْل وَآنَاءَ النَّهار ، وَرَجُلٌ آتَاهُ

اللهُ مَالا فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ

والحسد له أسباب:

أحدها: العداوة، والتكبر، والعجب، وحب الرياسة، وخبث النفس، وبخلها، وأشدها: العداوة والبغضاء، فإن من آذاه إنسان بسبب من الأسباب، وخالفه في غرضه، أبغضه قلبه، ورسخ في نفسه الحقد.

ويقع ذلك غالباً بين الأقران، والأمثال، والإخوة، وبنى العم، لأن سبب التحاسد توارد الأغراض على مقاصد يحصل فيها، فيثور التنافر والتباغض. ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا، فإن الدنيا هي التي تضيق على المتزاحمين، وأما الآخرة، فلا ضيق فيها.

واعلم: أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل، والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف حقيقة أن الحسد ضرر عليك في الدين والدنيا، وأنه لا يضر المحسود في الدين ولا في الدنيا، بل ينتفع به، والنعمة لا تزول عن المحسود بحسدك، ولو لم تكن تؤمن بالبعث لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلاً أن تحذر من الحسد ، لما فيه من ألم القلب مع عدم النفع، فكيف وأنت تعلم ما فيه من العذاب في الآخرة.

قال ابن القيم في كتاب الروح : والفرق بين المنافسة والحسد أن المنافسة المبادرة إلى الكمال الذي تشاهد من غيرك فتنافسه فيه حتى تلحقه أو تجاوزه فهي من شرف النفس وعلو الهمة وكبر القدر قال تعالى ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ المطففين وأصلها من الشيء النفيس الذي تتعلق به النفوس طلبا ورغبة فينافس فيه كل من النفسين الأخرى وربما فرحت إذا شاركتها فيه كما كان أصحاب رسول الله يتنافسون في الخير ويفرح بعضهم ببعض باشتراكهم فيه بل يحض بعضهم بعضا عليه مع تنافسهم فيه وهي نوع من المسابقة وقد قال تعالى ﴿ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ البقرة

والحسد خلق نفس ذميمة وضيعه ساقطة ليس فيها حرص على الخير فلعجزها ومهانتها تحسد من يكسب الخير والمحامد ويفوز بها دونها وتتمنى أن لو فاته كسبها حتى يساويها في العدم كما

قال تعالى ﴿ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ ﴿٨٩﴾ ﴾ النساء

فالحسود عدو النعمة متمن زوالها عن المحسود كما زالت عنه هو ، والمنافس مسابق النعمة متمن تمامها عليه وعلى من ينافسه ، فهو ينافس غيره أن يعلو عليه ويحب لحاقه به أو مجاوزته له في الفضل ، والحسود يحب انحطاط غيره حتى يساويه في النقصان

وَالْحَاسدُ كَمَا قَال الْقُرْطُبِيُّ عَدُوُّ نعْمَة اللهِّ، قَال بَعْضُ الْحُكَمَاء : بَارَزَ الْحَاسدُ رَبَّهُ منْ خَمْسَة أَوْجُهٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ أَبْغَضَ كُل نعْمَةٍ ظَهَرَتْ عَلَى غَيْره . ثَانيهَا : أَنَّهُ سَاخطٌ لقسْمَة رَبّه كَأَنَّهُ يَقُول : لمَ قَسَمْتَ هَذه الْقسْمَةَ ؟

ثَالثُهَا : أَنَّهُ ضَادَّ فعْل اللهِّ، أَيْ إنَّ فَضْل اللهَّ يُؤْتيه مَنْ يَشَاءُ، وَهُوَ يَبْخَل بفَضْل اللهَّ .

وَرَابعُهَا : أَنَّهُ خَذَل أَوْليَاءَ اللهَّ، أَوْ يُريدُ خذْلاَنَهُمْ وَزَوَال النّعْمَة عَنْهُمْ .

وَخَامسُهَا : أَنَّهُ أَعَانَ عَدُوَّهُ إبْليسَ.

(٤) الزوج

وَأَمّا الْجِمَاعُ وَالْبَاهُ فَكَانَ هَدْيُهُ ﷺ فِيهِ أَكْمَلَ هَدْيٍ يُحْفَظُ بِهِ الصّحّةُ وَتَتِمّ بِهِ اللّذّةُ وَسُرُورُ النّفْسِ وَيَحْصُلُ بِهِ مَقَاصِدُهُ الّتِي وُضِعَ لِأَجْلِهَا ؛ فَإِنّ الْجِمَاعَ وُضِعَ فِي الْأَصْلِ لِثَلَاثَةِ أُمُورٍ هِيَ مَقَاصِدُهُ الْأَصْلِيّةُ

قال في المفردات في غريب القرآن : يقال لكلّ واحد من القرينين من الذّكر والأنثى في الحيوانات الْمُتَزَاوجَةُ زَوْجٌ، ولكلّ قرينين فيها وفي غيرها زوج، كالخفّ والنّعل، ولكلّ ما يقترن بآخر مماثلا له أو مضادّ زوج. قال تعالى:{ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى } [القيامة/ ٣٩] ، وقال:{ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ } [البقرة/ ٣٥] ، وزَوْجَةٌ لغة رديئة، وجمعها زَوْجَاتٌ وجمع الزّوج أَزْوَاجٌ. وقوله:{ هُمْ وَأَزْواجُهُمْ } [يس/ ٥٦] ،{ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْواجَهُمْ } [الصافات/ ٢٢] ، أي: أقرانهم المقتدين بهم في أفعالهم، { وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ } [الحجر/ ٨٨] ، أي: أشباها وأقرانا. وقوله: { سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ} [يس/ ٣٦] ، { وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ} [الذاريات/ ٤٩] ، فبيّن أنّ كلّ ما في العالم زوج من حيث إنّ له ضدّا، أو مثلا ما، أو تركيبا مّا، بل لا ينفكّ بوجه من تركيب، ومن نعم الله تعالى أن جعل الزوجين قَالَ تَعَالَى:{ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٢﴾ } النحل قَالَ تَعَالَى:{ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ } الروم قَالَ تَعَالَى:{ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾ } النجم

الغاية من النكاح

قال في زاد المعاد "والطب النبوي": وَأَمّا الْجِمَاعُ وَالْبَاهُ فَكَانَ هَدْيُهُ فيه أَكْمَلَ هَدْيٍ يُحْفَظُ به الصّحّةُ وَتَتمّ به اللّذّةُ وَسُرُورُ النّفْس وَيَحْصُلُ به مَقَاصدُهُ الّتي وُضعَ لأَجْلهَا ؛ فَإنّ الْجمَاعَ وُضعَ في الْأَصْل لثَلَاثَة أُمُورٍ هيَ مَقَاصدُهُ الْأَصْليّةُ

أَحَدُهَا : حفْظُ النّسْل وَدوَامُ النّوْع إلَى أَنْ تتَكَامَلَ الْعُدّةُ الّتي قَدّرَ اللهُ بُرُوزَهَا إلَى هَذَا الْعَالَمِ .

الثّاني : إخْرَاجُ الْمَاء الّذي يَضُرّ احْتبَاسُهُ وَاحْتقَانُهُ بجُمْلَة الْبَدَن .

الثّالثُ : قَضَاءُ الْوَطَر وَنَيْلُ اللّذّة وَالتّمَتّعُ بالنّعْمَة وَهَذه وَحْدَهَا هيَ الْفَائدَةُ الّتي في الْجَنّة إذْ لَا تَنَاسُلَ هُنَاكَ وَلَا احْتقَانَ يَسْتَفْرغُهُ الْإنْزَالُ .

وَفُضَلَاءُ الْأَطبّاء يَرَوْنَ أَنّ الْجمَاعَ منْ أَحَد أَسْبَاب حفْظ الصّحّة . . وَإذَا ثَبَتَ فَضْلُ الْمَنيّ فَاعْلَمْ أَنّهُ لَا يَنْبَغي إخْرَاجُهُ إلّا في طَلَب النّسْل أَوْ إخْرَاجُ الْمُحْتَقن منْهُ فَإنّهُ إذَا دَامَ احْتقَانُهُ أَحْدَثَ أَمْرَاضًا رَديئَةً منْهَا : الْوَسْوَاسُ وَالْجُنُونُ وَالصّرَعُ وَغَيْرُ ذَلكَ وَقَدْ يُبْرئُ اسْتعْمَالُهُ منْ هَذه الْأَمْرَاض كَثيرًا فَإنّهُ إذَا طَالَ احْتبَاسُهُ فَسَدَ وَاسْتَحَالَ إلَى كَيْفيّةٍ سُمّيّةٍ تُوجبُ أَمْرَاضًا رَديئَةً كَمَا ذَكَرْنَا وَلذَلكَ تَدْفَعُهُ الطّبيعَةُ بالاحْتلَام إذَا كَثُرَ عنْدَهَا منْ غَيْر جمَاعٍ .

وَقَالَ بَعْضُ السّلَف يَنْبَغي للرّجُل أَنْ يَتَعَاهَدَ منْ نَفْسه ثَلَاثًا : أَنْ لَا يَدَعَ الْمَشْيَ فَإنْ احْتَاجَ إلَيْه يَوْمًا قَدَرَ عَلَيْه وَيَنْبَغي أَنْ لَا يَدَعَ الْأَكْلَ فَإنّ أَمْعَاءَهُ تَضيقُ وَيَنْبَغي أَنْ لَا يَدَعَ الْجمَاعَ فَإنّ الْبئْرَ إذَا لَمْ تُنْزَحْ ذَهَبَ مَاؤُهَا . وَقَالَ مُحَمّدُ بْنُ زَكَريّا : مَنْ تَرَكَ الْجمَاعَ مُدّةً طَويلَةً ضَعُفَتْ قُوَى أَعْصَابه وَانْسَدّتْ مَجَاريهَا وَتَقَلّصَ ذَكَرُهُ . قَالَ وَرَأَيْتُ جَمَاعَةً تَرَكُوهُ لنَوْعٍ منْ التّقَشّف فَبَرُدَتْ أبدانُهُم، وعَسُرَتْ حركاتُهُم، ووقعتْ عليهم كآبةٌ بلا سبب، وقَلَّتْ شهواتُهُم وهضمُهُم.. انتهى.

وَمنْ مَنَافعه غَضّ الْبَصَر وَكَفّ النّفْس وَالْقُدْرَةُ عَلَى الْعفّة عَنْ الْحَرَام وَتَحْصيلُ ذَلكَ للْمَرْأَة فَهُوَ يَنْفَعُ نَفْسَهُ في دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ وَيَنْفَعُ الْمَرْأَةَ وَلذَلكَ كَانَ صَلّى اللهُ عَلَيْه وَسَلّمَ يَتَعَاهَدُهُ وَيُحبّهُ وَيَقُولُ حُبّبَ إلَيّ منْ دُنْيَاكُمْ : النّسَاءُ وَالطّيبُ . وَفي كتَاب " الزّهْد " للْإمَام أَحْمَدَ في هَذَا الْحَديث زيَادَةٌ لَطيفَةٌ : وَهيَ أَصْبرُ عَنْ الطّعَام وَالشّرَاب وَلَا أَصْبرُ عَنْهُنّ

حَثّ عَلَى التّزْويج أُمّتَهُ فَقَالَ تَزَوّجُوا فَإنّي مُكَاثرٌ بكُمْ الْأُمَمَ . وَقَالَ ابْنُ عَبّاسٍ : خَيْرُ هَذه الْأُمّة أَكْثَرُهَا نسَاءً وَقَالَ إنّي أَتَزَوّجُ النّسَاءَ وَأَنَامُ وَأَقُومُ وَأَصُومُ وَأُفْطرُ فَمَنْ رَغبَ عَنْ سُنّتي فَلَيْسَ منّي . وَقَالَ يَا مَعْشَرَ الشّبَاب مَنْ اسْتَطَاعَ منْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوّجْ فَإنّهُ أَغَضّ للْبَصَر وَأَحْفَظُ للْفَرْج وَمَنْ لَمْ يَسْتَطعْ فَعَلَيْه بالصّوْم فَإنّهُ لَهُ وجَاءٌ ، وَلَمّا تَزَوّجَ جَابرٌ ثَيّبًا قَالَ لَهُ هَلّا بكْرًا تُلَاعبُهَا

وَتُلَاعِبُكَ وَرَوَى ابْنُ مَاجَهْ فِي " سُنَنِه " : مِنْ حَدِيث أَنَس بْن مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْه وَسَلّمَ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَلْقَى اللّهَ طَاهِرًا مُطَهّرًا فَلْيَتَزَوّجْ الْحَرَائِرَ وَفِي " سُنَنِه " أَيْضًا مِنْ حَدِيث ابْن عَبّاسٍ يَرْفَعُهُ قَالَ لَمْ نَرَ لِلْمُتَحَابّيْنِ مِثْلَ النّكَاح وَفِي " صَحِيح مُسْلِمٍ " مِنْ حَدِيث عَبْد اللّهِ بْن عُمَرَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ الدّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاع الدّنْيَا الْمَرْأَةُ الصّالِحَةُ . وَكَانَ صَلّى اللّهُ عَلَيْه وَسَلّمَ يُحَرّضُ أُمّتَهُ عَلَى نِكَاح الْأَبْكَار الْحِسَان وَذَوَات الدّين وَفِي " سُنَنِ النّسَائِيّ " عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ سُئِلَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ أَيّ النّسَاء خَيْرٌ ؟ قَالَ الّتِي تَسُرّهُ إذَا نَظَرَ وَتُطِيعُهُ إذَا أَمَرَ وَلَا تُخَالِفُهُ فِيمَا يَكْرَهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِه وَفِي " الصّحِيحَيْنِ " عَنْهُ عَنْ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْه وَسَلّمَ قَالَ تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَلِجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا فَاظْفَرْ بِذَات الدّين تَرِبَتْ يَدَاكَ

وَكَانَ يَحُثّ عَلَى نِكَاح الْوَلُود وَيَكْرَهُ الْمَرْأَةَ الّتِي لَا تَلِدُ كَمَا فِي " سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ " عَنْ مَعْقِل بْن يَسَارٍ أَنّ رَجُلًا جَاءَ إلَى النّبِيّ ﷺ فَقَالَ إنّي أَصَبْتُ امْرَأَةً ذَاتَ حَسَبٍ وَجَمَالٍ وَإِنّهَا لَا تَلِدُ أَفَأَتَزَوّجُهَا ؟ قَالَ " لَا " ثُمّ أَتَاهُ الثّانِيَةَ فَنَهَاهُ ثُمّ أَتَاهُ الثّالِثَةَ فَقَالَ تَزَوّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ فَإِنّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ وَفِي التّرْمِذِيّ عَنْهُ مَرْفُوعًا : أَرْبَعٌ مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ : النّكَاحُ وَالسّوَاكُ وَالتّعَطّرُ وَالْحِنّاءُ رُوِيَ فِي " الْجَامِع " بِالنّون وَالْيَاء وَسَمِعْت أَبَا الْحَجّاج الْحَافِظَ يَقُولُ الصّوَابُ أَنّهُ الْخِتَانُ وَسَقَطَتْ النّونُ مِنْ الْحَاشِيَة وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الْمَحَامِلِيّ عَنْ شَيْخ أَبِي عِيسَى التّرْمِذِيّ .

وَمِمّا يَنْبَغِي تَقْدِيمُهُ عَلَى الْجِمَاع مُلَاعَبَةُ الْمَرْأَة وَتَقْبِيلُهَا وَمَصّ لِسَانِهَا وَكَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْه وَسَلّمَ يُلَاعِبُ أَهْلَهُ وَيُقَبّلُهَا . وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي " سُنَنِه " أَنّهُ ﷺ كَانَ يُقَبّلُ عَائِشَةَ وَيَمُصّ لِسَانَهَا . وَيُذْكَرُ عَنْ جَابِر بْن عَبْد اللّهِ قَالَ نَهَى رَسُولُ اللّهِ ﷺ عَنْ الْمُوَاقَعَة قَبْلَ الْمُلَاعَبَة .

وَكَانَ ﷺ رُبّمَا جَامَعَ نِسَاءَهُ كُلّهُنّ بِغُسْلٍ وَاحِدٍ وَرُبّمَا اغْتَسَلَ عِنْدَ كُلّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنّ فَرَوَى مُسْلِمٌ فِي " صَحِيحه " عَنْ أَنَسٍ أَنّ النّبِيّ ﷺ كَانَ يَطُوفُ عَلَى نِسَائِه بِغُسْلٍ وَاحِدٍ وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي " سُنَنِه " عَنْ أَبِي رَافِعٍ مَوْلَى رَسُول اللّهِ ﷺ أَنّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ طَافَ عَلَى نِسَائِه فِي لَيْلَةٍ فَاغْتَسَلَ عِنْدَ كُلّ امْرَأَةٍ مِنْهُنّ غُسْلًا فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللّهِ لَوْ اغْتَسَلْت غُسْلًا وَاحِدًا فَقَالَ هَذَا أَزْكَى وَأَطْهَرُ وَأَطْيَبُ وَشُرِعَ لِلْمُجَامِع إذَا أَرَادَ الْعَوْدَ قَبْلَ الْغَسْل الْوُضُوءُ بَيْنَ الْجِمَاعَيْنِ كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ فِي "

صَحيحه " منْ حَديث أَبي سَعيدٍ الخُدْريّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهّ ﷺ إذَا أَتَى أَحَدُكُمْ أَهْلَهُ ثُمّ أَرَادَ أَنْ يَعُودَ فَلْيَتَوَضّأْ

وَفي الْغُسْل وَالْوُضُوء بَعْدَ الْوَطْء منْ النّشَاط وَطيب النّفْس وَإخْلَاف بَعْض مَا تَحَلّلَ بالْجمَاع وَكَمَال الطّهْر وَالنّظَافَة وَاجْتمَاع الْحَارّ الْغَريزيّ إلَى دَاخل الْبَدَن بَعْدَ انْتشَاره بالْجمَاع وَحُصُول النّظَافَة الّتي يُحبّهَا اللهُ وَيَبْغَضُ خلَافَهَا مَا هُوَ منْ أَحْسَن التّدْبير في الْجمَاع وَحفْظ الصّحّة وَالْقُوَى فيه

وَأَنْفَعُ الْجمَاع : مَا حَصَلَ بَعْدَ الْهَضْم وَعنْدَ اعْتدَال الْبَدَن في حَرّه وَبَرْده وَيُبُوسَته وَرُطُوبَته وَخَلَائه وَامْتلَائه .. . وَإنّمَا يَنْبَغي أَنْ يُجَامعَ إذَا اشْتَدّتْ الشّهْوَةُ وَحَصَلَ الانْتشَارُ التّامّ الّذي لَيْسَ عَنْ تَكَلّفٍ وَلَا فكْرٍ في صُورَةٍ وَلَا نَظَرٍ مُتَتَابعٍ وَلَا يَنْبَغي أَنْ يَسْتَدْعيَ شَهْوَةَ الْجمَاع وَيَتَكَلّفَهَا وَيَحْملَ نَفْسَهُ عَلَيْهَا وَلْيُبَادرْ إلَيْه إذَا هَاجَتْ به كَثْرَةُ الْمَنيّ وَاشْتَدّ شَبَقُهُ

وَغَلطَ مَنْ قَالَ منْ الْأَطبّاء إنّ جمَاعَ الثّيّب أَنْفَعُ منْ جمَاع الْبكْر وَأَحْفَظُ للصّحّة وَهَذَا منْ الْقيَاس الْفَاسد حَتّى رُبّمَا حَذّرَ منْهُ بَعْضُهُمْ وَهُوَ مُخَالفٌ لمَا عَلَيْه عُقَلَاءُ النّاس وَلمَا اتّفَقَتْ عَلَيْه الطّبيعَةُ وَالشّريعَةُ .

أَسْبَابُ التّرْغيب بالْبكْر

وَفي جمَاع الْبكْر منْ الْخَاصّيّة وَكَمَال التّعَلّق بَيْنَهَا وَبَيْنَ مُجَامعهَا وَامْتلَاء قَلْبهَا منْ مَحَبّته وَعَدَم تَقْسيم هَوَاهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْره مَا لَيْسَ للثّيّب . وَقَدْ قَالَ النّبيّ ﷺ لجَابرٍ هَلّا تَزَوّجْتَ بكْرًا وَقَدْ جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ منْ كَمَال نسَاء أَهْل الْجَنّة منْ الْحُور الْعين أَنّهُنّ لَمْ يَطْمثْهُنّ أَحَدٌ قَبْلَ مَنْ جُعلْنَ لَهُ منْ أَهْل الْجَنّة . وَقَالَتْ عَائشَةُ للنّبيّ ﷺ أَرَأَيْتَ لَوْ مَرَرْتَ بشَجَرَةٍ قَدْ أُرْتعَ فيهَا وَشَجَرَةٍ لَمْ يُرْتَعْ فيهَا فَفي أَيّهمَا كُنْت تُرْتعُ بَعيرَك ؟ قَالَ في الّتي لَمْ يُرْتَعْ فيهَا . تريد أنه لم يأخذ بكراً غيرَها.

وَجمَاعُ الْمَرْأَة الْمَحْبُوبَة في النّفْس يَقلّ إضْعَافُهُ للْبَدَن مَعَ كَثْرَة اسْتفْرَاغه للْمَنيّ وَجمَاعُ الْبَغيضَة يُحلّ الْبَدَنَ وَيُوهنُ الْقُوَى مَعَ قلّة اسْتفْرَاغه وَجمَاعُ الْحَائض حَرَامٌ طَبْعًا وَشَرْعًا فَإنّهُ مُضرّ جدّا وَالْأَطبّاءُ قَاطبَةً تُحَذّرُ منْهُ .

وَأَحْسَنُ أَشْكَال الْجِمَاع أَنْ يَعْلُوَ الرّجُلُ الْمَرْأَةَ مُسْتَفْرِشًا لَهَا بَعْدَ الْمُلَاعَبَة وَالْقُبْلَة وَبِهَذَا سُمّيَتْ الْمَرْأَةُ فِرَاشًا كَمَا قَالَ ﷺ الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَهَذَا مِنْ تَمَام قَوّامِيّة الرّجُل عَلَى الْمَرْأَة كَمَا قَالَ تَعَالَى : { الرّجَالُ قَوّامُونَ عَلَى النّسَاء } [النّسَاء ٣٤] وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : { هُنّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنّ } [الْبَقَرَة ١٨٧] وَأَكْمَلُ اللّبَاس وَأَسْبَغُهُ عَلَى هَذِه الْحَال فَإِنّ فِرَاشَ الرّجُل لِبَاسٌ لَهُ وَكَذَلِكَ لِحَافُ الْمَرْأَة لِبَاسٌ لَهَا فَهَذَا الشّكْلُ الْفَاضِلُ مَأْخُوذٌ مِنْ هَذِه الْآيَة وَبِه يَحْسُنُ مَوْقِعُ اسْتِعَارَة اللّبَاس مِنْ كُلّ مِنْ الزّوْجَيْن لِلْآخَر . وَفِيه وَجْهٌ آخَرُ وَهُوَ أَنّهَا تَنْعَطِفُ عَلَيْه أَحْيَانًا فَتَكُونُ عَلَيْه كَاللّبَاس قَالَ الشّاعِرُ

إذَا مَا الضّجِيعُ ثَنَى جِيدَهَا تَثَنّتْ فَكَانَتْ عَلَيْه لِبَاسًا

وَأَرْدَأُ أَشْكَاله أَنْ تَعْلُوَهُ الْمَرْأَةُ وَيُجَامِعهَا عَلَى ظَهْره وَهُوَ خِلَافُ الشّكْل الطّبِيعِيّ الّذِي طَبَعَ اللّهُ عَلَيْه الرّجُلَ وَالْمَرْأَةَ بَلْ نَوْعَ الذّكَر وَالْأُنْثَى وَفِيه مِنْ الْمَفَاسِد أَنّ الْمَنِيّ يَتَعَسّرُ خُرُوجُهُ كُلّهُ فَرُبّمَا بَقِيَ فِي الْعُضْو مِنْهُ فَيَتَعَفّنُ وَيَفْسُدُ فَيَضُرّ وَأَيْضًا : فَرُبّمَا سَالَ إلَى الذّكَر رُطُوبَاتٌ مِنْ الْفَرْج وَأَيْضًا فَإِنّ الرّحِمَ لَا يتمكن من الاشتمال على الماء واجتماعه فيه، وانضمامه عليه لتَخْليق الولد.

ورد في كتاب : مختصر منهاج القاصدين للمقدسي : لا يختلف العلماء في أن النكاح مستحب، مندوب إليه، كثير الفضائل، وفيه فوائد :

منها : الولد، لأن المقصود بقاء النسل، وفيه فوائد محبة الله تعالى بالسعي لذلك، ليبقى جنس الإنسان ، وفيه طلب محبة رسول الله ﷺ في تكثير من به مباهاته .

وفيه طلب التبرك بدعاء الولد الصالح :عنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ - قَالَ « إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ ». صحيح مسلم

والشفاعة بموت الولد الصغير.: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا مِنْ النَّاسِ مُسْلِمٌ يَمُوتُ لَهُ ثَلَاثَةٌ مِنْ الْوَلَدِ لَمْ يَبْلُغُوا الْحِنْثَ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ .خ

ومن فوائد النكاح : التحصن من الشيطان بدفع غوائل الشهوة ، وفيه ترويح النفس، وإيناسها بمخالطة الزوجة ، ومنها : تفريغ القلب عن تدبير المنزل، والتكفل به بشغل الطبخ والكنس والفراش وتنظيف الأواني وتهيئة أسباب العيش، فإن الإنسان يتعذر عليه أكثر ذلك مع الوحدة، ولو تكفل به لضاع أكثر أوقاته، ولم يتفرغ للعلم والعمل، فالمرأة الصالحة عون على الدين بهذه الطريقة، إذ اختلال هذه الأسباب شواغل للقلب ، ومن فوائده أيضاً : مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية، والقيام بحقوق الأهل، والصبر على أخلاقهن ، واحتمال الأذى منهن، والسعي في إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين، والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهن، والقيام بتربية الأولاد، وكل هذه أعمال عظيمة الفضل، فإنها رعاية وولاية، وفضل الرعاية عظيم، وإنما يحترز منها من يخاف القصور عن القيام بحقها، ومقاساة الأهل والولد بمنزلة الجهاد في سبيل الله عز وجل ، وفى أفراد مسلم ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : " دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك، أفضلها الذى أنفقته على أهلك " .

وفى النكاح آفات

أقواها : العجز عن طلب الحلال، فإن ذلك يصعب، فربما امتدت يد المتزوج إلى ما ليس له .

الثانية : القصور عن القيام بحقوق النساء، والصبر على أخلاقهن وأذاهن، وفى ذلك خطر، لأن الرجلَ راعٍ وهو مسؤول عن رعيته .

الثالثة : أن يكون الأهل والولد يشغلونه عن ذكر الله عز وجل، فينقضي ليله ونهاره بالتمتع بذلك، فلا يتفرغ القلب للفكر في الآخرة والعمل لها، فهذه مجامع الآفات، والفوائد، فالحكم على شخص واحد، بأن الأفضل له النكاح أو العزوبة مطلقاً مصروف على الإحاطة بمجامع هذه الأمور، بل ينبغي للمريد أن يعرض نفسه على هذه الأحوال، فإن انتفت عنه الآفات واجتمعت له الفوائد، بأن كان له مال حلال وحسن خلق، وهو مع ذلك شاب يحتاج إلى تسكين الشهوة، ومنفرد يحتاج إلى تدبير المنزل، فلا شك أن النكاح أفضل، وإن انتفت هذه الفوائد

واجتمعت فيه الآفات، فتركه أفضل، وهذا في حق من لم يحتج إلى النكاح، فإن احتاج إليه فانه يلزمه .

صفات الزوجة الصالحة

ويعتبر في المرأة لطيب العشرة أمور :

أحدها : الدين، وهو الأصل، لقول النبي ﷺ : " عليك بذات الدين " ، فإذا لم يكن لها دين أفسدت دين زوجها، وأَزْرَتْ به . وإن سلكت سبيل الغيرة لم يزل في بلاء وتكدير عيش .

الثاني : حُسْن الخُلق، فإن سيئة الخلق ضررها أكثر من نفعها .

الثالث : حُسْن الخَلْق، وهو مطلوب، إذ به يحصل التحصن، ولهذا أمر بالنظر إلى المخطوبة . وقد كان أقوام لا ينظرون في الحُسْن ، ولا يقصدون التمتع، كما روى أن الإمام أحمد رحمه الله اختار امرأة عوراء على أختها، إلا أن هذا يندر، والطباع على ضده .

الرابع : خفَّة المهر، وقد زوج سعيد بن المسيب ابنته بدرهمين . وقال عمر ﷺ : لا تغالوا في مهور النساء . وكما تكره المغالاة في المهر من جهة المرأة، يكره السؤال عن مالها من جهة الرجل . قال الثوري : إذا تزوج الرجل وقال : أي شيء للمرأة ؟ فاعلم أنه لص .

الخامس : البكارة، لأن الشارع ندب إلى ذلك، ولأنها تحب الزوج وتألفه أكثر من الثيب، فيوجب ذلك الود، فإن الطباع مجبولة على الأنس بأول مألوف، وهو أيضاً أكمل لمودته لها ، لأن الطبع ينفر من التي مسها غيره .

السادس : أن تكون ولوداً .

السابع : النسب، وهو أن تكون من بيت دين وصلاح .

الثامن : أن تكون أجنبية . وكما ينبغي للرجل أن ينظر في المرأة، ينبغي للولي أن ينظر في دين الرجل وأخلاقه وأحواله، لأنه تصير بالنكاح مرقوقة، ومتى زوجها من فاسق أو مبتدع، فقد جنى عليها وعلى نفسه . قال رجل للحسن : من أُزّوج ابنتي ؟ قال : ممن يتقى الله ؛ فإنه إن أحبها أكرمها، وإن أبغضها لن يظلمها .

أما الزوج، فعليه مراعاة الاعتدال والأدب في اثني عشر أمراً :

الأول : الوليمة فإنها مستحبة .

الثاني : حسن الخلق مع الزوجات . واحتمال الأذى منهن لقصور عقلهن . وفى الحديث الصحيح : " استوصوا بالنساء خيراً، فانه خلقن من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فان ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً .

واعلم : أنه ليس حسن الخلق مع المرأة كف الأذى عنها بل احتمال الأذى منها، والحلم على طيشها وغضبها، اقتداءً برسول الله ﷺ ، ففى " الصحيحين " ، من حديث عمر رضى الله عنه أن أزواج النبي ﷺ كن يراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل . والحديث مشهور .

الثالث : أن يداعبها ويمازحها، وقد سابق عليه السلام عائشة رضى الله عنها، وكان يداعب نساءه ﷺ ، وقال لجابر : " هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك " .

الرابع : أن يكون ذلك بقدر، ولا ينبسط في الرعاية إلى أن تسقط هيبته بالكلية عند المرأة، بل ينبغي أن يقصد طريق الاقتصاد، وقد روينا عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه عتب على بعض عماله، فكلمته امرأة عمر ﷺ فيه فقالت : يا أمير المؤمنين فيم وجدت عليه ؟ قال : يا عدوة الله ، وفيم أنت وهذا ؟ إنما أنت لعبةٌ يُلعب بك ثم تُتْركين .

الخامس : الاعتدال في الغيرة، وهو أن لا يتغافل عن مبادئ الأمور التي يَخشى غوائلها، ولا يبالغ في إساءة الظن ، وقد نهى النبي ﷺ أن يطرق الرجل أهله ليلاً .

السادس : الاعتدال في النفقة والقصد دون الإسراف والتقتير، ولا ينبغي للرجل أن يستأثر عن أهله بالطعام الطيب، فان ذلك مما يوغر الصدر .

السابع : أن يتعلم المتزوج من علم الحيض وأحكامه وما يدرى به كيف معاشرة الحائض، ويلقنها الاعتقاد الصحيح، ويزيل عن قلبها كل بدعة إن كانت ، ويعلمها أحكام الصلاة والحيض والاستحاضة، فيعرفها أنها إذا انقطع دمها قبل المغرب بمقدار ركعة فعليها الظهر والعصر، وإذا انقطع دمها الصبح بمقدار ركعة فعليها قضاء المغرب والعشاء، وهذا لا يكاد

النساء يراعينه .

الثامن : إذا كانت له نسوة ينبغي أن يعدل بينهن، والعدل في المبيت والعطاء، لا في الحب والوطء، فإن ذلك لا يملكه، فإن سافر وأراد استصحاب إحداهن أقرع بينهن، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه .

التاسع : النشوز، فإذا كان النشوز من المرأة، فله أن يؤدبها ويحملها على الطاعة قهراً، ولكنه ينبغي أن يتدرج في تأديبها بتقديم الوعظ والتخويف، فإن لم ينفع هجرها في المضجع ، فولاّها ظهره أو انفرد عنها بالفراش، وهجرها في الكلام فيما دون ثلاثة أيام ، فإن لم ينفع ضربها ضرباً غير مُبَرّح، وهو أن لا يدمى جسماً ، ولا يضرب لها وجهاً .

العاشر : في آداب الجماع، يستحب البداءة بالتسمية، والانحراف عن القبلة، وأن يتغطى هو أهله بثوب ،وأن لا يكونا متجردين، وأن يبدأ بالملاعبة والضم والتقبيل . ومن العلماء من استحب الجماع يوم الجمعة، ثم إذا قضى وطره فليتمهل لتقضى وطرها، فإن إنزالها ربما تأخر .

ومن الآداب : أن تأتزر الحائض بإزار من حَقْويها إلى ما بين الركبة إذا أراد الاستمتاع بها، ولا يجوز وطؤها في الحيض، ولا في الدُّبُر، ومن أراد أن يجامع مرة ثانية فليغسل فرجة ويتوضأ .

الحادي عشر : في آداب الولادة .

الثاني عشر : مما يتعلق بالزواج الطلاق.

أن لا يفشى سرها، وفى الحديث الصحيح في أفراد مسلم " إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى المرأة وتفضي إليه، ثم ينشر سرها " . وروى عن بعض الصالحين أنه أراد طلاق امرأته فقيل له : ما الذى يريبك منها ؟ فقال : العاقل لا يهتك سراً، فلما طلقها قيل له : لم طلقتها فقال : مالي ولامرأة غيري . فهذا كله في بيان ما على الزوج .

من آداب المعاشرة، ما على الزوجة لزوجها . عن أبى أُمامة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " لو جاز لأحد أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها " لعظم حقه عليها . وفى هذا القسم أحاديث كثيرة تدل على تأكيد حق الزوج على زوجته، وحقوقه عليها كثيرة، أهمها أمران

احدهما : الستر والصيانة

الثاني : القناعة : ، وعلى هذا كان النساء في السلف، كان الرجل إذا خرج من منزله يقوله له أهله، إياك وكسب الحرام، فإنا نصبر على الجوع ولا نصبر على النار . ومن الواجب عليها : أن لا تفرط في ماله، فإن أطعمت عن رضاه كان لها مثل أجره، وإن كان بغير رضاه، كان له الأجر وعليها الوزر . وينبغي لوالديها تأديبها قبل نقلها إلى الزوج لتعرف آداب العشرة، وينبغي للمرأة أن تكون قاعدة في بيتها، لازمة لمغزلها، قليلة الكلام لجيرانها، كثيرة الانقباض حالة غيبة زوجها، تحفظه غائباً وحاضراً، وتطلب مسرّته في جميع الأحوال، ولا تخونه في نفسها ولا في ماله، ولا تُوطئ فراشه من يكره، ولا تأذن في بيته إلا بأذنه، ولتكن همتها صلاح شأنها وتدبير بيتها، قائمة بخدمة الدار في كل ما أمكنها، ولتكن مُقَدَّمة لحق زوجها على حق نفسها وحق جميع أقربائها.

حكم الزواج عند فقهاء العصر

الزواج الواجب: يجب الزواج على من قدر عليه وتاقت نفسه إليه وخشي العنت ، لأن صيانة النفس وإعفافها عن الحرام واجب، ولا يتم ذلك إلا بالزواج.

الزواج المستحب: أما من كان تائقا له وقادرا عليه ولكنه يأمن على نفسه من اقتراف ما حرم الله عليه الزواج يستحب له، ويكون أولى من التخلي للعبادة، فإن الرهبانية ليست من الإسلام في شيء.

الزواج الحرام: ويحرم في حق من يخل بالزوجة في الوطء والإنفاق، مع عدم قدرته عليه وتوقانه إليه.

قال الطبري: فمتى علم الزواج أنه يعجز عن نفقة زوجته، أو صداقها أو شيء من حقوقها الواجبة عليه، فلا يحل له أن يتزوجها حتى يبين لها، أو يعلم من نفسه القدرة على أداء حقوقها. وكذلك لو كانت به علة تمنعه من الاستمتاع، كان عليه أن يبين كيلا يغر المرأة من نفسه. وكذلك لا يجوز أن يغرها بنسب يدعيه ولا مال ولا صناعة يذكرها وهو كاذب فيها. وكذلك يجب على المرأة إذا علمت من نفسها العجز عن قيامها بحقوق الزوج، أو كان بها علة تمنع

الاستمتاع، من جنون، أو جذام، أو برص، أو داء في الفرج، لم يجز لها أن تغره، وعليها أن تبين له ما بها في ذلك.

الزواج المكروه: ويكره في حق من يخل بالزوجة في الوطء والإنفاق، حيث لا يقع ضرر بالمرأة، بأن كانت غنية وليس لها رغبة قوية في الوطء. فإن انقطع بذلك عن شيء من الطاعات أو الاشتغال بالعلم اشتدت الكراهة.

الزواج المباح: ويباح فيما إذا انتفت الدواعي والموانع.

(٥) المعصية

هي الخروج عن الطاعة ، قال ابن القيم في الداء والدواء عن أهل الذنوب: أصلها نوعان: ترك مأمور وفعل محظور ، وهما الذنبان اللذان ابتلى الله سبحانه بهما أبوي الجنّ والإنس. وكلاهما ينقسم باعتبار محلّه إلى ظاهرٍ على الجوارح، وباطن في القلب. وباعتبار متعلَّقه إلى حقّ لله، وحقّ لخلقه ، وإن كان كلُّ حق لخلقه فهو متضمّن لحقّه ، لكن سمّي حقًّا للخلق لأنّه يجب بمطالبتهم ويسقط بإسقاطهم.

واختلف الناس في الكبائر ... فوجدتها أربعة في القلب وأربعة في اللسان وثلاثة في البطن واثنتان في الفرج واثنتان في اليدين وواحدة في الرجلين وواحدة تتعلق بجميع الجسد

ثم هذه الذنوب تنقسم إلى أربعة أقسام: مَلَكيّة، وشيطانية، وسبعيه، وبهيمية، ولا تخرج عن ذلك. فالذنوب الملَكية: أن يتعاطى ما لا يصلح له من صفات الربوبية كالعظمة، والكبرياء، والجبروت، والقهر، والعلوّ، واستعباد الخلق، ونحو ذلك. ويدخل في هذا: الشركُ بالربّ تعالى، وهو نوعان: شركٌ به في أسمائه وصفاته، وجعلُ آلهةٍ أخرى معه ، وشركٌ به في معاملته، وهذا الثاني قد لا يوجب دخول النار، وإن أحبط العملَ الذي أُشركَ فيه مع الله غيرُه.

وهذا القسم أعظم أنواع الذنوب ، ويدخل فيه القول على الله بلا علم في خلقه وأمره ، فمن كان من أهل هذه الذنوب فقد نازع الله سبحانه ربوبيتَه وملكَه، وجعل له ندًّا ، وهذا أعظم الذنوب عند الله، ولا ينفع معه عمل.

وأما الشيطانية، فالتشبّه بالشيطان في الحسد، والبغي، والغشّ والغلّ، والخداع، والمكر، والأمر بمعاصي الله وتحسينها، والنهي عن طاعته، وتهجينها، والابتداع في دينه، والدعوة إلى البدع والضلال. وهذا النوع يلي النوع الأول في المفسدة ، وإنْ كانت مفسدته دونه .

وأما السبعية، فذنوب العدوان ، والغضب ، وسفك الدماء، والتوثّب على الضعفاء والعاجزين ويتولّد منها أنواع أذى النوع الإنساني، والجرأة على الظلم والعدوان.

وأما الذنوب البهيمية، فمثل الشَّرَه والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ، ومنها يتولّد الزنى، والسرقة، وأكل أموال اليتامى ، والبخل والشحّ، والجبن، والهلع، والجزع، وغير ذلك. *وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق لعجزهم عن الذنوب السبعية والملكية* ، ومنه يدخلون إلى سائر الأقسام ، فهو يجرّهم إليها بالزمام، فيدخلون منه إلى الذنوب السبعية، ثم إلى الشيطانية، ثم إلى منازعة الربوبية والشرك في الوحدانية.

ومن تأمّل هذا حقَّ التأمّل تبيّن له أنّ الذنوب دهْليزُ الشرك، والكفر، ومنازعة الله ربوبيته.

الكبائر والصغائر

وقد دلّ القرآنُ والسنّةُ وإجماعُ الصحابة والتابعينَ بعدهم والأئمّة على أنّ من الذنوب كبائرَ وصغائرَ. قال تعالى: {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ} [النساء: ٣١]. وقال تعالى: ({الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ} [النجم: ٣٢].

وفي الصحيح عنه – ﷺ – أنه قال: "الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفّراتٌ لما بينهنّ، إذا اجتُنِبَت الكبائر"

وهذه الأعمال المكفرة لها ثلاث درجات أحدها أن تقصر عن تكفير الصغائر لضعفها وضعف الإخلاص فيها والقيام بحقوقها بمنزلة الدواء للضعيف الذى ينقص عن مقاومة الداء كمية وكيفية . الثانية أن تقاوم الصغائر ولا ترتقي إلى تكفير شيء من الكبائر . الثالثة أن تقوى على تكفير الصغائر وتبقى فيها قوة تكفر بها بعض الكبائر ، فتأمل هذا فإنه يزيل عنك إشكالات كثيرة ، وفى الصحيح عنه أنه "قال ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قلنا بلى يا رسول فقال الإشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور" وروي في الصحيح عنه" اجتنبوا السبع الموبقات قيل وما هن يا رسول الله قال الإشراك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل مال اليتيم وأكل الربا والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات" وفي الصحيح عنه" أنه سئل أي الذنب أكبر عند الله قال أن تجعل لله ندا وهو خلفك قيل ثم أي قال أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قيل ثم أي قال أن تزني بحليلة جارك " فأنزل الله تعالى تصديقها{ وَالَّذِينَ

لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِّ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُّ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨)} [الفرقان]

واختلف الناس في الكبائر هل لها عدد يحصرها على قولين ، ثم الذين قالوا بحصرها اختلفوا في عددها فقال عبد الله بن مسعود هي أربعة وقال عبدالله بن عمر هي سبعة وقال عبد الله بن عمرو ابن العاص هي تسعة وقال غيره هي إحدى عشر وقال آخر هي سبعون وقال أبو طالب المكي جمعتها من أقوال الصحابة فوجدتها أربعة في القلب وهى الشرك بالله والإصرار على المعصية والقنوط من رحمة الله والأمن من مكر الله وأربعة في اللسان وهى شهادة الزور وقذف المحصنات واليمين الغموس والسحر وثلاثة في البطن شرب الخمر وأكل مال اليتيم وأكل الربا واثنتان في الفرج وهما الزنا واللواطة واثنان في اليدين وهما القتل والسرقة وواحدة في الرجلين وهي الفرار من الزحف وواحدة تتعلق بجميع الجسد وهي عقوق الوالدين والذين لم يحصروها بعدد منهم من قال كلما نهى الله في القرآن فهو كبيرة وما نهى عنه الرسول فهو صغيرة وقالت طائفة ما اقترن بالنهى عنه وعيد من لعن أو غضب أو عقوبة فهو كبيرة ومالم يقرن به من ذلك شيء فهو صغيرة وقيل كلما رتب عليه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة فهو كبيرة وما لم يرتب عليه لا هذا ولا هذا فهو صغيرة

مما ينبغي أن يعلم : أن الذنوب والمعاصي تضر ، ولا شك أن ضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان على اختلاف درجاتها في الضرر ، وهل في الدنيا و الآخرة شرور وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي ؟! فما الذي أخرج الأبوين من الجنة ـ دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور ـ إلى دار الآلام والأحزان والمصائب ؟

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء ،وطرده ،ولعنه، ومسخ ظاهره وباطنه؟ فجُعلَتْ صورتُه أقبح صورة وأشنعها؛ وباطنُه أقبح من صورته وأشنع ، وبُدّل بالقرب بعدًا، وبالرحمة لعنةً، وبالجمال قبحًا، وبالجنة نارًا تلظّى، وبالإيمان كفرًا، وبموالاة الولي الحميد أعظمَ عداوةٍ ومشاقّةٍ، وبزجَل التسبيح والتقديس والتهليل زَجَلَ الكفر والشرك والكذب والزور

والفحش، وبلباس الإيمان لباسَ الكفر والفسوق والعصيان ، فهان على الله غايةَ الهوان، وسقط من عينه غايةَ السقوط، وحلّ عليه غضبُ الرب تعالى فأهواه، ومقَتَه أكبر المقت فأرداه ، فصار قوّادًا لكل فاسق ومجرم رضي لنفسه بالقيادة، بعد تلك العبادة والسيادة ، فعياذًا بك اللهم من مخالفة أمرك وارتكاب نهيك. وما الذي أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رأس الجبال ؟ وما الذي سلط الريح العقيم على قوم عاد حتى القتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية ودمرت ما مر عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة ؟ وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم ، وماتوا عن آخرهم ؟ وما الذي رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها، فأهلكهم جميعا، ثم أتبعهم حجارة من السماء أمطرها عليهم، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم ،ولإخوانهم أمثالها ،وما هي من الظالمين ببعيد ؟ وما الذي أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل ، فلما صار فوق رؤوسهم ؛ أمطر عليهم ناراً تلظى ؟ وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر ،ثم نُقلَت أرواحُهم إلى جهنم ؛ فالأجساد للغرق والأرواح للحرق ؟ وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله ؟

وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة والمضرّة بالقلب والبدن والدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله فمنها: حرمان العلم ،ومنها: حرمان الرزق. وفي المسند: "إنّ العبد لَيُحْرَم الرزقَ بالذنب يصيبه" ومنها: وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبيّن الله، لا يوازنها ولا يقارنها لذة أصلًا ، ولو اجتمعت له لذّاتُ الدنيا بأسرها لم تف بتلك الوحشة. وهذا أمر لا يحسّ به إلا من في قلبه حياة. "وما لجرحٍ بميّتٍ إيلامُ"

ومنها: الوحشة التي تحصل له بينه وبيّن الناس، ولا سيما أهل الخير منهم، فإنّه يجد وحشةً بينه وبينهم، وكلّما قويت تلك الوحشة بَعُدَ منهم ومن مجالستهم، وحُرمَ بركة الانتفاع بهم، وقرُبَ من حزب الشيطان بقدر ما بعُد من حزب الرحمن. وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم، فتقع

بينه وبيّن امرأته وولده وأقاربه، وبينه وبيّن نفسه، فتراه مستوحشًا من نفسه!

وقال بعض السلف: إني لأعصي الله، فأرى ذلك في خُلُق دابّتي وامرأتي.

ومنها: تعسير أموره عليه. فلا يتوجّه لأمر إلا يجده مغلقًا دونه، أو متعسّرًا عليه. وهذا كما أنّ من اتقى الله جعل له من أمره يسرًا، فمن عطّل التقوى جعل له من أمره عسرًا.

ومنها: ظلمة يجدها في قلبه حقيقةً، يحسّ بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا ادلهمَّ، فتصير ظلمةُ المعصية لقلبه كالظلمة الحسّية لبصره. فإنّ الطاعة نور، والمعصية ظلمة، وكلّما قويت الظلمة ازدادت حيرته، حتّى يقع في البدع والضلالات والأمور المهلكة، وهو لا يشعر، كأعمى خرج في ظلمة الليل يمشي وحده. وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في العين، ثم تقوى حتى تعلو الوجه وتصير سوادًا فيه يراه كلّ أحد.

قال عبد الله بن عباس : إنّ للحسنة ضياءً في الوجه، ونورًا في القلب، وسعة في الرزق، وقوةً في البدن، ومحبةً في قلوب الخلق. وإنّ للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمةً في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضةً في قلوب الخلق

ومنها: أنّ المعاصي توهن القلب والبدن. ومنها: حرمان الطاعة. ومنها: أن المعاصي تقصّر العمر وتمحق بركته ، ومنها: أنّ المعاصي تزرع أمثالَها ويولّد بعضها بعضًا، ومنها – وهو من أخوفها على العبد– أنها تُضعف القلبَ عن إرادته ، فتقوى إرادة المعصية، وتضعف إرادة التوبة شيئًا فشيئًا إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية، ومنها: أنه ينسلخ من القلب استقباحُها، فتصير له عادةً، فلا يَستقبح من نفسه رؤيةَ الناس له، ولا كلامَهم فيه. وهذا عند أرباب الفسوق هو غاية التهتّك وتمام اللذة، حتّى يفتخر أحدهم بالمعصية، ويحدّث بها من لم يعلم أنه عملها، فيقول: يا فلان عملتُ كذا وكذا! ومنها: أنّ كل معصية من المعاصي فهي ميراث عن أمة من الأمم التي أهلكها الله عز وجل. فاللوطية: ميراث عن قوم لوط. وأخذُ الحق بالزائد، ودفعُه بالناقص: ميراث عن قوم شعيب. والعلو في الأرض ، والفساد: ميراث عن فرعون وقومه . والتكبّر والتجبر: ميراث عن قوم هود. فالعاصي لابس ثيابَ بعض هذه الأمم، وهم أعداء الله.

ومنها: أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه، وسقوطه من عينه. ومنها: أن العبد لا يزال يرتكب الذنب، حتّى يهون عليه، ويصغر في قلبه. وذلك علامة الهلاك. ومنها: أنّ غيره من الناس والدوابّ يعود عليه شؤم ذنوبه، فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم، ومنها: أنّ المعصية تورث الذلَّ، ومنها: أنّ المعاصي تفسد العقل ، ومنها: أنّ الذنوب إذا تكاثرت طُبِعَ على قلب صاحبها، فكان من الغافلين؛ ومنها: أنّ الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله – ﷺ – فإنّه لعن على معاصٍ، ومنها: حرمان دعوة رسول الله– ﷺ – ودعوة الملائكة .

ومن آثار الذنوب والمعاصي: أنها تُحدث في الأرض أنواعًا من الفساد في المياه، والهواء، والزروع والثمار، والمساكن. ومن تأثير معاصي الله في الأرض: ما يحل بها من الخسف، والزلازل، ومَحْق بركتها، وكذلك شؤم تأثير الذنوب في نقص الثمار وما تُرمَى به من الآفات

ومن عقوبات الذنوب: أنّها تطفئ من القلب نارَ الغيرة التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن

ومن عقوباتها: ذهاب الحياء الذي هو مادة الحياة للقلب، وهو أصل كل خير، وذهابُه ذهابُ الخير أجمعه.

ومن عقوبات الذنوب أنها تُزيل النعم وتُحلّ النّقَم. فما زالت عن العبد نعمة إلا بذنب، ولا حلّت به نقمة إلا بذنب؛ كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما نزل بلاءً إلا بذنب، ولا رُفعَ بلاءً إلا بتوبة .

(٦) التوبة

الناس في التوبة أربع طبقات:

الطبقة الأولى: تائب يستقيم على التوبة إلى آخر عمره .الطبقة الثانية: تائب قد سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وكبائر الفواحش. الطبقة الثالثة: أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة، ثم تغلبه شهوته في بعض الذنوب . الطبقة الرابعة: أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة، ثم يعود إلى الذنوب منهمكاً من غير أن يحدث نفسه بالتوبة

قال في المفردات في غريب القرآن: التَّوْبُ: ترك الذنب على أجمل الوجوه ، وهو أبلغ وجوه الاعتذار، فإنّ الاعتذار على ثلاثة أوجه: إمّا أن يقول المعتذر: لم أفعل، أو يقول: فعلت لأجل كذا، أو فعلت وأسأت وقد أقلعت، ولا رابع لذلك، وهذا الأخير هو التوبة، والتَّوْبَةُ في الشرع: ترك الذنب لقبحه والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالأعمال بالإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كملت شرائط التوبة. وتاب إلى الله، فذكر «إلى الله» يقتضي الإنابة، نحو: فَتُوبُوا إِلى بارِئِكُمْ [البقرة/ ٥٤] ، وَتُوبُوا إِلَى اللهَّ جَمِيعاً [النور/ ٣١] ، أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللهَّ [المائدة/ ٧٤] ، وتَابَ الله عليه، أي: قبل توبته، منه: لَقَدْ تابَ اللهُّ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهاجِرِينَ [التوبة/ ١١٧] ، ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا [التوبة/ ١١٨] ، فَتابَ عَلَيْكُمْ وَعَفا عَنْكُمْ [البقرة/ ١٨٧] .

والتائب يقال لباذل التوبة ولقابل التوبة، فالعبد تائب إلى الله، والله تائب على عبده. والتَّوَّاب: العبد الكثير التوبة، ولما تاب ادم تاب الله تعالى عليه

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ البقرة قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الأعراف

قال ابن قدامة المقدسي في كتاب مختصر منهاج القاصدين عن التوبة : واعلم: أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً، وذلك الندم يورث العلم بأن تكون المعاصي حائلا بين الإنسان وبين محبوبه.

والندم هو توجع القلب عنده شعوره بفراق المحبوب، وعلامته طول الحزن والبكاء، وأما المعاصي...، فما كان من ذلك فيما بينه وبين الله تعالى، فالتوبة منه الندم والاستغفار.

ثم ينظر إلى مقادير ذنوبه، فيطلب لكل معصية منه حسنة تناسبها، فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات قال الله تعالى: {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} [هود: ١١٤] وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "أتبع السيئة الحسنة تمحها". ت حم عن أبي ذر

مثال ما ذكرنا: أن يكفر سماع الملاهي بسماع القرآن ومجالس الذكر، ويكفر مسح المصحف بغير طهارة بإكرامه وكثرة القراءة فيه، وإن أمكنه أن يكتب مصحفاً ويقفه فليفعل، ويكفّر شرب الخمر بالتصدق بالشراب الحلال ، وعلى هذا فاسلك سبيل المضادة، فإن الأمراض إنما تعالج بضدها، فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى.

وأما مظالم العباد، ففيها أيضاً معصية الله تعالى، لأنه نهى عن ظلم العباد، فالظالم لهم قد ارتكب نهيه تعالى، فيتدارك ذلك بالندم والعزم على ترك مثل ذلك في المستقبل، والإتيان بالحسنات المضادة لتلك المظالم كما تقدم في القسم الأول ، فيقابل إيذاء الناس بالإحسان إليهم، ويكفر غصب الأموال بالتصدق بماله الحلال ، ويكفر تناول أعراضهم بالثناء على أهل الدين ، ويكفر قتل النفوس بالعتق. هذا فيما يتعلق بحق الله تعالى، فإذا فعل ذلك، لم يكفه حتى يخرج من مظالم العباد.

ومظالمهم إما في النفوس، أو الأموال، أو الأعراض، أو إيذاء القلوب.

أما الأول: فإنه إذا قتل خطأ أوصل الدية إلى مستحقيها، إما منه أو من عاقلته، وإن قتل عمداً، وجب عليه القصاص بشروطه، فعليه أن يبذل نفسه لولي الدم، إن شاء قتله، وإن شاء عفا عنه، ولا يجوز له إخفاء أمره ، بخلاف ما لو زنا، أو سرق، أو شرب الخمر، أو باشر ما يجب فيه حد لله تعالى، فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه ، بل عليه أن يستر نفسه، فإن رفع أمره إلى الولي حتى أقام عليه الحد، وقد وقع ذلك موقعه وكانت توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى، بدليل قصة ماعز والغامدية. وكذلك حد القذف، لابد فيه من تحكيم المستحق فيه.

الثاني: المظالم المتعلقة بالأموال، نحو الغصب، والخيانة، والتلبيس في المعاملات، فيجب عليه رد ذلك إلى أصحابه والخروج منه.

وليكتب إلى أصحاب المظالم، وليؤدّ إليهم حقوقهم، ويستحلهم، فإن كثر ظلمه بحيث لا يقدر على أدائه، فليفعل ما يقدر عليه من ذلك، ولم يبق له طريق إلا الاستكثار من الحسنات، لتؤخذ منه في القصاص يوم القيامة فتوضع في موازين أرباب المظالم، فإنها إن تفي بذلك أخذ من سيئاتهم، فتوضع فوق سيئاته.

هذا حكم المظالم الثابتة في الذمة والأموال الحاضرة، فإن كان عنده أموال من شيء من ذلك لم يعرف مالكه ولا ورثته، تصدق به عنه، وإن اختلط الحلال بالحرام، عرف قدر الحرام بالاجتهاد، وتصدق بمقداره.

الثالث: الجناية على الأعراض، وإيذاء القلوب، فعليه أن يطلب كل واحد منهم، وليستحله، وليعرفه قدر الجناية، فإن الاستحلال المبهم لا يكفى، وربما لو عرف ذلك لم تطب نفسه بالإحلال، إلا أن تكون تلك الجناية إذا ذكرت كثر الأذى، كسبته إلى عيب من خفايا عيوبه، أو كزنى بجارته، فليجتهد في اللطف به والإحسان إليه، ثم ليستحله مبهماً، ولابد أن يبقى في مثل ذلك مظلمة تجبر بالحسنات يوم القيامة، وكذلك من مات من هؤلاء فإنه يفوت أمره، ولا يتدارك إلا بكثير الحسنات، لتؤخذ منه عوضاً يوم القيامة، ولا خلاص إلا برجحان الحسنات.

الناس في التوبة أربع طبقات

الطبقة الأولى: تائب يستقيم على التوبة إلى آخر عمره، ويتدارك ما فرّط من أمره، ولا يحدّث نفسه بالعودة إلى ذنوبه، إلا الزلات التي لا ينفك عنها البشر في العادات، فهذه هي الاستقامة في التوبة، وصاحبها هو السابق بالخيرات.

وتسمى هذه التوبة: النصوح، وتسمى هذه النفس: المطمئنة، وهؤلاء يختلفون منهم من سكنت شهوته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها، ومنهم من تنازعه نفسه وهو ملئ بمجاهدتها.

الطبقة الثانية: تائب قد سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وكبائر الفواحش، إلا أنه لا

ينفك عن ذنوب تعتريه، لا عن عمد، ولكنه يبتلى بها في مجارى أحواله من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها، وكلما أتى شيئاً منها لام نفسه، وندم وعزم على الاحتراز من أسبابها، فهذه هي النفس اللوامة لأنها تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الأحوال الذميمة، فهذه رتبة عالية أيضاً، وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى، وهى أغلب أحوال التائبين، لأن الشر معجون بطينة الآدمي، فقلما ينفك عنه، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره، حتى يثقل ميزانه، فترجح حسناته، فأما إن تخلو كفة السيئات، فبعيد. وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله سبحانه وتعالى، إذ قال: {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ} [النجم: ٣٢] وإلى هذه الرتبة الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : " إن الله يحب المؤمن المُفتّن التواب ".ضعفه الشيخ الألباني

الطبقة الثالثة: أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة، ثم تغلبه شهوته في بعض الذنوب، فيقدم عليها لعجزه عن قهر الشهوة، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات، وترك جملة من الذنوب مع القدرة عليها والشهوة لها، وإنما قهرته شهوة واحدة أو شهوتان، وهو يود لو أقدره الله على قمعها، وكفاه شرها، فإذا انتهت ندم، لكنه يعد نفسه بالتوبة عن ذلك الذنب، فهذه هي النفس المسؤولة، وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم: {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا} فأمر هذا من حيث مواظبته على الطاعات وكراهيته لما يتعاطاه مرجو لقوله تعالى: {عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} [التوبة: ١٠٣] وعاقبته خطرة من حيث تأخيره وتسويفه، فربما يختطف قبل التوبة، فإن الأعمال بالخواتيم، فعلى هذا يكون الخوف من الخاتمة، وكل نفس يمكن أن يتصل به الموت، فتكون الخاتمة، فليراقب الأنفاس، وليحذر وقوع المحذور.

الطبقة الرابعة: أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة، ثم يعود إلى الذنوب منهمكاً من غير أن يحدث نفسه بالتوبة، ومن غير أن يتأسف على فعله، فهذا من المصرين، وهذه النفس هي الأمارة بالسوء، ويخاف على هذا سوء الخاتمة. فإن مات هذا على التوحيد، فإنه يرجى له الخلاص من النار، ولو بعد حين، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفي لا يطلع عليه، إلا أن

التعويل على هذا لا يصلح، فإن من قال: إن الله تعالى كريم، وخزائنه واسعة، ومعصيتي لا تضره، ثم تراه يركب البحار في طلب الدينار، فلو قيل له: فإذا كان الحق كريماً فاجلس في بيتك لعله يرزقك، استجهل قائل هذا وقال: إنما الأرزاق بالكسب فيقال له: هكذا النجاة بالتقوى.

والحسنات المكفرة تكون بالقلب واللسان والجوارح على حسب السيئات، فما كان بالقلب، فنحو التضرع والتذلل، وأما اللسان، الاعتراف بالظلم والاستغفار، مثل أن يقول: رب ظلمت نفسي فاغفر لي.

روى في الحديث، أن النبي ﷺ قال: "ما من رجل يذنب ذنباً، فيتوضأ ويحسن الوضوء، ثم يصلي ركعتين، ويستغفر الله عز وجل، إلا غفر له". صحيح الجامع

وأما الجوارح فبالطاعات، والصدقات، وأنواع العبادات.

من أسباب سقوط العقوبة عن عصاة الموحدين

عن أَنس بْنُ مَالكٍ قَالَ سَمعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَا ابْنَ آدَمَ إنَّكَ مَا دَعَوْتَني وَرَجَوْتَني غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فيكَ وَلَا أُبَالي يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاء ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَني غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالي يَا ابْنَ آدَمَ إنَّكَ لَوْ أَتَيْتَني بقُرَاب الْأَرْض خَطَايَا ثُمَّ لَقيتَني لَا تُشْركُ بي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بقُرَابهَا مَغْفرَةً

لا يأس ما دمت مسلما ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ الحجر

التوبة الصادقة والاستغفار الدائم: إذا كانت توبة نصوحاً وخالصة من القلب، ويصحبها الندم على ما فات من المعاصي، والاستغفار منها، وعزم القلب على عدم العودة إليها، يقبلها الله تعالى بمنه وفضله ورحمته، قال تعالى: {فَخَلَفَ من بَعْدهمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَات فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا {٥٩} إلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَملَ صَالحًا فَأُوْلَئكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا}. وقال تعالى:{ وَمَا كَانَ اللهُ ليُعَذّبَهُمْ وَأَنتَ فيهمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفرُونَ}.

الأعمال الصالحة: إذا كان العمل صالحاً؛ خالصاً لله تعالى وحده، موافقاً لشرعه، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ويأتي في مكانه وزمانه الذي حدده الشرع؛ فإنه باتفاق أهل السنة والجماعة

يكفر الذنوب والمعاصي، قال الله تبارك وتعالى: { وَأَقِم الصَّلاَةَ طَرَفَي النَّهَار وَزُلَفًا مّنَ اللَّيْل إنَّ الْحَسَنَات يُذْهبْنَ السَّيِّئَات ذَلكَ ذكْرَى للذَّاكرينَ }.

المصائب التي تصيب العبد في الدنيا: إذا صبر عليها وذكر الله وحمده واستغفره؛ فاز بالثواب، وكفرت خطاياه، وإن سخط اكتسب إثماً، وبقيت خطاياه، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم – حتى الشوكة يشاكها – إلا كفر الله بها من خطاياه)

ما يعمل للميت من أعمال البر: إن أعمال المؤمنين للعبد في حياته وبعد مماته؛ كالصدقة، والدعاء، والاستغفار، والترحم عليه .. ونحوها – شفاعة له عند الله عز وجل، قال تعالى: { وَالَّذينَ جَاؤُوا من بَعْدهمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفرْ لَنَا وَلإخْوَاننَا الَّذينَ سَبَقُونَا بالإيمَان وَلا تَجْعَلْ في قُلُوبنَا غلاًّ لّلَّذينَ آمَنُوا رَبَّنَا إنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحيمٌ }. وقال النبي ﷺ: (إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له).

عذاب القبر: إن ما يحصل للعبد المؤمن في قبره من الفتنة والضغطة والروعة؛ يكفر به الله تعالى خطاياه.

أهوال يوم القيامة وكربها وشدائدها: إن ما يحصل للعبد المؤمن من المحن، من ساعة موته إلى أن ينجيه الله من الحساب يوم القيامة، وإلى دخوله الجنة – كفارة له.

الشفاعة يوم القيامة: وهذه من رحمة الله تعالى لعباده المؤمنين يوم الحسرة والندامة، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وأعظم الشفاعات في ذلك اليوم شفاعة النبي ﷺ لأمته، ثم شفاعة غيره ممن يأذن الله تعالى لهم بالشفاعة في ذلك اليوم العصيب، والله المستعان.

رحمة الله – الغفور الرحيم – وعفوه ومغفرته: وهذه أهم وأعظم أسباب نجاة العبد المؤمن من النار، وفوزه بالجنة، وذلك بفضل الله ورحمته ومنه وكرمه وإحسانه من غير شفاعة أحد، والحمد لله رب العالمين.

(٧) الخوف والحزن

الالتزام بالهدى ودين الإسلام يكون سببا لعدم الخوف على المستقبل وعدم الحزن على الماضي

قال صاحب المفردات في غريب القرآن : الخَوْف: توقّع مكروه عن أمارة مظنونة، أو معلومة، كما أنّ الرّجاء والطمع توقّع محبوب عن أمارة مظنونة، أو معلومة، ويضادّ الخوف الأمن، ويستعمل ذلك في الأمور الدنيوية والأخروية. قال تعالى: { وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخافُونَ عَذابَهُ} والخوف من الله لا يراد به ما يخطر بالبال من الرّعب، كاستشعار الخوف من الأسد، بل إنما يراد به الكفّ عن المعاصي واختيار الطّاعات، ولذلك قيل: لا يعدّ خائفا من لم يكن للذنوب تاركا. والتَّخويفُ من الله تعالى: هو الحثّ على التّحرّز، وعلى ذلك قوله تعالى: {ذلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبادَهُ}

الحُزْن والحَزَن: خشونة في الأرض وخشونة في النفس لما يحصل فيه من الغمّ، ويضادّه الفرح، ولاعتبار الخشونة بالغم قيل: خشّنت بصدره: إذا حزنته، يقال: حَزنَ يَحْزَنُ، وحَزَنْتُهُ وأَحْزَنْتُهُ قال عزّ وجلّ:{ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلى ما فاتَكُمْ} [آل عمران/ ١٥٣] ،{ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ} [فاطر/ ٣٤] قَالَ تَعَالَى:{ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ } البقرة يبين الله لنا أن الالتزام بالهدى ودين الإسلام يكون سببا لعدم الخوف على المستقبل وعدم الحزن على الماضي قَالَ تَعَالَى:{ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ } البقرة قَالَ تَعَالَى:{ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ } المائدة قَالَ تَعَالَى:{ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ } الأنعام: قَالَ تَعَالَى:{ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِيۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ } الأعراف قَالَ تَعَالَى:{ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ

﴿أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ الأعراف قَالَ تَعَالَىٰ:﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ يونس قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ الزخرف قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ الأحقاف

وصفة الخوف مطلوبة للعبد الصالح وهي الخوف من الله ، وأخوف الناس أعرفهم بنفسه وبربه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : "وقال أنا أتقاكم لله تعالى وأشدكم خشية "صحيح مسلم

وقال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴿٢٨﴾﴾ فاطر وإذا كملت المعرفة ، أثرت الخوف، ففاض أثره على القلب، ثم ظهر على الجوارح والصفات بالنحول والاصفرار والبكاء والغشي، وقد يفضي إلى الموت، وقد يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل .

وأما ظهور أثره على الجوارح، فبكفها عن المعاصي، وإلزامها الطاعات، تلافياً لما فرط، واستعداداً للمستقبل قال الله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ الرحمن وقال تعالى :﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ البينة

وقال النبي ﷺ : قال الله ﷻ : " وعزتي وجلالي، لا أجمع على عبدى خوفين، ولا أجمع له أمنين، إن أمنني في الدنيا، أخفته يوم القيامة، وإن خافني في الدنيا، أمنته يوم القيامة" ابن حبان عن أبي هريرة الصحيحة

قال الله تعالى :﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ آل عمران قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ النحل قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ السجدة

استعاذ الرسول ﷺ من الحزن ، عَنْ أَنَس بْن مَالكٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ لأَبي طَلْحَةَ الْتَمسْ غُلَامًا منْ غلْمَانكُمْ يَخْدُمُني حَتَّى أَخْرُجَ إلَى خَيْبَرَ فَخَرَجَ بي أَبُو طَلْحَةَ مُرْدفي وَأَنَا غُلَامٌ رَاهَقْتُ الْحُلُمَ فَكُنْتُ أَخْدُمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ إذَا نَزَلَ فَكُنْتُ أَسْمَعُهُ كَثيرًا يَقُولُ اللَّهُمَّ إنّي أَعُوذُ بكَ منْ الْهَمّ وَالْحَزَن وَالْعَجْز وَالْكَسَل وَالْبُخْل وَالْجُبْن وَضَلَع الدَّيْن وَغَلَبَة الرّجَال خ

أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب قَالَ قَالَ النَّبىُّ -ﷺ - « إنَّ منْ عبَاد اللهَّ لأُنَاسًا مَا هُمْ بأَنْبيَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ يَغْبطُهُمُ الأَنْبيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقيَامَة بمَكَانهمْ منَ اللهَّ تَعَالَى ». قَالُوا يَا رَسُولَ اللهَّ تُخْبرُنَا مَنْ هُمْ. قَالَ « هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا برُوح اللهَّ عَلَى غَيْر أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ وَلاَ أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا فَوَاللهَّ إنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ وَإنَّهُمْ عَلَى نُورٍ لاَ يَخَافُونَ إذَا خَافَ النَّاسُ وَلاَ يَحْزَنُونَ إذَا حَزنَ النَّاسُ ». وَقَرَأَ هَذه الآيَةَ (أَلاَ إنَّ أَوْليَاءَ اللهَّ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ).د

عَنْ أَبي سَعيدٍ الْخُدْريّ وَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبيّ ﷺ قَالَ مَا يُصيبُ الْمُسْلمَ منْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَة يُشَاكُهَا إلَّا كَفَّرَ اللهُ بهَا منْ خَطَايَاهُ . ق

(٨) الكفر والكذب والاستكبار

الكفر جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوة من لم يتبع هدى الله يشمل من لم تبلغه الدعوة، وغير المكلفين مثل الصبيان وفاقدي العقل فالكفر الأكبر هو الموجب للخلود في النار ، والأصغر موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود وهو خمسة أنواع

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩ ﴾ البقرة قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦ ﴾ الأعراف الكفر جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوة، كل من كفر وكذب بآيات الله فهو من أصحاب النار ، فكل من أنكر العقيدة إنكارا كليا فهو كافر ، ومن كذب بوجود الله أو أشرك بالله شركا أكبر في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وكفر وكذب بالرسل والملائكة والكتب فهو غير مسلم

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١ ﴾ النساء وليس الكفر إنكار الأصول الاعتقادية فحسب ، بل هناك أعمال فعلها كفر ، فعبادة غير الله كفر وصرفها لغير الله شرك

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢١ ﴾ الأنعام قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ ٦٨ ﴾ العنكبوت قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ٢٢ ﴾ السجدة ﴿ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣ ﴾ الأنعام قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ ﴾ الحجرات قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ

أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ النساء قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ النساء قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾ البقرة

ذكر الشيخ الطنطاوي في التفسير الوسيط : [وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بآياتنا أُولئكَ أَصْحابُ النَّار هُمْ فيها خالدُونَ.] إذ هذه الآية الكريمة معطوفة على قوله- تعالى- فَمَنْ تَبعَ هُدايَ. إلخ، وواردة مورد المقابل له في تفصيل أحوال من يأتيهم الهدى من الله. ولم يقل: والذين لم يتبعوا هداي أولئك أصحاب النار.. وإنما قال: وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بآياتنا أُولئكَ.. إلخ، وذلك لأن من لم يتبع هدى الله يشمل من لم تبلغه الدعوة، وغير المكلفين مثل الصبيان وفاقدي العقل، وهؤلاء ليسوا من أصحاب النار. فظهر أن قوله: وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بآياتنا.. جيء به على قدر من يستحقون الحكم عليهم بأنهم من أصحاب النار والمجازاة بالعذاب الخالد الأليم.

والآيات: جمع آية، وهي في الأصل العلامة، وتستعمل في الطائفة من الكتاب المنزل، وفيما يستدل به على وجود الله وتوحيده، من نحو بدائع مصنوعاته ومظاهر عنايته بالإنسان.

وأضاف- سبحانه- الآيات إلى نفسه فقال: بآياتنا ليكون قبح التكذيب بها أظهر، وأتى بنون العظمة فقال (بآياتنا) دون أن يقول «بآياتي» لبعث المهابة في نفوس السامعين، وذلك أدعى إلى تلقي الوعيد باهتمام وخشية.

وأصحاب: جمع صاحب مأخوذ من الصحبة، وهي الاقتران والملازمة، ودل بقوله: هُمْ فيها خالدُونَ على أن صحبتهم للنار دائمة، وليست من الصحبة التي تستمر مدة ثم تنقطع.

قال ابن الجوزي في زاد المسير: في المراد بهذه الآيات أربعة أقوال :

أحدها آيات الكتب التي تتلى والثاني معجزات الأنبياء والثالث القرآن والرابع دلائل الله في مصنوعاته وأصحاب النار سكانها سموا أصحابا لصبحتهم إياها بالملازمة

نتعرف على الكفر كما جاء في كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة :

الكفر :

أ- تعريفه : الكفر لغة يطلق على الستر والتغطية . وشرعا : ضد الإيمان ، وهو : عدم الإيمان بالله ورسوله ، سواء كان معه تكذيب أو لم يكن معه تكذيب ، بل عن شك وريب ، أو إعراض عن ذلك حسدا وكبرا أو اتباعا لبعض الأهواء الصارفة عن اتباع الرسالة .

ب- أنواع الكفر : الكفر نوعان : كفر أكبر ، وكفر أصغر . فالكفر الأكبر هو الموجب للخلود في النار ، والأصغر موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود

أولا : الكفر الأكبر .

وهو خمسة أنواع :

أ- كفر التكذيب ، وهو اعتقاد كذب الرسل عليهم السلام ، فمن كذبهم فيما جاؤوا به ظاهرا أو باطنا فقد كفر ، والدليل قوله تعالى : { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ } (العنكبوت : ٦٨) .

٢ - كفر الإباء والاستكبار ، وذلك بأن يكون عالما بصدق الرسول ، وأنه جاء بالحق من عند الله ، لكن لا ينقاد لحكمه ولا يذعن لأمره ، استكبارا وعنادا ، والدليل قوله تعالى : { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ } (البقرة : ٣٤)

٣ - كفر الشك ، وهو التردد ، وعدم الجزم بصدق الرسل ، ويقال له كفر الظن ، وهو ضد الجزم واليقين . والدليل قوله تعالى : { وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا }{ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا }{ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا }{ لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا } (الكهف : ٣٥- ٣٨) .

٤ - كفر الإعراض ، والمراد الإعراض الكلي عن الدين ، بأن يعرض بسمعه وقلبه وعلمه عما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، والدليل قوله تعالى : { وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ } (الأحقاف : ٣) .

٥ – كفر النفاق ، والمراد النفاق الاعتقادي بأن يظهر الإيمان ويبطن الكفر ، والدليل قوله تعالى : { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ } (المنافقون : ٣) .

والنفاق على ضربين :

١ – نفاق اعتقاد وهو كفر أكبر ناقل من الملة وهو ستة أنواع : تكذيب الرسول ، أو تكذيب بعض ما جاء به ، أو بغض الرسول ، أو بغض ما جاء به ، أو المسرة بانخفاض دين الرسول ، أو الكراهية لانتصار دين الرسول .

٢ – ونفاق عملي وهو كفر أصغر لا ينقل من الملة ، إلا أنه جريمة كبيرة وإثم عظيم ، ومنه ما ذكره النبي ﷺ في الحديث حيث قال : « أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » متفق عليه

وقال ﷺ : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » ، خ

ثانيا : الكفر الأصغر وهو لا يخرج صاحبه من الملة ولا يوجب الخلود في النار وإنما عليه الوعيد الشديد ، وهو كفر النعمة ، وجميع ما ورد في النصوص من ذكر الكفر الذي لا يصل إلى حد الكفر الأكبر . ومن الأمثلة عليه : ما ورد في قوله تعالى : { وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } (النحل : ١١٢) وفي قوله ﷺ: « اثنتان في الناس هما بهم كفر ، الطعن في النسب والنياحة على الميت » ، رواه مسلم . وفي قوله ﷺ: « لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » ، ق . فهذا وأمثاله كفر دون كفر وهو لا يخرج من الملة الإسلامية . لقوله تعالى : { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ }{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } (الحجرات : ٩ ، ١٠) فسماهم الله عز وجل مؤمنين مع الاقتتال . ولقوله تعالى : { إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا

دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا } (النساء : ٤٨) ، فدلت الآية الكريمة على أن كل ذنب دون الشرك تحت المشيئة أي إن شاء الله عذبه بقدر ذنبه وإن شاء عفا عنه من أول وهلة ، إلا الشرك به فإن الله لا يغفره كما هو صريح في الآية وقوله تعالى : { إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ } (المائدة : ٧٢) .

(٩) القدر

وهذا الذي كتبه القلم هو القدر وهذا التقدير الأول ، والتقدير الثاني مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا كُتِبَ مَكَانُهَا مِنْ الجَنَّةِ وَالنَّارِ وَإِلَّا قَدْ كُتِبَ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً . والقدر يحتج به في المصائب دون المعائب ، التقدير الثالث والجنين في بطن أمه التقدير الرابع ليلة القدر التقدير الخامس اليومي

روى مسلم صحيحه : عَنْ عَبْدِ اللهَّ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهَّ -ﷺ- يَقُولُ « كَتَبَ اللهُّ مَقَادِيرَ الْخَلاَئِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ - قَالَ - وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ».

وهذا الذي كتبه القلم هو القدر وهذا التقدير الأول عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهَّ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظْ اللهَّ يَحْفَظْكَ احْفَظْ اللهَّ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللهَّ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهَّ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُّ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُّ عَلَيْكَ رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ قَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ الترمذي

التقدير الثاني عَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ فَأَتَانَا النَّبِيُّ ﷺ فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ فَنَكَّسَ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ ثُمَّ قَالَ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا كُتِبَ مَكَانُهَا مِنْ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَإِلَّا قَدْ كُتِبَ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللهَّ أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ فَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ قَالَ أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ السَّعَادَةِ وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ الشَّقَاوَةِ ثُمَّ قَرَأَ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى الْآيَةَ(خ) عن عَلِيٍّ ﷺ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي جَنَازَةٍ فَأَخَذَ شَيْئًا فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِ الْأَرْضَ فَقَالَ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنْ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنْ الْجَنَّةِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللهَّ أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ قَالَ اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ

فَيُيَسَّرُ لعَمَل أَهْل السَّعَادَة وَأَمَّا مَنْ كَانَ منْ أَهْل الشَّقَاء فَيُيَسَّرُ لعَمَل أَهْل الشَّقَاوَة ، ثُمَّ قَرَأَ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بالْحُسْنَى فَسَنُيَسّرُهُ للْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بالْحُسْنَى فَسَنُيَسّرُهُ للْعُسْرَى الْآيَةَ(خ)

جاء في صحيح البخاري : أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى فَقَالَ لَهُ مُوسَى أَنْتَ آدَمُ الَّذي أَخْرَجَتْكَ خَطِيئَتُكَ منْ الْجَنَّة فَقَالَ لَهُ آدَمُ أَنْتَ مُوسَى الَّذي اصْطَفَاكَ اللَّهُ برسَالَاته وَبكَلَامه ثُمَّ تَلُومُني عَلَى أَمْرٍ قُدّرَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى مَرَّتَيْن

والقدر يحتج به في المصائب دون المعائب أي أتلومني على مصيبة قدرت علي وعليكم قبل خلقي بكذا وكذا سنة هذا جواب شيخنا رحمه الله [المقصود ابن تيمية] وقد يتوجه آخر وهو أن الاحتجاج بالقدر على الذنب ينفع في موضع ويضر في موضع ويضر في موضع فينفع إذا احتج به بعد وقوعه والتوبة منه وترك معاودته كما فعل آدم فيكون في ذكر القدر إذ ذاك من التوحيد ومعرفة أسماء الرب وصفاته وذكرها ما ينتفع به الذاكر والسامع لأنه لا يدفع بالقدر أمرا ولا نهيا ولا يبطل به شريعة بل يخبر بالحق المحض على وجه التوحيد والبراءة من الحول والقوة يوضحه أن آدم قال لموسى أتلومني على أن عملت عملا كان مكتوبا علي قبل أن أخلق فإذا أذنب الرجل ذنبا ثم تاب منه توبة وزال أمره حتى كأن لم يكن فأنبه مؤنب عليه ولامه حسن منه أن يحتج بالقدر بعد ذلك ويقول هذا أمر كان قد قدر على قبل أن أخلق فإنه لم يدفع بالقدر حقا ولا ذكره حجة له على باطل ولا محذور في الاحتجاج به وأما الموضع الذي يضر الاحتجاج به ففي الحال والمستقبل بأن يرتكب فعلا محرما أو يترك واجبا فيلومه عليه لائم فيحتج بالقدر على إقامته عليه وإصراره فيبطل بالاحتجاج به حقا ويرتكب باطلا كما احتج به المصرون على شركهم وعبادتهم غير الله { فقالوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا} {ولو شاء الرحمن ما عبدناهم} فاحتجوا به مصوبين لما هم عليه وأنهم لم يندموا على فعله ولم يعزموا على تركه ولم يقروا بفساده فهذا ضد احتجاج من تبين له خطأ نفسه وندم وعزم كل العزم على أن لا يعود

فإذا لامه لائم بعد ذلك قال كان ما كان بقدر الله ، ونكتة المسألة أن اللوم إذا ارتفع صح الاحتجاج بالقدر وإذا كان اللوم واقعا فالاحتجاج بالقدر باطل

فإن قيل فقد احتج علي بالقدر في ترك قيام الليل وأقره النبي صلى الله عليه و سلم كما في الصحيح عن علي أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ بِنْتَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَام لَيْلَةً فَقَالَ أَلَا تُصَلِّيَانِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللَّهِ فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا فَانْصَرَفَ حِينَ قُلْنَا ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُوَلٍّ يَضْرِبُ فَخِذَهُ وَهُوَ يَقُولُ {وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} صحيح البخاري ، قيل علي لم يحتج بالقدر على ترك واجب ولا فعل محرم وإنما قال أن نفسه ونفس فاطمة بيد الله فإذا شاء أن يوقظها ويبعث أنفسها بعثها وهذا موافق لقول النبي صلى الله عليه و سلم ليلة ناموا في الوادي أن الله قبض أرواحنا حيث شاء وردها حيث شاء وهذا احتجاج صحيح صاحبه يعذر فيه فالنائم غير مفرط واحتجاج غير المفرط بالقدر صحيح وقد أرشد النبي ﷺ إلى الاحتجاج بالقدر في الموضع الذي ينفع العبد الاحتجاج به فروى مسلم في صحيحه عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - « الْمُؤْمِنُ الْقَوِىُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِى كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلاَ تَعْجِزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَىْءٌ فَلاَ تَقُلْ لَوْ أَنِّى فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ ». فتضمن هذا الحديث الشريف أصولا عظيمة من أصول الإيمان أحدها أن الله سبحانه وتعالى موصوف بالمحبة وأنه يحب حقيقة الثاني أنه يحب مقتضى أسمائه وصفاته وما يوافقها فهو القوي ويحب المؤمن القوي وهو وتر يحب الوتر وجميل يحب الجمال وعليم يحب العلماء ونظيف يحب النظافة ومؤمن يحب المؤمنين ومحسن يحب المحسنين وصابر يحب الصابرين وشاكر يحب الشاكرين ومنها أن محبته للمؤمنين تتفاضل فيحب بعضهم أكثر من بعض ، ومنها أن سعادة الإنسان في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومعاده والحرص هو بذل الجهد واستفراغ الوسع فإذا صادف ما ينتفع به الحريص كان حرصه محمودا وكماله كله في مجموع هذين الأمرين أن يكون حريصا وأن يكون حرصه على ما ينتفع به فإن حرص على مالا

ينفعه أو فعل ما ينفعه بغير حرص فاته من الكمال بحسب ما فاته من ذلك فالخير كله في الحرص على ما ينفع ولما كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئته وتوفيقه أمره أن يستعين به ليجتمع له مقام إياك نعبد وإياك نستعين فإن حرصه على ما ينفعه عبادة لله ولا تتم إلا بمعونته فأمره بأن يعبده وأن يستعين به ثم قال ولا تعجز فإن العجز ينافي حرصه على ما ينفعه وينافي استعانته بالله فالحريص على ما ينفعه المستعين بالله ضد العاجز فهذا إرشاد له قبل رجوع المقدور إلى ما هو من أعظم أسباب حصوله وهو الحرص عليه مع الاستعانة بمن أزمة الأمور بيده ومصدرها منه ومردها إليه فإن فاته ما لم يقدر له فله حالتان حالة عجز وهي مفتاح عمل الشيطان فيلقيه العجز إلى لو ولا فائدة في لو ههنا بل هي مفتاح اللوم والجزع والسخط والأسف والحزن وذلك كله من عمل الشيطان فنهاه صلى الله عليه و سلم عن افتتاح عمله بهذا المفتاح وأمره بالحالة الثانية وهي النظر إلى القدر وملاحظته وأنه لو قدر له لم يفت ولم يغلبه عليه أحد فلم يبق له ههنا أنفع من شهود القدر ومشيئة الرب النافذة التي توجب وجود المقدور وإذا انتفت امتنع وجوده فلهذا قال فإن غلبك أمر فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فأرشده إلى ما ينفعه في الحالتين حالة حصول مطلوبة وحالة فواته فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغني عنه العبد أبدا بل هو أشد شيء إليه ضرورة وهو يتضمن إثبات القدر والكسب والاختيار والقيام والعبودية ظاهرا وباطنا في حالتي حصول المطلوب وعدمه وبالله التوفيق

التقدير الثالث والجنين في بطن أمه وهو تقدير شقاوته وسعادته ورزقه وأجله وعمله وسائر ما يلقاه ، عن عَبْدُ اللهَّ بْنُ مَسْعُودٍ قَالَ حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهَّ -ﷺ- وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ « إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِى بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يُبْعَثُ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ فَيُكْتَبُ رِزْقُهُ وَأَجَلُهُ وَعَمَلُهُ ثُمَّ يُكْتَبُ شَقِىٌّ أَوْ سَعِيدٌ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ أَوْ قِيدُ ذِرَاعٍ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ

حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ أَوْ قِيدُ ذِرَاعٍ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا ». متفق عليه وهذا لفظ سنن أبى داود . عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِىَّ ﷺ قَالَ « يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَ مَا تَسْتَقِرُّ فِى الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسَةٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً فَيَقُولُ يَا رَبِّ أَشَقِىٌّ أَوْ سَعِيدٌ فَيُكْتَبَانِ فَيَقُولُ أَىْ رَبِّ أَذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى فَيُكْتَبَانِ وَيُكْتَبُ عَمَلُهُ وَأَثَرُهُ وَأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ ثُمَّ تُطْوَى الصُّحُفُ فَلاَ يُزَادُ فِيهَا وَلاَ يُنْقَصُ ». م

أَنَّ عَامِرَ بْنَ وَاثِلَةَ حَدَّثَهُ أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ الشَّقِىُّ مَنْ شَقِىَ فِى بَطْنِ أُمِّهِ وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ. فَأَتَى رَجُلاً مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- يُقَالُ لَهُ حُذَيْفَةُ بْنُ أَسِيدٍ الْغِفَارِىُّ فَحَدَّثَهُ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ وَكَيْفَ يَشْقَى رَجُلٌ بِغَيْرِ عَمَلٍ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ أَتَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ فَإِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- يَقُولُ « إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا مَلَكًا فَصَوَّرَهَا وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا ثُمَّ. قَالَ يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى فَيَقْضِى رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ ثُمَّ يَقُولُ يَا رَبِّ أَجَلُهُ. فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ ثُمَّ يَقُولُ يَا رَبِّ رِزْقُهُ. فَيَقْضِى رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَلَكُ بِالصَّحِيفَةِ فِى يَدِهِ فَلاَ يَزِيدُ عَلَى مَا أُمِرَ وَلاَ يَنْقُصُ ». صحيح مسلم

وفي لفظ آخر في صحيح مسلم عن حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِىِّ فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- بِأُذُنَىَّ هَاتَيْنِ يَقُولُ « إِنَّ النُّطْفَةَ تَقَعُ فِى الرَّحِمِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ يَتَصَوَّرُ عَلَيْهَا الْمَلَكُ ». قَالَ زُهَيْرٌ حَسِبْتُهُ قَالَ الَّذِى يَخْلُقُهَا « فَيَقُولُ يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى فَيَجْعَلُهُ اللَّهُ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى ثُمَّ يَقُولُ يَا رَبِّ أَسَوِىٌّ أَوْ غَيْرُ سَوِىٍّ فَيَجْعَلُهُ اللَّهُ سَوِيًّا أَوْ غَيْرَ سَوِىٍّ ثُمَّ يَقُولُ يَا رَبِّ مَا رِزْقُهُ مَا أَجَلُهُ مَا خُلُقُهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ اللَّهُ شَقِيًّا أَوْ سَعِيدًا ». وفي لفظ آخر في صحيح مسلم : عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِىِّ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- « أَنَّ مَلَكًا مُوَكَّلاً بِالرَّحِمِ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ شَيْئًا بِإِذْنِ اللَّهِ لِبِضْعٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً » ثم ذكر نحوه وهذا الحديث بطرقه انفرد به مسلم

التقدير الرابع ليلة القدر : قَالَ تَعَالَى:﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ ﴾

الدخان وهذه هي ليلة القدر قطعا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ ﴾ القدر عن ابن عباس قال : يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحجاج يقال يحج فلان ويحج فلان . وذكر عن سعيد بن جبير في هذه الآية أنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى. وقال مقاتل يقدر الله في ليلة القدر أمر السنة في بلاده وعباده إلى السنة القابلة ، وقال أبو عبد الرحمن السلمي يقدر أمر السنة كلها في ليلة القدر وهذا هو الصحيح أن القدر مصدر قدر الشيء يقدره قدرا فهي ليلة الحكم والتقدير التقدير الخامس اليومي : قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ۝٢٩ ﴾ الرحمن فهذا تقدير يومي والذي قبله تقدير حولي والذي قبله تقدير عمري عند تعلق النفس به والذي قبله كذلك عند أول تخليقه وكونه مضغة والذي قبله تقدير سابق على وجوده لكن بعد خلق السماوات والأرض والذي قبله تقدير سابق على خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكل واحد من هذه التقادير كالتفصيل من التقدير السابق وفي ذلك دليل على كمال علم الرب وقدرته وحكمته وزيادة تعريف لملائكته وعباده المؤمنين بنفسه وأسمائه فالقدر السابق معين على الأعمال وما يحث عليها ومقتض لها لا أنه مناف لها وصاد عنها ... فالنبي صلى الله عليه وسلم أرشد الأمة في القدر إلي أمرين هما سببا السعادة الإيمان بالأقدار فإنه نظام التوحيد والإتيان بالأسباب التي توصل إلى خيره وتحجز عن شره وذلك نظام الشرع عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ جَاءَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ يُخَاصِمُونَ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- فِى الْقَدَرِ فَنَزَلَتْ (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) رواه مسلم

قال احمد : القدر قدرة الله

مراتب القضاء والقدر

المرتبة الأولى : علم الرب سبحانه بالأشياء قبل كونها. المرتبة الثانية : كتابته لها قبل كونها . المرتبة الثالثة : مشيئته لها . الرابعة خلقه لها

يدل على الأولى وهي العلم السابق فقد اتفق عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم واتفق عليه جميع الصحابة ومن تبعهم من الأمة وخالفهم مجوس الأمة وكتابته السابقة تدل على علمه بها قبل كونها. قد قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ البقرة قال مجاهد علم من إبليس المعصية وخلقه لها وقال قتادة كان في علمه أنه سيكون من تلك الخليقة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة وقال ابن مسعود أعلم ما لا تعلمون من إبليس وقال مجاهد أيضا علم من إبليس أنه لا يسجد لآدم . قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾ لقمان

المرتبة الثانية قال تعالى: { وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُور مِنْ بَعْد الذِّكْر أَنَّ الْأَرْض يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ} فالزبور هنا جميع الكتب المنزلة من السماء لا تختص بزبور داود والذكر أم الكتاب الذي عند الله والأرض الدنيا وعباده الصالحون أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم هذا أصح الأقوال في هذه الآية

وأجمع الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة والحديث أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب وقد دل القرآن على أن الرب تعالى كتب في أم الكتاب ما يفعله وما يقوله فكتب في اللوح أفعاله وكلامه

عَنْ ابْن عَبَّاسٍ قَالَ مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَشْبَهَ بِاللَّمَم مِمَّا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنْ الزِّنَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ وَزِنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُكَذِّبُهُ .البخاري

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِىِّ -ﷺ- قَالَ « كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنَ الزِّنَى مُدْرِكٌ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ وَالأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الاسْتِمَاعُ وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلاَمُ وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ وَالرِّجْلُ

زِنَاهَا الْخُطَا وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ ».مسلم

وفي صحيح البخاري عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَعَقَلْتُ نَاقَتِي بِالْبَابِ فَأَتَاهُ نَاسٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ قَالُوا قَدْ بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا مَرَّتَيْنِ ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ فَقَالَ اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ قَالُوا قَدْ قَبِلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ قَالُوا جِئْنَاكَ نَسْأَلُكَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ قَالَ كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَنَادَى مُنَادٍ ذَهَبَتْ نَاقَتُكَ يَا ابْنَ الْحُصَيْنِ فَانْطَلَقْتُ فَإِذَا هِيَ يَقْطَعُ دُونَهَا السَّرَابُ فَوَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ تَرَكْتُهَا

فالرب سبحانه كتب ما يقوله وما يفعله وما يكون بقوله وفعله وكتب مقتضى أسمائه وصفاته وآثارها"

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَمَّا قَضَى اللهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي . متفق عليه

المرتبة الثالثة مرتبة المشيئة : وهذه المرتبة قد دل عليها إجماع الرسل من أولهم إلى آخرهم وجميع الكتب المنزلة من عند الله والفطرة التي فطر الله عليها خلقه وأدلة العقول والعيان وليس في الوجود موجب ومقتض إلا مشيئة الله وحده فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن هذا عموم التوحيد الذي لا يقوم إلا به والمسلمون من أولهم إلى آخرهم مجمعون على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن قَالَ تَعَالَى:﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾ البقرة قَالَ تَعَالَى:﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ ﴾ آل عمران قَالَ تَعَالَى:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ الأنعام قَالَ تَعَالَى:﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ يونس

وهذه الآيات ونحوها تتضمن الرد على طائفتي الضلال نفاة المشيئة بالكلية ونفاة مشيئة أفعال العباد وحركاتهم وهداهم وضلالهم وهو سبحانه تارة يخبر أن كل ما في الكون بمشيئته وتارة إن ما لم يشأ لم يكن وتارة أنه لو شاء لكان خلاف الواقع وأنه لو شاء لكان خلاف القدر الذي قدره وكتبه وأنه لو شاء ما عصى وأنه لو شاء لجمع خلقه على الهدى وجعلهم أمة واحدة فتضمن ذلك أن الواقع بمشيئته وأن ما لم يقع فهو لعدم مشيئته وهذا حقيقة الربوبية وهو معنى كونه رب العالمين وكونه القائم بتدبير عباده فلا خلق ولا رزق ولا عطاء ولا منع ولا قبض ولا بسط ولا موت ولا حياة ولا إضلال ولا هدى ولا سعادة ولا شقاوة إلا بعد إذنه وكل ذلك بمشيئته وتكوينه إذ لا مالك غيره ولا مدبر سواه ولا رب غيره

عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا جَاءَهُ السَّائِلُ أَوْ طُلِبَتْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ قَالَ اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ مَا شَاءَ . صحيح البخاري

أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ بِنْتَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَام لَيْلَةً فَقَالَ أَلَا تُصَلِّيَانِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللَّهِ فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا فَانْصَرَفَ حِينَ قُلْنَا ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُوَلٍّ يَضْرِبُ فَخِذَهُ وَهُوَ يَقُولُ {وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} صحيح البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ سِرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةً فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ لَوْ عَرَّسْتَ بِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ أَخَافُ أَنْ تَنَامُوا عَنْ الصَّلَاةِ قَالَ بِلَالٌ أَنَا أُوقِظُكُمْ فَاضْطَجَعُوا وَأَسْنَدَ بِلَالٌ ظَهْرَهُ إِلَى رَاحِلَتِهِ فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَدْ طَلَعَ حَاجِبُ الشَّمْسِ فَقَالَ يَا بِلَالُ أَيْنَ مَا قُلْتَ قَالَ مَا أُلْقِيَتْ عَلَيَّ نَوْمَةٌ مِثْلُهَا قَطُّ قَالَ إِنَّ اللَّهَ قَبَضَ أَرْوَاحَكُمْ حِينَ شَاءَ وَرَدَّهَا عَلَيْكُمْ حِينَ شَاءَ يَا بِلَالُ قُمْ فَأَذِّنْ بِالنَّاسِ بِالصَّلَاةِ فَتَوَضَّأَ فَلَمَّا ارْتَفَعَتْ الشَّمْسُ وَابْيَاضَّتْ قَامَ فَصَلَّى. البخاري

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ لَمَّا انْصَرَفْنَا مِنْ غَزْوَةِ الْحُدَيْبِيَةِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ يَحْرُسُنَا اللَّيْلَةَ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ فَقُلْتُ أَنَا حَتَّى عَادَ مِرَارًا قُلْتُ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فَأَنْتَ إِذًا قَالَ فَحَرَسْتُهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ وَجْهُ الصُّبْحِ أَدْرَكَنِي قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِنَّكَ تَنَامُ فَنِمْتُ فَمَا أَيْقَظَنَا إِلَّا حَرُّ الشَّمْسِ فِي

ظُهُورنَا فَقَامَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ وَصَنَعَ كَمَا كَانَ يَصْنَعُ منْ الْوُضُوء وَرَكْعَتَيْ الْفَجْر ثُمَّ صَلَّى بنَا الصُّبْحَ فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ إنَّ اللهَّ ﷻ لَوْ أَرَادَ أَنْ لَا تَنَامُوا لَمْ تَنَامُوا وَلكنْ أَرَادَ أَنْ تَكُونُوا لمَنْ بَعْدَكُمْ فَهَكَذَا لمَنْ نَامَ أَوْ نَسيَ قَالَ ثُمَّ إنَّ نَاقَةَ رَسُول اللهِّ ﷺ وَإبلَ الْقَوْم تَفَرَّقَتْ فَخَرَجَ النَّاسُ في طَلَبهَا فَجَاءُوا بإبلهمْ إلَّا نَاقَةَ رَسُول اللهِّ ﷺ فَقَالَ عَبْدُ اللهَّ قَالَ لي رَسُولُ اللهِّ ﷺ خُذْ هَهُنَا فَأَخَذْتُ حَيْثُ قَالَ لي فَوَجَدْتُ زمَامَهَا قَدْ الْتَوَى عَلَى شَجَرَةٍ مَا كَانَتْ لتَحُلَّهَا إلَّا يَدٌ قَالَ فَجئْتُ بهَا النَّبيَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْه وَسَلَّمَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِّ وَالَّذي بَعَثَكَ بالْحَقّ نَبيًّا لَقَدْ وَجَدْتُ زمَامَهَا مُلْتَويًا عَلَى شَجَرَةٍ مَا كَانَتْ لتَحُلَّهَا إلَّا يَدٌ قَالَ وَنَزَلَتْ عَلَى رَسُول اللهِّ ﷺ سُورَةُ الْفَتْح { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا } مسند أحمد

عَنْ طُفَيْل بْن سَخْبَرَةَ أَخي عَائشَةَ لأُمّهَا أَنَّهُ رَأَى فيمَا يَرَى النَّائمُ كَأَنَّهُ مَرَّ برَهْطٍ منْ الْيَهُود فَقَالَ مَنْ أَنْتُمْ قَالُوا نَحْنُ الْيَهُودُ قَالَ إنَّكُمْ أَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّ عُزَيْرًا ابْنُ اللهَّ فَقَالَتْ الْيَهُودُ وَأَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللهُّ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ ثُمَّ مَرَّ برَهْطٍ منْ النَّصَارَى فَقَالَ مَنْ أَنْتُمْ قَالُوا نَحْنُ النَّصَارَى فَقَالَ إنَّكُمْ أَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ الْمَسيحُ ابْنُ اللهَّ قَالُوا وَإنَّكُمْ أَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللهُّ وَمَا شَاءَ مُحَمَّدٌ فَلَمَّا أَصْبَحَ أَخْبَرَ بهَا مَنْ أَخْبَرَ ثُمَّ أَتَى النَّبيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ هَلْ أَخْبَرْتَ بهَا أَحَدًا قَالَ عَفَّانُ قَالَ نَعَمْ فَلَمَّا صَلَّوْا خَطَبَهُمْ فَحَمدَ اللهَّ وَأَثْنَى عَلَيْه ثُمَّ قَالَ إنَّ طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيَا فَأَخْبَرَ بهَا مَنْ أَخْبَرَ منْكُمْ وَإنَّكُمْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ كَلمَةً كَانَ يَمْنَعُني الْحَيَاءُ منْكُمْ أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا قَالَ لَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللهُّ وَمَا شَاءَ مُحَمَّدٌ مسند احمد زاد البيهقي فلا تقولوها ولكن قولوا ما شاء الله وحده لا شريك له

في السنن الكبرى للبيهقي: عَن ابْن عَبَّاسٍ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُول اللهَّ -ﷺ- فَكَلَّمَهُ فِى بَعْض الأَمْر فَقَالَ الرَّجُلُ لرَسُول اللهَّ -ﷺ- : مَا شَاءَ اللهُّ وَشئْتَ فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ -ﷺ- :« أَجَعَلْتَنى وَاللهَّ عَدْلاً بَلْ مَا شَاءَ اللهُّ وَحْدَهُ ».

عَنْ حُذَيْفَةَ عَن النَّبىّ -ﷺ- قَالَ :« لاَ تَقُولُوا مَا شَاءَ اللهُّ وَشَاءَ فُلاَنٌ. وَلَكنْ قُولُوا مَا شَاءَ اللهُّ ثُمَّ شَاءَ فُلاَنٌ ». السنن الكبرى للبيهقي

واعلم وهو أن الله سبحانه له الخلق والأمر وأمره سبحانه نوعان أمر كوني قدري وأمر ديني شرعي فمشيئته سبحانه متعلقة بخلقه وأمره الكوني وكذلك تتعلق بما يحب وبما يكرهه كله داخل تحت مشيئته كما خلق إبليس وهو يبغضه وخلق الشياطين والكفار والأعيان والأفعال المسخوطة له وهو يبغضها فمشيئته سبحانه شاملة لذلك كله وأما محبته ورضاه فمتعلقة بأمره الديني وشرعه فلفظ المشيئة كوني ولفظ المحبة ديني شرعي ولفظ الإرادة ينقسم إلى إرادة كونية فتكون هي المشيئة وإرادة دينية فتكون هي المحبة

المرتبة الرابعة من مراتب القضاءوالقدر وهي مرتبة خلق الله سبحانه الأعمال وتكوينه وإيجاده لها وهذا أمر متفق عليه بين الرسل صلى الله تعالى عليهم وسلم وعليه اتفقت الكتب الإلهية والفطر والعقول والاعتبار وخالف في ذلك مجوس الأمة

قالت أهل السنة إضافتها إليهم فعلا وكسبا لا ينفي إضافتها إليه سبحانه خلقا ومشيئة فهو سبحانه الذي شاءها وخلقها وهم الذين فعلوها وكسبوها حقيقة فلو لم تكن مضافة إلى مشيئته وقدرته وخلقه لاستحال وقوعها منهم إذ العباد أعجز وأضعف من أن يفعلوا ما لم يشأه الله ولم يقدر عليه ولا خلقه قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ﴾ البقرة: قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾ ﴾ الزمر قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ الصافات

قال ابن عباس: "الإيمان بالقدر نظام التوحيد فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه التوحيد"

كل ما نقل في هذا المبحث كان من كتاب الإمام ابن القيم في كتابه " شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل .

نختم الكلام من كتاب " شرح العقيدة الطحاوية " وكتاب الداء والدواء : والذي عليه أهل السنة والجماعة : أن كل شيء بقضاء الله وقدره وأن الله تعالى خالق أفعال العباد قال تعالى : { إنا كل شيء خلقناه بقدر } وقال تعالى : { وخلق كل شيء فقدره تقديرا } وأن الله تعالى يريد الكفر من الكافر ويشاؤه ولا يرضاه ولا يحبه فيشاؤه كونا ولا يرضاه دينا

قال ابن القيم : وهو أن هذا المقدور قُدر بأسباب، ومن أسبابه الدعاء ، فلم يقدر مجردًا عن سببه ، ولكن قدر بسببه ، فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور ، ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور. وهذا كما قُدر الشبع والريّ بالأكل والشرب، وقدر الولد بالوطء، وقدر حصول الزرع بالبذر، وقدر خروج نفس الحيوان بذبحه وكذلك قُدر دخول الجنة بالأعمال، ودخول النار بالأعمال وهذا القسم هو الحق، وهو الذي حُرمَه السائل ولم يوفَّق له.

وحينئذ فالدعاء من أقوى الأسباب. فإذا قُدر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح أن يقال: لا فائدة في الدعاء، كما لا يقال: لا فائدة في الأكل والشرب وجميع الحركات والأعمال! وليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء ولا أبلغ في حصول المطلوب.

(١٠) اللباس والزينة

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦ ﴾ الأعراف

بينت الشريعة حكم العورات بالنسبة للرجال والنساء والأطفال ، عورة الرجل خارج الصلاة ما بين السرة والركبة ، وليستا من عورته، وأما في الصلاة فهي قدر زائد على ذلك. ترك الإسلام للمرأة حرية اللباس والزينة داخل البيت للزوج

قال في زاد المسير في علم التفسير : قال ابن عباس، ومجاهد: «الرياش» : المال وقال عطاء: المال والنعيم. وقال ابن زيد: الريش: الجَمال وقال معبد الجهني: الريش: الرزق وقال ابن قتيبة: الريش والرياش: ما ظهر من اللباس. وقال الزجاج: الريش: اللباس وكل ما ستر الإنسان في جسمه ومعيشته. يقال: تريَّش فلان، أي: صار له ما يعيش به ، وقال سفيان الثوري: الريش: المال، والرياش: الثياب وهو لباس التقوى، أي: وستر العورة لباس المتقين.

في تفسير ابن كثير : فاللباس ستر العورات وهي السوآت، والرياش والريش مَا يُتَجَمَّلُ به ظَاهِرًا، فَالْأَوَّلُ منَ الضَّرُوريَّات والريش من التكملات وَالزّيَادَات، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : الرّيَاشُ في كَلَام الْعَرَب الْأَثَاثُ وَمَا ظَهَرَ منَ الثّيَاب، سَمعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ «مَن اسْتَجَدَّ ثَوْبًا فَلَبسَهُ فَقَالَ حينَ يَبْلُغُ تَرْقُوَتَهُ: الْحَمْدُ للهَّ الَّذي كَسَاني مَا أُوَاري به عَوْرَتي وَأَتَجَمَّلُ به في حَيَاتي، ثُمَّ عَمَدَ إلَى الثوب الخلق فَتَصَدَّقَ به كَانَ في ذمَّة اللهَّ وَفي جوَار اللهَّ وَفي كَنَف اللهَّ حَيًّا وَمَيّتًا» وَرَوَاهُ التّرْمذيُّ وَابْنُ مَاجَهْ

قال في زاد المسير في علم التفسير : وللمفسرين في لباس التقوى عشرة أقوال : أحدها :أنه السمت الحسن ، قاله عثمان بن عفان ورواه الذيَّال بن عمرو عن ابن عباس. والثاني: العمل الصالح، رواه العوفي عن ابن عباس. والثالث: الإيمان، قاله قتادة، وابن جريج، والسدي فعلى هذا، سمي لباس التقوى، لأنه يقي العذاب. والرابع: خشية الله تعالى، قاله عروة بن الزبير.

والخامس: الحياء، قاله معبد الجهني، وابن الانباري . والسادس: ستر العورة للصلاة ، قاله ابن زيد. والسابع: انه الدرع، وسائر آلات الحرب، قاله زيد بن علي. والثامن: العفاف، قاله ابن السائب. والتاسع: أنه ما يُتّقى به الحر والبرد، قاله ابن بحر. والعاشر: أن المعنى: ما يَلْبَسه المتقون في الآخرة، خير مما يلبسه أهل الدنيا، رواه عثمان بن عطاء عن أبيه.

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ الأعراف

فالشيطان عدو ويسعى إلى هتك أعراض بني آدم ونشر الفاحشة وكشف العورات بينهم قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا ﴾ الأعراف وقد نجح في فتنة الأبوين ، وكانت نتيجة ارتكاب المعصية قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ ﴾ الأعراف وفي الآية دليل على أن إظهار السوأة قبح من لدن آدم ؛ فإنهما بادرا يستتران لقبح التكشف، وقيل إنما سميت السوأة سوأة لأن كشفها يسوء صاحبها

والفرض من اللبس ستر العورة والزينة .

واللباس في الإسلام له شروط وأحكام ، وحذر من العري وكشف العورات ، وفي الصحيح عند مسلم عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاَتٌ مَائِلاَتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لاَ يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا ».

البخت : واحدتها البختية وهى الناقة طويلة العنق ذات السنامين ، وأجاز النبي ﷺ لعن الكاسيات العاريات: عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي رِجَالٌ يَرْكَبُونَ عَلَى السُّرُوجِ كَأَشْبَاهِ الرِّجَالِ يَنْزِلُونَ عَلَى أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ نِسَاؤُهُمْ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ عَلَى رُءُوسِهِمْ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْعِجَافِ الْعَنُوهُنَّ فَإِنَّهُنَّ مَلْعُونَاتٌ لَوْ كَانَتْ وَرَاءَكُمْ أُمَّةٌ

مِنْ الْأُمَمِ لَخَدَمْنَ نِسَاؤُكُمْ نِسَاءَهُمْ كَمَا يَخْدِمْنَكُمْ نِسَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ (حم)

وكذلك بينت الشريعة حكم العورات بالنسبة للرجال والنساء والأطفال، ووضع الإسلام ضوابط للزينة والتجمل بالثياب والذهب والخواتم واستعمال الذهب والفضة والحرير

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ الأعراف

وحث الدين على الاغتسال والنظافة وجعل بعض الأغسال واجبة وندب إلى كثير من الأغسال

وحث على النظافة نظافة البدن الثوب البيوت والطرق والأسنان والأيدي والرأس

عَنْ صَالِحِ بْنِ أَبِي حَسَّانَ ، قَالَ : سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيِّبِ ، يَقُولُ : إِنَّ اللهَّ طَيِّبٌ يُحِبُّ الطِّيبَ ، نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ ، كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرْمَ ، جَوَّادٌ يُحِبُّ الْجُودَ ، فَنَظِّفُوا أَفْنِيَتَكُمْ وَسَاحَاتِكُمْ وَلاَ تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ ، يَجْمَعُونَ الأَكْبَاءَ فِي دُورِهِمْ ، قَالَ خَالِدٌ : فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِمُهَاجِرِ بْنِ مِسْمَارٍ ، فَقَالَ : حَدَّثَنِي عَامِرُ بْنُ سَعْدٍ ، عَنْ أَبِيهِ سَعْدٍ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ يَعْنِي بِمِثْلِهِ إِلاَّ أَنَّهُ ، قَالَ : نَظِّفُوا أَفْنَاءَكُمْ. مسند البزار ولا يصح المرفوع

عَنْ جَابِرٍ قَالَ أَتَانَا رَسُولُ اللهَّ ﷺ زَائِرًا فِي مَنْزِلِنَا فَرَأَى رَجُلًا شَعِثًا فَقَالَ أَمَا كَانَ يَجِدُ هَذَا مَا يُسَكِّنُ بِهِ رَأْسَهُ وَرَأَى رَجُلًا عَلَيْهِ ثِيَابٌ وَسِخَةٌ فَقَالَ أَمَا كَانَ يَجِدُ هَذَا مَا يَغْسِلُ بِهِ ثِيَابَهُ (حم)

في المعجم الأوسط : عن علقمة عن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ تخلَّلوا ، فإنَّهُ نظافةٌ ، والنَّظافةُ تدعو إلى الإيمان ، والإيمانُ مَع صاحبه في الجنَّة

عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَرَأَى عَلَيْهِمْ ثِيَابَ النِّمَارِ فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ مَا عَلَى أَحَدِكُمْ إِنْ وَجَدَ سَعَةً أَنْ يَتَّخِذَ ثَوْبَيْنِ لِجُمُعَتِهِ سِوَى ثَوْبَيْ مِهْنَتِهِ .صحيح سنن ابن ماجة

لباس الرجل؛ أحكامه وضوابطه في الفقه الإسلامي

١ – أن اللباس من أعظم وأجل نعم الله تعالى على عباده؛ شرعة سبحانه وتعالى ستراً للعورات، ومواراة للسوآت، وحفظاً من البرد ووقاية من الحر، وهو من أخطر المداخل التي قد يدخل

منها دعاة الفساد والرذيلة، وعباد الشهوات بقصد إفساد الأخلاق، ونشر العري والفاحشة في الذين آمنوا، مما يوجب الحذر والاهتمام بأحكامه وضوابطه، وآدابه الشرعية؛ تعلماً وتطبيقاً .

٢- أن الإسلام أباح لأتباعه صنوفاً متعددة، وألواناً مختلفة من الألبسة المشروعة التي تغنيهم عن الحرام، وتسد حاجتهم عن التطلع إلى اللباس الممنوع .

٣ - يباح للرجل لبس الملابس بشتى الألوان ، إلا المعصفر والمزعفر؛ لأنهما من لباس الكفار؛ ويباح له لبس ثياب الخز، والمصنوعة من جلود الحيوانات المأكولة المذكاة، أو ميتتها إذا دبغت

٤ - العمائم من أشهر خصائص العرب التي تميزهم عن سائر الأمم، وستر الرأس بها من السنة، وليس من العرف الحسن خروج الرجل إلى الأسواق والطرقات والأماكن العامة حاسر الرأس .

٥ -لا ينهى عن لبس العمامة على أي هيئة، ما لم يؤدي ذلك إلى التشبه بمن نهى عن التشبه بهم من الكفار والمشركين، ويحرم تغطية الرجل رأسه بالطيلسان، والبرنيطة ، والشعر الصناعي "الباروكة"؛ لأن هذه جميعاً من زي العجم الذي نهى عنه الإسلام .

٦ -يجوز المسح على العمامة المحنكة الساترة لجميع الرأس في الوضوء بدلاً من المسح على الرأس

٧- النعال من خصائص الرجال ولباسهم، شرعها الإسلام، ودعي إلى الإكثار منها، وضبط لبسها بضوابط شرعية، وجعل الصلاة فيها عند أمن المفسدة من السنة ومظاهر المخالفة لأهل الكتاب .

٨ -يباح للرجل لبس الخاتم من الفضة، والعقيق ونحوه من الجواهر والأحجار الكريمة، ولا فضل في لبسه .

٩ - يحرم على الرجل لبس خاتم الذهب ، وما فيه تشبه بخواتم الكفار والعجم والنساء، ويكره له التختم بالحديد والرصاص والنحاس والصفر؛ لثبوت النهي عن جميع ذلك .

١٠ - يجوز للرجل لبس الخاتم بفص وبدون فص، ويجعل فصه إلى ظاهر كفه أو باطنها من غير كراهة في ذلك كله.

١١- يجوز نقش الخاتم بالاسم والذكر ولفظ الجلالة من غير كراهة إذا أمن عليه من مس الجنب والحائض ودخول الخلاء والاستنجاء به .

١٢ - العبرة في مقدار خاتم الرجل ووزنه بعرف الناس الصحيح؛ لأنه لم يرد في تحديد ذلك نص صحيح يحتج به.

١٣- إذا كان الخاتم ضيقاً لا يصل الماء إلى ما تحته في الوضوء وجب تحريكه فإن غلب على الظن أن الماء يصل إلى ما تحته سن تحريكه .

١٤ - يحرم على الرجل لبس الحرير والديباج والذهب الكثير، ويباح له من ذلك اليسير التابع، وما دعت إليه ضرورة أو حاجة لا تندفع إلا به، على أن الأولى بالرجل أن يبتعد عن جميع ذلك ما استطاع إلى البعد سبيلاً .

١٥ - الفضة مباحة للرجال مطلقاً، لا حد للمباح منها، بشرط ألا يكون في لبسها إسراف أو مخيلة أو خروج عن المعتاد، أو تشبه بحلية النساء أو المشركين .

١٦ - أغلب أحكام لباس الرجل وضوابطه شرعية، لا دخل للعرف فيها، ويضبط العرف الصحيح ما يتعلق بلباس الشهرة ومخالفة عرف أهل البدل الصحيح في اللباس .

١٧ - يحرم التشبه بالنساء أو الكفار والمشركين أو الفسقة والسفلة في اللباس الذي اختصوا به، وعرفوا بلبسه؛ ويعتبر التشبه في هذا من أعظم المحرمات .

١٨ - إسبال الرجل في الثياب محرم مطلقاً، سواء أكان للخيلاء أم كان لغيرها إلا لضرورة وحاجة تدعو إلى الإسبال، أو عارض غير معتاد .

١٩ - يباح للرجل لبس الملابس المشتملة على صور غير ذوات الأرواح كالشجر والحجر ونحوهما، ويحرم عليه لبس ما اشتمل على صور ذوات الأرواح، أو الصليب، أو شعارات الأمم الكافرة الدينية، أو الكتابات الرقيعة السافلة .

٢٠ - عورة الرجل خارج الصلاة ما بين السرة والركبة، وليستا من عورته، وأما في الصلاة فهي قدر زائد على ذلك. وقد اهتم الإسلام اهتماماً عظيماً بستر العورة، وأمر بحفظها، وشرع

من الوسائل والطرق ما يكفل تحقيق الستر لعباد الله تعالى، وأباح كشفها للحاجة والضرورة، مقدرة بقدرها .

٢١ - أدب الإسلام أتباعه في باب اللباس آداباً عظيمة؛ تتمثل في التواضع في اللباس، واستحباب الخشونة والزهد فيه، والبعد عن الإسراف، والمحافظة على الحياء المروءة فيه، وأن يكون لباس الرجل صالحاً لمثله، وأن يحافظ على أذكار اللباس وأدعيته ارتداء وخلعاً .

٢٢ -للباس تأثير واضح على الصلاة صحة وعدماً، وحرمة وكراهة، ونقصاً في الأجر والكمال والفضيلة؛ فيشترط فيها ستر العورة، وستر أحد العاتقين، ويستحب فيها أخذ أكمل وأجمل الزينة من الثياب، تأدباً للوقوف بين يدي الله تعالى، ويحرم فيها كشف العورة، واشتمال الصماء، والسدل ، والتلثم من غير حاجة، ولبس النجس من الثياب، ولبس المغصوب والحرير والذهب، وما فيه صورة ذات الروح، والإسبال. ويكره لبس ما اشتمل على صور غير ذوات الأرواح والصليب

٢٣ -يجوز للمسلم لبس ما نسجه الكفار ولم يلبسوه من الثياب، أو لبسوه وعلمت طهارته، أما ما لبسوه وجهلت طهارته، أو علمت نجاسته فالواجب تركه، إلا لمضطر إليه، فيغسله ويلبسه .

٢٤ -الأفضل تكفين الرجل في ثلاث لفائف بيض من قطن ليس فيها قميص ولا عمامة، ويجزئ تكفينه في ثوب واحد يستر جميع بدنه، وهذا هو الواجب، فإن عدم ستر بما تيسر من ورق شجر ونحوه. ويستحب تحسين الأكفان قدر الطاقة، وتبخيرها ثلاثاً، وجعل أحسنها إلى الظاهر، ويجب البعد عن المغالاة في الأكفان والمخالفات الشرعية فيها

٢٥ - يكفن المحرم في ثوبيه، ولا يمس طيباً، ولا يخمر رأسه. ويكفن الشهيد في ثيابه التي قتل فيها، بعد نزع ما عليه من الحديد والجلود وآلة الحرب .

٢٦ -يشرع لمن أراد الحج أو العمرة أن يتجرد من المخيط ويتنظف، ويحرم في إزار ورداء أبيضين نظيفين، ولا يلبس مخيطاً مفصلاً على قدر البدن أو عضو من أعضائه، ولا خفين ولا سراويل، إلا أن يضطر إلى لبس شيء من ذلك. ولا يرجع إلى لباسه المعتاد له قبل الإحرام إلا بعد التحلل

من العمرة – إن كان معتمراً فقط – بالطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة والحلق أو التقصير. أما الحاج فيرجع للباسه المعتاد بعد التحلل الأول؛ يرمي جمرة العقبة يوم النحر .

٢٧ -يحرم على المحرم لبس المخيط وتغطية رأسه ووجهه بملاصق ولبس ما مسه الطيب، فإن فعل شيئاً من ذلك عامداً مختاراً عالماً بالتحريم وجبت عليه الفدية؛ ذبح شاة، أو إطعام ستة مساكين، أو صيام ثلاثة أيام .

٢٨ -يباح للمحرم لبس السلاح للحاجة، وكذا الهميان والمنطقة، وله لبس الساعة والخاتم مطلقاً، وعقد الإزار دون الرداء .

٢٩ -بيع اللباس وشراؤه وثمنه يتبع حكم الاستعمال جوازاً وعدماً؛ فإن كان اللباس مباحاً شرعاً؛ جاز بيعه وشراؤه، وحل ثمنه، وإن كان محرماً حرم جميع ذلك، وإن كان مكروها كره وإن أبيح لباس معين للضرورة والحاجة جاز بيعه وشراؤه لها مقيداً بها تندفعان به، وحل ثمنه .

٣٠ -باب الانتفاع أوسع من باب البيع واللبس؛ فليس كل ما حرم بيعه أو كره – لعلة ما – حرم الانتفاع به في غيرها مما هو جائز .

٣١ -اللباس المحرم إذا أمكن الاستفادة منه في غير اللبس، أو ما حرم لأجله فلا يجوز إتلافه، وعلى من أتلفه ضمان قيمته بالإتلاف؛ إن كان قيمياً، أو مثله؛ إن كان مثلياً. وإنما المشروع هو التغير وإزالة اللباس عن الصورة التي تجعله محرماً، ويترك يستفاد منه في غير اللبس. أما اللباس المكروه تنزيها فعلى متلفه ومغيره عن هيئته الصالحة للاستعمال الضمان؛ لأن الكراهة التنزيهية لا تسقط حرمة الشيء، ولا تهدر ماليته شرعاً

ما يختص بملابس النساء

فقد اشترط في لباسها ما يلي:

١ – أن تكون ثيابها واسعة فضفاضة بحيث تستوعب جميع أجزاء البدن، وأن لا تبرز شيئاً منه أو تجسمه، وخاصة مواضع الفتنة منها.

٢ – أن تكون سميكة صفيقة بحيث لا تشف ، فيظهر ما تحتها من الأعضاء.

٣ -أن لا تكون الملابس زينة في نفسها، كأن تكون ذات ألوان مثيرة تلفت إليها الأنظار، بل عليها أن تختار الألوان الهادئة التي تخلو من الإثارة والإغراء.

٤ -أن لا تشبه ملابس الرجال لمنافاة ذلك لأنوثة المرأة ووظيفتها.

٥ -إن الإسلام قد راعى في المرأة أنوثتها وحبها للزينة والجمال، فأباح لها ما يناسب هذه الأنوثة كالحرير والذهب، كما لم يحرم عليها اللباس الفاخر إذا كانت ممن أنعم الله عليها، بشرط عدم الإثارة والإغراء كما تقدم، وكذلك عدم تضييع أو تعطيل حق من الحقوق الشرعية

٦ -لقد حرص الإسلام على المرأة حرصاً شديداً فصانها، وحافظ عليها، ولم يسمح لأحد أن ينظر إلى أي جزء من جسمها، أو يكشف عنه إلا لضرورة أو حاجة اقتضتها مصلحتها الخاصة، أو المصلحة العامة للأمة، كمداواة أو خطبة، أو شهادة مثلاً.

٧ -أن لا يكون لباسها لباس شهرة، وأن يخلو من الطيب عند الخروج من البيت، والخروج من البيت شرط في جميع ما تقدم.

٨ -ترك الإسلام للمرأة حرية اللباس والزينة داخل البيت للزوج، حيث الفتنة نائمة، فلها أن تختار ما تشاء من أنواع الثياب وألوانها، وأن تتزين وتتجمل لزوجها كيفما تشاء، وبهذا تحافظ على زوجها مع بقائها بعيدة عن كل ما يعرضها ويعرض المجتمع معها إلى الانحراف.

(١١) العلم البشري

العلم نور يبصر به المرء حقائق الأمور ، ينقسم العلم إلى قسمين: ضروري ونظري. الجهل البسيط؛ وهو عدم الإدراك بالكلية ، الجهل المركب؛ وهو إدراك الشيء على وجه يخالف ما هو عليه.

العلم: إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكاً جازماً؛ كإدراك أن الكل أكبر من الجزء، وأن النية شرط في العبادة. فخرج بقولنا: "إدراك الشيء"؛ عدم الإدراك بالكلية ويسمّى "الجهل البسيط"، مثل أن يُسأل: متى كانت غزوة بدر؟ فيقول: لا أدري. وخرج بقولنا: "على ما هو عليه"؛ إدراكه على وجه يخالف ما هو عليه، ويسمّى "الجهل المركب"، مثل أن يُسأل: متى كانت غزوة بدر؟ فيقول: في السنة الثالثة من الهجرة. وخرج بقولنا: "إدراكاً جازماً"؛ إدراك الشيء إدراكاً غير جازم، بحيث يحتمل عنده أن يكون على غير الوجه الذي أدركه، فلا يسمى ذلك علماً. ثم إن ترجح عنده أحد الاحتمالين فالراجح ظن والمرجوح وَهم، وإن تساوى الأمران فهو شك. وبهذا تبيّن أن تعلق الإدراك بالأشياء كالآتي:

١ – علم؛ وهو إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكاً جازماً.

٢ – جهل بسيط؛ وهو عدم الإدراك بالكلية

٣ – جهل مركب؛ وهو إدراك الشيء على وجه يخالف ما هو عليه.

٤ – ظن، وهو إدراك الشيء مع احتمال ضد مرجوح.

٥ – وهم، وهو إدراك الشيء مع احتمال ضدٍّ راجح.

٦ – شك، وهو إدراك الشيء مع احتمال ضدٍّ مساو.

أقسام العلم: ينقسم العلم إلى قسمين: ضروري ونظري.

١ – فالضروري: ما يكون إدراك المعلوم فيه ضروريًّا، بحيث يضطر إليه من غير نظر ولا استدلال؛ كالعلم بأن الكل أكبر من الجزء، وأن النار حارة، وأن محمداً رسول الله.

٢ – والنظري: ما يحتاج إلى نظر واستدلال؛ كالعلم بوجوب النية في الصلاة. نقل هذا من

كتاب الأصول من علم الأصول قَالَ تَعَالَى:﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ البقرة قَالَ تَعَالَى:﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴿٥﴾ ﴾ العلق قَالَ تَعَالَى:﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ الزمر قَالَ تَعَالَى:﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ النحل قَالَ تَعَالَى:﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ﴿٣٧﴾ ﴾ الرعد قَالَ تَعَالَى:﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾ ﴾ الإسراء قَالَ تَعَالَى:﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ ﴾ مريم قَالَ تَعَالَى:﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ غافر

قَالَ تَعَالَى:﴿ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ ﴾ النجم قَالَ تَعَالَى:﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ آل عمران

قَالَ تَعَالَى:﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ آل عمران قَالَ تَعَالَى:﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾ النساء قَالَ تَعَالَى:﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٤﴾ ﴾ الحج

قَالَ تَعَالَى:﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا

ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ القصص ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ العنكبوت قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ المجادلة قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ طه

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ فاطر قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ الإسراء

مَنْ يُرِدْ اللَّهُ به خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّين

سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ خَطِيبًا يَقُولُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺيَقُولُ مَنْ يُرِدْ اللَّهُ به خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّين وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللَّهُ يُعْطِي وَلَنْ تَزَالَ هَذه الْأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ . صحيح البخاري

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِه فِي الْحَقِّ وَرَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا . صحيح البخاري

وعن أَبي هريرة – رضي الله عنه –: أنَّ رسول الله – ﷺ–، قَالَ: "وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمسُ فيه عِلْماً، سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَريقاً إِلَى الجَنَّةِ" م

وعن أَبي هريرة ، قَالَ: سَمِعْتُ رسول الله – ﷺ– يقول: "الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فيهَا، إلاَّ ذِكْرَ الله تَعَالَى، وَمَا وَالاهُ، وَعَالماً، أَوْ مُتَعَلِّماً". رواه الترمذي، وقال: "حديث حسن" قَوْله: "وَمَا وَالاَهُ": أيْ طَاعة الله تعالى .

وعن أنسٍ – ﷺ – قَالَ: قَالَ رسولُ الله – ﷺ–: "مَنْ خَرَجَ فِي طَلَب العلْم فَهُوَ فِي سَبيل الله حَتَّى يَرْجعَ". رواه الترمذي، وقال: "حديث حسن" .

عَنْ كَثِيرِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ كُنْتُ جَالِسًا مَعَ أَبِى الدَّرْدَاءِ فِى مَسْجِدِ دِمَشْقَ فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ إِنِّى جِئْتُكَ مِنْ مَدِينَةِ الرَّسُولِ -ﷺ- لِحَدِيثٍ بَلَغَنِى أَنَّكَ تُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- مَا جِئْتُ لِحَاجَةٍ. قَالَ فَإِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- يَقُولُ « مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ وَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِى الأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِى جَوْفِ الْمَاءِ وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ ». د

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- قَالَ « إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ ». صحيح مسلم

وَرُوِيَ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَغَيْرِهِ مَرْفُوعًا: «فَضْلُ الْعِلْمِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ، وَخَيْرُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ» الأربعون الصغرى للبيهقي

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ النحل قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ محمد

عَنْ جَابِرٍ قَالَ خَرَجْنَا فِي سَفَرٍ فَأَصَابَ رَجُلًا مِنَّا حَجَرٌ فَشَجَّهُ فِي رَأْسِهِ ثُمَّ احْتَلَمَ فَسَأَلَ أَصْحَابَهُ فَقَالَ هَلْ تَجِدُونَ لِي رُخْصَةً فِي التَّيَمُّمِ فَقَالُوا مَا نَجِدُ لَكَ رُخْصَةً وَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى الْمَاءِ فَاغْتَسَلَ فَمَاتَ فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أُخْبِرَ بِذَلِكَ فَقَالَ قَتَلُوهُ قَتَلَهُمْ اللَّهُ أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ وَيَعْصِرَ أَوْ يَعْصِبَ شَكَّ مُوسَى عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهَا وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ(د)

العلم نور يبصر به المرء حقائق الأمور ، وليس البصر بصر العين ، ولكن بصر القلوب :

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾ الرعد

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾ سبأ

عَن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ مَنْ جَاءَ مَسْجِدي هَذَا لَمْ يَأْت إِلَّا لِخَيْرٍ يَتَعَلَّمُهُ فَهُوَ بِمَنْزِلَة الْمُجَاهد في سَبيل اللهِّ وَمَنْ جَاءَ لغَيْر ذَلكَ فَهُوَ بمَنْزِلَة رَجُلٍ يَنْظُرُ إِلَى مَتَاع غَيْره ومسند أحمد

حديث أبي كبشة الأنماري في صحيحي الترمذي وابن ماجة أن النبي - ﷺ - قال : إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَة نَفَرٍ عَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُّ مَالاً وَعلْماً فَهُوَ يَتَّقى فيه رَبَّهُ وَيَصلُ فيه رَحمَهُ وَيَعْلَمُ للهِّ فيه حَقًّا فَهَذَا بأَحسن الْمَنَازل عند الله وَرجلٍ رَزَقَهُ اللهُّ علْماً وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً فَهُوَ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَملْتُ بعَمَل فُلاَنٍ فَهُوَ بنيَّته وهما في الأجر سَوَاءٌ ، وَرجلٍ رَزَقَهُ اللهُّ مَالاً وَلَمْ يَرْزُقْهُ علْماً فَهُوَ يَخْبطُ في مَاله لاَ يَتَّقى فيه رَبَّهُ وَلاَ يَصلُ فيه رَحمَهُ وَلاَ يَعْلَمُ للهِّ فيه حَقًّا فهو بأَسوء الْمَنَازل عند الله وَرجلٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللهُّ مَالاً وَلاَ علْماً فَهُوَ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَملْتُ بعَمَل فُلاَنٍ فَهُوَ بنيَّته وهما في الوزر سَوَاءٌ

(١٢) الفساد

إِنَّ الْإِيمَانَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ فَطُوبَى يَوْمَئِذٍ لِلْغُرَبَاءِ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ

إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقَهُ وَدِينَهُ فَزَوِّجُوهُ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ

الفساد: خروج الشيء عن الاعتدال، قليلا كان الخروج عنه أو كثيرا، ويضاده الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس، والبدن، والأشياء الخارجة عن الاستقامة، يقال: فسد فسادا وفسودا قَالَ تَعَالَى:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ البقرة قَالَ تَعَالَى:﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ البقرة قَالَ تَعَالَى:﴿ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ البقرة قَالَ تَعَالَى:﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ المائدة قَالَ تَعَالَى:﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ الأعراف قَالَ تَعَالَى:﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ الأعراف قَالَ تَعَالَى:﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ۖ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ يونس قَالَ تَعَالَى:﴿ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ يونس قَالَ تَعَالَى:﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ هود قَالَ تَعَالَى:﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ

وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾ الكهف قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ الشعراء قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ القصص قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ القصص قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ العنكبوت ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ ص قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ البقرة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ البقرة ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ البقرة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ الأعراف قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ النحل قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ الشعراء قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ النمل قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ المائدة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ

كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ الأنفال قَالَ تَعَالَى:﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ هود ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ القصص قَالَ تَعَالَى:﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ الروم قَالَ تَعَالَى:﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ﴾ غافر قَالَ ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ ﴾ الفجر

الفساد في السنة

عَنْ مُعَاذ بْن جَبَلٍ عَنْ رَسُول اللهَّ -ﷺ- أَنَّهُ قَالَ : « الْغَزْوُ غَزْوَان فَأَمَّا مَن ابْتَغَى وَجْهَ اللهَّ وَأَطَاعَ الإمَامَ وَأَنْفَقَ الْكَرِيمَةَ وَيَاسَرَ الشَّرِيك وَاجْتَنَبَ الْفَسَادَ فَإِنَّ نَوْمَهُ وَنَبْهَهُ أَجْرٌ كُلُّهُ وَأَمَّا مَنْ غَزَا فَخْرًا وَرِيَاءً وَسُمْعَةً وَعَصَى الإمَامَ وَأَفْسَدَ فِى الأَرْض فَإِنَّهُ لَمْ يَرْجعْ بالْكَفَاف ». سنن أبى داود

عَنْ أُسَامَةَ بْن زَيْدٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ : مَا ذئْبَان ضَاريَان بَاتَا في حَظيرَةٍ فيهَا غَنَمٍ يَفْتَرسَان ، وَيَأْكُلان بأَسْرَعَ فَسَادًا فيهَا منْ طَلَب الْمَال وَالشَّرَف في دين الْمُسْلم . المعجم الصغير للطبراني

عَن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ إذَا أَتَاكُم مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقَهُ وَدينَهُ فَزَوِّجُوهُ إلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فتْنَةٌ في الْأَرْض وَفَسَادٌ عَريضٌ .صحيح سنن ابن ماجة والمستدرك

عَن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺمَنْ خَبَّبَ خَادمًا عَلَى أَهْلهَا فَلَيْسَ منَّا وَمَنْ أَفْسَدَ امْرَأَةً عَلَى زَوْجهَا فَلَيْسَ هُوَ منَّا . ومسند أحمد

حَدَّثَني كَثيرُ بن عَبْد اللهَّ الْمُزَنيُّ، عَنْ أَبيه، عَنْ جَدّه، أَنّ النَّبيَّ ﷺ ، قَالَ:إنَّ الدّينَ لَيَأْزرُ إلَى الْحجَاز كَمَا تَأْزرُ الْحَيَّةُ إلَى جُحْرهَا، وَلَيَعْقلَنَّ الدّينُ منَ الْحجَاز مَعْقلَ الأَرْويَة منْ رَأْس الْجَبَل، إنَّ الدّينَ بَدَأَ غَريبًا وَيَرْجعُ غَريبًا، فَطُوبَى للْغُرَبَاء الَّذينَ يُصْلحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ بَعْدي منْ سُنَّتي.

المعجم الكبير للطبراني

عَن ابْنٍ لسَعْد بْن أَبي وَقَّاصٍ قَالَ سَمعْتُ أَبي يَقُولُ سَمعْتُ رَسُولَ اللهَّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ إنَّ الْإِيمَانَ بَدَأَ غَريبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ فَطُوبَى يَوْمَئذٍ للْغُرَبَاء إذَا فَسَدَ النَّاسُ وَالَّذي نَفْسُ أَبي الْقَاسم بيَده لَيَأْرزَنَّ الْإِيمَانُ بَيْنَ هَذَيْن الْمَسْجدَيْن كَمَا تَأْرزُ الْحَيَّةُ في جُحْرهَا (حم)

عَنْ مُعَاويَةَ بْن قُرَّةَ عَنْ أَبيه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ إذَا فَسَدَ أَهْلُ الشَّام فَلَا خَيْرَ فيكُمْ لَا تَزَالُ طَائفَةٌ منْ أُمَّتي مَنْصُورينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ

عَنْ مُعَاويَةَ بْن قُرَّةَ عَنْ أَبيه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ إذَا فَسَدَ أَهْلُ الشَّام فَلَا خَيْرَ فيكُمْ وَلَا يَزَالُ أُنَاسٌ منْ أُمَّتي مَنْصُورينَ لَا يُبَالُونَ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ (حم)

(١٣) سفك الدم

> لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالثَّيِّبُ الزَّانِي وَالْمَارِقُ مِنْ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ
>
> لَنْ يَزَالَ الْمَرْءُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ مَالُهُ وَعِرْضُهُ وَدَمُهُ

معنى سفك : صبه ، وأراقه ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ إِنَّ مِنْ وَرَطَاتِ الْأُمُورِ الَّتِي لَا مَخْرَجَ لِمَنْ أَوْقَعَ نَفْسَهُ فِيهَا سَفْكَ الدَّمِ الْحَرَامِ بِغَيْرِ حِلِّهِ . البخاري

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ . البخاري

أَنَّ الْمِقْدَادَ بْنَ عَمْرٍو الْكِنْدِيَّ حَلِيفَ بَنِي زُهْرَةَ حَدَّثَهُ وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَقِيتُ كَافِرًا فَاقْتَتَلْنَا فَضَرَبَ يَدِي بِالسَّيْفِ فَقَطَعَهَا ثُمَّ لَاذَ مِنِّي بِشَجَرَةٍ وَقَالَ أَسْلَمْتُ لِلَّهِ آقْتُلُهُ بَعْدَ أَنْ قَالَهَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا تَقْتُلْهُ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّهُ طَرَحَ إِحْدَى يَدَيَّ ثُمَّ قَالَ ذَلِكَ بَعْدَ مَا قَطَعَهَا آقْتُلُهُ قَالَ لَا تَقْتُلْهُ فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ وَأَنْتَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَالَ . البخاري

قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى {وَمَنْ أَحْيَاهَا} قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ مَنْ حَرَّمَ قَتْلَهَا إِلَّا بِحَقٍّ {فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا} خ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْهَا . خ

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ الْكَبَائِرُ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَقَتْلُ النَّفْسِ . البخاري

عن أُسَامَةَ بْنَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يُحَدِّثُ قَالَ بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْحُرَقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ قَالَ فَصَبَّحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ قَالَ وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ قَالَ فَلَمَّا غَشِينَاهُ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قَالَ فَكَفَّ عَنْهُ الْأَنْصَارِيُّ فَطَعَنْتُهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ قَالَ فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فَقَالَ لِي يَا أُسَامَةُ أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا قَالَ أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قَالَ فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ. البخاري

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﷺ قَالَ إِنِّي مِنْ النُّقَبَاءِ الَّذِينَ بَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَايَعْنَاهُ عَلَى أَنْ لَا نُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا نَسْرِقَ وَلَا نَزْنِيَ وَلَا نَقْتُلَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ وَلَا نَنْتَهِبَ وَلَا نَعْصِيَ بِالْجَنَّةِ إِنْ فَعَلْنَا ذَلِكَ فَإِنْ غَشِينَا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا كَانَ قَضَاءُ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ . البخاري

عَنْ الْحَسَنِ عَنْ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ ذَهَبْتُ لِأَنْصُرَ هَذَا الرَّجُلَ فَلَقِيَنِي أَبُو بَكْرَةَ فَقَالَ أَيْنَ تُرِيدُ قُلْتُ أَنْصُرُ هَذَا الرَّجُلَ قَالَ ارْجِعْ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ قَالَ إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ . البخاري

جاء في صحيح البخاري : قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى {أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ }

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُرَّةَ عَنْ مَسْرُوقٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالثَّيِّبُ الزَّانِي وَالْمَارِقُ مِنْ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ

وفي مسند أحمد من حديث أبي ذر : قَالَ قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَيُّ الشُّهَدَاءِ أَفْضَلُ قَالَ مَنْ سُفِكَ دَمُهُ وَعُقِرَ جَوَادُهُ قَالَ قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ فَأَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ قَالَ أَغْلَاهَا ثَمَنًا وَأَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا قَالَ قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ فَأَيُّ الْأَنْبِيَاءِ كَانَ أَوَّلَ قَالَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَام قَالَ قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَوَنَبِيٌّ كَانَ آدَمُ قَالَ نَعَمْ نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ خَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ رُوحَهُ ثُمَّ قَالَ لَهُ يَا آدَمُ قُبْلًا قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَمْ وَفَّى عِدَّةُ الْأَنْبِيَاءِ قَالَ مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا الرُّسُلُ مِنْ ذَلِكَ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا

عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لَنْ يَزَالَ الْمَرْءُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا (حم)

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – :« الْمَجَالِسُ بِالأَمَانَةِ إِلاَّ ثَلاَثَةَ مَجَالِسَ سَفْكُ دَمٍ حَرَامٍ أَوْ فَرْجٌ حَرَامٌ أَوِ اقْتِطَاعُ مَالٍ بِغَيْرِ حَقٍّ ». السنن الكبرى للبيهقي

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- « كُلُّ الْمُسْلِم عَلَى الْمُسْلِم حَرَامٌ مَالُهُ وَعِرْضُهُ وَدَمُهُ حَسْبُ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ ». ق د

في السنن الكبرى للبيهقي: قَالَ :« فَإِنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ وَدِمَاءَكُمْ حَرَامٌ بَيْنَكُمْ مِثْلُ يَوْمِكُمْ فِى مِثْلِ شَهْرِكُمْ فِى مِثْلِ بَلَدِكُمْ أَلاَ لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ مَرَّتَيْنِ فَرُبَّ مُبَلَّغٍ هُوَ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ ». ثُمَّ مَالَ عَلَى نَاقَتِهِ إِلَى غُنَيْمَاتٍ فَجَعَلَ يَقْسِمُهَا بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ الشَّاةَ وَالثَّلاَثَةِ الشَّاةَ. أَخْرَجَهُ الْبُخَارِىُّ وَمُسْلِمٌ

قَالَ تَعَالَى:﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ البقرة قَالَ تَعَالَى:﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ البقرة قَالَ تَعَالَى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ البقرة قَالَ تَعَالَى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ النساء قَالَ تَعَالَى:﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ ﴾ النساء قَالَ تَعَالَى:﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ النساء قَالَ تَعَالَى:﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ المائدة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴿٣٢﴾ ﴾ المائدة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ الأنعام قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ الأنعام قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ الإسراء قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾ الإسراء قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ ﴾ الفرقان قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ الممتحنة

قال محمود شلتوت : إن جريمة القتل من أكبر الجرائم، يَرونها سَلْبًا لحياة المَجْنيّ عليه بغير حق، وتَيتيمًا لأطفاله، وتَرْميلًا لنسائه، وحرمانًا لأهله وذَويه منه، وحرمانًا له من حظّه المُقدَّر له في الحياة. يرونها مُصادمة لإحساس الجماعة البشرية، الذي فُطرت عليه في اعتقاد أن الحياة حقٌّ لكلّ حي، يتمتع به، وينفع، وينتفع في ظله، ولا يجوز الاعتداء عليه فيه، ولا انتزاعه منه. يرون أنها زعزعة لَمَا ترجو هذه الجماعة من هدوء الحياة واستقرارها كي تنتفع بأسرارها، وتصل بها إلى سُبُل العزَّة والكمال. وأنها فوق ذلك كله هدْم لعمارة شادها الله بيده، وجهَّزها بما جهَّز، وسخَّر لها ما سخَّر بحكمته ورحمته.

وبهذا استكملت الحكمة الإلهيةُ العمارةَ الكبرى، التي تجعل الإنسان خليفةً فيها، يُعمّرها ويُنَمّيهَا.

ولا نكاد لهذا نعثر في التاريخ ـ مهما أغرَق في القدم ـ على جماعة إنسانية هانت عليها الأرواح، وغضَّت أبصارها عن الآثار السيئة لهذه الجريمة، فلم تغضب لها ولم تكترث بشأنها. ومن هنا كانت حُرمة النفس البشرية من الحرمات التي تقضي بها طبيعة الإنسان في خلقه وتكوينه، وكانت قارَّةً في نفسه بمُقتضى هذه الطبيعة، وأن الشرائع السماوية، حينما جاءت بحُرمتها، لم تكن إلا مؤيدة ومؤكدة لَمَا تُمليه الطبيعة على الإنسان في اعتقاد حُرْمتها.

(١٤) التقديس والتسبيح

بين الملائكة لرب العزة أن من وظائفهم التسبيح والتقديس ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ البقرة

التقديس: التطهير الإلهي ، دون التطهير الذي هو إزالة النجاسة المحسوسة، وقوله: {ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك} أي: نطهر الأشياء ارتساما لك. أي: نصفك بالتقديس.
ومعنى سبحان الله تنزيهه عن كل سوء ونقيصة ومالا يليق به

قال في المفردات : السبح: المر السريع في الماء، وفي الهواء، يقال: سبح سبحا وسباحة، واستعير لمر النجوم في الفلك نحو: {وكل في فلك يسبحون} [الأنبياء/ ٣٣]، ولجري الفرس نحو: {والسابحات سبحا} [النازعات/ ٣]، ولسرعة الذهاب في العمل نحو: { إن لك في النهار سبحا طويلا} [المزمل/ ٧]، والتسبيح: تنزيه الله تعالى. وأصله: المر السريع في عبادة الله تعالى، وجعل ذلك في فعل الخير كما جعل الإبعاد في الشر، فقيل: أبعده الله، وجعل التسبيح عاما في العبادات قولا كان، أو فعلا، أو نية، قال: {فلولا أنه كان من المسبحين} [الصافات/ ١٤٣]، قيل: من المصلين .. قال: {ونحن نسبح بحمدك} [البقرة/ ٣٠]، {وسبح بحمد ربك بالعشي} [غافر/ ٥٥]، {فسبحه وأدبار السجود} [ق/ ٤٠]، {قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون} [القلم/ ٢٨]، أي: هلا تعبدونه وتشكرونه، وحمل ذلك على الاستثناء، وهو أن يقول: إن شاء الله، ويدل على ذلك قوله: {إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون} [القلم/ ١٧]، وقال: {تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم} [الإسراء/ ٤٤]، فذلك نحو قوله: {ولله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها} [الرعد/ ١٥]، {ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض} [النحل/ ٤٩]، فذلك يقتضي أن يكون تسبيحا على الحقيقة، وسجودا له على وجه لا نفقهه، بدلالة قوله: {ولكن لا

تفقهون تسبيحهم} [الإسراء/ ٤٤]، ودلالة قوله: {ومن فيهن} [الإسراء/ ٤٤]، بعد ذكر السموات والأرض، ولا يصح أن يكون تقديره: يسبح له من في السموات، ويسجد له من في الأرض، لأن هذا مما نفقهه، ولأنه محال أن يكون ذلك تقديره، ثم يعطف عليه بقوله: {ومن فيهن} والأشياء كلها تسبح له وتسجد، بعضها بالتسخير، وبعضها بالاختيار، ولا خلاف أن السموات والأرض والدواب مسبحات بالتسخير، من حيث إن أحوالها تدل على حكمة الله تعالى، وإنما الخلاف في السموات والأرض هل تسبح باختيار؟ والآية تقتضي ذلك بما ذكرت من الدلالة، و (سبحان) أصله مصدر نحو: غفران، قال: {فسبحان الله حين تمسون} [الروم/ ١٧]، و {سبحانك لا علم لنا} [البقرة/ ٣٢]، والسبوح القدوس من أسماء الله تعالى وقال أبو زيد: تقول العرب: سبوح وقدوس وسمور وذروح، وقد قالوا بالضم، وهو أعلى، وذروح: واحد الذراريح، وهي الدود الصغار. وقد يفتحان، نحو: كلوب وسمور، والسبحة: والتسبيح، وقد يقال للخرزات التي بها يسبح: سبحة.

التقديس: التطهير الإلهي المذكور في قوله: {ويطهركم تطهيرا} [الأحزاب/ ٣٣]، دون التطهير الذي هو إزالة النجاسة المحسوسة، وقوله: {ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك} [البقرة/ ٣٠]، أي: نطهر الأشياء ارتساما لك. وقيل: نقدسك، أي: نصفك بالتقديس. وقوله: {قل نزله روح القدس} [النحل/ ١٠٢]، يعني به جبريل من حيث إنه ينزل بالقدس من الله، أي: بما يطهر به نفوسنا من القرآن والحكمة والفيض الإلهي، والبيت المقدس هو المطهر من النجاسة، أي: الشرك، وكذلك الأرض المقدسة. قال تعالى: {يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم} [المائدة/ ٢١]، وحظيرة القدس. قيل: الجنة. وقيل: الشريعة. وكلاهما صحيح، فالشريعة حظيرة منها يستفاد القدس، أي: الطهارة.

عن عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- كَانَ يَقُولُ فِى رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ « سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلاَئِكَةِ وَالرُّوحِ ». صحيح مسلم

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ . صحيح البخاري

(سبحان) اسم علم للتسبيح الذي هو مصدر سبح وهو يدل على المبالغة فيه وأصل التسبيح في اللغة التباعد ومعنى سبحان الله تنزيهه عن كل سوء ونقيصة ومالا يليق به

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- « مَنْ سَبَّحَ اللَّهَ فِى دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ وَحَمِدَ اللَّهَ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ وَكَبَّرَ اللَّهَ ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ فَتِلْكَ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ وَقَالَ تَمَامَ الْمِائَةِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ ». م

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ﷺ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ كَانَ يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فَكُنْتُ إِذَا وَجَدْتُهُ يُصَلِّي سَبَّحَ فَدَخَلْتُ وَإِذَا لَمْ يَكُنْ يُصَلِّي أَذِنَ مسند أحمد

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ لَقِيَنِى رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- فِى طَرِيقٍ مِنْ طُرُقِ الْمَدِينَةِ وَأَنَا جُنُبٌ فَاخْتَنَسْتُ فَذَهَبْتُ فَاغْتَسَلْتُ ثُمَّ جِئْتُ فَقَالَ « أَيْنَ كُنْتَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ». قَالَ قُلْتُ إِنِّى كُنْتُ جُنُبًا فَكَرِهْتُ أَنْ أُجَالِسَكَ عَلَى غَيْرِ طَهَارَةٍ. فَقَالَ « سُبْحَانَ اللَّهِ إِنَّ الْمُسْلِمَ لاَ يَنْجُسُ ». د

عَنْ عَائِشَةَ بِنْتِ سَعْدِ بْنِ أَبِى وَقَّاصٍ عَنْ أَبِيهَا أَنَّهُ دَخَلَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- عَلَى امْرَأَةٍ وَبَيْنَ يَدَيْهَا نَوًى أَوْ حَصًى تُسَبِّحُ بِهِ فَقَالَ « أُخْبِرُكِ بِمَا هُوَ أَيْسَرُ عَلَيْكِ مِنْ هَذَا أَوْ أَفْضَلُ ». فَقَالَ « سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ فِى السَّمَاءِ وَسُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ فِى الأَرْضِ وَسُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ بَيْنَ ذَلِكَ وَسُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ مَا هُوَ خَالِقٌ وَاللَّهُ أَكْبَرُ مِثْلُ ذَلِكَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مِثْلُ ذَلِكَ. وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ مِثْلُ ذَلِكَ. وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ مِثْلُ ذَلِكَ ».د

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- مِنْ عِنْدِ جُوَيْرِيَةَ - وَكَانَ اسْمُهَا بَرَّةَ فَحَوَّلَ اسْمَهَا - فَخَرَجَ وَهِىَ فِى مُصَلاَّهَا وَرَجَعَ وَهِىَ فِى مُصَلاَّهَا فَقَالَ « لَمْ تَزَالِى فِى مُصَلاَّكِ هَذَا ». قَالَتْ نَعَمْ. قَالَ « قَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ لَوَزَنَتْهُنَّ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ ».د

عَنْ صَفيَّةَ قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللهَّ -ﷺ- مُعْتكفًا فَأَتَيْتُهُ أَزُورُهُ لَيْلاً فَحَدَّثْتُهُ ثُمَّ قُمْتُ فَانْقَلَبْتُ فَقَامَ مَعى ليَقْلبَنى - وَكَانَ مَسْكَنُهَا فى دَار أُسَامَةَ بْن زَيْدٍ - فَمَرَّ رَجُلاَن منَ الأَنْصَار فَلَمَّا رَأَيَا النَّبىَّ -ﷺ- أَسْرَعَا فَقَالَ النَّبىُّ -ﷺ- « عَلَى رسْلكُمَا إنَّهَا صَفيَّةُ بنْتُ حُيَىٍّ ». قَالاَ سُبْحَانَ اللهَّ يَا رَسُولَ اللهَّ. قَالَ « إنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرى منَ الإنْسَان مَجْرَى الدَّم فَخَشيتُ أَنْ يَقْذفَ فى قُلُوبكُمَا شَيْئًا ». أَوْ قَالَ « شَرًّا ».

عَنْ عُبَادَةَ بْن الصَّامت قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهَّ -ﷺ- « مَنْ تَعَارَّ منَ اللَّيْل فَقَالَ حينَ يَسْتَيْقظُ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُّ وَحْدَهُ لاَ شَريكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَديرٌ سُبْحَانَ اللهَّ وَالْحَمْدُ للهَّ وَلاَ إلَهَ إلاَّ اللهُّ وَاللهُّ أَكْبَرُ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ باللهَّ ثُمَّ دَعَا رَبِّ اغْفرْ لى ». قَالَ الْوَليدُ أَوْ قَالَ « دَعَا اسْتُجيبَ لَهُ فَإنْ قَامَ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ صَلَّى قُبلَتْ صَلاَتُهُ ».د تعار : أرق واستيقظ

قَالَ حَدَّثَنى شَريقٌ الْهَوْزَنىُّ قَالَ دَخَلْتُ عَلَى عَائشَةَ رضى الله عنها فَسَأَلْتُهَا بمَ كَانَ رَسُولُ اللهَّ -ﷺ- يَفْتَتحُ إذَا هَبَّ منَ اللَّيْل فَقَالَتْ لَقَدْ سَأَلْتَنى عَنْ شَىْءٍ مَا سَأَلَنى عَنْهُ أَحَدٌ قَبْلَكَ كَانَ إذَا هَبَّ منَ اللَّيْل كَبَّرَ عَشْرًا وَحَمدَ عَشْرًا وَقَالَ « سُبْحَانَ اللهَّ وَبحَمْده ». عَشْرًا وَقَالَ « سُبْحَانَ الْملك الْقُدُّوس ». عَشْرًا وَاسْتَغْفَرَ عَشْرًا وَهَلَّلَ عَشْرًا ثُمَّ قَالَ « اللَّهُمَّ إنِّى أَعُوذُ بكَ منْ ضيق الدُّنْيَا وَضيق يَوْم الْقيَامَة ». عَشْرًا ثُمَّ يَفْتَتحُ الصَّلاَةَ. د

عَنْ أَبى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهَّ -ﷺ- « مَنْ قَالَ حينَ يُصْبحُ سُبْحَانَ اللهَّ الْعَظيم وَبحَمْده مائَةَ مَرَّةٍ وَإذَا أَمْسَى كَذَلكَ لَمْ يُوَاف أَحَدٌ منَ الْخَلاَئق بمثْل مَا وَافَى ».

عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهَّ ﷺ قَالَ مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهَّ وَبحَمْده في يَوْمٍ مائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَإنْ كَانَتْ مثْلَ زَبَد الْبَحْر . خ

(١٥) الغيب

عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ أي: ما يغيب عنكم وما تشهدونه، والْغَيْب في قوله: يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ، ما لا يقع تحت الحواسّ ولا تقتضيه بداية العقول ، وإنما يعلم بخبر الأنبياء

جاء في المفردات في غريب القرآن توضيحا لمعاني الغيب : الغَيْبُ: مصدر غَابَت الشّمسُ وغيرها: إذا استترت عن العين، يقال: غَابَ عنّي كذا. قال تعالى: { أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ } [النمل/ ٢٠] ، واستعمل في كلّ غَائِبٍ عن الحاسّة، وعمّا يَغِيبُ عن علم الإنسان بمعنى الغَائِب، قال: { وَما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ}

[النمل/ ٧٥] ، ويقال للشيء: غَيْبٌ وغَائِبٌ باعتباره بالناس لا بالله تعالى، فإنه لا يغيب عنه شيء، كما لا يعزب عنه مثقال ذرّة في السّموات ولا في الأرض. وقوله: { عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ } [الأنعام/ ٧٣] ، أي: ما يغيب عنكم وما تشهدونه، والْغَيْب في قوله:{ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ }[البقرة/ ٣] ، ما لا يقع تحت الحواسّ ولا تقتضيه بداية العقول، وإنما يعلم بخبر الأنبياء عليهم السلام، وبدفعه يقع على الإنسان اسم الإلحاد، ومن قال: الغَيْبُ هو القرآن ، ومن قال: هو القدر فإشارة منهم إلى بعض ما يقتضيه لفظه. وقال بعضهم: معناه يؤمنون إذا غَابُوا عنكم، وليسوا كالمنافقين الذين قيل فيهم: { وَإِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ } [البقرة/ ١٤] ، وعلى هذا قوله: { الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ } [فاطر/ ١٨] ، { مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ } [ق/ ٣٣] ، { وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ } [النحل/ ٧٧] ،{ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ } [مريم/ ٧٨] ، { فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً } [الجن/ ٢٦] ، { لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ } [النمل/ ٦٥] ، { ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ }[آل عمران/ ٤٤] ،{ وَما كانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ } [آل عمران/ ١٧٩] ،{ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ } [المائدة/ ١٠٩] ،{ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ } [سبأ/ ٤٨] ، وأَغَابَت المرأة: غاب زوجها. وقوله في صفة النّساء:{ حافِظاتٌ لِلْغَيْبِ بِما حَفِظَ اللَّهُ} [النساء/ ٣٤] ، أي: لا يفعلن في غيبة

الزّوج ما يكرهه الزّوج... وقوله: { وَيَقْذِفُونَ بالْغَيْب منْ مَكانٍ بَعيدٍ } [سبأ/ ٥٣]، أي: من حيث لا يدركونه ببصرهم وبصيرتهم.

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾ البقرة ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٢٣﴾ هود ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٣٨﴾ فاطر ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ٤٤﴾ آل عمران ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٧٩﴾ آل عمران ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ٥٠﴾ الأنعام ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾ الأنعام ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ الأعراف ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ التوبة ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٢٠﴾ يونس ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٦٥﴾ النمل ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ
مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤﴾ سبأ ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧﴾ الجن ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ٢٤﴾ التكوير

حَدَّثَتْنِى أُمُّ الدَّرْدَاء قَالَتْ حَدَّثَنِى سَيِّدِى أَبُو الدَّرْدَاء أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ « إِذَا دَعَا الرَّجُلُ لأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ ».د

عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ {مَفَاتِحُ الْغَيْبِ} خَمْسٌ {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} خ

فِي صحيح البخاري : قَوْلِهِ {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ} {غيضَ} نُقِصَ

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللَّهُ وَلَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ

قَالَتْ عائشة : وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - كَتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ وَاللَّهُ يَقُولُ (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ). قَالَتْ وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُخْبِرُ بِمَا يَكُونُ فِى غَدٍ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ وَاللَّهُ يَقُولُ (قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ). صحيح مسلم

عن أبي مجلز : صَلَّى بِنَا عَمَّارٌ صَلَاةً فَأَوْجَزَ فِيهَا فَأَنْكَرُوا ذَلِكَ فَقَالَ أَلَمْ أُتِمَّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ قَالُوا بَلَى قَالَ أَمَا إِنِّي قَدْ دَعَوْتُ فِيهِمَا بِدُعَاءٍ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُو بِهِ اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَكَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا وَالْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى وَلَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَمِنْ فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مَهْدِيِّينَ . مسند أحمد

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ عَبْدٌ قَطُّ إِذَا أَصَابَهُ هَمٌّ وَحَزَنٌ اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ

عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجلَاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِه فَرَحًا قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ هَؤُلَاء الْكَلِمَات قَالَ أَجَلْ يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ . مسند أحمد

ولهذا فإن الواجب على كل مسلم أن يحذر من الدجاجلة والكذابين المدعين لعلم الغيب المفترين على الله ، الذين ضلوا في أنفسهم وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ، كالسحرة والكذابين والمنجمين ، وغيرهم .

وفيما يلي عرض لجملة من أعمال هؤلاء التي يدعون بها علم الغيب ، ويضلون بها عوام المسلمين وجهالهم ، ويفسدون بها عقيدتهم وإيمانهم .

١ – السحر : وهو في اللغة ما خفي ولطف سببه . وفي الاصطلاح هو عزائم ورقى وعقد يؤثّر في القلوب والأبدان ، فيمرض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجه بإذن الله ، وهو كفر ، والساحر كافر بالله العظيم ، وما له في الآخرة من خلاق ، قال الله تعالى : { وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْك سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلّمُونَ النَّاسَ السّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ببَابلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلّمَان منْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ منْهُمَا مَا يُفَرّقُونَ به بَيْنَ الْمَرْء وَزَوْجه وَمَا هُمْ بضَارّينَ به منْ أَحَدٍ إِلَّا بإذْن اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلمُوا لَمَن اشْتَرَاهُ مَا لَهُ في الْآخرَة منْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا به أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } (البقرة : ١٠٢) .

ومنه النفث في العقد ، قال الله تعالى : قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾ الفلق

٢ – التنجيم : وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية التي لم تقع ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من اقتبس علما من النجوم فقد اقتبس شعبة

من السحر زاد ما زاد » ، رواه أبو داود .

٣ – زجر الطير والخط في الأرض : فعن قطن بن قبيصة عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « العيافة والطيرة والطرق من الجبت » د حم ، أي من السحر ، والعيافة زجر الطير والتفاؤل والتشاؤم بأسمائها وأصواتها وممرها ، والطرق الخط يخط في الأرض ، أو الضرب بالحصى وادعاء علم الغيب .

٤ – الكهانة : وهي ادعاء علم الغيب ، والأصل فيها استراق الجن السمع من كلام الملائكة فتلقيه في أذن الكاهن .

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » رواه أبو داود وأحمد والحاكم .

٥ – كتابة حروف أبا جاد : وذلك بأن يجعل لكل حرف منها قدرا معلوما من العدد ويجري على ذلك أسماء الآدميين والأزمنة والأمكنة ، ثم يحكم عليها بالسعود أو النحوس ونحو ذلك ، قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوم يكتبون أبا جاد ، وينظرون في النجوم : (ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق) ، رواه عبد الرزاق في المصنف.

٦ – القراءة في الكف والفنجان ونحو ذلك مما يدعي به بعض هؤلاء معرفة الحوادث المستقبلة من موت وحياة وفقر وغنى وصحة ومرض ونحو ذلك .

٧ – تحضير الأرواح : ويزعم أربابه أنهم يستحضرون أرواح الموتى ويسألونها عن أخبار الموتى من نعيم وعذاب وغير ذلك ، وهو نوع من الدجل والشعوذة الشيطانية ، ويراد منها إفساد العقائد والأخلاق والتلبيس على الجهال وأكل أموالهم بالباطل والتوصل إلى دعوى علم الغيب

٨ – التطير : وهو التشاؤم بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرها ، وهذا باب من الشرك وهو من إلقاء الشيطان وتخويفه . فعن عمران بن حصين مرفوعا : « ليس منا من تطير أو تطير له ، أو تكهن أو تكهن له ، أو سحر أو سحر له ، ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ » ، رواه البزار. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد رجاله رجال الصحيح .

والله المسؤول أن يصلح أحوال المسلمين ، ويمنحهم الفقه في الدين ، ويعيذهم من خداع المجرمين وتلبيس أولياء الشياطين . المصدر أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة

(١٦) العيش الرغيد

مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ وَالْمَسْكَنُ الصَّالِحُ وَالْمَرْكَبُ الصَّالِحُ وَمِنْ شِقْوَةِ ابْنِ آدَمَ الْمَرْأَةُ السُّوءُ وَالْمَسْكَنُ السُّوءُ وَالْمَرْكَبُ السُّوءُ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ البقرة قد يكون الرغد في الدنيا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ البقرة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ النحل

عيش رغد ورغيد: طيب واسع، قال تعالى: {وكلا منها رغدا} [البقرة/ ٣٥]، {يأتيها رزقها رغدا من كل مكان} [النحل/ ١١٢]، وأرغد القوم: حصلوا في رغد من العيش، وأرغد ماشيته. فالأول من باب جدب وأجدب (أي: فعل وأفعل بمعنى واحد)، والثاني من باب دخل وأدخل غيره (أي: من باب دخل اللازم، وأدخل المتعدي)، والمرغاد من اللبن: المختلط الدال بكثرته على رغد العيش.

في تفسير الوسيط لسيد طنطاوي : ثم بين – سبحانه – أنه قد أباح لهما أن يأكلا من ثمار الجنة أكلا واسعا فقال : { وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا } أي كلا من مطاعم الجنة وثمارها أكلا هنيئاً أو واسعاً في أي مكان من الجنة أردتم . يقال : رغد عيش القوم أي : اتسع وطاب ، وأرغد القوم أي : اخصبوا وصاروا في رزق واسع . والضمير في قوله { مِنْهَا } يعود إلى الجنة ، والمراد بالأكل منها : الأكل من مطاعمها وثمارها ، لأن الجنة تستلزم ثماراً هي المقصودة بالأكل .

قوله : { يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ } بيان لسعة عيشها ، أي : يأتيها ما يحتاج إليه أهلها واسعا لينا سهلا من كل مكان من الأمكنة .

قال ابن كثير تفسيره : قال: فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلا كداً، قال: فأهبط من الجنة وكانا يأكلان منها رغداً، فأهبط إلى غير رغد من طعام وشراب، فعلم صنعة الحديد وأمر بالحرث فحرث وزرع ثم سقى حتى إذا بلغ حصد، ثم داسه ثم ذرّاه ثم طحنه ثم عجنه ثم خبزه ثم أكله، فلم يبلغه حتى بلغ منه ما شاء الله أن يبلغ.

وفي التحرير والتنوير : والرغد الهنيء الذي لا عناء فيه ولا تقتير ، وفي جعل الأكل من الثمر من أحوال آدم وزوجه حين إنشائها تنبيه على أن الله جعل الاقتيات جبلة للإنسان لا تدوم حياته إلا به. والأمن : السلامة من تسلّط العدو . والاطمئنان : الدّعة وهدوء البال، وقدم الأمن على الطمأنينة إذ لا تحصل الطمأنينة بدونه ، كما أن الخوف يسبّب الانزعاج والقلق .

وقوله : { يأتيها رزقها رغداً } تيسير الرزق فيها من أسباب راحة العيش ، وقد كانت مكّة كذلك ، والرزق : الأقوات . والرّغد : الوافر الهنيء .

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ ثَلَاثَةٌ وَمِنْ شِقْوَةِ ابْنِ آدَمَ ثَلَاثَةٌ مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ وَالْمَسْكَنُ الصَّالِحُ وَالْمَرْكَبُ الصَّالِحُ وَمِنْ شِقْوَةِ ابْنِ آدَمَ الْمَرْأَةُ السُّوءُ وَالْمَسْكَنُ السُّوءُ وَالْمَرْكَبُ السُّوءُ مسند أحمد

قال رسول الله ﷺ : (أربع من السعادة : المرأة الصالحة والمسكن الواسع والجار الصالح والمركب الهنيء وأربع من الشقاوة : الجار السوء والمرأة السوء والمسكن الضيق والمركب السوء) صحيح ابن حبان قال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط البخاري

عَنْ نَافِعِ بْنِ عَبْدِ الْحَارِثِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ الْجَارُ الصَّالِحُ وَالْمَرْكَبُ الْهَنِيءُ وَالْمَسْكَنُ الْوَاسِعُ مسند أحمد

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن من سعادة المرء أن يطول عمره و يرزقه الله الإنابة . المستدرك هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه

عَنِ الزُّبَيْرِ ﷺ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ قَالَ الزُّبَيْرُ أَيْ رَسُولَ اللَّهِ مَعَ خُصُومَتِنَا فِي الدُّنْيَا قَالَ نَعَمْ وَلَمَّا نَزَلَتْ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ قَالَ الزُّبَيْرُ أَيْ رَسُولَ اللَّهِ

أَيُّ نَعِيمٍ نُسْأَلُ عَنْهُ وَإِنَّمَا يَعْنِي هُمَا الْأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ قَالَ أَمَا إِنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ(حم)

عَن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةَ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ قَالَ النَّاسُ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَن أَيِّ النَّعِيمِ نُسْأَلُ فَإِنَّمَا هُمَا الْأَسْوَدَانِ وَالْعَدُوُّ حَاضِرٌ وَسُيُوفُنَا عَلَى عَوَاتِقِنَا قَالَ إِنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ

الترمذي

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- قَالَ « الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ ».

(١٧) التحريم

إنَّ الْحَلاَلَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ ، الْحَلاَلُ مَا أَحَلَّ اللهُ فِي كِتَابِهِ وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَ اللهُ فِي كِتَابِهِ وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ مِمَّا عَفَا عَنْهُ، الأصل في كل شيء الحل ولا يحرم إلا ما حرمه الله ورسوله وما سكتا عنه فهو عفو

وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ

الحرام: الممنوع منه إمّا بتسخير إلهي وإمّا بشريّ، وإما بمنع قهريّ، وإمّا بمنع من جهة العقل أو من جهة الشرع، أو من جهة من يرتسم أمره، فقوله تعالى: وَحَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ [القصص/ ١٢] ، فذلك تحريم بتسخير، وقد حمل على ذلك: وَحَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها [الأنبياء/ ٩٥] ، وقوله تعالى: فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً [المائدة/ ٢٦] وقيل: بل كان حراما عليهم من جهة القهر لا بالتسخير الإلهي، وقوله تعالى: إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ [المائدة/ ٧٢] ، فهذا من جهة القهر بالمنع، وكذلك قوله تعالى: إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ [الأعراف/ ٥٠] ، والْمُحرَّم بالشرع: كتحريم بيع الطعام بالطعام متفاضلا، وقوله ﷺ: وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسارى تُفادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْراجُهُمْ [البقرة/ ٨٥] ، فهذا كان محرّما عليهم بحكم شرعهم، ونحو قوله تعالى: قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ ... الآية [الأنعام/ ١٤٥] ، وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ [الأنعام/ ١٤٦] ، وسوط مُحَرَّم: لم يدبغ جلده، كأنه لم يحلّ بالدباغ الذي اقتضاه قول النبي ﷺ: «أيّما إهاب دبغ فقد طهر». وقيل: بل المحرّم الذي لم يليّن، والحَرَمُ: سمّي بذلك لتحريم الله تعالى فيه كثيرا مما ليس بمحرّم في غيره من المواضع. وكذلك الشهر الحرام، وقيل: رجل حَرَام وحلال، ومحلّ ومُحْرِم، قال الله تعالى: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ [التحريم/ ١] ، أي: لم تحكم بتحريم ذلك؟ وكلّ تحريم ليس من قبل الله تعالى فليس بشيء، نحو: وَأَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها [الأنعام/ ١٣٨] ، وقوله تعالى: بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ [الواقعة/ ٦٧] ، أي: ممنوعون من جهة الجدّ، وقوله: لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ [الذاريات/ ١٩] ، أي: الذي لم يوسّع عليه

الرزق كما وسّع على غيره. ومن قال: أراد به الكلب ، فلم يعن أنّ ذلك اسم الكلب كما ظنّه بعض من ردّ عليه، وإنما ذلك منه ضرب مثال بشيء، لأنّ الكلب كثيرا ما يحرمه الناس، أي: يمنعونه. والمَحْرَمَة والمَحْرُمَة والحُرْمَة، واستحرمت الماعز كناية عن إرادتها الفحل.

صيغ التحريم

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ البقرة ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ الأعراف ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾ البقرة ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ ﴾ آل عمران ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ آل عمران ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ ﴾ المائدة ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ الأنعام ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ الأعراف

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ النحل ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ يوسف ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى

ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ ﴿٥٣﴾ ﴾ الأحزاب ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿٣٤﴾ ﴾ الحاقة ﴿ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ﴿١٩﴾ ﴾ الكهف ﴿ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ المائدة ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ الفرقان ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ﴿٢٠﴾ ﴾ الفرقان ﴿ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ الإنسان ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٤﴾ ﴾ المائدة ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾ ﴾ المائدة ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ الأعراف ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ

وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ النحل ﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا

﴿٧٠﴾ ﴾ الإسراء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾ ﴾ المؤمنون ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ البقرة: ١٧٢ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾ البقرة: ٢٦٧ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ المائدة ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ ﴾ طه: ٨١ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٥﴾ ﴾ الأنعام

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهَّ – ﷺ – « أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَّ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا وَإِنَّ اللهَّ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) وَقَالَ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) ». ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِىَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ ». صحيح مسلم

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهَّ -ﷺ- قَالَ « لاَ يَتَصَدَّقُ أَحَدٌ بِتَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ إِلاَّ أَخَذَهَا اللهَّ بِيَمِينِهِ فَيُرَبِّيهَا كَمَا يُرَبِّى أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ قَلُوصَهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ أَوْ أَعْظَمَ ». صحيح مسلم

الفلو : المُهْر الصغير إذا فطم ، القلوص : الشابة من الإبل

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ سَمِعْتُهُ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهَّ -ﷺ- يَقُولُ وَأَهْوَى النُّعْمَانُ بِإِصْبَعَيْهِ إِلَى أُذُنَيْهِ « إِنَّ الْحَلاَلَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِى الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِى الْحَرَامِ كَالرَّاعِى يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى

يُوشكُ أَنْ يَرْتَعَ فيه أَلاَ وَإِنَّ لكُلّ مَلكٍ حِمًى أَلاَ وَإِنَّ حِمَى اللهِّ مَحَارِمُهُ أَلاَ وَإِنَّ فِى الجَسَد مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ أَلاَ وَهِىَ الْقَلْبُ ». صحيح مسلم

عَنْ عَبْد اللهِّ بْن مَسْعُودٍ قَالَ أَتَى عَلَيْنَا حِينٌ وَلَسْنَا نَقْضِي وَلَسْنَا هُنَالكَ وَإِنَّ اللهَّ ﷻ قَدَّرَ أَنْ بَلَغْنَا مَا تَرَوْنَ فَمَنْ عَرَضَ لَهُ قَضَاءٌ بَعْدَ الْيَوْمِ فَلْيَقْضِ فيه بِمَا فِي كتَاب اللهِّ فَإِنْ جَاءَ أَمْرٌ لَيْسَ فِي كتَاب اللهِّ فَلْيَقْضِ بِمَا قَضَى به نَبِيُّهُ فَإِنْ جَاءَ أَمْرٌ لَيْسَ فِي كتَاب اللهِّ وَلَمْ يَقْض به نَبِيُّهُ ﷺ فَلْيَقْض بِمَا قَضَى به الصَّالحُونَ وَلَا يَقُولُ أَحَدُكُمْ إِنِّي أَخَافُ وَإِنِّي أَخَافُ فَإِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ وَالْحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَ ذَلكَ أُمُورٌ مُشْتَبِهَةٌ فَدَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ (س)

عَنْ سَلْمَانَ الْفَارسيّ قَالَ سُئلَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ عَنْ السَّمْن وَالْجُبْن وَالْفِرَاء قَالَ الْحَلَالُ مَا أَحَلَّ اللهُّ فِي كتَابه وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَ اللهُّ فِي كتَابه وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ مِمَّا عَفَا عَنْهُ (جة)

والتحليل والتحريم من حقّ الله تعالى " فإن أقواما استحلوا بعض ما حرمه الله ، وأقواماً حرموا بعض ما احل الله تعالى ، وكذلك أقواماً أحدثوا عبادات لم يشرعها الله بل نهى عنها .

و" أصل الدين " أن الحلال ما أحله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله ، والدين ما شرعه الله ورسوله ، ليس لأحد أن يخرج عن الصراط المستقيم الذي بعث الله به رسوله ، قال الله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ الأنعام

وقد ذكر الله تعالى في سورة الأنعام والأعراف وغيرهما ما ذم الله به المشركين حيث حرموا ما لم يحرمه الله تعالى ، كالبحيرة والسائبة ، واستحلوا ما حرمه الله كقتل أولادهم ، وشرعوا ديناً لم يأذن به الله ، فقال تعالى : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ ﴿٢١﴾﴾ الشورى: ٢١ ومنه أشياء هي محرمة جعلوها عبادات كالشرك والفواحش ، مثل الطواف بالبيت عراة وغير ذلك.

وفي الروضة الندية جاء : الأصل في كل شئ الحل ولا يحرم إلا ما حرمه الله ورسوله وما سكتا

عنه فهو عفو لمثل قوله تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ ﴿١٤٥﴾ ﴾ الأنعام الآية فإن النكرة في سياق النفي تدل على العموم ولمثل حديث سلمان الفارسي قال : [سئل رسول الله ﷺ عن السمن والجبن والفراء فقال : الحلال ما أحل الله في كتابه والحرام ما حرمه الله في كتابه وما سكت عنه فهو مما عفا لكم] أخرجه ابن ماجه والترمذي وفي إسناد ابن ماجه سيف بن هرون البرجمي وهو ضعيف وفي الصحيحين من حديث سعد بن أبي وقاص [أن رسول الله ﷺ قال : إن أعظم المسلمين في المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم على الناس فحرم من أجل مسألته] وفيهما من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [ذروني ماتركتكم فإنما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شئ فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم] وأخرج البزار وقال : سنده صالح والحاكم وصححه من حديث أبي الدرداء ورفعه بلفظ [ما أحل الله في كتابه فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو عفو فاقبلوا من الله عافيته فإن الله لم يكن لينسى وتلا ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾ مريم وأخرج الدارقطني من حديث أبي ثعلبة رفعه [أن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها] وفي الكتاب والسنة مما يتقرر به هذا الأصل الكثير الطيب فيتوجه الاقتصار في رفع الحل على ما ورد فيه دليل يخصه

وبالجملة : فتحل الطيبات وتحرم الخبائث لقوله تعالى ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ الأعراف والطيبات ما تستطيبه العرب وتستلذه من غير أن ورد بتحريمه نص من كتاب أو سنة ، الخبائث أي: ما لا يوافق النّفس من المحظورات.

وفي زاد المسير قال : وفي الطيبات أربعة أقوال : أحدها أنها الحلال والمعنى يحل لهم الحلال *والثاني* أنها ما كانت العرب تستطيبه *والثالث* أنها الشحوم المحرمة على بني إسرائيل *والرابع* ما كانت العرب تحرمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وفي الخبائث ثلاثة أقوال : أحدها

أنها الحرام والمعنى ويحرم عليهم الحرام *والثاني* أنها ما كانت العرب تستخبثه ولا تأكله كالحيات والحشرات والثالث ما كانوا يستحلونه من الميتة والدم ولحم الخنزير

(١٨) الظلم

قال بعض الحكماء: الظلم ثلاثة: الأول: ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه: الكفر والشرك والنفاق ، والثاني: ظلم بينه وبين الناس ، والثالث: ظلم بينه وبين نفسه . فإن الجهل والظلم أصل الشر .

قال الراغب في مفردات ألفاظ القرآن : والظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء: وضع الشيء في غير موضعه المختص به؛ إما بنقصان أو بزيادة؛ وإما بعدول عن وقته أو مكانه .. وظلمت الأرض: حفرتها ولم تكن موضعا للحفر، وتلك الأرض يقال لها: المظلومة، والتراب الذي يخرج منها: ظليم..، ويقال فيما يكثر وفيما يقل من التجاوز، ولهذا يستعمل في الذنب الكبير، وفي الذنب الصغير، ولذلك قيل لآدم في تعديه ظالم وذلك في قوله تعالى: { ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين} سورة البقرة: آية ٣٥. وقوله: {ربنا ظلمنا أنفسنا} [الأعراف/ ٢٣] ،لا يقال ذلك إلا مع الآية دون الإطلاق ، وفي إبليس ظالم، وإن كان بين الظلمين بون بعيد. قال بعض الحكماء: الظلم ثلاثة:

الأول: ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه: الكفر والشرك والنفاق، ولذلك قال: { إن الشرك لظلم عظيم} [لقمان/ ١٣]، وإياه قصد بقوله: {ألا لعنة الله على الظالمين} [هود/ ١٨]، {والظالمين أعد لهم عذابا أليما} [الإنسان / ٣١]، في آي كثيرة

والثاني: ظلم بينه وبين الناس، وإياه قصد بقوله: {وجزاء سيئة سيئة} إلى قوله: {إنه لا يحب الظالمين} (الآية: {وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين} الشورى: ٤٠)، وبقوله: {إنما السبيل على الذين يظلمون الناس} [الشورى/ ٤٢]، وبقوله: {ومن قتل مظلوما} [الإسراء/ ٣٣].

والثالث: ظلم بينه وبين نفسه، وإياه قصد بقوله: {فمنهم ظالم لنفسه} [فاطر / ٣٢]، وقوله: {ظلمت نفسي} [النمل/ ٤٤]، {إذ ظلموا أنفسهم} [النساء/ ٦٤]، {فتكونا من الظالمين} [البقرة/ ٣٥]، أي: من الظالمين أنفسهم .

{ وكل هذه الثلاثة في الحقيقة ظلم للنفس؛ فإن الإنسان في أول ما يهم بالظلم فقد ظلم نفسه، فإذا الظالم أبدا مبتدئ في الظلم، ولهذا قال تعالى في غير موضع: {وما ظلمهم الله ولكن كانوا يظلمون} [النحل/ ٣٣]، {وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون} [البقرة/ ٥٧]، وقوله: {ولم يلبسوا إيمانهم بظلم} [الأنعام/ ٨٢]، فقد قيل: هو الشرك، بدلالة أنه لما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب النبي عليه السلام، وقال لهم: (ألم تروا إلى قوله: {إن الشرك لظلم عظيم}) سورة لقمان: آية ١٣.

أخرج أحمد والبخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية: {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم} شق ذلك على الناس، فقالوا: يا رسول الله، وأينا لا يظلم نفسه؟! قال: (إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: {إن الشرك لظلم عظيم} إنما هو الشرك).

وقوله: {ولم تظلم منه شيئا} [الكهف/ ٣٣]، أي: لم تنقص، وقوله: {ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعا} [الزمر/ ٤٧]، فإنه يتناول الأنواع الثلاثة من الظلم، فما أحد كان منه ظلم ما في الدنيا إلا ولو حصل له ما في الأرض ومثله معه لكان يفتدي به، وقوله: {هم أظلم وأطغى} [النجم/ ٥٢]، تنبيها أن الظلم لا يغني ولا يجدي ولا يخلص بل يردي بدلالة قوم نوح. وقوله: {وما الله يريد ظلما للعباد} [غافر/ ٣١]، وفي موضع: {وما أنا بظلام للعبيد} [ق/ ٢٩]، وتخصيص أحدهما بالإرادة مع لفظ العباد، والآخر بلفظ الظلام للعبيد يختص بما بعد هذا الكتاب

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ فاطر: ٣٢ ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ ﴾ الأنبياء: ١١

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ هود ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ المؤمنون ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا

رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ القصص: ٥٩ ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الأعراف: ٢٣ ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ ﴾ النساء ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾ غافر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًاۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ النساء: ١٠ ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ يونس: ٥٤ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾ القصص: ١٦ ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الأعراف: ٢٣ ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ النحل ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ الزخرف: ٧٦ ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ المائدة ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾ الشورى: ٤١ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ ﴾ الرعد: ٦ ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾ الأعراف: ١٦٥ ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةًۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ الأنفال: ٢٥ ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ هود ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ الصافات: ٢٢ ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ الزمر: ٤٧ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ

ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ آل عمران: ١٣٥ ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ الروم: ٢٩ ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ ﴾ النساء: ٦٤ ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾ ﴾ الأحزاب: ٧٢ ﴿ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾ ﴾ الكهف: ٣٣ ﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ الأنبياء

عَنْ أَنَسٍ قَالَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللهِّ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ قَالَ تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ خ

عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِّ -ﷺ- قَالَ « مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللهُّ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ ». صحيح مسلم

عَنْ أَبِى ذَرٍّ عَنِ النَّبِىِّ -ﷺ- فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ « يَا عِبَادِى إِنِّى حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِى وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا . صحيح مسلم

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِّ -ﷺ- قَالَ « اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ ». م

وَقَالَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ إِنَّ مِنْ الظُّلْمِ مَطْلَ الْغَنِيِّ وَإِذَا أُتْبِعَ أَحَدُكُمْ عَلَى مَلِيءٍ فَلْيَتْبَعْ .مسند أحمد

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِّ -ﷺ- « لاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَنَاجَشُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ اللهِّ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ وَلاَ يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَا هُنَا ». وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ « بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ ». صحيح مسلم

عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبيه أَنَّ رَسُولَ اللهَّ -ﷺ- قَالَ « الْمُسْلمُ أَخُو الْمُسْلم لاَ يَظْلمُهُ وَلاَ يُسْلمُهُ مَنْ كَانَ فى حَاجَة أَخيه كَانَ اللهَّ فى حَاجَته وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهَّ عَنْهُ بهَا كُرْبَةً منْ كُرَب يَوْم الْقيَامَة وَمَنْ سَتَرَ مُسْلمًا سَتَرَهُ اللهَّ يَوْمَ الْقيَامَة ». صحيح مسلم

أَنَّ صَفْوَانَ بْنَ سُلَيْمٍ أَخْبَرَهُ عَنْ عدَّةٍ منْ أَبْنَاء أَصْحَاب رَسُول اللهَّ -ﷺ- عَنْ آبَائهمْ دنْيَةً عَنْ رَسُول اللهَّ -ﷺ- قَالَ « أَلاَ مَنْ ظَلَمَ مُعَاهدًا أَو انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَته أَوْ أَخَذَ منْهُ شَيْئًا بغَيْر طيب نَفْسٍ فَأَنَا حَجيجُهُ يَوْمَ الْقيَامَة ». سنن أبى داود

عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلًا شَتَمَ أَبَا بَكْرٍ وَالنَّبيُّ ﷺ جَالسٌ فَجَعَلَ النَّبيُّ صَلَّى اللهَّ عَلَيْه وَسَلَّمَ يَعْجَبُ وَيَتَبَسَّمُ فَلَمَّا أَكْثَرَ رَدَّ عَلَيْه بَعْضَ قَوْله فَغَضبَ النَّبيُّ ﷺ وَقَامَ فَلَحقَهُ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهَّ كَانَ يَشْتُمُني وَأَنْتَ جَالسٌ فَلَمَّا رَدَدْتُ عَلَيْه بَعْضَ قَوْله غَضبْتَ وَقُمْتَ قَالَ إنَّهُ كَانَ مَعَكَ مَلَكٌ يَرُدُّ عَنْكَ فَلَمَّا رَدَدْتَ عَلَيْه بَعْضَ قَوْله وَقَعَ الشَّيْطَانُ فَلَمْ أَكُنْ لأَقْعُدَ مَعَ الشَّيْطَان ثُمَّ قَالَ يَا أَبَا بَكْرٍ ثَلَاثٌ كُلُّهُنَّ حَقٌّ مَا منْ عَبْدٍ ظُلمَ بمَظْلَمَةٍ فَيُغْضي عَنْهَا للهَّ عَزَّ وَجَلَّ إلَّا أَعَزَّ اللهَّ بهَا نَصْرَهُ وَمَا فَتَحَ رَجُلٌ بَابَ عَطيَّةٍ يُريدُ بهَا صلَةً إلَّا زَادَهُ اللهَّ بهَا كَثْرَةً وَمَا فَتَحَ رَجُلٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ يُريدُ بهَا كَثْرَةً إلَّا زَادَهُ اللهَّ ﷻ بهَا قلَّةً مسند أحمد

عَنْ أَبى هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبىَّ -ﷺ- قَالَ « ثَلاَثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لاَ شَكَّ فيهنَّ دَعْوَةُ الْوَالد وَدَعْوَةُ الْمُسَافر وَدَعْوَةُ الْمَظْلُوم ». سنن أبى داود

عَن ابْن عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهَّ -ﷺ- بَعَثَ مُعَاذًا إلَى الْيَمَن فَقَالَ « إنَّكَ تَأْتى قَوْمًا أَهْلَ كتَابٍ فَادْعُهُمْ إلَى شَهَادَة أَنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهَّ وَأَنِّى رَسُولُ اللهَّ فَإنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لذَلكَ فَأَعْلمْهُمْ أَنَّ اللهَّ افْتَرَضَ عَلَيْهمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فى كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَإنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لذَلكَ فَأَعْلمْهُمْ أَنَّ اللهَّ افْتَرَضَ عَلَيْهمْ صَدَقَةً فى أَمْوَالهمْ تُؤْخَذُ منْ أَغْنيَائهمْ وَتُرَدُّ فى فُقَرَائهمْ فَإنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لذَلكَ فَإيَّاكَ وَكَرَائمَ أَمْوَالهمْ وَاتَّق دَعْوَةَ الْمَظْلُوم فَإنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهَّ حجَابٌ ». الكرائم : جمع كريمة وهى خيار المال وأفضله . ق سنن أبى داود

قَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازبٍ رَضيَ اللهَّ عَنْهُمَا أَمَرَنَا النَّبيُّ ﷺ بسَبْعٍ وَنَهَانَا عَنْ سَبْعٍ أَمَرَنَا بعيَادَة الْمَريض

وَاتِّبَاع الْجِنَازَة وَتَشْميت الْعَاطس وَإِبْرَار الْقَسَم وَنَصْر الْمَظْلُوم وَإِفْشَاء السَّلَام وَإِجَابَة الدَّاعي وَنَهَانَا عَنْ خَوَاتيم الذَّهَب وَعَنْ آنيَة الْفضَّة وَعَنْ الْمَيَاثر وَالْقَسِّيَّة وَالْإِسْتَبْرَق وَالدِّيبَاج تَابَعَهُ أَبُو عَوَانَةَ وَالشَّيْبَانِيُّ عَنْ أَشْعَثَ فِي إِفْشَاء السَّلَام صحيح البخاري

عَنْ عَبْد اللَّهِ بْن سَرْجسَ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- إذَا سَافَرَ يَتَعَوَّذُ منْ وَعْثَاء السَّفَر وَكَآبَة الْمُنْقَلَب وَالْحَوْر بَعْدَ الْكَوْر وَدَعْوَة الْمَظْلُوم وَسُوء الْمَنْظَر فى الأَهْل وَالْمَال. مسلم

الحور : النقصان ، الكور : الزيادة ، الوعثاء : الشدة والمشقة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ مَنْ كَانَتْ عنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لأَخيه فَلْيَتَحَلَّلْهُ منْهَا فَإِنَّهُ لَيْسَ ثَمَّ دينَارٌ وَلَا درْهَمٌ منْ قَبْل أَنْ يُؤْخَذَ لأَخيه منْ حَسَنَاته فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخذَ منْ سَيِّئَات أَخيه فَطُرحَتْ عَلَيْه صحيح البخاري

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبيّ ﷺ قَالَ مَنْ كَانَتْ عنْدَهُ مَظْلَمَةٌ منْ أَخيه منْ عرْضه أَوْ مَاله فَلْيَتَحَلَّلْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ حينَ لَا يَكُونُ دينَارٌ وَلَا درْهَمٌ وَإِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالحٌ أُخذَ منْهُ بقَدْر مَظْلَمَته وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أُخذَ منْ سَيِّئَات صَاحبه فَجُعلَتْ عَلَيْه قَالَ وَقَالَ ببَغْدَادَ قَبْلَ أَنْ يَأْتيَ يَوْمٌ لَيْسَ هُنَاكَ دينَارٌ وَلَا درْهَمٌ مسند أحمد

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبيّ ﷺ مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ منْ مَالٍ وَلَا عَفَا رَجُلٌ عَنْ مَظْلَمَةٍ إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عزًّا وَلَا تَوَاضَعَ. مسند أحمد

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ آل عمران

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ الأحزاب: ٧٢

قال ابن القيم في مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: فَإِنَّ حَقيقَةَ التَّوْبَة الرُّجُوعُ إِلَى اللَّهِ بالْتزَام فَعْل مَا يُحبُّ، وَتَرْك مَا يَكْرَهُ، فَهيَ رُجُوعٌ منْ مَكْرُوهٍ إِلَى مَحْبُوبٍ، فَالرُّجُوعُ إِلَى الْمَحْبُوب جُزْءُ مُسَمَّاهَا، وَالرُّجُوعُ عَن الْمَكْرُوه الْجُزْءُ الْآخَرُ، وَلهَذَا عَلَّقَ سُبْحَانَهُ الْفَلَاحَ الْمُطْلَقَ

عَلَى فعْل الْمَأْمُور وَتَرْك الْمَحْظُور بهَا، فَقَالَ {وَتُوبُوا إِلَى اللهَّ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلحُونَ} [النور: ٣١] فَكُلُّ تَائبٍ مُفْلحٌ، وَلَا يَكُونُ مُفْلحًا إِلَّا مَنْ فَعَلَ مَا أُمرَ به وَتَرَكَ مَا نُهيَ عَنْهُ، وَقَالَ تَعَالَى {وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئكَ هُمُ الظَّالمُونَ} [الحجرات: ١١] وَتَارِكُ الْمَأْمُور ظَالمٌ كَمَا أَنَّ فَاعلَ الْمَحْظُور ظَالمٌ وَزَوَالُ اسْم الظُّلْم عَنْهُ إِنَّمَا يَكُونُ بالتَّوْبَة الْجَامعَة للْأَمْرَيْن، فَالنَّاسُ قسْمَان: تَائبٌ وَظَالمٌ لَيْسَ إِلَّا، فَالتَّائبُونَ هُمُ {الْعَابدُونَ الْحَامدُونَ السَّائحُونَ الرَّاكعُونَ السَّاجدُونَ الْآمرُونَ بالْمَعْرُوف وَالنَّاهُونَ عَن الْمُنْكَر وَالْحَافظُونَ لحُدُود اللهَّ} [التوبة: ١١٢] فَحفْظُ حُدُود اللهَّ جُزْءُ التَّوْبَة، وَالتَّوْبَةُ هيَ مَجْمُوعُ هَذه الْأُمُور، وَإِنَّمَا سُمّيَ تَائبًا لرُجُوعه إِلَى أَمْر اللهَّ منْ نَهْيه، وَإِلَى طَاعَته منْ مَعْصيَته

قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْريُّ: الْكَبَائرُ مَا كَانَ فيه منَ الْمَظَالم بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْعبَاد، وَالصَّغَائرُ مَا كَانَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهَّ، لأَنَّ اللهَّ كَريمٌ يَعْفُو، وَاحْتَجَّ بحَديث يَزيدَ بْن هَارُونَ عَنْ حُمَيْدٍ الطَّويل عَنْ أَنَس بْن مَالكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ «يُنَادي مُنَادٍ منْ قبَل بُطْنَان الْعَرْش يَوْمَ الْقيَامَة يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، إِنَّ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ عَفَا عَنْكُمْ جَميعكُمْ، الْمُؤْمنينَ وَالْمُؤْمنَات، فَتَوَاهَبُوا الْمَظَالمَ بَيْنَكُمْ، وَادْخُلُوا الْجَنَّةَ برَحْمَتي» قُلْتُ[ابن القيم]: مُرَادُ سُفْيَانَ: أَنَّ الذُّنُوبَ الَّتي بَيْنَ الْعَبْد وَبَيْنَ اللهَّ أَسْهَلُ أَمْرًا منْ مَظَالم الْعبَاد، فَإِنَّهَا تَزُولُ بالاسْتغْفَار، وَالْعَفْو وَالشَّفَاعَة وَغَيْرهَا، وَأَمَّا مَظَالمُ الْعبَاد فَلَا بُدَّ من اسْتيفَائهَا، وَفي الْمُعْجَم لَلطَّبَرَانيّ: الظُّلْمُ عنْدَ اللهَّ يَوْمَ الْقيَامَة ثَلَاثَةُ دَوَاوينَ: ديوَانٌ لَا يَغْفرُ اللهُّ منْهُ شَيْئًا، وَهُوَ الشّرْكُ باللهَّ، ثُمَّ قَرَأَ {إِنَّ اللهَّ لَا يَغْفرُ أَنْ يُشْرَكَ به} [النساء: ٤٨] وَديوَانٌ لَا يَتْرُكُ اللهُّ منْهُ شَيْئًا، وَهُوَ مَظَالمُ الْعبَاد بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَديوَانٌ لَا يَعْبَأُ اللهُّ به شَيْئًا، وَهُوَ ظُلْمُ الْعَبْد نَفْسَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهَّ. وَاحْتَجُّوا أَيْضًا بالْحَديث الَّذي رُويَ مَرْفُوعًا وَمَوْقُوفًا «الظُّلْمُ ثَلَاثُ دَوَاوينَ، ديوَانٌ لَا يَغْفرُ اللهُّ منْهُ شَيْئًا، وَهُوَ الشّرْكُ، وَديوَانٌ لَا يَتْرُكُ اللهُّ منْهُ شَيْئًا، وَهُوَ ظُلْمُ الْعبَاد بَعْضهمْ بَعْضًا، وَديوَانٌ لَا يَعْبَأُ به اللهُّ شَيْئًا، وَهُوَ ظُلْمُ الْعَبْد نَفْسَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبّه» .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الاستقامة : وَلهَذَا كَانَت الذُّنُوب ثَلَاثَة أَقسَام :

احدها مَا فيه ظلم للنَّاس كالظلم بأخذ الْأَمْوَال وَمنع الْحُقُوق والحسد وَنَحْو ذَلك

وَالثَّانِي مَا فيه ظلم للنَّفس فَقَط كشرب الْخمر وَالزِّنَا اذا لم يَتَعَدَّ ضررهما

وَالثَّالِث مَا يجْتَمع فيه الْأَمْرَان مثل ان يَأْخُذ المتولى أَمْوَال النَّاس يزنى بهَا وَيشْرب بهَا الْخمر وَمثل ان يَزْنِي بمن يرفعهُ على النَّاس بذلك السَّبَب ويضرهم كَمَا يَقع مِمَّن يحب بعض النّسَاء وَالصبيان وَقد قَالَ الله تَعَالَى{ قل انما حرم رَبِّي الْفَوَاحِش مَا ظهر منْهَا وَمَا بطن والاثم وَالْبَغي بِغَيْر الْحق وان تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لم ينزل به سُلْطَانا وان تَقولُوا على الله مَالا تعلمُونَ } سُورَة الاعراف ٣٣

وأمور النَّاس أنها تستقيم فِي الدُّنْيَا مَعَ الْعدْل الَّذِي قد يكون فيه الاشْترَاك فِي بعض أنواع الْإِثْم اكثر مِمَّا تستقيم مَعَ الظُّلم فِي الْحُقُوق وان لم يشْتَرك فِي إثم وَلِهَذَا قيل : *إن الله يُقيم الدولة العادلة وإن كَانَت كَافِرَة ، وَلَا يُقيم الظالمة وإن كَانَت مسلمة ، وَيُقَال الدُّنْيَا تدوم مَعَ الْعدْل وَالْكفْر ، وَلَا تدوم مَعَ الظُّلم والإسلام*

وَقد قَالَ النَّبِي ﷺ لَيْسَ ذَنْب اسرع عُقُوبَة من الْبَغي وَقَطِيعَة الرَّحِم فالباغي يصرع فِي الدُّنْيَا وان كَانَ مغفورا لَهُ مرحوما فِي الآخرة، وَذَلِكَ أن الْعدْل نظام كل شَيْء فَإِذا أقيم امْر الدُّنْيَا بِالْعَدْلِ قَامَت وَإِن لم يكن لصَاحبهَا فِي الأخرة من خلاق ، وَمَتى لم تقم بِالْعَدْلِ لم تقم وإن كَانَ لصَاحبهَا من الإيمان مَا يجْزِي به فِي الآخرة فَالنَّفْس فيهَا دَاعِي الظُّلم لغَيْرهَا بالعلو عَلَيْهِ الْحَسَد لَهُ والتعدي عَلَيْهِ فِي حَقه وفيهَا دَاعِي الظُّلم لنَفسهَا بتناول الشَّهَوَات القبيحة كَالزِّنَا وَأكل الْخَبَائِث فَهِيَ قد تظلم من لَا يظلمها وتؤثر هَذِه الشَّهَوَات وان لم يَفْعَلهَا غَيرهَا فَإِذا رَأَتْ نظراءها قد ظلمُوا اَوْ تناولوا هَذِه الشَّهَوَات صَار دَاعِي هَذِه الشَّهَوَات اَوْ الظُّلم فِيهَا اعظم بِكَثِير وَقد تصبر ويهيج ذَلِك لَهَا من بغض ذَلِك الْغَيْر وحسده وَطلب عِقَابه وَزَوَال الْخَيْر عَنهُ مَا لم يكن فِيهَا قبل ذَلِك وَلها حجَّة عِنْد نَفسهَا من جِهَة الْعقل وَالدّين بِكَوْن ذَلِك الْغَيْر قد ظلم نَفسه وَالْمُسْلِمين وان امْرَهُ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيه عَن الْمُنكر وَاجِب وَالْجهَاد على ذَلِك من الدّين

وقال في المستدرك على مجموع الفتاوى : عامة الفتن التي وقعت من أعظم أسبابها قلة الصبر؛ إذ الفتنة لها سببان: إما ضعف العلم، وإما ضعف الصبر، فإن الجهل والظلم أصل الشر، وفاعل الشر إنما يفعله لجهله بأنه شر، وتكون نفسه تريده فبالعلم يزول الجهل، وبالصبر يحبس الهوى

والشهوة فتزول تلك الفتنة، وأما السيئات، فمنشؤها الجهل والظلم، فإن أحداً لا يفعل سيئة قبيحة إلا لعدم علمه بكونها سيئة قبيحة، أو لهواه وميل نفسه إليها.

ولا يترك حسنة واجبة إلا لعدم علمه بوجوبها، أو لبغض نفسه لها.

(١٩) مستقر ومتاع

والإقرار بالتّوحيد وما يجري مجراه لا يغنى باللّسان ما لم يضامّه الإقرار بالقلب، ويضادّ الإقرار الإنكار، وأمّا الجحود فإنها يقال فيما ينكر باللّسان دون القلب

﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦ ﴾ البقرة ﴿ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٢٤ ﴾ الأعراف ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤ ﴾ آل عمران ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥ ﴾ آل عمران ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ٢٦ ﴾ الرعد ﴿ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧ ﴾ النحل ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩ ﴾ غافر ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠ ﴾ الحديد

قَرَّ في مكانه يَقِرُّ قَرَاراً، إذا ثبت ثبوتا جامدا، وأصله من القُرّ، وهو البرد، وهو يقتضي السّكون، والحرّ يقتضي الحركة ، وقرئ: وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ [الأحزاب/ ٣٣]: أصله اقْرِرْنَ فحذف إحدى الرّاءين تخفيفا نحو: فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ [الواقعة/ ٦٥] ، أي: ظللتم. قال تعالى: جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً [غافر/ ٦٤] ، أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً [النمل/ ٦١] ، أي: مستقرّا، وقال في

صفة الجنّة: ذات قَرارٍ وَمَعِينٍ وفي صفة النّار قال:فَبِئْسَ الْقَرارُ [ص/ ٦٠] ، وقوله: اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ [إبراهيم/ ٢٦] ، أي: ثبات، .. ويوم الْقَرِّ: بعد يوم النّحر لاستقرار الناس فيه بمنى، واسْتَقَرَّ فلان: إذا تحرّى الْقَرَارَ، وقد يستعمل في معنى قرّ، كاستجاب وأجاب. قال في الجنّة: خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا [الفرقان/ ٢٤] ، وفي النار: ساءَتْ مُسْتَقَرًّا [الفرقان/ ٦٦] ، وقوله: فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ [الأنعام/ ٩٨] ، قال ابن مسعود: مُسْتَقَرٌّ في الأرض ومستودع في القبور . وقال ابن عبّاس: مستقرّ في الأرض ومستودع في الأصلاب. وقال الحسن: مستقرّ في الآخرة ومستودع في الدّنيا. وجملة الأمر أنّ كلّ حال ينقل عنها الإنسان فليس بالمستقرّ التّامّ. والإِقْرَارُ: إثبات الشيء، قال: وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ [الحج/ ٥] ، وقد يكون ذلك إثباتا، إمّا بالقلب، وإمّا باللّسان، وإمّا بهما، والإقرار بالتّوحيد وما يجري مجراه لا يغنى باللّسان ما لم يضامّه الإقرار بالقلب، ويضادّ الإقرار الإنكار، وأمّا الجحود فإنما يقال فيما ينكر باللّسان دون القلب

الْمُتُوعُ: الامتداد والارتفاع. يقال: مَتَعَ النهار ومَتَعَ النّبات: إذا ارتفع في أول النّبات، والْمَتَاعُ: انتفاعٌ ممتدُّ الوقت، يقال: مَتَّعَهُ اللهُ بكذا، وأَمْتَعَهُ، وتَمَتَّعَ به. قال تعالى: وَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ [يونس/ ٩٨] ، نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا [لقمان/ ٢٤] ، فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا [البقرة/ ١٢٦] ، سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ [هود/ ٤٨] .

وكلّ موضع ذكر فيه «تمتّعوا» في الدّنيا فعلى طريق التّهديد، وذلك لما فيه من معنى التّوسّع، واسْتَمْتَعَ: طلب التّمتّع. رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ [الأنعام/ ١٢٨] ، فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ [التوبة/ ٦٩] ، فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ [التوبة/ ٦٩] وقوله: وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ [البقرة/ ٣٦] تنبيها أنّ لكلّ إنسان في الدّنيا تَمَتُّعاً مدّة معلومة. وقوله: قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ [النساء/ ٧٧] تنبيها أن ذلك في جنب الآخرة غير معتدّ به، وعلى ذلك: فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ [التوبة/ ٣٨] أي: في جنب الآخرة، وقال تعالى: وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ [الرعد/ ٢٦] ويقال لما ينتفع به في

البيت: متاع. قال: ابْتغاءَ حلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مثْلُهُ [الرعد/ ١٧] . وكلّ ما ينتفع به على وجه ما فهو مَتَاعٌ ومُتْعَةٌ، وعلى هذا قوله: وَلَمَّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ [يوسف/ ٦٥] أي: طعامهم، فسمّاه مَتَاعاً، وقيل: وعاءهم، وكلاهما متاع، وهما متلازمان، فإنّ الطّعام كان في الوعاء. وقوله تعالى: وَللْمُطَلَّقات مَتاعٌ بالْمَعْرُوف [البقرة/ ٢٤١] فَالْمَتَاعُ والْمُتْعَةُ: ما يعطى المطلّقة لتنتفع به مدّة عدّتها. يقال: أَمْتَعْتُهَا ومَتَّعْتُهَا، والقرآن ورد بالثاني. نحو: فَمَتّعُوهُنَّ وَسَرّحُوهُنَ [الأحزاب/ ٤٩] ، وقال: وَمَتّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسع قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتر قَدَرُهُ [البقرة/ ٢٣٦] . ومُتْعَةُ النّكاح هي: أنّ الرجل كان يشارط المرأة بمال معلوم يعطيها إلى أجل معلوم، فإذا انقضى الأجل فارقها من غير طلاق، ومُتْعَةُ الحَجّ: ضمّ العمرة إليه. قال تعالى: فَمَنْ تَمَتَّعَ بالْعُمْرَة إلَى الْحَجّ فَمَا اسْتَيْسَرَ منَ الْهَدْي [البقرة/ ١٩٦] وشراب مَاتِعٌ. قيل: أحمر، وإنما هو الذي يمتع بجودته، وليست الحمرة بخاصّيّة للماتع وإن كانت أحد أوصاف جودته، وجمل مَاتِعٌ: قويّ .

قال ابن الجوزي في زاد المسير في علم التفسير: وفي المستقر قولان: أحدهما: أن المراد به القبور، حكاه السدي عن ابن عباس. والثاني: موضع الاستقرار، قاله أبو العالية، وابن زيد، والزجاج، وابن قتيبة، وهو أصح. والمتاع: المنفعة.

والحين: الزمان. قال ابن عباس: إلى حينٍ، أي: إلى فناء الأجل بالموت.

وقال مؤلف التحرير والتنوير : وقوله : { ولكم في الأرض مستقر } ضميره راجع إلى ما رجع إليه ضمير { اهبطوا } على التقادير كلها . والحين الوقت والمراد به وقت انقراض النوع الإنساني والشيطاني بانقراض العالم ، ويحتمل أن يكون المراد من ضمير { لكم } التوزيعَ أي ولكل واحد منكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين وإنما كان ذلك متاعاً لأن الحياة أمر مرغوب لسائر البشر على أن الحياة لا تخلو من لذات وتمتع بما وَهَبَنا الله من الملائمات . هذا إن أريد بالخبر المجموع أي لجميعكم وإن أريد به التوزيع فالحين هو وقت موت كل فرد على حدّ قولك للجيش : هذه الأفْراس لكم أي لكل واحد منكم فرس .

وفي الوسيط لسيد طنطاوي : المستقر : موضع الاستقرار والثبات ، وهو مقابل القلق

والاضطراب ، والمتاع : اسم لما يستمتع به من مأكل ومشرب وملبس وحياة وأنس وغير ذلك مأخوذ من متع النهار متوعاً إذا ارتفع ، ويطلق على الانتفاع الممتد الوقت .

والحين : الجزء من الزمان غير محدد بحد ، والمراد به هنا وقت الموت أو يوم القيامة .

والمعنى : انزلوا إلى الأرض بعضكم لبعض عدو؛ ولكم فيها منزل وموضع استقرار . وتمتع بالعيش إلى أن يأتيكم الموت .

ومن كان على ذكر دائم من أن استقراره في الأرض وتمتعه بنعيمها سينتهي في وقت ، لا يدري متى يدركه ، فشأنه أن ينتفع بخيراتها ويتمتع بطيب العيش فيها ، وهو مقبل على العمل لمرضاة الله ما استطاع ، وشاكر لأنعمه بالقلب واللسان ، لا يشغله عن الشكر شاغل من ملذات هذه الحياة ومظاهر زينتها .

وفي تفسير ابن كثير : أي قرار وأرزاق وآجال – إلى حين – أي إلى وقت ومقدار معين ثم تقوم القيامة.

(٢٠) اتباع الهدى

وهداية الله تعالى للإنسان على أربعة أوجه ومراتب : الأوّل: الهداية التي عمّ بجنسها كلّ مكلّف من العقل والفطنة الهداية العامة. المرتبة الثانية من مراتب الهداية هداية الإرشاد والبيان ، الهداية التي جعل للناس بدعائه إيّاهم على ألسنة الأنبياء ، والإنسان لا يقدر أن يهدي أحدا إلّا بالدّعاء وتعريف الطّرق .الثالث: التّوفيق الذي يختصّ به من اهتدى .الرّابع: الهداية في الآخرة إلى الجنة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ البقرة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ طه قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ ﴾ آل عمران قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ المائدة ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ الأنعام: ١٠٦ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ ﴾ طه: ٤٧ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ القصص: ٥٠ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ الروم: ٢٩

لتفهم كلمة الهداية في القرآن والسنة ، ومعنى كل هدى تأمل في هذا البحث: قال الراغب "المفردات في غريب القرآن ": هدى : الهداية دلالة بلطف، ومنه: الهديّة، وهوادي الوحش.

أي: متقدّماتها الهادية لغيرها، وخصّ ما كان دلالة بهديت، وما كان إعطاء بأهديت.

نحو: أهديت الهديّة، وهديت إلى البيت. إن قيل: كيف جعلت الهداية دلالة بلطف ، وقد قال

الله تعالى: فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ [الصافات/ ٢٣] ، وَيَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ [الحج/ ٤] . قيل: ذلك استعمل فيه استعمال اللّفظ على التّهكّم مبالغة في المعنى كقوله: فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ [آل عمران/ ٢١]

وهداية الله تعالى للإنسان على أربعة أوجه

الأوّل: الهداية التي عمّ بجنسها كلّ مكلّف من العقل، والفطنة، والمعارف الضّروريّة التي أعمّ منها كلّ شيء بقدر فيه حسب احتماله كما قال: رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى [طه]

الثّاني: الهداية التي جعل للناس بدعائه إيّاهم على ألسنة الأنبياء، وإنزال القرآن ونحو ذلك، وهو المقصود بقوله تعالى: وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا [الأنبياء/ ٧٣] .

الثّالث: التّوفيق الذي يختصّ به من اهتدى، وهو المعنيّ بقوله تعالى: وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً [محمد/ ١٧] ، وقوله: وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ [التغابن/ ١١] ، وقوله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ [يونس/ ٩] ، وقوله: وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا [العنكبوت/ ٦٩] ، وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً [مريم/ ٧٦] ، فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا [البقرة] ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ [البقرة/ ٢١٣] .

الرّابع: الهداية في الآخرة إلى الجنّة المعنيّ بقوله: سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بالَهُمْ [محمد/ ٥] ، وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ [الأعراف/ ٤٣] إلى قوله: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا.

وهذه الهدايات الأربع مترتّبة، فإنّ من لم تحصل له الأولى لا تحصل له الثّانية بل لا يصحّ تكليفه، ومن لم تحصل له الثّانية لا تحصل له الثّالثة والرّابعة، ومن حصل له الرّابع فقد حصل له الثلاث التي قبلها، ومن حصل له الثالث فقد حصل له اللّذان قبله . ثمّ ينعكس، فقد تحصل الأولى ولا يحصل له الثاني ولا يحصل الثالث، والإنسان لا يقدر أن يهدي أحدا إلّا بالدّعاء وتعريف الطّرق دون سائر أنواع الهدايات، وإلى الأوّل أشار بقوله: وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ [الشورى/ ٥٢] ، يَهْدُونَ بِأَمْرِنا [السجدة/ ٢٤] ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ [الرعد/ ٧] أي: داع، وإلى سائر الهدايات أشار بقوله تعالى: إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ [القصص/ ٥٦] وكلّ هداية ذكر

الله عزّ وجلّ أنه منع الظالمين والكافرين فهي الهداية الثالثة، وهي التّوفيق الذي يختصّ به المهتدون، والرّابعة التي هي الثّواب في الآخرة، وإدخال الجنّة. نحو قوله عزّ وجلّ: كَيْفَ يَهْدي اللهُ قَوْماً إلى قوله: وَاللهُ لا يَهْدي الْقَوْمَ الظَّالمينَ [آل عمران/ ٨٦] وكقوله: ذلكَ بأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخرَة وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدي الْقَوْمَ الْكافرينَ [النحل/ ١٠٧] وكلّ هداية نفاها الله عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم وعن البشر، وذكر أنهم غير قادرين عليها فهي ما عدا المختصّ من الدّعاء وتعريف الطريق، وذلك كإعطاء العقل، والتّوفيق، وإدخال الجنة، كقوله عزّ ذكره: لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَلكنَّ اللهَ يَهْدي مَنْ يَشاءُ [البقرة/ ٢٧٢]، وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى [الأنعام/ ٣٥]، وَما أَنْتَ بهاد الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتهمْ [النمل/ ٨١]، إنْ تَحْرِصْ عَلى هُداهُمْ فَإنَّ اللهَ لا يَهْدي مَنْ يُضلُّ [النحل/ ٣٧]، وَمَنْ يُضْلل اللهُ فَما لَهُ منْ هادٍ [الزمر/ ٣٦]، وَمَنْ يَهْد اللهُ فَما لَهُ منْ مُضلٍّ [الزمر/ ٣٧]، إنَّكَ لا تَهْدي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكنَّ اللهَ يَهْدي مَنْ يَشاءُ [القصص/ ٥٦] وإلى هذا المعنى أشار بقوله تعالى: أَفَأَنْتَ تُكْرهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمنينَ [يونس/ ٩٩]، وقوله: مَنْ يَهْد اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَد [الإسراء/ ٩٧]، أي: طالب الهدى ومتحرّيه هو الذي يوفّقه ويَهْديه إلى طريق الجنّة لا من ضادّه، فيتحرّى طريق الضّلال والكفر كقوله: وَاللهُ لا يَهْدي الْقَوْمَ الْكافرينَ [التوبة/ ٣٧]، وفي أخرى الظَّالمينَ [التوبة/ ١٠٩]، وقوله: إنَّ اللهَ لا يَهْدي مَنْ هُوَ كاذبٌ كَفَّارٌ [الزمر/ ٣] الكاذب الكفّار: هو الذي لا يقبل هدايته، فإنّ ذلك راجع إلى هذا وإن لم يكن لفظه موضوعا لذلك، ومن لم يقبل هدَايَتَهُ لم يهده، كقولك: من لم يقبل هَديَّتي لم أهد له، ومن لم يقبل عطيّتي لم أعطه، ومن رغب عنّي لم أرغب فيه، وعلى هذا النحو: وَاللهُ لا يَهْدي الْقَوْمَ الظَّالمينَ [التوبة/ ١٠٩] وفي أخرى: الْفاسقينَ [التوبة/ ٨٠] وقوله: أَفَمَنْ يَهْدي إلَى الْحَقّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهدّي إلَّا أَنْ يُهْدى [يونس/ ٣٥]، وقد قرئ: يَهدّي إلَّا أَنْ يُهْدى أي: لا يهدي غيره ولكن يهدى. أي: لا يعلم شيئا ولا يعرف أي لا هداية له، ولو هدي أيضا لم يهتد، لأنها موات من حجارة ونحوها، وظاهر اللّفظ أنه إذا هدي اهْتَدَى لإخراج الكلام أنها أمثالكم كما قال تعالى: إنَّ الَّذينَ تَدْعُونَ منْ دُون الله عبادٌ أَمْثالُكُمْ [الأعراف/ ١٩٤] وإنّما

هي أموات، وقال في موضع آخر: وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلا يَسْتَطِيعُونَ [النحل/ ٧٣] ، وقوله عزّ وجلّ: إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ [الإنسان/ ٣] ، وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ [البلد/ ١٠] ، وَهَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ [الصافات/ ١١٨] فذلك إشارة إلى ما عرّف من طريق الخير والشّرّ ، وطريق الثواب والعقاب بالعقل والشرع وكذا قوله: فَرِيقاً هَدى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ [الأعراف/ ٣٠] ، إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ [القصص/ ٥٦] ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ [التغابن/ ١١] فهو إشارة إلى التّوفيق الملقى في الرّوع فيما يتحرّاه الإنسان وإياه عنى بقوله عزّ وجلّ: وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً [محمد/ ١٧] وعدّي الهَدَايَةُ في مواضع بنفسه، وفي مواضع باللام، وفي مواضع بإلى، قال تعالى: وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ [آل عمران/ ١٠١] ، وَاجْتَبَيْناهُمْ وَهَدَيْناهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ [الأنعام/ ٨٧] وقال: أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ [يونس/ ٣٥] وقال: هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى [النازعات/ ١٨- ١٩] .

وما عدّي بنفسه نحو: وَلَهَدَيْناهُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً [النساء/ ٦٨] ، وَهَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ [الصافات/ ١١٨] ، اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ [الفاتحة/ ٦] ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ [النساء/ ٨٨] ، وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً [النساء/ ١٦٨] ، أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ [يونس/ ٤٣] ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطاً مُسْتَقِيماً [النساء/ ١٧٥] .

ولمّا كانت الهَدَايَةُ والتّعليم يقتضي شيئين: تعريفا من المعرّف، وتعرّفا من المعرّف، وبهما تمّ الهداية والتّعليم فإنه متى حصل البذل من الهَادي والمعلم ولم يحصل القبول صحّ أن يقال: لم يَهْدِ ولم يعلّم اعتبارا بعدم القبول، وصحّ أن يقال: هَدَى وعلّم اعتبارا ببذله، فإذا كان كذلك صحّ أن يقال: إنّ الله تعالى لم يهد الكافرين والفاسقين من حيث إنه لم يحصل القبول الذي هو تمام الهداية والتّعليم، وصحّ أن يقال: هَدَاهُمْ وعلّمهم من حيث إنه حصل البذل الذي هو مبدأ الْهِدَايَةِ. فعلى الاعتبار بالأول يصحّ أن يحمل قوله تعالى: وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [التوبة/ ١٠٩] ، وَالْكافِرِينَ [التوبة/ ٣٧] وعلى الثاني قوله عزّ وجلّ: وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى

الْهُدى [فصلت/ ١٧] والأولى حيث لم يحصل القبول المفيد فيقال: هداه الله فلم يهتد، كقوله: وَأَمَّا ثَمُودُ الآية، وقوله: للهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إلى قوله: وَإِنْ كانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ [البقرة/ ١٤٢ – ١٤٣] فهم الّذين قبلوا هداه واهتدوا به، وقوله تعالى: اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ [الفاتحة/ ٦] ، وَلَهَدَيْناهُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً [النساء/ ٦٨] فقد قيل: عني به الهِدَايَةُ العامّة التي هي العقل، وسنّة الأنبياء، وأمرنا أن نقول ذلك بألسنتنا وإن كان قد فعل ليعطينا بذلك ثوابا كما أمرنا أن نقول: اللهمّ صلّ على محمد وإن كان قد صلّى عليه بقوله: إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ [الأحزاب/ ٥٦] وقيل: إن ذلك دعاء بحفظنا عن استغواء الغواة واستهواء الشّهوات، وقيل: هو سؤال للتّوفيق الموعود به في قوله: وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً [محمد/ ١٧] وقيل: سؤال للهداية إلى الجنّة في الآخرة، وقوله عزّ وجلّ: وَإِنْ كانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ [البقرة/ ١٤٣] فإنه يعني به من هداه بالتّوفيق المذكور في قوله عزّ وجلّ: وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً.

والْهُدَى والهِدَايَةُ في موضوع اللّغة واحد لكن قد خصّ الله عزّ وجلّ لفظة الهدى بما تولّاه وأعطاه، واختصّ هو به دون ما هو إلى الإنسان نحو: هُدىً لِلْمُتَّقِينَ [البقرة/ ٢] ، أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ [البقرة/ ٥] ، هُدىً لِلنَّاسِ [البقرة/ ١٨٥] ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ [البقرة/ ٣٨] ، قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدى [الأنعام/ ٧١] ، وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ [آل عمران/ ١٣٨] ، وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى [الأنعام/ ٣٥] ، إِنْ تَحْرِصْ عَلى هُداهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ [النحل/ ٣٧] ، أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى [البقرة/ ١٦] .

والاهْتِدَاءُ يختصّ بما يتحرّاه الإنسان على طريق الاختيار، إمّا في الأمور الدّنيويّة، أو الأخرويّة قال تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها [الأنعام/ ٩٧] ، وقال: إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا [النساء/ ٩٨] ويقال ذلك لطلب الهداية نحو: وَإِذْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَالْفُرْقانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [البقرة/ ٥٣] ، وقال: فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [البقرة/ ١٥٠] ، فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ

اهْتَدَوْا [آل عمران/ ٢٠] ، فَإِنْ آمَنُوا بمثْل ما آمَنْتُمْ به فَقَد اهْتَدَوْا [البقرة/ ١٣٧]
ويقال المُهْتَدي لمن يقتدي بعالم نحو: أَوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ [المائدة/ ١٠٤] تنبيها أنهم لا يعلمون بأنفسهم ولا يقتدون بعالم، وقوله: فَمَن اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدي لنَفْسه وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا منَ الْمُنْذرينَ [النمل/ ٩٢] فإن الاهْتدَاءَ هاهنا يتناول وجوه الاهتداء من طلب الهداية، ومن الاقتداء، ومن تحرّيها، وكذا قوله: وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَن السَّبيل فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ [النمل/ ٢٤] وقوله: وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَملَ صالحاً ثُمَّ اهْتَدى [طه/ ٨٢] فمعناه: ثم أدام طلب الهداية، ولم يفترّ عن تحرّيه، ولم يرجع إلى المعصية. وقوله: الَّذينَ إذا أَصابَتْهُمْ مُصيبَةٌ إلى قوله :وَأُولئكَ هُمُ الْمُهْتَدُون [البقرة/ ١٥٧] أي: الذين تحرّوا هدايته وقبلوها وعملوا بها، وقال مخبرا عنهم: وَقالُوا يا أَيُّهَا السَّاحرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بما عَهدَ عنْدَكَ إنَّنا لَمُهْتَدُونَ [الزخرف/ ٤٩] . والهَدْيُ مختصّ بما يُهْدَى إلى البيت. قال الأخفش: والواحدة هَدْيَةٌ، قال: ويقال للأنثى هَدْيٌ كأنه مصدر وصف به، قال الله تعالى: فَإِنْ أُحْصرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ منَ الْهَدْي .

<u>قال الشيخ ابن القيم</u> في شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل عن الهداية والهدى :

فأما <u>المرتبة الأولى</u> [الهداية العامة] فقد قال سبحانه: {سَبِّح اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى الَّذي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذي قَدَّرَ فَهَدَى} فذكر سبحانه أربعة أمور عامة *الخلق والتسوية والتقدير والهداية* وجعل التسوية من تمام الخلق والهداية من تمام التقدير قال عطاء "خلق فسوى أحسن ما خلقه وشاهده قوله تعالى: {الَّذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ} فإحسان خلقه يتضمن تسويته وتناسب خلقه وأجزائه بحيث لم يحصل بينها تفاوت يخل بالتناسب والاعتدال فالخلق الإيجاد والتسوية إتقانه وإحسان خلقه . وهو سبحانه في القرآن كثيرا ما يجمع بين الخلق والهداية كقوله في أول سورة أنزلها على رسوله: {اقْرَأْ باسْم رَبّكَ الَّذي خَلَقَ خَلَقَ الإنْسَانَ منْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذي عَلَّمَ بالْقَلَم عَلَّمَ الإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} وقوله: {الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}

وقوله: {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ} وقوله: {إِنَّا خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً} وقوله: {أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ} الآيات ثم قال: {أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} فالخلق إعطاء الوجود العيني الخارجي والهدى إعطاء الوجود العلمي الذهني فهذا خلقه وهذا هداه وتعليمه.

المرتبة الثانية من مراتب الهداية هداية *الإرشاد والبيان* للمكلفين وهذه الهداية لا تستلزم حصول التوفيق واتّباع الحق وإن كانت شرطا فيه أو جزء سبب وذلك لا يستلزم حصول المشروط والمسبب بل قد يتخلف عنه المقتضى إما لعدم كمال السبب أو لوجود مانع ولهذا قال تعالى: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} وقال: {وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ} فهداهم هدى البيان والدلالة فلم يهتدوا فأضلهم عقوبة لهم على ترك الاهتداء أولا بعد أن عرفوا الهدى فأعرضوا عنه فأعماهم عنه بعد أن أراهموه وهذا شأنه سبحانه في كل من أنعم عليه بنعمة فكفرها فإنه يسلبه إياها بعد أن كانت نصيبه وحظه كما قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} وقال تعالى عن قوم فرعون: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً} أي جحدوا بآياتنا بعد أن تيقنوا صحتها وقال: {كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} وهذه الهداية هي التي أثبتها لرسوله حيث قال: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} ونفى عنه ملك الهداية الموجبة وهي هداية التوفيق والإلهام بقوله: {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: "بعثت داعيا ومبلغا وليس إليّ من الهداية شيء وبعث إبليس مزينا ومغويا وليس إليه من الضلالة شيء" قال تعالى: {وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} فجمع سبحانه بين الهداء يتبين العامة والخاصة فعم بالدعوة حجة مشيئة وعدلا وخص بالهداية نعمة مشيئة وفضلا وهذه المرتبة أخص من التي قبلها فأنها هداية تخص المكلفين وهي حجة الله على خلقه التي لا يعذب أحدا

إلا بعد إقامتها عليه قال تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} وقال: {رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} وقال: {أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} وقال: {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ} فإن قيل كيف تقوم حجته عليهم وقد منعهم من الهدى وحال بينهم وبينه قيل حجته قائمة عليهم بتخليته بينهم وبين الهدى وبيان الرسل لهم وإراءتهم الصراط المستقيم حتى كأنهم يشاهدونه عيانا وأقام لهم أسباب الهداية ظاهرا وباطنا ولم يحل بينهم وبين تلك الأسباب *ومن حال بينه وبينها منهم بزوال عقل أو صغر لا تمييز معه أو كونه بناحية من الأرض لم تبلغه دعوة رسله فإنه لا يعذبه حتى يقيم عليه حجته* فلم يمنعهم من هذا الهدى ولم يحل بينهم وبينه نعم قطع عنهم توفيقه ولم يرد من نفسه إعانتهم والإقبال بقلوبهم إليه فلم يحل بينهم وبين ما هو مقدور لهم وإن حال بينهم وبين ما لا يقدرون عليه وهو فعله ومشيئته وتوفيقه فهذا غير مقدور لهم وهو الذي منعوه وحيل بينهم وبينه فتأمل هذا الموضع واعرف قدره والله المستعان.

المرتبة الثالثة من مراتب الهداية هداية *التوفيق والإلهام* وخلق المشيئة المستلزمة للفعل وهذه المرتبة أخص من التي قبلها وهي التي ضل جهال القدرية بإنكارها وصاح عليهم سلف الأمة وأهل السنة منهم من نواحي الأرض عصرا بعد عصر إلى وقتنا هذا ولكن الجبرية ظلمتهم ولم تنصفهم كما ظلموا أنفسهم بإنكار الأسباب والقوى وإنكار فعل العبد وقدرته وأن يكون له تأثير في الفعل البتة فلم يهتدوا لقول هؤلاء بل زادهم ضلالا على ضلالهم وتمسكا بما هم عليه وهذا شأن المبطل إذا دعى مبطلا آخر إلى ترك مذهبه لقوله ومذهبه الباطل كالنصراني إذا دعى اليهودي إلى التثليث وعبادة الصليب وأن المسيح إله تام غير مخلوق إلى أمثال ذلك من الباطل الذي هو عليه وهذه المرتبة تستلزم أمرين أحدهما: فعل الرب تعالى وهو الهدى والثاني: فعل العبد وهو الاهتداء وهو أثر فعله سبحانه فهو الهادي والعبد المهتدي قال تعالى: {مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ}

ولا سبيل إلى وجود الأثر إلا بمؤثره التام فإن لم يحصل فعله لم يحصل فعل العبد ولهذا قال تعالى: {إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَّ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلّ} وهذا صريح في أن هذا الهدى ليس له صلى الله عليه وسلم ولو حرص عليه ولا إلى أحد غير الله وأن الله سبحانه إذا أضل عبدا لم يكن لأحد سبيل إلى هدايته كما قال تعالى: {مَنْ يُضْلِلِ اللهُّ فَلا هَادِيَ لَهُ} وقال تعالى: {مَنْ يَشَأ اللهُّ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم} وقال تعالى: {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِه فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللهَّ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَات} وقال تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُّ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِه وَقَلْبِه وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِه غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهَّ أَفَلا تَذَكَّرُونَ} وقال تعالى: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَّ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} وقال: {وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} وقال: {أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُّ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً} وقال: {فَمَنْ يُرِدِ اللهُّ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ} وقال أهل الجنة: {الْحَمْدُ للهَّ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللهَّ} ولم يريدوا أن بعض الهدى منه وبعضه منهم بل الهدى كله منه ولولا هدايته لهم لما اهتدوا

المرتبة الرابعة من مراتب الهداية الهداية إلى الجنة والنار يوم القيامة قال تعالى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهَّ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ} وقال تعالى: {وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهَّ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ} فهذه هداية بعد قتلهم فقيل المعنى سيهديهم إلى طريق الجنة ويصلح حالهم في الآخرة بإرضاء خصومهم وقبول أعمالهم وقال ابن عباس سيهديهم إلى أرشد الأمور ويعصمهم أيام حياتهم في الدنيا واستشكل هذا القول لأنه أخبر عن المقتولين في سبيله بأنهم سيهديهم واختاره الزجاج وقال: "يصلح بالهم في المعاش وأحكام الدنيا" قال: "وأراد به يجمع لهم خير الدنيا والآخرة" وعلى هذا القول فلا بد من حمل قوله قتلوا في سبيل الله على معنى يصح معه إثبات الهداية وإصلاح البال.

قال في مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة عن اتباع هدى الله : أعطاهم افضل ممَّا

مَنعهم وهو عهده الَّذي عهد إليه وَإِلَى بنيه وَأخْبر انه من تمسك به منْهُم صَار الى رضوانه وَدَار كرامته قَالَ تَعَالَى عقب إخراجه منْهَا قُلْنَا اهبطوا منْهَا جَمِيعًا فإمَّا يَأْتينكُمْ مني هدى فَمن تبع هُدَايَ فَلَا خوف عَلَيْهِم وَلَا هم يَحْزَنُونَ وَفِي الاية الاخرى قَالَ اهبطا منْهَا جَمِيعًا فاما ياتينكم مني هدى فَمن اتبع هُدَايَ فَلَا يضل وَلَا يشقى وَمن اعْرض عَن ذكري فَإِن لَهُ معيشة ضنكا نحشره يَوْم الْقِيَامَة اعمى قَالَ رب لم حشرتني اعمى وَقد كنت بَصيرًا قَالَ كَذَلِك اتتك آيَاتنَا فنسيتها وَكَذَلِكَ الْيَوْم تنسى . فَلَمَّا كَسره سُبْحَانَهُ باهباطه من الْجنَّة جبره وَذريته بِهَذَا الْعَهْد الَّذي عَهده اليهم فَقَالَ تَعَالَى فاما يَأْتينكُمْ مني هدى وَهَذه هيَ ان الشّرطيَّة الْمُؤَكّدَة بِمَا الدَّالَّة على استغراق الزَّمَان وَالْمعْنَى أَي وَقت وَأي حين اتاكم من يهدى وَجعل جَوَاب هَذَا الشَّرْط جملَة شَرْطيَّة وَهي قَوْله فَمن اتبع هُدَايَ فَلَا يضل وَلَا يشقى وَالْمَقْصُود ان الله سُبْحَانَهُ جعل اتّبَاع هداه وَعَهده الَّذي عَهده الى آدم سَببا ومقتضيا لعدم الْخَوْف والحزن والضلال والشقاء وَهَذَا الْجَزَاء ثَابت بِثُبُوت الشَّرْط مُنْتَفٍ بانتفائه كَمَا تقدم بَيَانه وَنفى الْخَوْف والحزن عَن مُتبع الْهدى نفي لجَمِيع انواع الشرور فَإِن الْمَكْرُوه الَّذي ينزل بالْعَبد مَتى علم بحصوله فَهُوَ خَائف منْهُ ان يَقع به وَإذا وَقع به فَهُوَ حَزين على مَا أَصَابَهُ منْهُ فَهُوَ دَائِما فِي خوف وحزن وكل خَائف حَزين فَكل حَزين خَائف وكل من الْخَوْف والحزن يكون على فعل المحبوب وَحُصُول الْمَكْرُوه فالاقسام اربعة خوف من فَوت المحبوب وَحُصُول الْمَكْرُوه وَهَذَا جماع الشَّرّ كُله فنفى الله سُبْحَانَهُ ذَلك عَن مُتبع هداه الَّذي أنزلهُ على السّنة رسله وأتى فِي نفي الْخَوْف بالاسْم الدَّال على نفي الثُّبُوت واللزوم فَإِن أهل الْجنَّة لَا بُد لَهُم من الْخَوْف فِي الدُّنْيَا وَفِي البرزخ وَيَوْم الْقِيَامَة حَيْثُ يَقُول آدم وَغَيره من الانبياء نَفسِي نَفسِي فَأخْبر سُبْحَانَهُ انهم وَإِن خَافُوا فَلَا خوف عَلَيْهِم أَي لَا يلحقهم الْخَوْف الَّذي خَافُوا منْهُ وأتى فِي نفي الْحزن بالْفِعْل الْمُضَارع الدَّال على نفي التجدد والحدوث أَي لَا يلحقهم حزن وَلَا يحدث لَهُم إذا لم يذكرُوا مَا سلف منْهُم بل هم فِي سرُور دَائِم لَا يعرض لَهُم حزن على مَا فَاتَ *وَأما الْخَوْف فَلَمَّا كَانَ تعلقه بالمستقبل دون الْمَاضِي* نفي لُحوقه لَهُم جملَة أَي الَّذي خَافُوا منْهُ لَا ينالهم وَلَا يلم بهم وَالله اعْلَم فالحزين إِنَّمَا يحزن فِي الْمُسْتَقْبل على مَا مضى

والخائف إِنَّمَا يخَاف فِي الْحَال مِمَّا يسْتَقْبل فَلَا خوف عَلَيْهِم أَي لَا يلحقهم مَا خَافُوا مِنْهُ وَلَا يعرض لَهُم حزن على مَا فَاتَ وَقَالَ فِي الْآيَة الْأُخْرَى فَمن اتبع هُدَايَ فَلَا يضل وَلَا يشقى فنفى عَن مُتبع هداه امرين الضلال والشقاء قَالَ عبد الله بن عَبَّاس رضى الله عَنْهُمَا:

تكفل الله لمن قَرَأَ الْقُرْآن وَعمل بِمَا فِيهِ ان لَا يضل فِي الدُّنْيَا وَلَا يشقى فِي الْآخِرَة ثمَّ قَرَأَ فَأَما ياتينكم مني هدى فَمن اتبع هُدَايَ فَلَا يضل وَلَا يشقى وَالْآيَة نفت مُسَمّى الضلال والشقاء عَن مُتبع الْهدى مُطلقًا فاقتضت الْآيَة انه لَا يضل فِي الدُّنْيَا وَلَا يشقى وَلَا يضل فِي الْآخِرَة وَلَا يشقى فِيهَا فَإِن الْمَرَاتِب أَرْبَعَة هدى وشقاوة فِي الدُّنْيَا وَهدى وشقاوة فِي الْآخِرَة لَكِن ذكر ابْن عَبَّاس رضى الله عَنْهُمَا فِي كل دَار اظهر مرتبتيها فَذكر الضلال فِي الدُّنْيَا إِذْ هُوَ اظهر لنا وَأقرب من ذكر الضلال فِي الْآخِرَة وأيضا فضلال الدُّنْيَا أصل ضلال فِي الْآخِرَة وشقاء الْآخِرَة مُسْتَلْزم للضلال فِيهَا فنبه بِكُل مرتبَة على الْأُخْرَى فنبه بِنَفْي ضلال الدُّنْيَا على نفي ضلال الْآخِرَة فَإِن العَبْد يَمُوت على مَا عَاشَ عَلَيْهِ وَيبْعَث على مَا مَاتَ عَلَيْهِ قَالَ الله تَعَالَى فِي الْآيَة الْأُخْرَى وَمن اعْرض عَن ذكري فَإِن لَهُ معيشة ضنكا ونحشره يَوْم الْقِيَامَة اعمى قَالَ رب لم حشرتني اعمى وَقد كنت بَصيرًا قَالَ كَذَلِك اتتك آيَاتنَا فنسيتها وَكَذَلِكَ الْيَوْم تنسى وَقَالَ فِي الْآيَة الْأُخْرَى وَمن كَانَ فِي هَذِه اعمى فَهُوَ فِي الاخرة اعمى وأضل سَبِيلا فَأخْبر أن من كَانَ فِي هَذِه الدَّار ضَالًّا فَهُوَ فِي الْآخِرَة أضل وَأما نفي شقاء الدُّنْيَا فقد يُقَال انه لما انْتَفَى عَنهُ الضلال فِيهَا وَحصل لَهُ الْهدى وَالْهدى فِيهِ من برد الْيَقِين وطمأنينة الْقلب وذاق طعم الْإِيمَان فَوجدَ حلاوته وفرحة الْقلب بِهِ وسروره والتنعيم بِهِ ومصير الْقلب حَيا بِالْإِيمَان مستنيرا بِهِ قَوِيا بِهِ قد نَالَ بِهِ غذاؤه ورواءه وشفاءه وحياته ونوره وقوته ولذته ونعيمه مَا هُوَ من اجل أَنْوَاع النَّعيم وأطيب الطَّيِّبَات واعظم اللَّذَّات قَالَ الله تَعَالَى من عمل صَالحا من ذكر اَوْ انثى وَهُوَ مُؤمن فلنحيينه حَيَاة طيبَة ولنجزينهم اجرهم باحسن مَا كَانُوا يعْملُونَ فَهَذَا خبر اصدق الصَّادقين ومخبره عنْد أَهله عين الْيَقِين بل هُوَ حق الْيَقِين وَلَا بُد لكل من عمل صَالحا ان يحييه الله حَيَاة طيبَة بِحَسب إيمَانه وَعَمله وَلَكِن يغلط الجفاة الأجلاف فِي مُسَمّى الْحَيَاة حَيْثُ يظنونها التنعم فِي أَنْوَاع المآكل والمشارب والملابس

والمناكح اَوْ لَذَّة الرياسة وَالْمَال وقهر الأعداء والتفنن بأنواع الشَّهَوَات وَلَا ريب أن هَذه لَذَّة مُشْتَرَكَة بَين الْبَهَائم بل قد يكون حَظّ كثير من الْبَهَائم منْهَا أَكثر من حَظّ الإنسان فَمن لم تكن عنْده لَذَّة إلا اللَّذَّة الَّتي تشاركه فيهَا السبَاع وَالدَّوَاب والأنعام فَذَلك ممَّن يُنَادي عَلَيْه من مَكَان بعيد وَلَكن أين هَذه اللَّذَّة من اللَّذَّة بأَمْر إذا خالط بشاشته الْقُلُوب سلى عَن الأبناء وَالنّسَاء والأوطان والأموال والإخوان والمساكن ورضى بتَرْكهَا كلهَا وَالْخُرُوج منْهَا رَأْسا وَعرض نَفسه لأنواع المكاره والمشاق وَهُوَ متحل بهَذَا منشرح الصَّدْر به يطيب لَهُ قتل ابْنه وَأَبيه وصاحبته واخيه لَا تَأْخُذهُ في ذَلك لومة لائم حَتَّى أن احدهم ليتلقى الرمْح بصدره وَيَقُول فزت وَرب الْكَعْبَة ويستطيل الآخر حَيَاته حَتَّى يلقى قوته من يَده وَيَقُول إنها لحياة طَويلَة أن صبرت حَتَّى أكلهَا ثمَّ يتَقَدَّم إلى الْمَوْت فَرحا مَسْرُورا وَيَقُول الآخر مَعَ فقره لَو علم الْمُلُوك وأبناء الْمُلُوك مَا نَحن عَلَيْه لجالدونا عَلَيْه بالسُّيُوف

الْمَقْصُود أن الْهدى مُسْتَلْزم لسعادة الدُّنْيَا وَطيب الْحَيَاة وَالنَّعيم العاجل وَهُوَ أَمر يشْهد به الْحس والوجد وأما سَعَادَة الآخرة فغيب يعلم بالإيمان فَذكرهَا ابْن عَبَّاس رضى الله عَنْهُمَا لكَونهَا اهم وَهي الْغَايَة الْمَطْلُوبَة وضلال الدُّنْيَا اظهر وبالنجاة منْهُ ينجو من كل شَرّ وَهُوَ أضل ضلال الآخرة وشقائها فَلذَلك ذكره وَحده وَالله اعْلَم

عَنْ أَبي مُوسَى عَنْ النَّبيّ ﷺ قَالَ مَثَلُ مَا بَعَثَني اللهُّ به منْ الْهُدَى وَالْعلْم كَمَثَل الْغَيْث الْكَثير أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ منْهَا نَقيَّةٌ قَبلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتْ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثيرَ وَكَانَتْ منْهَا أَجَادبُ أَمْسَكَتْ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللهُّ بهَا النَّاسَ فَشَربُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصَابَتْ منْهَا طَائفَةً أُخْرَى إنَّمَا هيَ قيعَانٌ لَا تُمْسكُ مَاءً وَلَا تُنْبتُ كَلأً فَذَلكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ في دين اللهَّ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَني اللهُّ به فَعَلمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بذَلكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهَّ الَّذي أُرْسلْتُ به قَالَ أَبُو عَبْد اللهَّ قَالَ إسْحَاقُ وَكَانَ منْهَا طَائفَةٌ قَيَّلَتْ الْمَاءَ قَاعٌ يَعْلُوهُ الْمَاءُ وَالصَّفْصَفُ الْمُسْتَوى منْ الْأَرْض صحيح البخاري

عَنْ عَبْد اللهَّ عَن النَّبىّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ « اللَّهُمَّ إنِّى أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالْعَفَافَ وَالْغنَى » م قَالَ قَالَ الْحَسَنُ بْنُ عَلىٍّ رضى الله عنهما عَلَّمَنى رَسُولُ اللهَّ -ﷺ- كَلمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فى الْوتْر قَالَ ابْنُ

جَوَّاسٍ فى قُنُوت الْوتْر « اللَّهُمَّ اهْدنى فيمَنْ هَدَيْتَ وَعَافنى فيمَنْ عَافَيْتَ وَتَوَلَّنى فيمَنْ تَوَلَّيْتَ وَبَارِكْ لى فيمَا أَعْطَيْتَ وَقنى شَرَّ مَا قَضَيْتَ إنَّكَ تَقْضى وَلاَ يُقْضَى عَلَيْكَ وَإنَّهُ لاَ يَذلُّ مَنْ وَالَيْتَ وَلاَ يَعزُّ مَنْ عَادَيْتَ تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ ».د

عَنْ عَلىٍّ قَالَ قَالَ لى رَسُولُ اللهَّ -ﷺ- « قُل اللَّهُمَّ اهْدنى وَسَدّدْنى وَاذْكُرْ بالْهُدَى هدَايَتَكَ الطَّريقَ وَالسَّدَاد سَدَادَ السَّهْم ».م

(٢١) الحياة والموت

والصواب أن يقال موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها وقال الحسن : إياكم وما شغل من الدنيا فان الدنيا كثيرة الأشغال لا يفتح رجل على نفسه باب شغل إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب

قال الراغب في المفردات في غريب القرآن: الحياة تستعمل على أوجه:

الأوّل: للقوّة النّامية الموجودة في النّبات والحيوان، ومنه قيل: نبات حَيٌّ، قال عزّ وجلّ: اعْلَمُوا أَنَّ اللهَّ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها [الحديد/ ١٧] ، وقال تعالى: وَأَحْيَيْنا به بَلْدَةً مَيْتاً [ق/ ١١] ، وَجَعَلْنا مِنَ الْماء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ [الأنبياء/ ٣٠] .

الثانية: للقوّة الحسّاسة، وبه سمّي الحيوان حيوانا، قال عزّ وجلّ: وَما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلَا الْأَمْواتُ [فاطر/ ٢٢] ، وقوله تعالى: أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً أَحْياءً وَأَمْواتاً [المرسلات/ ٢٥- ٢٦] ، وقوله تعالى: إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [فصلت/ ٣٩] ، فقوله: إِنَّ الَّذِي أَحْياها إشارة إلى القوّة النّامية، وقوله: لَمُحْيِ الْمَوْتى إشارة إلى القوّة الحسّاسة.

الثالثة: للقوّة العاملة العاقلة، كقوله تعالى: أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ [الأنعام/ ١٢٢] ، وقول الشاعر [كثير عزة] :

وقد أسمعت لو ناديت حيّا ... ولكن لا حياة لمن تنادي

والرابعة: عبارة عن ارتفاع الغمّ، وبهذا النظر قال الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميّت الأحياء

وعلى هذا قوله ﷻ: وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهَّ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ [آل عمران/ ١٦٩] ، أي: هم متلذّذون، لما روي في الأخبار الكثيرة في أرواح الشّهداء .

والخامسة: الحياة الأخرويّة الأبديّة، وذلك يتوصّل إليه بالحياة التي هي العقل والعلم، قال الله تعالى: اسْتَجِيبُوا للهَّ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ [الأنفال/ ٢٤] «٢» ، وقوله: يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي [الفجر/ ٢٤] ، يعني بها: الحياة الأخرويّة الدّائمة.

والسادسة: الحياة التي يوصف بها الباري، فإنه إذا قيل فيه تعالى: هو حيّ، فمعناه: لا يصحّ عليه الموت، وليس ذلك إلّا لله ﷻ.

والحياة باعتبار الدّنيا والآخرة ضربان:

الحياة الدّنيا، والحياة الآخرة: قال ﷻ: فَأَمَّا مَنْ طَغى وَآثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا [النازعات/ ٣٨]، وقال ﷻ: اشْتَرَوُا الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ [البقرة/ ٨٦]، وقال تعالى: وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ [الرعد/ ٢٦]، أي: الأعراض الدّنيويّة، وقال: وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَاطْمَأَنُّوا بِها [يونس/ ٧]، وقوله تعالى: وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ [البقرة/ ٩٦]، أي: حياة الدّنيا، وقوله ﷻ: وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى [البقرة/ ٢٦٠]، كان يطلب أن يريه الحياة الأخرويّة المعراة عن شوائب الآفات الدّنيويّة. وقوله ﷻ: وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ [البقرة/ ١٧٩]، أي: يرتدع بالقصاص من يريد الإقدام على القتل، فيكون في ذلك حياة الناس. وقال ﷻ: وَمَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً [المائدة/ ٣٢]، أي: من نجّاها من الهلاك، وعلى هذا قوله مخبرا عن إبراهيم: رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قالَ: أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ [البقرة/ ٢٥٨]، أي: أعفو فيكون إحياء. والحَيَوَانُ: مقرّ الحياة، ويقال على ضربين: *أحدهما*: ما له الحاسّة، *والثاني*: ما له البقاء الأبديّ، وهو المذكور في قوله ﷻ: وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ [العنكبوت/ ٦٤]، وقد نبّه بقوله: لَهِيَ الْحَيَوانُ أنّ الحيوان الحقيقيّ السّرمديّ الذي لا يفنى، لا ما يبقى مدّة ثم يفنى، وقال بعض أهل اللّغة: الحَيَوَان والحياة واحد، وقيل: الحَيَوَان: ما فيه الحياة، والموتان ما ليس فيه الحياة. والحَيَا: المطر، لأنه يحيي الأرض بعد موتها، وإلى هذا أشار بقوله تعالى: وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ [الأنبياء/ ٣٠]

الموت

أنواع الموت بحسب أنواع الحياة:

فالأوّل: ما هو بإزاء القوّة النامية الموجودة في الإنسان والحيوانات والنّبات. نحو قوله تعالى: يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها [الروم/ ١٩]، وَأَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً [ق/ ١١].

الثاني: زوال القوّة الحاسَّة. قال: يا لَيْتَني متُّ قَبْلَ هذا [مريم/ ٢٣] ، أَإذا ما متُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا [مريم/ ٦٦] .

الثالث: زوال القوَّة العاقلة، وهي الجهالة. نحو: أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ [الأنعام/ ١٢٢] ، وإيّاه قصد بقوله: إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى [النمل/ ٨٠] .

الرابع: الحزن المكدّر للحياة، وإيّاه قصد بقوله: وَيَأْتِيه الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَما هُوَ بِمَيِّتٍ [إبراهيم/ ١٧] .

الخامس: المنامُ، فقيل: النّوم مَوْتٌ خفيف، والموت نوم ثقيل، وعلى هذا النحو سمّاهما الله تعالى توفّيا. فقال: وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ [الأنعام/ ٦٠] ، اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها [الزمر/ ٤٢] ، وقوله: وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ [آل عمران/ ١٦٩] فقد قيل: نفي الموت هو عن أرواحهم فإنه نبّه على تنعّمهم، وقيل: نفى عنهم الحزن المذكور في قوله: وَيَأْتِيه الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ [إبراهيم/ ١٧] ، وقوله: كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ [آل عمران/ ١٨٥] فعبارة عن زوال القوّة الحيوانيَّة وإبانة الرُّوح عن الجسد، وقوله: إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ [الزمر/ ٣٠] فقد قيل: معناه: ستموت، تنبيها أن لا بدّ لأحد من الموت وقيل: بل الميّت هاهنا ليس بإشارة إلى إبانة الرُّوح عن الجسد، بل هو إشارة إلى ما يعتري الإنسان في كلّ حال من التّحلُّل والنَّقص، فإن البشر ما دام في الدّنيا يموت جزءا فجزءا

قال في الروح : والصواب أن يقال موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت وإن أريد أنها تعدم وتضمحل وتصير عدما محضا فهى لا تموت بهذا الاعتبار بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في عذاب وقال :إن الْمَيِّت إذا مَاتَ يكون في نعيم أَو عَذَاب وَأَن ذَلِك يحصل لروحه وبدنه وَأَن الرّوح تبقى بعد مُفَارقَة الْبدن منعمة أَو معذبة وَأَنَّهَا تتصل بِالْبدن أَحْيَانًا وَيحصل لَهُ مَعهَا النَّعيم أَو الْعَذَاب ثمَّ إذا كَانَ يَوْم الْقِيَامَة الْكُبْرَى أُعيدَت الْأَرْوَاح إِلَى الأجساد وَقَامُوا من قُبُورهم لرب الْعَالمين ومعاد الْأَبدَان مُتَّفق عَلَيْهِ بَين الْمُسلمين وَالْيَهُود وَالنَّصَارَى

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ الأعراف: ٢٥ قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ البقرة: ٢٨ قَالَ تَعَالَى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ البقرة: ١٨٠ قَالَ تَعَالَى: ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ آل عمران: ١٦٨ قَالَ تَعَالَى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ آل عمران قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾ النساء قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ ﴾ النساء: ٧٨ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ الأنعام ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ الأنفال: ٦ قَالَ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ ﴾ المؤمنون: ٩٩ ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ السجدة: ١١ قَالَ تَعَالَى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ الزمر: ٤٢ ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ ﴾ الدخان: ٥٦ قَالَ تَعَالَى: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ الواقعة: ٦٠ قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي

تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ الجمعة: ٨ قال تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ المنافقون: ١٠ قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ الملك: ٢ قال تعالى: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ المؤمنون: ٣٧ قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ الجاثية:

قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ ﴾ مريم: ٦٦ قال تعالى: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ يس: ٧٠ ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ الأحقاف: ٢٠ قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ النحل

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ ﴾ محمد: ٣٦ قال تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ الحديد: ٢٠

قال في حلية الأولياء : قال كان الحسن إذا تلا هذه الآية { فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور } قال من قال ذا قاله من خلقها وهو أعلم بها . وقال الحسن : إياكم وما شغل من الدنيا فان الدنيا كثيرة الأشغال لا يفتح رجل على نفسه باب شغل إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب

وقال أيضاً : مسكين ابن أدم رضي بدار حلالها حساب وحرامها عذاب إن أخذه من حله حوسب به وإن أخذه من حرام عذب به ، ابن آدم يستقل ماله ولا يستقل عمله يفرح بمصيبته

في دينه ويجزع من مصيبته في دنياه

وَمَجَامِعُ الْهَوَى خَمْسَةُ أُمُورٍ وَهِيَ مَا جَمَعَهُ اللهُ تَعَالَى فِي قَوْله{ أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأموال والأولاد } وَالْأَعْيَانُ الَّتِي تَحْصُلُ مِنْهَا هَذه الْخَمْسَةُ سَبْعَةٌ يَجْمَعُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى { زُيِّنَ للنَّاس حُبُّ الشَّهَوَات مِنَ النّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَة مِنَ الذَّهَب وَالْفضَّة وَالْخَيْل الْمُسَوَّمَة وَالْأَنْعَام وَالْحَرْث ذَلكَ مَتَاعُ الحياة الدنيا } فقد عرفت أن كل ما هو لله فليس من الدنيا وقدر ضرورة القوت وما لا بد منه من مسكن وملبس هو لله إن قصد به وجه الله والاستكثار منه تنعم وهو لغير الله وبين التنعم والضرورة درجة يعبر عنها بالحاجة ولها طرفان وواسطة طرف يقرب من حد الضرورة فلا يضر فإن الاقتصار على حد الضرورة غير ممكن وطرف يزاحم جانب التنعم ويقرب منه وينبغي أن يحذر منه وبينهما وسائط متشابهة ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه

والحزم في الحذر والتقوى والتقرب من حد الضرورة ما أمكن اقتداء بالأنبياء والأولياء عليهم السلام إذا كانوا يردون أنفسهم إلى حد الضرورة

عَنْ سَهْل بْن سَعْدٍ السَّاعديّ قَالَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهَّ دُلَّني عَلَى عَمَلٍ إِذَا أَنَا عَملْتُهُ أَحَبَّني اللهُ وَأَحَبَّني النَّاسُ فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحبَّكَ اللهُ وَازْهَدْ فيمَا فِي أَيْدي النَّاس يُحبُّوكَ(جة)

قَالَ تَعَالَى:﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ الحديد: ٢٠ ويقول النبي ﷺ [« مَا الدُّنْيَا فِى الآخرَة إلاَّ كَمَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ أُصْبُعَهُ فِى الْيَمّ ثُمَّ يَنْظُرُ بمَ تَرْجعُ إِلَيْه ؟] م والحميدي عن المستورد .

ويقول الحبيب أيضا ﷺ [« لَوْ كَانَت الدُّنْيَا تَعْدلُ عنْدَ اللهَّ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافرًا منْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ "] ت / عَنْ سَهْل بْن سَعْدٍ

ولقد عرضت الدنيا على نبينا محمد ﷺ مفاتيحها وخزائنها ولا ينقصه عند الله جناح بعوضة فأبى أن يقبلها وكره أن يحب ما أبغض خالقه أو يرفع ما وضع مليكه .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: " يؤتى بالدنيا يوم القيامة على صورة عجوز شمطاء زرقاء العينين أنيابها بادية ، مشوهة الخلق لا يراها أحد إلا هرب منها، فتشرف على الخلائق أجمعين فيقال لهم : أتعرفون هذه ؟ فيقولون : لا ، نعوذ بالله من معرفة هذه ، فيقال: هذه الدنيا التي تشاجرتم عليها ، وبها تقاطعتم الأرحام ، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم ثم تقذف في جهنم ، فتنادي : يا رب أين أتباعي وأشياعي ؟ فيقول : ألحقوا بها اتباعها وأشياعها واعلم أخي المسلم أن أحوالك في الدنيا ثلاث ، حال لم تكن فيها شيئا وهي قبل أن تولد وتخلق وتمشي فيها ، وحال بعد أن تموت إلى يوم القيامة آخر أيام الدنيا وأول أيام الآخرة ، وبين هاتين الحالتين حالة متوسطة وهي منذ ميلادك حتى مماتك وهي أيام حياتك في الدنيا فانظر إلى مقدار ذلك وانسبه إلى الحالتين ، تعلم أنه أقل من طرفة عين في مقدار الدنيا ، ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها ، ولم يبال كيف انقضت أيامه بها ؟ من ضرر وضيق أو سعة ورفاهية ؛ ولهذا لم يضع رسول الله ﷺ لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة وقال [« مَا لِى وَمَا لِلدُّنْيَا مَا أَنَا فِى الدُّنْيَا إِلاَّ كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا.] ت عن ابن مسعود

وقال لابن عمر ﷺ [« كُنْ فِى الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ » .] خ

وقال عيسى ﷺ : " الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها "

ومن الناس من قطع نصف القنطرة ، ومن الناس من قطع ثلثيها ، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها ، وكيف كان فلا بد من العبور .

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ **القصص: ٧٧**

كان في مدينة من مدن الزمان القديم قانون ينص على أن من يحكم هذه المدينة عشرة أعوام يتمتع خلالها بما شاء من اللذات والشهوات ثم يلقى في صحراء قاحلة مليئة بالأفاعي والوحوش ، وهكذا كان الحال حتى جاء يوم لم يرض أحد من الشعب أن يصير حاكما عليها لم يعلمه من المصير الأسود الذي سيلقاه بعد عشر سنوات وكذلك انتهاء الملذات وانتهاء حياته ، وفي أثناء

ذلك دخل البلدة رجل غريب فحدثوه بقانون هذه القرية وعرضوا عليه ملكها .. وبعد تفكير عميق وافق فنصبوه ملكا عليهم .

ولما انتهت مدة حكمه اجتمع سادة المدينة وأهلها ليذهبوا به إلى الصحراء حيث الجفاف والموت وذلك حسب عادتهم واتفاقهم ، وكان الرجل مسرورا على غير عادة الذين سبقوه فعندما كانوا يسوقونهم ترى وجوههم صفراء كئيبة من المصير الأسود الذي ينتظرهم من هجوم الوحوش والأفاعي والعطش .. أما هذا الغريب فهو فرح مسرور .. فمشوا إلى الصحراء فلما وصلوا إليها وجدوها مليئة بالأشجار والقنوات والطيور ، فظنوا أنهم أخطأوا المكان فقال لهم الغريب : لم تخطئوا المكان .. ولكني خلال مدة حكمي لكم عمرتها وأرسلت إليها المهندسين والبناءين والمزارعين وجهزتها حتى أقيم فيها بعد انتهاء مدة حكمي لأنه لكل بداية نهاية .. ولمثل هذا اليوم عملت .. فعادوا به ملكا عليهم . فهذا الرجل اهتم بآخرته فعمرها بالعمل الصالح والذين سبقوه اهتموا بملذاتهم ونسوا ذلك اليوم .. وهذا مثل من يعمل للدنيا والآخرة .. لأن الدنيا مدبرة ولها نهاية وكل ما هو آت قريب فاعتبروا بذلك يا أولى الألباب وعمروا آخرتكم بالعمل الصالح والخيرات والقربات إلى الله تعالى

عن أَبِي هُرَيْرَةَ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ

عَنْ أَبِي مِجْلَزٍ قَالَ صَلَّى بِنَا عَمَّارٌ صَلَاةً فَأَوْجَزَ فِيهَا فَأَنْكَرُوا ذَلِكَ فَقَالَ أَلَمْ أُتِمَّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ قَالُوا بَلَى قَالَ أَمَا إِنِّي قَدْ دَعَوْتُ فِيهِمَا بِدُعَاءٍ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُو بِهِ اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَكَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا وَالْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى وَلَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَمِنْ فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مَهْدِيِّينَ (حم)

عَنْ أَنَسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « لاَ يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ فَإِنْ كَانَ لاَ بُدَّ مُتَمَنِّيًا

فَلْيَقُل اللَّهُمَّ أَحْينى مَا كَانَت الْحَيَاةُ خَيْرًا لِى وَتَوَفَّنى إِذَا كَانَت الْوَفَاةُ خَيْرًا لِى ». مسلم

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللهَّ – ﷺ – يَقُولُ « اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِى دِينِىَ الَّذِى هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِى وَأَصْلِحْ لِى دُنْيَاىَ الَّتِى فِيهَا مَعَاشِى وَأَصْلِحْ لِى آخِرَتِى الَّتِى فِيهَا مَعَادِى وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِى فِى كُلِّ خَيْرٍ وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِى مِنْ كُلِّ شَرٍّ ». مسلم

قال ابن رجب يصف الدنيا لنا : " ما عيبت الدنيا بأكثر من ذكر فنائها وتقلب أحوالها ، وهو أدل دليل على انقضائها وزوالها فتبدل صحتها بالسقم ووجودها بالعدم وشبيبتها بالهرم ونعيمها بالبؤس وحياتها بالموت فتفارق الأجسام النفوس وعمارتها بالخراب واجتماعها بفرقة الأحباب وكل ما فوق التراب تراب "

وقال ابن رجب رحمه الله في وصف الدار الآخرة : " دار لا يموت سكانها ولا يخرب بنيانها ولا يهرم شبابها ولا يتغير حسنها وإحسانها، هواءوها النسيم وماءوها التسنيم يتقلب أهلها في رحمة أرحم الراحمين ويتمتعون بالنظر إلى وجهه كل حين {دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهَّ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [يونس: ١٠]

(٢٢) فتنة الشيطان

فسبحانه تعالى لا ينهى الإنسان عن شيء ليس في مكنته، بل ينهاه عما في مكنته، والفتنة هي في الأصل الاختبار حتى ننقي الشيء من الشوائب التي تختلط به .

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ الأعراف حُذر آدم من عداوة الشيطان ونهي عن شجرة معينة في جنة آدم ، نسي آدم عداوة الشيطان فعصى ربه ، وأكل من الشجرة المحرمة ، لذلك فالله تعالى في هذه الآية يحذرنا نحن الأبناء والذرية من فتنة الشيطان واتباعه والإصغاء إليه ، فهو سبب خروج الأبوين من جنتهما إلى الأرض وسبب نزع اللباس عنهما .

قال في التفسير الوسيط للزحيلي : والمعنى في قوله تعالى: لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ نهيهم أنفسهم عن الاستماع للشيطان وإطاعة أمره، فإن للشيطان فتنة ومحاولة لإغراء الناس، كما فتن أبوينا آدم وحواء بالإخراج من الجنة، فإن وسوسته أدت بسبب مخالفتهما أمر الله إلى التسبب في الطرد من الجنة، ونزع اللباس عن عوراتهما، وهو ورق الجنة، وإظهار سوءاتهما أي عوراتهما.

قال في تفسير الشعراوي : وهذا نهي لبني آدم وليس نهيا للشيطان، وهذا في مُكنة الإنسان أن يفعل أو لا يفعل، فسبحانه لا ينهى الإنسان عن شيء ليس في مكنته، بل ينهاه عما في مكنته، والشيطان قد أقسم أن يفتنه وسيفعل ذلك لأنه أقسم وقال: {فَبعزَّتك لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} . فإياكم أن تنخدعوا بفتنة الشيطان؛ لأن أمره مع أبيكم واضح، ويجب أن تنسحب تجربته مع أبيكم عليكم فلا يفتننكم كما أخرج أبويكم من الجنة، ويتساءل البعض: لماذا لم يقل الله: لا يفتننكم الشيطان كما فتن أبويكم، وقال: {لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطان كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مّنَ الجنة} ؟ ونقول هذا هو السمو والافتنان الراقي في الأداء البياني للقرآن.

وإن هذا تحذير من فتنة الشيطان حتى لا يخرجنا من جنة التكليف ، كما فتن أبوينا فأخرجهما من جنة التجربة ، ويقال عن هذا الأسلوب إنه أسلوب احتباك ، وهو أن تجعل الكلام شطرين وتحذف من كل منهما نظير ما أثبت في الآخر قصد الاختصار ، وهذا هو الأسلوب الذي يؤدي المعنى بمنتهى الإيجاز؛ لينبه ذهن السامع لكلام الله.

فيلتقط من الأداء حكمة الأداء وإيجاز الأداء، وعدم الفضول في الأساليب.

والفتنة – كما علمنا – هي في الأصل الاختبار حتى ننقي الشيء من الشوائب التي تختلط به، فإذا كانت الشوائب في ذهب فنحن نعلم أن الذهب مخلوط بنحاس أو بمعدن آخر، وحين نريد أن نأخذ الذهب خالصاً نفتنه على النار حتى ينفض ويزيل عنه ما علق به. كذلك الفتنة بالنسبة للناس، إنها تأتي اختباراً للإنسان لينقي نفسه من شوائب هذه المسألة، وليتذكر ما صنع إبليس بآدم وحواء. فإذا ما جاء ليفتنك فإياك أن تفتن؛ لأن الفتنة ستضرك كما سبق أن الحقت الضرر بأبيك آدم وأمك حواء ، والشيطان هو المتمرد على منهج الله من الجن، والجن جنس منه المؤمن ومنه الكافر. فقد قال الحق سبحانه: {وَأَنَّا منَّا الصالحون وَمنَّا دُونَ ذَلكَ ... } [الجن: ١١]

والشيطان المتمرد من هذا الجنس على منهج الله ليس واحداً، واقرأ قول الحق سبحانه: {أَفَتَتَّخذُونَهُ وَذُرّيَّتَهُ أَوْليَآءَ من دُوني وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ... } [الكهف: ٥٠]

قال في المفردات في غريب القرآن : أصل الفَتْن: إدخال الذّهب النار لتظهر جودته من رداءته، واستعمل في إدخال الإنسان النار. قال تعالى: يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّار يُفْتَنُونَ [الذاريات/ ١٣] ، وتارة في الاختبار نحو: وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً [طه/ ٤٠] ، وجعلت الفتنة كالبلاء في أنهما يستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدّة ورخاء، وهما في الشّدّة أظهر معنى وأكثر استعمالا، وقد قال فيهما: وَنَبْلُوكُمْ بالشَّرّ وَالْخَيْر فتْنَةً [الأنبياء/ ٣٥] . وقال في الشّدّة: إنَّما نَحْنُ فتْنَةٌ [البقرة/ ١٠٢] ، وَالْفتْنَةُ أَشَدُّ منَ الْقَتْل [البقرة/ ١٩١] ، .. وقال: وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتنُوكَ [المائدة/ ٤٩] ، وَإنْ كادُوا لَيَفْتنُونَكَ [الإسراء/ ٧٣] ، أي: يوقعونك في بليّة وشدّة في صرفهم إيّاك عمّا أوحي إليك وقوله: وَاعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فتْنَةٌ [التغابن/ ١٥] ، فقد سمّاهم هاهنا فتنة اعتبارا بما

ينال الإنسان من الاختبار بهم، وسمّاهم عدوّا في قوله: إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ [التغابن/ ١٤] ، اعتبارا بما يتولّد منهم، وجعلهم زينة في قوله: زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَالْبَنِينَ ... الآية [آل عمران/ ١٤] ، اعتبارا بأحوال الناس في تزيّنهم بهم، وقوله: الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ [العنكبوت/ ١ - ٢] ، أي: لا يختبرون فيميّز خبيثهم من طيّبهم، كما قال: لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ [الأنفال/ ٣٧] ، وقوله: أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ [التوبة/ ١٢٦] ، فإشارة إلى ما قال: وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ ... الآية [البقرة/ ١٥٥] ، والْفِتْنَةُ من الأفعال التي تكون من الله تعالى، ومن العبد كالبليّة والمصيبة، والقتل والعذاب وغير ذلك من الأفعال الكريهة، ومتى كان من الله يكون على وجه الحكمة، ومتى كان من الإنسان بغير أمر الله يكون بضدّ ذلك، ولهذا يذّمّ الله الإنسان بأنواع الفتنة في كلّ مكان نحو قوله: وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ [البقرة/ ١٩١] ، إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ [البروج/ ١٠] ، ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ [الصافات/ ١٦٢] ، أي: بمضلّين، وقوله: بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ [القلم/ ٦] . قال الأخفش. الْمَفْتُونُ: الفتنة.

ومن كيده للإنسان: أنه يورده الموارد التي يخيل إليه أن فيها منفعته، ثم يُصْدِرهُ المصادر التي فيها عطبه، ويتخلى عنه ويسلمه ويقف يشمت به، ويضحك منه، فيأمره بالسرقة والزنا والقتل، ويدل عليه ويفضحه، قال تعالى: {وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمَ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَالا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال: ٤٨] .

وكذلك فعل بالراهب الذى قتل المرأة وولدها، أمره بالزنا ثم بقتلها، ثم دل أهلها عليه، وكشف أمره لهم، ثم أمره بالسجود له، فلما فعل فر عنه وتركه. وفيه أنزل الله سبحانه: {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} [الحشر: ١٦] .

ومن كيد عدو الله تعالى: أنه يخوّف المؤمنين من جنده وأوليائه، فلا يجاهدونهم ولا يأمرونهم بالمعروف، ولا ينهونهم عن المنكر، وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان، وقد أخبرنا الله سبحانه عنه بهذا فقال: {إِنَّمَا ذلكُمُ الشّيْطَانُ يُخَوّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُون إنْ كُنْتُمْ مُؤْمنينَ} [آل عمران: ١٧٥] .

ومن مكايده أنه يسحر العقل دائما حتى يكيده، ولا يسلم من سحره إلا من شاء الله، فيزين له الفعل الذى يضره حتى يخيل إليه أنه من أنفع الأشياء، وينفر من الفعل الذى هو أنفع الأشياء له، حتى يخيل له أنه يضره، فلا إله إلا الله. كم فتن بهذا السحر من إنسان، وكم حال به بين القلب وبين الإسلام والإيمان والإحسان؟ وكم جلا الباطل وأبرزه في صورة مستحسنة، وشنع الحق وأخرجه في صورة مستهجنة؟ وكم بهرج من الزيوف على الناقدين، وكم روّج من الزغل على العارفين؟ فهو الذى سحر العقول حتى ألقى أربابها في الأهواء المختلفة والآراء المتشعبة، وسلك بهم في سبل الضلال كل مسلك وألقاهم من المهالك في مهلك بعد مهلك، وزين لهم عبادة الأصنام، وقطيعة الأرحام، ووأد البنات، ونكاح الأمهات، ووعدهم الفوز بالجنات مع الكفر والفسوق والعصيان، وأبرز لهم الشرك في صورة التعظيم، والكفر بصفات الرب تعالى وعلوه على عرشه وتكلمه بكتبه في قالب التنزيه، وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر في قالب التودد إلى الناس، وحسن الخلق معهم، والعمل بقوله: {عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ} [المائدة: ١٠٥] والإعراض عما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام في قالب التقليد، والاكتفاء بقول من هو أعلم منهم، والنفاق والإدهان في دين الله في قالب العقل المعيشي الذى يندرج به العبد بين الناس.

فهو صاحب الأبوين حين أخرجهما من الجنة، وصاحب قابيل حين قتل أخاه ، وصاحب قوم نوح حين أغرقوا، وقوم عاد حين أهلكوا بالريح العقيم، وصاحب قوم صالح حين أهلكوا بالصيحة، وصاحب الأمة اللوطية حين خسف بهم وأتبعوا بالرجم بالحجارة، وصاحب

فرعون وقومه حين أخذوا الأخذة الرابية، وصاحب عباد العجل حين جرى عليهم ما جرى، وصاحب قريش حين دعوا يوم بدر، وصاحب كل هالك ومفتون.

وأول كيده ومكره: أنه كاد الأبوين بالأيمان الكاذبة: أنه ناصح لهما، وأنه إنما يريد خلودهما في الجنة، قال تعالى: {فَوَسْوسَ لَهُمَا الشّيْطَانُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُورِىَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَانَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هذه الشّجرَة إلا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا منَ الخالدينَ وَقَاسَمَهُمَا إنّى لَكُمَا لَمِنَ النّاصحينَ فَدَلاهُمَا بِغُرُورٍ} [الأعراف: ٢٠ – ٢٢] . إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان

ذكر أبو الفرج بن الجوزي عن أبى الوفاء بن عقيل: "أن رجلاً قال له: أنغمس في الماء مرارا كثيرة وأشك: هل صح لي الغسل أم لا ؟ فما ترى في ذلك؟ فقال له الشيخ: اذهب فقد سقطت عنك الصلاة. قال: وكيف؟ قال: لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال: "رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلاثَةٍ: الَمجْنُون حَتَّى يُفيقَ، وَالنّائم حَتَّى يَسْتَيقظَ، وَالصَّبىّ حَتّى يَبْلُغَ".

ومن ينغمس في الماء مرارا ويشك هل أصابه الماء أم لا، فهو مجنون". ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨]

(٢٣) رؤية الجان وخطر الشيطان

فرؤية ذوات الشياطين منتفية لا محالة، وقد يمكن الله رؤية الشياطين أو الجن متشكلة في أشكال الجسمانيات ، ولا يكون ذلك إلا على تشكل الشيطان أو الجن في صورة غير صورته الحقيقية، بتسخير الله لتتمكن منه الرؤية البشرية .

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ الأعراف عَن ابْن مَسْعُودٍ يَرْفَعُهُ قَالَ: إِنَّ للشَّيْطَان لَمَّةً بابْن آدَمَ، وَللْمَلَك لَمَّةً، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَان فَإِيعَادٌ بالشَّرّ، وَتَكْذيبٌ بالْحَقّ، وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلَك فَإِيعَادٌ بالْخَيْر وَتَصْديقٌ بالْحَقّ، فَمَنْ وَجَدَ منْ ذَلكَ شَيْئًا فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ منَ الله فَلْيَحْمَد اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ الأُخْرَى فَلْيَتَعَوَّذْ منَ الشَّيْطَان، ثُمَّ قَرَأَ {الشَّيْطَانُ يَعدُكُمُ الفقر ويأمركم بالفحشاء}

كَانَ النَّبيُّ ﷺ في الْمَسْجد وَعنْدَهُ أَزْوَاجُهُ فَرُحْنَ فَقَالَ لصَفيَّةَ بنْت حُيَيٍّ لَا تَعْجَلي حَتَّى أَنْصَرفَ مَعَك وَكَانَ بَيْتُهَا في دَار أُسَامَةَ فَخَرَجَ النَّبيُّ ﷺ مَعَهَا فَلَقيَهُ رَجُلَان منْ الْأَنْصَار فَنَظَرَا إلَى النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ ثُمَّ أَجَازَا وَقَالَ لَهُمَا النَّبيُّ ﷺ تَعَالَيَا إنَّهَا صَفيَّةُ بنْتُ حُيَيٍّ قَالَا سُبْحَانَ الله يَا رَسُولَ الله قَالَ إنَّ الشَّيْطَانَ يَجْري منْ الْإنْسَان مَجْرَى الدَّم وَإنّي خَشيتُ أَنْ يُلْقيَ في أَنْفُسكُمَا شَيْئًا
خ

عَنْ عَليّ بْن حُسَيْنٍ عَنْ صَفيَّةَ بنْت حُيَيٍّ قَالَتْ كَانَ النَّبىُّ -ﷺ- مُعْتَكفًا فَأَتَيْتُهُ أَزُورُهُ لَيْلاً فَحَدَّثْتُهُ ثُمَّ قُمْتُ لأَنْقَلبَ فَقَامَ مَعىَ ليَقْلبَنى. وَكَانَ مَسْكَنُهَا فى دَار أُسَامَةَ بْن زَيْدٍ فَمَرَّ رَجُلاَن منَ الأَنْصَار فَلَمَّا رَأَيَا النَّبىَّ ﷺ أَسْرَعَا فَقَالَ النَّبىُّ -ﷺ- « عَلَى رسْلكُمَا إنَّهَا صَفيَّةُ بنْتُ حُيَىٍّ ». فَقَالاَ سُبْحَانَ الله يَا رَسُولَ الله. قَالَ « إنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرى منَ الإنْسَان مَجْرَى الدَّم وَإنِّى خَشيتُ أَنْ يَقْذفَ فى قُلُوبكُمَا شَرًّا ». أَوْ قَالَ « شَيْئًا ».م

وجملة: {إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبيلُهُ} واقعة موقع التعليل للنهي عن الافتتان بفتنة الشيطان، والتحذير من كيده، لأن شأن الحذر أن يرصد الشيء المخوف بنظره ليحترس منه إذا رأى بوادره، فأخبر

الله الناس بأن الشياطين ترى البشر، وأن البشر لا يرونها، إظهارا للتفاوت بين جانب كيدهم وجانب حذر الناس منهم، فإن جانب كيدهم قوي متمكن وجانب حذر الناس منهم ضعيف، لأنهم يأتون المكيد من حيث لا يدري.

وذكر القبيل، وهو بمعنى القبيلة، للدلالة على أن له أنصارا ينصرونه على حين غفلة من الناس، وفي هذا المعنى تقريب حال عداوة الشياطين بما يعهده العرب من شدة أخذ العدو عدوه على غرة من المأخوذ، تقول العرب: أتاهم العدو وهم غارون.

وتأكيد الخبر بحرف التوكيد لتنزيل المخاطبين في إعراضهم عن الحذر من الشيطان وفتنته منزلة من يترددون في أن الشيطان يراهم وفي أنهم لا يرونه.

و{مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ} ابتداء مكان مبهم تنتفي فيه رؤية البشر، أي من كل مكان لا ترونهم فيه، فيفيد: إنه يراكم وقبيله وأنتم لا ترونه قريبا كانوا أو بعيدا، فكانت الشياطين محجوبين عن أبصار البشر، فكان ذلك هو المعتاد من الجنسين، فرؤية ذوات الشياطين منتفية لا محالة، وقد يمكن الله رؤية الشياطين أو الجن متشكلة في أشكال الجسمانيات، معجزة للأنبياء كما ورد في الصحيح: إن عفريتا من الجن تفلت علي الليلة في صلاتي فهممت أن أوثقه في سارية من المسجد الحديث، أو كرامة للصالحين من الأمم كما في حديث الذي جاء يسرق من زكاة الفطر عند أبي هريرة، وقول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة: ذلك شيطان كما في الصحيحين، ولا يكون ذلك إلا على تشكل الشيطان أو الجن في صورة غير صورته الحقيقية، بتسخير الله لتتمكن منه الرؤية البشرية، فالمرئي في الحقيقة الشكل الذي ماهية الشيطان من ورائه، وذلك بمنزلة رؤية مكان يعلم أن فيه شيطانا، وطريق العلم بذلك هو الخبر الصادق، فلولا الخبر لما علم ذلك.

التحرير والتنوير

قال ابن عباس جعلهم الله يجرون من بني آدم مجرى الدم وصدور بني آدم مساكن لهم فهم يرون بني آدم وبنو آدم لا يرونهم

وقد أخبر الله أن الشيطان يصل من الإنسان إلى قلبه، يقول الله: { الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ } [الناس:٥] وأخبر النبي عليه الصلاة والسلام بأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، يعني: ينفذ فيه ويسري في عروقه كما تسري روحه، يصل إلى جميع جسده ولا يرده شيء، إلا إذا استعاذ العبد بالله، ولجأ إليه؛ فإن الشيطان ينخنس، ولذلك سمي (بالوسواس الخناس).

ونحن مع ذلك لا نراهم، إذاً: هم عالم ونحن عالم، فليس لنا أن ننكرهم، ولا أن نجحدهم؛ لأن الله قد أخبر بهم، وخبر الله حق، وأخبر بأنهم يروننا في قوله تعالى: { إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ } [الأعراف:٢٧] يعني: إن الشياطين يرونكم هم وقبيلهم، يعني: وأمثالهم كالجن ونحوهم، يرونكم دون أن تروهم، فما دام أننا متحققون بوجود أرواح لا نراها، وبأن هناك أرواحاً مخلوقة كالجن والشياطين والملائكة؛ فنعرف بذلك قصر علمنا عن إدراك كنهها، وعن معرفة تركيبها.

الحماية من الجن والشياطين: الالتزام بالكتاب والسنّة: أعظم سبيل للحماية من الشيطان هو الالتزام بالكتاب والسنة علماً وعملاً، فالكتاب والسنة جاءا بالصراط المستقيم، والشيطان يجاهد كي يخرجنا عن هذا الصراط قال تعالى: (وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتَّبعوه ولا تتَّبعوا السُّبل فتفرَّق بكم عن سبيله ذلكم وصَّاكم به لعلَّكم تتَّقون) [الأنعام: ١٥٣] .

الالتجاء إلى الله والاحتماء به: خير سبيل للاحتماء من الشيطان وجنده هو الالتجاء إلى الله والاحتماء بجنابه، والاستعاذة به من الشيطان، فإنه عليه قادر ، فإذا أجار عبده فأنى يخلص الشيطان إليه، قال تعالى: (وإمَّا ينزغنَّك من الشَّيطان نزغٌ فاستعذ بالله إنَّه سميع عليم) [الأعراف: ١٩٩-٢٠٠] .

وقد أمر الله رسوله ﷺ بالاستعاذة بالله من همزات الشياطين وحضورهم: (وقل رب أعوذ بك من همزات الشَّياطين - وأعوذ بك رب أن يحضرون) [المؤمنون: ٩٧-٩٨] .

وهمزات الشياطين: نزغاتهم ووساوسهم، فالله يأمرنا بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة؛ إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً، ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم، لشدة العداوة بينه وبين آدم.

يقول ابن كثير في تفسيره: " والاستعاذة هي الالتجاء إلى الله تعالى، والالتصاق بجنابه من شرّ كل ذي شرّ ... ، ومعنى (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) ؛ أي: أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم، أن يضرني في ديني ودنياي، أو يصدني عن فعل ما أمرت به، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه، فإن الشيطان لا يكفّه عن الإنسان إلا الله؛ ولهذا أمر تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجنّ؛ لأنه لا يقبل رشوة، ولا يؤثر فيه جميل؛ لأنه شرير بالطبع، ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه ".

وقد كان ﷺ يكثر من الاستعاذة بربه من الشيطان بصيغ مختلفة، فكان يقول بعد دعاء الاستفتاح في الصلاة: (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه) ، روى ذلك أصحاب السنن الأربعة وغيرهم عن أبي سعيد .

لزوم جماعة المسلمين: ومما يبعد المسلم عن الوقوع في أحابيل الشيطان أن يعيش في ديار الإسلام. ويختار لنفسه الفئة الصالحة التي تعينه على الحق، وتحضّه عليه، وتذكره بالخيرات، فإن في الاتحاد والتجمع قوة وأي قوة، عن ابن عمر قال: خطبنا عمر بالجابية، فقال: يا أيها الناس، إني قمت فيكم كمقام رسول الله ﷺ فينا، فكان مما قال: (عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد..). والجماعة جماعة المسلمين، وإمام المسلمين، ولا قيمة للجماعة في الإسلام ما لم تلتزم بالحق: الكتاب والسنة، فعن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من ثلاثة في قرية ولا بدو، لا تقام فيهم الصلاة، إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة، فإنما يأكل الذئب القاصية)

كشف مخططات الشيطان ومصائده: على المسلم أن يتعرف على سبله ووسائله في الإضلال، ويكشف ذلك للناس، وقد فعل ذلك القرآن، وقام بهذه المهمة الرسول صلى الله عليه وسلم خير قيام، فالقرآن عرفنا الأسلوب الذي أغوى الشيطان به آدم. والرسول صلى الله عليه وسلم كان يعرف الصحابة كيف يسترق الشيطان السمع، ويلقي بالكلمة التي سمع في أذن الكاهن أو الساحر ومعها مائة كذبة، يبين ذلك لهم كي لا ينخدعوا بأمثال هؤلاء، ويبين لهم كيف

يوسوس لهم ويشغلهم في صلاتهم وعبادتهم، وكيف يحاول الشيطان أن يوهمهم بأن وضوؤهم قد فسد، والأمر ليس كذلك، وكيف يفرق بين المرء وزوجه، وكيف يوسوس للمرء، فيقول له: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟

أسلحة المؤمن في حربه مع الشيطان

مخالفة الشيطان: يأتي الشيطان في صورة ناصح يحرص على الإنسان كما سبق، فعلى المرء أن يخالف ما يأمر به، ويقول له: لو كنت ناصحاً أحداً لنصحت نفسك، فقد أوقعت نفسك في النار، وجلبت لها غضب الجبّار، فكيف ينصح غيره من لا ينصح نفسه.

يقول الحارث بن قيس: " إذا أتاك الشيطان وأنت تصلي، فقال: إنك ترائي فزدها طولاً " وهذا فقه جيد منه، رحمه الله.

وإذا علمنا أنّ أمراً ما يحبّه الشيطان، ويتصف به، فعلينا أن نخالفه، فمثلاً الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله، ويأخذ بشماله، لذا وجبت علينا مخالفته. روى أبو هريرة: أن النبي ﷺ قال: (ليأكل أحدكم بيمينه، وليشرب بيمينه، وليأخذ بيمينه، وليعط بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله، ويعطي بشماله، ويأخذ بشماله) . والشيطان يشاركنا في الشرب إذا شربنا، ونحن وقوف، ولذا أرشدنا الرسول ﷺ إلى الشرب ونحن جلوس. ورغّبنا الرسول ﷺفي القيلولة، معلّلاً ذلك بأن الشياطين لا تقيل، (قيلوا، فإنّ الشياطين لا تقيل) . رواه أبو نعيم في الطبّ، بإسناد حسن . وحذرنا القرآن من الإسراف، وقد عدّ المبذرين إخوان الشياطين، وما ذلك إلا لأن الشياطين تحب إضاعة المال وإنفاقه في غير وجهه. ومن الإسراف الإكثار من الأثاث والفراش الذي لا لزوم له، روى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺذكر الفرش فقال: (فراش للرجل، وفراش لامرأته، وفراش للضيف، والرابع للشيطان) .

ومن هذا المنطلق أمرنا الرسول ﷺ بأن نميط الأذى عن اللقمة التي تسقط من أحدنا، ولا نتركها للشيطان، عن جابر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه، حتى يحضره عند طعامه، فإذا سقطت اللقمة، فليمط ما كان بها من

أذى، ثم ليأكلها، ولا يدعها للشيطان، فإذا فرغ فليلعق أصابعه، فإنه لا يدري في أي طعامه تكون البركة) يراجع كتاب عالم الجن والشياطين لعمر الأشقر

الجن لا يرى ويرى اذا تشكل على صورة أخرى فهم أعطوا القدرة على التشكل كالملائكة .

أَخْبَرَنِى أَبُو السَّائِب أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىّ فِى بَيْتِه قَالَ فَوَجَدْتُهُ يُصَلِّى فَجَلَسْتُ أَنْتَظِرُهُ حَتَّى يَقْضِىَ صَلاَتَهُ فَسَمِعْتُ تَحْرِيكًا فِى عَرَاجِينَ فِى نَاحِيَةِ الْبَيْت فَالْتَفَتُّ فَإِذَا حَيَّةٌ فَوَثَبْتُ لأَقْتُلَهَا فَأَشَارَ إِلَىَّ أَن اجْلِسْ. فَجَلَسْتُ فَلَمَّا انْصَرَفَ أَشَارَ إِلَى بَيْتٍ فِى الدَّار فَقَالَ أَتَرَى هَذَا الْبَيْتَ فَقُلْتُ نَعَمْ. قَالَ كَانَ فِيه فَتًى منَّا حَديثُ عَهْدٍ بعُرْسٍ – قَالَ – فَخَرَجْنَا مَعَ رَسُول اللهِ -ﷺ- إِلَى الْخَنْدَق فَكَانَ ذَلكَ الْفَتَى يَسْتَأْذنُ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- بأَنْصَاف النَّهَار فَيَرْجعُ إِلَى أَهْله فَاسْتَأْذَنَهُ يَوْمًا فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- « خُذْ عَلَيْكَ سلاَحَكَ فَإِنّى أَخْشَى عَلَيْكَ قُرَيْظَةَ ». فَأَخَذَ الرَّجُلُ سلاَحَهُ ثُمَّ رَجَعَ فَإِذَا امْرَأَتُهُ بَيْنَ الْبَابَيْن قَائمَةً فَأَهْوَى إِلَيْهَا الرُّمْحَ لِيَطْعُنَهَا به وَأَصَابَتْهُ غَيْرَةٌ فَقَالَتْ لَهُ اكْفُفْ عَلَيْكَ رُمْحَكَ وَادْخُل الْبَيْتَ حَتَّى تَنْظُرَ مَا الَّذى أَخْرَجَنى. فَدَخَلَ فَإِذَا بحَيَّةٍ عَظيمَةٍ مُنْطَوِيَةٍ عَلَى الْفرَاش فَأَهْوَى إِلَيْهَا بالرُّمْح فَانْتَظَمَهَا به ثُمَّ خَرَجَ فَرَكَزَهُ فِى الدَّار فَاضْطَرَبَتْ عَلَيْه فَمَا يُدْرَى أَيُّهُمَا كَانَ أَسْرَعَ مَوْتًا الْحَيَّةُ أَم الْفَتَى قَالَ فَجِئْنَا إِلَى رَسُول اللهِ -ﷺ- فَذَكَرْنَا ذَلكَ لَهُ وَقُلْنَا ادْعُ اللهَ يُحْيِيه لَنَا. فَقَالَ « اسْتَغْفرُوا لصَاحبكُمْ ». ثُمَّ قَالَ « إِنَّ بالْمَدينَة جنًّا قَدْ أَسْلَمُوا فَإِذَا رَأَيْتُمْ منْهُمْ شَيْئًا فَآذنُوهُ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ فَإِنْ بَدَا لَكُمْ بَعْدَ ذَلكَ فَاقْتُلُوهُ فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ ». مسلم

(٢٤) الزينة عند كل مسجد والطعام

الزِّينَةُ مَا يُوَارِي الْعَوْرَةَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ لِطَوَافٍ أَوْ صَلَاةٍ ، في قلة الأكل منافع كثيرة، منها أن يكون الرجل أصح جسما وأجود حفظا وأزكى فهما وأقل نوما وأخف نفسا. وقد كانت العرب تمتدح بقلة الأكل وتذم بكثرته.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ الأعراف

عنْ ابْن عَبَّاسٍ قَالَ كَانَتْ الْمَرْأَةُ تَطُوفُ بِالْبَيْت وَهيَ عُرْيَانَةٌ فَتَقُولُ مَنْ يُعيرُني تطْوَافًا تَجْعَلُهُ عَلَى فَرْجهَا وَتَقُولُ الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ فَمَا بَدَا منْهُ فَلَا أُحلُّهُ فَنَزَلَتْ هَذه الْآيَةُ خُذُوا زينَتَكُمْ عنْدَ كُلِّ مَسْجدٍ(م)

قال صاحب زاد المسير : قوله تعالى يا بني آدم خذوا زينتكم سبب نزولها أن ناسا من الأعراب كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال بالنهار والنساء بالليل وكانت المرأة تعلق على فرجها سيورا وتقول ... اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحله

وقال الزهري : كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحمس قريش وأحلافها فمن جاء من غيرهم وضع ثيابه وطاف في ثوبي أحمس فان لم يجد من يعيره من الحمس ألقى ثيابه وطاف عريانا فان طاف في ثياب نفسه جعلها حراما عليه إذا قضى الطواف فلذلك جاءت هذه الآية وفي هذه الزينة قولان

أحدهما أنها الثياب ثم فيه ثلاثة أقوال *أحدها* أنه ورد في ستر العورة في الطواف قاله ابن عباس والحسن في جماعة والثاني أنه ورد في ستر العورة في الصلاة قاله مجاهد والزجاج *والثالث* أنه ورد في التزين بأجمل الثياب في الجمع والأعياد ذكره الماوردي

والثاني أن المراد بالزينة المشط قاله أبو رزين

قال القرطبي في تفسيره : فيه سبع مسائل: الأولى - قوله تعالى: (يا بنى آدم) هو خطاب لجميع العالم، وإن كان المقصود بها من كان يطوف من العرب بالبيت عريانا، فإنه عام في كل مسجد للصلاة.لأن العبرة للعموم لا للسبب.

ومن العلماء من أنكر أن يكون المراد به الطواف، لأن الطواف لا يكون إلا في مسجد واحد، والذي يعم كل مسجد هو الصلاة. وهذا قول من خفي عليه مقاصد الشريعة.

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال: كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة وتقول: من يعيرني تطوافا ؟ تجعله على فرجها.

وتقول: اليوم يبدو بعضه أو كله * وما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية " خذوا زينتكم عند كل مسجد " التطواف (بكسر التاء).

وهذه المرأة هي ضباعة بنت عامر بن قرط، قاله القاضي عياض.

وفي صحيح مسلم أيضا عن هشام بن عروة عن أبيه قال: كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحمس ، والحمس قريش وما ولدت، كانوا يطوفون بالبيت عراة إلا أن تعطيهم الحمس ثيابا فيعطي الرجال الرجال والنساء النساء. وكانت الحمس لا يخرجون من المزدلفة، وكان الناس كلهم يقفون بعرفات

في غير مسلم: ويقولون نحن أهل الحرم، فلا ينبغي لأحد من العرب أن يطوف إلا في ثيابنا، ولا يأكل إذا دخل أرضنا إلا من طعامنا. فمن لم يكن له من العرب صديق بمكة يعيره ثوبا ولا يسار يستأجره به كان بين أحد أمرين: إما أن يطوف بالبيت عريانا، وإما أن يطوف في ثيابه، فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه عنه فلم يمسه أحد. وكان ذلك الثوب يسمى اللقى، قال قائل من العرب:

كفى حزنا كري عليه كأنه * لقى بين أيدي الطائفين حريم

فكانوا على تلك الجهالة والبدعة والضلالة حتى بعث الله نبيه محمدا ﷺ ، فأنزل الله تعالى: " يا بني آدم خذوا زينتكم " الآية. وأذن مؤذن رسول الله ﷺ : ألا لا يطوف بالبيت عريان.

قلت: ومن قال بأن المراد الصلاة فزينتها النعال، لما رواه كرز بن وبرة عن عطاء عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال ذات يوم: (خذوا زينة الصلاة) قيل: وما زينة الصلاة ؟ قال: (البسوا نعالكم فصلوا فيها).

الثانية – دلت الآية على وجوب ستر العورة وذهب جمهور أهل العلم إلى أنها فرض من فروض

الصلاة.

وقال الأبهري هي فرض في الجملة، وعلى الإنسان أن يسترها عن أعين الناس في الصلاة وغيرها.

وهو الصحيح، لقوله عليه السلام للمسور بن مخرمة: (أرجع إلى ثوبك فخذه ولا تمشوا عراة). أخرجه مسلم.

وذهب إسماعيل القاضي إلى أن ستر العورة من سنن الصلاة، وأحتج بأنه لو كان فرضا في الصلاة لكان العريان لا يجوز له أن يصلي، لأن كل شيء من فروض الصلاة يجب الإتيان به مع القدرة عليه، أو بدله مع عدمه، أو تسقط الصلاة جملة، وليس كذلك.

قال ابن العربي: وإذا قلنا إن ستر العورة فرض في الصلاة فسقط ثوب إمام فانكشف دبره وهو راكع فرفع رأسه فغطاه أجزأه، قاله ابن القاسم.

وفي البخاري والنسائي عن عمرو بن سلمة قال: لما رجع قومي من عند النبي ﷺ قالوا قال: (ليؤمكم أكثركم قراءة للقرآن). قال: فدعوني فعلموني الركوع والسجود، فكنت أصلي بهم وكانت علي بردة مفتوقة، وكانوا يقولون لأبي: ألا تغطي عنا است ابنك. لفظ النسائي.

وثبت عن سهل بن سعد قال: لقد كانت الرجال عاقدي أزرهم في أعناقهم من ضيق الأزر خلف رسول الله ﷺ في الصلاة كأمثال الصبيان، فقال قائل: يا معشر النساء، لا ترفعن رؤوسكن حتى ترفع الرجال. أخرجه البخاري والنسائي وأبو داود.

الثالثة – واختلفوا إذا رأى عورة نفسه، فقال الشافعي: إذا كان الثوب ضيقا يزره أو يخلله بشيء لئلا يتجافى القميص فترى من الجيب العورة، فإن لم يفعل ورأى عورة نفسه أعاد الصلاة.

وهو قول أحمد ، ورخص مالك في الصلاة في القميص محلول الأزرار، ليس عليه سراويل. وهو قول أبي حنيفة وأبي ثور. وكان سالم يصلي محلول الأزرار. فإن كان إماما فلا يصلي إلا بردائه، لأنه من الزينة. وقيل: من الزينة الصلاة في النعلين، رواه أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصح. وقيل: زينة الصلاة رفع الأيدي في الركوع وفي الرفع منه. قال أبو عمر: لكل شيء زينة

وزينة الصلاة التكبير ورفع الأيدي.

وقال عمر ﷺ : إذا وسع الله عليكم فأوسعوا على أنفسكم، جمع رجل عليه ثيابه، صلى في إزار ورداء، في إزار وقميص، في إزار وقباء، في سراويل ورداء، في سراويل وقميص، في سراويل وقباء - وأحسبه قال: في تبان وقميص - في تبان ورداء، في تبان وقباء. رواه البخاري والدارقطني. التبان (بضم المثناة وتشديد الموحدة) سراويل صغير مقدار شبر يستر العورة المغلظة فقط.

الرابعة - قوله تعالى: (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) قال ابن عباس: أحل الله في هذه الآية الأكل والشرب ما لم يكن سرفا أو مخيلة. فأما ما تدعو الحاجة إليه، وهو ما سد الجوعة وسكن الظمأ، فمندوب إليه عقلا وشرعا، لما فيه من حفظ النفس وحراسة الحواس، ولذلك ورد الشرع بالنهي عن الوصال، لأنه يضعف الجسد ويميت النفس، ويضعف عن العبادة، وذلك يمنع منه الشرع وتدفعه العقل. وليس لمن منع نفسه قدر الحاجة حظ من بر ولا نصيب من زهد، لأن ما حرمها من فعل الطاعة بالعجز والضعف أكثر ثوابا وأعظم أجرا.

وقد اختلف في الزائد على قدر الحاجة على قولين: فقيل حرام، وقيل مكروه.

قال ابن العربي: وهو الصحيح، فإن قدر الشبع يختلف باختلاف البلدان والأزمان والأسنان والطعمان.

ثم قيل: في قلة الأكل منافع كثيرة، منها أن يكون الرجل أصح جسما وأجود حفظا وأزكى فهما وأقل نوما وأخف نفسا.

وفي كثرة الأكل كظ المعدة ونتن التخمة ، ويتولد منه الأمراض المختلفة، فيحتاج من العلاج أكثر مما يحتاج إليه القليل الأكل.

وقال بعض الحكماء: أكبر الدواء تقدير الغذاء.

وقد بين النبي ﷺ هذا المعنى بيانا شافيا يغني عن كلام الأطباء فقال: (ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطن بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث

لنفسه). خرجه الترمذي من حديث المقدام بن معدي كرب.

قال علماؤنا: لو سمع بقراط هذه القسمة لعجب من هذه الحكمة.

ويذكر أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق فقال لعلي بن الحسين: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان.

فقال له علي: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابنا.

فقال له: ما هي ؟ قال قوله عز وجل: " وكلوا وأشربوا ولا تسرفوا ".

فقال النصراني: ولا يؤثر عن رسولكم شيء من الطب.

فقال علي: جمع رسول الله ﷺ الطب في ألفاظ يسيرة .

قال: ما هي ؟ قال: (المعدة بيت الأدواء والحمية رأس كل دواء وأعط كل جسد ما عودته).

فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبا.

قلت: ويقال إن معالجة المريض نصفان: نصف دواء ونصف حمية: فإن اجتمعا فكأنك بالمريض قد برأ وصح.

وإلا فالحمية به أولى، إذ ينفع دواء مع ترك الحمية. ولقد تنفع الحمية مع ترك الدواء. ولقد قال رسول الله ﷺ : (أصل كل دواء الحمية).

والمعني بها – والله أعلم – أنها تغني عن كل دواء، ولذلك يقال: إن الهند جل معالجتهم الحمية، يمتنع المريض عن الأكل والشراب والكلام عدة أيام فيبرأ ويصح.

الخامسة – روى مسلم عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (الكافر يأكل في سبعة أمعاء والمؤمن يأكل في معي واحد). وهذا منه ﷺ حض على التقليل من الدنيا والزهد فيها والقناعة بالبلغة. وقد كانت العرب تمتدح بقلة الأكل وتذم بكثرته.

كما قال قائلهم:

تكفيه فلذة كبد إن ألم بها * من الشواء ويروي شربه الغمر

وقالت أم زرع في ابن أبي زرع: ويشبعه ذراع الجفرة.

وقال حاتم الطائي يذم بكثرة الأكل: فإنك إن أعطيت بطنك سؤله * وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا وقال الخطاب: معنى قوله (ﷺ): المؤمن يأكل في معي واحد أنه يتناول دون شبعه، ويؤثر على نفسه ويبقي من زاده لغيره، فيقنعه ما أكل.

والتأويل الأول أولى والله أعلم.

وقيل في قوله عليه السلام: (والكافر يأكل في سبعة أمعاء) ليس على عمومه، لأن المشاهدة تدفعه، فإنه قد يوجد كافر أقل أكلا من مؤمن، ويسلم الكافر فلا يقل أكله ولا يزيد.

وقيل: هو إشارة إلى معين.

ضاف النبي ﷺ ضيف كافر يقال: إنه الجهجاه الغفاري. فشرب حلاب سبع شياه، ثم إنه أصبح فأسلم فشرب حلاب شاة فلم يستتمه، فقال النبي ﷺ ذلك. فكأنه قال: هذا الكافر. والله أعلم.

وقيل: إن القلب لما تنور بنور التوحيد نظر إلى الطعام بعين التقوى على الطاعة، فأخذ منه قدر الحاجة، وحين كان مظلما بالكفر كان أكله كالبهيمة ترتع حتى تثلط.

واختلف في هذه الأمعاء، هل هي حقيقة أم لا ؟ فقبل حقيقة، ولها أسماء معروفة عند أهل العلم بالطب والتشريح.

وقيل: هي كنايات عن أسباب سبعة يأكل بها النهم: يأكل للحاجة والخبر والشم والنظر واللمس والذوق ويزيد استغناما.

وقيل: المعنى أن يأكل أكل من له سبعة أمعاء. والمؤمن بخفة أكله يأكل أكل من ليس له إلا معى واحد، فيشارك الكافر بجزء من أجزاء أكله، ويزيد الكافر عليه بسبعة أمثال.

والمعى في هذا الحديث هو المعدة.

السادسة - وإذا تقرر هذا فأعلم أنه يستحب للإنسان غسل اليد قبل الطعام وبعده، لقوله عليه السلام: (الوضوء قبل الطعام وبعده بركة). وكذا في التوراة رواه زاذان عن سلمان.

وكان مالك يكره غسل اليد النظيفة. والاقتداء بالحديث أولى.

ولا يأكل طعاما حتى يعرف أحارا هو أم باردا ؟ فإنه إن كان حارا فقد يتأذى.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: (أبردوا بالطعام فإن الحار غير ذي بركة) حديث صحيح.

ولا يشمه فإن ذلك من عمل البهائم، بل إن اشتهاه أكله، وإن كرهه تركه، ويصغر اللقمة ويكثر مضغها لئلا يعد شرها.

ويسمي الله تعالى في أوله ويحمده في آخره. ولا ينبغي أن يرفع صوته بالحمد إلا أن يكون جلساؤه قد فرغوا من الأكل، لأن في رفع الصوت منعا لهم من الأكل.

وآداب الأكل كثيرة، هذه جملة منها.

وللشراب أيضا آداب معروفة، تركنا ذكرها لشهرتها.

وفي صحيح مسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وإذا شرب فليشرب بيمينه فإن الشيطان يأكل بشمال ويشرب بشماله).

السابعة - قوله تعالى: " ولا تسرفوا " أي في كثرة الأكل، وعنه يكون كثرة الشرب، وذلك يثقل المعدة، ويثبط الإنسان عن خدمة ربه، والأخذ بحظه من نوافل الخير.

فإن تعدى ذلك إلى ما فوقه مما يمنعه القيام الواجب عليه حرم عليه، وكان قد أسرف في مطعمه ومشربه.

روى أسد بن موسى من حديث عون بن أبي جحيفة عن أبيه قال: أكلت ثريدا بلحم سمين، فأتيت النبي ﷺ وأنا أتجشى ، فقال: (اكفف عليك من جشائك أبا جحيفة فإن أكثر الناس شبعا في الدنيا أطولهم جوعا يوم القيامة).

فما أكل أبو جحيفة بمل ء بطنه حتى فارق الدنيا، وكان إذا تغدى لا يتعشى، وإذا تعشى لا يتغدى .التجشؤ: تنفس المعدة عند الامتلاء في ى وع وز: ثريد بر.

قلت: وقد يكون هذا معنى قوله عليه السلام: (المؤمن يأكل في معي واحد) أي التام الإيمان، لأن من حسن إسلامه وكمل إيمانه كأبي جحيفة تفكر فيما يصير إليه من أمر الموت وما بعده، فيمنعه الخوف والإشفاق من تلك الأهوال من استيفاء شهواته. والله أعلم.

وقال ابن زيد: معنى " ولا تسرفوا " لا تأكلوا حراما. وقيل: (من السرف أن تأكل كل ما

اشتهيت). رواه أنس بن مالك عن النبي ﷺ ، خرجه ابن ماجة في سننه.

وقيل: من الإسراف الأكل بعد الشبع. وكل ذلك محظور.

وقال لقمان لابنه: يا بني لا تأكل شبعا فوق شبع، فإنك إن تنبذه للكلب خير من أن تأكله.

وسأل سمرة بن جندب عن ابنه ما فعل ؟ قالوا: بشم البارحة. قال: بشم ! فقالوا: نعم. قال: أما إنه لو مات ما صليت عليه.

وقيل: إن العرب في الجاهلية كانوا لا يأكلون دسما في أيام حجهم، ويكتفون باليسير من الطعام، ويطوفون عراة. فقيل لهم: " خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا " في تحريم ما لم يحرم عليكم.

لقد اهتم الفقهاء بهذه الآية وجعلوها في باب ستر العورة في الصلاة قَالَ مُجَاهِدٌ: مَا يُوَارِي عَوْرَتَكَ وَلَوْ عَبَاءَةٌ. قَالَ الْكَلْبِيُّ: الزِّينَةُ مَا يُوَارِي الْعَوْرَةَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ لِطَوَافٍ أَوْ صَلَاةٍ. البغوي

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فصل في "اللباس في الصلاة" وهو أخذ الزينة عند كل مسجد: الذي يسميه الفقهاء: "باب ستر العورة في الصلاة" فإن طائفة من الفقهاء ظنوا أن الذي يستر في الصلاة هو الذي يستر عن أعين الناظرين وهو العورة وأخذ ما يستر في الصلاة من قوله: {وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ} ثم قال {وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ} يعني الباطنة {إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ} الآية، فقالوا: يجوز لها في الصلاة أن تبدي الزينة الظاهرة دون الباطنة

قال في حجاب المرأة ولباسها في الصلاة : وفي الصلاة نوع ثالث فإن المرأة لو صلت وحدها كانت مأمورة بالاختمار ، وفي غير الصلاة يجوز لها كشف رأسها في بيتها فأخذ الزينة في الصلاة لحق الله فليس لأحد أن يطوف بالبيت عريانا ولو كان وحده بالليل ، ولا يصلي عريانا ولو كان وحده ، فعلم أن أخذ الزينة في الصلاة لم يكن ليحتجب عن الناس فهذا نوع وهذا نوع.

حينئذ فقد يستر المصلي في الصلاة ما يجوز إبداؤه في غير الصلاة ، وقد يبدي في الصلاة ما يستره

عن الرجال.

فالأول: مثل المنكبين فإن النبي ﷺ نهى أن يصلي الرجل في الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شيء ، فهذا لحق الصلاة ويجوز له كشف منكبيه للرجال خارج الصلاة

وفي "تمام المنة في التعليق على فقه السنة" : وعن بريدة قال: نهى رسول الله ﷺ أن يصلي الرجل في ... سراويل وليس عليه رداء. رواه أبو داود والبيهقي".

وفي الحديث دلالة على أنه يجب على المصلي أن يستر من بدنه ما ليس بعورة وهو القسم الأعلى منه وذلك إن وجد كما يدل عليه حديث ابن عمر وغيره وظاهر النهي يفيد بطلان الصلاة ويؤكد ذلك قوله ﷺ :"لا يصلين أحدكم في الثوب الواحد ليس على عاتقه وفي رواية: عاتقيه" وفي أخرى: منكبيه منه شيء". رواه الشيخان وأبو داود وغيرهم وهو مخرج في "الإرواء" و "صحيح أبي داود".

قال الشوكاني في "نيل الأوطار":"وقد حمل الجمهور هذا النهي على التنزيه وعن أحمد: لا يصح صلاة من قدر على ذلك فتركه وعنه أيضا: تصح ويأثم."

وأغرب ابن حزم كعادته في التمسك بظاهريته فقال: "وفرض على الرجل إن صلى في ثوب واسع أن يطرح منه على عاتقه أو عاتقيه فإن لم يفعل بطلت صلاته فإن كان ضيقا اتزر به وأجزأه كان معه ثوب غيره أو لم يكن".

قلت: فوقف مع ظاهر الحديث ولم يوجب الرداء إذا استطاعه خلافا لحديث بريدة هذا وحديث ابن عمر أيضا فكأنه لم يقف عليهما.

قال الألباني في "جلباب المرأة المسلمة في الكتاب والسنة ": قلت: وهذا المعنى الذي ذكرنا في تفسير: {إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا} [النور: ٣١] هو المتبادر من سياق الآية، وقد اختلفت أقوال السلف في تفسيرها: فمن قائل: إنها الثياب الظاهرة.

ومن قائل: إنها الكحل والخاتم والسوار والوجه وغيرها من الأقوال التي رواها ابن جرير في "تفسيره" عن بعض الصحابة والتابعين ، ثم اختار هو أن المراد بهذا الاستثناء الوجه والكفان،

فقال: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عنى بذلك الوجه والكفين، يدخل في ذلك -إذا كان كذلك- الكحل والخاتم والسوار والخضاب، وإنما قلنا: ذلك أولى الأقوال في ذلك بالتأويل، لإجماع الجميع على أن على كل مصلٍّ أن يستر عورته في صلاته، وأن للمرأة أن تكشف وجهها وكفيها في صلاتها، وأن عليها أن تستر ما عدا ذلك من بدنها، إلا ما روي عن النبي -ﷺ- أنه أباح لها أن تبدي من ذراعها قدر النصف، فإذا كان ذلك من جميعهم إجماعًا؛ كان معلومًا بذلك أن لها أن تبدي من بدنها ما لم يكن عورة كما ذلك للرجال؛ لأن ما لم يكن عورة فغير حرام إظهاره، وإذا كان لها إظهار ذلك كان معلومًا أنه مما استثنى الله تعالى ذكره بقوله: {إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا} [النور: ٣١]؛ لأن كل ذلك ظاهر منها".

(٢٥) الأسماء حسنى

من الأمور المتقررة في عقيدة أهل السنة والجماعة أن أسماء الله الحسنى متضمنة للصفات، أسماء الله الحسنى كلها متفقة في الدلالة على نفسه المقدسة فمعنى الحي غير معنى العليم، ومعنى العليم غير معنى القدير، وهكذا . أسماء الخلق مخلوقة مستعارة وليست أسماؤهم نفس صفاتهم، بل مخالفة لصفاتهم

العليم الحكيم التواب الرحيم رب العزة ، هذه الأسماء وردت في قصة آدم فلا بأس من التعرف على معانيها وثمراتها قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ البقرة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ البقرة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ ص قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ الأعراف ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ الأعراف ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الأعراف

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ الحجر: ٣٦ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ ص: ٧٩ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ الحجر

من الأمور المتقررة في عقيدة أهل السنة والجماعة أن أسماء الله الحسنى متضمنة للصفات، فكل اسم يدل على معنى من صفاته ليس هو المعنى الذي دل عليه الاسم الآخر، فالعزيز متضمن لصفة العزة وهو مشتق منها، والخالق متضمن لصفة الخلق وهو مشتق منها، فأسماء الله مشتقة من صفاته وليست جامدة كما يزعم المعتزلة ومن وافقهم الذين ادَّعوا أنها أعلام جامدة لا معاني لها، فقالوا : سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، وعزيز بلا عزة، فسلبوا بذلك عن أسماء الله

معانيها.

فالرب تعالى يشتق له من أوصافه وأفعاله أسماء ولا يشتق له من مخلوقاته، وكل اسم من أسمائه فهو مشتق من صفة من صفاته أو فعل قائم به.

أسماء الله الحسنى كلها متفقة في الدلالة على نفسه المقدسة، ثم كل اسم يدل على معنى من صفاته ليس هو المعنى الذي دل عليه الاسم الآخر .

وذلك لأن أسماءه الحسنى لها اعتباران: اعتبار من حيث الذات ، واعتبار من حيث الصفات.

فهي أعلام باعتبار دلالتها على الذات ، وأوصاف باعتبار ما دلت عليه من المعاني.

وهي بالاعتبار الأول: مترادفة لدلالتها على مسمى واحد هو الله عز وجل، فـ"الحي، العليم، القدير، السميع، البصير، الرحمن، الرحيم، العزيز، الحكيم" كلها أسماء لمسمى واحد هو الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللهَّ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}. فأسماء الله تعالى تدل كلها على مسمى واحد، وليس دعاؤه باسم من أسمائه الحسنى يضاد دعاءه باسم آخر، بل كل اسم يدل على ذاته.

وهي بالاعتبار الثاني: متباينة لدلالة كل واحد منها على معناه الخاص، فمعنى الحي غير معنى العليم، ومعنى العليم غير معنى القدير، وهكذا .

الألفاظ المترادفة: هي ما اختلفت في ألفاظها واتحدت في مدلولها، فـ "الرحمن- السميع- القدير" اختلفت في ألفاظها واتحدت في دلالتها على مسمى الله.

وقد ذكر ابن كثير في تفسيره سبب نزولها فقال: "روى مكحول أن رجلا من المشركين سمع النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول في سجوده: "يا رحمن يا رحيم" فقال. إنه يزعم أنه يدعو واحدا وهو يدعو اثنين، فأنزل الله هذه الآية"

الألفاظ المتباينة: هي ما اختلفت في ألفاظها ومعانيها، فالسميع ليس كالقدير لفظا ومعنى.

النقطة الثانية: الوصف بها لا ينافي العلمية:

قال ابن القيم: "أسماء الله الحسنى هي أعلام وأوصاف، والوصف بها لا ينافي العلمية؛ بخلاف أوصاف العباد فإنها تنافي علميتهم؛ لأن أوصافهم مشتركة فنافتها العلمية المختصة، بخلاف أوصافه تعالى".

وقال رحمه الله: "أسماء الرب تعالى، أسماء كتبه، وأسماء نبيه صلى الله عليه وسلم هي أعلام دالة على معان هي بها أوصاف، فلا تضاد فيها العلمية الوصف بخلاف غيرها من أسماء المخلوقين، فهو الله الخالق، البارئ المصور القهار؛ فهذه أسماء له دالة على معان هي صفاته ... ".

قال الدارمي: "لا تقاس أسماء الله بأسماء الخلق؛ لأن أسماء الخلق مخلوقة مستعارة وليست أسماؤهم نفس صفاتهم، بل مخالفة لصفاتهم، وأسماء الله وصفاته ليس شيء منها مخالفا لصفاته، ولا شيء من صفاته مخالفا لأسمائه.

فمن ادعى أن صفة من صفات الله مخلوقة أو مستعارة فقد كفر وفجر؛ لأنك إذا قلت: (الله) فهو (الله) ، وإذا قلت: (الرحمن) فهو (الرحمن) وهو (الله) فإذا قلت: (الرحيم) فهو كذلك، وإذا قلت: (حكيم- عليم- حميد- مجيد- جبار- متكبر- قاهر- قادر) فهو كذلك هو (الله) سواء لا يخالف اسم له صفته ولا صفته اسما.

وقد يسمى الرجل حكيما وهو جاهل، وحَكَمًا وهو ظالم، وعزيزا وهو حقير، وكريما وهو لئيم، وصالحا وهو طالح، وسعيدا وهو شقي، ومحمودا وهو مذموم، وحبيبا وهو بغيض؛ وأسدا وحمارا؛ وكلبا وجديا، وكليبا؛ وهرا، وحنظلة، وعلقمة، وليس كذلك.

"اسم الله الحكيم"

واسم الله الحكيم يدل على ذات الله وعلى صفة الحكمة ، كيف ندعو الله باسمه الحكيم دعاء مسألة ودعاء عبادة ؟ فالحكيم من البشر هو الذي اتبع منهج الحكمة ووحد الله في اسمه الحكيم ، كما أنه من دعاء العبادة أن يدعو المسلم إلى ربه بالحكمة . والحكيم أيضا هو الذي يُحْكِم الأمر ويقضي فيه ويفصل دقائقه ويبين أسبابه ونتائجه

اسمه الحكيم ، فقد سمي الله نفسه به على سبيل الإطلاق مرادا به العلمية ودالا على الوصفية في كثير من النصوص القرآنية والحكيم اسم يدل على صيغة تعظيم لصاحب الحكمة ، والحكيم في حق الله تعالى بمعنى العليم بالأشياء الذي أوجدها على غاية الإحكام والإتقان والكمال ، وهو الذي يضع الأشياء في مواضعها ، ويعلم خواصها ومنافعها ، وهو الخبير بحقائق الأمور الذي يعلم ما خفي من أنواع العلوم ، أما الحكمة في حق العباد فهي الصواب في القول والعمل بقدر طاقة البشر .

مناظرة

ذا مناظرة جرت بين أبي الحسن الأشعري وشيخه أبي علي الجبائي ، فقال له : هل يجوز أن يسمى الله تعالى عاقلا ، فقال الجبائي : لا لأن العقل مشتق من العقال ، وهو المانع ، والمنع في حق الله محال ، فامتنع الإطلاق ، فقال أبو الحسن الأشعري : فقلت له : فعلى قياسك لا يسمى الله سبحانه حكيما لأن هذا الاسم مشتق من الحكمة والحكمة مشتقة من حكمة اللجام وهي الحديدة المانعة للدابة عن الخروج ، ويشهد لذلك قول حسان بن ثابت رضي الله عنه :

فنحكم بالقوافي من هجانا ونضربُ حين تختلط الدماء

وقول الآخر :

أبني حنفية حكموا سفهاءكم ، إني أخاف عليكمو أن أغضبا

أي نمنع بالقوافي من هجانا ، وامنعوا سفهاءكم .

فإذا كان اللفظ مشتقا من المنع ، والمنع على الله محال ، لزمك أن تمنع إطلاق حكيم على الله سبحانه وتعالى ، قال : فلم يجب الجبائي إلا أنه قال لي : فلم منعت أنت أن يسمى الله سبحانه عاقلا وأجزت أن يسمى حكيما ؟ قال : فقلت له : لأن طريقي في مأخذ أسماء الله الإذن الشرعي دون القياس اللغوي فأطلقت حكيما لأن الشرع أطلقه ومنعت عاقلا لأن الشرع منعه ولو أطلقه الشرع لأطلقته .

واسم الله الحكيم يدل على ذات الله وعلى صفة الحكمة بدلالة المطابقة ، وعلى ذات الله وحدها بالتضمن ، وعلى صفة الحكمة وحدها بدلالة التضمن ، ويدل باللزوم على الحياة والقيومية ، والعلم والقدرة ، والعزة والعظمة ، وكل ما يلزم لقيام الحكمة المطلقة وما يترتب عليها .

كيف ندعو الله باسمه الحكيم دعاء مسألة ودعاء عبادة ؟ دعاء المسألة كما في صحيح مسلم من حديث مُصْعَب بْن سَعْدٍ عَنْ أَبيه أنه قَالَ : (جَاءَ أعرابي إِلَى رَسُول الله ﷺ فَقَالَ عَلّمْنى كَلاَمًا أَقُولُهُ ، قَالَ : قُل لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ اللهُ أَكْبَرُ كَبيرًا وَالْحَمْدُ لله كَثيرًا ، سُبْحَانَ الله رَبِّ العَالَمِينَ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بالله العَزِيز الحَكيم ، قَالَ : فَهَؤُلاَءِ لِرَبِّى فَمَا لِي ؟ قَالَ : قُل اللهُمَّ اغْفرْ لِي وارحمني وَاهْدني وَارْزُقْني) .

أما دعاء العبادة ، فهو اختيار العبد لمنهج الله دليلا وهاديا ، لعلمه أن الكمال في اتباعه وأن الله وضعه عن علم وحكمة فشتان بين منهج من وضع علماء البشر ومنهج من وضع الحكيم الخبير يقول : (اقْتَرَبَت السَّاعَةُ وَانشَقَّ القَمَرُ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الأَنبَاء مَا فيه مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاث كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ) ، فالحكيم من البشر هو الذي اتبع منهج الحكمة ووحد الله في اسمه الحكيم : (كَمَا أَرْسَلنَا فيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) (البقرة:١٥١) (يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الأَلبَاب)

(البقرة:٢٦٩) (لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمنينَ إذْ بَعَثَ فيهمْ رَسُولاً منْ أَنْفُسهمْ يَتْلُو عَلَيْهمْ آيَاته وَيُزَكّيهمْ وَيُعَلّمُهُمُ الكتَابَ وَالحكْمَةَ وَإنْ كَانُوا منْ قَبْلُ لَفي ضَلالٍ مُبينٍ) (آل عمران:١٦٤) ، كما أنه من دعاء العبادة أن يدعو المسلم إلى ربه بالحكمة : (ادْعُ إلَى سَبيل رَبّكَ بالحكْمَة وَالمَوْعظَة الحَسَنَة وَجَادلْهُمْ بالَّتي هيَ أَحْسَنُ إنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبيله وَهُوَ أَعْلَمُ بالْمُهْتَدينَ) (النحل:١٢٥) . سلم جميع أوامره لأن جميعها على مقتضى الحكمة.

والحكيم أيضا هو الذي يُحْكم الأمر ويقضي فيه ويفصل دقائقه ويبين أسبابه ونتائجه ، فالحَكيمُ يجوز أَن يكون بمعنى حاكم مثل قَدير بمعنى قادر وعَليم بمعنى عالمٍ واسْتَحْكَمَ الرجلُ إذا تناهى عما يضره في دينه أَو دُنْياه ، يضع الأشياء في مواضعها ويعلم خواصها ومنافعها ويرتب أسبابها ونتائجها .

قال ابن القيم : (الحكيم من أسمائه الحسنى والحكمة من صفاته العلى ، والشريعة الصادرة عن أمره مبناها على الحكمة ، والرسول المبعوث بها مبعوث بالكتاب والحكمة ، والحكمة هي سنة الرسول وهي تتضمن العلم بالحق والعمل به والخبر عنه والأمر به فكل هذا يسمى حكمة ، وفي الأثر الحكمة ضالة المؤمن ، وفي الحديث إن من الشعر حكمة ، فكما لا يخرج مقدور عن علمه وقدرته ومشيئته فهكذا لا يخرج عن حكمته وحمده ، وهو محمود على جميع ما في الكون من خير وشر حمدا استحقه لذاته وصدر عنه خلقه وأمره ، فمصدر ذلك كله عن الحكمة

اسم الله العليم

واسم الله العليم يدل على ذات الله وصفة العلم بدلالة المطابقة ، وعلى ذات الله وحدها بالتضمن ، وعلى صفة العلم وحدها بدلالة التضمن، وعلم الله ﷻ له مراتب

فقد سمي الله نفسه به على سبيل الإطلاق مرادا به العلمية ودالا على الوصفية في كثير من النصوص القرآنية ، وفي صحيح البخاري من حديث عبد الله بن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ عنْدَ الكَرْب ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُّ العَليمُ الحَليمُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُّ رَبُّ العَرْش العَظيم لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُّ رَبُّ السَّمَاوَات وَرَبُّ الأَرْض رَبُّ العَرْش الكَريم .

وروى أبو داود وصححه الشيخ الألباني من حديث أَبى سَعيدٍ الخُدْري ﷺ أنه قَالَ : (كَانَ رَسُولُ اللهَّ ﷺإِذَا قَامَ منَ اللَّيْل كَبَّرَ ثُمَّ يَقُولُ : سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبحَمْدكَ وَتَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ وَلاَ إِلَهَ غَيْرُكَ ، ثُمَّ يَقُولُ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُّ ، ثَلاَثًا ثُمَّ يَقُولُ : اللهُّ أَكْبَرُ كَبيرًا ، ثَلاَثًا : أَعُوذُ باللهَّ السَّميع العَليم منَ الشَّيْطَان الرَّجيم منْ هَمْزه وَنَفْخه وَنَفْثه ، ثُمَّ يَقْرَأُ .

وروى أبو داود وصححه الشيخ الألباني من حديث أبان بن عُثْمَان بنَ عَفَّانَ عن أبيه أنه قال : سَمعْتُ رَسُولَ اللهَّ ﷺ يَقُولُ : مَنْ قَالَ بسْم اللهَّ الَّذي لاَ يَضُرُّ مَعَ اسْمه شَيْءٌ في الأَرْض وَلاَ في السَّمَاء وَهُوَ السَّميعُ العَليمُ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ لَمْ تُصبْهُ فَجْأَةُ بَلاَءٍ حَتَّى يُصْبحَ ، وَمَنْ قَالَهَا حينَ يُصْبحُ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ لَمْ تُصبْهُ فَجْأَةُ بَلاَءٍ حَتَّى يُمْسيَ ، قَالَ راوي الحديث : (فَأَصَابَ أَبَانَ بْنَ عُثْمَانَ الفَالجُ ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ الَّذي سَمعَ منْهُ الحَديثَ يَنْظُرُ إِلَيْه فَقَالَ لَهُ : مَا لَكَ تَنْظُرُ إِلَيَّ ؟ فَوَاللهَّ مَا كَذَبْتُ عَلَى عُثْمَانَ وَلاَ كَذَبَ عُثْمَانُ عَلَى النَّبي ﷺ ، وَلَكنَّ اليَوْمَ الَّذي أَصَابَني فيه مَا أَصَابَني غَضبْتُ فَنَسيتُ أَنْ أَقُولَهَا) . واسم الله العليم يدل على ذات الله وصفة العلم بدلالة المطابقة ، وعلى ذات الله وحدها بالتضمن ، وعلى صفة العلم وحدها بدلالة التضمن ، ويدل باللزوم على الحياة والقيومية ، والعلو القوة ، والقدرة والعزة ، وكل ما يلزم لقيام صفة العلم وما تؤدي إليه وعلم الله عز وجل له مراتب ، منها علمه بالشيء قبل كونه وهو سر الله في خلقة ، ضن به ربنا

سبحانه وتعالى ، لا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل ، وهو علم مفاتح الغيب وتقدير الأمور كما قال تعالى : (إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (قُل لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلا اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) ، ومن مراتب العلم علمه بالشيء وهو في اللوح المحفوظ بعد كتابته وقبل إنفاذ مشيئته ، فالله عز وجل كتب مقادير الخلائق في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة ، فالمخلوقات في اللوح عبارة عن كلمات ، وتنفيذ ما في اللوح من معلومات تضمنتها الكلمات ، مرهون بمشيئته في تحديد الأوقات المناسبة لأنواع الابتلاءات التي يحدثها لخلقه ، وكل ذلك عن علمه بما في اللوح من حسابات وتقديرات يقول تعالى : (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ) (الحج:٧٠) ، وقال تعالى : (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ، لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لا يُحِبُّ كُل مُخْتَالٍ فَخُورٍ) (الحديد:٢٣) ، ومن مراتب العلم علمه بالشيء حال كونه وتنفيذه ، وخلقه وتصنيعه ، كما قال تعالى : (اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الكَبِيرُ المُتَعَالِ) (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الغَفُورُ) (سبأ:٢) ومن مراتب العلم علمه بالشيء بعد كونه وتخليقه وإحاطته الكاملة بعد تمامه وفنائه ، فالله عز وجل لما قال : (وَهُوَ الذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمّىً ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (الأنعام:٦٠) (قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ) (قّ:٤) (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللهَ عَلامُ الغُيُوبِ) (التوبة:٧٨) ، فالله ﷻ عالم بما كان وما هو كائن وما سيكون وما لو كان كيف يكون على ما اقتضته حكمته البالغة كيف ندعو الله باسمه العليم دعاء مسألة ودعاء عبادة ؟ دعاء المسألة كما في صحيح البخاري من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ عِنْدَ الكَرْبِ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ

العَليمُ الحَليمُ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ رَبُّ العَرْش العَظيم لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ رَبُّ السَّماوَات وَرَبُّ الأَرْض رَبُّ العَرْش الكَريم .

أما دعاء العبادة فهو اعتقاد يدفع إلى الإيمان بأنه مهما بلغ عمله فهو إلى علم الله أحوج ، فيتواضع إلى علمه ويلين إلى خلقه بزيادة التقوى التي هي باب العلم ومفتاحها : (وَاتَّقُوا اللهَّ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُّ وَاللهُّ بكُلِّ شَيْءٍ عَليمٌ) (البقرة:٢٨٢) ، (نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذي علمٍ عَليمٌ) (يوسف:٧٦) كما أنه يسعد بتعليم الناس ابتغاء وجه الله الذي منحه وأعطاه من علمه ، ورد في سنن الترمذي وصححه الشيخ الألباني من حديث أَبى أُمَامَةَ البَاهليّ أنه قَالَ : ذُكرَ لرَسُول اللهَّ ﷺ رَجُلاَن أَحَدُهُمَا عَابدٌ وَالآخَرُ عَالمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ : فَضْلُ العَالم عَلَى العَابد كَفَضْلي عَلَى أَدْنَاكُمْ ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ : إنَّ اللهَّ وَمَلاَئكَتَهُ وَأَهْلَ السَّماوَات وَالأَرْض حَتَّى النَّمْلَةَ في جُحْرهَا وَحَتَّى الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّم النَّاس الخَيْرَ .

ورد اسم الله العليم في كتاب الله معرفا ومنونا مطلقا ومقيدا مرادا به العلمية ودالا على الوصفية وكمالها ، فمن ذلك قوله تعالى : { فَسَيَكْفيكَهُمُ اللهُّ وَهُوَ السَّميعُ العَليمُ } [البقرة:١٣٧] ، والاسم ورد مقرونا في الكتاب والسنة بأسماء أخرى كثيرة تحمل في اقترانها معان كبيرة ... فاقترن الاسم بالسميع والحكيم والعزيز والحليم والخلاق والقدير والفتاح والخبير ، وفي السنة ورد عند أبي داود وصححه الألباني من حديث أَبي سَعيدٍ الخُدْري (أن النبي ؟ قَالَ : (أَعُوذُ باللهَّ السَّميع العَليم منَ الشَّيْطَان الرَّجيم منْ هَمْزه وَنَفْخه وَنَفْثه) ، وتجد الإشارة هنا إلى أن ما انطبقت عليه شروط الإحصاء من الأسماء التي تدل على صفة العلم اسم الله العليم فقط ، ولم تنطبق على العالم والعلام والأعلم لأنها جميعا لم ترد في القرآن والسنة إلا مضافة مقيدة ، وهي في حقيقتها أوصاف تدخل تحت دلالة اسم الله العليم .

وعلم الله لا يسبقه جهل ولا يتبعه ضعف ووهن كعلم الإنسان الذي يحتاج لزيادة لأنه قليل قَالَ تَعَالَىَ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥ ﴾ الإسراء قَالَ تَعَالَىَ: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ

﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ طه: ١١٤ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ النحل قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ٧٠﴾ النحل قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا﴾ الحج: ٥

اسم الله التواب

والتواب هو الله سمي بذلك لكثرة قبوله توبة العباد حالا بعد حال ، واسم الله التواب يدل على ذات الله وعلى قبول التوبة كوصف فعل بدلالة المطابقة ، ، فقبول التوبة صفة فعل تتعلق بالمشيئة

فقد سمى الله نفسه به علي سبيل الإطلاق مرادا به العلمية ودالا على الوصفية في كثير من النصوص القرآنية وعند الترمذي وصححه الشيخ الألباني من حديث ابْن عُمَرَ ﷺ أنه قَالَ : (كَانَ يُعَدُّ لِرَسُولِ اللهِّ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةُ مَرَّةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقُومَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ) ، وعند أبي داود وصححه الشيخ الألباني من حديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : (اللَّهُمَّ أَلِّفْ بَيْنَ قُلُوبِنَا وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَاهْدِنَا سُبُلَ السَّلاَمِ وَنَجِّنَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَجَنِّبْنَا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَبَارِكْ لَنَا فِي أَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُلُوبِنَا وَأَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ وَاجْعَلْنَا شَاكِرِينَ لِنِعْمَتِكَ مُثْنِينَ بِهَا قَابِلِيهَا وَأَتِمَّهَا عَلَيْنَا) .

والتواب في اللغة من صيغ المبالغة من اسم الفاعل التائب ، فعله تاب يتوب توبا وتوبة ، والتوبة الرجوع عن الشيء إلي غيره ، والتوبة ترك الذنب علي أجمل الوجوه ، وهو أبلغ وجوه الاعتذار ، فإن الاعتذار علي ثلاثة أوجه : إما أن يقول المعتذر : لم أفعل ، أو يقول : فعلت لأجل كذا ، أو يقول : فعلت وأسأت وقد أقلعت ، ولا رابع لذلك ، وهذا الأخير هو التوبة .

والتوبة في الشرع : ترك الذنب لقبحه ، والندم علي ما فرط في حق الناس وحق ربه ، والعزم علي ترك المعاودة لذنبه ، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من صالح عمله ، فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كملت شرائط التوبة ، قال تعالي : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِّ تَوْبَةً نَصُوحًا) (التحريم/ ٨) ، وقال سبحانه : (إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِّ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) (التحريم/ ٤) ، والتائب يقال لباذل التوبة ولقابل التوبة ، فالعبد تائب إلى اللهِّ ، واللهِّ تائب علي عبده ، والتواب هو الله سمي بذلك لكثرة قبوله توبة العباد حالا بعد حال ، قال الله تعالى : (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ

وَمنْ ذُرِّيَّتنَا أُمَّةً مُسْلمَةً لَكَ وَأَرنَا مَنَاسكنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحيم) (البقرة/ ١٢٨)

والتوبة فرض علي جميع المذنبين والعاصين صغر الذنب أو كبر ، وليس لأحد عذر في ترك التوبة بعد ارتكاب المعصية لأن المعاصي كلها توعد اللهَّ عليها أهلها .

واسم الله التواب يدل علي ذات الله وعلى قبول التوبة كوصف فعل بدلالة المطابقة ، وعلى ذات الله وحدها بالتضمن ، وعلى قبول التوبة كوصف فعل بدلالة التضمن ، ويدل باللزوم على الحياة والقيومية ، والسمع والبصر والعلم والمشيئة ، والعزة والقدرة ، والعفو والرحمة ، والعدل والحكمة ، وغير ذلك من أوصاف الكمال واسم الله التواب دل على صفة من صفات الأفعال وفي دلالة اسم الله التواب على الصفة ، قال تعالى : (وَعَلَى الثَّلاثَة الَّذينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ منَ اللهَّ إلا إلَيْه ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ليَتُوبُوا إنَّ اللهَّ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحيمُ) (التوبة١١٨) ، فقبول التوبة صفة فعل تتعلق بالمشيئة لقوله : (وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْر اللهَّ إمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللهُّ عَليمٌ حَكيمٌ) (التوبة:١٠٦) . كيف ندعو الله باسمه التواب دعاء مسألة ودعاء عبادة ، دعاء المسألة وعند الترمذي وصححه الشيخ الألباني من حديث عُمَرَ بْن الْخَطَّاب أن رَسُول اللهَّ ﷺ : (مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُّ وَحْدَهُ لاَ شَريكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ اللَّهُمَّ اجْعَلْني منَ التَّوَّابينَ وَاجْعَلْني منَ الْمُتَطَهِّرينَ فُتحَتْ لَهُ ثَمَانيَةُ أَبْوَاب الْجَنَّة يَدْخُلُ منْ أَيِّهَا شَاءَ) .

أما دعاء العبادة فالمسارعة بالتوبة دون تأخيرها وإحساس النفس بسوء أدبها وتقصيرها ، روى الطبراني في الكبير وصححه الشيخ الألباني من حديث عبد بن عباس أن رسول الله ﷺ قال : عَن النَّبيِّ ﷺ ، قَالَ:مَا منْ عَبْدٍ مُؤْمنٍ إلا وَلَهُ ذَنْبٌ يَعْتَادُهُ: الْفَيْنَةَ بَعْدَ الْفَيْنَة، أَوْ ذَنْبٌ هُوَ مُقيمٌ عَلَيْه لا يُفَارِقُهُ حَتَّى يُفَارقَ، إنَّ الْمُؤْمنَ خُلقَ مُفْتَنًا تَوَّابًا نَسيًّا إذَا ذُكِّرَ ذَكَرَ. ، وعند الترمذي وصححه الشيخ الألباني من حديث أَنَسٍ أن رَسُول اللهَّ ﷺ : (كُلُّ بَني آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائينَ التَّوَّابُونَ) ، والله عز وجل يقول : (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهَّ للَّذينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ

مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً وَلَيْسَت التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَات حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً) (النساء:١٨) .

ولمزيد من البيان يمكن القول : إن الحياة لما كانت دارا للابتلاء والامتحان ومحلا لاختيار الكفر أو الإيمان وكان الناس متفاوتين مختلفين آجالا وأرزاقا ، وألوانا وأخلاقا ، منهم الغني والفقير والأعمى البصير ، منهم القوي والضعيف والظالم والمظلوم والحاكم والمحكوم والمالك والمعدوم ، منهم الكاذب والصادق والمخلص والمنافق إلى غير ذلك من أنواع الأخلاق وتنوع الأرزاق واختلاف السلوك وابتلاء ملك الملوك ، لما كانت الدنيا كذلك ظهرت حكمة الله في تعريف الخلائق ما يناسبهم من أسمائه وصفاته ، فالمذنب من العباد إن أراد التوبة سيجد الله توابا رحيما وعفوا غفورا ، والمظلوم سيجده حقا مبينا حكما عدلا وليا نصيرا ، والضعيف المقهور سيجده قويا عزيزا جبارا قديرا ، والفقير سيجد الله رزاقا حسيبا برا وكيلا وهكذا سيجد العباد من الأسماء والصفات ما يناسب حاجتهم وبغيتهم ، فالفطرة التي فطر الخلائق عليها اقتضت أن تلجأ النفوس إلى قوة عليا عند ضعفها ، وتطلب غنيا أعلى عند فقرها ، وتوابا رحيما عند ذنبها ، وسميعا قريبا بصيرا مجيبا عند سؤالها ومن هنا كانت لكل مرحلة من مراحل الخلق التي قدرها الله عز وجل ما يناسبها من أسمائه وصفاته وأفعاله .

ألا ترى أنه في البدء عندما أسكن الله آدم وحواء جنة الابتلاء فأكلا من الشجرة وانكشفت العورة وتطلبت الفطرة فرجا ومخرجا ؛ كان الفرج والمخرج في أسماء الله التي تناسب حالهما وما يغفر به ذنبهما ، فعلمهما كلمات هي في حقيقتها أسماء لله وصفات ، علم آدم أن يدعو الله باسمه التواب الرحيم كما قال : { فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [البقرة:٣٧] ، تعلمها ودعا الله بها : { قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ } [لأعراف:٢٣] .

قال اللهّ تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَّ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللهَّ هُوَ التَّوَّابُ

الرَّحِيمُ}.

«التَّوَّابُ» الذي لم يزل يتوب على التائبين، ويغفر ذنوب المنيبين، فكل من تاب إلى اللهّ توبة نصوحاً، تاب اللهّ عليه. فهو التائب على التائبين: أولاً بتوفيقهم للتوبة والإقبال بقلوبهم إليه. وهو التائب عليهم بعد توبتهم، قبولاً لها، وعفواً عن خطاياهم.

وعلى هذا تكون توبته على عبده نوعين:

أحدهما: يُوقع في قلب عبده التوبة إليه والإنابة إليه، فيقوم بالتوبة وشروطها من الإقلاع عن المعاصي، والندم على فعلها، والعزم على أن لا يعود إليها. واستبدالها بعمل صالح.

والثاني: توبته على عبده بقبولها وإجابتها ومحو الذنوب بها؛ فإن التوبة النصوح تجبّ ما قبلها.

قال اللهّ تعالى: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً}.

اسم الله الرحيم

الرحيم دل على صفة الرحمة الخاصة ، والرحمة هنا بمعني المغفرة وهي خاصة بالمؤمنين وقال ابن عباس عن الرحمن الرحيم : هما اسمان رقيقان أَحدهما أَرق من الآخر . ورحمة الله لا تقتصر على المؤمنين فقط بل تمتد لتشمل ذريتهم من بعدهم تكريما لهم وسكينة لأنفسهم.

فقد سمى الله نفسه به على سبيل الإطلاق مرادا به العلمية ودالا على الوصفية في كثير من النصوص القرآنية ، واسم الله الرحيم اقترن باسمه الرحمن في ستة مواضع من القرآن الكريم كقوله تعالى : (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) (البقرة:١٦٣) وغالبا ما يقترن اسم الله الرحيم باسمه التواب والغفور والرؤوف والودود والعزيز ، وذلك لأن الرحمة التي دل عليها اسمه الرحيم رحمة خاصة تلحق المؤمنين ، فالله عز وجل رحمته في الدنيا شملت جميع الخلائق أجمعين ، المؤمن والكافر ، البر والفاجر ، بينما يختلف الأمر في الآخرة ، إذ أن رحمته ستشمل المؤمنين فقط ، فكما شملتهم في الدنيا باسمه الرحمن ، فإنه سوف تشملهم في الآخرة باسمه الرحيم فيغفر لهم ذنوبهم وتلحقهم رحمته التي يدخلون بها الجنان ، كما ورد ذلك في القرآن ، فقال تعالى عن أهل الإيمان : (سَيُدْخِلُهُمُ اللهُّ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللهَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (التوبة:٩٩) (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ) (الجاثية:٣٠) (يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً) (الانسان:٣١) .

وكذلك اقترن اسم الله الرحيم باسمه التواب كقوله : (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (البقرة:٣٧) وهي دعوة لأهل العصيان بالدخول تحت الرحمة الخاصة وزيادة الإيمان ، (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)

هذا مما ورد في القرآن عن اسم الرحيم أما ما ورد في السنة فعند البخاري من حديث عَبْد اللهَّ بْن

عَمْرٍو عَنْ أَبِى بَكْرٍ الصّدّيق ﷺ أَنَّهُ قَالَ للنَّبيّ ﷺ عَلّمْني دُعَاءً أَدْعُو به في صَلاَتي قَالَ : قُل اللَّهُمَّ إنّي ظَلَمْتُ نَفْسي ظُلْمًا كَثيرًا ، وَلاَ يَغْفرُ الذُّنُوبَ إلاَّ أَنْتَ ، فَاغْفرْ لي مَغْفرَةً منْ عنْدكَ ، وَارْحَمْني إنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحيمُ .

وعند أبي داود وصححه الشيخ الألباني عن مِحْجَنَ بْنَ الأَدْرَع أن رَسُول اللهَّ ﷺ دَخَلَ الْمَسْجدَ فَإِذَا هُوَ برَجُلٍ قَدْ قَضَى صَلاَتَهُ وَهُوَ يَتَشَهَّدُ وَهُوَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ إنّي أَسْأَلُكَ يَا اللهُ الأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذي لَمْ يَلدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ أَنْ تَغْفرَ لي ذُنُوبي إنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحيمُ ، فَقَالَ : قَدْ غُفرَ لَهُ قَدْ غُفرَ لَهُ ، ثَلاَثًا ، روى أبو داود وابن ماجة وصححه الشيخ الألباني من حديث وَاثلَةَ بْن الأَسْقَع أن رَسُول اللهَّ ﷺ صَلَّى عَلَى رَجُلٍ منَ الْمُسْلمينَ فَأَسْمَعُهُ يَقُولُ : اللَّهُمَّ إنَّ فُلاَنَ بْنَ فُلاَنٍ في ذمَّتكَ وَحَبْل جوَاركَ فَقه منْ فتْنَة الْقَبْر وَعَذَاب النَّار وَأَنْتَ أَهْلُ الْوَفَاء وَالْحَقّ فَاغْفرْ لَهُ وَارْحَمْهُ إنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحيمُ .

وعند أبي داود وصححه الألباني من حديث ابْن عُمَرَ قَالَ إنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لرَسُول اللهَّ ﷺ في الْمَجْلس الْوَاحد مائَةَ مَرَّةٍ : رَبّ اغْفرْ لي وَتُبْ عَلَيَّ إنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحيمُ ، وروى الطبراني في الأوسط وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع من حديث عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال : (لو أن العباد لم يذنبوا لخلق الله خلقا يذنبون ثم يستغفرون ثم يغفر لهم وهو الغفور الرحيم) .

والرحيم دل على صفة الرحمة الخاصة ، والرحمة هنا بمعني المغفرة وهي خاصة بالمؤمنين ، فالرَّحْمَنُ الرحيم بنيت صفة الرحمة الأُولى على فَعْلاَنَ لأَن معناه الكثرة ، فرحمته وسعَتْ كل شيء وهو أَرْحَمُ الراحمين ، فأَما الرَّحيمُ فإنما ذكر بعد الرَّحْمن لأن الرَّحْمن مقصور على الله ﷻ ، والرحيم قد يكون لغيره ، فجيء بالرحيم بعد استغراق الرَّحْمن معنى الرحْمَة فيه إنما هي لتخصيص المؤمنين به في قوله تعالى : (وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً) (الأحزاب:٤٣) ، ورَحيمٌ فَعيلٌ بمعنى فاعلٍ ، كسَميعٌ بمعنى سامع وقديرٌ بمعنى قادر ، وقال ابن عباس: هما اسمان رقيقان أَحدهما أَرق من الآخر .

ورحمة الله التي دل عليها اسمه الرحيم هي كما ذكرنا خاصة لعباده المؤمنين ، فقد هداهم الله إلى

الإيمان وهو يثيبهم في الآخرة بخلدهم في الجنان ، ورحمة الله لا تقتصر على المؤمنين فقط بل تمتد لتشمل ذريتهم من بعدهم تكريما لهم وسكينة لأنفسهم ، وقد بين الله ذلك في قصة الخضر والجدار ، والتي قال عنها : (وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ) فالإيمان بالله تبارك وتعالى والعمل على طاعته سبب لاستجلاب رحمته ، قال تعالى : (وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) وقال جل شأنه : (إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) (المؤمنون:١٠٩) (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (الأنعام:١٥٥) (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (الحجرات:١٠) .

واسم الله الرحيم يدل على ذات الله وعلى صفة الرحمة الخاصة بدلالة المطابقة ، وعلى ذات الله وحدها بالتضمن ، وعلى صفة الرحمة الخاصة وحدها بدلالة التضمن ، ويدل باللزوم على الحياة والقيومية ، وعلى الغنى والأحدية ، والعزة والصمدية ، وكل ما يلزم لقيام وصف من يرحم رحمة خاصة ، وما يترتب عليها ، واسم الله الرحيم دل على صفة من صفات الفعل لأنها تتعلق بمشيئته .

كيف ندعو الله باسمه الرحيم دعاء مسألة ودعاء عبادة ؟ دعاء المسألة كما ورد عند أبي داود وصححه الشيخ الألباني أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كان يدعو : (اللَّهُمَّ أَلِّفْ بَيْنَ قُلُوبِنَا وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَاهْدِنَا سُبُلَ السَّلَامِ وَنَجِّنَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَجَنِّبْنَا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَبَارِكْ لَنَا فِي أَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُلُوبِنَا وَأَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ وَاجْعَلْنَا شَاكِرِينَ لِنِعْمَتِكَ مُثْنِينَ بِهَا قَابِلِيهَا وَأَتِمَّهَا عَلَيْنَا) . وفي الأحاديث التي تقدمت أيضا عند البخاري

أما دعاء العبادة فهو امتلاء القلب برحمة الولاء ورقة الوفاء التي تدفع إلى حب المؤمنين وبغض الكافرين ، وأسوتنا في ذلك هو سيد الخلق أجمعين : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ

عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) (التوبة:١٢٨) ، كان النبي بأصحابه رحيما رفيقا حبيبا صديقا ، روي البخاري من حديث مَالِك بْنِ الْحُوَيْرِث أنه قال : أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِي فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ لَيْلَةً ، وَكَانَ رَحِيمًا رَفِيقًا ، فَلَمَّا رَأَى شَوْقَنَا إِلَى أَهَالِينَا قَالَ : ارْجِعُوا فَكُونُوا فِيهِمْ وَعَلِّمُوهُمْ وَصَلُّوا ، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ ، وعند مسلم من حديث عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ : (وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلاَثَةٌ ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ) ، فالطاعة تدفع إلى الرحمة والمغفرة ، وتوحيد الله يستوجب الفوز في الآخرة.

أحبتي في الله روي عن على ابن أبي طالب ﷺ أنه قال : إن الدنيا لا يدوم نعيمها ولا تؤمن فجائعها ، غرور حائل وشبح زائل ، وسند مائل ، اتعظوا عباد الله بالعبر ، واعتبروا بالآيات والأثر ، وازدجروا بالنذر ، وانتفعوا بالمواعظ ، أتتكم مخالب المنية ، وضمكم بيت التراب ، ودهمتكم فظائع الأمور ، بنفخة الصور ، وبعثرة القبور ، وسياقة المحشر وموقف الحساب ، بإحاطة قدرة الجبار ، عباد الله اتقوا الله تقية من قنع فخنع ، ووجل فرحل ، وحذر فابصر فازدجر ، فاحتث طلبا ، ونجا هربا ، وقدم للمعاد ، واستظهر بالزاد ، وكفي بالله منتقما وبصيرا وكفي بالكتاب خصما وحجيجا وكفي بالجنة ثوابا ، وكفي بالنار وبالا وعقابا ، وأستغفر الله لي ولكم ، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أن أستغفرك وأتوب إليك .

اسم الله الرب

والرب اسم يدل على ذات الله وصفة الربوبية ، والأدلة كثيرة على أن الرب اسم من أسماء الله الحسنى ، والرب اسم مشتق من صفة الربوبية ، والرب عند الإطلاق لا يقال إلا لله تعالى ، وخلاصة معنى الرب أنه هو الذي يخلق ويدبر ما خلق

السؤال الآن ما هو السبب الذي من أجله كان اسم الرب من أسماء الله الحسنى ؟ والإجابة على ذلك تتمثل في أن الله عز وجل سمي نفسه به على سبيل الإطلاق والتقييد مرادا به العلمية ودالا على الوصفية في كثير من مواضع القرآن والسنة وأقسم الله بنفسه باسمه الرب فقال : (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) (الحجر:٩٢) (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً) (مريم:٦٨) .

هذه النصوص القرآنية تدل على علمية اسم الرب وأنه من الأسماء الحسنى التي أمرنا الله بأن ندعوه بها ، ومن السنة ما ورد عند البخاري من حديث أنس بن مالكٍ عن مالك بن صَعْصَعةَ رضيَ الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال : (فأتيتُ على موسى فسلمت عليه فقال : مَرحباً بكَ من أخ ونبيّ فلما جاوَزتُ بكى ، فقيل: ما أبكاك ؟ قال : يا رب ، هذا الغلامُ الذي بُعثَ بعدي يَدخُل الجنةَ من أُمَّته أفضلُ ممّا يدخلُ من أمّتي) . وعند البخاري أيضا من حديث سعيد بن جُبير عن ابن عباسٍ أنه سمعَ رسول الله ﷺ يقول : إنَّ موسى قام خطيباً في بني إسرائيل ، فسُئل: أي الناس أعلمُ؟ فقال : أنا ، فعتبَ اللهُ عليه إذ لم يَرُدَّ العلمَ إليه ، فأوحى اللهُ إليه : إنَّ لي عبداً بمجمَع البحرين هو أعلمُ منك ، قال موسى : يا ربّ فكيف لي به ؟ قال : تأخذُ معك حُوتاً فتجعله في مكتَلٍ ، فحيثما فقدتَ الحوتَ فهو ثَمَّ .. الحديث) ، وعند البخاري أيضا أن رسول الله ﷺ قال : (واشْتكَت النّارُ إلى ربّها فقالت: يا ربّ أَكل بَعضي بعضاً ، فأذنَ لها بنَفَسَيْن : نَفَسٍ في الشّتاء ونفَسٍ في الصَّيف) ، والأدلة كثيرة على أن الرب اسم من أسماء الله الحسنى ، سمي الله به نفسه في كتابه وسماه به رسوله ﷺ .

والرب اسم مشتق من صفة الربوبية ، والرب في اللغة مصدر من معنى التربية ، الرب هو الذي يربي غيره وينشئه شيئا فشيئا ، فوصف الرب يكون لمن أنشأ الشيء حالا فحالا إلي حد التمام ، أو إصلاح شئون الغير ورعاية أمره بانتظام ، ويطلق الرب في اللغة على المالك مالك الشيء ، تقول : هذا رب الإبل ورب الدار أي مالكها ، ويطلق على السيد المطاع ومنه قوله تعالى : (أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا) ، أي سيده المطاع ، ويطلق الرب أيضا على المعبود ، ومنه قول الشاعر

أرب يبول الثعلبان برأسه : لقد ذل من بالت عليه الثعالب .

والرب عند الإطلاق لا يقال إلا لله تعالى ، وهو المتكفل بخلق الموجودات وإنشائها ، والقائم على هدايتها وإصلاحها ، وهو المنظم لمعيشتها المدبر لأمرها ، يقول تعالى : (إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذي خَلقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ فِي ستَّة أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْش يُغْشي الليْل النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثيثاً وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْره أَلا لهُ الخَلقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالمينَ) (الأعراف :٥٤) ، فربنا تبارك وتعالى هو المتكفل بالخلائق أجمعين إيجادا وإمدادا (أَفَمَنْ هُوَ قَائمٌ عَلى كُل نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ) (الرعد :٣٣) (إِنَّ اللهَ يُمْسكُ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلئنْ زَالتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا منْ أَحَدٍ منْ بَعْده إِنَّهُ كَانَ حَليماً غَفُوراً) (فاطر :٤١) .

وخلاصة معنى الرب أنه هو الذي يخلق ويدبر ما خلق كما ورد في قوله تعالى عن موسى عليه السلام هو يبين حقيقة الربوبية ومعناها لفرعون لما سأله عنها : (قَال فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى قَال رَبُّنَا الذي أَعْطَى كُل شَيْءٍ خَلقَهُ ثُمَّ هَدَى) فالآية دلالتها صريحة على أن موسى عليه السلام لما سئل عن الربوبية أجاب فرعون عن كل معاني الربوبية في معنيين جامعين ، الأول منهما هو إفراد الله بتخليق الأشياء وتكوينها وإنشائها من العدم حيث أعطى كل شيء خلقه ووجوده ، والثاني هو إفراد الله بتدبير الأمر في خلقه وهدايتهم إلي قيام شؤنهم وتصريف أحوالهم والعناية بهم ، ويقول تعالى : (اللهُ خَالقُ كُل شَيْءٍ وَهُوَ عَلى كُل شَيْءٍ وَكيل لهُ مَقَاليدُ السَّمَاوَات وَالأَرْض وَالذينَ كَفَرُوا بِآيَات الله أُولئكَ هُمُ الخَاسرُونَ) (الزمر :٦٣) .

والرب اسم يدل على ذات الله وصفة الربوبية بالمطابقة وعلى ذات الله وحدها بالتضمن وعلى

الربوبية وحدها بالتضمن ، ويدل باللزوم على الصفات اللازمة لقيام الربوبية كالحياة والقيومية والعلم والمشيئة والقدرة ، والملك والغنى والقوة ، والإحياء والإبقاء والهداية ، والرزق والإمداد والرعاية ، والإفناء والإماتة والإعادة ، والهيمنة والعزة والإحاطة ، وكل ما يلزم من صفات الذات وصفات الأفعال لتخليق الشيء وتصنيعه ، وكمال إيجاده واختراعه ، فصفة الخالق أن يستغنى بنفسه فلا يحتاج إلي غيره ، وأن يفتقر وإليه كل من سواه ، كما أن اسم الرب يدل أيضا بدلالة اللزوم تدبير أمر المخلوقات وتقدير أحوالهم ، والقيام على شئونهم ، والعناية واللطف بهم ، والهداية إلى ما يصلحهم ، والفصل والقضاء والحكم بينهم ، وتهيئة الكون لتحقيق الغاية من خلقهم .

كيف ندعوا الله باسمه الرب دعاء مسألة ودعاء عبادة ؟ دعاء المسألة هو أن يذكر الاسم في دعائه وتضرعه لربه كقوله تعالى : (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ) (البقرة:١٢٧) (رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ) (البقرة:٢٨٦) (رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ) (آل عمران:٨) (رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ المِيعَادَ) (آل عمران:٩) (إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) (المؤمنون:١٠٩) (وَالذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً) (الفرقان:٦٥) (وَالذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً) (الفرقان:٧٤) وعند البخاري من حديث شدّاد بن أوسٍ أن النبي ﷺ قال: (سيّد الاستغفار اللهم أنتَ ربي لا إلهَ إلا أنت ، خلقتَني وأنا عبدُك وأنا على عهدكَ ووعدك ما استَطعت ، أبُوءُ لك بنعمتك ، وأبوءُ لك بذنبي ، فاغفرْ لي ، فإنه لا يغفر الذنوبَ إلا أنت ، أعوذُ بك من شرّ ما صنعت إذا قال حينَ يُمسي فمات دخل الجنَّةَ أو كان من أهل الجنة وإذا قال حينَ يُصبح فمات من يومه دخل الجنَّة) .

أما دعا الله باسمه الرب دعاء عبادة فيظهر العبد بمظهر العبودية ويخلع عن نفسه أوصاف الربوبية لعلمه أن المنفرد بها هو الله ، فيثبت أوصاف العظمة لله ، ويفرده بالعلو والكبرياء ، ولا ينازع رب العالمين في منهجه ، أو يتخلف عن اتباع شريعته ، فدعاء العبادة هنا عمل وتربية وتنفيذ الأوامر الشرعية ، تجعل المسلم في أرقى حالاته الإيمانية ، فهذا إبراهيم عليه السلام : (قَال أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إلا رَبَّ العَالمِينَ الذي خَلقَني فَهُوَ يَهْدين وَالذي هُوَ يُطْعمُني وَيَسْقين وَإِذَا مَرضْتُ فَهُوَ يَشْفين وَالذي يُميتُني ثُمَّ يُحْيين وَالذي أَطْمَعُ أَن يَغْفرَ لي خَطيئَتي يَوْمَ الدّين رَبّ هَبْ لي حُكْماً وَأَلحقْني بالصَّالحينَ وَاجْعَل لي لسَانَ صدْقٍ في الآخرينَ وَاجْعَلني من وَرَثَة جَنَّة النَّعيم) (الشعراء:٧٨) . قال اللهَّ تعالى: {قُلْ أَغَيْرَ اللهَّ أَبْغي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلّ شَيْءٍ}. اللهَّ ﷻ هو: المُرَبّي جميع عباده، بالتدبير، وأصناف النعم ، وأخص من هذا، تربيته لأصفيائه، بإصلاح قلوبهم، وأرواحهم وأخلاقهم، ولهذا كثر دعاؤهم له بهذا الاسم الجليل؛ لأنهم يطلبون منه هذه التربية الخاصة.

صفة العزة

وعزة الله عزة عن أوصاف حقيقية ، اتصفت بها الذات الإلهية ، وليست عزة معنوية قائمة على أوصاف الآخرين وقدرتهم ، الاسم العزيز يدل على ذات الله وعلى صفة العزة بدلالة المطابقة ، فَيَقُولُ الله لَهُ : لِمَ قَتَلْتَهُ ؟ فَيَقُولُ : لِتَكُونَ العِزَّةُ لِفُلاَنٍ

من أسماء الله الحسنى اسمه العزيز فقد سمي الله نفسه به على سبيل الإطلاق مرادا به العلمية ودالا على الوصفية في كثير من النصوص القرآنية ، وسماه به رسوله صلى الله عليه وسلم في كثير من النصوص النبوية .. كما جاء في قوله تعالى : (هُوَ الذي يُصَوّرُكُمْ في الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ) (آل عمران:٦) واسم الله العزيز ورد في أغلب آيات القرآن مقترنا باسمه الحكيم ، لأن العزة إذا أضيفت إلى الحكمة ، ظهر جمال العزة وكمالها ، فكمالها وصول الوصف أعلاه وهو مطلق العزة ، وجمالها وصول الحسن منتهاه ، فقد يكون العزيز منا عزيزا لكنه ظالم متهور ، جاهل متكبر ، لكن لو اكتست العزة بالحكمة والعلم والخبرة لظهر كمال العزة وجمالها ، من أجل ذلك اقترن اسمه العزيز باسمه الحكيم : (شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُولُو العلم قَائِماً بالقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ) (آل عمران:١٨) (إِنَّ هَذَا لَهُوَ القَصَصُ الحَقُّ وَمَا منْ إِلَهٍ إِلا اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ) (آل عمران:٦٢) (وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلا بُشْرَى لَكُمْ وَلتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ به وَمَا النَّصْرُ إِلا منْ عنْد الله العَزِيزِ الحَكِيم) (آل عمران:١٢٦) (للذينَ لا يُؤْمنُونَ بالآخرَة مَثَلُ السَّوْء وَلله المَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ) (النحل:٦٠) ويرد أيضا اسمه العزيز مقترنا باسمه الرحيم ، لبيان أن العزيز غالب على الخلق أجمعين حتى لو أعرضوا عن رب العالمين ، وأنه سينصر عباده الموحدين ولو بعد حين فالنصر والعزة للإسلام والمسلمين ، وهو في المقابل بالمؤمنين المستضعفين رؤوف رحيم طالما أنهم وحدوه في اسمه العزيز ، كما في قوله : (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحيمُ)

وعزة الله عزة عن أوصاف حقيقية ، اتصفت بها الذات الإلهية ، وليست عزة معنوية قائمة على

أوصاف الآخرين وقدرتهم ، كما هو حال المتعززين من أصحاب المكانة الاجتماعية ، الذين تعززوا بأوصاف غيرهم وقاموا في حكمهم على استغلال غيرهم واستحلال أموالهم وخيراتهم فاسمه العزيز يقترن باسمه القوي لأن الله عزيز بقوته وقدرته ، فهو الغالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، وهو عزيز بقدرته فلا يعجزه شيء من خلقه ، وهو سبحانه العزيز الجبار ؟ (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالحاً وَالذينَ آمَنُوا مَعَهُ برَحْمَةٍ منَّا وَمنْ خزْيِ يَوْمئذٍ إنَّ رَبَّكَ هُوَ القَويُّ العَزيزُ) (هود:٦٦) (اللهُ لَطيفٌ بعبَاده يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ القَويُّ العَزيزُ) (الشورى:١٩)

فالعزيز يعني الغالب الذي لا يهزم ، الذي عزّ وقوى وسلم من الذل ، يقال عز فلان على فلان أي له فضل وكرم عليه ، وله عز على فلان يعني غلبه وقهره ، وأعز فلان فلانا يعني جعله قويا عزيزا ، واسم الله العزيز يدل على ذات الله وعلى صفة العزة بدلالة المطابقة ، وعلى ذات الله وحدها بالتضمن ، وعلى صفة العزة وحدها بدلالة التضمن ، ويدل باللزوم على الحياة والقيومية والقدرة والأحدية ، والسيادة والصمدية ، وكمال العلم والعظمة ، وكل ما يلزم لقيام صفة العزة وما يترتب عليها .

كيف ندعو الله باسمه العزيز دعاء مسألة ودعاء عبادة ؟ دعاء المسألة كما في دعاء إبراهيم عليه السلام الذي ورد في قوله تعالى : (رَبَّنَا وَابْعَثْ فيهمْ رَسُولاً منْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهمْ آيَاتكَ وَيُعَلّمُهُمُ الكتَابَ وَالحكْمَةَ وَيُزَكّيهمْ إنَّكَ أَنْتَ العَزيزُ الحَكيمُ) (البقرة:١٢٩) (رَبَّنَا لا تَجْعَلنَا فتْنَةً للذينَ كَفَرُوا وَاغْفرْ لَنَا رَبَّنَا إنَّكَ أَنْتَ العَزيزُ الحَكيمُ) (الممتحنة:٥) وفي دعاء عيسى عليه السلام (إنْ تُعَذّبْهُمْ فَإنَّهُمْ عبَادُكَ وَإنْ تَغْفرْ لَهُمْ فَإنَّكَ أَنْتَ العَزيزُ الحَكيمُ) (المائدة:١١٨) وفي دعاء حملة العرش للمؤمنين : (رَبَّنَا وَأَدْخلهُمْ جَنَّات عَدْنٍ التي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ منْ آبَائهمْ وَأَزْوَاجهمْ وَذُرّيَّاتهمْ إنَّكَ أَنْتَ العَزيزُ الحَكيمُ) (غافر:٨) ، وفي الجامع الصغير للسيوطي وصححه الشيخ الألباني من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا تضور من الليل – تقلب وتلوى

من شدة الألم – قال : لا إله إلا الله الواحد القهار رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار .

أما دعاء العبادة ، فهو مظهر العزة التي يشعر بها المسلم في توحيده لربه ، وعبوديته وحبه ، وعلمه أن العزة في اتباع أمره ، وأنه العزيز الذي جعل العزة لنبيه ، وأتباعه وحزبه ، ولا يرضى بديلا عن عزة الإسلام وأهله ، حتى لو كانت لعشيرته وقومه ، ورد في صحيح البخاري من حديث زَيْد بْن أَرْقَمَ قَالَ كُنْتُ فِي غَزَاةٍ فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ يَقُولُ : لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ وَلَوْ رَجَعْنَا مِنْ عِنْدِهِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّي أَوْ لِعُمَرَ فَذَكَرَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَدَعَانِي فَحَدَّثْتُهُ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ وَأَصْحَابِهِ فَحَلَفُوا مَا قَالُوا فَكَذَّبَنِي رَسُولُ ﷺ وَصَدَّقَهُ فَأَصَابَنِي هَمٌّ لَمْ يُصِبْنِي مِثْلُهُ قَطُّ ، فَجَلَسْتُ فِي الْبَيْتِ فَقَالَ لِي عَمِّي مَا أَرَدْتَ إِلَى أَنْ كَذَّبَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَقَتَكَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ) فَبَعَثَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ فَقَرَأَ : (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ... إلى قوله : هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَللهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَللهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) فَقَالَ صلى الله عليه وسلم لزيد : (إِنَّ اللهَ قَدْ صَدَّقَكَ يَا زَيْدُ) .

الاسم يدل على ذات الله وعلى صفة العزة بدلالة المطابقة ، وعلى أحدهما بالتضمن فالله عز وجل له العزة كوصف ذات ، والإعزاز كوصف فعل ، أما صفة الذات فلأنها صفة قائمة به يستحيل وصفه بضدها ، قال تعالى في وصف المنافقين : { يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَل وَلله العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ المُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ } [المنافقون:٨] ، وقال : { مَنْ كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلله العِزَّةُ جَمِيعاً }[فاطر:١٠] ، وقال سبحانه : { سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ } [الصافات:١٨٠] ، وعند مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله قال الله : (

العزُّ إِزَارُهُ ، وَالكبْرِيَاءُ ردَاؤُهُ ، فَمَنْ يُنَازِعُني عَذَّبْتُهُ) ، وعند البخاري من حديث أنس بن مالك (أن النبي قال : (لاَ تَزَالُ جَهَنَّمُ تَقُولُ هَل منْ مَزيدٍ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ العزَّة فيهَا قَدَمَهُ ، فَتَقُولُ : قَطْ قَطْ وَعزَّتكَ) ، وعنده أيضا من حديث أنس قال : (وَدَنَا الجَبَّارُ رَبُّ العزَّة فَتَدَلى حَتَّى كَانَ منْهُ قَابَ قَوْسَيْن أَوْ أَدْنَى) .

وروى النسائي وصححه الألباني من حديث عبد الله بن مسعود أن النبي قال : (يَجيءُ الرَّجُلُ آخذًا بيَد الرَّجُل فَيَقُولُ : يَا رَبّ هَذَا قتلني ، فَيَقُولُ الله لَهُ : لمَ قَتَلتَهُ ؟ فَيَقُولُ : قَتَلتُهُ لتَكُونَ العزَّة لَكَ ، فَيَقُولُ : فَإنَّهَا لي ، ويجيء الرَّجُلُ آخذًا بيَد الرَّجُل فَيَقُولُ إنَّ هَذَا قتلني ، فَيَقُولُ الله لَهُ : لمَ قَتَلتَهُ ؟ فَيَقُولُ : لتَكُونَ العزَّةُ لفُلاَنٍ ، فَيَقُولُ : إنَّهَا لَيْسَتْ لفُلاَنٍ فَيَبُوءُ بإثْمه) وفي رواية : (يجيء المقتول آخذا قاتله وأوداجه تشخب دما عند ذي العزة ، فيقول : يا رب سل هذا فيم قتلني ؟ فيقول : فيم قتلته ؟ قال : قتلته لتكون العزة لفلان ، قيل : هي لله)

وأما الإعزاز كوصف الفعل فالله عز وجل يمنحها لمن شاء من خلقه كما قال سبحانه : { قُل اللهمَّ مَالكَ المُلك تُؤْتي المُلكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ المُلكَ ممَّنْ تَشَاءُ وَتُعزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذلُّ مَنْ تَشَاءُ بيَدكَ الخَيْرُ إنَّكَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَديرٌ } [آل عمران:٢٦] ، وعند مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله قال : (مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ منْ مَالٍ وَمَا زَادَ الله عَبْدًا بعَفْوٍ إلاَّ عزًّا وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لله إلاَّ رَفَعَهُ الله) وعند الترمذي وصححه الألباني من حديث ابن عمر أن رسول الله قال : (اللهمَّ أَعزَّ الإسْلاَمَ بأَحَبّ هَذَيْن الرَّجُلَيْن إلَيْكَ بأبي جَهْلٍ أَوْ بعُمَرَ بْن الخَطَّاب) ، واسم الله العزيز يدل باللزوم على الحياة والقيومية ، والعلم القدرة والأحدية ، والسيادة والحكمة والصمدية ، والكبرياء والعظمة والقدسية ، وغير ذلك من صفات الكمال .

(٢٦) إعراب آية

هذه الآيات تدخل في باب الاستثناء ، وآية الكهف واضحة على أن إبليس من جنس الجن المخلوق من نار السموم والملائكة مخلوقة من نور، اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ البقرة: ٣٤

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ الأعراف قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾ الإسراء ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ الكهف قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ ﴾ طه ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ الحجر ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ ص

الملائكة امرت بالسجود كما تبين من هذه الآيات ، فهل إبليس من الملائكة ليشمله الأمر ؟ هل هناك ملائكة استثنيت من الأمر ؟ آية الأعراف تبين لنا أن إبليس أمر بالسجود ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ الأعراف قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ الحجر: ٣٢ ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ ص: ٧٥

والآيات تبين لنا أن إبليس من الجن قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴿٥٠﴾ ﴾ الكهف: ٥٠

والآيات تبين لنا أن الملائكة كلهم سجدوا تكريما لآدام وطاعة ربها

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴿٣٤﴾ ﴾ البقرة قَالَ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴿١١﴾ ﴾ الأعراف قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ الحجر قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴿٦١﴾ ﴾ الإسراء قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴿٥٠﴾ ﴾ الكهف قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴿١١٦﴾ ﴾ طه قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴿٧٤﴾ ﴾ ص

نحن علمنا أن الملائكة لا يعصون أبدا ، فهذا يدل دلالة واضحة أن إبليس ليس من الملائكة إنما كان يعيش في السماء مع الملائكة ، وذلك ممكن فقد قرأنا في أحاديث الإسراء تواجد الأنبياء في السموات للترحيب واللقاء بسيد ولد آدم ﷺ ، فهذا كان ممكنا لإبليس قبل خلق آدم وقبل السجود له ، وآية الكهف واضحة على أن إبليس من جنس الجن المخلوق من نار السموم والملائكة مخلوقة من نور .

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ التحريم قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ الأنبياء

الإعراب

هذه الآيات تدخل في باب الاستثناء ، قال ابن هشام في المغني : إِلَّا بالْكَسْر وَالتَّشْديد ، وهي على أَرْبَعَة أوجه :

أَحدهَا أَن تكون للاستثناء نَحْو {فَشَرِبُوا منْهُ إِلَّا قَليلا} وانتصاب مَا بعْدهَا في هَذه الْآيَة وَنَحْوهَا بهَا على الصَّحِيح وَنَحْو {مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَليل منْهُم} وارتفاع مَا بعْدهَا في هَذه الْآيَة وَنَحْوهَا على أَنه بدل بعض من كل عنْد الْبَصرِيين .. حرف عطف عنْد الْكُوفيّين وَهي بِمَنْزلَة لَا العاطفة في أَن مَا بعْدهَا مُخَالف لما قبلهَا

الثَّاني أَن تكون صفة بِمَنْزِلَة غير فيوصف بهَا وبتاليها جمع مُنكر أَو شبهه

وَالثَّالِث أَن تكون عاطفة بِمَنْزِلَة الْوَاو فِي التَّشْرِيك فِي اللَّفْظ وَالْمعْنَى ذكره الْأَخْفَش والفراء وَأَبُو عُبَيْدَة وَجعلُوا مِنْهُ قَوْله تَعَالَى {لِئَلَّا يكون للنَّاس عَلَيْكُم حجَّة إِلَّا الَّذين ظلمُوا مِنْهُم} {لَا يخَاف لدي الْمُرْسَلُونَ إِلَّا من ظلم ثمَّ بدل حسنا بعد سوء} أَي وَلَا الَّذين ظلمُوا وَلَا من ظلم وتأولهما الْجُمْهُور على الاسْتِثْنَاء الْمُنْقَطع

وَالرَّابِع أَن تكون زَائِدَة قَالَه الْأَصْمَعِي وَابْن جني

في شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك : حكم المستثنى بـ "إلا" النصب إن وقع بعد تمام الكلام الموجب سواء كان متصلا أو منقطعا نحو [قام القوم إلا زيدا] [وضربت القوم إلا زيدا][ومررت بالقوم إلا زيدا] [وقام القوم إلا حمارا] [وضربت القوم إلا حمارا] [ومررت بالقوم إلا حمارا] فـ زيدا في هذه المثل منصوب على الاستثناء وكذلك حمارا.

والصحيح من مذاهب النحويين أن الناصب له ما قبله بواسطة إلا واختار المصنف في غير هذا الكتاب أن الناصب له إلا وزعم أنه مذهب سيبويه وهذا معنى قوله ما استثنت إلا مع تمام ينتصب أي أنه ينتصب الذي استثنته إلا مع تمام الكلام إذا كان موجبا.

للنحاة في ناصب الاسم الواقع بعد " إلا " خلاف طويل، غير أن أشهر مذاهبهم في ذلك تتلخص في أربعة أقوال: الأول: أن الناصب له هو الفعل الواقع في الكلام السابق على " إلا " بواسطتها، فيكون عمل " إلا " هو تعدية ما قبلها إلى ما بعدها، كحرف الجر الذي يعدى الفعل إلى الاسم، غير أن هذه التعدية بالنظر إلى المعنى

الثاني: أن الناصب له هو نفس " إلا " وهو مذهب ابن مالك الذي صرح به في غير هذا الكتاب، وعبارته في الألفية تشير إليه

الثالث: أن الناصب له هو الفعل الواقع قبل " إلا " باستقلاله، لا بواسطتها كالمذهب الأول.

الرابع: أن الناصب له فعل محذوف تدل عليه " إلا " والتقدير: أستثنى زيدا مثلا

فإن وقع بعد تمام الكلام الذي ليس بموجب وهو المشتمل على النفي أو شبهه والمراد بشبه النفي النهي والاستفهام فإما أن يكون الاستثناء متصلا أو منقطعا والمراد بالمتصل أن يكون المستثنى بعضا مما قبله وبالمنقطع ألا يكون بعضا مما قبله.

فإن كان متصلا جاز نصبه على الاستثناء وجاز إتباعه لما قبله في الإعراب وهو المختار والمشهور أنه بدل من متبوعه وذلك نحو: [ما قام أحد إلا زيد وإلا زيدا] [ولا يقم أحد إلا زيد وإلا زيدا] [وهل قام أحد إلا زيد؟ وإلا زيدا][وما ضربت أحدا إلا زيدا ولا تضرب أحدا إلا زيدا وهل ضربت أحدا إلا زيدا؟] فيجوز في زيدا أن يكون منصوبا على الاستثناء وأن يكون منصوبا على البدلية من أحد وهذا هو المختار. وتقول[ما مررت بأحد إلا زيد وإلا زيدا ولا تمرر بأحد إلا زيد وإلا زيدا وهل مررت بأحد إلا زيد؟ وإلا زيدا]

وإن كان الاستثناء منقطعا تعين النصب عند جمهور العرب فتقول[ما قام القوم إلا حمارا] ولا يجوز الإتباع وأجازه بنو تميم فتقول [ما قام القوم إلا حمار وما ضربت القوم إلا حمارا وما مررت بالقوم إلا حمار].

إذا تقدم المستثنى على المستثنى منه فإما أن يكون الكلام موجبا أو غير موجب. فإن كان موجبا وجب نصب المستثنى نحو[قام إلا زيدا القوم] وإن كان غير موجب فالمختار نصبه فتقول[ما قام إلا زيدا القوم] وقد روي رفعه

وجاء في جامع الدروس العربية : الاستثناءُ هو إخراجُ ما بعدَ "إلاّ" أو إحدَى أخواتها من أدوات الاستثناء، من حكم ما قبلَهُ، نحو "جاءَ التلاميذُ إلاّ عليّاً". والمُخرَجُ يُسمّى "مستثنى"، والمُخرَجُ منه "مُستثنى منه".

المُستثنى قسمان مُتَّصلٌ ومنقطعٌ. فالمُتّصلُ ما كان من جنس المُستثنى منه، نحو "جاءَ المسافرون إلا سعيداً". والمُنقطعُ ما ليسَ من جنس ما استثنيَ منه، نحو "احترقت الدارُ إلاّ الكتُبَ".

فالاستثناءُ صرفُ لفظ المُستثنى منه عن عمومه، بإخراج المستثنى من أن يتناولهُ ما حُكمَ به على

المستثنى منه. فإذا قلتَ "جاءَ القومُ، ظُنَّ أنَّ خالداً داخلٌ معهم في حكم المجيء أيضاً، فإذا استثنيتَهُ منهم، فقد صرفتَ لفظَ "القوم" عن عُمومه باستثناء أحد أفراده - وهو خالدٌ - من حكم المجيء المحكوم به على القوم. لذلك كان الاستثناءُ تخصيصَ صفةٍ عامّةٍ بذكر ما يَدُلُّ على تخصيص عمومها وشُمولها بواسطة أداة من أدوات الاستثناء.

فإذا علمتَ هذا، علمتَ أَن الاستثناء من الجنس، هو الاستثناءُ الحقيقيُّ، لأنه يُفيدُ التخصيص بَعدَ التّعميم، ويُزيلُ ما يُظَنُّ من عُموم الحكم. وأَما الاستثناءُ من غير الجنس فهو استثناءٌ لا معنى له إلاّ الاستدراكُ، فهو لا يُفيدُ تخصيصاً، لأن الشيءَ إنما يُخصّصُ جنسَهُ. فإذا قلتَ "جاءَ المسافرون إلا أَمتعتَهُم"، فلفظ "المسافرين" لا يتناول الأمتعةَ، ولا يدلُّ عليها. وما لا يَتناولهُ اللفظُ فلا يحتاجُ إلى ما يخرجُهُ منهُ. لكنْ إنما استثنيتَ هُنا استدراكاً كيلا يُتَوهم أن أَمتعتَهُم جاءَت مَعهم أَيضاً، عادةَ المسافرين.

فالاستثناءُ المتَّصلُ يُفيدُ التَّخصيصَ بعدَ التعميم، لأنهُ استثناءٌ من الجنس. والاستثناءُ المُنقطعُ يُفيدُ الاستدراكَ لا التّخصيصَ، لأنه استثناءٌ من غير الجنس.

لا يستثنى إلاّ من معرفةٍ أو نكرةٍ مُفيدةٍ، فلا يقالُ "جاءَ قومٌ إلا رجلاً منهم"، ولا "جاءَ رجالٌ إلا خالداً". فإن أفادت النكرةُ جاز الاستثناء منها، نحو "جاءَني رجالٌ كانوا عندكَ إلاّ رجلاً منهم" ونحو "ما جاءَ أحدٌ كانوا عندكَ إلاّ رجلاً منهم" ونحو "ما جاءَ أحدٌ إلا سعيداً"، قال تعالى {فَلَبِثَ في قومه أَلفَ سنةٍ إلا خمسينَ عاماً}.

وتكونُ النكرةُ مفيدة إذا أُضيفتْ، أو وصفت، أو وقعت في سياق النفي أو النَّهي أو الاستفهام. وكذا لا يُستثنى من المعرفة نكرةٌ لم تخصَّص، فلا يقالُ "جاء القومُ إلاّ رجلاً". فإن تُخصّصَت جاز، نحو "جاء القومُ إلاّ رجلاً منهم، أو إلاَّ رجلاً مريضاً، أو إلاّ رجلَ سُوءٍ".

يصح استثناءُ قليلٍ من كثير. وكثيرٍ من أكثرَ منه. وقد يُستثنى من الشيء نصفُهُ، تقول "لهُ عليَّ عشرةٌ إلا خمسةً"، قال تعالى {يا أَيُّها المُزَّمّلُ، قُم الليلَ إلاّ قليلاً، نصفَه، أَو انقُصْ منهُ قليلاً، أو زِدْ عليه}. فقد سمّى النصفَ قليلاً واستثناهُ من الأصل. وقال قومٌ لا يستثنى من الشيء إلا ما

كان دونَ نصفه. وهو مردودٌ بهذه الآية.

استثناءُ الشيء من غير جنسه لا معنى له. وما ورد من ذلك فليست فيه "إلاّ" للاستثناء على سبيل الأصل. وإنما هي بمعنى "لكنْ"، وهو ما يُسمونهُ "الاستثناء المُنقَطع". ومعّ ذلك فلا بدّ من الارتباط بين المستثنى منه والمستثنى،... ومن ذلك قوله تعالى {ما أنزَلنا عليك القرآنَ لتشقى، إلا تَذكرَةً لمن يخشى}، أي لكن أنزلناهُ تذكرةً، وقولُهُ {فذَكّر، إنما أنتَ مُذكّرٌ، لستَ عليهم بمُسَيطرٍ، إلاّ مَنْ تَوَلى وكفرَ فَيُعذبُهُ اللهُ العذابَ الأكبرَ"، أي لكنْ مَنْ تَوّلى وكفرَ.

إعراب : إلا إبليس

اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ (٣٤)

«اسْجُدُوا» فعل أمر مبني على حذف النون. والواو فاعل والجملة مفعول به. «لآدَمَ» متعلقان بالفعل قبلهما.

(لآدم) جار ومجرور متعلّق بـ (اسجدوا) ، وعلامة الجرّ الفتحة لامتناعه من الصرف للعلميّة والعجمة

«فَسَجَدُوا» الفاء عاطفة، وسجدوا فعل ماض والواو فاعل.

«إِلَّا» أداة استثناء. «إِبْلِيسَ» مستثنى بـ (إلا) منصوب ممتنع من التنوين للعلمية والعجمة.

(إِبْلِيسَ) مستثنى بإلا متصل إن كان إبليس في الأصل من الملائكة وقبل منقطع لأنه ليس منهم

اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١)

«اسْجُدُوا» فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعله. «لآدَمَ» اسم مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة، والجار والمجرور متعلقان باسجدوا، والجملة مقول القول «فَسَجَدُوا» فعل ماض وفاعل والجملة معطوفة. «إِلَّا» أداة استثناء «إِبْلِيسَ» مستثنى منصوب. «لَمْ» جازمة «يَكُنْ» مضارع ناقص مجزوم واسمها ضمير مستتر تقديره هو. «مِنَ السَّاجِدِينَ» متعلقان بمحذوف خبر يكن، والجملة في محل نصب حال أو مستأنفة.

الفاء للترتيب مع التعقيب، كأنما امتثلوا للأمر فور صدوره، وسجدوا فعل وفاعل، وإلا أداة

استثناء وإبليس مستثنى من فاعل سجدوا، وجملة لم يكن من الساجدين إما استئنافية كأنها جواب عن سؤال مقدر، ويجوز أن تكون حالية، أي: إلا إبليس حال كونه ممتنعا من السجود، ومن الساجدين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر يكن (قالَ ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ) ما اسم استفهام في محل رفع مبتدأ، وجملة منعك في محل رفع خبرها، والمعنى: أي شيء منعك. وأن وما بعدها في موضع نصب بنزع الخافض، أي: ما منعك من السجود. وإذ ظرف ماض متعلق بتسجد، أي: ما منعك من السجود وقت أمري إياك به. ولا زائدة لتأكيد معنى النفي، وجملة أمرتك في محل جر بالإضافة

في قوله: «ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك» فنّ التوهيم، ... أي أن يأتي المتكلم بكلمة يوهم ما بعدها من الكلام أن المتكلم أراد تصحيفها أو تحريفها أو اختلاف إعرابها أو اختلاف معناها. فإن الظاهر ما منعك من السجود. والتأويل الذي يرد هذا الكلام أن العلماء قالوا: ما منعك أي: ما صيرك ممتنعا من السجود.

(إِلَّا إِبْلِيسَ) : اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ. وَقِيلَ هُوَ مُتَّصِلٌ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ فِي الِابْتِدَاءِ مَلَكًا. وَهُوَ اسْمٌ أَعْجَمِيٌّ لَا يَنْصَرِفُ لِلْعُجْمَةِ وَالتَّعْرِيفِ.

وَقِيلَ: هُوَ عَرَبِيٌّ، وَاشْتِقَاقُهُ مِنَ الْإِبْلَاسِ، وَلَمْ يَنْصَرِفْ لِلتَّعْرِيفِ، وَإِنَّهُ لَا نَظِيرَ لَهُ فِي الْأَسْمَاءِ، وَهَذَا بَعِيدٌ، عَلَى أَنَّ فِي الْأَسْمَاءِ مِثْلَهُ، نَحْوَ: إِخْرِيطٍ، وَإِجْفِيلٍ، وَإِصْلِيتٍ [التبيان]

[فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلاَّ إِبْلِيسَ]

«فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ» الفاء استئنافية وماض وفاعله «كُلُّهُمْ» توكيد والهاء مضاف إليه «أَجْمَعُونَ» توكيد ثان مرفوع بالواو «إِلَّا» أداة استثناء «إِبْلِيسَ» مستثنى بإلا منصوب

(كلّهم) توكيد معنويّ للملائكة مرفوع مثله و (هم) ضمير متّصل مضاف إليه (أجمعون) توكيد معنويّ ثان مرفوع، وعلامة الرفع الواو.

(إلّا) أداة استثناء (إبليس) اسم منصوب على الاستثناء المنقطع أو المتّصل على الخلاف المعروف بحقيقة إبليس هل هو من الملائكة أو لا

[فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ (٧٤) قالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ (٧٥)]

«فَسَجَدَ» الفاء حرف عطف وماض «الْمَلائِكَةُ» فاعل «كُلُّهُمْ» توكيد أول «أَجْمَعُونَ» توكيد ثان «إِلَّا» حرف استثناء «إِبْلِيسَ» مستثنى بإلا منصوب

ولأجل الاختلاط أطلقت (من) على مالا يعقل في قوله تعالى: فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِه وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ فإن الاختلاط حاصل في العموم السابق في قوله تعالى (كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ) . كما أطلق اسم (المذكرين) على المؤنث حتّى عدت منهم، وهي مريم بنت عمران رضي الله عنها في قوله تعالى وَكانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ والملائكة على إبليس حتّى استثني منهم في (فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ) . قال الزمخشري: والاستثناء متصل لأنّه واحد من بين أظهر الألوف من الملائكة، فغلّبوا عليه في (فسجدوا) ، ثم استثني منهم استثناء أحدهم، ثم قال: ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعا.

وكلهم وأجمعون تأكيدان لزيادة تمكين المعنى وترسيخه في الذهن، وسئل المبرد عن هذه الآية فقال: لو قال فسجد الملائكة احتمل أن يكون سجد بعضهم فلما قال كلهم زال هذا الاحتمال فظهر أنهم بأسرهم سجدوا ثم عند هذا بقي احتمال وهو أنهم هل سجدوا دفعة واحدة أو سجد كل واحد في وقت فلما قال أجمعون ظهر أنهم جميعا سجدوا دفعة واحدة. (إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ) تقدم القول في هذا الاستثناء أنه متصل إما لأنه كان جنيا مغمورا بألوف الملائكة فعدّ منهم تغليبا وإما لأنه منهم حقيقة ويجوز أن يكون منقطعا فيتصل به ما بعده أي لكن إبليس أبى أن يكون معهم،

الاستثناء في قوله تعالى: «فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس» فإن هذا الاستثناء لو لم يتقدم لفظه هذا الاحتراس من قوله كلهم أجمعون لاحتمل- كما أشرنا في الإعراب- أن يكون في الملائكة من لم يسجد فيتأسى به إبليس ولا يكون منفردا بهذه الكبيرة لاحتمال أن تكون آلة التعريف للعهد لا للجنس فلما كان هذا الإشكال يتوجه على الكلام إذا اقتصر فيه على ما دون

التوكيد وجب الإتيان بالتوكيد ليعلم أن آلة التعريف للجنس فيرتفع هذا الإشكال بهذا الاحتراس فحينئذ تعظم كبيرة إبليس لكونه فارق جميع الملأ الأعلى، وخرق إجماع الملائكة فيستحق أن يفرد بهذا اللعن إلى آخر الأبد، هذا والاستثناء الذي يطلقه البلاغيون هو غير الاستثناء المعروف عند النحاة فهو قسمان إذن لغوي وصناعي

في التبيان في إعراب القرآن : وَ (أَجْمَعُونَ) : تَوْكِيدٌ ثَانٍ عِنْدَ الْجُمْهُورِ. وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّهَا أَفَادَتْ مَا لَمْ تُفِدْهُ «كُلُّهُمْ» ؛ وَهُوَ أَنَّهَا دَلَّتْ عَلَى أَنَّ الْجَمِيعَ سَجَدُوا فِي حَالٍ وَاحِدَةٍ. وَهَذَا بَعِيدٌ ؛ لِأَنَّكَ تَقُولُ: جَاءَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، وَإِنْ سَبَقَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ؛ وَلِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَمَا زُعِمَ لَكَانَ حَالًا لَا تَوْكِيدًا.

إعراب القرآن للنحاس : إِلَّا إِبْلِيسَ قال أبو إسحاق: استثناء ليس من الأول يذهب إلى قول من قال: إن إبليس ليس من الملائكة ولا كان منهم. وهذا قول صحيح يدلّ عليه أن الله جلّ وعزّ أخبرنا أنه خلق الجانّ من نار والملائكة لم تخلق من نار.

في تفسير ابن كثير : وَالْغَرَضُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ دَخَلَ إِبْلِيسُ فِي خِطَابِهِمْ؛ لِأَنَّهُ -وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ عُنْصرهم -إِلَّا أَنَّهُ كَانَ قَدْ تَشَبَّهَ بِهِمْ وَتَوَسَّمَ بِأَفْعَالِهِمْ؛ فَلِهَذَا دَخَلَ فِي الْخِطَابِ لَهُمْ، وَذُمَّ فِي مُخَالَفَةِ الْأَمْرِ.

عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: مَا كَانَ إِبْلِيسُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ طَرْفَةَ عَيْنٍ قط، وَإِنَّهُ لَأَصْلُ الْجِنِّ، كَمَا أَنَّ آدَمَ أَصْلُ الْإِنْسِ. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ عَنِ الْحَسَنِ. وَهَكَذَا قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ سَوَاءً.

وَقَالَ شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ: كَانَ إِبْلِيسُ مِنَ الْجِنِّ الَّذِينَ طَرَدَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، فَأَسَرَهُ بَعْضُ الْمَلَائِكَةِ فَذَهَبَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ. فَإِنَّهُ خُلِقَ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَأَصْلُ خَلْقِ الْمَلَائِكَةِ مِنْ نُورٍ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أنه قَالَ: "خُلِقَت الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وخُلِق إِبْلِيسُ مِنْ مارج من نار، خُلِق آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ" . فَعِنْدَ الْحَاجَةِ نَضَحَ كُلُّ وعَاءٍ بِمَا فِيهِ، وَخَانَهُ الطَّبْعُ عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ قَدْ تَوَسَّمَ بِأَفْعَالِ الْمَلَائِكَةِ وَتَشَبَّهَ بِهِمْ، وَتَعَبَّدَ وَتَنَسَّكَ، فَلِهَذَا دَخَلَ فِي خِطَابِهِمْ، وَعَصَى بِالْمُخَالَفَةِ. وَنَبَّهَ تَعَالَى هَاهُنَا عَلَى أَنَّهُ {مِنَ الْجِنِّ} أَيْ: إِنَّهُ

خُلق منْ نَارٍ، كَمَا قَالَ: {أَنَا خَيْرٌ منْهُ خَلَقْتَني منْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ منْ طينٍ} [الْأَعْرَاف:١٢]

وَقَدْ رُوي في هَذَا آثَارٌ كَثيرَةٌ عَن السَّلَف، وَغَالبُهَا منَ الْإِسْرَائيليَّات الَّتي تُنْقَلُ ليُنْظَرَ فيهَا، وَاللهُ أَعْلَمُ بحَال كَثيرٍ منْهَا. وَمنْهَا مَا قَدْ يُقْطَعُ بكَذبه لُمخَالَفَته للْحَقّ الَّذي بأَيْدينَا، وَفي الْقُرْآن غُنْيَةٌ عَنْ كُلّ مَا عَدَاهُ منَ الْأَخْبَار الُمتَقَدّمَة؛ لأَنَّهَا لَا تَكَادُ تَخْلُو منْ تَبْديلٍ وَزيَادَةٍ وَنُقْصَانٍ، وَقَدْ وُضعَ فيهَا أَشْيَاءُ كَثيرَةٌ، وَلَيْسَ لَهُمْ منَ الْحُفَّاظ الُمتْقنينَ الَّذينَ يَنْفُون عَنْهَا تَحْريفَ الْغَالينَ وَانْتحَالَ الُمبْطلينَ، كَمَا لهَذه [الْأُمَّة منْ] الْأَئمَّة وَالْعُلَمَاء، وَالسَّادَة الْأَتْقيَاء وَالْأَبْرَار وَالنُّجَبَاء منَ الْجَهَابذَة النُّقَّاد، والحفاظ الْجيَاد، الَّذينَ دَوَّنُوا الْحَديثَ وَحَرَّرُوهُ، وَبَيَّنُوا صَحيحَهُ مَنْ حَسَنه، منْ ضَعيفه، منْ مُنْكَره وَمَوْضُوعه، وَمَتْرُوكه وَمَكْذُوبه، وَعَرَفُوا الْوَضَّاعينَ وَالْكَذَّابينَ وَالْمَجْهُولينَ، وَغَيْرَ ذَلكَ منْ أَصْنَاف الرّجَال، كُلُّ ذَلكَ صيَانَةً للْجَنَاب النَّبَويّ وَالْمَقَام الُمحَمَّديّ، خَاتَم الرُّسُل، وَسَيّد الْبَشَر [عَلَيْه أَفْضَلُ التَّحيَّاتُ وَالصَّلَوَاتُ وَالتَّسْليمَاتُ] ، أَنْ يُنْسَبَ إلَيْه كَذبٌ، أَوْ يُحَدَّثَ عَنْهُ بمَا لَيْسَ [منْهُ] ، فَرَضيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ، وَجَعَلَ جَنَّات الْفرْدَوْس مَأْوَاهُمْ، وَقَدْ فَعَلَ.

(٢٧) تفسير قوله تعالى [أم كنت من العالين]

قالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ (٧٥)

أم كنت من العالين أي من قوم يتكبرون فتكبرت عن السجود لكونك من قوم يتكبرون أي : أمنعك من السجود لآدم تكبرك من غير موجب هذا التكبر ، أم كنت ممن علا على غيره بدون حق؟ والاستفهام للتوبيخ والإنكار . الوسيط للطنطاوي

قال الشعراوي عند تفسير هذه الآية : ونعلم أنه ساعة أن أمر ربنا الملائكة أن تسجد لآدم، لم يكن الأمر لكل جنس الملائكة، بل صدر الأمر إلى الملائكة الموكلين بمصالح الأرض. أما الملائكة غير الموكلين بهذا، فلم يدخلوا في هذه المسألة، ولذلك قلنا إن الحق سبحانه وتعالى حينما عنف إبليس، قال له: {أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ العالين} [ص: ٧٥] . والمقصود بـ «العالين» هم الملائكة الذين لم يشملهم أمر السجود.

قال مصنف التحرير والتنوير : وَالْمَعْنَى: أَمِنْ أَجل أَنَّكَ تَتَعَاظَمُ بِغَيْرِ حَقٍّ أَمْ لِأَنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْعُلُوِّ، وَالْمُرَادُ بِالْعُلُوِّ الشَّرَفُ، أَيْ مِنَ الْعَالِينَ عَلَى آدَمَ فَلَا يَسْتَحِقُّ أَنْ تُعَظِّمَهُ فَأَجَابَ إِبْلِيسُ مِمَّا يُشَقُّ الثَّانِي. فَتَبَيَّنَ أَنَّهُ يَعُدُّ نَفْسَهُ أَفْضَلَ مِنْ آدَمَ لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنَ النَّارِ وَآدَمَ مَخْلُوقٌ مِنَ الطِّينِ، يَعْنِي وَالنَّارُ أَفْضَلُ مِنَ الطِّينِ، أَيْ فِي رَأْيِهِ. وَعَبَّرَ عَنْ آدَمَ بِاسْمِ «مَا» الْمَوْصُولَةِ وَهُوَ حِينَئِذٍ إِنْسَانٌ لِأَنَّ سُجُودَ الْمَلَائِكَةِ لِآدَمَ كَانَ بَعْدَ خَلْقِهِ وَتَعْلِيمِهِ الْأَسْمَاءَ كَمَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ. وَيُؤَيِّدُ قَوْلَ أَهْلِ التَّحْقِيقِ أَنَّ «مَا» لَا تَخْتَصُّ بِغَيْرِ الْعَاقِلِ وَشَوَاهِدُهُ كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ وَغَيْرِهِ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ.

قال ابن القيم :قالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ

إن لفظ اليد جاء في القرآن على ثلاثة أنواع. مفردا، ومثنى، ومجموعا.

فالمفرد: كقوله: { بِيَدِهِ الْمُلْكُ } والمثنى كقوله: { خَلَقْتُ بِيَدَيَّ }والمجموع كقوله: {عَمِلَتْ أَيْدِينا}

فحيث ذكر اليد مثناة. أضاف الفعل إلى نفسه بضمير الإفراد، وعدى الفعل بالباء إليهما، وقال: خَلَقْتُ بِيَدَيَّ. وحيث ذكرها مجموعة أضاف الفعل إليها، ولم يعدّ الفعل بالباء.

فهذه ثلاثة فروق: فلا يحتمل «خلقت بيدي» من المجاز ما يحتمله{ عَملَتْ أَيْدينا} فإن كل أحد يفهم من قوله: { عَملَتْ أَيْدينا } ما يفهمه من قوله: عملنا وخلقنا، كما يفهم ذلك من قوله: { فَبِما كَسَبَتْ أَيْديكُمْ } وأما قوله:{ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} فلو كان المراد منه مجرد الفعل لم يكن لذكر اليد بعد نسبة الفعل إلى الفاعل معنى فكيف وقد دخلت عليها الباء؟ فكيف إذا ثنيت؟

وسرّ الفرق أن الفعل قد يضاف إلى يد ذي اليد، والمراد الإضافة إليه. كقوله:{ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ }{ فَبِما كَسَبَتْ أَيْديكُمْ } وأما إذا أضيف إليه الفعل، ثم عدي بالباء إلى اليد مفردة أو مثناة، فهو مما باشرته يده.

ولهذا قال عبد الله بن عمر «إن الله لم يخلق بيده إلا ثلاثا خلق آدم بيده، وغرس جنة الفردوس بيده، وكتب التوراة بيده» فلو كانت اليد هي القدرة لم يكن لها اختصاص بذلك، ولا كانت لآدم فضيلة بذلك على كل شيء مما خلق بالقدرة.

وهذا التخصيص إنما فهم من قوله «خلقت بيديّ» فلو كان مثل قوله:{ مِمَّا عَملَتْ أَيْدينا } لكان هو والأنعام في ذلك سواء. فلما فهم المسلمون أن قوله: { ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ } يوجب له تخصيصا وتفضيلا بكونه مخلوقا باليدين على من أمر أن يسجد له، وفهم ذلك أهل الموقف حين جعلوه من خصائصه: كانت التسوية بينه وبين قوله: { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَملَتْ أَيْدينا أَنْعاماً } خطأ محضا.

التفسير الوسيط لطنطاوي : قالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ.... ومذهب السلف في مثل هذا التعبير، أن اليد- مفردة أو غير مفردة- إذا وصف الله تعالى بها ذاته، فهي ثابتة له، على الوجه الذي يليق بكماله، مع تنزهه- سبحانه- عن مشابهته للحوادث.

ومذهب الخلف: تأويل اليد بالقدرة أو النعمة. والتثنية في يدي، للتأكيد الدال على مزيد القدرة في خلقه. أي: قال الله- تعالى- لإبليس على سبيل التأنيب والتقريع: يا إبليس ما الذي منعك من السجود لآدم الذي خلقته بيدي؟

أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ. أي: أمنعك من السجود لآدم تكبرك من غير موجب لهذا

التكبر، أم كنت ممن علا على غيره بدون حق؟ والاستفهام للتوبيخ والإنكار.

التفسير المنير للزحيلي : أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ؟ أي تكبرت الآن عن السجود من غير استحقاق، أم كنت من المتكبرين المتفوقين المستحقين للترفع عن طاعة الله، فتكبرت عن السجود، لكونك منهم، وهو استفهام توبيخ.

قال الله له: يا إبليس ما الذي صرفك وصدك عن السجود لآدم، الذي توليت بنفسي خلقه من غير واسطة أب وأم، هل استكبرت عن السجود الآن، أم أنك كنت من القوم المتعالين عن ذلك؟ والمراد إنكار الأمرين معا.

فأجاب قائلا: قالَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ، خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ، وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ أي إنني خير من آدم، فإني مخلوق من نار، وآدم مخلوق من طين، والنار خير وأشرف من الطين في زعمه، لما فيها من صفة الارتفاع والعلو، وأما التراب فهو خامد هابط لا ارتفاع فيه.

تفسير الشعراوي : قوله تعالى: كنت من العالين أي أنك كنت من الملائكة العالين ، الذين لم يشملهم أمر السجود. إذن فأمر السجود لآدم.. كأمر الله لنا بالسجود إلى القبلة في الصلاة ، فنحن لا نسجد للقبلة ذاتها.. ولكننا نسجد لأمر الله بالسجود إلى القبلة.. سجد الملائكة الذين شملهم أمر السجود لأمر الله سبحانه وتعالى. . ولكن إبليس رفض أن يسجد ، وعصى أمر الله. بعض الناس يقولون: إن إبليس لم يكن من الذين أمرهم الله تعالى بالسجود ، لأن الأمر شمل الملائكة وحدهم.. وإبليس ليس ملكا ، ولكنه من الجن ، كما يروي لنا القرآن الكريم في قوله تعالى: {إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجن فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} [الكهف: ٥٠]

ونقول: إن كون إبليس من الجن هو الذي جعله يعصي أمر الله بالسجود ، فلو أن إبليس كان من الملائكة وهم مقهورون على الطاعة كان لابد أن يطيع أمر الله ويسجد ، ولكن كونه من الجن الذين لهم اختيار في أن يطيعوا وأن يعصوا فذلك الذي مكنه أن يعصي أمر السجود. ولذلك فإن الذين يأخذون من الآية الكريمة أن إبليس كان من الجن ، بأنه لم يشمله أمر السجود ، نقول لهم: إن الحق سبحانه وتعالى قد أخبرنا عن جنس إبليس حتى نفهم من أي باب إلى المعصية

دخل.. ذلك أنه دخل من باب الاختيار الممنوح للإنس والجن في الحياة الدنيا وحدها، ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون إبليس مقهورا على الطاعة ما كان يستطيع أن يعصي ، ولكن معصيته جاءت من أنه خلق مختارا.. والاختيار هو الباب الذي دخل منه إلى المعصية ، هذه حقيقة يجب أن نفهمها ، ولذلك يرد الحق سبحانه وتعالى على كل من سيخطر بباله أن أمر السجود لم يشمل إبليس لكونه من الجن لقوله سبحانه وتعالى: {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ} [الأعراف: ١٢] وكان كفر إبليس وخلوده في النار أنه رد الأمر على الآمر. وقال:{أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طيناً} [الإسراء: ٦١] وقد كان وجود إبليس مع الأعلى منه وهم الملائكة. مبررا أكبر للسجود.

فمادام قد صدر الأمر إلى الأعلى بالسجود فإنه ينطبق على الأدنى.

إن «العالين» هم الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون ولا يدرون ولا يعلمون بأمر آدم ، فقد سأل الحق إبليس: أأنت مستكبر عن السجود أم أنت من العالين الذين لم يشملهم أمر السجود؟ وقلنا إن إبليس لم يكن من الملائكة، لأنه بنص القرآن: {إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجن فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبّه} [الكهف: ٥٠]

ولذلك لا يصح أن يكون «إبليس» محل خلاف أهو من الملائكة أم لا! فهو ليس من الملائكة. وفي القرآن نص صريح يثبت جنسية إبليس. وهو من الجن. وكان من المختارين، له أن يطيع أو أن يعصي ؛ لأن الجن داخلون في قانون الاختيار ؛ فإن ألزم الجنّي نفسه بمنهج الله إلزاماً يتساوى به مع الملائكة وجب عليه أن يقوم بذلك ، ولكنه لم يفعل ، وكان من الواجب أن يطيع إبليس الأمر ، ومادام الحق هو الذي أمر بالسجود ، فالأدنى وهو إبليس كان عليه أن يسجد؛ لأن المراتب محفوظة كما نعلم، فرئيس الجمهورية عندما يدخل على الوزراء فهم يطيعون أمره، وإن كان يجلس مع الوزراء بعض وكلاء الوزارات فهم يطيعون أوامره؛ ذلك أنهم يدخلون في الأمر من باب أولى ، ولو كان إبليس أعلى من الملائكة لكان أولى له أن يستجيب لأمر الخالق الأعلى ولا يعصى ويتأبى، أما وإنّه كان أقل من الملائكة فكان لا بد من باب أولى - أن ينصاع لأمر الله لكن إبليس علل أمر عدم السجود، فقال: {أَنَاْ خَيْرٌ مّنْهُ خَلَقْتَنِي من نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ من طِينٍ}

[الأعراف: ١٢] وفي آية أخرى قال سبحانه: {أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طيناً} [الإسراء: ٦١]

وحين يتأبّى كائن على الحكم، أيتأبّى على الحكم الأصم، أي على الحكم من حيث هو حكم دون النظر إلى الحاكم، أم على مَن حكم بالحكم وهو الأعلى سبحانه؟ . تأبى إبليس على من حكم بالحكم، ولذلك طرده الحق من الجنة وصار ملعوناً.

أوضح التفاسير : {أَسْتَكْبَرْتَ} الآن عن أمري {أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ} المتكبرين أصلاً.

وقيل: «العالين» هم ملائكة السماء - ولم يؤمروا بالسجود لآدم - وإنما أمر بالسجود ملائكة الأرض فحسب

مختصر تفسير البغوي المسمى بمعالم التنزيل : الْمُتَكَبِّرِينَ، اسْتِفْهَامُ تَوْبِيخٍ وَإِنْكَارٍ، يَقُولُ: أَسْتَكْبَرْتَ بِنَفْسِكَ حَتَّى أَبَيْتَ السُّجُودَ؟ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فَتَكَبَّرْتَ عَنِ السُّجُودِ لِكَوْنِكَ مِنْهُمْ؟ .

تفسير الطبري : قول تعالى ذكره:(قَالَ) الله لإبليس، إذ لم يسجد لآدم، وخالف أمره:(يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ) يقول: أي شيء منعك من السجود(لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) يقول: لخلق يديّ ؛ يخبر تعالى ذكره بذلك أنه خلق آدم بيديه.

قال: سمعت مجاهدا يحدّث عن ابن عمر، قال: خلق الله أربعة بيده: العرش، وعَدْن، والقلم، وآدم، ثم قال لكلّ شيء كن فكان.

وقوله(أَسْتَكْبَرْتَ) يقول لإبليس: تعظَّمت عن السجود لآدم، فتركت السجود له استكبارا عليه، ولم تكن من المتكبرين العالين قبل ذلك(أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ) يقول: أم كنت كذلك من قبل ذا علوّ وتكبُّر على ربك(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ) يقول جل ثناؤه: قال إبليس لربه: فعلت ذلك فلم أسجد للذي أمرتني بالسجود له لأني خير منه وكنت خيرا لأنك خلقتني من نار وخلقته من طين، والنار تأكل الطين وتحرقه، فالنار خير منه، يقول: لم أفعل ذلك استكبارا عليك، ولا لأني كنت من العالين، ولكني فعلته من أجل أني أشرف منه؛ وهذا تقريع من الله للمشركين الذين كفروا بمحمد ﷺ، وأبوا الانقياد له، واتباع ما جاءهم به من عند الله استكبارا

عن أن يكونوا تبعا لرجل منهم حين قالُوا:(أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا) و(هَلْ هَذَا إلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ) فقصّ عليهم تعالى قصة إبليس وإهلاكه باستكباره عن السجود لآدم بدعواه أنه خير منه، من أجل أنه خلق من نار، وخلق آدم من طين، حتى صار شيطانا رجيما، وحقت عليه من الله لعنته، محذّرهم بذلك أن يستحقوا باستكبارهم على محمد، وتكذيبهم إياه فيما جاءهم به من عند الله حسدا، وتعظما من اللعن والسخط ما استحقه إبليس بتكبره عن السجود لآدم.

(٢٨) شرح حديث وجحد آدم فجحدت ذريته

آداب العطس

عَن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَنَفَخَ فيه الرُّوحَ عَطَسَ فَقَالَ الْحَمْدُ للَّهِ فَحَمدَ اللَّهَ بإِذْنه فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ يَرْحَمُكَ اللَّهُ يَا آدَمُ اذْهَبْ إِلَى أُولَئِكَ الْمَلَائكَة إِلَى مَلَإٍ منْهُمْ جُلُوسٍ فَقُلْ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ قَالُوا وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّه ثُمَّ رَجَعَ إِلَى رَبِّه فَقَالَ إِنَّ هَذه تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ بَنِيكَ بَيْنَهُمْ فَقَالَ اللَّهُ لَهُ وَيَدَاهُ مَقْبُوضَتَان اخْتَرْ أَيَّهُمَا شئْتَ قَالَ اخْتَرْتُ يَمينَ رَبِّي وَكلْتَا يَدَيْ رَبِّي يَمينٌ مُبَارَكَةٌ ثُمَّ بَسَطَهَا فَإِذَا فيهَا آدَمُ وَذُرِّيَّتُهُ فَقَالَ أَيْ رَبِّ مَا هَؤُلَاء فَقَالَ هَؤُلَاء ذُرِّيَّتُكَ فَإِذَا كُلُّ إِنْسَانٍ مَكْتُوبٌ عُمْرُهُ بَيْنَ عَيْنَيْه فَإِذَا فيهِمْ رَجُلٌ أَضْوَؤُهُمْ أَوْ منْ أَضْوَئهِمْ قَالَ يَا رَبِّ مَنْ هَذَا قَالَ هَذَا ابْنُكَ دَاوُدُ قَدْ كَتَبْتُ لَهُ عُمْرَ أَرْبَعينَ سَنَةً قَالَ يَا رَبِّ زدْهُ في عُمْره قَالَ ذَاكَ الَّذي كَتَبْتُ لَهُ قَالَ أَيْ رَبِّ فَإِنِّي قَدْ جَعَلْتُ لَهُ منْ عُمْرِي ستِّينَ سَنَةً قَالَ أَنْتَ وَذَاكَ قَالَ ثُمَّ أُسْكنَ الْجَنَّةَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أُهْبطَ منْهَا فَكَانَ آدَمُ يَعُدُّ لنَفْسه قَالَ فَأَتَاهُ مَلَكُ الْمَوْت فَقَالَ لَهُ آدَمُ قَدْ عَجَّلْتَ قَدْ كُتبَ لِي أَلْفُ سَنَةٍ قَالَ بَلَى وَلَكنَّكَ جَعَلْتَ لابْنك دَاوُدَ ستِّينَ سَنَةً فَجَحَدَ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ وَنَسِيَ فَنَسيَتْ ذُرِّيَّتُهُ قَالَ فَمنْ يَوْمئذٍ أُمرَ بالْكتَاب وَالشُّهُود

لما نفخ في آدم الروح مارت و طارت فصارت في رأسه فعطس فقال : الحمد لله رب العالمين فقال الله : يرحمك الله .تخريج السيوطي (حب ك) عن أنس .في صحيح الجامع .

آداب العطس

هذا الأثر الصحيح يفيد أن أول من عطس النبي آدم ﷺ ووفق بإذنه تعالى أن يقول الحمد لله أو الحمد لله رب العالمين ، فهذا أول ما نطق آدم عليه السلام وهذه أحكام العطس الشرعية.

فَالتَّشْميتُ وَالتَّسْميتُ : الدُّعَاءُ بالْخَيْر وَالْبَرَكَة . وَتَشْميتُ الْعَاطس أَوْ تَسْميَتُهُ : أَنْ يَقُول لَهُ مَتَى كَانَ مُسْلمًا : يَرْحَمُكَ اللَّهُ . اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهُ يُشْرَعُ للْعَاطس عَقبَ عُطَاسه أَنْ يَحْمَدَ اللَّهَ ، فَيَقُول : الْحَمْدُ للَّه ، وَلَوْ زَادَ : رَبِّ الْعَالَمينَ كَانَ أَحْسَن كَفعْل ابْن مَسْعُودٍ . وَلَوْ قَال : الْحَمْدُ للَّه عَلَى كُل حَالٍ كَانَ أَفْضَل كَفعْل ابْن عُمَرَ . وَقيل يَقُول : الْحَمْدُ للَّه حَمْدًا كَثيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فيه ،

كَفعْل غَيْرهمَا . وَرَوَى أَحْمَدُ وَالنَّسَائيُّ منْ حَديث سَالم بْن عُبَيْدٍ مَرْفُوعًا إذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُل : الْحَمْدُ للهَّ عَلَى كُل حَالٍ أَو الْحَمْدُ للهَّ رَبّ الْعَالَمينَ وَفي حَديث أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ عَن النَّبيّ ﷺ قَال : إذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُل : الْحَمْدُ للهَّ عَلَى كُل حَالٍ وَمَتَى حَمدَ اللهَّ بَعْدَ عَطْسَته كَانَ حَقًّا عَلَى مَنْ سَمعَهُ منْ إخْوَانه الْمُسْلمينَ غَيْر الْمُصَلّينَ أَنْ يُشَمّتَهُ " يَرْحَمُكَ اللهُّ " فَقَدْ رَوَى الْبُخَاريُّ منْ حَديث أَبي هُرَيْرَةَ إذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَحَمدَ اللهَّ فَحَقٌّ عَلَى كُل مُسْلمٍ سَمعَهُ أَنْ يَقُول : يَرْحَمُكَ اللهُّ. وَفي صَحيح الْبُخَاريّ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ عَن النَّبيّ ﷺ قَال : إذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُل : الْحَمْدُ للهَّ . وَلْيَقُل لَهُ أَخُوهُ أَوْ صَاحبُهُ : يَرْحَمُكَ اللهُّ . فَإذَا قَال لَهُ : يَرْحَمُكَ اللهُّ فَلْيَقُل : يَهْديكُمُ اللهُّ وَيُصْلحُ بَالَكُمْ .

وَعَن النَّبيّ ﷺ قَال : حَقُّ الْمُسْلم عَلَى الْمُسْلم خَمْسٌ : رَدُّ السَّلاَم ، وَعيَادَةُ الْمَريض وَاتّبَاعُ الْجَنَائز ، وَإجَابَةُ الدَّعْوَة ، وَتَشْميتُ الْعَاطس وَفي روَايَةٍ لمُسْلمٍ حَقُّ الْمُسْلم عَلَى الْمُسْلم ستٌّ : إذَا لَقيتَهُ فَسَلّمْ عَلَيْه ، وَإذَا دَعَاكَ فَأَجبْهُ ، وَإ ذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ ، وَإذَا عَطَسَ فَحَمدَ اللهَّ تَعَالَى فَشَمّتْهُ وَإذَا مَرضَ فَعُدْهُ ، وَإذَا مَاتَ فَاتَّبعْهُ .

وَإنْ لَمْ يَحْمَد اللهَّ بَعْدَ عَطْسَته فَلاَ يُشَمَّتُ .

فَعَنْ أَبي مُوسَى الأْ شْعَريّ ﷺ مَرْفُوعًا : إذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَحَمدَ اللهَّ فَشَمّتُوهُ ، فَإنْ لَمْ يَحْمَد اللهَّ فَلاَ تُشَمّتُوهُ .

وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَال : عَطَسَ رَجُلاَن عنْدَ النَّبيّ ﷺ فَشَمَّتَ أَحَدُهُمَا وَلَمْ يُشَمّت الآْخَرَ . فَقَال الَّذي لَمْ يُشَمّتْهُ : عَطَسَ فُلاَنٌ فَشَمَّتَّهُ ، وَعَطَسْتُ فَلَمْ تُشَمّتْني فَقَال : إنَّ هَذَا حَمدَ اللهَّ تَعَالَى ، وَإنَّكَ لَمْ تَحْمَد اللهَّ تَعَالَى

وَهَذَا الْحُكْمُ عَامٌّ وَلَيْسَ مَخْصُوصًا بالرَّجُل الَّذي وَقَعَ لَهُ ذَلكَ .

يُؤَيّدُ الْعُمُومَ مَا جَاءَ في حَديث أَبي مُوسَى إذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَحَمدَ اللهَّ فَشَمّتُوهُ ، وَإنْ لَمْ يَحْمَد اللهَّ فَلاَ تُشَمّتُوهُ .

فَالتَّشْميتُ قَدْ شُرعَ لمَنْ حَمدَ اللهَّ دُونَ مَنْ لَمْ يَحْمَدْهُ ، فَإذَا عَرفَ السَّامعُ أَنَّ الْعَاطسَ حَمدَ اللهَّ بَعْدَ

عَطْسَته شَمَّتَهُ ، كَأَنْ سَمعَهُ يَحْمَدُ اللهَّ ، وَإِنْ سَمعَ الْعَطْسَةَ وَلَمْ يَسْمَعْهُ يَحْمَدُ اللهَّ ، بَل سَمعَ مَنْ شَمَّتَ ذَلكَ الْعَاطسَ ، فَإِنَّهُ يُشْرَعُ لَهُ التَّشْميتُ لعُمُوم الأْمْر به لمَنْ عَطَسَ فَحَمدَ ، وَقَال النَّوَويُّ الْمُخْتَارُ أَنَّهُ يُشَمّتُهُ مَنْ سَمعَهُ دُونَ غَيْره . وَهَذَا التَّشْميتُ سُنَّةٌ عنْدَ الشَّافعيَّة .

وَفي قَوْلٍ للْحَنَابلَة وَعنْدَ الْحَنَفيَّة هُوَ وَاجبٌ .

وَقَال الْمَالكيَّةُ ، وَهُوَ الْمَذْهَبُ عنْدَ الْحَنَابلَة بوُجُوبه عَلَى الْكفَايَة . وَنُقل عَن الْبَيَان أَنَّ الأْشْهَرَ أَنَّهُ فَرْضُ عَيْنٍ ، لحَديث كَانَ حَقًّا عَلَى كُل مُسْلمٍ سَمعَهُ أَنْ يَقُول لَهُ : يَرْحَمُكَ اللهُّ .

فَإِنْ عَطَسَ وَلَمْ يَحْمَد اللهَّ نسْيَانًا اسْتُحبَّ لمَنْ حَضَرَهُ أَنْ يُذَكّرَهُ الْحَمْدَ ليَحْمَدَ فَيُشَمّتَهُ . وَقَدْ ثَبَتَ ذَلكَ عَنْ إبْرَاهيمَ النَّخَعيّ

وَيُنْدَبُ للْعَاطس أَنْ يَرُدَّ عَلَى مَنْ شَمَّتَهُ : فَيَقُول لَهُ : يَغْفرُ اللهُّ لَنَا وَلَكُمْ ، أَوْ يَهْديكُمُ اللهُّ وَيُصْلحُ بَالَكُمْ ، وَقيل : يَجْمَعُ بَيْنَهُمَا ، فَيَقُول : يَرْحَمُنَا اللهُّ وَإيَّاكُمْ وَيَغْفرُ لَنَا وَلَكُمْ . فَقَدْ رُويَ عَن ابْن عُمَرَ أَنَّهُ كَانَ إذَا عَطَسَ فَقيل لَهُ : يَرْحَمُكَ اللهُّ . قَال : يَرْحَمُنَا اللهُّ وَإيَّاكُمْ وَيَغْفرُ اللهُّ لَنَا وَلَكُمْ .

قَال ابْنُ أَبي جَمْرَةَ : في الْحَديث دَليلٌ عَلَى عَظيم نعْمَة اللهَّ عَلَى الْعَاطس . يُؤْخَذُ ذَلكَ ممَّا رُتّبَ عَلَيْه منَ الْخَيْر . وَفيه إشَارَةٌ إلَى عَظيم فَضْل اللهَّ عَلَى عَبْده . فَإنَّهُ أَذْهَبَ عَنْهُ الضَّرَرَ بنعْمَة الْعَطْس ، ثُمَّ شَرَعَ لَهُ الْحَمْدَ الَّذي يُثَابُ عَلَيْه ، ثُمَّ الدُّعَاءَ بالْخَيْر بَعْدَ الدُّعَاء بالْخَيْر وَشَرَعَ هَذه النّعَمَ الْمُتَوَاليَات في زَمَنٍ يَسيرٍ فَضْلاً منْهُ وَإحْسَانًا . فَإذَا قيل للْعَاطس : يَرْحَمُكَ اللهُّ ، فَمَعْنَاهُ : جَعَل اللهُّ لَكَ ذَلكَ لتَدُومَ لَكَ السَّلاَمَةَ ، وَفيه إشَارَةٌ إلَى تَنْبيه الْعَاطس عَلَى طَلَب الرَّحْمَة وَالتَّوْبَة منَ الذَّنْب ، وَمنْ ثَمَّ شُرعَ به الْجَوَابُ بقَوْله : غَفَرَ اللهُّ لَنَا وَلَكُمْ وَقَوْلُهُ : وَيُصْلحُ بَالَكُمْ أَيْ شَأْنَكُمْ . وقَوْله تَعَالَى : { سَيَهْديهمْ وَيُصْلحُ بَالَهُمْ } أَيْ شَأْنَهُمْ . وَهَذَا مَا لَمْ يَكُنْ في صَلاَته أَوْ خَلاَئه .

مَا يَنْبَغي للْعَاطس مُرَاعَاتُهُ :

منْ آدَاب الْعَاطس : أَنْ يَخْفضَ بالْعَطْس صَوْتَهُ وَيَرْفَعَهُ بالْحَمْد . وَأَنْ يُغَطّيَ وَجْهَهُ لئَلاَّ يَبْدُوَ منْ فيه أَوْ أَنْفه مَا يُؤْذي جَليسَهُ . وَلاَ يَلْوي عُنُقَهُ يَمينًا وَلاَ شمَالاً لئَلاَّ يَتَضَرَّرَ بذَلكَ . قَال ابْنُ الْعَرَبيّ : الْحكْمَةُ في خَفْض الصَّوْت بالْعُطَاس : أَنَّ رَفْعَهُ إزْعَاجًا للأْعْضَاء . وَفي تَغْطيَة الْوَجْه : أَنَّهُ لَوْ

بَدَرَ مِنْهُ شَيْءٌ آذَى جَلِيسَهُ . وَلَوْ لَوَى عُنُقَهُ صِيَانَةً لِجَلِيسِه لَمْ يَأْمَنْ مِنَ الالْتِوَاء ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَال : كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ إِذَا عَطَسَ وَضَعَ يَدَهُ أَوْ ثَوْبَهُ عَلَى فِيه ، وَخَفَضَ أَوْ غَضَّ بِهَا صَوْتَهُ .

حِكْمَةُ مَشْرُوعِيَّة التَّشْمِيت :

قَال ابْنُ دَقِيق الْعِيد : مِنْ فَوَائِد التَّشْمِيت تَحْصِيل الْمَوَدَّة ، وَالتَّأْلِيفُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَتَأْدِيبُ الْعَاطِس بِكَسْر النَّفْس عَن الْكِبْر ، وَالْحَمْل عَلَى التَّوَاضُع لِمَا فِي ذِكْر الرَّحْمَة مِنَ الإِشْعَار بِالذَّنْب الَّذِي لاَ يَعْرَى عَنْهُ أَكْثَرُ الْمُكَلَّفِينَ .

مسائل علمية

التَّشْمِيتُ أَثْنَاءَ الْخُطْبَة :

كَرِهَ الْحَنَفِيَّةُ وَالْمَالِكِيَّةُ التَّشْمِيتَ أَثْنَاءَ الْخُطْبَة ، وَعِنْدَ الشَّافِعِيَّة فِي الْجَدِيد : أَنَّ الْكَلاَمَ عِنْدَ الْخُطْبَة لاَ يَحْرُمُ ، وَيُسَنُّ الإِنْصَاتُ ، وَلاَ فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ التَّشْمِيت وَغَيْرِه ، وَاسْتَدَل بِمَا رَوَى أَنَسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَال : دَخَل رَجُلٌ وَالنَّبِيُّ ﷺ قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَر يَوْمَ الْجُمُعَة فَقَال : مَتَى السَّاعَةُ ؟ فَأَشَارَ النَّاسُ إِلَيْه أَن اسْكُتْ فَقَال لَهُ رَسُول اللهِ ﷺ عِنْدَ الثَّالِثَة : مَا أَعْدَدْتَ لَهَا ؟ قَال : حُبُّ اللهِ وَرَسُوله قَال : إِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ وَإِذْ جَازَ هَذَا فِي الْخُطْبَة جَازَ تَشْمِيتُ الْعَاطِس أَثْنَاءَهَا .

وَعِنْدَ الْمَالِكِيَّة ، وَهُوَ الْقَدِيمُ عِنْدَ الشَّافِعِيَّة : أَنَّ الإِنْصَاتَ لِسَمَاع الْخُطْبَة وَاجِبٌ . لِمَا رَوَى جَابِرٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَال : دَخَل ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ فَجَلَسَ إِلَى أُبَيٍّ ﷺ فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْه ، فَسَكَتَ حَتَّى صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ فَقَال لَهُ : مَا مَنَعَكَ أَنْ تَرُدَّ عَلَيَّ ؟ فَقَال : إِنَّكَ لَمْ تَشْهَدْ مَعَنَا الْجُمُعَةَ . قَال : وَلِمَ ؟ قَال : لأَنَّكَ تَكَلَّمْتَ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ ، فَقَامَ ابْنُ مَسْعُودٍ فَدَخَل عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرَ لَهُ ، فَقَال : صَدَقَ أُبَيٌّ وَإِذَا كَانَ الإِنْصَاتُ وَاجِبًا كَانَ مَا خَالَفَهُ مِنْ تَشْمِيت الْعَاطِس أَثْنَاءَ الْخُطْبَة حَرَامًا .

وَلِلْحَنَابِلَة رِوَايَتَان :إِحْدَاهُمَا الْجَوَازُ مُطْلَقًا أَخْذًا مِنْ قَوْل الأَثْرَم : سَمِعْتُ أَبَا عَبْد اللهِ أَي الإِمَامَ أَحْمَدَ – سُئِل : يَرُدُّ الرَّجُل السَّلاَمَ يَوْمَ الْجُمُعَة ؟ فَقَال : نَعَمْ . قَال : وَيُشَمِّتُ الْعَاطِسَ ؟ فَقَال :

نَعَمْ . وَالإِمَامُ يَخْطُبُ . وَقَال أَبُو عَبْد اللهِ قَدْ فَعَلَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ . قَال ذَلكَ غَيْرَ مَرَّةٍ ، وَممَّنْ رَخَّصَ فِي ذَلكَ الحَسَنُ وَالشَّعْبِيُّ وَالنَّخَعِيُّ وَقَتَادَةُ وَالثَّوْرِيُّ وَإِسْحَاقُ .

وَالثَّانِيَةُ : إِنْ كَانَ لاَ يَسْمَعُ الخُطْبَةَ شَمَّتَ الْعَاطِسَ ، وَإِنْ كَانَ يَسْمَعُ لَمْ يَفْعَل ، قَال أَبُو طَالبٍ : قَال أَحْمَدُ : إِذَا سَمعْتَ الخُطْبَةَ فَاسْتَمعْ وَأَنْصتْ وَلاَ تَقْرَأْ وَلاَ تُشَمّتْ ، وَإِذَا لَمْ تَسْمَع الخُطْبَةَ فَاقْرَأْ وَشَمّتْ وَرُدَّ السَّلاَمَ . وَقَال أَبُو دَاوُدَ : قُلْتُ لأَحْمَدَ : يُرَدُّ السَّلاَمُ وَالإِمَامُ يَخْطُبُ وَيُشَمَّتُ الْعَاطسُ ؟ قَال : إِذَا كَانَ لَيْسَ يَسْمَعُ الخُطْبَةَ فَيَرُدُّ ، وَإِذَا كَانَ يَسْمَعُ فَلاَ لقَوْل اللهِ تَعَالَى : { فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا } وَرُوِيَ نَحْوُ ذَلكَ عَنْ ابْن عُمَرَ رَضيَ اللهُ عَنْهُمَا .

تَشْميتُ مَنْ فِي الخَلاَءِ لقَضَاء حَاجَته : يُكْرَهُ لمَنْ فِي الخَلاَءِ لقَضَاء حَاجَته أَنْ يُشَمّتَ عَاطسًا سَمعَ عَطْسَتَهُ . بِذَلكَ قَال فُقَهَاءُ المَذَاهب الأَرْبَعَة . كَمَا كَرهُوا لَهُ إِنْ عَطَسَ فِي خَلاَئه أَنْ يَحْمَدَ اللهَ بلسَانه وَأَجَازُوا لَهُ ذَلكَ فِي نَفْسه دُونَ أَنْ يُحَرّكَ به لسَانَهُ وَعَنْ المُهَاجر بْن قُنْفُذٍ ﷺ قَال : أَتَيْتُ النَّبيَّ ﷺ وَهُوَ يَبُول فَسَلَّمْتُ عَلَيْه، فَلَمْ يَرُدَّ حَتَّى تَوَضَّأَ ، ثُمَّ اعْتَذَرَ إِلَيَّ وَقَال : إِنّي كَرهْتُ أَنْ أَذْكُرَ اللهَ تَعَالَى إِلاَّ عَلَى طُهْرٍ أَوْ قَال : عَلَى طَهَارَةٍ

تَشْميتُ المَرْأَة الأَجْنَبيَّة للرَّجُل وَالْعَكْسُ : إِنْ كَانَت المَرْأَةُ شَابَّةً يُخْشَى الافْتنَانُ بهَا كُرهَ لَهَا أَنْ تُشَمّتَ الرَّجُل إِذَا عَطَسَ ، كَمَا يُكْرَهُ لَهَا أَنْ تَرُدَّ عَلَى مُشَمّتٍ لَهَا لَوْ عَطَسَتْ هيَ . بخلاَف لَوْ كَانَتْ عَجُوزًا وَلاَ تَميل إِلَيْهَا النُّفُوسُ فَإِنَّهَا تُشَمَّتُ وَتُشَمّتُ مَتَى حَمدَت اللهَ ، بِذَلكَ قَال المَالكيَّةُ وَمثْلُهُمْ فِي ذَلكَ الحَنَابلَةُ .

جَاءَ فِي الآدَاب الشَّرْعيَّة لابْن مُفْلحٍ عَنْ ابْن تَميم : لاَ يُشَمّتُ الرَّجُل الشَّابَّةَ وَلاَ تُشَمّتُهُ .
وَقَال السَّامريُّ : يُكْرَهُ أَنْ يُشَمّتَ الرَّجُل المَرْأَةَ إِذَا عَطَسَتْ وَلاَ يُكْرَهُ ذَلكَ للْعَجُوز . وَقَال ابْنُ الجَوْزيّ : وَقَدْ رُوّينَا عَنْ أَحْمَدَ بْن حَنْبَلٍ ﷺ أَنَّهُ كَانَ عنْدَهُ رَجُلٌ منَ الْعُبَّاد فَعَطَسَت امْرَأَةُ أَحْمَدَ ، فَقَال لَهَا الْعَابدُ : يَرْحَمُكَ اللهُ . فَقَال أَحْمَدُ رَحمَهُ اللهُ . عَابدٌ جَاهلٌ .

وَقَال حَرْبٌ : قُلْتُ لأَحْمَدَ : الرَّجُل يُشَمّتُ الْمَرْأَةَ إِذَا عَطَسَتْ ؟ فَقَال : إِنْ أَرَادَ أَنْ يَسْتَنْطقَهَا لِيَسْمَعَ كَلاَمَهَا فَلاَ ؛ لأَنَّ الْكَلاَمَ فتْنَةٌ ، وَإِنْ لَمْ يُرِدْ ذَلكَ فَلاَ بَأْسَ أَنْ يُشَمّتَهُنَّ . وَقَال أَبُو طَالبٍ : إِنَّهُ سَأَل أَبَا عَبْد اللهِ : يُشَمّتُ الرَّجُل الْمَرْأَةَ إِذَا عَطَسَتْ ؟ قَال : نَعَمْ قَدْ شَمَّتَ أَبُو مُوسَى امْرَأَتَهُ قُلْتُ : فَإِنْ كَانَت امْرَأَةٌ تَمُرُّ أَوْ جَالسَةً فَعَطَسَتْ أُشَمّتُهَا ؟ قَال : نَعَمْ . وَقَال الْقَاضي : وَيُشَمّتُ الرَّجُل الْمَرْأَةَ الْبَرْزَةَ وَيُكْرَهُ للشَّابَّة . وَقَال ابْنُ عَقيلٍ : يُشَمّتُ الْمَرْأَةَ الْبَرْزَةَ وَتُشَمّتُهُ وَلاَ يُشَمّتُ الشَّابَّةَ وَلاَ تُشَمّتُهُ ، وَقَال الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَادر : يَجُوزُ للرَّجُل تَشْميتُ الْمَرْأَة الْبَرْزَة وَالْعَجُوز ، وَيُكْرَهُ للشَّابَّة ، وَفي هَذَا تَفْريقٌ بَيْنَ الشَّابَّة وَغَيْرهَا .

وَعنْدَ الْحَنَفيَّة ذَكَرَ صَاحبُ الذَّخيرَة : أَنَّهُ إِذَا عَطَسَ الرَّجُل فَشَمَّتَتْهُ الْمَرْأَةُ ، فَإِنْ عَجُوزًا رَدَّ عَلَيْهَا وَإِلاَّ رَدَّ في نَفْسه . قَال ابْنُ عَابدينَ : وَكَذَا لَوْ عَطَسَتْ هيَ كَمَا في الْخُلاَصَة .

تَشْميتُ الْمُسْلم للْكَافر : لَوْ عَطَسَ كَافرٌ وَحَمدَ اللهَ عُقَيْبَ عُطَاسه وَسَمعَهُ مُسْلمٌ كَانَ عَلَيْه أَنْ يُشَمّتَهُ بقَوْله : هَدَاكَ اللهُ أَوْ عَافَاكَ اللهُ ، فَقَدْ أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ منْ حَديث أَبي مُوسَى الأَشْعَريّ قَال : كَانَت الْيَهُودُ يَتَعَاطَسُونَ عنْدَ النَّبيّ ﷺ رَجَاءَ أَنْ يَقُول يَرْحَمُكُمُ اللهُ ، فَكَانَ يَقُول : يَهْديكُمُ اللهُ وَيُصْلحُ بَالَكُمْ . وَفي قَوْله : يَهْديكُمُ اللهُ وَيُصْلحُ بَالَكُمْ . تَعْريضٌ لَهُمْ بالإسْلاَم : أَي اهْتَدُوا وَآمنُوا يُصْلح اللهُ بَالَكُمْ . فَلَهُمْ تَشْميتٌ مَخْصُوصٌ ، وَهُوَ الدُّعَاءُ لَهُمْ بالْهدَايَة وَإِصْلاَح الْبَال . بخلاَف تَشْميت الْمُسْلمينَ ، فَإِنَّهُمْ أَهْلٌ للدُّعَاء بالرَّحْمَة بخلاَف الْكُفَّار . وَعَنْ ابْن عُمَرَ رَضيَ اللهُ عَنْهُمَا قَال : اجْتَمَعَ الْيَهُودُ وَالْمُسْلمُونَ فَعَطَسَ النَّبيُّ ﷺ فَشَمَّتَهُ الْفَريقَان جَميعًا ، فَقَال للْمُسْلمينَ يَغْفرُ اللهُ لَكُمْ وَيَرْحَمُنَا وَإِيَّاكُمْ . وَقَال للْيَهُود : يَهْديكُمُ اللهُ وَيُصْلحُ بَالَكُمْ

تَشْميتُ الْمُصَلّي غَيْرَهُ : مَنْ كَانَ في الصَّلاَة وَسَمعَ عَاطسًا حَمدَ اللهَ عَقبَ عُطَاسه فَشَمَّتَهُ بَطَلَتْ صَلاَتُهُ ؛ لأَنَّ تَشْميتَهُ لَهُ بقَوْله : يَرْحَمُكَ اللهُ يَجْري في مُخَاطَبَات النَّاس ، فَكَانَ منْ كَلاَمهمْ ، فَقَدْ رُويَ عَنْ مُعَاويَةَ بْن الْحَكَم ﷺ قَال : بَيْنَمَا أَنَا مَعَ رَسُول اللهِ ﷺ في الصَّلاَة إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ منَ الْقَوْم ، فَقُلْتُ : يَرْحَمُكَ اللهُ ، فَحَدَّقَني الْقَوْمُ بأَبْصَارهمْ ، فَقُلْتُ : وَاثُكْل أُمَّاهُ ، مَا لَكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ ؟ فَضَرَبَ الْقَوْمُ بأَيْديهمْ عَلَى أَفْخَاذهمْ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ رَسُول اللهِ ﷺ دَعَاني بأَبي وَأُمّي هُوَ ، مَا

رَأَيْتُ مُعَلِّمًا أَحْسَنَ تَعْلِيمًا منْهُ ، وَاللهِ مَا ضَرَبَنِي ﷺ وَلاَ كَهَرَنِي ثُمَّ قَال : إنَّ صَلاَتَنَا هَذه لاَ يَصْلُحُ فيهَا شَيْءٌ منْ كَلاَمِ الآْدَميّينَ ، إنَّمَا هيَ التَّسْبيحُ وَالتَّكْبيرُ وَقرَاءَةُ الْقُرْآن هَذَا قَوْل الْحَنَفيَّة وَالْمَالكيَّة وَالْحَنَابلَة وَالْمَشْهُورُ عنْدَ الشَّافعيَّة ، وَإنْ كَانَ تَعْبيرُ الْحَنَفيَّة بالْفَسَاد وَتَعْبيرُ غَيْرهمْ بالْبُطْلاَن ، إلاَّ أَنَّ الْبُطْلاَنَ وَالْفَسَادَ في ذَلكَ بمَعْنًى

فَإنْ عَطَسَ هُوَ في صَلاَته فَحَمدَ اللهَ وَشَمَّتَ نَفْسَهُ في نَفْسه دُونَ أَنْ يُحَرّكَ بذَلكَ لسَانَهُ بأَنْ قَال : يَرْحَمُكَ اللهُ يَا نَفْسي لاَ تَفْسُدُ صَلاَتُهُ ؛ لأَنَّهُ لَمَّا لَمْ يَكُنْ خطَابًا لغَيْره لَمْ يُعْتَبَرْ منْ كَلاَم النَّاس كَمَا إذَا قَال : يَرْحَمُني اللهُ . قَال به الْحَنَفيَّةُ وَالْحَنَابلَةُ الْمَالكيَّةُ .

تَشْميتُ الْعَاطس فَوْقَ ثَلاَثٍ : مَنْ تَكَرَّرَ عُطَاسُهُ فَزَادَ عَلَى الثَّلاَث فَإنَّهُ لاَ يُشَمَّتُ فيمَا زَادَ عَنْهَا ؛ إذْ هُوَ بمَا زَادَ عَنْهَا مَزْكُومٌ . فَعَنْ سَلَمَةَ بْن الأَكْوَع ﷺ : شَمَّتَ رَسُول اللهِ ﷺ رَجُلاً عَطَسَ مَرَّتَيْن بقَوْله : يَرْحَمُكَ اللهُ ثُمَّ قَال عَنْهُ في الثَّالثَة : هَذَا رَجُلٌ مَزْكُومٌ . وَذَكَرَ ابْنُ دَقيق الْعيد عَنْ بَعْض الشَّافعيَّة أَنَّهُ قَال : يُكَرَّرُ التَّشْميتُ إذَا تَكَرَّرَ الْعُطَاسُ ، إلاَّ أَنْ يُعْرَفَ أَنَّهُ مَزْكُومٌ فَيَدْعُوَ لَهُ بالشّفَاء . وَعنْدَ هَذَا سَقَطَ الأَمْرُ بالتَّشْميت عنْدَ الْعلْم بالزُّكَام ، لأَنَّ التَّعْليل به يَقْتَضي أَنْ لاَ يُشَمَّتَ مَنْ عُلمَ أَنَّ به زُكَامًا أَصْلاً ، لكَوْنه مَرَضًا ، وَلَيْسَ عُطَاسًا مَحْمُودًا نَاشئًا عَنْ خفَّة الْبَدَن وَانْفتَاح الْمَسَامّ وَعَدَم الْغَايَة في الشّبَع . إذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُل : الْحَمْدُ للهِ . وَلْيَقُل لَهُ أَخُوهُ أَوْ صَاحبُهُ : يَرْحَمُكَ اللهُ . فَإذَا قَال لَهُ : يَرْحَمُكَ اللهُ فَلْيَقُل : يَهْدِيكُمُ اللهُ وَيُصْلِحُ بَالَكُمْ

مِنْ آدَابِ الْعَاطِسِ : أَنْ يَخْفِضَ بِالْعَطْسِ صَوْتَهُ وَيَرْفَعَهُ بِالْحَمْدِ . وَأَنْ يُغَطِّيَ وَجْهَهُ لِئَلاَّ يَبْدُوَ مِنْ فِيهِ أَوْ أَنْفِهِ مَا يُؤْذِي جَلِيسَهُ . وَلاَ يَلْوِي عُنُقَهُ يَمِينًا وَلاَ شِمَالاً لِئَلاَّ يَتَضَرَّرَ بِذَلِكَ

أحكام السلام

ذهب آدم للسلام على الملائكة كما علمه وأمره ربه ، فقال السلام عليكم فرد الملائكة السلام وزادوه ورحمة الله فكانت تحية الإنس ، وقررت في الإسلام ، وأصبحت حقا لكل مسلم ، فهذه أحكامها وتفاصيلها.

السَّلاَمُ – بِفَتْحِ السّين – اسْمُ مَصْدَر سَلَّمَ ؛ أَيْ : أَلْقَى السَّلاَمَ ، وَمِنْ مَعَانِي السَّلاَمِ السَّلاَمَةُ وَالأَمْنُ وَالتَّحيَّةُ ، وَلِذَلكَ قيل للْجَنَّة : دَارُ السَّلاَمِ لأَنَّهَا دَارُ السَّلاَمَة منَ الآفَات كَالْهَرَم وَالأَسْقَام وَالْمَوْت . قَال تَعَالَى : { لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عنْدَ رَبّهِمْ } . وَالسَّلاَمُ اسْمٌ منْ أَسْمَاء اللهِ تَعَالَى

وَالتَّسْليمُ : السَّلاَمُ ، وَسَلَّمَ الْمُصَلّي : خَرَجَ منَ الصَّلاَة بقَوْله : السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ . وَسَلَّمَ عَلَى الْقَوْم : حَيَّاهُمْ بالسَّلاَم ، وَسَلَّمَ : أَلْقَى التَّحيَّةَ ، وَسَلَّمَ عَلَيْه : قَال لَهُ : سَلاَمٌ عَلَيْكَ .

وَالسَّلاَمُ يُطْلَقُ عنْدَ الْفُقَهَاء عَلَى أُمُورٍ ، منْهَا : التَّحيَّةُ الَّتي يُحَيّي بهَا الْمُسْلمُونَ بَعْضَهُمْ بَعْضًا ، وَالَّتي أَمَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهَا في كتَابه حَيْثُ قَال : { وَإِذَا حُيّيتُمْ بتَحيَّةٍ فَحَيُّوا بأَحْسَنَ منْهَا أَوْ رُدُّوهَا } وقَوْله تَعَالَى { فَسَلّمُوا عَلَى أَنْفُسكُمْ تَحيَّةً منْ عنْد اللهِ مُبَارَكَةً طَيّبَةً } ذَلكَ أَنَّ للْعَرَب وَغَيْرهمْ تَحيَّاتٍ خَاصَّةً بهمْ ، فَلَمَّا جَاءَ الإسْلاَمُ دَعَا الْمُؤْمنينَ إلَى التَّحيَّة الْخَاصَّة ، وَهيَ قَوْل : (السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ) ، وَقَصَرَهُمْ عَلَيْه ، وَأَمَرَهُمْ بإفْشَائه . وَالسَّلاَمُ أَيْضًا تَحيَّةُ أَهْل الْجَنَّة . قَال سُبْحَانَهُ : { وَالْمَلاَئكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهمْ منْ كُل بَابٍ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بمَا صَبَرْتُمْ فَنعْمَ عُقْبَى الدَّار }.

وَقَد اخْتيرَ هَذَا اللَّفْظُ دُونَ غَيْره ؛ لأَنَّ مَعْنَاهُ الدُّعَاءُ بالسَّلاَمَة منَ الآفَات في الدّين وَالنَّفْس ؛ وَلأَنَّ في تَحيَّة الْمُسْلمينَ بَعْضهمْ لبَعْضٍ بهَذَا اللَّفْظ عَهْدًا بَيْنَهُمْ عَلَى صيَانَة دمَائهمْ وَأَعْرَاضهمْ يَخْتَلفُ حُكْمُ التَّسْليم باخْتلاَف أَنْوَاعه .

أ – التَّسْليمُ بمَعْنَى التَّحيَّة :

ابْتدَاءُ السَّلاَم سُنَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ ، لقَوْله ﷺ : أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ ، وَيُسْتَحَبُّ مُرَاعَاةُ صيغَة الْجَمْع ، وَإِنْ كَانَ الْمُسَلَّمُ عَلَيْه وَاحدًا ، أَخْذًا بالنَّصّ الْوَارد في ذَلكَ ؛ وَلأَنَّهُ يَقْصدُ مَعَ الْوَاحد الْمَلاَئكَةَ . وَيَجبُ الرَّدُّ إنْ كَانَ السَّلاَمُ عَلَى وَاحدٍ . وَإِنْ سَلَّمَ عَلَى جَمَاعَةٍ فَالرَّدُّ في حَقّهمْ فَرْضُ كفَايَةٍ ، فَإِنْ

رَدَّ أَحَدُهُمْ سَقَطَ الْحَرَجُ عَنِ الْبَاقِينَ ، وَإِنْ رَدَّ الْجَمِيعُ كَانُوا مُؤَدِّينَ لِلْفَرْضِ ، سَوَاءٌ رَدُّوا مَعًا أَوْ مُتَعَاقِبِينَ ، فَإِنِ امْتَنَعُوا كُلُّهُمْ أَثِمُوا لِخَبَرِ ؛ حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ : رَدُّ السَّلاَمِ . . .

وَيُشْتَرَطُ فِي ابْتِدَاءِ السَّلاَمِ رَفْعُ الصَّوْتِ بِقَدْرِ مَا يَحْصُلُ بِهِ الإِسْمَاعُ ، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ الرَّدُّ مُتَّصِلاً بِالسَّلاَمِ ، وَالزِّيَادَةُ عَلَى صِيغَةِ ابْتِدَاءِ السَّلاَمِ فِي الرَّدِّ أَفْضَلُ ، وَيُسَنُّ ابْتِدَاءُ السَّلاَمِ عِنْدَ الإِقْبَالِ وَالانْصِرَافِ ، لِخَبَرِ : إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِاللَّهِ مَنْ بَدَأَهُمْ بِالسَّلاَمِ وَلِقَوْلِهِ ﷺ : إِذَا لَقِيَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ ، فَإِنْ حَالَتْ بَيْنَهُمَا شَجَرَةٌ أَوْ جِدَارٌ أَوْ حَجَرٌ ، ثُمَّ لَقِيَهُ ، فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ

الأَلْفَاظُ ذَاتُ الصِّلَةِ : التَّحِيَّةُ : التَّحِيَّةُ فِي اللُّغَةِ مَصْدَرُ حَيَّاهُ يُحَيِّيهِ تَحِيَّةً ، وَأَصْلُهُ فِي اللُّغَةِ : الدُّعَاءُ بِالْحَيَاةِ ، وَمِنْهُ

(التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ) أَيْ : الْبَقَاءُ ، وَقِيلَ : الْمُلْكُ ، ثُمَّ كَثُرَ حَتَّى اسْتُعْمِلَ فِي مَا يُحَيَّا بِهِ مِنْ سَلاَمٍ وَنَحْوِهِ . فَهِيَ أَعَمُّ مِنَ السَّلاَمِ فَتَشْمَلُ السَّلاَمَ وَالتَّقْبِيلَ وَالْمُصَافَحَةَ وَالْمُعَانَقَةَ وَنَحْوَ ذَلِكَ عَلَى مَا سَيَأْتِي .

التَّقْبِيلُ : التَّقْبِيلُ فِي اللُّغَةِ مَصْدَرُ قَبَّلَ ، وَالاسْمُ مِنْهُ الْقُبْلَةُ ، وَالْجَمْعُ الْقُبَلُ وَالتَّقْبِيلُ صُورَةٌ مِنْ صُوَرِ التَّحِيَّةِ .

الْمُصَافَحَةُ : الْمُصَافَحَةُ كَمَا فِي الْمِصْبَاحِ : الإِفْضَاءُ بِالْيَدِ إِلَى الْيَدِ ، وَذَكَرَ ابْنُ عَابِدِينَ أَنَّ الْمُصَافَحَةَ إِلْصَاقُ صَفْحَةِ الْكَفِّ بِالْكَفِّ ، وَإِقْبَالُ الْوَجْهِ بِالْوَجْهِ . فَأَخْذُ الأَصَابِعِ لَيْسَ بِمُصَافَحَةٍ ، خِلاَفًا لِلرَّوَافِضِ . وَالسُّنَّةُ أَنْ تَكُونَ بِكِلْتَا يَدَيْهِ بِغَيْرِ حَائِلٍ ، مِنْ ثَوْبٍ أَوْ غَيْرِهِ ، وَعِنْدَ اللِّقَاءِ وَبَعْدَ السَّلاَمِ وَأَنْ يَأْخُذَ الإِبْهَامَ ، فَإِنَّ فِيهِ عِرْقًا يُنْبِتُ الْمَحَبَّةَ ، وَقَدْ تَحْرُمُ كَمُصَافَحَةِ الأَمْرَدِ . وَقَدْ تُكْرَهُ كَمُصَافَحَةِ ذِي عَاهَةٍ ، مِنْ بَرَصٍ وَجُذَامٍ ، وَتُسَنُّ فِي غَيْرِ ذَلِكَ مَعَ اتِّحَادِ الْجِنْسِ خُصُوصًا لِنَحْوِ قُدُومِ سَفَرٍ.

الْمُعَانَقَةُ : الْمُعَانَقَةُ فِي اللُّغَةِ : الضَّمُّ وَالالْتِزَامُ وَاعْتَنَقْتُ الأَمْرَ : أَخَذْتُهُ بِجِدٍّ . وَذَكَرَ صَاحِبُ الْفَوَاكِهِ الدَّوَانِي أَنَّ الْمُعَانَقَةَ هِيَ جَعْلُ الرَّجُلِ عُنُقَهُ عَلَى عُنُقِ صَاحِبِهِ .

وَقَدْ كَرِهَهَا مَالِكٌ كَرَاهَةَ تَنْزِيهٍ لأَنَّهَا مِنْ فِعْلِ الأَعَاجِمِ .

قَالَ الْقَرَافِيُّ فِي الذَّخِيرَةِ : كَرِهَ مَالِكٌ الْمُعَانَقَةَ ، لأَنَّهُ لَمْ يَرِدْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – أَنَّهُ فَعَلَهَا إِلاَّ مَعَ

جَعْفَر بْن أَبِي طَالِبٍ لَمَّا رَجَعَ منَ الْحَبَشَة ، وَلَمْ يَصْحَبْهَا الْعَمَل منَ الصَّحَابَة بَعْدَهُ
وَأَمَّا غَيْرُ الْمَالكيَّة منَ الْفُقَهَاء ، كَالْحَنَابلَة فَقَالُوا بجَوَازهَا ، فَفي الْآدَاب الشَّرْعيَّة لابْن مُفْلحٍ إبَاحَةُ الْمُعَانَقَة . وَمثْلُهَا تَقْبيل الْيَد وَالرَّأْس تَدَيُّنًا وَإِكْرَامًا وَاحْترَامًا مَعَ أَمْن الشَّهْوَة ؛ لحَديث أَبي ذَرٍّ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ عَانَقَهُ . قَال إسْحَاقُ بْنُ إبْرَاهيمَ سَأَلْتُ أَبَا عَبْد اللهِ عَن الرَّجُل يَلْقَى الرَّجُل ، يُعَانقُهُ ؟ قَال : نَعَمْ فَعَلَهُ أَبُو الدَّرْدَاء .

وَمُعَانَقَةُ الأَجْنَبيَّة وَالأَمْرَد حَرَامٌ ، كَمَا ذَكَرَ الشَّافعيَّةُ وَمُعَانَقَةُ الرَّجُل زَوْجَتَهُ مَكْرُوهَةٌ في الصَّوْم وَكَذَا مُعَانَقَةُ ذَوي الْعَاهَات منْ بَرَصٍ وَجُذَامٍ ؛ أَيْ : مَكْرُوهَةٌ . وَأَمَّا الْمُعَانَقَةُ فيمَا سوَى ذَلكَ ، كَمُعَانَقَة الرَّجُل للرَّجُل فَهيَ سُنَّةٌ حَسَنَةٌ خَاصَّةً عنْدَ الْقُدُوم منَ السَّفَر .

صيغَةُ السَّلاَم وَصيغَةُ الرَّدّ : صيغَةُ السَّلاَم وَصفَتُهُ الْكَاملَةُ أَنْ يَقُول الْمُسْلمُ : " السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ " بالتَّعْريف وَبالْجَمْع . سَوَاءٌ كَانَ الْمُسَلَّمُ عَلَيْه وَاحدًا أَوْ جَمَاعَةً ؛ لأَنَّ الْوَاحدَ مَعَهُ الْحَفَظَةُ كَالْجَمْع منَ الآدَميّينَ وَهَذه الصّيغَةُ هيَ الْمَرْويَّةُ عَن النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ وَعَن السَّلَف الصَّالح . وَيَجُوزُ أَنْ يَقُول : سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ ، بالتَّنْكير ، إلاَّ أَنَّ التَّعْريفَ أَفْضَل ؛ لأَنَّهُ تَحيَّةُ أَهْل الدُّنْيَا . فَأَمَّا " سَلاَمٌ " بالتَّنْكير فَتَحيَّةُ أَهْل الْجَنَّة . كَمَا في قَوْله تَعَالَى : { سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بمَا صَبَرْتُمْ فَنعْمَ عُقْبَى الدَّار } . وَالأَكْمَل أَنْ يَقُول : السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ ، بتَأْخير الْجَارّ وَالْمَجْرُور ، فَلَوْ قَال : عَلَيْكُمُ السَّلاَمُ أَوْ : عَلَيْكَ السَّلاَمُ ، كَانَ مُخَالفًا للأَكْمَل ؛ لمَا رُويَ عَنْ جَابر بْن سُلَيْمٍ قَال : لَقيتُ رَسُول اللهِ – ﷺ – فَقُلْتُ : عَلَيْكَ السَّلاَمُ يَا رَسُول اللهِ ، فَقَال : لاَ تَقُل عَلَيْكَ السَّلاَمُ ، فَإنَّ عَلَيْكَ السَّلاَمُ تَحيَّةُ الْمَيّت وَلَكنْ قُل : السَّلاَمُ عَلَيْكَ قَال الْقُرْطُبيُّ : لَمَّا جَرَتْ عَادَةُ الْعَرَب بتَقْديم اسْم الْمَدْعُوّ عَلَيْه في الشَّرّ كَقَوْلهمْ (عَلَيْه لَعْنَةُ اللهِ ، وَغَضَبُ اللهِ) نَهَاهُ عَنْ ذَلكَ ، لاَ أَنَّ ذَاكَ هُوَ اللَّفْظُ الْمَشْرُوعُ في حَقّ الْمَوْتَى ؛ لأَنَّهُ عَلَيْه السَّلاَمُ ثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ سَلَّمَ عَلَى الْمَوْتَى ، كَمَا سَلَّمَ عَلَى الأَحْيَاء فَقَال : السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمنينَ ، وَإنَّا إنْ شَاءَ اللهُ بكُمْ لاَحقُونَ .

وَهَذَا لَيْسَ عَلَى سَبيل التَّحْريم ، بَل هُوَ خلاَفُ الأَكْمَل أَوْ مَكْرُوهٌ كَمَا قَال الْغَزَاليُّ . وَعَلَى كُل حَالٍ فَيَجبُ رَدُّ السَّلاَم

ثُمَّ إنَّ أَكْثَرَ مَا يَنْتَهِي إِلَيْه السَّلاَمُ إِلَى الْبَرَكَة فَتَقُول : السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ ، وَهُوَ الَّذِي عَلَيْه الْعَمَل ، لَمَا رُوِيَ عَنْ عُرْوَةَ بْن الزُّبَيْر أَنَّ رَجُلاً سَلَّمَ عَلَيْه فَقَال : السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ ، فَقَال عُرْوَةُ : مَا تَرَكَ لَنَا فَضْلاً ، إنَّ السَّلاَمَ قَد انْتَهَى إِلَى : وَبَرَكَاتُهُ . وَذَلكَ كَمَا فِي رُوحُ الْمَعَانِي ؛ لاِنْتظَام تلْكَ التَّحيَّة لجَميع فُنُون الْمَطَالب الَّتِي هيَ السَّلاَمَةُ عَن الْمَضَارّ ، وَنَيْل الْمَنَافع وَدَوَامُهَا وَنَمَاؤُهَا .

وَقيل : يَزِيدُ الْمُحَيَّى إذَا جَمَعَ الْمُحَيّي الثَّلاَثَةَ لَهُ وَهيَ السَّلاَمُ وَالرَّحْمَةُ وَالْبَرَكَةُ ، لَمَا رُوِيَ عَنْ سَالِمٍ مَوْلَى عَبْد اللهِ بْن عُمَرَ رَضيَ اللهُ عَنْهُمْ جَميعًا قَال : كَانَ ابْنُ عُمَرَ إذَا سَلَّمَ عَلَيْه فَرَدَّ زَادَ ، فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ : السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ ، فَقَال : السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ مَرَّةً أُخْرَى فَقُلْتُ : السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ ، فَقَال : السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ وَطَيّبُ صَلَوَاته . وَلاَ يَتَعَيَّنُ مَا ذُكرَ للزّيَادَة لمَا رُوِيَ عَنْ مُعَاذٍ زيَادَةُ : وَمَغْفرَتُهُ.

صيغَةُ رَدّ السَّلاَم : صيغَةُ الرَّدّ أَنْ يَقُول الْمُسَلَّمُ عَلَيْه (وَعَلَيْكُمُ السَّلاَمُ) بتَقْديم الْخَبَر وَبالْوَاو ، وَيَصحُّ أَنْ يَقُول : سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ . بتَنْكير السَّلاَم وَتَقْديمه ، وَبدُون وَاوٍ ، لَكن الأَفْضَل بالْوَاو لصَيْرُورَة الْكَلاَم بهَا جُمْلَتَيْن ، فَيَكُونُ التَّقْديرُ : عَلَيَّ السَّلاَمُ وَعَلَيْكُمْ ، فَيَصيرُ الرَّادُّ مُسَلّمًا عَلَى نَفْسه مَرَّتَيْن : الأُولَى منَ الْمُبْتَدئ وَالثَّانيَةُ منْ نَفْس الرَّادّ ، بخلاَف مَا إذَا تَرَكَ الْوَاوَ ، فَإنَّ الْكَلاَمَ حينَئذٍ يَصيرُ جُمْلَةً وَاحدَةً تَخُصُّ الْمُسَلّمَ وَحْدَهُ .

وَالأَصْل في صيغَة الرَّدّ أَنْ تَنْتَهيَ إِلَى الْبَرَكَة فَتَقُول : وَعَلَيْكُمُ السَّلاَمُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ ، وَإِذَا قَال الْمُسَلّمُ : السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ ، فَإنَّ الزّيَادَةَ تَكُونُ وَاجبَةً ، فَلَو اقْتَصَرَ الْمُسَلّمُ عَلَى لَفْظ : السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ ، كَانَتْ الزّيَادَةُ مُسْتَحَبَّةً لقَوْله تَعَالَى : { وَإِذَا حُيّيتُمْ بتَحيَّةٍ فَحَيُّوا بأَحْسَنَ منْهَا أَوْ رُدُّوهَا } .

السَّلاَمُ أَوْ رَدُّهُ بالإشَارَة : يُكْرَهُ السَّلاَمُ أَوْ رَدُّهُ بالإشَارَة بالرَّدّ باليَد أَوْ بالرَّأْس بغَيْر نُطْقٍ بالسَّلاَم مَعَ الْقُدْرَة وَقُرْب الْمُسَلَّم عَلَيْه ؛ لأَنَّ ذَلكَ منْ عَمَل أَهْل الْكتَاب : الْيَهُود وَالنَّصَارَى لقَوْله – ﷺ – فيمَا رَوَاهُ عَمْرُو بْنُ شُعَيْبٍ عَنْ أَبيه عَنْ جَدّه لَيْسَ منَّا مَنْ تَشَبَّهَ بغَيْرنَا ، لاَ تَشَبَّهُوا بالْيَهُود وَلاَ

بالنَّصَارَى ، فَإِنَّ تَسْليمَ الْيَهُود الإِشَارَةُ بالأَصَابع ، وَتَسْليمَ النَّصَارَى الإِشَارَةُ بالأَكُفّ . فَإِنْ كَانَت الإِشَارَةُ مَقْرُونَةً بالنُّطْق ، بحَيْثُ وَقَعَ التَّسْليمُ أَو الرَّدُّ باللّسَان مَعَ الإِشَارَة ، أَوْ كَانَ الْمُسَلَّمُ عَلَيْه بَعيدًا عَن الْمُسَلّم ، بحَيْثُ لاَ يَسْمَعُ صَوْتَهُ فَيُشيرُ إِلَيْه بالسَّلاَم بيَده أَوْ رَأْسه ليُعْلمَهُ أَنَّهُ يُسَلّمُ فَلاَ كَرَاهَةَ ، وَتَكْفي الإِشَارَةُ في السَّلاَم عَلَى أَصَمَّ أَوْ أَخْرَسَ ، أَو الرَّدّ عَلَى سَلاَمه ، خلاَفًا لمَا ذَكَرَهُ النَّوَويُّ في الأَذْكَار عَن الْمُتَوَلّي حَيْثُ قَال : إِذَا سَلَّمَ عَلَى أَصَمَّ لاَ يَسْمَعُ ، فَيَنْبَغي أَنْ يَتَلَفَّظَ بلَفْظ السَّلاَم لقُدْرَته عَلَيْه ، وَيُشيرُ باليَد حَتَّى يَحْصُل الإِفْهَامُ وَيَسْتَحقَّ الْجَوَابَ ، فَلَوْ لَمْ يَجْمَعْ بَيْنَهُمَا لاَ يَسْتَحقُّ الْجَوَابَ قَال : وَكَذَا لَوْ سَلَّمَ عَلَيْه أَصَمُّ وَأَرَادَ الرَّدَّ فَيَتَلَفَّظُ باللّسَان وَيُشيرُ بالْجَوَاب ليَحْصُل به الإِفْهَامُ وَيَسْقُطَ عَنْهُ فَرْضُ الْجَوَاب . قَال : وَلَوْ سَلَّمَ عَلَى أَخْرَسَ فَأَشَارَ الأَخْرَسُ باليَد سَقَطَ عَنْهُ الْفَرْضُ ؛ لأَنَّ إِشَارَتَهُ قَائمَةٌ مَقَامَ الْعبَارَة . وَكَذَا لَوْ سَلَّمَ عَلَيْه أَخْرَسُ بالإِشَارَة يَسْتَحقُّ الْجَوَابَ مَعَ الْعبَارَة .

السَّلاَمُ بوَسَاطَة الرَّسُول أَو الْكتَاب : السَّلاَمُ بوَاسطَة الرَّسُول أَو الْكتَاب كَالسَّلاَم مُشَافَهَةً ، فَقَدْ ذَكَرَ النَّوَويُّ في كتَابه الأَذْكَار عَنْ أَبي سَعْدٍ الْمُتَوَلّي وَغَيْره فيمَا إِذَا نَادَى إِنْسَانٌ إِنْسَانًا منْ خَلْف ستْرٍ أَوْ حَائطٍ فَقَال : السَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا فُلاَنُ ، أَوْ كَتَبَ كتَابًا فيه : السَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا فُلاَنُ ، أَو : السَّلاَمُ عَلَى فُلاَنٍ ، أَوْ : أَرْسَل رَسُولاً وَقَال : سَلّمْ عَلَى فُلاَنٍ ، فَبَلَغَهُ الْكتَابُ أَو الرَّسُول وَجَبَ عَلَيْه أَنْ يَرُدَّ السَّلاَمَ . صَرَّحَ بذَلكَ الشَّافعيَّةُ وَالْحَنَابلَةُ ، قَال النَّوَويُّ : قَال أَصْحَابُنَا : وَهَذَا الرَّدُّ وَاجبٌ عَلَى الْفَوْر ، وَكَذَا لَوْ بَلَغَهُ سَلاَمٌ في وَرَقَةٍ منْ غَائبٍ وَجَبَ عَلَيْه أَنْ يَرُدَّ السَّلاَمَ باللَّفْظ عَلَى الْفَوْر إِذَا قَرَأَهُ .

وَقَدْ وَرَدَ في الصَّحيحَيْن عَنْ عَائشَةَ – رَضيَ اللهُ عَنْهَا – قَالَتْ : قَال لي رَسُول الله – ﷺ : هَذَا جبْريل يَقْرَأُ عَلَيْك السَّلاَمَ ، قَالَتْ : قُلْتُ : وَعَلَيْه السَّلاَمُ وَرَحْمَةُ الله . وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يَرُدَّ عَلَى الْمُبَلّغ أَيْضًا بأَنْ يَقُول : وَعَلَيْكَ وَعَلَيْه السَّلاَمُ.

السَّلاَمُ وَرَدُّهُ بغَيْر الْعَرَبيَّة : السَّلاَمُ وَرَدُّهُ بالْعَجَميَّة كَالسَّلاَم وَرَدّه بالْعَرَبيَّة ، لأَنَّ الْغَرَضَ منَ السَّلاَم التَّأْمينُ وَالدُّعَاءُ بالسَّلاَمَة وَالتَّحيَّةُ ، فَيَحْصُل ذَلكَ بغَيْر الْعَرَبيَّة ، كَمَا يَحْصُل بهَا . وَهَذَا في

السَّلاَم خَارجَ الصَّلاَة ، إذ السَّلاَمُ فِي الصَّلاَة لاَ يُجْزئُ بغَيْر الْعَرَبيَّة عنْدَ الشَّافعيَّة وَالْحَنَابلَة ؛ وَعنْدَ الْمَالكيَّة عَلَى قَوْلٍ . وَلاَ يَكْفيه الْخُرُوجُ منْهَا بالنِّيَّة . فَإنْ أَتَى بالسَّلاَم بالْعَجَميَّة فَإنَّ الصَّلاَةَ تَبْطُلُ عَلَى قَوْلٍ عنْدَ الْمَالكيَّة ، وَاسْتَظْهَرَ بَعْضُ أَشْيَاخهمُ الصّحَّةَ قيَاسًا عَلَى الدُّعَاء بالْعَجَميَّة للْقَادر عَلَى الْعَرَبيَّة . هَذَا وَجَميعُ أَذْكَار الصَّلاَة تَصحُّ بالْعَجَميَّة عنْدَ أَبي حَنيفَةَ مُطْلَقًا خلاَفًا للصَّاحبَيْن حُكْمُ الْبَدْء بالسَّلاَم وَحُكْمُ الرَّدّ : ذَهَبَ الْمَالكيَّةُ وَالشَّافعيَّةُ وَالْحَنَابلَةُ إلَى أَنَّ السَّلاَمَ سُنَّةٌ مُسْتَحَبَّةٌ وَلَيْسَ بوَاجبٍ ، وَهُوَ سُنَّةٌ عَلَى الْكفَايَة إنْ كَانَ الْمُسَلّمُونَ جَمَاعَةً بحَيْثُ يَكْفي سَلاَمُ وَاحدٍ منْهُمْ وَلَوْ سَلَّمُوا كُلُّهُمْ كَانَ أَفْضَل وَذَهَبَ الْحَنَفيَّةُ – وَهُوَ روَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ وَقَوْلٌ مُقَابلٌ للْمَشْهُور عنْدَ الْمَالكيَّة – إلَى أَنَّ الابْتدَاءَ بالسَّلاَم وَاجبٌ . لحَديث أَبي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُول اللهَّ ﷺ قَال : حَقُّ الْمُسْلم عَلَى الْمُسْلم ستٌّ ، قيل : مَا هُنَّ يَا رَسُول اللهَّ ؟ قَال : إذَا لَقيتَهُ فَسَلّمْ عَلَيْه ، وَإذَا دَعَاكَ فَأَجبْهُ ، وَإذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ ، وَإذَا عَطَسَ فَحَمدَ اللهَّ فَشَمّتْهُ ، وَإذَا مَرضَ فَعُدْهُ ، وَإذَا مَاتَ فَاتْبَعْهُ وَأَمَّا رَدُّ السَّلاَم فَإنْ كَانَ الْمُسَلَّمُ عَلَيْه وَاحدًا تَعَيَّنَ عَلَيْه الرَّدُّ ، وَإنْ كَانُوا جَمَاعَةً كَانَ رَدُّ السَّلاَم فَرْضَ كفَايَةٍ عَلَيْهمْ ، فَإنْ رَدَّ وَاحدٌ منْهُمْ سَقَطَ الْحَرَجُ عَن الْبَاقينَ ، وَإنْ تَرَكُوهُ كُلُّهُمْ أَثمُوا كُلُّهُمْ وَإنْ رَدُّوا كُلُّهُمْ فَهُوَ النّهَايَةُ في الْكَمَال وَالْفَضيلَة ، فَلَوْ رَدَّ غَيْرُهُمْ لَمْ يَسْقُط الرَّدُّ عَنْهُمْ ، بَل يَجبُ عَلَيْهمْ أَنْ يَرُدُّوا ، فَإن اقْتَصَرُوا عَلَى رَدّ ذَلكَ الأْجْنَبيّ أَثمُوا .

هَذَا وَالأْمْرُ بالسَّلاَم عَلَى هَذَا النَّحْو ثَابتٌ بالْكتَاب وَالسُّنَّة وَبفعْل الصَّحَابَة ، فَمنَ الْكتَاب قَوْله تَعَالَى : { فَسَلّمُوا عَلَى أَنْفُسكُمْ تَحيَّةً منْ عنْد اللهَّ مُبَارَكَةً طَيّبَةً } وقَوْله تَعَالَى : { وَإذَا حُيّيتُمْ بتَحيَّةٍ فَحَيُّوا بأَحْسَنَ منْهَا أَوْ رُدُّوهَا } وَمنَ السُّنَّة مَا رُويَ عَنْ عَبْد اللهَّ بْن عَمْرو بْن الْعَاص رَضيَ اللهَّ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلاً سَأَل النَّبيَّ ﷺ : أَيُّ الإْسْلاَم خَيْرٌ ؟ قَال : تُطْعمُ الطَّعَامَ وَتَقْرَأُ السَّلاَمَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَعَلَى مَنْ لَمْ تَعْرف .

وَمَا وَرَدَ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ عَن النَّبيّ – ﷺ – قَال : خَلَقَ اللهَّ آدَمَ عَلَى صُورَته ، طُولُهُ ستُّونَ ذرَاعًا فَلَمَّا خَلَقَهُ قَال : اذْهَبْ فَسَلّمْ عَلَى أُولَئكَ – نَفَرٍ منَ الْمَلاَئكَة جُلُوسٍ – فَاسْتَمعْ مَا يُحَيُّونَكَ ، فَإنَّهَا تَحيَّتُكَ وَتَحيَّةُ ذُرّيَّتكَ ، فَقَال : السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ ، فَقَالُوا : السَّلاَمُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهَّ ، فَزَادُوهُ : وَرَحْمَةُ

اللهَّ .

وَمَا رُوِيَ عَنْ أَبِي عِمَارَةَ الْبَرَاء بْن عَازِبٍ رَضِيَ اللهُّ عَنْهُمَا قَال : أَمَرَنَا رَسُول اللهَّ – ﷺ – بِسَبْعٍ : بِعِيَادَة الْمرِيض ، وَاتِّبَاع الْجنَائز ، وَتَشْميت الْعَاطس ، وَنَصْر الضَّعيف ، وَعَوْن الْمظْلُوم ، وَإِفْشَاء السَّلاَم وَإِبْرَار الْمُقْسم . وَمَا رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – قَال : يُجْزِئُ عَن الْجمَاعَة إِذَا مَرُّوا أَنْ يُسَلِّمَ أَحَدُهُمْ ، وَيُجْزِئُ عَن الْجُلُوس أَنْ يَرُدَّ أَحَدُهُمْ .

وَمِنْ فعْل الصَّحَابَة مَا رُوِيَ عَن الطُّفَيْل بْن أُبَيِّ بْن كَعْبٍ أَنَّهُ كَانَ يَأْتِي عَبْدَ اللهَّ بْنَ عُمَرَ ، فَيَغْدُو مَعَهُ إِلَى السُّوق قَال : فَإِذَا غَدَوْنَا إِلَى السُّوق لَمْ يَمُرَّ عَبْدُ اللهَّ عَلَى سقَاطٍ ، وَلاَ صَاحب بَيْعَةٍ ، وَلاَ مسْكينٍ ، وَلاَ أَحَدٍ ، إِلاَّ سَلَّمَ عَلَيْه ، قَال الطُّفَيْل : فَجِئْتُ عَبْدَ اللهَّ بْنَ عُمَرَ يَوْمًا فَاسْتَتْبَعَنِي إِلَى السُّوق ، فَقُلْتُ لَهُ : مَا تَصْنَعُ بالسُّوق وَأَنْتَ لاَ تَقفُ عَلَى الْبَيْع ، وَلاَ تَسْأَل عَن السّلَع ، وَلاَ تَسُومُ بهَا ، وَلاَ تَجْلسُ في مَجَالس السُّوق ؟ وَأَقُول : اجْلسْ بنَا هَاهُنَا نَتَحَدَّثُ ، فَقَال : يَا أَبْطَنُ – وَكَانَ الطُّفَيْل ذَا بَطْنٍ – إِنَّمَا نَغْدُو منْ أَجل السَّلاَم ، نُسَلِّمُ عَلَى مَنْ لَقينَاهُ .

وَمَا تَقَدَّمَ منْ حُكْم السَّلاَم وَالرَّدّ خَاصٌّ بالْمُسَلّم الَّذي لَمْ يَنْشَغل بالأَذَان أَو الصَّلاَة أَوْ قرَاءَة الْقُرْآن ، أَوْ بتَلْبية حَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ ، أَوْ بالأَكْل أَوْ بالشُّرْب ، أَوْ قَضَاء حَاجَةٍ وَغَيْرهَا ، إذ السَّلاَمُ عَلَى الْمُنْشَغل بمَا ذُكرَ لَيْسَ كَالسَّلاَم عَلَى غَيْره ، وَبَيَانُ ذَلكَ في مَا يَلي :

أ – السَّلاَمُ عَلَى مَنْ يُؤَذّنُ أَوْ يُقيمُ : ذَهَبَ الْحنَفيَّةُ وَالْمالكيَّةُ وَالشَّافعيَّةُ إِلَى أَنَّ حُكْمَ رَدّ السَّلاَم منَ الْمؤَذّن الْكَرَاهَةُ ؛ لأَنَّ الْفَصْل بَيْنَ جُمَل الأَذَان عنْدَهُمْ مَكْرُوهَةٌ ، وَلَوْ كَانَ ذَلكَ الْفَصْل بإشَارَةٍ عنْدَ الْمالكيَّة ، خلاَفًا للشَّافعيَّة ، فَلَهُ الرَّدُّ بالإشَارَة ، وَيُكْرَهُ السَّلاَمُ أَيْضًا عنْدَهُمْ عَلَى الْمُلَبّي بحَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ لنَفْس الْعلَّة . وَيُكْرَهُ عنْدَ الشَّافعيَّة السَّلاَمُ عَلَى الْمُؤَذّن وَالْمُقيم لانْشغَالهمْ بالأَذَان وَالإقَامَة . وَذَهَبَ الْحنَابلَةُ إِلَى أَنَّهُ لاَ يُسَنُّ السَّلاَمُ عَلَى مَنْ يُؤَذّنُ أَوْ يُقيمُ ، وَلاَ يَجبُ عَلَيْه الرَّدُّ ، بَل يَجُوزُ بالْكَلاَم وَلاَ يُبْطل الأَذَانَ أَو الإقَامَةَ.

ب – السَّلاَمُ عَلَى الْمُصَلّي وَرَدُّهُ السَّلاَمَ :السَّلاَمُ عَلَى الْمُصَلّي سُنَّةٌ عنْدَ الْمالكيَّة جَائزٌ عنْدَ الْحنَابلَة ، فَقَدْ سُئل أَحْمَدُ عَن الرَّجُل يَدْخُل عَلَى الْقَوْم وَهُمْ يُصَلُّونَ أَيُسَلّمُ عَلَيْهم ؟ قَال : نَعَمْ. وَأَمَّا رَدُّ

السَّلاَم منَ الْمُصَلّي فَقَدْ ذَكَرَ الْحَنَفيَّةُ – كَمَا في الْهِدَايَة – أَنْ لاَ يَرُدَّ السَّلاَمَ بلسَانه ؛ لأَنَّهُ كَلاَمٌ ، وَلاَ بيَده ؛ لأَنَّهُ سَلاَمٌ مَعْنًى ، حَتَّى لَوْ صَافَحَ بنيَّة التَّسْليم تَفْسُدُ صَلاَتُهُ .

وَذَكَرَ صَاحبُ فَتْح الْقَدير أَنَّ رَدَّ الْمُصَلّي السَّلاَمَ بالإْشَارَة مَكْرُوهٌ وَبالْمُصَافَحَة مُفْسدٌ . ثُمَّ إنَّ الْمُصَلّيَ لاَ يَلْزَمُهُ رَدُّ السَّلاَم لَفْظًا بَعْدَ الْفَرَاغ منَ الصَّلاَة ، بَل يَرُدُّ في نَفْسه في روَايَةٍ عَنْ أَبي حَنيفَةَ وَفي روَايَةٍ أُخْرَى عَنْهُ أَنَّهُ يَرُدُّ بَعْدَ الْفَرَاغ ، إلاَّ أَنَّ أَبَا جَعْفَرٍ قَال : تَأْويلُهُ إذَا لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ في الصَّلاَة وَعنْدَ مُحَمَّدٍ يَرُدُّ بَعْدَ الْفَرَاغ ، وَعَنْ أَبي يُوسُفَ لاَ يَرُدُّ ، لاَ قَبْل الْفَرَاغ وَلاَ بَعْدَهُ في نَفْسه .

وَذَكَرَ الْمَالكيَّةُ أَنَّ الْمُصَلّيَ لاَ يَرُدُّ السَّلاَمَ باللَّفْظ ، فَإنْ رَدَّ عَمْدًا أَوْ جَهْلاً بَطَل . وَرَدُّهُ باللَّفْظ سَهْوًا يَقْتَضي سُجُودَ السَّهْو ، بَل يَجبُ عَلَيْه أَنْ يَرُدَّ السَّلاَمَ بالإْشَارَة ، خلاَفًا للشَّافعيَّة الْقَائلينَ بعَدَم وُجُوب الرَّدّ عَلَيْه . وَذَهَبَ الْحَنَابلَةُ إلَى أَنَّ رَدَّ الْمُصَلّي السَّلاَمَ بالْكَلاَم عَمْدًا يُبْطل الصَّلاَةَ . وَرَدُّ الْمُصَلّي السَّلاَمَ بالإْشَارَة مَشْرُوعٌ عنْدَ الْحَنَابلَة . وَأَمَّا ابْتدَاءُ الْمُصَلّي السَّلاَمَ عَلَى غَيْره وَهُوَ في الصَّلاَة بالإْشَارَة بيَدٍ أَوْ رَأْسٍ فَيَجُوزُ عنْدَ الْمَالكيَّة فَقَطْ ، وَلاَ يَلْزَمُهُ السُّجُودُ لذَلكَ.

وفي سنن أبى داود : قَالَ سَمعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ يَقُولُ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- إلَى قُبَاءَ يُصَلّي فيه – قَالَ – فَجَاءَتْهُ الأَنْصَارُ فَسَلَّمُوا عَلَيْه وَهُوَ يُصَلّي. قَالَ فَقُلْتُ لبلاَلٍ كَيْفَ رَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- يَرُدُّ عَلَيْهِمْ حينَ كَانُوا يُسَلّمُونَ عَلَيْه وَهُوَ يُصَلّي قَالَ يَقُولُ هَكَذَا وَبَسَطَ كَفَّهُ. وَبَسَطَ جَعْفَرُ بْنُ عَوْنٍ كَفَّهُ وَجَعَلَ بَطْنَهُ أَسْفَلَ وَجَعَلَ ظَهْرَهُ إلَى فَوْقٍ.

عَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْد اللَّهِ ﷺ قَالَ كُنَّا نُسَلّمُ عَلَى النَّبيّ ﷺ وَهُوَ يُصَلّي فَيَرُدُّ عَلَيْنَا فَلَمَّا رَجَعْنَا منْ عنْد النَّجَاشيّ سَلَّمْنَا عَلَيْه فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْنَا فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ إنَّا كُنَّا نُسَلّمُ عَلَيْكَ فَتَرُدُّ عَلَيْنَا قَالَ إنَّ في الصَّلَاة شُغْلًا فَقُلْتُ لإبْرَاهيمَ كَيْفَ تَصْنَعُ أَنْتَ قَالَ أَرُدُّ في نَفْسي(خ)

السَّلاَمُ عَلَى الْمُنْشَغل بالْقرَاءَة وَالذّكْر وَالتَّلْبيَة وَالأْكْل ، وَعَلَى قَاضي الْحَاجَة وَعَلَى مَنْ في الْحَمَّام وَنَحْو ذَلكَ .

الأْوْلَى تَرْكُ السَّلاَم عَلَى الْمُنْشَغل بقرَاءَة الْقُرْآن ، فَإنْ سَلَّمَ كَفَاهُ الرَّدُّ بالإْشَارَة ، وَإنْ رَدَّ باللَّفْظ اسْتَأْنَفَ الاسْتعَاذَةَ ثُمَّ يَقْرَأُ ، وَاخْتَارَ النَّوَويُّ أَنَّهُ يُسَلّمُ عَلَيْه ، وَيَجبُ عَلَيْه الرَّدُّ لَفْظًا .

وَأَمَّا السَّلاَمُ عَلَى الْمُنْشَغل بالذّكْر منْ دُعَاءٍ وَتَدَبُّرٍ فَهُوَ كَالسَّلاَم عَلَى الْمُنْشَغل بالْقرَاءَة ،وَالأَظْهَرُ كَمَا ذَكَرَ النَّوَويُّ أَنَّهُ إنْ كَانَ مُسْتَغْرقًا بالدُّعَاء مُجْمعَ الْقَلْب عَلَيْه فَالسَّلاَمُ عَلَيْه مَكْرُوهٌ ، للْمَشَقَّة الَّتي تَلْحَقُهُ منَ الرَّدّ ، وَالَّتي تَقْطَعُهُ عَن الاسْتغْرَاق بالدُّعَاء ، وَهيَ أَكْثَرُ منَ الْمَشَقَّة الَّتي تَلْحَقُ الآكل إذَا سَلَّمَ عَلَيْه وَرَدَّ في حَال أَكْله ، وَأَمَّا الْمُلَبّي في الإحْرَام فَيُكْرَهُ السَّلاَمُ عَلَيْه ، وَلَوْ سَلَّمَ رَدَّ عَلَيْه باللَّفْظ .

وَأَمَّا السَّلاَمُ في حَال خُطْبَة الْجُمُعَة فَيُكْرَهُ الابْتدَاءُ به لأَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ بالإنْصَات للْخُطْبَة ، فَإنْ سَلَّمَ لَمْ يَرُدُّوا عَلَيْه لتَقْصيره ، وَقيل : إنْ كَانَ الإنْصَاتُ وَاجبًا لَمْ يَرُدَّ عَلَيْه ، وَإنْ كَانَ سُنَّةً رَدَّ عَلَيْه وَلاَ يَرُدُّ عَلَيْه أَكْثَرُ منْ وَاحدٍ عَلَى كُل وَجْهٍ . وَلاَ يُسَلّمُ عَلَى مَنْ كَانَ مُنْشَغلاً بالأَكْل وَاللُّقْمَةُ في فَمه ، فَإنْ سَلَّمَ لَمْ يَسْتَحقَّ الْجَوَابَ ، أَمَّا إذَا سَلَّمَ عَلَيْه بَعْدَ الْبَلْع أَوْ قَبْل وَضْع اللُّقْمَة في فَمه فَلاَ يَتَوَجَّهُ الْمَنْعُ وَيَجبُ الْجَوَابُ ، وَيُسَلّمُ في حَال الْبَيْع وَسَائر الْمُعَامَلاَت وَيَجبُ الْجَوَابُ .

وَأَمَّا السَّلاَمُ عَلَى قَاضي الْحَاجَة وَنَحْوه كَالْمُجَامع وَعَلَى مَنْ في الْحَمَّام وَالنَّائم وَالْغَائب خَلْفَ جدَارٍ فَحُكْمُهُ الْكَرَاهَةُ . وَمَنْ سَلَّمَ عَلَيْهمْ لَمْ يَسْتَحقَّ الْجَوَابَ لمَا رُويَ عَن ابْن عُمَرَ رَضيَ اللهُ عَنْهُمَا . أَنَّ رَجُلاً مَرَّ وَرَسُول اللهِ ﷺ - يَبُول ، فَسَلَّمَ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْه.

وَمَا رُويَ عَنْ جَابرٍ - ﷺ - أَنَّ رَجُلاً مَرَّ وَرَسُول اللهِ ﷺ - يَبُول ، فَسَلَّمَ عَلَيْه فَقَال النَّبيُّ - ﷺ - إذَا رَأَيْتَني عَلَى مثْل هَذه الْحَال فَلاَ تُسَلّمْ عَلَيَّ . فَإنَّكَ إنْ فَعَلْتَ ذَلكَ لَمْ أَرُدَّ عَلَيْكَ .

وَأَمَّا حُكْمُ الرَّدّ منْهُمْ فَهُوَ الْكَرَاهَةُ منْ قَاضي الْحَاجَة وَالْمُجَامع ، وَأَمَّا مَنْ في الْحَمَّام فَيُسْتَحَبُّ لَهُ الرَّدُّ ، كَمَا ذَكَرَ النَّوَويُّ في الرَّوْضَة.

أَحْكَامٌ أُخْرَى للسَّلاَم : السَّلاَمُ عَلَى الصَّبيّ : السَّلاَمُ عَلَى الصَّبيّ أَفْضَل منْ تَرْكه عنْدَ الْحَنَفيَّة ، وَذَهَبَ الْمَالكيَّةُ إلَى أَنَّهُ مَشْرُوعٌ ، وَذَكَرَ النَّوَويُّ في الرَّوْضَة أَنَّهُ سُنَّةٌ ، وَذَكَرَ ابْنُ مُفْلحٍ في الآدَاب الشَّرْعيَّة أَنَّهُ جَائزٌ لتَأْديبهمْ ، وَهُوَ مَعْنَى كَلاَم ابْن عَقيلٍ ، وَذَكَرَ الْقَاضي في الْمُجَرَّد وَصَاحبُ عُيُون الْمَسَائل وَالشَّيْخُ عَبْدُ الْقَادر أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ ، لمَا وَرَدَ عَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّهُ مَرَّ عَلَى صبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهمْ وَقَال : كَانَ النَّبيُّ - ﷺ - يَفْعَلُهُ.

وَأَمَّا جَوَابُ السَّلاَمِ منَ الصَّبيّ فَغَيْرُ وَاجبٍ ؛ لعَدَم تكْليفه ، كَمَا ذَكَرَ الْمَالكيَّةُ وَالشَّافعيَّةُ ، وَيَسْقُطُ رَدُّ السَّلاَم برَدّه عَن الْبَاقينَ إنْ كَانَ عَاقلاً عنْدَ الْحَنَفيَّة ؛ لأَنَّهُ منْ أَهْل الْفَرْض في الْجُمْلَة ، بدَليل حل ذَبيحَته مَعَ أَنَّ التَّسْميَةَ فيهَا فَرْضٌ عنْدَهُمْ .

وَقَدْ ذَهَبَ إلَى ذَلكَ أَيْضًا الأَجْهُوريُّ منَ الْمَالكيَّة وَالشَّاشيُّ منَ الشَّافعيَّة ، قيَاسًا عَلَى أَذَانه للرّجَال وَالأَصَحُّ عنْدَ الشَّافعيَّة عَدَمُ سُقُوط فَرْض رَدّ السَّلاَم عَن الْجَمَاعَة برَدّ الصَّبيّ ، وَبه قَطَعَ الْقَاضي وَالْمُتَوَلّي منَ الشَّافعيَّة ، وَقَدْ تَوَقَّفَ في الاكْتفَاء برَدّ الصَّبيّ عَن الْجَمَاعَة صَاحبُ الْفَوَاكه الدَّوَاني منَ الْمَالكيَّة ، حَيْثُ قَال : وَلَنَا فيه وَقْفَةٌ ؛ لأنَّ الرَّدَّ فَرْضٌ عَلَى الْبَالغينَ ، وَرَدُّ الصَّبيّ غَيْرُ فَرْضٍ عَلَيْه فَكَيْفَ يَكْفي عَن الْفَرْض الْوَاجب عَلَى الْمُكَلَّفينَ ؟ فَلَعَل الأَظْهَرَ عَدَمُ الاكْتفَاء برَدّه عَن الْبَالغينَ .

ثُمَّ ذَكَرَ الشَّافعيَّةُ وَجْهَيْن في رَدّ السَّلاَم منَ الْبَالغ عَلَى سَلاَم الصَّبيّ ، بنَاءً عَلَى صحَّة إسْلاَمه – أَيْ الصَّبيّ – وَصَحَّحَ النَّوَويُّ وُجُوبَ الرَّدّ.

السَّلاَمُ عَلَى النّسَاء : سَلاَمُ الْمَرْأَة عَلَى الْمَرْأَة يُسَنُّ كَسَلاَم الرَّجُل عَلَى الرَّجُل ، وَرَدُّ السَّلاَم منَ الْمَرْأَة عَلَى مثْلهَا كَالرَّدّ منَ الرَّجُل عَلَى سَلاَم الرَّجُل .

وَأَمَّا سَلاَمُ الرَّجُل عَلَى الْمَرْأَة ؛ فَإنْ كَانَتْ تلْكَ الْمَرْأَةُ زَوْجَةً أَوْ أَمَةً أَوْ منَ الْمَحَارم فَسَلاَمُهُ عَلَيْهَا سُنَّةٌ ، وَرَدُّ السَّلاَم منْهَا عَلَيْه وَاجبٌ ، بَل يُسَنُّ أَنْ يُسَلّمَ الرَّجُل عَلَى أَهْل بَيْته وَمَحَارمه ، وَإنْ كَانَتْ تلْكَ الْمَرْأَةُ أَجْنَبيَّةً فَإنْ كَانَتْ عَجُوزًا أَو امْرَأَةً لاَ تُشْتَهَى فَالسَّلاَمُ عَلَيْهَا سُنَّةٌ ، وَرَدُّ السَّلاَم منْهَا عَلَى مَنْ سَلَّمَ عَلَيْهَا لَفْظًا وَاجبٌ . وَأَمَّا إنْ كَانَتْ تلْكَ الْمَرْأَةُ شَابَّةً يُخْشَى الافْتتَانُ بهَا ، أَوْ يُخْشَى افْتتَانُهَا هيَ أَيْضًا بمَنْ سَلَّمَ عَلَيْهَا فَالسَّلاَمُ عَلَيْهَا وَجَوَابُ السَّلاَم منْهَا حُكْمُهُ الْكَرَاهَةُ عنْدَ الْمَالكيَّة وَالشَّافعيَّة وَالْحَنَابلَة ، وَذَكَرَ الْحَنَفيَّةُ أَنَّ الرَّجُل يَرُدُّ عَلَى سَلاَم الْمَرْأَة في نَفْسه إنْ سَلَّمَتْ هيَ عَلَيْه ، وَتَرُدُّ هيَ أَيْضًا في نَفْسهَا إنْ سَلَّمَ هُوَ عَلَيْهَا ، وَصَرَّحَ الشَّافعيَّةُ بحُرْمَة رَدّهَا عَلَيْه .

وَأَمَّا سَلاَمُ الرَّجُل عَلَى جَمَاعَة النّسَاء فَجَائزٌ ، وَكَذَا سَلاَمُ الرّجَال عَلَى الْمَرْأَة الْوَاحدَة عنْدَ أَمْن الْفتْنَة . وَممَّا يَدُل عَلَى جَوَاز سَلاَم الرَّجُل عَلَى جَمَاعَة النّسَاء مَا رُويَ عَنْ أَسْمَاءَ بنْت يَزيدَ رَضيَ

اللهُ عَنْهَا قَالَتْ : مَرَّ عَلَيْنَا رَسُول اللهِ – ﷺ – في نسْوَةٍ فَسَلَّمَ عَلَيْنَا .

وَممَّا يَدُل عَلَى جَوَاز السَّلاَم عَلَى المَرْأَة الْعَجُوز مَا أَخْرَجَهُ الْبُخَاريُّ عَنْ سَهْل بْن سَعْدٍ ﷺ قَال : كَانَتْ لَنَا عَجُوزٌ تُرْسل إلَيَّ بضَاعَةَ نَخْلٍ بالمَدينَة فَتَأْخُذُ منْ أُصُول السِّلْق فَتَطْرَحُهُ في قدْرٍ ، وَتُكَرْكرُ حَبَّاتٍ منْ شَعيرٍ ، فَإذَا صَلَّيْنَا الجُمُعَةَ انْصَرَفْنَا وَنُسَلِّمُ عَلَيْهَا فَتُقَدِّمُهُ إلَيْنَا ، وَمَعْنَى تُكَرْكرُ ؛ أَيْ : تَطْحَنُ .

السَّلاَمُ عَلَى الْفُسَّاق وَأَرْبَاب المَعَاصي : ذَكَرَ ابْنُ عَابدينَ أَنَّ السَّلاَمَ عَلَى الْفَاسق المُجَاهر بفسْقه مَكْرُوهٌ وَإلاَّ فَلاَ ، وَمثْل الْفَاسق في هَذَا لاَعبُ الْقمَار وَشَاربُ الخَمْر وَمُطَيِّرُ الحَمَام وَالمُغَنِّي وَالمُغْتَابُ حَال تَلَبُّسهمْ بذَلكَ ، نُقل عَنْ فُصُول الْعَلاَّميّ أَنَّهُ لاَ يُسَلِّمُ ، وَيُسَلِّمُ عَلَى قَوْمٍ في مَعْصيَةٍ وَعَلَى مَنْ يَلْعَبُ بالشِّطْرَنْج نَاويًا أَنْ يُشْغلَهُمْ عَمَّا هُمْ فيه عنْدَ أَبي حَنيفَةَ ، وَكُرهَ عنْدَهُمَا تَحْقيرًا لَهُمَا وَذَكَرَ المَالكيَّةُ أَنَّ ابْتدَاءَ السَّلاَم عَلَى أَهْل الأَهْوَاء مَكْرُوهٌ ، كَابْتدَائه عَلَى الْيَهُود وَالنَّصَارَى.

وَذَكَرَ النَّوَويُّ في الرَّوْضَة وَجْهَيْن في اسْتحْبَاب السَّلاَم عَلَى الْفُسَّاق وَفي وُجُوب الرَّدّ عَلَى المَجْنُون وَالسَّكْرَان إذَا سَلَّمَا . وَذَكَرَ في الأَذْكَار أَنَّ المُبْتَدعَ وَمَن اقْتَرَفَ ذَنْبًا عَظيمًا وَلَمْ يَتُبْ منْهُ يَنْبَغي أَنْ لاَ يُسَلِّمَ عَلَيْهمْ وَلاَ يُرَدَّ عَلَيْهمُ السَّلاَمُ .

مُحْتَجًّا بمَا رَوَاهُ الْبُخَاريُّ وَمُسْلمٌ في صَحيحَيْهمَا منْ قصَّة كَعْب بْن مَالكٍ ﷺ حينَ تَخَلَّفَ عَنْ غَزْوَة تَبُوكَ هُوَ وَرَفيقَان لَهُ فَقَال : وَنَهَى رَسُول اللهِ – ﷺ – عَنْ كَلاَمنَا . قَال : وَكُنْتُ آتي رَسُول اللهِ – ﷺ – فَأُسَلّمُ عَلَيْه فَأَقُول : هَل حَرَّكَ شَفَتَيْه بردّ السَّلاَم أَمْ لاَ ؟ وَبمَا رَوَاهُ الْبُخَاريُّ أَيْضًا في الأَدَب المُفْرَد عَنْ عَبْد اللهِ بْن عَمْرٍو قَال : (لاَ تُسَلّمُوا عَلَى شُرَّاب الخَمْر).

قَال النَّوَويُّ : فَإن اضْطُرَّ إلَى السَّلاَم عَلَى الظَّلَمَة ، بأَنْ دَخَل عَلَيْهمْ وَخَافَ تَرَتُّبَ مَفْسَدَةٍ في دينه أَوْ دُنْيَاهُ أَوْ غَيْرهمَا إنْ لَمْ يُسَلّمْ ، سَلَّمَ عَلَيْهمْ ، وَذَكَرَ عَنْ أَبي بَكْر بْن الْعَرَبيّ أَنَّهُ يُسَلّمُ وَيَنْوي أَنَّ السَّلاَمَ اسْمٌ منْ أَسْمَاء اللهِ تَعَالَى ، فَيَكُونُ المَعْنَى اللهُ عَلَيْكُمْ رَقيبٌ .

وَذَكَرَ ابْنُ مُفْلحٍ في الآدَاب الشَّرْعيَّة أَنَّهُ يُكْرَهُ لكُل مُسْلمٍ مُكَلَّفٍ أَنْ يُسَلّمَ عَلَى مَنْ يَلْعَبُ النَّرْدَ أَو الشّطْرَنْج ، وَكَذَا مُجَالَسَتُهُ لإظْهَاره المَعْصيَةَ ، وَقَال أَحْمَدُ فيمَنْ يَلْعَبُ بالشّطْرَنْج : مَا هُوَ أَهْلٌ أَنْ

يُسَلَّمَ عَلَيْه ، كَمَا لاَ يُسَلَّمُ عَلَى الْمُتَلَبِّسينَ بالْمَعَاصي ، وَيَرُدُّ عَلَيْهِمْ إنْ سَلَّمُوا إلاَّ أَنْ يَغْلبَ عَلَى ظَنّه انْزجَارُهُمْ بتَرْك الرَّدّ .

قَال أَبُو دَاوُدَ : قُلْتُ لأَحْمَدَ : أَمُرُّ بالْقَوْم يَتَقَاذَفُونَ ، أُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ ؟ قَال : هَؤُلاَء قَوْمٌ سُفَهَاءُ ، وَالسَّلاَمُ اسْمٌ منْ أَسْمَاء اللهِّ تَعَالَى ، قُلْتُ لأَحْمَدَ : أُسَلِّمُ عَلَى الْمُخَنَّث ؟ قَال : لاَ أَدْري ، السَّلاَمُ اسْمٌ منْ أَسْمَاء اللهِّ عَجَّلَّ

وَأَمَّا رَدُّ السَّلاَم عَلَى الْفَاسق أَو الْمُبْتَدع فَلاَ يَجبُ زَجْرًا لَهُمَا كَمَا في رُوح الْمَعَاني .

السَّلاَمُ عَلَى أَهْل الذّمَّة وَغَيْرهمْ منَ الْكُفَّار : ذَهَبَ الْحَنَفيَّةُ إلَى أَنَّ السَّلاَمَ عَلَى أَهْل الذّمَّة مَكْرُوهٌ لمَا فيه منْ تَعْظيمهمْ ، وَلاَ بَأْسَ أَنْ يُسَلّمَ عَلَى الذّمّيّ إنْ كَانَتْ لَهُ عنْدَهُ حَاجَةٌ ؛ لأَنَّ السَّلاَمَ حينَئذٍ لأَجْل الْحَاجَة لاَ لتَعْظيمه ، وَيَجُوزُ أَنْ يَقُول : السَّلاَمُ عَلَى مَن اتَّبَعَ الْهُدَى . وَذَهَبَ الْمَالكيَّةُ أَيْضًا إلَى أَنَّ ابْتدَاءَ الْيَهُود وَالنَّصَارَى وَسَائر فرَق الضَّلاَل بالسَّلاَم مَكْرُوهٌ ؛ لأَنَّ السَّلاَمَ تَحيَّةٌ وَالْكَافرَ لَيْسَ منْ أَهْلهَا.

وَيَحْرُمُ عنْدَ الشَّافعيَّة بُدَاءَةُ الذّمّيّ بالسَّلاَم ، وَلَهُ أَنْ يُحَيّيَهُ بغَيْر السَّلاَم بأَنْ يَقُول : هَدَاكَ اللهُّ ، أَوْ : أَنْعَمَ اللهُّ صَبَاحَكَ ، إنْ كَانَتْ لَهُ عنْدَهُ حَاجَةٌ ، وَإلاَّ فَلاَ يَبْتَدئُهُ بشَيْءٍ منَ الإْكْرَام أَصْلاً ؛ لأَنَّ ذَلكَ بَسْطٌ لَهُ وَإينَاسٌ وَإظْهَارُ وُدٍّ . وَقَدْ قَال اللهُّ تَعَالَى : { لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُومِنُونَ باللهِّ وَالْيَوْم الآْخر يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَّ وَرَسُولَهُ } .

وَقَال النَّوَويُّ في الأْذْكَار : اخْتَلَفَ أَصْحَابُنَا في أَهْل الذّمَّة ، فَقَطَعَ الأْكْثَرُونَ بأَنَّهُ لاَ يَجُوزُ ابْتدَاؤُهُمْ بالسَّلاَم ، وَقَال آخَرُونَ : لَيْسَ هُوَ بحَرَام بَل هُوَ مَكْرُوهٌ . حَكَى الْمَاوَرْديُّ وَجْهًا لبَعْض أَصْحَابنَا ؛ أَنَّهُ يَجُوزُ ابْتدَاؤُهُ بالسَّلاَم ، وَلَكنْ يَقْتَصرُ الْمُسَلّمُ عَلَى قَوْله : السَّلاَمُ عَلَيْكَ ، وَلاَ يَذْكُرُهُ بلَفْظ الْجَمْع ، إلاَّ أَنَّ النَّوَويَّ وَصَفَ هَذَا الْوَجْهَ بأَنَّهُ شَاذٌّ .

وَبُدَاءَةُ أَهْل الذّمَّة بالسَّلاَم لاَ تَجُوزُ أَيْضًا عنْدَ الْحَنَابلَة ، كَمَا لاَ يَجُوزُ أَنْ نُحَيّيَهُمْ بتَحيَّةٍ أُخْرَى غَيْر السَّلاَم . قَال أَبُو دَاوُدَ : قُلْتُ لأَبي عَبْد اللهِّ : تَكْرَهُ أَنْ يَقُول الرَّجُل للذّمّيّ كَيْفَ أَصْبَحْتَ ؟ أَوْ : كَيْفَ حَالُكَ ؟ أَوْ : كَيْفَ أَنْتَ ؟ أَوْ نَحْوَ هَذَا ؟ قَال : نَعَمْ ، هَذَا عنْدي أَكْثَرُ منَ السَّلاَم .

وَذَكَرَ الْحَنَفيَّةُ أَنَّهُ لَوْ قَال للذِّمّيّ : أَطَال اللَّهُ بَقَاءَكَ ، جَازَ ، إنْ نَوَى أَنَّهُ يُطيلُهُ ليُسْلمَ أَوْ ليُؤَدّيَ الْجِزْيَةَ لأَنَّهُ دُعَاءٌ بالإْسْلاَم ، وَإلاَّ فَلاَ يَجُوزُ . وَدَليل كَرَاهَة الْبُدَاءَة بالسَّلاَم قَوْل رَسُول اللَّهِ – ﷺ – لاَ تَبْدَءُوا الْيَهُودَ وَلاَ النَّصَارَى بالسَّلاَم ، فَإذَا لَقيتُمْ أَحَدَهُمْ في طَريقٍ فَاضْطَرُّوهُ إلَى أَضْيَقه .

وَالاسْتقَالَةُ أَنْ يَقُول لَهُ : رُدَّ سَلاَمي الَّذي سَلَّمْتُهُ عَلَيْكَ ؛ لأَنّي لَوْ عَلمْتُ أَنَّكَ كَافرٌ مَا سَلَّمْتُ عَلَيْكَ . وَيُسْتَحَبُّ لَهُ عنْدَ الشَّافعيَّة وَالْحَنَابلَة إنْ سَلَّمَ عَلَى مَنْ يَظُنُّهُ مُسْلمًا فَبَانَ ذمّيًّا أَنْ يَسْتَقيلَهُ بأَنْ يَقُول لَهُ : رُدَّ سَلاَمي الَّذي سَلَّمْتُهُ عَلَيْكَ ؛ لَمَا رُويَ عَن ابْن عُمَرَ (أَنَّهُ مَرَّ عَلَى رَجُلٍ فَسَلَّمَ عَلَيْه فَقيل : إنَّهُ كَافرٌ ، فَقَال : رُدَّ عَلَيَّ مَا سَلَّمْتُ عَلَيْكَ ، فَرَدَّ عَلَيْه ، فَقَال أَكْثَرَ اللَّهُ مَالَكَ وَوَلَدَكَ ثُمَّ الْتَفَتَ إلَى أَصْحَابه فَقَال : أَكْثَرُ للْجزْيَة) . وَقَال الْمَالكيَّةُ : لاَ يَسْتَقيلُهُ .

وَإذَا كَتَبَ إلَى الذّمّيّ كتَابًا اقْتَصَرَ عَلَى قَوْله فيه : السَّلاَمُ عَلَى مَن اتَّبَعَ الْهُدَى ، اقْتدَاءً برَسُول اللَّهِ – ﷺ – في اقْتصَاره عَلَى ذَلكَ حينَ كَتَبَ إلَى هرَقْل مَلك الرُّوم .

وَإذَا مَرَّ وَاحدٌ عَلَى جَمَاعَةٍ فيهمْ مُسْلمُونَ – وَلَوْ وَاحدًا – وَكُفَّارٌ ، فَالسُّنَّةُ أَنْ يُسَلّمَ عَلَيْهمْ وَيَقْصدَ الْمُسْلمينَ أَو الْمُسْلمَ . لَمَا رَوَى أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُمَا . أَنَّ النَّبيَّ ﷺ مَرَّ عَلَى مَجْلسٍ فيه أَخْلاَطٌ منَ الْمُسْلمينَ وَالْمُشْركينَ عَبَدَة الأَوْثَان وَالْيَهُود فَسَلَّمَ عَلَيْهمُ النَّبيُّ ﷺ

رَدُّ السَّلاَم عَلَى أَهْل الذّمَّة : وَأَمَّا رَدُّ السَّلاَم عَلَى أَهْل الذّمَّة فَلاَ بَأْسَ به عنْدَ الْحَنَفيَّة ، وَهُوَ جَائزٌ أَيْضًا عنْدَ الْمَالكيَّة ، وَلاَ يَجبُ إلاَّ إذَا تَحَقَّقَ الْمُسْلمُ منْ لَفْظ السَّلاَم منَ الذّمّيّ ، وَهُوَ وَاجبٌ عنْدَ الشَّافعيَّة وَالْحَنَابلَة .

وَيَقْتَصرُ في الرَّدّ عَلَى قَوْله : وَعَلَيْكُمْ ، بالْوَاو وَالْجَمْع ، أَوْ : وَعَلَيْكَ ، بالْوَاو دُونَ الْجَمْع عنْدَ الْحَنَفيَّة وَالشَّافعيَّة وَالْحَنَابلَة ، لكَثْرَة الأَخْبَار في ذَلكَ.

فَمنْهَا مَا رُويَ عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَال : قَال رَسُول اللَّهِ – ﷺ – إذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْل الْكتَاب فَقُولُوا : وَعَلَيْكُمْ وَمنْهَا مَا رُويَ عَن ابْن عُمَرَ – رَضيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – أَنَّ رَسُول اللَّهِ – ﷺ – قَال : إذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ الْيَهُودُ فَإنَّمَا يَقُول أَحَدُهُمْ : السَّامُ عَلَيْكُمْ ، فَقُل : وَعَلَيْكَ .

وَعنْدَ الْمَالكيَّة يَقُول في الرَّدّ : عَلَيْكَ ، بغَيْر وَاوٍ بالإْفْرَاد أَو الْجَمْع. لَمَا وَرَدَ عَن ابْن عُمَرَ قَال : قَال

رَسُول اللهَّ – ﷺ – إنَّ الْيَهُودَ إذَا سَلَّمُوا عَلَيْكُمْ يَقُول أَحَدُهُمُ : السَّامُ عَلَيْكُمْ ، فَقُل : عَلَيْكَ وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى لَهُ قَال : عَلَيْكُمْ . بِالْجَمْعِ وَبِغَيْرِ وَاوٍ .

وَنَقَل النَّفْرَاوِيُّ عَن الأَجْهُورِيُّ قَوْلَهُ : إنْ تَحَقَّقَ الْمُسْلمُ أَنَّ الذِّمِّيَّ نَطَقَ بالسَّلاَم بفَتْح السّين ، فَالظَّاهرُ أَنَّهُ يَجبُ الرَّدُّ عَلَيْه ؛ لاحْتمَال أَنْ يَقْصدَ به الدُّعَاءَ .

مَنْ يَبْدَأُ بالسَّلاَم : يُسَلّمُ الرَّاكبُ عَلَى الْمَاشي ، وَالْمَاشي عَلَى الْقَاعد ، وَالْقَليل عَلَى الْكَثير ، وَالصَّغيرُ عَلَى الْكَبير .

لَمَا وَرَدَ في الصَّحيحَيْن عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَال : قَال رَسُول اللهَّ ﷺ يُسَلّمُ الرَّاكبُ عَلَى الْمَاشي وَالْمَاشي عَلَى الْقَاعد وَالْقَليل عَلَى الْكَثير وَفي روَايَةٍ للْبُخَاريّ زيَادَةُ : الصَّغيرُ عَلَى الْكَبير وَهَذَا الْمَذْكُورُ هُوَ السُّنَّةُ ، فَلَوْ خَالَفُوا فَسَلَّمَ الْمَاشي عَلَى الرَّاكب ، أَو الْجَالسُ عَلَيْهمَا لَمْ يُكْرَهْ ، وَعَلَى مُقْتَضَى هَذَا لاَ يُكْرَهُ ابْتدَاءُ الْكَثيرينَ بالسَّلاَم عَلَى الْقَليل ، وَالْكَبير عَلَى الصَّغير ، وَيَكُونُ هَذَا تَرْكًا لمَا يَسْتَحقُّهُ منْ سَلاَم غَيْره عَلَيْه ، وَهَذَا فيمَا إذَا تَلاَقَى الاثْنَان في طَريقٍ ، أَمَّا إذَا وَرَدَ عَلَى قُعُودٍ أَوْ قَاعدٍ ، فَإنَّ الْوَاردَ يَبْدَأُ بالسَّلاَم عَلَى كُل حَالٍ ، سَوَاءٌ كَانَ صَغيرًا أَوْ كَانَ كَبيرًا ، قَليلاً أَوْ كَثيرًا .

وَإذَا لَقيَ رَجُلٌ جَمَاعَةً فَأَرَادَ أَنْ يَخُصَّ طَائفَةً منْهُمْ بالسَّلاَم كُرهَ ؛ لأَنَّ الْقَصْدَ منَ السَّلاَم الْمُؤَانَسَةُ وَالأُلْفَةُ ، وَفي تَخْصيص الْبَعْض إيحَاشٌ للْبَاقينَ ، وَرُبَّمَا صَارَ سَبَبًا للْعَدَاوَة ، وَإذَا مَشَى في السُّوق أَو الشَّوَارع الْمَطْرُوقَة كَثيرًا وَنَحْوَ ذَلكَ ممَّا يَكْثُرُ فيه الْمُتَلاَقُونَ ، فَقَدْ ذَكَرَ الْمَاوَرْديُّ أَنَّ السَّلاَمَ هُنَا إنَّمَا يَكُونُ لبَعْض النَّاس دُونَ بَعْضٍ . قَال : لأَنَّهُ لَوْ سَلَّمَ عَلَى كُل مَنْ لَقيَ لَتَشَاغَل به عَنْ كُلِّ منْهُمْ ، وَلَخَرَجَ به عَنْ الْعُرْف .

اسْتحْبَابُ السَّلاَم عنْدَ دُخُول بَيْتٍ أَوْ مَسْجدٍ وَإنْ لَمْ يَكُنْ فيه أَحَدٌ : يُسْتَحَبُّ إذَا دَخَل بَيْتَهُ أَنْ يُسَلّمَ وَإنْ لَمْ يَكُنْ فيه أَحَدٌ وَلْيَقُل : السَّلاَمُ عَلَيْنَا وَعَلَى عبَاد اللهَّ الصَّالحينَ . وَكَذَا إذَا دَخَل مَسْجدًا أَوْ بَيْتًا لغَيْره فيه أَحَدٌ ، يُسْتَحَبُّ أَنْ يُسَلّمَ وَأَنْ يَقُول : السَّلاَمُ عَلَيْنَا وَعَلَى عبَاد اللهَّ الصَّالحينَ ، السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ أَهْل الْبَيْت وَرَحْمَةُ اللهَّ وَبَرَكَاتُهُ .

السَّلاَمُ عنْدَ مُفَارَقَة الْمَجْلس : إذَا كَانَ جَالسًا مَعَ قَوْمٍ ثُمَّ قَامَ ليُفَارقَهُمْ ، فَالسُّنَّةُ أَنْ يُسَلّمَ عَلَيْهمْ

لَمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَال : قَال رَسُول اللهِ ﷺ : إِذَا انْتَهَى أَحَدُكُمْ إِلَى مَجْلسٍ فَلْيُسَلّمْ ، فَإِنْ بَدَا لَهُ أَنْ يَجْلسَ فَلْيَجْلسْ ، ثُمَّ إِذَا قَامَ فَلْيُسَلّمْ ، فَلَيْسَتْ الأُولَى بِأَحَقَّ منَ الآخرَة

إلْقَاءُ السَّلاَم عَلَى مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ لاَ يَرُدُّ السَّلاَمَ : قَال النَّوَويُّ : إِذَا مَرَّ عَلَى وَاحدٍ أَوْ أَكْثَرَ وَغَلَبَ عَلَى ظَنّه أَنَّهُ إِذَا سَلَّمَ لاَ يَرُدُّ عَلَيْه ، إمَّا لتَكَبُّرِ الْمَمْرُور عَلَيْه وَإِمَّا لإِهْمَاله الْمَارَّ أَو السَّلاَمَ ، وَإِمَّا لغَيْر ذَلكَ فَيَنْبَغي أَنْ يُسَلّمَ وَلاَ يَتْرُكَهُ لهَذَا الظَّنّ ، فَإِنَّ السَّلاَمَ مَأْمُورٌ به ، وَالَّذي أُمرَ به الْمَارُّ أَنْ يُسَلّمَ وَلَمْ يُؤْمَرْ بأَنْ يُحَصّل الرَّدَّ ، مَعَ أَنَّ الْمَمْرُورَ عَلَيْه قَدْ يُخْطئُ الظَّنُّ فيه وَيَرُدُّ .

ثُمَّ قَال النَّوَويُّ : وَيُسْتَحَبُّ لمَنْ سَلَّمَ عَلَى إِنْسَانٍ وَأَسْمَعَهُ سَلاَمَهُ وَتَوَجَّهَ عَلَيْه الرَّدُّ بشُرُوطه فَلَمْ يَرُدَّ ، أَنْ يُحَلّلَهُ منْ ذَلكَ فَيَقُول : أَبْرَأْتُهُ منْ حَقّي في رَدّ السَّلاَم ، أَوْ : جَعَلْتُهُ في حلٍّ منْهُ وَنَحْوَ ذَلكَ ، وَيَلْفظُ بهَذَا ، فَإِنَّهُ يَسْقُطُ به حَقُّ هَذَا الآدَميّ .

وَيُسْتَحَبُّ لمَنْ سَلَّمَ عَلَى إِنْسَانٍ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْه أَنْ يَقُول لَهُ بعبَارَةٍ لَطيفَةٍ : رَدُّ السَّلاَم وَاجبٌ ، فَيَنْبَغي لَكَ أَنْ تَرُدَّ عَلَيَّ ليَسْقُطَ عَنْكَ فَرْضُ الرَّدّ .

السَّلاَمُ عنْدَ زيَارَة الْمَوْتَى : السَّلاَمُ عنْدَ زيَارَة النَّبيّ - ﷺ - وَصَاحبَيْه .

جاء في موسوعة الألباني في العقيدة : قلت: ومما يدخل في ذلك دخولاً أولياً ما هو مشاهد اليوم في المدينة المنورة، من قصد الناس دبر كل صلاة مكتوبة قبر النبي - ﷺ -: للسلام عليه والدعاء عنده وبه، ويرفعون أصواتهم لديه، حتى ليضج المسجد بهم، ولا سيما في موسم الحج حتى لكأن ذلك من سنن الصلاة! بل إنهم ليحافظون عليه أكثر من محافظتهم على السنن وكل ذلك يقع من مرأى ومسمع من ولاة الأمر، ولا أحد منهم ينكر، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ووَأَسَفًا على غربة الدين وأهله، وفي مسجد النبي - ﷺ - الذي ينبغي أن يكون أبعد المساجد بعد المسجد الحرام عما يخالف شريعته عليه الصلاة والسلام.

هذا، وقد سبق في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية أن بعض أهل العلم رخص في إتيان القبر الشريف للسلام عليه إذا دخل المسجد للصلاة ونحوها، وكأن ذلك يفيد عدم الإكثار والتكرار بدليل قوله عقب ذلك: «وأما قصده دائماً للصلاة والسلام فما علمت أحداً رخص فيه».

قلت: وهذا الترخيص الذي نقله الشيخ عن بعض أهل العلم هو الذي نراه ونعتمد عليه بشرط القيد المذكور، فيجوز لمن بالمدينة إتيان القبر الشريف للسلام عليه - ﷺ - أحياناً؛ لأن ذلك ليس من اتخاذه عيداً كما هو ظاهر، والسلام عليه وعلى صاحبيه مشروع بالأدلة العامة، فلا يجوز نفي المشروعية مطلقاً لنهيه - ﷺ - عن اتخاذ قبره عيداً، لإمكان الجمع بملاحظة الشرط الذي ذكرنا، ولا يخرج عليه أننا لا نعلم أن أحداً من السلف كان يفعل ذلك، لأن عدم العلم بالشيء لا يستلزم العلم بعدمه كما يقول العلماء، ففي مثل هذا يكفي لإثبات مشروعيته الأدلة العامة مادام أنه لا يثبت ما يعارضها فيما نحن فيه. على أن شيخ الإسلام قد ذكر في «القاعدة الجليلة» (ص ٨٠ طبع المنار) عن نافع أنه قال: كان ابن عمر يسلم على القبر، رأيته مائة مرة أو أكثر يجيئ إلى القبر فيقول: السلام على النبي - ﷺ -، السلام على أبي بكر، السلام على أبي، ثم ينصرف؛ فإن ظاهره أنه كان يفعل ذلك في حالة الإقامة لا السفر؛ لأن قوله «مائة مرة»، مما يبعد حمل هذا الأثر على حالة السفر.

السَّلاَمُ عنْدَ زيَارَة الْقُبُور : قَال الْقُرْطُبيُّ : زيَارَةُ الْقُبُور منْ أَعْظَم الدَّوَاء للْقَلْب الْقَاسي ؛ لأَنَّهَا تُذَكّرُ الْمَوْتَ وَالآْخرَةَ . وَذَلكَ يَحْمل عَلَى قصَر الأْمَل وَالزُّهْد في الدُّنْيَا وَتَرْك الرَّغْبَة فيهَا . وَتَذْكُرُ كُتُبُ السُّنَّة أَنَّ رَسُول اللهَّ ﷺ - كَانَ يَزُورُ الْقُبُورَ وَيُسَلّمُ عَلَى سَاكنيهَا ، وَيُعَلّمُ أَصْحَابَهُ ذَلكَ .

فَعَنْ بُرَيْدَةَ - ﷺ - قَال : كَانَ رَسُول اللهَّ - ﷺ- يُعَلّمُهُمْ إذَا خَرَجُوا إلَى الْمَقَابر ، فَكَانَ قَائلُهُمْ يَقُول : السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ أَهْل الدّيَار منَ الْمُؤْمنينَ وَالْمُسْلمينَ ، وَإنَّا إنْ شَاءَ اللهُّ بكُمْ لَلاَحقُونَ ، وَأَسْأَل اللهَّ لَنَا وَلَكُمُ الْعَافيَةَ.

وَعَنْ عَائشَةَ رَضيَ اللهُّ عَنْهَا قَالَتْ : كَانَ رَسُول اللهَّ - ﷺ - كُلَّمَا كَانَ لَيْلَتَهَا منْ رَسُول اللهَّ - ﷺ - يَخْرُجُ منْ آخر اللَّيْل إلَى الْبَقيع فَيَقُول : السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمنينَ ، وَأَتَاكُمْ مَا تُوعَدُونَ غَدًا مُؤَجَّلُونَ ، وَإنَّا إنْ شَاءَ اللهُّ بكُمْ لاَحقُونَ ، اللَّهُمَّ اغْفرْ لأَهْل بَقيع الْغَرْقَد.

قَوْل : " عَلَيْه السَّلاَمُ " عنْدَ ذكْر نَبيٍّ أَوْ رَجُلٍ منَ الصَّالحينَ : السَّلاَمُ عَلَى مَنْ ذُكرَ في الْغَيْبَة مَقْصُورٌ عَلَى الأَنْبيَاء وَالْمَلاَئكَة عنْدَ ذكْرهمْ ، مثْل قَوْلكَ : نُوحٌ عَلَيْه السَّلاَمُ أَوْ إبْرَاهيمُ عَلَيْه

السَّلاَمُ أَوْ جبْرِيل عَلَيْه السَّلاَمُ ، وَذَلكَ تَأَسّيًا بقَوْله تَعَالَى : { سَلاَمٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ } وَقَوْله : { سَلاَمٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ } وَقَوْله : { سَلاَمٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ } وَقَوْله : { سَلاَمٌ عَلَى إِل يَاسِينَ } نَعَمْ يَجُوزُ السَّلاَمُ عَلَى آلهمْ وَأَصْحَابهمْ تَبَعًا لَهُمْ دُونَ اسْتقْلاَلٍ

وَأَمَّا السَّلاَمُ عَلَى غَيْرهمْ منَ الْمُؤْمنينَ الصَّالحينَ اسْتقْلاَلاً فَمَنَعَهُ الشَّيْخُ أَبُو مُحَمَّدٍ الْجُوَيْنيُّ منَ الشَّافعيَّة ، وَقَال بأَنَّ السَّلاَمَ هُوَ فِي مَعْنَى الصَّلاَة فَلاَ يُسْتَعْمَل فِي الْغَائب ، فَلاَ يُفْرَدُ به غَيْرُ الأَنْبيَاء فَلاَ يُقَال : أَبُو بَكْرٍ عَلَيْه السَّلاَمُ وَلاَ عَليٌّ عَلَيْه السَّلاَمُ ، وَسَوَاءٌ فِي هَذَا الأَحْيَاءُ وَالأَمْوَاتُ ، وَأَمَّا الْحَاضرُ فَيُخَاطَبُ به فَيُقَال : سَلاَمٌ عَلَيْكَ أَوْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ أَو السَّلاَمُ عَلَيْكَ أَوْ عَلَيْكُمْ .

وَفَرَّقَ آخَرُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الصَّلاَة بأَنَّ السَّلاَمَ يُشْرَعُ فِي حَقّ كُل مُؤْمنٍ منْ حَيٍّ وَمَيّتٍ وَغَائبٍ وَحَاضرٍ ، وَهُوَ تَحيَّةُ أَهْل الإِسْلاَم ، بخلاَف الصَّلاَة فَإِنَّهَا منْ حُقُوق الرَّسُول – صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ – وَلهَذَا يَقُول الْمُصَلّي : السَّلاَمُ عَلَيْنَا وَعَلَى عبَاد الله الصَّالحينَ ، وَلاَ يَقُول : الصَّلاَةُ عَلَيْنَا

السَّلاَمُ الَّذي يَخْرُجُ به منَ الصَّلاَة : الْخُرُوجُ منَ الصَّلاَة لاَ يَكُونُ إلاَّ بالسَّلاَم عنْدَ الْمَالكيَّة وَالشَّافعيَّة وَالْحَنَابلَة ؛ لأَنَّ السَّلاَمَ رُكْنٌ منْ أَرْكَان الصَّلاَة عنْدَهُمْ – لقَوْله – ﷺ – مفْتَاحُ الصَّلاَة الطَّهُورُ وَتَحْريمُهَا التَّكْبيرُ ، وَتَحْليلُهَا التَّسْليمُ. أَمَّا الْحَنَفيَّةُ فَالسَّلاَمُ عنْدَهُمْ لَيْسَ رُكْنًا بَل هُوَ وَاجبٌ ، لأَنَّ الرَّسُول – ﷺ – لَمْ يُعَلّمْهُ الْمُسيءَ صَلاَتَهُ ، وَلَوْ كَانَ فَرْضًا لأَمَرَ به ؛ إذْ لاَ يَجُوزُ تَأْخيرُ الْبَيَان عَنْ وَقْت الْحَاجَة . فَالْخُرُوجُ منَ الصَّلاَة عنْدَهُمْ يَكُونُ بالسَّلاَم ، وَيَكُونُ بغَيْره منْ كُل عَمَلٍ أَوْ قَوْلٍ مُنَافٍ للصَّلاَة . وَقَدْ تَمَّتْ صَلاَتُهُ ، وَلاَ يَحْتَاجُ إلَى سَلاَمٍ.

هَذَا وَالسَّلاَمُ الَّذي يَخْرُجُ به منْ صَلاَة الْجنَازَة يَكُونُ بَعْدَ آخر تَكْبيرَةٍ .

وَالتَّسْليمُ : السَّلاَمُ ، وَسَلَّمَ الْمُصَلّي : خَرَجَ منَ الصَّلاَة بقَوْله : السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ . وَسَلَّمَ عَلَى الْقَوْم : حَيَّاهُمْ بالسَّلاَم ، وَسَلَّمَ : أَلْقَى التَّحيَّةَ ، وَسَلَّمَ عَلَيْه : قَال لَهُ : سَلاَمٌ عَلَيْكَ .

وَلاَ يَخْرُجُ مَعْنَى التَّسْليم فِي اصْطلاَح الْفُقَهَاء عَن الْمَعَاني الْمَذْكُورَة .

التَّسْليمُ للْخُرُوج منَ الصَّلاَة : التَّسْليمَةُ الأُولَى للْخُرُوج منَ الصَّلاَة حَال الْقُعُود فَرْضٌ عنْدَ الْمَالكيَّة وَالشَّافعيَّة وَالْحَنَابلَة . وَزَادَ الْحَنَابلَةُ فَرْضيَّةَ الثَّانيَة أَيْضًا إلاَّ فِي صَلاَة جنَازَةٍ وَنَافلَةٍ ؛ لأَنَّ

الجُزْءَ الأَخيرَ منَ الجُلُوس الَّذي يُوقَعُ فيه السَّلاَمُ فَرْضٌ .

وَلاَ بُدَّ منْ نُطْق : " السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ " بالْعَرَبيَّة بتَقْديم " السَّلاَم " وَتَأْخير " عَلَيْكُمْ " وَهَذَا للْقَادر عَلَى الْعَرَبيَّة ، وَلاَ يَكْفي الخُرُوجُ بالنّيَّة وَلاَ بمُرَادفهَا منْ لُغَةٍ أُخْرَى ، وَأَمَّا الْعَاجزُ عَن الْعَرَبيَّة فَيَجبُ عَلَيْه الخُرُوجُ بالنّيَّة قَطْعًا ، وَإنْ أَتَى بمُرَادفهَا بالْعَجَميَّة صَحَّ عَلَى الأَظْهَر ، قيَاسًا عَلَى الدُّعَاء بالْعَجَميَّة للْقَادر عَلَى الْعَرَبيَّة . وَالأَفْضَل كَوْنُ السَّلاَم مُعَرَّفًا بأَل . لخَبَر تحْريمُهَا التَّكْبيرُ وَتَحْليلُهَا التَّسْليمُ فَقَوْلُهُ : تَحْليلُهَا التَّسْليمُ أَيْ لاَ يَخْرُجُ منَ الصَّلاَة إلاَّ به ، وَلأَنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ يُسَلّمُ منْ صَلاَته عَنْ يَمينه : السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهَّ حَتَّى يُرَى بَيَاضُ خَدّه الأَيْمَن ، وَعَنْ يَسَاره : السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهَّ حَتَّى يُرَى بَيَاضُ خَدّه الأَيْسَر .

وَلحَديث عَامر بْن سَعْدٍ عَنْ أَبيه قَال : كُنْتُ أَرَى النَّبيَّ ﷺيُسَلّمُ عَنْ يَمينه وَعَنْ يَسَاره حَتَّى أَرَى بَيَاضَ خَدّه وَلأَنَّهُ صَلَّى اللهَّ عَلَيْه وَسَلَّمَ كَانَ يُديمُ ذَلكَ وَلاَ يُخل به وَقَال : صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُوني أُصَلّي .

وَأَقَل مَا يُجْزئُ في التَّسْليم عنْدَ الشَّافعيَّة وَالحَنَابلَة قَوْلُهُ : " السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ " مَرَّةً عنْدَ الشَّافعيَّة ، وَمَرَّتَيْن عنْدَ الحَنَابلَة كَمَا سَبَقَ ، وَأَكْمَلُهُ " السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهَّ " يَمينًا وَشمَالاً مُلْتَفتًا في الأُولَى حَتَّى يُرَى خَدُّهُ الأَيْمَنُ ، وَفي الثَّانيَة حَتَّى يُرَى خَدُّهُ الأَيْسَرُ ، نَاويًا السَّلاَمَ عَمَّنْ عَنْ يَمينه وَيَسَاره منْ مَلاَئكَةٍ وَإنْسٍ وَصَالح الجْنّ .

وَقَال الحَنَفيَّةُ : الخُرُوجُ منَ الصَّلاَة بلَفْظ السَّلاَم لَيْسَ فَرْضًا ، بَل هُوَ وَاجبٌ . لأَنَّ ﷺ لَمَّا عَلَّمَ ابْنَ مَسْعُودٍ رَضيَ اللهَّ عَنْهُ التَّشَهُّدَ قَال لَهُ : إذَا قُلْتَ هَذَا فَقَدْ قَضَيْتَ صَلاَتَكَ ، إنْ شئْتَ أَنْ تَقُومَ فَقُمْ وَإنْ شئْتَ أَنْ تَقْعُدَ فَاقْعُدْ فَلَمْ يَأْمُرْهُ بالخُرُوج منَ الصَّلاَة بالسَّلاَم ، وَأَيْضًا فَإنَّ الْفَرْضَ في آخر الصَّلاَة هُوَ الْقُعُودُ بمقْدَار التَّشَهُّد عنْدَهُمْ . لخَبَر أَنَّ رَسُول اللهَّ ﷺ قَال : إذَا أَحْدَثَ – يَعْني الرَّجُل – وَقَدْ جَلَسَ في آخر صَلاَته قَبْل أَنْ يُسَلّمَ فَقَدْ جَازَتْ صَلاَتُهُ . وَالْوَاجبُ عنْدَهُمْ تَسْليمَتَان : الأُولَى عَنْ يَمينه ، فَيَقُول : " السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهَّ " وَيُسَلّمُ عَنْ يَسَاره كَذَلكَ لمَا رَوَى ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ يُسَلّمُ عَنْ يَمينه حَتَّى يَبْدُوَ بَيَاضُ خَدّه وَعَنْ يَسَاره حَتَّى

يَبْدُوَ بيَاضُ خَدّه .

وَأَقَل مَا يُجْزِئُ فِي لَفْظ السَّلاَم مَرَّتَيْن عنْدَ الْحَنَفيَّة " السَّلاَمُ " دُونَ قَوْله " عَلَيْكُمْ " . وَأَكْمَلُهُ وَهُوَ السُّنَّةُ أَنْ يَقُول : " السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ الله " مَرَّتَيْن . وَتَنْقَضي الصَّلاَةُ بالسَّلاَم الأْوَّل عنْدَ الْحَنَفيَّة

الجحود

اخبر الحديث عن قضية القدر وإثبات صفة اليد لله تعالى واشرنا إلى ذلك عندما فسرنا قوله تعالى [خلقت بيديّ]، ونتكلم عن الجحود ، فالحديث بين جحود ادم عليه السلام حين تطوع بستين سنة لابنه النبي داود ثم انكر أنه فعل ذلك ، فعاش تلك السنوات .

عَن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِه كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِه إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَة وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبِيصًا مِنْ نُورٍ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ فَقَالَ أَيْ رَبِّ مَنْ هَؤُلَاء قَالَ هَؤُلَاء ذُرِّيَّتُكَ فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْه فَقَالَ أَيْ رَبِّ مَنْ هَذَا فَقَالَ هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ دَاوُدُ فَقَالَ رَبِّ كَمْ جَعَلْتَ عُمْرَهُ قَالَ سِتِّينَ سَنَةً قَالَ أَيْ رَبِّ زِدْهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً فَلَمَّا قُضِيَ عُمْرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْت فَقَالَ أَوَلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً قَالَ أَوَلَمْ تُعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدَ قَالَ فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ وَنُسِّيَ آدَمُ فَنُسِّيَتْ ذُرِّيَّتُهُ وَخَطِئَ آدَمُ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَفِي هَذَا الْحَدِيث دَلِيلٌ بَيِّنٌ عَلَى أَنَّ إِخْرَاجَ الذُّرِّيَّة كَانَ حَقِيقِيًّا

(وَبِيصًا) أَيْ: بَرِيقًا وَلَمَعَانًا (مِنْ نُورٍ) : وَفِي ذِكْرِه إِشَارَةٌ إِلَى الْفِطْرَة السَّلِيمَة، وَفِي قَوْلِه: (بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ) إِيذَانٌ بِأَنَّ الذُّرِّيَّةَ كَانَتْ عَلَى صُورَةِ الْإِنْسَان عَلَى مِقْدَار الذَّرِّ، («ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ، فَقَالَ أَيْ رَبِّ، مَنْ هَؤُلَاء؟ قَالَ») تَعَالَى: هُمْ («ذُرِّيَّتُكَ. فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْه، قَالَ») : بِغَيْرِ الْفَاء (أَيْ رَبِّ! مَنْ هَذَا؟ قَالَ) : تَعَالَى (هُوَ دَاوُدُ) : قِيلَ: تَخْصِيصُ التَّعَجُّب مِنْ وَبِيص دَاوُدَ إِظْهَارٌ لِكَرَامَته، وَمَدْحٌ لَهُ، فَلَا يَلْزَمُ تَفْضِيلُهُ عَلَى سَائِر الْأَنْبِيَاء؛ لِأَنَّ الْمَفْضُولَ قَدْ يَكُونُ لَهُ مَزِيَّةٌ، بَلْ مَزَايَا لَيْسَتْ فِي الْفَاضِل، وَلَعَلَّ وَجْهَ الْمُلَاءَمَة بَيْنَهُمَا اشْتِرَاكُ نِسْبَة الْخِلَافَة (فَقَالَ: رَبِّ) : وَفِي نُسْخَةٍ صَحِيحَةٍ أَيْ رَبِّ (كَمْ جَعَلْتَ عُمُرَهُ؟) : بِضَمِّ الْعَيْن، وَالْمِيم، وَقَدْ تُسَكَّنُ، وَكَمْ مَفْعُولٌ لِمَا بَعْدَهُ، وَقُدِّمَ لِمَا لَهُ الصَّدْرُ أَيْ: كَمْ سَنَةً جَعَلْتَ عُمُرَهُ (قَالَ: سِتِّينَ سَنَةً. قَالَ: رَبِّ زِدْهُ مِنْ عُمُرِي) أَيْ: مِنْ جُمْلَة الْأَلْف، وَمِنْ عُمُرِي صِفَةُ أَرْبَعِينَ قُدِّمَتْ فَعَادَتْ حَالًا، وَقَوْلُهُ: (أَرْبَعِينَ سَنَةً) مَفْعُولٌ ثَانٍ لِقَوْله: كَقَوْله تَعَالَى: {رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه: ١١٤] قَالَ

أَبُو الْبَقَاء: زَادَ يُسْتَعْمَلُ لَازِمًا كَقَوْله: زَادَ الْمَاءُ، وَيُسْتَعْمَلُ مُتَعَدّيًا إِلَى مَفْعُولَيْن كَقَوْله: زِدْتُهُ دِرْهَمًا، وَعَلَى هَذَا جَاءَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا) كَذَا ذَكَرَهُ الطِّيبِيُّ. قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ مُتَعَدّيًا لِوَاحِدٍ كَزَادَ الْمَالُ دِرْهَمًا. .. (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: («فَلَمَّا انْقَضَى عُمُرُ آدَمَ إِلَّا أَرْبَعِينَ») أَيْ: سَنَةً كَمَا فِي نُسْخَةٍ («جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْت، فَقَالَ آدَمُ: أَوَلَمْ يَبْقَ») : بِفَتْح الْيَاء، وَالْقَاف (مِنْ عُمُرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ !) : بِهَمْزَة الِاسْتِفْهَام الْإِنْكَارِيّ الْمُنْصَبّ عَلَى نَفْيِ الْبَقَاء فَيُفِيدُ إِثْبَاتَهُ، وَقُدّمَتْ عَلَى الْوَاو لِصَدَارَتِهَا، وَالْوَاوُ اسْتِئْنَافِيَّةٌ لِمُجَرَّد الرَّبْط بَيْنَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا. فَإِنْ قُلْتَ: مَا الْفَرْقُ بَيْنَ انْقَضَى عُمُرُهُ إِلَّا أَرْبَعِينَ، وَبَيْنَ بَقِيَ مِنْ عُمُر آدَمَ أَرْبَعُونَ؟ قُلْتُ: فِي الِاسْتِثْنَاء تَوْكِيدٌ لَيْسَ فِي غَيْرِه قَالَهُ الطِّيبِيُّ، قُلْتُ: لِأَنَّ غَيْرَهُ يَحْتَمِلُ الْأَكْثَرَ، وَهُوَ نَصٌّ فِي بَقَاء الْأَرْبَعِينَ كُلّهَا، كَقَوْله تَعَالَى: {فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا} [العنكبوت: ١٤] مَعَ زِيَادَة الْإِفَادَة فِي الْآيَة مِنَ الْأَقْرَبِيَّة إِلَى الضَّبْط وَالدَّلَالَة عَلَى الْعَدَد الْمَشْهُور فِي الْكَثْرَة، وَالْإِشَارَة إِلَى جَوَاز إِلْغَاء الْكَسْر كَمَا هُوَ جَارٍ عَلَى أَلْسِنَة الْعَامَّة (قَالَ: أَوَلَمْ تُعْطِهَا) أَيْ: أَتَقُولُ ذَلِكَ، وَلَمْ تُعْطِهَا أَي: الْأَرْبَعِينَ (ابْنَكَ) : مَفْعُولٌ ثَانٍ (دَاوُدَ؟ !) ، بَدَلٌ، أَوْ عَطْفُ بَيَانٍ (فَجَحَدَ آدَمُ) أَيْ: ذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ فِي عَالَمِ الذَّرّ فَلَمْ يَسْتَحْضِرْهُ حَالَةَ مَجِيء مَلَك الْمَوْت لَهُ قَالَهُ ابْنُ حَجَرٍ.

(فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ) : لِأَنَّ الْوَلَدَ سِرُّ أَبِيه (وَنَسِيَ آدَمُ) : إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْجَحْدَ كَانَ نِسْيَانًا أَيْضًا إِذْ لَا يَجُوزُ جَحْدُهُ عِنَادًا (وَأَكَلَ مِنَ الشَّجَرَة) قِيلَ: نَسِيَ أَنَّ النَّهْيَ عَنْ جِنْس الشَّجَرَة، أَو الشَّجَرَة بِعَيْنِهَا فَأَكَلَ مِنْ غَيْرِ الْمُعَيَّنَة، وَكَانَ النَّهْيُ عَنِ الْجِنْس، وَاللَّهُ أَعْلَمُ (فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ) : وَلِذَا قِيلَ: أَوَّلُ النَّاس أَوَّلُ النَّاسِي (وَخَطِئَ) : بِفَتْح الطَّاء أَيْ: فِي اجْتِهَادٍ مِنْ جِهَة التَّعْيِين، وَالتَّخْصِيص، (وَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ) : وَالْأَظْهَرُ أَنَّ خَطِئَ بِمَعْنَى عَصَى؛ لِقَوْله تَعَالَى {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ} [طه: ١٢١] وَلِقَوْله - عَلَيْه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: " «كُلُّكُمْ خَطَّاءُونَ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ» ". قَالَ الطِّيبِيُّ: وَفِي الْحَدِيث إِشَارَةٌ إِلَى مَا نَقَلَهُ الشَّيْخَان: «يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَيَشِبُّ فِيه اثْنَان: الْحِرْصُ عَلَى الْمَال، وَالْحِرْصُ عَلَى الْعُمُر، وَابْنُ آدَمَ وَارِدٌ عَلَى سَبِيل الِاسْتِطْرَاد، وَابْنُ آدَمَ مَجْبُولٌ مِنْ أَصْل خِلْقَته عَلَى الْجَحْد وَالنّسْيَان، وَالْخَطَأ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ» . (رَوَاهُ التّرْمِذِيُّ) .

وختاما أقول : العبر والعظات والفوائد لا تنتهي من قصة آدم ؛ وإنما هذه الصفحات بعض منها ، نسأله تعالى قبول هذا الجمع والنقل ، وأن يضع له القبول بين عباده .

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين .

المحتويات

الفهرست

الفهرست

الفهرست

الفهرست

القرآن والتفسير

قصة

النبي الأول آدم

جمال شاهين

منشورات المكتبة الخاصة